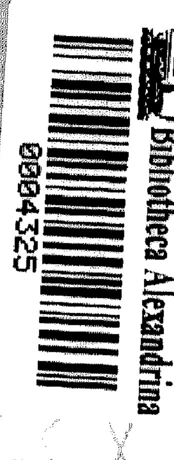
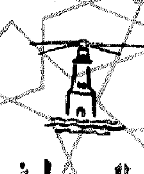
تاريخ
الأدب
العربى
٣

دكتور شوقى ضيف

العصر العبّاسىّ الأول





دار المعارف



العصر العباسي الأول



تاريخ
الأدب العربي
٣

العصر العبّاسىّ الأول

تأليف
الدكتور شوقى ضيف

الطبعة العاشرة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الجزءُ من تاريخ الأدب العربى خاصٌّ بالعصر العباسى الأول ، وكان طبيعيًّا أن أبدأ فيه بدراسة الحياة العباسية التى فَرَضَتْ نفسها على الأدباء العباسيين فَرْضًا ، سواء الحياة السياسية وما كان يَجْرى فيها من نُظُم وظروف وأحداث مختلفة ، أو الحياة الاجتماعية وما كان يَشيع فيها من تحضر وترف وشغف بالغناء وإغراق فى المجون وزندقة وزهد ونسك ، أو الحياة العقلية وما التحم بها من ترجمة الثقافات الأجنبية ونشاط الحركة العلمية ونَقْل علوم الشعوب المستعربة ووضْع العلوم اللغوية والتاريخ والعلوم الدينية والكلامية .

وقد بسطتُ القولَ فى ازدهار الشعر العربى حينئذ ازدهاراً رائعاً ، إذ أكبَّ الشعراء على العربية يتقنونها ويتمثلون ملكتها وسليقتها تمثلاً دقيقًا ، نافذين بذوقهم المتحضِّر إلى أسلوب مصفَّى يجمع حيناً بين الجزالة والرصانة ، وحينًا يجمع بين الرقة والعذوبة . وكان تأثرهم عميقًا بالثقافات المترجمة وبما كانوا يستمعون إليه من محاورات المعتزلة مما أثار فى عقولهم ونفوسهم كثيراً من المعانى والخواطر التى لا تكاد تُحْصَى ، ودفعهم إلى التطور بموضوعات الشعر الموروثة تطوراً نلمس فيه روح العصر وخصب الفكر ورهافة الشعور ، وأضافوا إليها موضوعات جديدة بما نفذوا إليه من تحليل المعانى والملاءمة بين أشعارهم وبيئاتهم المتحضرة وحياتهم اليومية . وفتحوا صفحة لم تكن تَخْطر لأسلافهم على بال ، هى صفحة الشعر التعليمى الذى صاغوا فيه من المعارف والتاريخ والأمثال والقصص الحيوانى منظومات طريفة . واكتشفوا للشعر أوزانًا لم تكن معروفة وأنماطًا من القوافى كانت مجهولة .

ودرستُ دراسةً نقدية تاريخية أعلام الشعر فى العصر ، وهم بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام ، وحاولتُ أن أرسم شخصياتهم الأدبية وأثرهم فى تطور الشعر العربى وتجديده ، فأما بشار فسَنَّ للشعراء أن يزاوجوا مزاوجة

دقيقة بين عناصر الشعر التقليدية وعناصره التجديدية ، بحيث يتدافع فيه تيار القديم الموروث دون تعويق لتيار الجديد المستحدث وسيوله الحضارية والاجتماعية والعقلية. وكان تأثير هذه السيول فى أبى نواس أشد عمقًا وأكثر حدّة ، فتعمق مذاهب المتكلمين وأسرف على نفسه فى اللهو والمجون . وعكف أبو العتاهية على الحكمة الفارسية والهندية واليونانية عكوفًا أفضى به إلى تنويع واسع فى أشعار الزهد والمواعظ والأمثال . وجذب مسلم بن الوليد الشعراء إلى أبنية الشعر المحكمة الشامخة مع التدقيق الشديد فى المعانى والإكثار من ألوان البديع . أما أبو تمام فامتزج الشعر عنده بالفلسفة امتزاجًا رائعًا ، بحيث أصبح مَعْرِضًا باهرًا لطرائف البديع وطرائف المعانى والأخيلة البارعة .

ووراء هؤلاء الأعلام كثيرون كان لكل منهم دور فى تطور الشعر فى العصر تطورًا يتفاوت قوة وضعفًا ، مما دفعنى إلى رسم موجز لشخصياتهم وخصائصهم ، ووَضْعهم فى فصائل متقابلة ، والتمستُ لكل فصيلة صفوةَ مَنْ يمثّلونها ، فللسياسة ممثلوها ، وكذلك للمديح والهجاء والغزل والمجون والزندقة والزهد والنسك والاعتزال والنزعات الشعبية .

وانتقلتُ أدرس النثر وما حدث من تطوره وكثرة فنونه بتأثير ما ثقّفه الوعّاظ والمتكلمون والكتّاب من كنوز الثقافات والآداب الأجنبية . وقد نشطت الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ووعّاظ وقَصص وقُصّاص . ونفذ المتكلمون إلى فن نثرى مستحدث هو فن المناظرات ، ونمّوه ورقوا به رقيًّا بعيدًا . وازدهر النثر الديوانى وكلُّ ما اتصل به من رسائل سياسية ومن عهود ووصايا وتوقيعات ، وحبّر الكتّاب كثيرًا من الرسائل الإخوانية البديعة متناولين فيها الأغراضَ التى كان ينظم فيها الشعراء والتى تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم ، ودبّج نَفَرٌ منهم رسائلَ أدبية خالصة حلّلوا فيها النفس الإنسانية وأهواءها وسلوكها حينًا ، وحينًا حاكوا قَصص كليلة ودمنة قاصدين بمحاكاتهم إلى التربية السياسية والاجتماعية .

وعُنيت برسم شخصيات أعلام الكتّاب فى العصر وآثارهم الأدبية ، وهم ابن المقفع وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وابن الزيات ، فأما ابن المقفع فنقل إلى العربية أروع ما تحمل لغته من ذخائر فارسية وغير فارسية ،

وكَتَبَ رسائل إخوانية وأدبية بديعة . وافتنَّ سهل بن هرون فى كتابة رسائل قصصية وأخرى أدبية وإخوانية مع العناية بالازدواج وجمال الجرس والأداء . وبرَع أحمد بن يوسف فى كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية مُضْفياً على أساليبه كل ما يستطيع من صور التنميق . وحرص عمرو بن مسعدة على التأنق والاقتصاد المسرف فى التعبير . ولم يكن ابن الزيات يتأنَّق فى كتاباته ، غير أنه كان يُعْنَى بِحُسْنِ القول وجزالة اللفظ ورصانته . والله أسأل أن يُلْهِمَنى السَّداد والإخلاص فى الفكر والقول والعمل ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

شوقى ضيف

القاهرة فى أول ديسمبر سنة ١٩٦٦ م



الفصل الأول

الحياة السياسية

١

الثورة العباسية

تُعَدّ هذه الثورة نهاية الثورات الكثيرة التى نشبت ضد بنى أمية ، وهى ثورات أراد بها أصحابها إلى الإصلاح الاجتماعى ، ومنهم من كان يتخذ إلى ذلك طريق الرِّفْق على نحو ما هو معروف عن جماعة الفقهاء ، وأكثرهم كان يتخذ طريق العنف يريد أن يمحو سلطان الأمويين محواً على نحو ما كان يريد ابن الزبير والخوارج والشيعة وابن الأشعث ويزيد بن المهلب . وقد شهر هؤلاء الثائرون السلاح فى وجوههم مراراً ، كانت تتعرض فيها دولتهم للخطر أيما تعرض غير أنهم استطاعوا دائماً أن يكبحوا جماح الثائرين خائضين إلى ذلك بحاراً من الدماء ، متخذين من القضاء على كل ثائر وأنصاره نكالا لكل مَنْ يحاول الثورة على نظمهم السياسية والاجتماعية .

وقد انتهت ثورات ابن الزبير وابن الأشعث ويزيد بن المهلب بمجرد الفتك بهم وبأنصارهم ، أما ثورة الخوارج ، ومثلها ثورة الشيعة، فظلت تشتعل من حين إلى حين فى العراق وجنوبيه وشماليه وما وراءه من الشرق . وكانوا كلما قضوا على ثورة وقتلوا منها مقتلة عظيمة هَبّت ثورة ثانية . وكلفتهم ثورات الخوارج خاصة جهوداً هائلة ، إذ كانوا لا يستيئسون أبداً ، وكان قد استقر فى نفوسهم أن الأمويين نهبوا السلطان من الأمة وينبغى أن يعود إليها بحيث تتحقق المساواة بين أفرادها وبحيث يعم العدل الذى لا تستقيم حياة الناس بدونه . وقد مضوا يجاهدون الأمويين جهاداً عنيفاً ، لا يصانعون فيه ولا يداهنون ، بل يشهرون سيوفهم باذلين أرواحهم فى سبيل عقيدتهم ، وكلما هُزمت منهم طائفة امتشقت الحسام طائفة أخرى ، فقد باعوا أنفسهم لله ودينه الحنيف يقاتلون فى سبيله، فيَقْتلون من خالفوا

الطريق السويّ فى رأيهم ويُقتَلُون راضين . وأهم ثورات الشيعة المسلحة ثورة المختار الثقفى بالكوفة ، وقد تكفّل مصعب بن الزبير حين كان واليًا لأخيه على العراق بالقضاء عليها قضاء مبرمًا . ولم تقم للشيعة بعده قائمة حتى كانت ثورة زيد ابن على زين العابدين فى أول العقد الثالث من القرن الثانى ، وقد انتهت بإخفاق ذريع ، ولم يلبث ابنه يحيى أن قُتل على أثره ، كما قُتل بعده بقليل عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب .

وكانت تنضم إلى كل هذه الثورات فئات من الموالى الذين اضطهدهم بنو أمية ، وحرموهم المساواة بالعرب فى الحقوق ، مخالفين نظرية الإسلام وما يدعو إليه من التسوية المطلقة بين العرب وغير العرب فى الضرائب وغير الضرائب وقد احتملوا فى ذلك ألوانًا من البؤس الذى يُطاق والذى لا يُطاق . فكان طبيعيًّا أن تكثر مطالبتهم بالعدل الاجتماعى وأن يطمحوا إلى حكّام جُدُدٍ يُقرُّون فيهم مبادئ الإسلام الذى يوجب المساواة بين أفراد الأمة فى جميع الواجبات المالية وغير المالية والذى ينكر الظلم أشد الإنكار ، كما ينكر أن تستغل طبقة من الأمة بعض الطبقات فيها لمآربها العاجلة . وقد وضعت كثرتهم آمالها فى أبناء على وأسرته الهاشمية لما تميز به حكمه من مساواة تامة بين العرب والموالى بحيث أصبحوا شيعتهم ، غير أنهم فقدوا فى أسرة على وأبنائه وأحفاده الشخص الحصيف الجرىء الذى يستطيع تنظيم ثورتهم بحيث يُكتَبُ لها النجاح .

وعرف ذلك فيهم أبناء عمومتهم العباسيون ، ولكن كيف يلون هذه الزعامة ، والشيعة من حولهم ينضوون تحت ألوية أبناء علىّ وحدهم دون مَنْ سواهم من الهاشميين؟ لقد أخذوا يفكرون فى ذلك ، ولم يلبثوا أن نفذوا إلى أمنيتهم المبتغاة عن طريق فرقة الكيسانية الشيعية التى تكونت حول ابن الحنفية ، فقد استوطن ابنه أبو هاشم — الذى ورث عنه زعامة هذه الفرقة وإمامتها — بلدة الحُمَيْمَة ببلقاء الشام ونزلها معه على بن عبد الله بن العباس وأسرته ، وسرعان ما توثقت الصلة بين ابنه محمد وبين أبى هاشم ، ورأى فيه أبو هاشم خير خلف له على جماعته ، فلما حضرته الوفاة سنة ثمان وتسعين للهجرة أوصى له وصية صريحة بالإمامة من بعده . وبذلك وجد محمد ركيزة يعتمد عليها فى إثبات حقه فى الخلافة ، وكان حصيف الرأى بعيد

النظر ، فعمد تَـوًّا إلى تنظيم الدعوة العباسية سرًّا من مقرّه فى الُحمَيْمة متخذاً من الكوفة دار التشيع ومستقره مهداً لها ومركزاً[١] ، ووضع خطة تنظيمها هناك فى يد ميسرة ، وجعل له الإشراف على الدعوة بخراسان حيث كان الموالى هناك يمتلئون سخطًا وموجدة على الأمويين الذين كانوا لا يزيلون عنهم ظلمًا إلا ليقيموا مكانه ظلمًا أشد عنفًا . وقد اتخذ دعاته هناك من التجار وكانوا أخلاطًا من عرب وموال ، فمضوا يثيرون الناس هناك ضد بنى أمية مصورين ما ينبغى أن يسود فى الأرض من العدل وإزالة الظلم ، ومات ميسرة سنة ١٠٥ فأقام محمد بن على مكانه بُكَيْر[٢] بن ماهان ، وكان لا يقل عن سلفه دهاء ونهوضًا بعظائم الأمور ، فوثّق الدعوة ونظمها بخراسان خير تنظيم . وتوفى الإمام محمد بن على سنة ١٢٥ عاهداً بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم فارتضاه الدعاة وتوفّى على إثره بكير فخلفه على الدعوة صهره أبو سَلَمة[٣] الخلال ، فجدّ فى الأمر وجدّ معه الدعاة .

وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك قد ولى الخلافة ، وكان مدمنًا للخمر منادمًا للفُسّاق والمغانى ، وكأنما كان إشارة الوقت لما أدرك الخلافة الأموية من ضعف وفساد ، فاستغل ذلك أيما استغلال دعاة أبى سلمة فى خراسان ، فقد بدا فى وضوح فساد الحكم كما بدا فساد النظم الاجتماعية التى رزح الموالى تحت أثقالها الباهظة . وتراءى حينئذ فى الأفق أن سلطان البيت الأموى يؤذن بالسقوط ، لا لما انتشر فيه من فساد الترف فحسب ، بل أيضًا لما نشب من خلاف عنيف بين أفراده ، إذ لم يلبثوا أن قتلوا الوليد وأخذوا يتطاحنون على عرش الخلافة تطاحنًا مرًّا ، وتغلّب بأخرة مروان بن محمد ، غير أنهم نابذوه وثاروا ضده ، وانتهز الخوارج الفرصة ، فنازلوه فى الموصل وفى اليمن والحجاز .

وفى هذه الأثناء تولى أبو مسلم الخراسانى قيادة[٤] الدعوة فى موطنه ، وكان من دهاة الرجال ومن أكفئهم فى النهوض بجلائل الأعمال ، فأخذ يصور للناس فساد الحكم الأموى وما يسومهم به من خسف وظلم وكيف أنه سيملكهم الأرض ويجعلهم

---

(١) انظر فى تنظيم الدعوة العباسية ڤلهوزن فى كتابه تاريخ الدولة العربية وسقوطها (ترجمة أبى ريدة) ص ٤٧٨ وما بعدها .

(٢) تاريخ الدولة العربية ص ٤٨٠ والطبرى (طبع مطبعة الاستقامة بالقاهرة) ٣٧٦/٥ .

(٣) ڤلهوزن ص ٤٨٦ وما بعدها والطبرى ٦٢٢/٥ .

(٤) ڤلهوزن ص ٤٩١ .

سادة بعد أن كانوا عبيداً مسترقّين والناس يسمعون له ويحفّون به وينضمون إلى دعوته حتى كثف جمعهم وحتى غدا نزاله لنصر بن سيار والى الأمويين هناك قاب قوسين أو أدنى . غير أنه رأى أن يتمهل قليلا قبل أن يبدأ مغامرته الخطيرة متخذاً لها من الأسباب ما يكفل النجاح المحقق ، ولم يلبث أن عمد — بدهائه — إلى الإيقاع بين الكرماني ومَنْ معه من القبائل اليمنية وبين نصر بن سيار ومن معه من القبائل المضرية ، واشتعلت الحروب بين الفئتين ، وسُفك فيها كثير من الدماء . حتى إذا وهنت قوة نصر أعلن أبو مسلم الثورة عليه وعلى مَنْ وراءه من الأمويين ، وأخذت رايات العباسيين السوداء تخفق فوق جنوده ، وحواضر خراسان تسقط — واحدة إثر أخرى — في يده . ويستصرخ نصر بن سيار مروان بن محمد وابن هبيرة واليه على العراق أن يمداه بالنجدات ، ولكنهما كانا في شُغل عنه بثورات الخوارج في العراق وغير العراق ، ويموت كمداً بين الري وهمذان . وتتقدم جيوش أبي مسلم بقيادة قحطبة وابنه الحسن مستخلصة المدن والحصون مدينة مدينة وحصناً حصناً ، وما تلبث أن تقتحم العراق ويسرع ابن هبيرة للقائها عبر الفرات ، ويحاول قحطبة أن يتجنبه متجهاً إلى الكوفة ، ثم يلتقي به فتدور عليه — كما دارت على نصر بن سيار من قبله — الدوائر ، فينحاز بجيشه إلى واسط . ويُقْتَل قحطبة في ظروف غامضة ، ويتولى القيادة بعده ابنه الحسن ويدخل الكوفة دون أن يلقى أي مقاومة ، وحينئذ تبرز إلى النور حكومة بني العباس السرية وعلى رأسها أبو سلمة الخلال .

وكان مروان بن محمد قد قبض — قبل دخول الحسن بن قحطبة الكوفة بوقت قصير — على إبراهيم بن محمد الإمام ، إذ عرف أنه هو الذي يدبر هذه الثورة من مقره في الحميمة ، وعرف إبراهيم أنه قاتله ، فعهد بالأمر من بعده إلى أخيه أبي العباس السفاح . وقُتل إبراهيم ، ونقلت الأنباء إلى أبي العباس دخول الحسن ابن قحطبة الكوفة ، فخرج إليها في أهله يتقدمهم أعمامه : داود وعيسى وصالح وعبد الله وإسماعيل وعبد الصمد ، وأخوه أبو جعفر ، وابن عمه عيسى بن موسى ابن محمد .

وظل العباسيون — طوال المدة السرية لدعوتهم — لا يذكرون للناس أنهم طلاّب خلافة ، إنما يذكرون لهم أنهم يطلبون إسقاط الدولة الأموية الجائرة التي

طالما أرهقتهم بعسفها وظلمها وطالما احتكرتهم لمآربها وشهواتها مع الاستبداد بالشعب واستعباده ومع ما يعيش فيه الأمويون من ترف بالغ أفسد أداة الحكم إفساداً لا صلاح لها بعده إلا بمحوهم محواً . وبذلك وارى العباسيون أشخاصهم وقدموا القضية التى نصبوا أنفسهم للدفاع عنها ، قضية نصرة الحكم الصالح ونصرة الحق والعدل على الباطل والظلم المتصل . ولكى يحكموا خطتهم كانوا لا يأخذون البيعة لأنفسهم بالخلافة ، إنما يأخذونها لإمام رِضاً [١] من آل البيت النبوى ، حتى لا يثيروا أبناء عمهم العلويين عليهم ، بل حتى يجمعوهم تحت لوائهم . وكانوا يشيعون دائماً أنهم نهضوا لهذا الأمر كى يثأروا للشهداء من أبناء فاطمة الزهراء .

وكان أبو سلمة الخلال الذى لقبوه بلقب « وزير آل محمد » يرى أن يختار للخلافة أحد أحفاد على بن أبى طالب ، ومن أجل ذلك أخفى أمر أبى العباس وأهله حين نزلوا الكوفة وعزلهم عزلا تاماً عن جند خراسان ، غير أن أبا العباس استطاع الاتصال بأبى مسلم إذ وجَّه إليه مَنْ أطلعه على نوايا أبى سلمة ، فأرسل إليه وفداً من زعماء الدعوة بخراسان سلموا عليه بالخلافة ، واضطُرَّ أبو سلمة اضطراراً أن يعلن تأييده [٢] له ، واتجه أبو العباس تَوّاً إلى المسجد الجامع فى الكوفة ، فبايعه الناس ، وارتقى المنبر ، فاشرأبَّت إليه الأعناق وأصغت إليه الآذان ، فإذا هو يحتج بآى القرآن الكريم على أن بيته العباسى أحق بالخلافة من بيت العلويين . وكان متوعكاً فانقطع عن متابعة الكلام ، وتابعه عمه داود متحدثاً باسمه ومؤكداً فضل الخراسانيين فى تحرير الأمة من نير الأمويين [٣] ، ومن حكمهم الباغى الفاسد . ولم يطمئن أبو العباس لمقامه فى الكوفة ، دار العلويين من قديم ، فتحول عنها إلى معسكر الخراسانيين ، ثم فارقه إلى الحيرة وأخذ فى بناء الهاشمية لتكون مقر سلطانه ، وأغرى أبا مسلم الخراسانى بأبى سلمة فدسَّ إليه مَنْ قتله [٤] .

وكانت الجيوش قد اتجهت لمتابعة حرب مروان بن محمد بقيادة عبد الله بن على عم السفاح ، فالتقت به على الزاب شمالى العراق ، وهزمته هو وجيشه هزيمة

---

(١) انظر الطبرى ٦/٢٧، ٧٩

(٢) الطبرى ٦/٨٥ ومروج الذهب للمسعودى (طبع دار الرجاء بالقاهرة) ٣/١٨٣ وتاريخ اليعقوبى (طبعة النجف) ٣/٨٦ .

(٣) طبرى ٦/٨١ وما بعدها .

(٤) طبرى ٦/١٠٣ والمسعودى ٣/١٩٩ واليعقوبى ٣/٨٩ .

ساحقة ، فولّى مع بعض فلول جيشه حتّى حران وتركها إلى نهر أبى فُطْرس بفلسطين والأردن ، وتبعه عبد الله بن على، وتلقاه بلدان الشام بالتهليل والترحيب إلا ما كان من دمشق ولكنها سرعان ما انقادت له . وبرحها إلى نهر أبى فُطْرس ، فإذا مروان قد آوى إلى مصر ، فأرسل وراءه أخاه صالحاً فما زال يفر أمامه من بلدة إلى بلدة حتّى لقى حتفه فى بوصير من بلدان الصعيد لأواخر سنة ١٣٢ للهجرة . وكان لا يزال يزيد بن عمر بن هبيرة يقاوم فى واسط ، وقد ضُرِب من حوله الحصار ، حتّى إذا جاءه نَعى مروان بن محمد أخذ يفاوض العباسيين فى التسليم لهم ، وسرعان ما عقدوا له أماناً فتح على إثره أبواب واسط ، غير أنهم عادوا ففتكوا به وبكثيرين ممن كانوا معه[1] .

وتذكر كتب التاريخ والأدب أن العباسيين مضوا يفتكون بأفراد البيت الأموى فتكاً ذريعاً يريدون أن يستأصلوهم من الأرض استئصالاً ، حتّى ليتخذ ذلك شكل احتفالات دامية ، وكان أول من بدأها عبد الله بن على إذ دعا فى أبى فطرس نحو ثمانين منهم إلى وليمة ، ولم يكادوا يجتمعون لها حتّى انبرى بعض الشعراء يحرضونه على الفتك بهم ثأراً للإمام إبراهيم بن محمد ومن قتلوا من العلويين والهاشميين ، فأمر بهم جميعاً أن يُضْرَبوا بالعمد حتّى يلقوا حتفهم[2] نكالا لهم ولآبائهم . وصنع صنيعه بجماعات أخرى منهم السفاح وعماه داود وسليمان[3] ، وكأنهم لا يريدون أن يبقوا على وجه الأرض أحداً منهم ، وحتّى موتاهم لم يفلتوا من هذا العقاب الصارم ، إذ يقال إنه نُبشت قبور خلفائهم — ما عدا قبرى معاوية وعمر ابن عبد العزيز الخليفة الورع — وحُرّقت بقايا جثثهم بالنار تحريقاً[4] . وكان هذا البطش الذى لا يُبقى ولا يذر دافعاً لعبد الرحمن الداخل حفيد هشام بن عبد الملك إلى أن يلوذ بالفرار إلى الأندلس حيث أسس بها دولة أموية جديدة ظلت نحو ثلاثمائة عام .

وعلى هذا النحو ظفرت الثورة العباسية بالبيت الأموى الذى كانت نفوس الرعية تمتلئ سخطاً وحفيظة عليه لما أذاقهم من الظلم ، ولما حرمهم من الإنصاف

(١) طبرى ٦/١٠٤ .
(٢) الطبرى ٦/٩٧ واليعقوبى ٣/٩٢ .
(٣) الطبرى ٦/٩٧ ، ١١١ والأغانى (طبع دار الكتب) ٤/٣٤٤ .
(٤) المسعودى ٣/١٤١ واليعقوبى ٣/٩٣ .

والعدل الاجتماعي ، ولما ازدرى من الحق والواجب . ورأى العباسيون أن يتخذوا من العراق موئلا لخلافتهم ، فعلا نجمه ، بينما هوى نجم الشام إذ أصبحت ولاية تابعة له بعد أن كان يتبعها . واتخذ السفاح — كما أسلفنا — الهاشمية مقر الدولة ، ولم يلبث أبو جعفر المنصور أن اختار قرية صغيرة على الضفة الغربية لدجلة لتكون حاضرة الخلافة ، هي بغداد .

٢

بناء بغداد ثم سامرّاء

رأى أبو جعفر المنصور أن يبتعد بحاضرة دولته عن الكوفة مركز العلويين من قديم حتى يأمن على نفسه مما قد ينشب فيها من ثورات ، وحتى يعزل جنده عن أهلها فلا يفسدوهم . وكان مما دفعه إلى ذلك ثورة الراوندية ، وهم نفر من شيعته كانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح ، وحدث أن اجتمعوا بالهاشمية هاتفين بأن المنصور ربهم ، فلما خرج إليهم ينهاهم عن سوء معتقدهم تدافعوا إليه كالموج ، وكادوا يفتكون به لولا دفاع معن بن زائدة الشيباني عنه وحسن بلائه [١] .

ولما انتهت هذه الفتنة رأى المنصور — بثاقب نظره — أن يحوّل حاضرته من الهاشمية إلى موضع يأمن فيه الفتن ، فبعث بجماعة من أصحابه يرتادون له المكان الذي يبتني به مدينته المحصنة الجديدة ، وخرج بنفسه يرتاد معهم . وأعجبته بقعة بغداد التي لا تبعد كثيراً عن موقع بابل القديمة ، فأحضر صاحبها وأصحاب القرى المجاورة لها من بطارقة ورهبان ، وأخذ يسألهم عن أحوالها ، فانبرى صاحبها يذكر له أنه يحفّ بها أربعة طساسيج [٢] : طسّوجان في الجانب الغربي هما قُطْرُبُّل وبادوريا ، وطسوجان في الجانب الشرقي هما : نهر بوق وكَلْواذا ، فإن أجدب طسوج أخصب طسوج ثان . ثم ذكر له قربها من الفرات وما يُحْمل فيه من طرائف الشام والمغرب ومصر ووقوعها على دجلة وما يحمل فيه من متاجر البصرة التي

---

(١) الطبري ١٤٧/٦ والفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقي (طبعة المطبعة الرحمانية بالقاهرة) ص١١٦.

(٢) انظر الطبري ٢٣٦/٦ وابن الطقطقي ص ١٨ . والطساسيج : جمع طسوج وهو الناحية.

تأتيها من المحيط الهندى وأيضًا ما يحمل فيه من عروض أرمينية والجزيرة والموصل وما وراءه ، وكيف أنها محجوزة وراء دجلة وأمام الفرات وكأنهما سدان منيعان أمام الأعداء ، ثم هى وسط فى سواد العراق وبين مدنه .

حينئذ اعتزم المنصور اتخاذ تلك القرية المسماة ببغداد عاصمة الدولة ، وقد اختلف الباحثون فى أصل اسمها ، فقال فريق إنه اسم فارسى وقال آخرون إنه اسم آرامى[1] ، وسماها المنصور « دار السلام » أخذاً من قوله جلَّ وعزَّ ، (لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون) وبهذا الاسم كانت تُضْرب النقود العباسية . وقد كانت منطقتها موئلا لحضارات مختلفة إذ كانت تلتقى بها قبل الإسلام الحضارات : الكلدانية والفارسية والآرامية ، وكانت تنبثُّ حواليها أديرة كثيرة .

وعُنى المنصور عناية بالغة ببناء حاضرته ، بل قلعته الحصينة ، فأحضر لها المهندسين والفعلة والصناع من أطراف الأرض ، ومثَّل لهم صفتها التى فى نفسه ، وهى أن تكون مدوَّرة على شاكلة المدن الفارسية والآشورية القديمة ، ووضع أول لَبِنَة فيها بيده سنة ١٤٥ قائلا : « بسم الله ، والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ويقال إنه جلب إليها كثيراً من مواد البناء التى كانت لا تزال قائمة فى المدائن حاضرة الساسانيين . وظل البناء قائمًا بها حتى سنة ١٤٩ .

ويمكن إجمال وصفها فى أنه كان يستدير حولها خندق[2] كبير وسوران شاهقان عريضا الجدران وراءهما سور داخلى مبالغةً فى تحصينها . وفُتح فى كل سور أربعة أبواب متساوية الأبعاد : باب الشام فى الشمال الغربى ويقابله باب البصرة فى الجنوب الشرقى على الصراة التى تأخذ من الفرات وتمضى حتى تتصل بدجلة ، وباب خراسان فى الشمال الشرقى بحذاء دجلة ويقابله باب الكوفة فى الجنوب

---

(١) راجع كتاب بغداد قديما وحديثا لمصطفى جواد وأحمد سوسة (طبع مطبعة المجمع العلمى العراق) ص ١٧ وما بعدها .

(٢) انظر فى تخطيط بغداد الجزء الأول من تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ومعجم ياقوت ومختصر البلدان لليعقوبى وكتاب بغداد قديماً وحديثاً الآنف الذكر ، وبغداد فى عهد الخلافة العباسية لجى لسترانج ترجمة بشير يوسف فرنسيس (طبع المطبعة العربية ببغداد) وبغداد مدينة السلام لطه الراوى (طبع دار المعارف) .

الغربى . وكان على كل باب خارجى مجلس يُصْعد إليه على الخيل وقباب مذهبة فى رأسها تماثيل تتجه مع الريح ، وكان بين كل قبتين ثمانية وعشرون برجاً مجهزة بأدوات الدفاع عن المدينة . وبُنى فى الرحبة الداخلية مسجد كبير ، وبنى بجواره قصر المنصور المسمى باسم قصر الذهب ، وقد أقيم فى صدره إيوان شامخ يتصل بإيوان مثله جُعلت فوقه قبة عظيمة عرفت باسم القبة الخضراء ، وكان يعلوها تمثال فارس بيده رمح ولا يزال الفارس يدور مع الريح . وبنيت دور كثيرة للدواوين والخزائن . وأقطع المنصور قواده كثيراً من القطائع داخلها ، ومن أجل ذلك نُسبت دروبها إليهم ، وأقطع الجند أرباضها كما أقطع أهل بيته أطرافها ، وابتنى لنفسه قصراً صيفياً على دجلة وراء باب خراسان سماه « قصر الخلد » . وأجرى الماء إليها فى قناتين بُطّنتا وغُطّيتا بخشب الساج حتى لا تلوّثهما دوابُّ السقائين ، وتعددت فيها وفى ضواحيها بعد ذلك القنوات. وفى سنة ١٥١ أمر المنصور بإنشاء معسكر للمهدى أمامها شرقى دجلة ، جعل له سوراً وخندقاً ، ومن ورائهما قصر الرصافة بناه للمهدى . وسرعان ما أنشأ كبار القواد حول القصر منازل لهم وتكاثرت الأبنية وضُمّ إليها كثير من الأرباض بحيث أصبح هذا المعسكر شطر بغداد الشرقى . ووصل المنصور بين الشطرين بجسرين كبيرين من السفن . وبذلك اتسعت بغداد فشملت المدينة المدورة فى الغرب والرصافة فى الشرق ، كما شملت أرباضاً ومحالّ كثيرة من أهمها محلة الحربية نسبة إلى حرب أحد قواد المنصور ، ومحلة الكرْخ وبها كانت أسواق التجار ودور الملاهى . ومن محلاتها الشرقية محلة الشماسية ، وبها ابتنى البرامكة كثيراً من قصورهم .

وما لبثت بغداد أن اصبحت أهم مدينة فى العالم العربى ، إذ بنيت بها مئات المساجد وعشرات القصور الفخمة ، وتكاثر بها التجار والصناع ، وكان لكل طائفة منهم شارع خاص أو سوق خاصة ، فهذا سوق العطارين وذاك سوق البزازين ، وهذا سوق الصيارفة مستبدلى النقود وذاك سوق الورّاقين ، وهذا سوق بائعى الحلى والطرف المعدنية وذاك سوق الرقيق المكتظ بالجوارى من كل جنس . وأمّها المغنون والمغنيات ، ونزلها الأدباء والعلماء من كل صنف وعلى كل لون . فزخرت بالحياة ، تزينها البساتين الملحقة بالدور والقصور والمتنزهات وميادين اللعب بالصولجان وغيره ،

كما تزينها القوارب التى كانت تتلألأ على صفحات دجلة بأشكالها المتنوعة من طيارات وسميريات وحديديات وحراقات وزلالات وجعفريات .

ولم تزل بغداد حاضرة للخلفاء العباسيين حتى استكثر المعتصم فى عسكره من الترك وآذوا العامة بما كانوا يجرون من خيلهم فى الأسواق والشوارع ، فكانوا يرصلونهم ويقتلونهم . حينئذ رأى المعتصم أن يعتزل بجنده فى موضع ناء عن بغداد، حتى يبعد أذاهم عن العامة ، ولم يزل يتخير لهم موضعاً حتى انتهى إلى سامراء شرقى دجلة بين بغداد وتكريت ، فأعجبه موقعها ، وكان بها دير كبير فاشتراه من أصحابه ، وأخذ فى بنائها سنة ٢٢١ واختلف الباحثون فى اسمها ، كما اختلفوا فى بغداد ، فقيل هو اسم فارسى ، وقيل : بل هو آرامى[١] . وأمر المعتصم أن تسمى « سُرَّ مَنْ رأى » وبهذا الاسم كانت تضرب النقود العباسية .

وقد أحضر لها المعتصم المهندسين والفعلة والصناع من سائر الأمصار وابتدأ فيها ببناء قصره[٢] المسمى بالجوسق وابتنى بجواره مسجداً كبيراً ، كما ابتنى دوراً مختلفة للدواوين ، وأخرى لقواده ورجال حاشيته وموظفيه الكبار . وابتنى لجنده قطائع فى المَطيرة جنوبيها ، واختطَّ فيها الشوارع والدروب ، وأفرد لأهل كل صناعة وتجارة سوقاً خاصة بهم . فارتفع بها البنيان وكثرت العمارة ، ويقال إن المعتصم حمل إليها الساج وسائر الخشب من البصرة والرخام من أنطاكية واللاذقية . وأجرى فيها قنوات تأخذ من دجلة ، وعقد عليه جسراً يصلها بجانبه الغربى ، وأنشأ بها كثيراً من المتنزهات والملاعب . ويقال إنه جلب إليها الغروس من البصرة ومن الشام وخراسان وسائر البقاع .

وظل الخلفاء بعد المعتصم يقيمون بها حتى سنة ٢٧٦ إذ تحولوا منها إلى بغداد ، وكان ذلك سبباً فى أن أسرع الخراب إليها ، فلم يكد يتقدم القرن الرابع الهجرى حتى أصبحت أطلالا ورسوماً إلا ما كان من مسجدها الذى تأنق المعتصم فى بنائه حتى قال المقدسى إنه يفضل مسجد الوليد بن عبد الملك بدمشق فى عمارته ، ولا تزال مأذنته الشاهقة قائمة إلى اليوم .

---

(١) انظر بلدان الخلافة الشرقية تأليف لسترانج وترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ص٧٦ ومادة سامراء فى دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) راجع فى تخطيط سامراء المرجعين السالفين والمسعودى ٤ / ٩ وكتاب البلدان لليعقوبى ومعجم البلدان لياقوت .

٣

النظم السياسية والإدارية

كان تحول الخلافة من دمشق إلى بغداد على سواعد الجيوش الخراسانية إيذانًا بغلبة الطوابع الفارسية على نظم الحكم السياسية والإدارية للدولة العباسية ، فقد قامت فى المجال الفارسى وعاشت تتنفّس فيه . وقد بلغ الفرس قبل الفتوح الإسلامية مرتبة عالية فى تنظيم الحكم ، حتى لنرى العرب بعد فتح ديارهم يسارعون إلى التأثر بهم فى هذا التنظيم ، فقد روى الرواة أن عمر بن الخطاب اتخذ ديوان العطاء أو ديوان الجند، مقتديًا فيه بصنيع الساسانيين ، يقول ابن الطقطقى : « لما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة ، وهى خلافة عمر رضى الله عنه ، رأى أن الفتوح قد توالت وأن كنوز الأكاسرة قد مُلكت وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت ، فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم ، ولم يكن يعرف كيف يصنع وكيف يضبط ذلك ، وكان بالمدينة بعض مرازبة الفرس فلما رأى حيرة عمر قال له : يا أمير المؤمنين إن للأكاسرة شيئًا يسمونه ديوانًا جميع دَخْلهم وخَرْجهم مضبوط فيه لا يشذ منه شىء ، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق عليها خلل . فتنبّه عمر رضى الله عنه ، وقال : صِفْه ، فوصفه المَرْزُبان . ففطن عمر لذلك ودوّن الدواوين وفرض العطاء[1] » .

وكان هذا الديوان الأصلَ الذى تأسست عليه الأداة الحكومية للخلافة الإسلامية . وارتضى عمر لولاته فى الشرق أن يستعينوا فى جمع الخراج بنفس عمّال الفرس الذين كان يستعين بهم الساسانيون فى جمع الضرائب وهم المسمون بالدهاقين لخبرتهم التامة بكل الشئون المتصلة بهذا الجمع ، وخاصة من حيث تقدير الخراج . وبذلك استمرت فى أيدى هؤلاء الدهاقنة سجلّات الخراج الإسلامى ، وظلوا يكتبونها بالفارسية حتى أمر عبد الملك بن مروان بتعريبها فى العراق ، كما أمر بتعريب الدواوين الرومية فى الشام ومصر . وصدع الحجاج واليه على العراق بأمره فعرّبها ،

---

(١) ابن الطقطقى ص ٦٠ .

غير أنها ظلت لا تعرّب فى خراسان حتى سنة ١٢٤ وهى السنة التى أمر فيها نصر ابن سيار بتعريبها هناك .

وعلى هذا النحو استعان العرب منذ أوائل الفتوح فى العراق وخراسان بدهاقنة الفرس فى إدارة شئون الخراج وجبايته . ولم يتوسع عمر فى الاقتباس من نظام الحكم الساسانى ، فإنه لم يتعدَّ فى اقتباسه ديوان العطاء ، أما نظام الحكم الوراثى الذى كان متبعاً عند القوم فإنه لم يخطر بباله ، إذ أبقى الخلافة على أساس شورىّ انتخابى تؤخذ فيه البيعة للخليفة ، حتى إذا كان عهد معاوية رأيناه يتأثر هذا النظام ، فيجعل الخلافة وراثية فى بيته ، وتبعه على ذلك مروان بن الحكم وأبناؤه . وتوسع معاوية بجانب ذلك فى التأثر بنظم الدواوين الفارسية ، فاتخذ ديواناً للخاتم وديواناً للرسائل محاكياً بذلك الدواوين الساسانية .

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسى وجدنا النظم الساسانية تنتقل بحذافيرها فى كل شئون الحكم ، وكأنما أصبح الخليفة العباسى ملكاً ساسانياً ، فهو يحكم حكما مطلقاً وهو حكم ينتقل بالوراثة ويطبعه الدين كما كان يطبع الحكم الساسانى ، إذ كان الساسانيون يعدون أنفسهم رؤساء للدين وحُماة له وحُرَّاساً . وكان العباسيون من بيت النبوة ، فكانوا يعدون أنفسهم ورثة الخلافة الشرعيين ، واتخذوا من علماء الفقه والكلام سنداً لهم فيما يزعمون ، وهو زعم باطل ، لأن الولاية العامة على المسلمين لا تورث ، وإلا ورثها العباس عم الرسول بعده ، ولم يرثها أبو بكر الصديق ، وحتى الأموال والأعيان التى تركها الرسول لا تورث ، لما صح فى الحديث النبوى من قوله عليه السلام : « إنا معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة» . وإذا كان هذا الإرث ممنوعاً فى الأعيان والأموال فمنعه فى ولاية الأمة ألزم وأوجب ، إذ ينبغى أن يتولاها الكفء الصالح على نحو ما تولاها أبو بكر وعمر .

ومهما يكن فقد أقام العباسيون خلافتهم على أنهم أحق الناس بإرث الرسول ، ومضوا يحيطون أنفسهم بهالة كبيرة من التقديس كان لها أسوأ الأثر فى خنوع الناس وخضوعهم للظلم والفساد ، ونعجب أن نرى الفقهاء والأتقياء الذين كانوا يعارضون بنى أمية ويعدونهم دنيويين ظالمين ينصاعون انصياعاً أعمى للعباسيين ويعدّونهم رؤساء شرعيين للأمة من الناحيتين الزمنية والروحية .

وقد أخذ العباسيون يلقون — على شاكلة الساسانيين — فى وعى الناس أنهم أصحاب حق إلهى فى الحكم فهم « سلطان الله فى أرضه[1] » . وأحاطوا أنفسهم — على مثالهم — بنظام تشريفات معقد ، مختفين عن أعين الناس وراء أستار صفيقة ، ومتخذين كثيرين من الحُجَّاب أو رؤساء التشريفات . وبذلك لم يعد العرب يدخلون على الخلفاء كلما أرادوا كما كان الشأن فى عصر بنى أمية ، بل لا بد لهم قبل الدخول عليهم من استئذان هؤلاء الحجاب ، وكانت كثرتهم من الأعاجم الذين احتكروا لأنفسهم أكثر شئون الحكم. وكان الخليفة يستقبل مَنْ يدخل عليه وكبير حُجَّابه فى جانب ، وفى جانب آخر كبير حراسه المعروف باسم الجلاد[2] والنِّطْع دائماً أمامه ، فمن غضب عليه أطاح برأسه توًّا .

وبذلك أصبحنا إزاء حكم استبدادى أشد ما يكون الاستبداد ، حكم لا يُحْسَبُ فيه أى حساب للرعية ، فهى أدوات مسخرة للحاكم ، وليس لها من الأمر أى شىء ، فى يده كل الأمر وكل السلطان، يولى الولاة والقضاة والوزراء والقواد وأصحاب الشرطة والمحتسبين الذين يراقبون الأسواق ، ويعزلهم جميعاً ، حسب مشيئته وهواه . وكان يختار الوالى غالباً من أهل بيته أو من أكفاء حاشيته وخاصة الأعاجم ، وكذلك كان يختار قواده . ومن البيوت العربية التى لمعت فى العصر بيت المهلبيين وبيت معن بن زائدة الشيبانى .

واتسع الخلفاء فى محاكاة الدواوين الساسانية ، وكان فى كل ولاية ديوان للخراج يقوم عليه موظف كبير ينفق منه على الولاية ويرسل ما تبقى من الأموال إلى بغداد حيث كان بها لكل ولاية ديوان خاص ، ويسمى مجموع هذه الدواوين باسم ديوان الزمام أو بيت المال ، وقد ولَّى عليه السفاح خالد بن برمك كما ولاه على ديوان الجند[3] الذى كان يُعْنَى برواتبهم . وكان لدار الخلافة ديوان خاص يقوم على نفقاتها . ومن أهم الدواوين ديوان الرسائل الذى لعب دوراً خطيراً فى نهضة النثر العربى ، وكانت تصدر عنه رسائل الخلفاء . وكان بجواره ديوان الخاتم الذى تُخْتَمُ فيه تلك الرسائل بعد مراجعتها ، وديوان التوقيع وهو خاص بالنظر

(١) طبرى ٦/٣٣١ .

(٢) البيان والتبيين (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢/٣٢٩ .

(٣) كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص٨٩ .

فى المظالم ورقاع أصحاب الشكوى وكانوا يسمونها باسم القِصص، وكان من عادة ملوك الفرس ووزرائهم أن يوقعوا عليها بعبارات موجزة بليغة ، فجاراهم خلفاء بنى العباس ووزراؤهم فى هذا الصنيع .

وكان هناك ديوان كبير على رأسه صاحب الخبر ، وكانت تأتيه أخبار الولايات بواسطة موظفين مهمتهم أن يوافوه بكل ما يجرى فى الولايات من أحداث وأسعار ، وهم يشبهون — فى عصرنا — أدق الشبه مراسلى الصحف ومندوبيهم . وكانوا يُحْصُون كل كبيرة وصغيرة للوالى ومَن ْ وراءه من قواد الجيش والقضاة وعمال الخراج والمحتسبين ورجال الشرطة ويبلغونها إلى صاحبهم ، وهو بدوره يبلغها إلى الخليفة[1] . وقد أحكم هذا النظام للبريد إحكامًا دقيقًا ، فكان هناك رسل موقوفون على حَمْل تلك الأخبار فى سرعة شديدة على خيل مضمرات توجد فى عدة أماكن على الطرق الممتدة من الولايات إلى بغداد . وقد ألِّفت من أجلهم كتب المسالك والممالك المشهورة لابن خرداذبة وغيره ، وهى كتب تفيض بوصف الأحوال الجغرافية والاقتصادية لولايات الدولة وبلدانها المختلفة فى المشارق والمغارب .

وليس هذا كل ما أخذه العباسيون عَنْ ملوك بنى ساسان من النظم الإدارية والسياسية ، فقد أخذوا عنهم أيضًا نظام الوزارة ، وكلمة وزير عربية فقد وردت فى القرآن الكريم يقول جَلَّ شأنه على لسان موسى : (واجْعَلْ لى وزيراً من أهلى هرون أخى) ومعناها فى الآية الكريمة المؤازر والمساعد ، غير أنها أخذت تُطْلَق ُ منذ فاتحة العصر العباسى على المستشار الأول للخليفة فى إدارة شئون دولته . وهى وظيفة كانت معروفة فى الدولة الساسانية ، إذ كانوا يقيمون — لاحتجابهم عن الرعية — وسطاء يصرِّفون أمور الدولة ويرسمون سياستها ويعيِّنون موظفيها ، ومن أشهرهم بُزُرْجِمِهْر وزير أنوشروان الذى عُرِف بحكمته وحنكته . وكأن العباسيين رأوا أن يجاروهم فى هذا النظام ، فاتخذوه لأول مرة فى تاريخ الخلافة العربية ، وأطلقوا على صاحبه اسم الوزير ، يقول ابن الطقطقى : « الوزير وسيط بين الملك ورعيته ، فيجب أن يكون فى طباعه شطر يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام، ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة والأمانة . . .

---

(١) انظر الطبرى ٦/٣٣٦ .

والوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا فى دولة بنى العباس ، فأما قبل ذلك فلم تكن مقننَّة القواعد ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فإذا حدث أمر استشار ذوى الحِجَى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير . فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسُمى الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمَّى كاتباً أو مشيراً »[1] .

وقلما نجد للعباسيين وزيراً غير فارسى ، وهو شىء طبيعى ، إذ كانوا هم الذين يستأثرون بشئون الخلافة ويرقون إلى أعلى المناصب ، وقد أحكموا للعباسيين هذا النظام وصاغوه صياغة على قوانينه الساسانية .وأول من اتخذه العباسيون وزيراً منهم أبو سلمة الخلاَّل حتى إذا قَضَى نَحْبه اتخذ السفاح بعده خالد بن بَرْمك ، وكان قد جَلَّى تحت لواء أبى مسلم فى حروبه ضد بنى أمية ، وأظهر بسالةً وحُنْكة حربية . وهو ينحدر من أسرة كانت تقوم على سدانة معبد النوبهار البوذى فى بَلْخ . واتصلت وزارته فى عهد المنصور وناط به حكم بعض الولايات وقيادة بعض الجيوش فأظهر كفاءة نادرة ، ووَلِىَ ابنه يحيى أذربيجان فنهض بولايتها خير نهوض . ووَلِىَ المهدى بعد أبيه المنصور ، فاستدعى يحيى إلى بغداد ووصله بابنه هرون كاتباً له ومستشاراً ، وتوفِّى المهدى وولىَ بعده ابنه الهادى ، فحاول أنْ يخلع أخاه هارون عن ولاية العهد ، غير أن يحيى البرمكى عرف بسعة حيلته كيف يصرفه عن فكرته ، وكان لذلك وقع حسن فى نفس الرشيد ، حتى إذا صارت الخلافة إليه خاطبه بالأبوة إجلالا له قائلا : « يا أبتِ أنت أجلستنى هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك وقد قلَّدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقى إليك فاحكمْ بما ترى واستعملْ مَنْ شئت واعزلْ من رأيتَ ، وافرضْ (اعط راتباً) لمن رأيت ، وأسقطْ من رأيت ، فإنى غير ناظر معك فى شىء »[2] ودفع إليه خاتم الخلافة ، فصار بيده الحلُّ والعَقْد ، فقلَّد ابنه الفضل المشرق كله من النَّهروان إلى أقصى بلاد الترك ، وقلَّد ابنه جعفرًا المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية[3] . وشخص الفضل إلى عمله فأزال ما وقع على الناس من ظلم وبنَى الحياض

---

(١) ابن الطقطقى ص ١١٠ وما بعدها .
(٢) الجهشيارى ص١٧٧والمسعودى٣/٢٥٧.
(٣) الجهشيارى ص ١٩٠ .

والمساجد وزاد فى عطاء القواد والجند ، أما جعفر فأقام بحضرة الرشيد وأرسل نُوَّاباً عنه إلى أقاليم ولايته ، إذ كان الرشيد لا يطيق صبراً على بعده عنه .

وظل يحيى البرمكى وابناه جعفر والفضل يلون أمور الدولة سبعة عشر عاماً كانوا هم المتصرفين أثناءها فى جميع شئونها ، وأتاح ذلك لهم أن يصبغوها بصبغة فارسية خالصة ، حتى إذا كانت سنة سبع وثمانين ومائة نكبهم الرشيد نكبتهم المشهورة ، إذ أمر بقتل جعفر وحبس أبيه وإخوته ما عدا محمداً ، ومات يحيى والفضل ابنه محبوس . واختلف المؤرخون وأصحاب السير فى هذه النكبة ، فردَّها بعضهم إلى أسباب شخصية ، وردَّها ثانون إلى أنهم جردوا الرشيد من كل سلطان وكل أمر ونهى ، وردَّها ثالثون إلى أن الرشيد وقف على ما كانوا يبطنونه من الزندقة ، ويظهر أن سببها الحقيقى يرجع إلى إطلاق جعفر لعلوى ثائر من محبسه ، هو يحيى ابن عبد الله ، كان قد استأمنه الرشيد عليه ، فلم يوفِّ أمانته[1] .

ونمضى إلى عصر المأمون فنجد أسرة بنى سهل الفارسية تتقلد منصب الوزارة له ، وتمكّن بدورها للتقاليد الفارسية فى الحكم ، وكان أول من وليها منهم الفضل ابن سهل الملقب بذى الرياستين : رياسة السيف والقلم ، وكان قهرماناً ليحيى بن خالد البرمكى يلى شئون بيته ، أما أبوه سهل فكان مجوسياً وأسلم . وقد لزم المأمون منذ حياة أبيه الرشيد ودبَّر أموره حتى أفضت الخلافة إليه فاستوزره ، ويروى الرواة أنه كان إذا دخل عليه وهو لا يزال بمرو « يجلس على كرسى مجنَّح ويُحمَل فيه ، فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه ، فإذا وقعت وُضع الكرسى ونزل عنه ، فمشى . وحُمل الكرسى حتى يوضع بين يدى المأمون ، ثم يسلِّم ، ويعود فيقعد على الكرسى . وإنما ذهب ذو الرياستين فى ذلك إلى مذهب الأكاسرة فإن وزيراً من وزرائها كان يُحمَل فى مثل ذلك الكرسى ويقعد بين أيديها عليه »[2].

فحتى تقاليد وزراء الساسانيين فى دخولهم على الأكاسرة وجلوسهم بين أيديهم كانت تُحاكَى محاكاة دقيقة . وكان من رَسْم ملوك الفُرْس أن يلبس أهل كل طبقة ممن فى خدمتهم لِبْسةً لا يلبسها أحد ممن فى غير تلك الطبقة ، فإذا وصل الرجل

---

(١) انظر الطبرى ٦/٤٨٤ وما بعدها والمسعودى ٣/٢٨٤ والجهشيارى ص ٢٠٦ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤ وابن الطقطقى ص ١٥٦ .

(٢) الجهشيارى ص ٣١٦ .

إلى الملك عرف بلبسته صناعته والطبقةَ التى هو فيها»[١] . وطبّق العباسيون هذا الرسم على موظفيهم تطبيقاً دقيقاً حكاه الجاحظ إذ يقول : « ولكل قوم زىّ ، فللقضاة زىّ ، ولأصحاب القضاة زىّ وللشرَط زىّ ، وللكتّاب زىّ ، وللكتّاب الجند زىّ . . . وأصحاب السلطان ومن دخل الدار على مراتب ، فمنهم مَن يلبس المبطّنة ، ومنهم من يلبس الدرّاعة[٢] ، ومنهم من يلبس القباء[٣] ، ومنهم من يلبس البازيكند[٤] ويعلق الخنجر ويأخذ الجُرْز[٥] ويتخذ الجُمّة»[٦] . وكان الفقهاء يلبسون المبطّنة والطيلسان[٧] والقلانس [٨]

فتقاليد الساسانيين حوكيت حتى فى أزياء رجال الحاشية والموظفين وطبقاتهم ، وكان ما دخل منها فى شئون الحكم أقوى قوة ، مما دفع كثيرين من الفرس إلى ترجمة الكتب التى تصورها عن لغتهم ، وعملُ ابن المقفع فى هذا الميدان ذائع مستفيض ، فقد نقل إلى العربية طائفة من الكتب والرسائل التى تتصل بالحكم الساسانى ورسومه من مثل كتاب « آيين نامه » ومعنى آيين النظم والتقاليد . ولم يقف عمله فى هذا الصدد عند الترجمة ، فقد نقل فى رسائله القصيرة والطويلة كثيراً من وصايا الفرس فى السياسة والحكم على نحو ما يلقانا فى رسائله المعروفة باسم « الأدب الصغير » و« الأدب الكبير » و« رسالة الصحابة » وهو يريد بهم صحابة السلطان وحاشيته . وقد بعث البرامكة وبنو سهل — بعد ابن المقفع — المترجمين على نقل كثير من الكتب والرسائل التى تحمل تقاليد الساسانيين فى الحكم والسلطان وحقاً فُقدت الكثْرة الكثيرة من هذه الكتب ، ولكن بقيت منها نصوص وفيرة تلقانا فى حديث الطبرى عن الفرس فى أوائل تاريخه الكبير وفى مقدمة كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى وفى عيون الأخبار لابن قتيبة . ولعلنا لا نغلو بعد ذلك كله إذا قلنا إن النظم السياسية والإدارية فى الدولة العباسية طُبعت بطوابع فارسية

---

(١) الجهشيارى ص ٣ .
(٢) الدراعة : جبة فارسية .
(٣) القباء : ثوب فارسى قصير .
(٤) البازيكند : كساء يلقى على الكتف .
(٥) الجرز : آلة من حديد يضرب بها .
(٦) البيان والتبيين ٣/١١٤ والجمة : مايسقط على المنكبين من الشعر .
(٧) أغانى (طبع دار الكتب) ٥/٣٦٠ . والطيلسان : ثوب فارسى .
(٨) أغانى ٦/٢٩١ والقلانس : جمع قلنسوة وهى غطاء فارسى للرأس .

قوية ، تحولت فى أثنائها الخلافة ملكاً كسرويًّا يقوم على الاستبداد والقهر والبطش الذى لا يعرف رفقًا ولا لينًا .

٤

العلويون والخوارج

مرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن العباسيين ظلوا طوال دعوتهم السرية يدعون للرضا من آل البيت ، لكى لا يصطدموا بأبناء عمهم العلويين ، وأيضًا فإنهم أرادوا أن يثبِّتوا الأصل الذى تعتمد عليه خلافتهم المبتغاة وهو ميراثها عن الرسول ، فهى حق شرعى لآل بيته ، وقد تحدثنا آنفًا عما فى هذا الأصل من فساد ، لأن الرسول لا يورث فى ماله فضلا عن الولاية العامة للمسلمين .

ولم يكد العباسيون يستولون على مقاليد الخلافة ، حتى أخذ العلويون يشيعون فى الناس أنهم اغتصبوها منهم ، فهم ورثتها الحقيقيون ، إذ هم أبناء بنت الرسول : فاطمة ، وأبناء على ابن عمه . وردَّ عليهم العباسيون بأنه ينبغى أن يُرْجَع فى ذلك إلى أصل حكم الله فى المواريث ، وما فُرِض فيها من حَجْب العم لابن العم وحرمان ابن البنت من ميراث جده لأمه ، فهم يُدْلون للرسول بعمه العباس الذى آل إليه ميراثه ، وهم لذلك أولو الأمر وأهله «خُصُّوا برحم رسول الله وقرابته ونشأوا من آبائه ونبتوا من شجرته »[1] . وإذا كان العلويون يزعمون أن الرسول نَصَّ على إمامة على بن أبى طالب بعده وأن أبناءه ورثوا منه إمامته فقد زعم العباسيون أن الرسول قال لجدهم العباس : إن الخلافة تكون فى ولدك[2] .

وأخذت الخصومة تشتد بين الفرعين الهاشميين فى أيهما أقرب إلى الرسول وأمس به رحمًا وأيهما أحق بميراث ولايته على الأمة ، وسرعان ما أخذ المنصور يرصد العلويين فى دارهم : المدينة ، ويضيق الخناق عليهم . وترامت إليه الأنباء بأن محمد بن عبدالله سليل الحسن بن على بن أبى طالب الملقب بالنفس الزكية يبث الدعاة له فى الحجاز والعراق ، فأمر عامله على المدينة أن يجدّ فى طلب العلويين ، وحجَّ ، فقبض على

---

(١) انظر خطبة السفاح بعد بيعته فى الطبرى ٨٢/٦ .

(٢) ابن الطقطقى ص ١٠٣ .

جماعة منهم ، وأوثقهم بالحديد ، وحملهم معه إلى الحيرة ، وهناك ألقى بهم فى سرداب تحت الأرض عند قنطرة الكوفة لا يعرفون ليلا ولا نهاراً حتى ماتوا جميعاً . ولا نصل إلى شهر رجب من سنة ١٤٥ حتى يعلن محمد بن عبد الله ثورته[١] ويغلب على المدينة وكان يحيى بن زيد بن على زين العابدين قد فوّض له الأمر من بعده[٢] ، وأخيراً رأى إعلان الثورة على المنصور ، وهى أول ثورة للزيدية . ويفزع المنصور فيكتب إليه كتاباً يعرض عليه فيه الأمان له ولأهله وأن يعطيه ألف ألف درهم وينزل على أى بلد شاء . ويردّ عليه محمد بكتاب طويل يصور فيه اغتصابهم للخلافة من دون أصحابها الشرعيين فى رأيه قائلا : « إن الحق حقنا وإنكم إنما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا . . وإن أبانا علياً كان الوصى والإمام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء . . وإن الله تبارك وتعالى لم يزل يختار لى ، فولدنى من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أصحابه أقدمهم إسلاما وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً على بن أبى طالب ، ومن نسائه أفضلهن خديجة بنت خُوَيْلد أول من آمن بالله وصلّى للقبلة ، ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة » . ولم يكد المنصور يقرأ هذا الكتاب حتى ردّ عليه بكتاب نقض فيه حجج النفس الزكية نقضاً قائلا : « بلغنى كلامك فإذا جُلُّ فخرك بالنساء لتُضِلّ به الجُفاة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة[٣] . . وإنكم بنو ابنة رسول الله وإنها لقرابة قريبة ، غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ، ولا يجوز أن تؤمّ (فى الصلاة) فكيف تورَث الإمامة من قِبَلها . . وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن ، فسلّمه إلى معاوية بخِرَقٍ ودراهم ، وأسلم فى يديه شيعته . . فإن كان لكم فيها شىء فقد بعتموه . . ولقد خرج منكم غير واحد ، فقتلكم بنو أمية وحرّقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه ، ورفعنا أقداركم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم . . ولقد علمت أنه توفى رسول الله صلّى

---

(١) انظر فى ثورة النفس الزكية الطبرى ١٨٣/٦ واليعقوبى ١١٠/٣ والمسعودى ٢٢١/٣ وابن الطقطقى ص ١٢٠ .

(٢) راجع الملل والنحل للشهرستانى (طبع لندن) ص ١١٧ .

(٣) العصبة : الذين لا يرثون إلا مما بقى من أصحاب الفروض ، يشير إلى أن جده العباس يحجب ابن أخيه على بن أبى طالب .

الله عليه وسلم وليس من عمومته أحد إلا العباس فكان وارثه دون بنى عبد المطلب»[1] .

ولما لم تُجدِ المفاوضة أرسل المنصور إلى النفس الزكية جيشاً بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى ، فالتقى به وبمن معه قرب المدينة ، واحتدم القتال ، فانهزم الناس عن النفس الزكية ، وأحيط به فلم يستسلم ولم يلق السلاح ، بل قاتل حتى قُتل واحتُزَّ رأسه وحُمل إلى المنصور . وكان أخوه إبراهيم قد مضى يدعو له فى البصرة وكثرت جموعه فاستولى عليها ، وأذعنت له فارس وعظم خطره . وعاد عيسى بن موسى من الحجاز ، فوجهه المنصور إلى إبراهيم فالتقى به وبجموعه عند « باخَمْرَا » بالقرب من الكوفة ، وسرعان ما دارت على إبراهيم الدوائر ، فقُتل ولاذت جموعه بالفرار ، وأُخذ كثير من العلويين فألقى بهم فى غياهب السجون[2] .

وإذا كان المنصور قضى على هذه الثورة العنيفة للعلويين فى أيامه فإنه لم يقض على التشيع ، بل لقد أخذ يزداد مع الأيام سرًّا وجهراً ، وأخذت فرقه تتكاثر ، وأهمها حينئذ الزيدية والإمامية ، أما الزيدية فكان مقرها البصرة حيث التحمت بالاعتزال ، وأما الإمامية فكان مقرها الكوفة ، وبذلك ورثت ما كان فيها من تراث شيعى ، وقد انقسمت بمرور الزمن إلى فرق كثيرة أهمها الإسماعيلية والاثناعشرية .

والإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد توفى فى حياة أبيه فقالوا إن الإمامة انتقلت منه إلى ابنه محمد ، لأنها تنتقل حتما إلى الابن الأكبر حتى لو مات فى عهد أبيه كما مات إسماعيل. ويتلو محمداً — عندهم — أربعة أئمة مستورون يعقبهم عبيد الله المهدى رأس الدولة الفاطمية . ومنهم خرجت شعبة القرامطة فى البحرين . أما الاثنا عشرية فذهبت إلى أن الإمام بعد جعفر الصادق هو ابنه موسى الكاظم الذى عاش بعده ، وسموا بالاثنى عشرية لأن الإمامة تتوالى — عندهم — فى اثنى عشر إماماً هم : على فالحسن فالحسين فابنه على زين العابدين ، فمحمد الباقر فجعفر الصادق المتوفى بالمدينة سنة ١٤٨ فموسى الكاظم المتوفى فى سجن الرشيد سنة ١٨٣ فعلى الرضا المتوفى سنة ٢٠٣ فمحمد الجواد المتوفى سنة ٢٢٠ فعلى

---

(١) انظر فى هذين الكتابين المتبادلين بين المنصور والنفس الزكية الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٧٨٦ والطبرى ٦/١٩٥ .

(٢) راجع فى مقتل إبراهيم وحربه الطبرى ٦/٢٥٠ واليعقوبى ٣/١١٢ والمسعودى ٣/١٢٢ وابن الطقطقى ص ١٢٢ .

الهادى ، فالحسن العسكرى ، فحمد المهدى المنتظر المتوفى حوالى سنة ٢٦٠ وقد ذهبوا إلى أنه غاب وسيعود فيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، ولما لم يكن له ولد توقفت هذه الفرقة عنده . ومن المهم أن نعرف أنها كانت تعتنق — مثل فرقة الإسماعيلية — التقية ، فلم تجنحا إلى ثورة علنية ضد العباسيين فى هذا العصر ، وكأنما تركا ذلك لأبناء الحسن بن على بن أبى طالب من مثل النفس الزكية وكانوا يعتنقون نظرية الزيدية .

والعجب العاجب أن نرى جمهور المسلمين فى هذا العصر لا يعودون بالخلافة إلى نظام الشورى وأن تصبح حقًّا للأمة ، فقد ضللتهم دعاية البيت الهاشمى وجعلتهم يقتنعون بأنها ميراث آل إليهم من الرسول ، وانقسموا إزاء ذلك إلى معسكرين كبيرين : معسكر عباسي بيده مقاليد الحكم ، ومعسكر علوى يحاول الوصول إلى الحكم ، وبذلك انتكست الأمة صورتين من الانتكاس : صورة سياسية إذ شُغلت بحروب وفتن داخلية ما زالت تنخر فيها حتى توزعت دولا ، ولو أنها لم تُشْغل بها وظلت لها وحدتها لفتحت أكثر العالم ولتغير وجه التاريخ . وصورة اجتماعية إذ نظر الناس إلى الخليفة على أنه وريث شرعى وأن حقه فى الخلافة مقدس ، ولو بغى وطغى وظلم ، وعليهم دائمًا طاعته مهما أشاع من الطغيان والفساد . ومن غير شك تقع على الفقهاء تبعة ذلك ، إذ كان من الواجب عليهم أن يوضحوا للناس نظرية الإسلام الحقيقية فى الخلافة وأنه لا يجعلها وراثية فى بنى هاشم بل يقيمها على الشورى ليتولاها الأجدر بها . وبذلك أخذ الصحابة الأولون فى تولية أبى بكر وعمر وعثمان ، فأجدر المسلمين كفء للخلافة سواء أكان من البيت الهاشمى أو غيره ، وسواء أكان من بيت شريف أم بيت مشروف ، فالعبرة بالجدارة والكفاءة لا بالنسب . وشيء من هذه التبعة يقع على عاتق المتكلمين ، وحقًّا إنهم عُنوا بالرد على الزنادقة والملاحدة والدهريين ، ولكنهم قلما عنوا بالتفكير فى المصلحة العامة للأمة والخروج بالخلافة من نطاق فكرة الميراث إلى نطاق فكرة الشورى بحيث تختار الأمة الخليفة الصالح دون نظر إلى هاشميته أو قرشيته .

وقد ظل العلويون يقاومون العباسيين سرًّا وجهراً ، وظل أتباعهم يزدادون ، والعباسيون يرصدونهم جميعًا ، فمن حدثته نفسه بالثورة أو الفتنة قُتل أو زُجَّ به

فى السجون . وكان بعض شيعتهم يصل إلى أرفع مناصب الدولة ، فما هى إلا أن تُعْرف سريرته حتى يُنْكَبَ فتصادر أملاكه ويلقى به فى غياهب السجون أو يقتل ويصلب نكالا لأمثاله . وأول ما يلقانا من ذلك بعد المنصور إيقاع المهدى بوزيره يعقوب بن داود حين علم بإطلاقه — وكان زيدى الهوى — أحد العلويين من السجن وردّ حريته إليه ، فقد ألقى به فى السجن وظل سجينًا إلى أن شفع له يحيى البرمكى عند الرشيد فأمر بإطلاقه[1].

وفى عصر الهادى خرج الحسين بن على سليل الحسن بن على بن أبى طالب فى مكة والحجاز ، فلقيه ومَنْ معه جيش عباسى بالقرب من مكة ، فى مكان يقال له « فخ » وقاتل قتالاً عنيفًا حتى قُتل ، وقُتل معه كثيرون من أنصاره ، وظلوا فى العراء حتى أكلتهم السباع والعقبان[2] . وهرب خاله إدريس بن عبد الله بن الحسن أخو النفس الزكية إلى المغرب ، فغلب على فاس وأسس بها دولة الأدارسة[3] . وهرب أيضًا خاله يحيى بن عبد الله إلى خراسان ، وما زال الرشيد يتعقبه حتى طلب منه الأمان ، فأجابه إلى طلبه وقدم عليه ، فدفعه إلى جعفر بن يحيى البرمكى وأمره بحبسه ، فحبسه ، ورقّ له فأطلقه دون إذن الرشيد[4] مما كان سببًا فى نكبته ونكبة أسرته كما أسلفنا ، ووقع يحيى فى يد الرشيد ثانية فسجنه حتى مات . واعتقل الرشيد موسى الكاظم بن جعفر الصادق الإمام السابع عند الشيعة الاثنى عشرية ، وظل فى السجن إلى وفاته[5] .

ونمضى إلى عصر المأمون فيخرج عليه قبل انتقاله إلى بغداد إبراهيم بن موسى سليل الحسين بن على بن أبى طالب باليمن وتعظم ثورته ويقضى عليه[6] . ويخرج محمد بن جعفر الصادق بمكة ، وسرعان ما يؤخذ فيعفو عنه المأمون[7] . ويخرج بالكوفة أبو السرايا داعيًا لمحمد بن إبراهيم سليل الحسن بن على بن أبى طالب

---

(١) الجهشيارى ص١٥٩ والطبرى٦/٣٨٤.

(٢) اليعقوبى ٣/١٣٧ والطبرى ٦/٤١٠ والمسعودى ٣/٢٤٨ والنجوم الزاهرة ٢/٥٩ .

(٣) اليعقوبى ٣/١٣٧ والطبرى ٦/٤١٦ والمسعودى ٣/٢٢٢ والنجوم الزاهرة ٢/٤٠ ، ٥٩ .

(٤) اليعقوبى ٣/١٤٠ والجهشيارى ص١٩٠ والطبرى ٦/٤٥٠ ، ٤٨٥ والمسعودى٣/٢٦٢ وابن الطقطقى ص١٤٤ والنجوم الزاهرة٢/١١٥.

(٥) اليعقوبى ٣/١٤٥ والمسعودى ٣/٢٦٥ وابن الطقطقى ص١٤٥ والنجوم الزاهرة٢/٧٢.

(٦) الطبرى ٧/١٢٣ .

(٧) الطبرى ٧/١٢٥ وابن الطقطقى ص١٦٥ .

المعروف بابن طباطبا ويقضي على ثورته قضاء مبرماً[١] . وكان المأمون حر الفكر ويظهر أنه كان يأسى لما أصاب أبناء عمه العلويين فى دولتهم ، واستغل ذلك فيه وزيره الفضل بن سهل ، وكان فيه تشيع لهم ، فزيّن له — وهو بمرو — أن يعهد بالخلافة من بعده إلى على الرضا بن موسى الكاظم الإمام الثامن فى ترتيب الشيعة الاثنى عشرية وكان مثالا للتقوى والورع وكان المأمون يبجّله ويعظمه ، فاستصوب رأى وزيره وجعله ولىّ عهده من بعده ،وكتب بذلك إلى الآفاق ، وأمر بخلع السواد شعار العباسيين ولُبْس الخضرة شعار العلويين [٢] . ولم يكد يصل هذا الصنيع إلى العباسيين ببغداد حتّى وجدوا على المأمون موجدة شديدة ، جعلتهم يسارعون إلى خلعه والبيعة لعمه إبراهيم بن المهدى . وأحسّ أن الأمر يوشك أن يخرج من يده ، فتجهّز للمسير إلى بغداد ، وفى طريقه بطوس توفّى على الرضا ، فلم يتخذ وليًّا لعهده من العلويين ، بل عاد إلى بنى العباس واغتيل حينئذ الفضل بن سهل . وما إن وصل إلى بغداد حتّى اختفى عمه إبراهيم وظل مستخفيًا مدة حتّى عفا عنه . وعاد ثانية إلى لبس السواد ، وظل يعطف على أبناء عمه العلويين ، على الرغم من خروجهم عليه مراراً[٣] ، وكان مما وثّق هذا العطف فى نفسه ثمامة بن أشرس النمرى مقدم المعتزلة فى مجالسه ، وكان شيعى الهوى ، ولعله هو الذى دفعه إلى أن يأمر مناديًا ينادى فى الناس سنة ٢١١ : «برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير أو فضّله على أحد من الصحابة ،وإن أفضل الخلق بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلم على بن أبى طالب رضى الله عنه »[٤] وأيضًا لعله هو الذى دفعه إلى أن يكتب فى شهر ربيع الأول من السنة التالية إلى الآفاق بتفضيل على بن أبى طالب — رضى الله عنه — على جميع الصحابة[٥] . وربما كانت أهم ثورة للشيعة بعد المأمون

---

(١) اليعقوبى ٣/١٧٥ والطبرى ٧/١١٧ والمسعودى ٣/٣٤٨ وابن الطقطقى ص ١٦٥ والنجوم الزاهرة ٢/١٦٤ وفى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) .

(٢) انظر فى بيعة المأمون لعلى الرضا كتاب اليعقوبى ٣/١٧٦ والطبرى٧/١٣٩ والمسعودى ٣/٣٤٩ وابن الطقطقى ص ١٦٢ والنجوم الزاهرة ٢/١٦٩ .

(٣) انظر الطبرى ٧/١٦٨ والنجوم الزاهرة ٢/١٨٣

(٤) الطبرى فى حوادث سنتى ٢١١ ، ٢١٢ وراجع النجوم الزاهرة ٢/٢٠١ .

(٥) الطبرى فى حوادث سنة ٢١٢ والنجوم الزاهرة ٢/٢٠٣ وقد أوصى المعتصم عند وفاته بأبناء عمه العلويين خيراً وأن يتغاضى عن مسيئهم فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى . انظر الطبرى ٧/٢١٠ .

ثورة محمد بن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين لعهد المعتصم سنة ٢١٩ فقد خرج بالطَّالَقان يدعو إلى الرضا من آل محمد فاجتمع عليه خلق كثير ، وما زالت جيوش عبد الله بن طاهر والى خراسان تواقعه حتى انهزم وأسر ، فأرسله ابن طاهر إلى المعتصم فحبسه ، ولكنه هرب من السجن واختفى فلم يوقف له على أثر ولا على خبر[١].

وقد استأثر التشيع فى هذا العصر بالجانب الأكبر من معارضة العباسيين . أما مذهب الخوارج فضعف شأنه بسبب فتك الأمويين بهم فتكاً ذريعاً ، بحيث لم يبق منهم إلى العصر العباسى سوى فلول فى أنحاء متفرقة بعُمان والجزيرة وخراسان وتونس . وكانت نظريتهم فى الخلافة وإمامة المسلمين صائبة ، غير أنهم صرفوها إلى قتال إخوانهم المسلمين وبذلك لم يكتب لها النجاح من قديم ، فقد كانوا يرون أن تُرَدّ الخلافة إلى الأمة ، بحيث يليها أجدر المسلمين بها ولو كان عبداً حبشياً ، غير أنهم مضوا فكفّروا المسلمين واستحلّت بعض فرقهم لا دماءهم فحسب ، بل أيضاً دماء أطفالهم ونسائهم ، وبذلك ضَلّوا الطريق ، إذ أغمدوا الدعوة الحسنى وشهروا السيوف متهمين إخوانهم فى الدين بالكفر والردة ، وبدلا من أن يتعاونوا معهم فى حرب أعدائهم جميعاً من الأمم الأجنبية حاربوهم حرباً عنيفة يريدون أن يمحوهم من الأرض محواً . وبذلك لم تعد المسألة مسألة تحقيق المساواة بين المسلمين فى حقوق الحكم وما يتبع ذلك من إقرار العدالة التى لا تطيب الحياة إلا بها ولا تستقيم إلا عليها ، بل أصبحت مسألة كفر وإيمان وسيوف مشرعة ودماء مسفوحة .

وأول ثورة تلقانا لهم فى هذا العصر ثورة خوارج عُمان الإباضيين بقيادة الجُلُنْدى وقد جرّد له السفاح جيشاً جرّاراً بقيادة خازم بن خزيمة ، فقضى عليه[٢]. وفى عهد المنصور ثار مليد بن حرملة الشيبانى بالجزيرة فقضى عليه أيضاً خازم ابن خزيمة[٣] ، وثار الإباضية بتونس وقضى عليهم يزيد[٤] بن حاتم المهلبى . وفى عهد المهدى ثار بخراسان فى طائفة من الخوارج يوسف بن إبراهيم المعروف بالبرم ، فتصدّى له يزيد بن مزيد الشيبانى ، وأسره فى جماعة من أصحابه ،

---

(١) اليعقوبى ٣/١٩٨ والطبرى ٧/٢٢٣ والمسعودى ٤/٨ والنجوم الزاهرة ٢/٢٣٠ .

(٢) طبرى ٦/١١٤ .

(٣) طبرى ٦/١٤١ .

(٤) اليعقوبى ٣/١٢٠ والطبرى ٦/٣٥٨ .

وبعث بهم جميعاً إلى المهدى ، فأمر بقتلهم وصلبهم[1] ، وثار بقنسرين عبد السلام الخارجى وقضى عليه بعض[2] القواد . وفى عهد الرشيد ثار الوليد بن طَريف الشيبانى بالجزيرة واشتدت شوكته ، فوجه إليه إبراهيم بن خازم بن خزيمة ففتك به ، وسار إلى أرمينية وكثرت بها جموعه ، فجرَّد له الرشيد يزيد بن مزيد فى جيش كثيف ، فمحقه محقاً[3] . وعاث حمزة الشارى فى خراسان ولقى حتفه[4] ، كما عاث ثروان الحرورى فى ضواحى البصرة ولقى نفس المصير[5] . وفى عهد المأمون خرج مهدى بن علوان الحرورى بسواد العراق وباءت ثورته بالفشل[6] على نحو ما باءت ثورة بلال الشارى[7] . ولا نسمع بعد ذلك عن ثورات للخوارج إلا ما كان من ثورة محمد بن عمرو الشيبانى بديار ربيعة وقضاء أبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى عليه[8] . وعلى هذا النحو كان الخوارج لا يلبثون — حين يثورون — أن يُقْضَى عليهم ، وفرق بعيد بين ثوراتهم فى هذا العصر وثوراتهم فى العصر الأموى ، فقد أخذت دعوتهم تضعف ضعفاً شديداً ، ولعلها من أجل ذلك لم تترك أثراً واضحاً حينئذ فى الحياة الأدبية إذ قلما نجد لهم شاعراً معروفاً .

٥

أحداث مختلفة

لم تطل مدة أبى العباس السفَّاح إذ سرعان ما توفى سنة ١٣٦ وخلفه أبو جعفر المنصور ، وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقى للدولة العباسية ، فهو الذى أصَّلها « وضبط المملكة ورتَّب القواعد وأقام الناموس »[9] ولم يكد يتسلم مقاليد الحكم حتى ثار عليه عمه عبد الله فى شمالىّ سوريا وكان يقود جيشاً ضخماً لحرب البيزنطيين ،

(١) طبرى ٣٥٨/٦ واليعقوبى ١٣٠/٣ والنجوم الزاهرة ٢٧/٢ .
(٢) طبرى ٣٧٢/٦ وانظر النجوم الزاهرة ٤١/٢ ، ٤٢ .
(٣) طبرى ٤٦٥/٦ والنجوم الزاهرة ٩٢/٢ ، ٩٥ .
(٤) طبرى ٤٧٢/٦ .
(٥) طبرى ٤٢٥/٦ .
(٦) طبرى ١٤٢/٧ .
(٧) طبرى ١٨٩/٧ والنجوم الزاهرة ٢٠٩/٢ .
(٨) اليعقوبى ٢٠٧/٣ .
(٩) انظر ابن الطقطقى ص ١١٦ .

فوجه إليه المنصور أبا مسلم الخراسانى فى جيش جرار ، فهزمه هزيمة منكرة فرّ على إثرها إلى البصرة عند أخيه سليمان بن على واليها ، فأخذ يستعطف له هو وأخوه عيسى ابن على والى الأهواز المنصور حتى رضى أن يكتب له كتاب أمان ، وتولى ابن المقفّع كتابته فشدد فيه العهد والميثاق على المنصورَ حتى أحفظه عليه . ومازال المنصور يمكر بعمه حتى وفد على بابه ، فحبسه مدة إلى أن مات فى حبسه[١] .

ولم يكن همُّ المنصور بعد القضاء على ثورة عمه إلا أخذ أبى مسلم الخراسانى وكان قد عزم بعد هزيمته لعبد الله بن علىّ أن يعود إلى خراسان، وخشى المنصور أن تحدثه نفسه بخلعه حين يرجع إلى موطنه ، إذ كان كل منهما يجد على صاحبه موجدة شديدة ، فكتب إليه بالقدوم عليه ، وخشى أبو مسلم مغبة قدومه ، فكتب إليه بالطاعة وأنه متوجه إلى خراسان . وقلق المنصور ، وكان مدبراً داهية ، فكتب إليه يؤكد له حسن رأيه فيه ذاكراً خدماته لدولتهم ، وأرسل له رسلا يزينون له المثول بين يديه ، فما زالوا به حتى قدم عليه ، وكان بالقرب من المدائن ، فلما دخل إليه لقيه بالتوبيخ والتقريع ، ولم يلبث أن قتله ، وبادر إلى مَن كانوا معه من القواد فأعطاهم جوائز سنية وفرّق فى جنده أموالاً كثيرة ، فرضخوا للواقع ورضوا به[٢] .

وغضب أتباع أبى مسلم فى خراسان حين علموا بمصيره، ولم يلبث أن ظهر بينهم سنباذ ، فقادهم معلناً أن أبا مسلم لم يمت وإنما اختفى وسيعود ليرفع الظلم وينشر العدل ،وتابعه كثيرون مكونين فرقة المُسْلمية أو الخرّمية[٣] ، وقدم بهم إلى الرّى فغلب عليها ، والتقى به المنصور بن جمهور العجلى فى جيش كثيف ، فقضى عليه وعلى ثورته[٤] ، ولكنه لم يقض على عقيدة فرقته ، فقد أخذت تَسْرى فى نفوس كثير من الخراسانيين والإيرانيين مختلطة بالعقائد المزدكية .

وكان السفاح قد جعل ولاية العهد بعد المنصور لعيسى بن موسى فرأى المنصور أن يحولها عنه إلى ابنه المهدى وما زال به حتى خلع نفسه منها ، فصيّرها فى ابنه ،

---

(١) الجهشيارى ص ١٠٣ واليعقوبى ١٠٤/٣ والطبرى ١٢٤/٦، ١٤٥ ، ٢٦٩ والمسعودى ٢٣٠/٣ والنجوم الزاهرة ٧/٢ .

(٢) طبرى ١٣٠/٦ واليعقوبى ١٠٢/٣ والمسعودى ٢١٧/٣ .

(٣) انظر فى الخرمية وعقيدتهم المسعودى ٢٢٠/٣ والفرق بين الفرق (طبع مصر) ص ٢٥١ .

(٤) الطبرى ١٤٠/٦ والمسعودى ٢٢٠/٣ وابن الطقطقى ص ١٢٥ .

وبايعه الناس [١] ، وأقرّت بذلك بلدان الخلافة ما عدا باذغيس إذ ثار بها شخص يسمى أستاذسيس ادّعى النبوة وتبعه خلق كثير وتفاقم شره ، فتصدى له خازم ابن خزيمة التميمي وفضّ جموعه ، وحمله إلى المنصور أسيرًا ، فأمر بقتله [٢] .

وولي المهدي بعد أبيه سنة ١٥٨ وفي عهده تحركت الخُرَّمية حركتين ، أما أولاهما فحركة رجل من أتباع أبي مسلم يسمى حكيماً من أهل مرو ، وقد أعلن ثورته في سنة ١٦١ واتخذ لوجهه قناعاًمن ذهب ركّبه عليه حتى لا يُرَى ، ولذلك اشتهر باسم المقنّع الخراساني . وكان يقول بتناسخ الأرواح ، فزعم أنه نبي وأنه التجسد الجديد للذات الإلهية بعد أبي مسلم . وبايعه خلق عظيم أضلهم واستغواهم حتى كانوا يسجدون إلى ناحيته ، ووثب بهم على بعض ما وراء النهر ، فوجه إليه المهدي القواد وعلى رأسهم سعيد الحَرَسِيّ ، فاعتصم منهم بقلعة من أعمال كش على مقربة من جرجان ، ولما يئس من المقاومة أضرم ناراً عظيمة أحرق بها كل ما في القلعة من دواب وثياب ومتاع وألقى فيها بنفسه وأولاده ونسائه ، ويقال : بل مَصّ سمّاً وأسقى نساءه وأولاده فتلفوا ، وبذلك خمدت حركته [٣] . أما الحركة الثانية فكانت في سنة ١٦٢ إذ ظهرت طائفة من الخرمية بجرجان تسمى المحمِّرة لحمرة راياتها ، وكان على رأسهم شخص يسمى عبدالقهار ، فقتلوا وأفسدوا وعاثوا في الأرض ، فسار إليه من طبرستان عمر بن العلاء ممدوح بشار ، وقتله ودمّر جنده [٤] .

وعظمت — في عهد المهدي — حركة الزندقة ببغداد والعراق ، ورأى المهدي فيها شرّاً مستطيراً يتهدّد كيان الدولة والإسلام جميعاً ، فجدّ في طلب الزنادقة منذ سنة ١٦٦ [٥] وقيل بل منذ سنة ١٦٣ واتخذ لهم ديواناً يتعقبهم ، جعل عليه عمر الكَلْواذانيّ [٦] ، وأخذ يقتلهم ويصلبهم نكالاً لغيرهم ، وكان ممن قتله عبد الله ابن وزيره أبي عبيد الله وبشار بن برد وتوفّي الكلواذاني سنة ١٦٨ فخلفه على الديوان حَمْدَوَيْه [٧] وهو محمد بن عيسى من أهل مَيْسان .

---

(١) اليعقوبي ٣/١١٥ والطبري ٦/٢٧١ وابن الطقطقي ص ١٢٦ والنجوم الزاهرة ٢/٧ ، ٥٣ .

(٢) اليعقوبي ٣/١١٥ .

(٣) طبري ٦/٣٦٧ ، وابن الطقطقي ص ١٣٢ والنجوم الزاهرة ٢/٣٨ ، ٤٥ .

(٤) اليعقوبي ٣/١٣٠ والطبري ٦/٣٧٣ والنجوم الزاهرة ٢/٤٢ .

(٥) الجهشياري ص ١٥٣ وقارن بالنجوم الزاهرة ٢/٤٥ .

(٦) الجهشياري ص ١٥٦ والكلواذاني نسبة إلى كلواذا وهي قرية على بعد فرسخين من بغداد .

(٧) اليعقوبي ٣/١٣٣ والطبري ٦/٣٩١ والنجوم الزاهرة ٢/٥٥ ، ٥٦ .

وفى عهد المهدى أغار الروم على سميساط[١] ونكّلوا بأهلها ، فجرّد إليهم جيشاً ضخماً بقيادة العباس بن محمد فبلغ أنقرة . وتوالى غزو الروم حتى إذا كانت سنة ١٦٣ تولى هرون الرشيد قيادة الجيوش الغازية ، فعصف بهم عصفاً ، حتى إذا كانت سنة ١٦٥ بلغ خليج القسطنطينية دون مقاومة تذكر ، وامتلأ الروم هولاً ورعباً وفزعاً ، فتعهدوا أن يؤدوا الجزية كل عام سبعين ألف دينار وهم صاغرون[٢] .

ومما يؤثر للمهدى إجراؤه الرواتب على المجذّمين . وتوفى سنة ١٦٩ فخلفه ابنه الهادى ، وسار على سنته فى تتبع الزنادقة وقتلهم ، وفى عهده خرج دحية بن المصعب ابن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان بناحية أهناس فى صعيد مصر وملك أكثر بلاده ، وهزم جيوش الولاة مراراً ، وأخيراً قُضى عليه فى سنة ١٦٩[٣] . واعتزم الهادى خلع الرشيد من ولاية عهده ، ولكن يحيى البرمكى عرف — كما قدمنا — كيف يصرفه عن ذلك ، وسرعان ما توفى بعد أربعة عشر شهراً من خلافته .

وولى الرشيد سنة ١٧٠ وامتدت خلافته إلى سنة ١٩٣ ويُعَدُّ عصره العصر الذهبى للخلافة العباسية بما بلغته من أبهة الملك وفخامته ، ولا تزال ذكراه حيّة فى نفوس العرب إلى اليوم ، وربما كان للقصص المحكية عنه فى « ألف ليلة وليلة » أثر فى ذلك فإن مترجميها وواضعى بعض قصصها رأوا أن يدخلوه فى ثنايا القصص حتى يصوروا ما بلغته بغداد من الرّفه والترف والبذخ . وحفلت حينئذ بالعلماء من كل صنف والمترجمين والأطباء والشعراء والمغنين والمغنيات والجوارى من كل جنس وعلى كل لون . وكان الرشيد كَلِفاً بالسماع والمتاع بنعيم الحياة مع إعطاء الدين حقوقه ، يقول ابن الطقطقى : « كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم ، وكان يحج سنة ويغزو سنة كذلك مدة خلافته إلا سنين قليلة ، وكان يصلى فى كل يوم مائة ركعة ، وحَجّ ماشياً ، وكان إذا حجّ حجّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم . . ولم يُرَ خليفة أسمح منه بالمال ، وكان يحب الشعر

---

(١) سميساط : مدينة غربى الفرات فى طرف بلاد الروم .

(٢) اليعقوبى ١٣٥/٣ والطبرى ٣٧٩/٦ والنجوم الزاهرة ٤٧/٢ .

(٣) اليعقوبى ١٣٧/٣ والنجوم الزاهرة ٤٩/٢ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٠ .

والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه »[١] وكان إذا لم يحجّ أحجّ ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة ، وكان يتصدّق من صُلْب ماله فى كل يوم بألف درهم بعد زكاته[٢] ، وكانت أيامه تشبّه بأيام العروس لما امتازت به من بهاء وجمال .

ولم تخل أيامه من الفتن والثورات ، وقد ذكرنا آنفاً ما كان من حركات بعض العلويين والخوارج ، وفى عهده هاجت العصبية بالشام بين اليمنية والمضرية وأطفأ نائرتها جعفر بن يحيى البرمكى[٣] ، وثار أهل الحَوْف بمصر وقضى على ثورتهم هَرْثمة بن أعين كما قضى على ثورة أخرى بإفريقية[٤] ، وثار المحمِّرة بجرجان وفضّ جموعهم على[٥] بن عيسى بن ماهان ، وانتقض الخزر فى القوقاز وأرمينية وقلم أظافرهم خازم[٦] بن خزيمة ويزيد بن مزيد الشيبانى ، وثار الخرَّمية بأذربيجان وعصف بهم عبد الله[٧] بن مالك ، وثارت بلاد الزاب جنوبى الجزائر ، وأعاد الأمن إلى نصابه هناك إبراهيم بن الأغلب فكافأه الرشيد بكتابة عهد له على إفريقية نظير خراج يؤديه سنوياً ، فأنشأ هناك دولة الأغالبة ، واتخذ حاضرة له « العباسة » التى بناها جنوبى القيروان .

وامتنع نقفور إمبراطور بيزنطة عن أداء الجزية التى فُرضت على بلاده فى عهد المهدى ، كما أسلفنا ، ولم يكتف بذلك فقد كتب إلى الرشيد يطالبه بردّ ما أدّوْه منها فى السنوات الماضية ، وكتب إليه الرشيد على ظهر كتابه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه ، والسلام[٨] » وشخص إليه على رأس حملة قوية اخترق بها آسيا الصغرى وغنم مغانم كثيرة وافتتح هرقلة ، فارتاع نقفور وفزع فزعاً شديداً وتعهد بأداء الجزية صاغراً[٩] . ورأى الرشيد — فيما يقال — أن يصطنع شارلمان ملك الفرنجة فى غربى أوربا حتى يؤيده ضد إمبراطور

---

(١) ابن الطقطقى ص ١٤٣ .
(٢) طبرى ٦/٥٣٠ .
(٣) الجهشيارى ص ٢٠٨ والطبرى ٦/٤٥٧ ، ٤٦٦ .
(٤) طبرى ٦/ ٤٦١ .
(٥) طبرى ٦/٤٦٦ .
(٦) طبرى ٦/٤٧١ .
(٧) طبرى ٦/٥٢٤ والنجوم الزاهرة ٢/١٣٩ .
(٨) طبرى ٦/٥٠١ .
(٩) طبرى ٦/٥٠٩ .

بيزنطة ، وكان شارلمان يود لو أيده الرشيد ضد الأمويين فى الأندلس ، وسفرت بينهما السفارات وتبادلا هدايا ثمينة[١] .

وفى سنة ١٩٠ ثار رافع بن الليث بسمرقند وتفاقمت ثورته ، فرأى الرشيد أن يسير إليه بنفسه فى سنة ١٩٢ . ولكنه توفى فى طريقه إليه بطوس سنة ١٩٣ ، وتمت الغلبة بعد ذلك على رافع وشيعته . وكان الرشيد قد عقد ولاية العهد من بعده لابنه محمد سنة ١٧٣ ولقبه بالأمين ، وضمّ إليه الشام ومصر ، ثم عقد لابنه عبد الله ولاية العهد من بعد أخيه سنة ١٨٣ ولقبه بالمأمون ، وضمّ إليه الولايات الشرقية ، وأكّد هذا العقد بين الأخوين بتوقيعهما عليه وقسمهما على الوفاء به وتعليقه[٢] فى الكعبة سنة ١٨٦ وفيها بايع الرشيد بولاية العهد لابنه القاسم بعد أخويه ولقبه المؤتمن وضم إليه الجزيرة والثغور وكان لا يزال صبيًّا .

وكان هذا الصنيع من الرشيد نذير شؤم فإن بساطاً قد يتسع لنوم عشرة من الناس ، ولكن مملكة بأسرها لا تتسع لسلطان حاكمين . فلم يكد ينتقل الرشيد إلى جوار ربه حتى شجر الخلاف[٣] بين الأمين والمأمون إذ أخذت حاشية الأمين تسوّل له أن ينقض العهد الموثق فى البيت الحرام . وشاءت الظروف أن يقع الأخوان فريسة للتنافس بين الحزبين : العربى والفارسى ، وكان الحزب الأول يغلب على الأمين بينما كان الحزب الثانى يغلب على المأمون ، وكانت أم الأمين هاشمية عربية فهى زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، بينما كانت أم المأمون أمة فارسية تسمّى مراجل . وما زال الحزب العربى — فيما يقال — يغوى الأمين بخلع أخيه وتولية ابنه موسى ولاية العهد من بعده ، حتى استجاب له ، وتردّدت المراسلات بينه وبين المأمون وأوشك أن يجيبه إلى ما يريد من خلع نفسه ، ولكن الفضل بن سهل وزيره ردّه عن ذلك ونهض بأمره ، واستمال له الناس ، وضبط الثغور .

ولم يلبث الأمين أن أمر بقطع اسم المأمون من خطبة الجمعة وصنع المأمون صنيعه بخراسان ، وأخذا فى إعداد الجيوش ، وسارع الأمين فأنفذ على بن عيسى

---

(١) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمن (الترجمة العربية) ٢/٢١ وقصة الحضارة لول ديورانت (الترجمة العربية) ١٣/٩٤ .

(٢) الطبرى ٦/٤٧٥ والمسعودى ٢/٢٧٠ ، ٣٠٨ والنجوم الزاهرة ٢/١١٩ .

(٣) انظر فى هذا الخلاف الطبرى ٧/٢ والمسعودى ٣/٣٠٢ ، ٣٠٨ والجهشيارى ص ٢٨٩ وابن الطقطقى ص ١٥٩ .

ابن ماهان فى جيش جرار لمنازلة المأمون وجنده والتقى به فى الرىّ طاهر بن الحسين ، فقتله ومزّق جيشه تمزيقاً . وشغب الحسين بن على بن عيسى بن ماهان على الأمين فخلعه وحبسه ، غير أن بعض العسكر خلصوه ، ونعجب إذ نراه يعفو عنه ويوليه قيادة جيشه ويوجهه إلى طاهر ، ويلقاه ، غير أنه سرعان ما يفر ويقتل فى فراره ، كما يقتل قواد آخرون أرسل بهم الأمين . وفى هذه الأثناء تدخل مكة والمدينة فى طاعة المأمون ، ويحاصر قائداه طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين بغداد لنحو خمسة عشر شهراً ويرميانها بالمجانيق فيكثر بها الحرق والهدم وتفضى الحياة فيها إلى هول هائل ، فتنهب الأموال وتقترف المنكرات ، ويحاول سهل بن سلامة الأنصارى وابن الدريوش أن يقمعا الفساد وشذوذ الدُّعّار[1] ولكن أنّى لهما أن يدفعا ما تردّت فيه بغداد من أهوال الشر ، والنيران تأخذها من كل جانب أياماً طوالا والمساجد قد عطلت والصلاة قد أهملت . ويبكى الشعراء من أمثال الخريمى بغداد بكاء مرّا ، وتسقط محلاتها محلة إثر محلة فى يد الجيوش المحاصرة ، ولا يجد الأمين أخيراً مفرّاً من الاستسلام ، فيسلم نفسه لأعدائه ، ويقتل فى طريقه لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨ ويصبح الأمر خالصاً للمأمون ، وما توافى سنة ٢٠١ حتى يعزل أخاه القاسم من ولاية العهد ويولى عليها مكانه على الرضا كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع ، وتثور عليه أسرته ببغداد ، وتبايع عمه إبراهيم بن المهدى فيعزم على المسير إلى دار السلام ، ويدخلها فى شهر ربيع الأول سنة ٢٠٤ ، فيتوارى عمه إبراهيم مدة ويعفو عنه كما أسلفنا .

وعصر المأمون من أزهى عصور الدولة العباسية ، فقد كان حر الفكر شغوفاً بالمعرفة ، ولم يكد يستقر فى بغداد حتى جعل من مجالسه ندوة علمية كبيرة يتحاور فيها ويتناظر الفقهاء والمتكلمون والعلماء من كل صنف ، وجعله اتصاله بعلماء الكلام وفى مقدمتهم ثمامة بن أشرس النمرى وبشر بن غياث المريسى يعنى بالفلسفة وعلوم الأوائل حتى مهر فيهما ، وقد استطاعا أن يجرّاه إلى الاعتزال وإلى القول بأن القرآن مخلوق ، وأن من لا يقول بذلك يدخل فى عداد المشبّهة ، وما توافى سنة ٢١٢ حتى يجعل المأمون من فكرة خلق القرآن عقيدة رسمية للدولة ، ويكتب إلى الآفاق

(١) طبرى ١٣٦/٧ وما بعدها .

بامتحان[١] الفقهاء فيها ، فمن لم يقر بأنه مخلوق ضُرب وحبس وأشخص إلى بغداد. وتوفّى ثمامة سنة ٢١٣ وتولى كبر هذه المحنة بشر المريسى المتوفى سنة ٢١٨ ثم أحمد ابن أبى دؤاد أحد رءوس المعتزلة ، لا فى عهد المأمون فحسب ، بل أيضًا فى عهد المعتصم والواثق أى إلى نهاية هذا العصر . وأعظم سنة اشتدت فيها هذه المحنة سنة ٢١٨ إذ عنف المأمون بالفقهاء عنفًا شديدًا ، فضُرب من لم يُقروا بأن القرآن مخلوق وأهينوا ورُدِعوا بالسيف وغيره ، وكان ممن ثبت على رأيه أحمد بن حنبل فقُيِّد وأمر المأمون بأن يحمل إليه هو ومن امتنع مثله عن الإقرار بخلق القرآن ، وكان يغزو بأرض الروم شمالى الشام ، فأوثقوا بالحديد ، وحُملوا إليه . وما إن وصلوا إلى الرقة ، حتّى جاء الخبر بنعى المأمون ، فرُدُّوا إلى بغداد ، وعاد المعتصم إلى امتحان ابن حنبل ، فثبت للمحنة ولم يرجع عن رأيه .

وقد حدثت فى عصر المأمون ثورات كثيرة كان يعهد فى إخمادها إلى قواده الأكفاء من مثل طاهر بن الحسين ، وقد ولاّه خراسان فى سنة ٢٠٥ فقضى على رءوس الفتن بها ، ويقال إنه فكر فى خلع طاعة المأمون ولكن الموت عاجله ، وجعل المأمون بعده ولاية خراسان لابنه طلحة فظل بها إلى وفاته سنة ٢١٣ وولى المأمون عليها من بعده أخاه عبد الله فأسس هناك الدولة الطاهرية التى ظلت نحو قرن من الزمان . وكان عبد الله قد أدّى للدولة خدمات جليلة ، إذ ولاّه المأمون الرقة لحرب نصر بن شبث العقيلى وضيق عليه الخناق حتّى ألقى له عن يد طالبًا الأمان[٢] لسنة ٢٠٩ وكانت نار الفتنة مشتعلة[٣] بمصر منذ حروب الأمين والمأمون ، إذ ناصرت القيسية الأمين واليمنية المأمون ، واشتبكت الفئتان فى حروب دامية ظلت مضطرمة ، وظلت معها القلاقل ، وزاد فيها نزول جموع من الأندلس فى الإسكندرية كان قد طردهم الحكم أمير قُطْرهم فولّوا وجوههم إليها واستولوا عليها. فرأى المأمون أن يولِّى على مصر عبد الله بن طاهر حتّى يقمع ما بها من فتن وحتّى يرد الأندلسيين

---

(١) انظر فى هذه المحنة الطبرى ١٩٥/٧ وما بعدها واليعقوبى ١٩٤/٣ وكتاب بغداد لابن طيفور (طبع القاهرة) ص ١٨١ والنجوم الزاهرة ٢١٢/٢ ، ٢١٨ وما بعدها ، ٢٢٤ .

(٢) اليعقوبى ١٨٧/٣ والطبرى ١٧١/٧ ، وابن طيفور ص ٧٧ .

(٣) انظر فى أحداث مصر التالية الطبرى ١٧١/٧ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، والنجوم الزاهرة ٢١٠/٢–٢١٦ واليعقوبى ١٨٧/٣ – ١٩٢ .

عن الإسكندرية ، فدخلها فى ربيع الأول سنة ٢١١ وهزم عبيد الله بن السرى وأعاد الأمن إلى نصابه ، وأكره الأندلسيين على الانسحاب إلى جزيرة إقريطش (كريت) فنزلوها واستوطنوها لسنة ٢١٢ ، وعاد ابن طاهر إلى بغداد فى رجب من نفس السنة واستخلف عليها عيسى بن يزيد الجلودى فأقرّه المأمون على إمرتها ، وعزله فى السنة التالية وولّى عليها أخاه المعتصم ، فاستخلف عليها عمير بن الوليد ، وثار عليه القيسية واليمنية ، وخرج لحربهم بالحَوْف فى ربيع الأول لسنة ٢١٤ غير أنه قتل فى المعركة ، فاستخلف عليها المعتصم عيسى بن يزيد الجلودى ثانية ، واشتبك مع اليمنية والقيسية وهزموه هزيمة منكرة ، فخرج إليها المعتصم بنفسه فقمع ما بها من فساد ، وعاد إلى الموصل . وثار القبط فى مستهل سنة ٢١٦ وقضى على ثورتهم الأفشين ، غير أن الفتن ظلت قائمة بمصر حتى دخلها المأمون لخمس خلون من المحرم سنة ٢١٧ فمهّدها ورتب أحوالها واستقرت ، وقد ظل بها تسعة وأربعين يومًا .

وكانت قد اندلعت فى أذربيجان منذ سنة ٢٠١ ثورة عنيفة للخرمية بقيادة بابك ، فوجّه إليه المأمون محمد بن حميد الطوسى سنة ٢١٢ فواقعه مرارًا منكّلا به وبأنصاره ، حتى إذا كانت سنة ٢١٤ خانه الحظ فى بعض معاركه معه ، فخرّ صريعًا[1] ، وكان لذلك رنّة حزن عميقة فى العالم العربى جعلت الشعراء يبكونه طويلا . وبعث المأمون إلى بابك من بعده على بن هشام وخالد بن يزيد الشيبانى ، فاشتبكا معه فى غير موقعة ، ولكنهما لم يستطيعا القضاء عليه . وعلم المأمون أن إمبراطور بيزنطة يعين بابك فى حروبه ، فاستشاط غضبًا ، وأخذ منذ سنة ٢١٥ يقود بنفسه حملات عنيفة ضده وضد البيزنطيين[2] ، يتقدمه قواده من أمثال أخيه المعتصم والأفشين وخالد بن يزيد الشيبانى وجعفر الخياط ، ومضى فى بعض حملاته حتى بلغ أنقرة ، فارتعدت فرائص تيوفيل إمبراطور بيزنطة وطلب الصلح والمهادنة ، غير أن المأمون ظل يوالى حملاته حتى إذا كان فى آخر حملة له سنة ٢١٨ نزل به مرض شديد، ولم يلبث أن لبّى نداء ربه فى موضع يسمّى «البُذَنْدُون»

---

(١) اليعقوبى ٣/١٩٠ والطبرى ٧/١٨٩ والنجوم الزاهرة ٢/٢٠٩ .

(٢) انظر الطبرى ٧/١٨٩ وما بعدها واليعقوبى ٣/١٩٣ والنجوم الزاهرة فى السنوات ٢١٥-٢١٨ وكتاب العرب والروم لفازيلييف (نشر دار الفكر العربى) ص ٨٩ وما بعدها .

وقد حُمل منه جثمانه إلى طرسوس .

ويخلف المعتصم أخاه المأمون وتظل فى عهده محنة القول بخلق القرآن قائمة وإن كان قد خفّف من حدّتها كثيراً . وكان قد استكثر من الترك وآذوا العامة فى بغداد فبنى لهم سامرّاء ، كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع . وفى أوائل عهده ثار الزُّطُّ بالبصرة وقضى على ثورتهم عجيف [1] بن عنبسة . وماتوانى سنة ٢٢٠ حتى يعد جيشاً ضخماً لحرب بابك بقيادة الأفشين ويمده بكثير من القواد أمثال أبى دُلَف العجلى ومحمد بن يوسف الثغرى ، وتتوالى انتصارات هذا الجيش على بابك وشيعته ، حتى إذا كانت سنة ٢٢٢ سُحقت جموعه سحقاً ، واستسلم صاغراً [2] ، ولم يلبث أن أُدخل إلى بغداد مقيداً مغلولا ، فتعالى التكبير ، وقُتل وعُلِّقت رأسه وأحرق جسده عبرة ونكالا . وكان إمبراطور بيزنطة — كما ذكرنا آنفاً — يضع يده فى يد بابك ، وحدث أن أغار على زِبَطْرة [3] وأعالى الفرات فأمر المعتصم بإعداد جيش جرّار لتأديبه قاده بنفسه ، ووطئت جنوده بلدان [4] الروم فى آسيا الصغرى بقيادة الأفشين وجعفر بن دينار وخالد بن يزيد الشيبانى ومحمد بن يوسف الثغرى وغيرهم ممن ساموا البيزنطيين ذُلاً وصغاراً ، وقد أخربوا فيما أخربوا أنقرة وسلطوا مجانيقهم على عمورية حتى فتحت أبوابها عنوة . وعاد المعتصم قرير العين ، وعلم فى عودته أن العباس ابن أخيه المأمون يدبر مؤامرة ضده ، فأحبط مؤامرته . وثار مازيار بطبرستان سنة ٢٢٤ وجاءت به الجيوش التى حاربته مكبلاً بالحديد إلى بغداد ، فقُتل وصُلب [5] . وثبت أن الأفشين كان يكاتبه سرّاً آملاً فى عودة دين آبائهما المجوس ، فسجنه المعتصم سنة ٢٢٥ وظل فى سجنه حتى مات وصُلب بعد موته [6] .

وتوفى المعتصم سنة ٢٢٧ فخلفه ابنه الواثق، وقد أعاد محنة القول بخلق القرآن

---

(١) طبرى ٢٢٥/٧ واليعقوبى ١٩٨/٣ والنجوم الزاهرة ٢٣٣/٢ .

(٢) انظر الطبرى ٢٢٦/٧ وما بعدها واليعقوبى ٢٠١/٣ والمسعودى ١٤/٤ والنجوم الزاهرة ٢٣٢/٢ وما بعدها .

(٣) زبطرة : مدينة بين سميساط والحدث فى الطريق إلى بلاد الروم .

(٤) انظر فى هذه الحملة الطبرى ٢٦٣/٧ واليعقوبى ٢٠١/٣ والمسعودى ١٤/٤ والنجوم الزاهرة ٢٣٨/٢ وفازيلييف ص ١٢٤ وما بعدها .

(٥) اليعقوبى ٢٠٢/٣ والمسعودى ١٦/٤ والطبرى ٣٠٢/٧ والنجوم الزاهرة ٢٤٠/٢ .

(٦) اليعقوبى ٢٠٣/٣ والطبرى ٣٠١/٧ والمسعودى ١٦/٤ والنجوم الزاهرة ٢٤٢/٢ .

جذعة ، إذ نراه يكتب إلى الولايات المختلفة بامتحان الفقهاء والعنف بمن لا يُقرّون بأنه مخلوق . ولم تحدث فى سنواته الخمس فتوق كثيرة سوى ما كان من شغب بعض الأعراب فى الحجاز وقد قضى على شغبهم بغا الكبير[1] . وشَغب بعض الأكراد وسحق شغبهم وصيف[2] التركى . وسرعان ما توفّى الواثق سنة ٢٣٢ للهجرة .

---

(١) طبرى ٣٢٢/٧ وما بعدها واليعقوبى ٢٠٥/٣ والنجوم الزاهرة ٢٥٧/٢ .

(٢) طبرى ٣٣١/٧ .

الفصل الثانى

الحياة الاجتماعية

١

الحضارة والثراء والترف

لما فتح العرب العراق وإيران والشام ومصر ورثوا ما فى الأولى والثانية من الحضارات الساسانية والكلدانية والآرامية وما فى الثالثة والرابعة من حضارات بيزنطية وسامية قديمة ومصرية ، وأخذوا يكوّنون من ذلك ومن تراثهم العربى الخالص حضارتهم الإسلامية ، وكان طبيعيًّا أن تغلب على الأمويين بدمشق الحضارة البيزنطية وما كان بالشام من عناصر سامية حضارية ، حتّى إذا نقل العباسيون حاضرة الخلافة إلى العراق غلبت عليهم الحضارة الساسانية وغلبت على ما كان به من عناصر كلدانية وآرامية ، وهى تبدو واضحة فى بناء بغداد إذ أقامها المنصور مستديرة على شاكلة طيسيفون المعروفة باسم المدائن حاضرة الساسانيين ، وابتنى فيها قصره المعروف بقصر الذهب على طراز قصورهم ذات الأواوين الفخمة .

وقد كشفت حفائر سامرّاء عن طريق بناء الدور والقصور لافيها فحسب ، بل أيضًا فى بغداد ، فقد كان يصل بين الدار والقصر وبين الشارع أو الدرب دهليز مسقوف[1] يفضى إلى فناء واسع يسلم إلى القاعة الكبرى أو الإيوان ، وتتناثر فى الدهليز والفناء غُرَفٌ متجاورات للسكنى والمرافق المنزلية ، وتتصل بالإيوان بعض الغرف الصغيرة . وبجانب الفناء الكبير للدار أفنية صغرى ثانوية تعلوها بعض القباب ، وأكبرها جميعًا قبة الإيوان . وفى الدار حمامات ومجار تحت الأرض وسراديب معدة للسكنى ، وتكثر الأساطين فى الأفنية ، وتكثر الشرفات وتلحق بها

---

(١) انظر فى ذلك كتاب الحضارة الإسلامية لآدم ميتز (الترجمة العربية) ٢/١٥١ وما بعدها ، وراجع وصف إيوان قصر الأمين فى طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص٢٠٩ ووصف إيوان قصر المعتصم فى الموشح للمرزبانى ص ٣٠١ .

بعض البساتين وبعض النافورات والبرك . وكانت مصاريع الأبواب تصنع من الخشب المحلّى بالنقوش وتتألق النوافذ بالزجاج الملوّن ، وتزخرف الحيطان بالنقوش المستوحاة من الطير والحيوان والأشجار والأزهار ، وقد يذهّب السقف والأبواب والحيطان وتعلق هنا وهناك ستائر الحرير المزركشة ، وقد تحفر على الحيطان بعض الصور كالعنقاء ، أما أرض الدار فكانت تموج بالبسط الإيرانية والأرمنية والطنافس ومناضد الآبنوس والتحف الثمينة وتماثيل العقيان والجامات المذهبة والأوانى المرصعة بالجواهر .

ولا ريب فى أن هذا البذخ إنما كان يتمتع به الخلفاء وحواشيهم من البيت العباسى ومن الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة ومن اتصل بهم من الفنانين شعراء ومغنين ومن العلماء والمثقفين ، وكأنما كُتب على الشعب أن يكدح ليملأ حياة هؤلاء جميعاً بأسباب النعيم ، أما هو فعليه أن يتجرع غصص البؤس والشقاء وأن يتحمل من أعباء الحياة ما يطاق وما لا يطاق . ومردُّ ذلك إلى طغيان الخلفاء العباسيين الذين حرموا الشعب حقوقه وطوقوه بالاستعباد والاستبداد والعنف الشديد ، وقد مضوا هم وبطاناتهم يحتكرون لأنفسهم أمواله وموارده الضخمة ، بحيث كانت هناك طبقة تنعم بالحياة إلى غير حد ، وطبقات قُتّر عليها فى الرزق ، فهى تشقى إلى غير حد ، واضطرب أوساط الناس من التجار وغيرهم بين الشقاء والنعيم .

وكانت خزائن الدولة هى المعين الغَدِق الذى هيأ لكل هذا الترف ، فقد كانت تُحْمَل إليها حمول الذهب والفضة من أطراف الأرض ، حتى قالوا إن المنصور خلّف حين توفى أربعة عشر مليوناً من الدنانير وستمائة مليون من الدراهم[1] وإن دخل بيت المال سنوياً لعهد الرشيد كان نحو سبعين مليوناً من الدنانير[2] . وكانت هذه الأنهار الدافقة من الأموال تُصَبُّ فى حجور الخلفاء ومن يحفّ بهم من بَيْتهم ومن الوزراء والقواد والولاة والعلماء والشعراء والمغنين . ونسوق من ذلك أطرافاً تصور ما آل إليه ذلك من شيوع الإقطاع والثراء العريض فى الطبقة الحاكمة وحواشيها ومن يلوذون بها ، فقد رُوى عن المنصور أنه فرض لكل شخص من أهل بيته ألف ألف درهم فى كل عام[3] ، ويقال إن غَلّة

(١) المسعودى ٣/٢٣٢ .

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون (طبع المطبعة البهية) ص ١٢٧ والجهشيارى ص ٢٨١ وضحى الإسلام (الطبعة الأولى) ١/١١١ .

(٣) طبرى ٦/٣٢٧ .

الخيزران زوجة المهدى من إقطاعاتها كانت تبلغ سنوياً مائة وستين مليوناً من الدراهم[١]، وكانت إقطاعات محمد بن سليمان بن على العباسي والى البصرة تدر عليه كل يوم مائة ألف درهم[٢]، وكانت للفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين قطيعة تغل له سنوياً مليون درهم[٣]، ولعلنا لا نعجب بعد ذلك إذا عرفنا أن عمرو ابن مسعدة وزير المأمون خلف بعد وفاته ثمانين ألف ألف دينار ونقل ذلك إلى المأمون فلم يأخذه العجب، بل قال: هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا[٤].

وكان الخلفاء والوزراء والولاة والقواد يغدقون على العلماء والأطباء والشعراء والمغنين، ورسم المهدى لمروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على مدحته ذائع مشهور، وكان يصنع الصنيع نفسه مع المغنين[٥] حين يطرب لبعض أصواتهم، وتجاوز رسمه لمروان ابنه الهادى فأعطاه يوماً على مدحته فيه مائة وثلاثين ألف درهم[٦]، وأطربه مغن فأهداه سبعمائة[٧] ألف دينار. وكان الرشيد بحراً فياضاً ما يني ينهل على العلماء والفقهاء من أمثال قاضيه أبي يوسف والأصمعي والكسائي، والأطباء من مثل جبرائيل بن بختيشوع، ويقال إنه صار إليه فى عهده ما يزيد على أربعة ملايين من الدراهم[٨]، وكان يجزل للشعراء والمغنين من نواله، ويكفى أن نعرف أنه وصل سلما الخاسر وحده لمدائحه فيه بعشرين ألف دينار[٩]، وطرب يوماً لغناء مخارق فأقطعه ضيعة وداراً ووصله بثلاثة آلاف دينار[١٠]، أما مغنيه الأثير عنده وهو إبراهيم الموصلي فيقال إن صلاته له تجاوزت مائتي ألف دينار[١١]. أما الأمين فقد تجاوز بصلاته كل حد حتى قالوا إنه أجاز عبد الله بن أيوب التيمي الشاعر يوماً بمائتي ألف درهم[١٢]، وطرب ليلة لغناء إسحق الموصلي، فأعطاه ألف ألف درهم[١٣]، وكان يعجب بمغنية تسمى بذلا، فأنفق عليها أموالا طائلة،

---

(١) المسعودى ٣/٢٥٧
(٢) الجهشيارى ص ٢٥٠
(٣) المسعودى ٣/٢٣٦
(٤) النجوم الزاهرة ٢/٢٢٧
(٥) أغانى (طبعة دار الكتب) ٦/٢٢.
(٦) النجوم الزاهرة ٢/٦٤ والأغانى ١٠/٨٠ ويقال إن سلما الخاسر أنشده مدحة فيه فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم انظر الجهشيارى ص ١٧٣.
(٧) طبرى ٦/١٣٩.
(٨) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (طبعة دار الفكر ببيروت) القسم الأول من الجزء الثانى ص ٥٨.
(٩) أغانى طبعة (الساسى) ٢١/٧٧.
(١٠) أغانى ٢١/١٤٤.
(١١) أغانى طبعة (دار الكتب) ٥/١٩٢.
(١٢) النجوم الزاهرة ٢/١٨٩.
(١٣) أغانى ٥/٣٦٨.

ويقال إنه أهداها من الجوهر ما لم تملك واحدة مثله[1] . وكان المأمون كثير الإغداق على حاشيته حتّى قالوا إنه فرق فى ساعة واحدة أربعة وعشرين ألف ألف درهم[2] ، ويروى ابن تغرى بردى أنه أمر يومًا لكل من ابنه العباس وأخيه المعتصم وعبد الله ابن طاهر بخمسمائة ألف دينار ، وعجب ابن تغرى بردى من تفريقه هذه المبالغ الطائلة ، فعقب على ذلك بقوله : لعل الدينار يوم ذاك لم يكن مثل دينارنا اليوم[3] وكأنما ذهب عن ابن تغرى بردى أن أموال الدولة كلها كانت فى أيدى المأمون وسابقيه وتاليه يبذلونها للناس حسب مشيئتهم وينثرونها عليهم نثراً .

ونافسهم الوزراء فى هذا البذل الواسع ، وللبرامكة فيه ما ليس لأحد ، حتى ليقال إنه لم يكن يُرَى لجليس خالد البرمكى دار إلا وخالد بناها له ، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ، ولا دابة إلا وخالد حمله عليها[4] ، وصنيع ابنه يحيى وولديه جعفر والفضل فى هذا الباب فوق صنيعه درجات ، فقد كانت بأيديهم خزائن الدولة لعهد الرشيد ، فملأوا منها أيدى العلماء والأطباء والمترجمين والمغنين والشعراء بالأموال ، بل بالثروات الضخمة ، على نحو ما يُحْكى من أنهم أعطوا إبراهيم الموصلى يوماً ستمائة ألف درهم وضيعة بمائة وستين ألفاً[5] ، وأعطى يحيى البرمكى يوماً ابنه إسحق مائة ألف درهم ليبتاع بها داراً وأعطاه ابنه جعفر مائة ألف لفَرْشها ، وأعطاه ابنه الفضل مائة ألف لزخرفتها ، وأعطاه ابنه محمد مائة ألف رابعة لنفقتها[6] ، وبلغ — فيما يقال — ما أعطوه لسلم الخاسر الشاعر عشرين ألف دينار[7] ، وكأنهم كانوا يبارون فيه الرشيد . وكان ينافسهم فى هذا البذل الواسع الفضل بن الربيع وبنو سهل وكبار الولاة والقواد من أمثال معن بن زائدة وابن أخيه يزيد بن مزيد الشيبانى وابنه خالد ويزيد بن حاتم المهلبى وأخيه روح ومحمد بن حميد الطوسى وأبى دلف العجلى ، وآل طاهر وفى مقدمتهم طاهر نفسه ، ويقال إن صلاته بلغت يوماً ألفى درهم وسبعمائة ألف وأن ابنه عبد الله تجاوز بصلاته يومًا هذا الرقم ، بل لقد ضاعفه إذ بلغ به أربعة آلاف ألف درهم وسبعمائة ألف[8] .

---

(١) أغانى (ساسى) ١٥/١٣٨ .
(٢) طبرى ٧/٢١٢ .
(٣) النجوم الزاهرة ٢/٢٠٥ .
(٤) الجهشيارى ص ١٥٠ .
(٥) أغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٣٨ .
(٦) أغانى ٥/٣٠٨ وما بعدها .
(٧) أغانى (ساسى) ٢١/٧٧ .
(٨) النجوم الزاهرة ٢/١٩٥ .

وكان لهذه السيول التي كانت ما تنى تسيل إلى حجور العلماء والأطباء والمترجمين والشعراء والمغنين أثرها الواسع في نهضة العلوم والآداب والفنون ، فقد كُفِي أصحابها مئونة العيش ، وكان منهم كثيرون يرتَّب لهم رزق معلوم يأخذونه في كل شهر أو في كل سنة ، بل لقد كان منهم وخاصة من المغنين والشعراء من يثْرى ثراء فاحشاً حتى ليقال إنه صار إلى إبراهيم الموصلي المغنى أربعة وعشرون مليون درهم سوى رزقه أو راتبه الجارى وهو عشرة آلاف درهم في كل شهر وسوى غلَّات ضياعه[1] ، ويقال إن سلماً الخاسر خلَّف حين توفى خمسين ألف دينار[2] ، وما وصل الأصمعى من الرشيد والبرامكة يتجاوز كل حد ، وكذلك ما وصل أبا يوسف القاضى من الرشيد ، ويقال إنه دخل عليه وفى يده درتان بديعتان يقلِّبهما وينظر فيهما ، فقال له : هل رأيت أحسن منهما ؟ فأجابه : نعم الوعاء الذى هما فيه ، فألقى بهما إليه[3] ، ويُروَى أن زُبَيْدة زوجة الرشيد سُرَّت بإحدى فتاواه فأهدته حُقًّا من فضة بداخله حقان مملوءان طيباً ، وبأحدهما جام من ذهب مملوء دراهم وبالثانى جام فضة مملوء ذهباً ، مع غلمان وتخوت من ثياب وبعض الدواب الفارهة[4] . وسنعرض فى الفصل التالى لما سكبه الخلفاء والوزراء والولاة وعلية القوم من أموال على العلماء والمؤدبين والأطباء والمترجمين مما جعل حياتهم نعيما خالصًا .

وطبيعى أن تدفع هذه الأموال لا إلى النعيم فحسب ، بل أيضًا إلى الترف فى الحياة وكل أسبابها المادية من دور مزخرفة وفرش وثيرة وثياب أنيقة معطرة ومطاعم ومشارب من كل لون والتماس لكل أدوات الزينة والتفنن فيها تفنناً يتيح كل ما يمكن من استمتاع بالحياة . ويصور ذلك من بعض الوجوه ما يُروَى عن مجلس للمهدى كان يجلس فيه على فُرش موردة وعليه ثياب موردة وعلى رأسه جارية تلبس هى الأخرى ثيابًا موردة[5] ، وما يُروَى عن مجلس الرشيد من أنه كان يعبق بالطيب والزعفران والأفاويه من كل شكل[6] ، وأيضًا ما يروى عن زواج المأمون ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل ، فقد أُنفِق فيه ما يفوق أغرب القصص الخيالية ، إذ قيل إن أباها فرَّق على حاشية المأمون رقاعا بأسماء كثير من الضياع وبدراً من

(١) أغانى ٥/١٦٣ .
(٢) أغانى (ساسى) ٢١/٧٧ .
(٣) النجوم الزاهرة ٢/١٨٢ .
(٤) المسعودى ٣/٢٦٠ .
(٥) الجهشيارى ص ١٦٠ .
(٦) الطبرى ٦/٥٣٧ .

الدنانير والدراهم كل بدرة عشرة آلاف ، وأعطى المأمون بوران ألف ياقوتة وأوقد لها شموع العنبر وبسط لها حصيراً منسوجاً بالذهب مكللا بالدر والياقوت ، ونثرت جدتها عليها حين جلس إليها المأمون ألف درة(١) . وينوه المؤرخون بأناقة المعتصم حتى قيل إن ثيابه كانت تشبه بالزهرة لتألقها(٢) ، واشتهر بلبس قلانس طويلة ذات ألوان مختلفة سميت بالمعتصميات ، كما اشتهر بأنه ألبس قواده وكبار جنده دراعات الديباج المنسوجة بالذهب المرصعة باليواقيت والأكاليل المرصعة بالدرر من كل لون(٣) ، ويصف بعض المغنين مجلس الواثق فيقول : « لم يزل الخدم يسلمونى من خدم إلى خدم حتى أفضيت إلى دار مفروشة الصحن ملبسة الحيطان بالوشى المنسوج بالذهب ثم أفضيت إلى رواق أرضه وحيطانه ملبسة بمثل ذلك ، وإذا الواثق فى صدره على سرير مرصع بالجوهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب »(٤) . وكان الوزراء وغير الوزراء من علية القوم يحيون هذه الحياة المترفة وينغمسون فيها انغماساً ، جامعين لقصورهم ومجالسهم كل ما يمكنهم من طرف ، ويصور ذلك — من بعض الوجوه — ما يروى عن الأصمعى من أنه دخل على الفضل بن يحيى البرمكى فى يوم بارد من أيام الشتاء « فإذا هو فى بهو قد فرش بالسمور (ضرب من الفراء) وهو فى دست منه وعلى ظهره دواج (ثوب) سمور أشهب مبطن بخز ، وبين يديه كانون فضة فوقه أثفية ذهب فى وسطها تمثال أسد رابض فى عينيه ياقوتتان تتوقدان »(٥) .

وطبيعى أن يشيع فى هذا الجو الزاخر بالترف التأنق فى الملبس والثياب ، وقد عم حينئذ ببغداد لبس الأزياء الفارسية ، ومر بنا فى الفصل السابق كيف كانت كل طائفة من طوائف الموظفين ورجال الدولة تلبس زياً خاصاً بها يميزها من الطوائف الأخرى . وكان المنصور أول من دفع إلى ذلك إذ رسم للوزراء لبس الدراعات والطيلسانات والشاشيات ، وأمر أفراد حاشيته بلبس القلانس الطوال

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢١ والطبرى ١٨٧/٧ واليعقوبى ١٨٦/٣ والمسعودى ٣٥١/٣ وابن طيفور ١١٤ وابن الطقطقى ص ١٦٧ .

(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣٤٥/٥ .

(٣) المسعودى ٩/٤–١٢ .

(٤) أغانى ١١٦/٤ .

(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٢١٤ .

مما جعل أبا دلامة مضحكه ينشده[١] :

وكنا نُرَجِّى من إمامٍ زيادةً فزاد الإمامُ المصطفى فى القَلانِس
تَراها على هامِ الرجال كأنها دِنانُ يهودٍ جُلِّلَتْ بالبرانِسَ [٢]

وكان الشعراء يلبسون الوشى والمقطعات الحريرية[٣] ، ويلبس المغنون قطوع الديباج والخز[٤] ، ويقال إنه كان لعمارة بن حمزة أحد كتّاب الخراج ألف دُوّاج من صوف وفراء[٥] ؛

واستكثروا حينئذ من العطور وأنواع الطيب من الغالية والمسك والكافور والعنبر والروائح الأرجة التى كانت تستخلص من البنفسج والنرجس والنَّيلوفر وغير ذلك من الأزهار ، واشتهرت جور الفارسية بماء الورد وأدهنة الزعفران .

وبالغ النساء حرائر وجوارى فى زينتهن وأناقتهن ، فكن يرفلن فى الثياب الحريرية ويختلن فى الحلى والجواهر متخذات منها تيجاناً وأقراطاً وخلاخيل وعقوداً وقلائد ، وقد ينظمنها على شعرهن[٦] أو على عصائبهن[٧] ، ويقال إن دنانير جارية البرامكة كانت تتحلّى بعقد من الجوهر بلغت قيمته ثلاثين ألف دينار كان قد أهداه إليها الرشيد[٨] . وكن يتعطرن بأنواع الطيب من مفرقهن إلى أقدامهن ، ويقال إن عَريب المغنية كانت تغسل شعرها من جمعة إلى جمعة وتغلفه فى كل غسلة بستين مثقالا مسكاً وعنبراً[٩] . وكن يمشطن شعورهن بأمشاط من الصَّدف والصَّنْدل[١٠] ويعقصْنَه أو يرْسلنه غدائر تنوس ، وقد يلوينه على أصداغهن فى هيئة النون أو هيئة العقرب ، وفى ذلك يقول أبو نواس واصفاً طائفة منهن[١١] :

أصداغهنّ مُعقْربا تٌ والشَّواربُ من عَبيرْ

(١) أغانى ١٠/٢٣٦ .

(٢) الهام : الرءوس . جللت : غطيت . البرانس كالقلانس ، والشاشيات : أغطية الرأس .

(٣) البيان والتبيين ٣/١١٥ .

(٤) أغانى ٦/٢٩٣ وانظر ٥/٣١٧ .

(٥) الجهشيارى ص ١٤٩ . والدواج : من الملابس التى يلتحف بها .

(٦) طبرى ٦/٤٣٥ .

(٧) أغانى (طبع دار الكتب) ١٠/١٦٢

(٨) أغانى (طبعة الساسى) ١٦/١٣٢ وانظر فى عقد آخر نفيس أهداه الواثق لفريدة الصغرى المغنية الأغانى (طبعة دار الكتب) ٤/١١٧ .

(٩) أغانى (ساسى) ١٨/١٨٧ .

(١٠) وكان الرجال يتخذون هذه الأمشاط أيضا . انظر كتاب البخلاء للجاحظ (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ٥٣ .

(١١) ديوان أبى نواس (طبعة آصاف) ص ٨٣ .

وكنّ يلبسن جوارب الحرير ويتحلين بعقود الأزهار من بنفسج وغير بنفسج ، ويقول الجاحظ إن المرأة حين كانت تزوّج ابنتها تحليها بالذهب والفضة وتكسوها المروزىّ والوشى والقزّ والخزّ وتعلّق لها المعصفر وتدق الطيب حتى تعظّم أمرها فى عين زوجها وأهله[١] . ولعل امرأة لم تبلغ من التأنق ما بلغته زُبَيْدة زوجة الرشيد وفيها يقول المسعودى إنها : « أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر وصُنع لها الرفيع من الوشى حتى بلغ الثوب من الوَشْى الذى اتُّخذ لها خمسين ألف دينار . . وهى أول من اتخذ القباب من الفضة والآبنوس والصندل . . ملبسة بالوشى والسمور (الفراء) والديباج وأنواع الحرير . . واتخذت الخفاف (النعال) المرصعة بالجوهر ، وشمع العنبر ، وتشبّه الناس بها »[٢] .

ولا ريب فى أن هذا كله كان على حساب العامة المحرومة التى كانت تحيا حياة بُؤْس تقوم على شظف العيش لينعم الخلفاء والوزراء والولاة والقواد وكبار رجال الدولة وأمراء البيت العباسى الذين بلغوا هم وأبناؤهم نحو ثلاثين ألفاً لعهد المأمون[٣] . وطبيعى أن يعم البؤس والشقاء من جانب ، بينما يعم النعيم والترف من جانب آخر ، بل لقد كان للشقاء والبؤس أكثر الجوانب فى الحياة العباسية ، فالجمهور يعيش فى الضنك والضيق لا الرقيق منه فحسب الذى كان يعمل فى القصور والضياع ، بل أيضاً جمهور الناس من الأحرار ، وكأنما كانوا جميعاً أرقاء فى هذا النظام الذى كُفلت فيه أسباب النعيم ووسائل الترف لأقلية محدودة استأثرت لنفسها بطيبات الأرض والرزق وزينة الحياة .

ولعل هذا البذخ وما صحبه من اعتصار الشعب هو السبب الحقيقى فى كثرة الثورات على العباسيين وخاصة فى إيران ، مما عرضنا له فى الفصل السابق ، وأيضاً لعله السبب الحقيقى فى تعلق الناس بالمهدى المنتظر من أبناء على الذى ينشر العدل الاجتماعى فى الأرض ، مما هيأ لكثرة الجمعيات السرية واعتناق الناس لعقيدة التشيع على اختلاف فرقها . غير أن المسألة لم توضع وضعاً سليماً صريحاً على أساس مشكلة العدالة الاجتماعية واستنزاف الشعب لمصلحة طبقة تعيش معيشة

---

(١) البخلاء ص ٢٥ . والمروزى نسبة إلى مرو . ويريد الجاحظ بالمعصفر الستور الحريرية التى كانت تعلق على الحيطان .

(٢) المسعودى ٤/٢٤٤ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٣ .

باذخة مسرفة فى البذخ ، بل وجهت توجيهاً خاطئاً ، على أساس دعوات دينية مارقة كدعوة الخرمية التى استوحت آراء المزدكية والمانوية ، وحتى الشيعة وفرقهم أعلوا المقاصد الدينية على مقاصد العدالة الاجتماعية . وبذلك أخفقت هذه الثورات جميعاً ، لأنها لم تضع للشعب اللافتات والشعارات الحقيقية التى يلتف حولها ويعمل من أجلها ،ومضى العباسيون وحواشيهم يغرقون إلى آذانهم فى البذخ والترف .

وقد هيأ هذا الترف لنشوء طبقة وسطى فى بغداد ومدن العراق من التجار والصناع الذين كانوا يقومون على مطالب الترف وأدواته ، أما التجار فكانت سفنهم وقوافلهم غادية رائحة فى البحر والبر تجلب الطرف النفيسة من جميع أنحاء العالم ، وأما الصناع فكانوا يتفننون فى صوغ التحف الثمينة . وكان مركزهم جميعاً فى الأسواق حيث تتجمع حوانيت كل طائفة منهم فى سوق أو شارع . وكانت رءوس أموالهم تختلف قلة وكثرة وضيقاً وسعة ، فمنهم من كان رأس ماله ثلاثة آلاف دينار[١] ومنهم من بلغ رأس ماله مائة وأربعين ألف دينار ومليونين وستمائة ألف من الدراهم[٢] ، ويقال إن ربح بعض التجار بلغ فى صفقة واحدة مائة ألف دينار[٣] . وكان أكثرهم ثراءً البزّازين والعطّارين وتجار التحف النفيسة .

ومن أهم الجوانب التى يتضح فيها بذخ الطبقة المترفة مطاعمها ومشاربها ، فقد طعموا وشربوا فى أوانى الذهب والفضة وصحاف الصينى المزخرفة والصحاف الزجاجية المنقوشة والمحفورة ، وتفنّن لهم الطهاة فى ألوان الطعام والشراب ، وكانوا يسمّون باسم ما يعلمونه منها من خبّاز وشوّاء وطبّاخ وخبّاص وهو الذى يصنع الحَلْوَى وشَرابى وهو صانع الشراب وألوانه . وفى كتاب البخلاء للجاحظ حَشْدٌ كبير من الأطعمة والمشارب وهى فى جمهورها فارسية ، فمنها السِّباج وهو لحم يطبخ بخَلٍّ مع شىء من الزعفران لتطيب رائحته ، والطُّباهج وهو طعام من لحم و بيض وبصل ، والشّبارقات وهى شرائح مشوية من اللحم ، ومنها الفانيذ وهو حلوى من الدقيق والسكر والسمن ، والخشكنان وهو كعك يحشى بالجوز والسكر ، والفالوذج وهو حلوى من النشا وعسل النحل والسمن ، ومنها الجُلاَّب وهو شراب من ماء الورد .

---

(١) البخلاء ص ١٠١ .
(٢) البخلاء ص ٣٤ .
(٣) الجهشيارى ص ١٨٥ ، ٣١٩ .

وكانوا يتفننون تفنناً واسعاً فى إضافة الأفاويه إلى الأطعمة وصنع المشهيات والمخللات الحريفة وصنوف النقل من مثل مملوح البندق والجوز واللوز والفستق. وتكثر عندهم أسماء الفواكه من مثل التين والعنب والموز والكمثرى والخوخ والرمان والإجاص والسفرجل والتفاح ، وكان البطيخ لديهم كثيراً حتى نسبوا إليه سوق الفاكهة ، فسموها باسم سوق البطيخ ودار البطيخ .

ومما يدل على كثرة أفانين الطهاة فى الأطعمة ما يروى من أن مائدة المأمون ضمت ذات يوم ثلاثمائة لون[1] ، وقد انبهر الأصمعى لكثرة ما رآه على مائدة الفضل بن يحيى البرمكى من ألوان الطعام وما غسلوا به أيديهم بعد الأكل من ألوان الطيب والغالية والعنبر[2] . ويقال إن المأمون كان ينفق على طعامه يومياً ستة آلاف دينار بينما كان ينفق وزيره ابن أبى خالد على طعامه يومياً ألف درهم[3] ، وهو نفس المبلغ الذى كان ينفقه إبراهيم الموصلى يومياً على طعامه وطيبه[4] .

ومن تتمة هذا الترف فى المطعم أن نراهم يتواضعون على طائفة من آداب المائدة اقتبسوا كثيراً منها عن الفرس[5] ، فمن ذلك أن يضم الآكل شفتيه فى أثناء المضغ وأن لا يستأثر لنفسه بشىء من محاسن الطعام وأن لا يمسح فمه بكمه وأن لا يتناول إلا ما بين يديه وأن لا ينظر إلى ما بين يدى غيره وأن لا يطلب ما عسى أن لا يكون موجوداً .

وعلى نحو ما كان للمائدة آدابها كان لمجالس الخلفاء والوزراء وعلية القوم أيضاً آدابها ، وهى تعرف بآداب المسامرة[6] ، وكان لا بد للنديم من إحسانها ، حتى يخف على قلب منادمه ، وكثير من هؤلاء الندماء استطاع أن يعتلى منصب الوزارة بما كان يحسنه من التبسط إلى الخليفة فى الحديث فى ساعات صفوه وغضبه ، ومن لم يعتل منهم منصب الوزارة سالت عليه الصلات السنية ، ولذلك لا نعجب أن يصبح الحذق بالمنادمة وما تتطلب من كياسة مطمحاً لكثير من العلماء والأدباء ومن اللغويين والفقهاء وكل من يريد الحظوة عند خليفة أو وزير . وتلمع فى هذا الجانب أسماء الأصمعى وأبى يوسف منادمى الرشيد وثمامة بن أشرس نديم المأمون .

---

(١) ابن طيفور ص ٣٦ .
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢١٤ .
(٣) ابن طيفور ص ١٢٣ .
(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ٥/١٦٤ .
(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة (طبعة دار الكتب) ٣/٢١٤
(٦) المسعودى ٣/١٩٥ وما بعدها

وكان النديم يورد فى أحاديثه أخبار العامة ونوادرهم وبعض الحكايات القصيرة وبعض الطرف الأدبية . وكان بين هؤلاء الندماء مضحكون لا يزالون يوردون فكاهات مضحكة ، ومن أشهرهم أبو دلامة الشاعر مضحك السفاح والمنصور والمهدى ، وله فكاهات كثيرة تدور فى كتب الأدب ،ومنهم ابن أبى مريم مضحك الرشيد « وكان محدثًا فكهاً ، فكان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته ، وكان ممن جمع إلى ذلك المعرفة بأخبار أهل الحجاز وألقاب الأشراف ومكايد المجان» [١] ومنهم أبو الشمقمق وكان الناس يتهافتون على جمع نوادره[٢] .

وكانت هناك أدوات للترويح ولعب كثيرة ، من ذلك سباق الخيل[٣] وسباق الحمام الزاجل[٤] ولعبة الصولجان وهو كرة تضرب من فوق ظهور الخيل ، ومن ذلك المحاثة بين الديوك والكباش والكلاب ، ولعبُ أبى نواس بالكلاب هو الذى أتاح له التفوق فى وصفها بطردياته ، ومن ذلك لعبة الشطرنج حتى ليشتهر شخص بإحسانها يسمى أبا حفص الشطرنجى ، ولعبة النَّرْد (الطاولة) ويقال إن واضعه أراد به تمثيل الحياة ، فرقعته تقابل الأرض المبسوطة لسكانها ، ومنازله الأربع تقابل الطبائع الأربع وخطوطها وهى أربعة وعشرون تقابل ساعات الليل والنهار وبيادقة (حجارته) الثلاثون تقابل عدد أيام الشهر واختلاف ألوانها بين البياض والسواد تقابل اختلاف الليل والنهار وفَصَّاه (الزهر) يقابلان القضاء . ويظهر أنهم عرفوا لعبة خيال الظل ، فقد هدَّد دعبل ابناً لأحد طبَّاخى المأمون بأنه سيهجوه ، فقال له : والله إن فعلت لأخرجنَّ أمك فى الخيال [٥] .

ومن أسباب اللهو التى فُتن بها الخلفاء الصيد بالبُزاة والشواهين والصقور والكلاب والفهود ، والصيد قديم عند العرب والفرس جميعًا ، ومن الملوك الذين اشتهروا به عند الأخيرين بهرام جور [٦] ، وأولع به المهدى ، فكان يخرج إليه فى مواكب كبيرة ومعه الحرس والوُصفاء وبعض حاشيته ، ويروى أن على بن سليمان العباسى خرج معه يوماً فعرض لهما ظبى سانح ، فرماه هو والمهدى بسهمين ،

---

(١) طبرى ٦/٥٣١ .
(٢) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ١/٦١ .
(٣) الجهشيارى ص ٢٠٧ والمسعودى ٣/٢٧٩ .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١٤/٣٤ .
(٥) الديارات للشابشتى ص ١١٩ .
(٦) الحيوان ١/١٤٠ .

أما المهدى فأصابه وأما على بن سليمان فأصاب كلباً كان قد أُرسل عليه وقتلاهما جميعاً، فقال أبو دلامة متندراً [١]:

قد رمى المهدىُّ ظَبْياً شكَّ بالسهم فؤادَهْ
وعلىُّ بن سليما ن رمى كلباً فصادَه
فهنيئاً لهما كـ لُّ امرئٍ يأكل زادَه

وشُغِف بالصيد كل من جاء بعد المهدى من الخلفاء [٢] ، وكان يشغف به الفضل بن يحيى البرمكى شغفاً شديداً [٣] .

وكان للعامة ملاهيهم وفى مقدمتها الفرجة على القرَّادين والحوَّائين ، وكانوا يتجمعون حول قُصَّاص يطرفونهم بحكايات خيالية ، كما كانوا يتجمعون حول طائفة من الحكَّائين الذين كانوا يحكون فى دقة لهجات سكان بغداد ونازليها من الأعراب والنبط والخراسانيين والزنوج والفرس والهنود والروم ، ويصور الجاحظ عملهم ، فيقول : « إنا نجد الحاكية من الناس يحكى ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئاً وكذلك تكون حكايته للخراسانى والأهوازى والزِّنْجى والسِّندى والأحباش وغير ذلك ، نعم حتى تجده كأنه أطبع منهم ، فإذا ما حكى كلام الفأفاء فكأنما قد جُمعت كل طرفة فى كل فأفاء فى الأرض فى لسان واحد ، وتجده يحكى الأعمى بصور ينشئها لوجهه وعينيه وأعضائه لا تكاد تجد من ألف أعمى واحداً يجمع ذلك كله ، فكأنه قد جمع جميع طُرف حركات العميان فى أعمى واحد ، ولقد كان أبو دَبُّوبة الزنجى مولى آل زياد يقف بباب الكَرْخ بحضرة المُكارين ، فينهق ، فلا يبقى حمار مريض ولا هرِمٌ حسير ولا مُتْعَبٌ بَهِيرٌ إلا نهق ، وقبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا تنبعث لذلك ، ولا يتحرك منها متحرك حتى كان أبو دَبُّوبة فيحركها ، وقد كان جمع جميع

---

(١) أغانى ٦/٢٤٠ والمسعودى ٣/٢٩٧ وابن الطقطقى ص ١٣١ ، ١٣٣ .
(٢) انظر المصايد والمطارد لكشاجم (طبع دار المعرفة ببغداد) ص ٣ وما بعدها والجهشيارى ص ١٧٣ والطبرى ٦/٤٩٤ والأغانى ٥/٢٤٤ ، ٤١٨ ، ٧/١٥٨ .
(٣) المسعودى ٣/٢٨٤ .

الصور التي تجمع نهيق الحمار فجعلها فى نهيق واحد ، وكذلك كان فى نُباح الكلاب » [١] .

٢

الرقيق والجوارى والغناء

كثر الرقيق فى العصر العباسى كثرة مفرطة بسبب كثرة مَن كانوا يؤسرون فى الحروب وبسبب انتشار تجارته ومعروف أن الإسلام يقصر الاسترقاق على أسرى الحروب من الأجانب ، غير أن تجارة الرقيق كانت منتشرة فى إيران وخراسان وما وراءهما وفى الدولة البيزنطية ، وعظمت هذه التجارة فى الإسلام على مر السنين ، حتى كان فى بغداد شارع خاص بها يسمى شارع الرقيق[٢] ، وكان يقوم عليه موظف يسمّى قيّم الرقيق .

وكان الرقيق حينئذ يُجلَب من بلاد الزّنج وإفريقية الشرقية ومن الهند وأواسط آسيا ومن بيزنطة وجنوبى أوربا وكان الزنوج يعملون فى فلاحة الأرض غالبًا ، أما غيرهم فكانوا يقومون بالأعمال اليدوية والخدمة فى المنازل والقصور . وقد دعا الإسلام دعوة واسعة إلى تحرير الرقيق فكان كثير منهم يحرّرون ، وقد يصل بعضهم إلى أرفع المناصب فى الدولة مثل الربيع بن يونس مولى المنصور وحاجبه ثم وزيره[٣] . وكان الرشيد يستكثر منهم حتى قيل إنه سار يوماً وبين يديه أربعمائة منهم[٤] ، ومعروف شغف المعتصم بالرقيق التركى ، وما زال يشتريهم من أيدى مواليهم ومن النخاسين حتى اجتمعوا له بالآلاف وحتى اضْطُرّ أن يبنى لهم — كما أسلفنا — سُرَّ من رأى كى يجنّب العامة شرهم وأذاهم .

وكان يَشيع بينهم الخِصْيان ونحن نعرف أن الإسلام يحرم خِصاء الإنسان احترامًا لآدميته ، ولكنه كان منتشراً فى العالم القديم بين البيزنطيين[٥] وغيرهم ،

---

(١) البيان والتبيين ١/٦٩ .
(٢) المسعودى ٣/٣١٦ .
(٣) انظر الجهشيارى ص ١٢٥ وابن الطقطقى ص ١٢٩ .
(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٢١٨ .
(٥) انظر الحضارة البيزنطية لرنسيمان (نشر مكتبة النهضة المصرية) ص ٢٤٣ .

وما نصل إلى العصر العباسى حتى نجد القصور فى بغداد وغيرها من بلدان العالم الإسلامى تكتظ بهم ، ومن المؤكد أن المسلمين لم يكونوا هم الذين يقومون بهذا العمل البغيض من الحضارة ، إنما كان يقوم بذلك اليهود والنصارى متحملين وزْرَه وإثمه. وقد اشتهر الأمين بكلفه بهم كلفاً شديداً حتى تندر عليه معاصروه[١] .

وكان رقيق النساء من الجوارى أكثر عدداً من رقيق الرجال فقد ذخرت بهن الدور والقصور ، إذ أحلّ الإسلام للشخص أن يتملك من الإماء والجوارى ماشاء، وبينما قيّد حريته إزاء الحرائر فحرّم عليه أن يتزوج منهن بأكثر من أربع أطلق حريته إزاء الجوارى فلم يقيّده بعدد منهن، وإن كان قد حرم عليه بيع من يَستولدها وردّ إليها حريتها بعد وفاته وجعل أولاده منها أحراراً منذ ولادتهم . وكان الرجال بعامة يفضلونهن على الحرائر ، لأنهن كن من أجناس مختلفة ، فمنهن السنديات والفارسيات والحبشيات والخراسانيات والأرمنيات والتركيات والروميات ، وأيضاً ربما كان للحجاب دخل فى ذلك ، فقد كانوا لا يرون من يريدون الاقتران بهن من الحرائر ، أما الجوارى فكن معروضات بدور النخاسة تحت أعينهم ، فكانوا يختارونهن حسب مشيئتهم وهواهم ، وصوّر ذلك الجاحظ فقال : « قال بعض من احتجّ للعلة التى من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المَهيرات أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمّل كل شىء منها وعرفه ما خلا حُظْوة الخلوة ، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة ، والحُرَّة إنما يُستَشار فى جمالها النساء ، والنساء لا يبصرْنَ من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن لا قليلا ولا كثيراً ، والرجالُ بالنساء أبصرُ ، وإنما تَعرف المرأة ظاهر الصفة ، وأما الخصائص التى تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك . وقد تُحسِن المرأة أن تقول كأن أنفها السيف وكأن عينها عين غزال وكأن عنقها إبريق فضة وكأن ساقها جُمّارة وكأن شعرها العناقيد وكأن أطرافها المدارى وما أشبه ذلك ، وهناك أسباب أخَر بها يكون الحب والبغض »[٢] .

وكانت هؤلاء الجوارى والإماء من أجناس وثقافات وديانات وحضارات مختلفة، فأثّرن آثاراً واسعة فى أبنائهن ومحيطهن ، وهى آثار امتدت إلى قصر الخلافة وعملت فيه عملا بعيد الغور ، فقد كان أكثر الخلفاء من أبنائهن ، فالمنصور

---

(١) طبرى ١٠١/٧ ، ١١٠ .

(٢) رسائل الجاحظ (طبعة السندوبى) ص ٢٧٤ .

أمه حبشية والهادى والرشيد أمهما الخيزران رومية والمأمون أمه مراجل فارسية وكذلك أم المعتصم ماردة ، وكانت أم الواثق رومية وتسمى قراطيس . وقد أخذ هؤلاء الجوارى يكثرن فى القصر منذ المهدى وكان بينهن من يعلقن الصُّلْبان ويقال إنه اشترى جاريته مكنونة بمائة ألف درهم[١] . وقد استكثر الرشيد وزوجه زُبَيْدة من الجوارى والإماء حتى قيل إنه كان عند كل منهما زهاء ألفى جارية فى أحسن زى من الثياب والجوهر[٢]، وكانت سِحْر وضياء وخُنْث من بينهن يشغفن قلبه ، وفيهن يقول ، وقيل : بل نظم ذلك العباس بن الأحنف على لسانه[٣] :

ملك الثلاثُ الآنساتُ عِنانى　　وحَلَلْن من قَلْبِى بكل مكانِ

مالى تطاوعنى البريّة كلُّها　　وأطيعهنّ وهُنّ فى عصيانى

ما ذاك إلا أن سلطان الهوَى　　ــ وبه عَزَزْنَ ــ أعزُّ من سلطانى

وكان قصر الأمين يزخر بالجوارى الغلاميات اللائى يلبسن لبس الغلمان[٤] ، وزخر قصر المأمون بالجوارى المسيحيات[٥] ، كما زخر بهن وبغيرهن قصر المعتصم والواثق[٦] .

وكانت قصور الوزراء والأمراء تمتلئ بهن ، حتى ليُرْوَى أنه كان لعَتّابة زوج يحيى بن خالد البرمكى مائة وصيفة ، لَبوسُ كل واحدة منهن وحليُّها خلاف لَبوس الأخرى وحليّها[٧] . ويفيض كتاب الأغانى بأخبارهن فى دور عِلْية القوم وفى دور النخاسة والقيان ويصوّر كيف كان يغشى الدور الأخيرة الشعراء ، والجوارى يستصبين قلوبهم وكثيراً ما يقع حب جارية فى قلب شاعر ويصبح محنة لا يجد إلى التخلص منها سبيلا ، وكان من الشعراء من يقاوم إغراءهن ، ولكنه يغاديهن صباح مساء مفتوناً بهن . وعلى هذا النحو كانت دور النخاسة والقيان معارض للجمال ، وهى معارض مفتوحة ليلاً ونهاراً يجتمع فيها الفتيان من الشعراء وغير

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٠/١٦٢ .
(٢) أغانى ١٠/١٧٢ وانظر طبعة الساسى ١٦/١٣٢ .
(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٦/٣٤٥ .
(٤) المسعودى ٤/٢٤٤
(٥) أغانى (ساسى) ١٩/١٣٨ .
(٦) أغانى (دار الكتب) ٥/٢٨٨ ، ٧/٩٨ ، ١٢/٥١ ، ١٦/١٢ .
(٧) الجهشيارى ص ٢٤١ والمسعودى ٣/٢٩٧ .

الشعراء يتملّون بالجمال ومفاتنه ، وفى ذلك يقول أبو دلامة[١] :

إن كنت تبغى العيش حلوًا صافياً ... فالشعرَ أَعْزِبْه وكُنْ نَخَّاسا
تَنَلِ الطرائفَ من ظِرافٍ نُهَّدٍ ... يُحْدِثْنَ كل عَشِيَّةٍ أعْراسا

وهى أعراس ظلت قائمة طوال العصر ، وظل الشعراء يختلفون إليها ، وكن أحيانًا يزرنهم فى دورهم ويبتْن عندهم ، وقد يشترى الجارية الخليفة أو وزير أو أمير أو قائد مشهور أو أحد العلية من أبناء البيوتات فيظل الشاعر متعلقًا بها وتظل تملك عليه كل شيء من أمره على نحو ما كانت تملك عُتْبة إحدى جوارى قصر المهدى قلب أبى العتاهية وجنان جارية الثقفيين قلب أبى نواس وفوز جارية محمد بن المنصور فتى العسكر قلب العباس بن الأحنف .

وكانت كثيرات منهن يتثقفن بفنون الآداب ، فكن يجمعن إلى جمالهن عذوبة الحديث ، فيملأن على الشعراء وغيرهم قلوبهم وعقولهم ، بل كان منهن من يتقن نظم الشعر مثل عنان جارية الناطفى وسكن جارية محمود الوراق وقد عرض عليه بعض الطاهريين أن يشتريها منه بمائتى ألف درهم فأبى التفريط فيها[٢] لما كانت تسعر به قلبه من الحب المضطرم . وكان منهن من يضفن إلى ذلك إجادة الغناء فكن فتنة من فتن العصر على نحو ما كانت دنانير جارية البرامكة ومتيم جارية على بن هشام أحد قواد المأمون وعَريب جارية الأمين والمأمون .

وكان للغناء فى الناس لهذا العصر أثر أى أثر ، فقد شغلوا به أى شغل ، وكأنه نعيمهم من دنياهم الذى لا يؤثرون سواه لما يبعث فى نفوسهم من غبطة وابتهاج ، ومعروف أنه انتقل من الحجاز إلى العراق لأواخر عصر بنى أمية ، إذ نرى ابن رامين الكوفى يستقدم مغنيات الحجاز[٣] ، ويقيم داراً واسعة يقصدها الناس . وما تنشأ بغداد ويُطل عصر المهدى حتى تصبح داراً كبيرة للغناء ، فقد جذبت إليها المغنين والمغنيات من كل فجّ ، ونثرت الأموال عليهم نثراً ، بل كالتها كيلا . وأول من كالها من الخلفاء المهدى ، واقتدى به الهادى ، وخلفهما الرشيد فجعل المغنين

---

(١) أغانى ١٠/٢٥٠ .
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٢ .
(٣) انظر أغانى (دار الكتب) ١١/٣٦٤ .

مراتب وطبقات على نحو ما جعلهم أردشير[١] بن بابك ، وهو الذى طلب إلى إبراهيم الموصلى وإسماعيل بن جامع وفُلَيْح بن أبى العوراء أن يختاروا له الأصوات المائة التى أدار أبو الفرج الأصبهانى — فيما بعد — كتابه الأغانى عليها . وكان الأمين يعيش للسماع والقصف ، ويقال إنه اشترى بذلا المغنية بعشرين ألف ألف درهم[٢] . وكان فى المأمون وقار فامتنع عن السماع بعد قدومه من خراسان أربع سنوات ، ثم أقبل عليه فملأ مجالسه بإسحق الموصلى ومخارق ، ويقال إنه اشترى عَرِيب المغنية المحسنة الشاعرة بمائة ألف درهم ، واشتراها المعتصم بنفس الثمن بعد وفاته[٣] ، وكان الواثق أشد كلفاً بالغناء لإحسانه الضرب على آلاته ، وله فيه أصوات سجلها صاحب الأغانى ، ويقال إنه اشتريت له قلم الصالحية المغنية بعشرة آلاف دينار[٤] .

ومن أبرز المغنين حينئذ إبراهيم الموصلى ، ويقال إنه خلّف تسعمائة صوت صنعها ابتداء[٥] ، وكان يغنى الرشيد على ضرب زلزل وزَمْر برصوما[٦] ، وفى ذلك ما يدل على أنهم عرفوا غناء الجوقات . ومنهم ابن جامع مغنى الرشيد وكان يقال فيه إنه زِقُّ عسل حلو ، وطرب الهادى لصوت غناه فأعطاه ثلاثين ألف دينار[٧] . ومنهم مخارق وكان الناس يبكون لجمال غنائه ورقته ، وسمعه أبو العتاهية فقال له : يا دواء المجانين لقد رققت حتى كدت أن أحسوك ، فلو كان الغناء طعاماً لكان غناؤك أدْماً ، ولو كان شراباً لكان ماء الحياة[٨] . ومنهم علّويه ، وكان يقول فيه الواثق : غناء علّويه مثل نَقْر الطست يبقى فى السمع ساعة بعد سكوته[٩]

وأنبه المغنين فى العصر إسحق الموصلى ، وقد تلقن الغناء عن إبراهيم أبيه والضرب على العود عن زلزل ، وفى ترجمته بالأغانى أنه أعطاه على تعليمه له مائة ألف درهم . وكانت صنعته محكمة الأصول ، وكان يتصرف فى جميع بُسط الإيقاعات . ويظهر أنه استطاع أن ينتقل بالغناء من حد التطريب إلى حد التعبير ، بل لعل

---

(١) كتاب التاج المنسوب إلى الجاحظ ص ٣٧ .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٥/١٣٨ .
(٣) أغانى ١٨/١٨٢ .
(٤) أغانى (دار الكتب) ١٢/٣٥٠ .
(٥) أغانى ٥/١٨٧ .
(٦) أغانى ٥/٢٤١ .
(٧) أغانى ٦/٣٠٣ .
(٨) أغانى (ساسى) ٢١/١٤٧ .
(٩) أغانى (دار الكتب) ١١/٣٣٧ .

ذلك كان شأوًا ارتفع إليه المغنون فى عصره ، فقد روى صاحب الأغانى أن مغنيًا تغنى فى مجلس الواثق بصوت له ، فنظر إليه مخارق نظرًا شزْرًا حتى إذا خلا به قال له : « ويحك أتدرى أى صوت غنيت ؟ إن إسحق جعل صيحة هذا الصوت بمنزلة طريق ضيق وَعْر صعب المرتقى ، أحد جانبي ذلك الطريق حرف الجبل ، وعن جانبه الآخر الوادى ، فإن مال مرتقيه عن محجته إلى جانب الوادى هَوَى ، وإن مال إلى الجانب الآخر نطحه حرف الجبل فتكسَّر »(١) . ولعله بفضل ما كانت تحمل أصوات الغناء من صور التعبير كانت تعلَّم وتباع بأغلى الأثمان حتى لقد بيع صوت بمائة ألف دينار(٢) ، وكان سُراة بغداد يتهادونها كما يتهادون التحف الثمينة(٣) .

وبلغ من رقى هذا الفن وارتفاع شأنه فى النفوس أن أقبل أبناء الخلفاء وعلية القوم على تعلمه وإتقانه حتى لنراهم يصنعون فيه ألحانًا وأصواتًا تنسب إليهم ، على نحو ما أشرنا إلى ذلك آنفًا عند الواثق ، وقد فتح أبو الفرج فى أغانيه فصلا بل فصولا طويلة(٤) لأبناء الخلفاء وما أُثر عنهم من أصوات ، وأشهرهم فى هذا الباب إبراهيم ابن المهدى وأخته عُلَيَّة وكان إبراهيم يُعَدّ فى كبار المغنين المحسنين ، وله أصوات(٥) كثيرة ، وكانت علية مثله تجيد الغناء وقد خلَّفت فيه ثلاثة وسبعين صوتًا(٦) . وممن برع فى الغناء وأثرت عنه أصوات بديعة فيه عبد الله(٧) بن طاهر ، وأبو دُلف(٨) العجلى قائد المأمون المشهور .

وقد جعل هذا الغناء الذى ملأ حياة الناس واستأثر بقلوبهم يرفع من أثمان الجوارى المسمَّيْن بالقيان اللائى كن يتقنَّه ويدلعن ناره فى القلوب ونسيمه الحلو الصافى ، وقد مرَّ بنا ما بيعت به عريب مرارا وما بيعت به بَذْل وقلم الصالحية ، ويقال إن صالح بن على عم المنصور اشترى سعدة بتسعين ألف درهم واشترى ابن أخيه جعفر بن سليمان رُبَيِّحة بمائة ألف والزرقاء بمائة ألف ثانية(٩) ، والثلاث

---

(١) أغانى ٥/٣٠٥ .
(٢) أغانى (دار الكتب) ٧/٣٠٠ .
(٣) أغانى ٥/٣٨٤ .
(٤) أغانى ١٠/٩٥ ، ١٦٢ وفى مواضع متفرقة .
(٥) انظر ترجمته فى الأغانى ١٠/٩٥ .
(٦) أغانى ١٠/١٧٤ .
(٧) أغانى ١٢/١٠٦ .
(٨) أغانى ٨/٢٤٨ .
(٩) أغانى ١٥/٦٢ وما بعدها .

من جوارى ابن رامين اللاتى استقدمهن من الحجاز ، واشترى المهدى سراً من أبيه المنصور بصَصْبص جارية ابن نفيس بسبعة عشر ألف دينار[١] ، واشترى الرشيد ذات الخال بسبعين ألف درهم[٢] ، بينما اشترى على بن هشام أحد قواد المأمون متيّم الهاشمية بعشرين ألف درهم[٣] .

وكانت هذه الأثمان الباهظة التى تدفع فى شراء الجوارى اللاتى يحسنّ الغناء سبباً فى أن يُعْنَى المقيِّنين بتعليمهن هذا الفن حتى يصيبوا من ورائهن الأرباح الطائلة ، وجاراهم فى ذلك بعض المغنين الحاذقين من أمثال إبراهيم الموصلى ، حتى يقال إنه كان عنده ثمانون جارية يعلمهن فن الغناء[٤]. وكان ابنه إسحق على شاكلته يعلم الجوارى والغلمان جميعاً ، ويقال إنه علم غلامين — لبعض أمراء البيت العباسى — الغناء نظير مائة ألف درهم[٥] . ولم يكن هو وأبوه وحدهما يحترفان هذا التعليم والتثقيف ، فقد شركهما فيه كبار المغنين لعصرهما من مثل ابن جامع ويزيد بن حَوْراء وبعض الجوارى المحسنات للغناء ، وهذا هو سر ما نجده عند صاحب الأغانى من نصه دائماً على أساتذة المغنى المتقن والقينة المحسنة وتلامذتهما .

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق فى بغداد ولا فى الكوفة ولا فى البصرة سَرِىٌّ إلا عمل على أن يَقْتَنِى قينة أوقيانا يُشْعِنَّ المرح فى داره. وكان مَنْ لا يستطيع اقتناء قينة يمكنه أن يستأجر من المقيِّنين إحدى قيانهم لتغنيه ليلة أو ليالى متصلة ، فالرواة يذكرون أنه كان لأبى النضير عمر بن عبد الملك جوار يغنين ويخرجن إلى أهل البصرة[٦] ، وكانت قيان بَرْبر فى الكوفة ما يزلن يختلفن إلى مطيع بن إياس ورفقته[٧] ، وبالمثل كانت قيان بغداد يُكْثِرْنَ من الاختلاف إلى دور الشعراء ، وكان الشعراء وغيرهم من فتيان بغداد يزورونهن فى دور أصحابهن من المقيِّنين ، وكانت أشبه بنوادٍ كبيرة للغناء والموسيقى ، فالناس يذهبون إليها شعراء وغير شعراء للمتعة بالسماع ورؤية الجمال من كل شكل وعلى كل لون ، وكثيراً

---

(١) أغانى ١٥/٢٧ .
(٢) أغانى ١٦/٣٤٢ .
(٣) أغانى ٧/٢٩٣ .
(٤) أغانى ٥/١٦٤ وانظر ٣/٢٥١ حيث اشترك مع يزيد بن حوراء فى تعليم طائفة من الجوارى فن الغناء .
(٥) أغانى ٥/٢٩٣ .
(٦) أغانى (طبع الساسى) ٢٠/٧٤ .
(٧) أغانى (طبع دار الكتب) ١٣/٣١١ ، ٣٢٢ .

ما كان يقع الشعراء فى حب بعض الجوارى المكتملات الخَلْق الجميلات الجسد، فيستأثرن بكل ما فيهم من عاطفة وهوى على نحو استئثار ريم بقلب مطيع [١] بن إياس ، وعبادة بقلب عبد الله[٢] بن محمد البواب وعنان بقلب أبى النضير[٣] ، وسلسل بقلب أبان[٤] بن عبد الحميد . وكن يتبارين فى جذب الشعراء بما يُشعن فى أحاديثهن من عذوبة حلوة وبما يحسن من صنوف الغزل والعبث بقلوب الرجال .

وكثيرات من هؤلاء القيان والجوارى كن يحسن الرقص ، ويظهر أنه بلغ حينئذ حظًّا واسعًا من الرقى على نحو ما يصور لنا ذلك المسعودى بما ضبط من إيقاعاته على الغناء ورَسم من صفاته[٥] ، ويذكر ابن خلدون أنه كان للرقص عندهم آلات خاصة فى الملبس وما يستخدمن من قضبان مع ما يترنمن به من أشعار، ويقول إنه كان عندهم ضرب آخر من الرقص يتخذن فيه آلات تسمى الكرَّج وهى تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلَّقة بأطراف أقبية ، يلبسها النساء ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكررن ويفررن كأنهن فى حرب[٦] ، وفى كتاب الأغانى أن الأمين كان يرتكض فى الكرَّج بصحن قصره ، بينما الوصائف من حوله يغنين على الطبول والسُّرْنايات والمخنثون يزْمرون ويُطْربون[٧] .

وقد أشاع هؤلاء الجوارى والقيان فى المجتمع كثيراً من ضروب الرقة والظَّرْف ، فقد جعلت كثرة معاشرتهن الرجال لهن يتعودون كيف يتلطفون لقلوبهن ، وكيف يستنزلونهن بالكلام الرقيق إلى وُدِّهم ، وكيف يحيطونهن بأشراك الحديث الساحر الذى يشغف قلوبهن ويملؤها بالعطف والحنان ، وكان لذلك أثره البالغ فى الشعر والشعراء ، فقد شاعت فى كثير من معانيهم الرقة المفرطة والإشارة الدالة واللمحة المعبرة .

واقترنت بهذا الظرف مظاهر كثيرة فى الأزياء وفى العطور وآداب الطعام والسمر ، ومن أهم مظاهره تهادى القوم بالأزهار والرياحين رامزين بأسمائها وأشكالها

---

(١) أغانى ١٣/٣٠٠ .
(٢) أغانى (ساسى) ٢٠/٤٤ .
(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ١١/٢٨٦ .
(٤) أغانى ١٠/٤٨ .
(٥) المسعودى ٤/١٦١ .
(٦) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البهية) ص ٣٠٠ .
(٧) أغانى (طبعة الساسى) ١٦/١٣٣ .

إلى معاني المودة والمحبة[١] ، وكان الجواري والقيان يَكْلَفْنَ بالورود كلفاً شديداً ، ويروى أن متيم الهاشمية جارية على بن هشام ومغنيته كان يعجبها البنفسج جداً فكانت لا تخلى منه كمّها[٢] . وكان لهذا الإعجاب والكلف أثره في العناية بالأزهار والرياحين وتغنى الشعراء بها غناء كثيراً [٣] .

وكان الجواري يهدين التفاح كثيراً إلى من يكلفون بهن أو يتعلقن هن بهم ، وكن يضعن عليه أثر أخذه بأفواههن ، وقد يفلّجنه ويشقّقْنَهُ بالمسك وغيره من أنواع الطيب ، وقد يكتبن عليه بعض أبيات رقيقة ، تصور صبابتهن ، وفي أخبار المهدي أن جارية من جواريه أهدت إليه تفاحة وطيّبتها وكتبت عليها[٤] :

هَدِيّةٌ منى إلى المَهْدِي تفاحةٌ تُقْطَفُ من خَدّى
محمرّةٌ مصفرّةٌ طُيِّبَتْ كأنها من جنّة الخُلْدِ

واستغللن أبيات الحب والعشق كثيراً لا في أحاديثهن فحسب ، بل في كل ما يتصل بهن ، فكن يكتبنها على المناديل الحريرية التي يرسلْن بها تذكاراً إلى عاشقيهن ، وقد يكتبنها على عصائبهن وذوائبهن وثيابهن وأكمامهن وفرشهن وما يمسكن به من مراوح ، ويروى بعض الأشخاص أنه دخل على هرون فرأى الوصائف من ورائه وقد تزين بعصابات نُظمت فيها الدرر واليواقيت وكُتبت عليها أبيات في صفائح الذهب ، مثل قول بعض الشعراء[٥] :

مالى رميتُ فلم تُصِبْكَ سِهامى ورميتَنى فأصبتَنى يا رامى

وقول آخر على لسان إحدى الجوارى :

أفلتُّ من حور الجِنانِ وخُلِقْتُ فِتْنة منْ يرانى

ويذكر إسحق الموصلى أنه دخل على الأمين يوماً فوجد من حوله وصائف

---

(١) أغانى ٧/١٧٠ .
(٢) أغانى ٧/٣٠٦.
(٣) أنظر على سبيل المثال وصف إبراهيم ابن المهدى للنرجس في الأغانى ١٠/١١٥ .
(٤) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٦/٤٠٦ .
(٥) العقد الفريد ٦/٤٢٤ .

يَختَلْنَ في حسنهن ، وبأيديهن مراوح نقشت عليها أبيات غزل مختلفة ، منها هذا البيت [١] :

أتهوون الحياةَ بلا جنونٍ فكُفُّوا عن ملاحظة العيون

وكن يتبارين في التهادي بالتحف النفيسة ، من ذلك ما يُرْوَى عن مؤنسة جارية المأمون من أنها أهدت إلى متيم الهاشمية جارية على بن هشام في يوم احتجمت فيه مِخْنَقَةً (قلادة) في وسطها حَبَّةٌ – لها قيمة جليلة – كبيرة وعن يمين الحبة ويسارها أربع يواقيت وأربع زمردات وما بينها من شذور الذهب ، وغمستها في الغالية [٢] .

وعلى هذا النحو كانت الجوارى والقيان في هذا العصر من العوامل الفعالة في انتشار الظرف والرقة في المجتمع العباسي حتى أصبحا سمتين بارزتين فيه ، وبذلك رقّت المشاعر والأحاسيس ودقت الأذواق وأرهفت إرهافاً شديداً .

٣

المجون

ورث المجتمع العباسي كل ما كان في المجتمع الساساني الفارسي من أدوات لهو ومجون ، وساعد على ذلك ما دفعت إليه الثورة العباسية من حرية مسرفة ، فإذا الفرس المنتصرون يمعنون في مجونهم ويمعن معهم الناس ، فقد مضوا يعبون الخمر عبًّا ويحتسون كئوسها حتى الثمالة ، وحاكاهم من عايشوهم حتى أصبح الإدمان عليها ظاهرة عامة على الرغم من نهى القرآن الكريم عنها وحضّه على اجتنابها إذ يقول عزّ شأنه : (إنما الخمر والمَيْسر والأنْصاب والأزلام رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) . وكان من أسباب انتشارها وإقبال الناس عليها أن أدّى اجتهاد بعض فقهاء العراق إلى تحليل بعض الأنبذة كنبيذ التَّمْر والزبيب المطبوخ أدنى طبخ ونبيذ العسل والبُرّ والتّين [٣] . فشرب الخلفاء هذه الأنبذة وشربها الناس ، وتهالك بعض الناس – إمعانًا في

---

(١) العقد الفريد ٦/٤٢٤ .
(٢) أغاني ٧/٣٠٦ .
(٣) ضحى الإسلام لأحمد أمين ١/١١٩ .

المجون — على أنواعها المحرمة بإجماع الفقهاء .

والمعروف أن الهادى أول خليفة عباسى أغْرى بالخمر[١] ، وتبعه الرشيد[٢] ومن جاءوا بعده ، وأغلب الظن أنهم لم يكونوا يتجاوزون الأنواع المحلّلة إلى الأنواع المحرمة إلا ما كان من الأمين الذى كان يعيش للخمر المسكرة يشربها أرطالا[٣] ، وكأنما كان فى قلبه جذوة من الغرام بها لا سبيل إلى إطفائها إلا بشرابها متتابعًا ، حتى ليصل أحياناً مساءه فيها بصباحه ، حدّث ابن المعتز أنه اصطبح بها يوماً مع أبى نواس وطائفة من ندمائه : « فأُتى بالشراب كأنه الزعفران ، أصفى من وصال المعشوق وأطيب ريحًا من نسيم المحبوب ، وقام سُقاة كالبدور بكئوسٍ كالنجوم فطافوا عليهم ، وضَربت المغنيات خلف الستائر بمزاهرها . فشربوا معه من صدر نهارهم إلى آخره فى مذاكرة (أحاديث) كقطع الرياض ، ونشيد كالدرّ المفصّل بالعِقْيان ، وسماعٍ يحيي النفوس ويزيد فى الأعمار . فلما كان آخر النهار دَعَا بعشرة آلاف دينار فى صوانىّ فأمر فنُثرت عليهم فانتهبوها والشرابُ — بَعْدُ — يدور عليهم بالكبير والصغير من الصرف والممزوج » حتى إذا نام واستيقظ فى السحر طلب إلى أبى نواس أن ينشطه إلى متابعة السكر ببعض الأبيات ، فأنشده :

نَبِّهْ نديمك قد نَعَسْ　　يسقيك كَأْساً فى الغَلَسْ
صِرْفاً كأنّ شُعاعها　　فى كفّ شاربها قَبَسْ
تَذَرُ الفتى وكأنّما　　بلسانه منها خَرَسْ
يُدْعَى فيرفع رأسَهُ　　فإذا استقلّ به نَكَسْ

فهش الأمين ونشط ودعا بالشراب يصطبح به لليوم التالى وينعم بنشوته[٤] ، غير مفكر فى وقار خلافة ولا فى دين ، فقد احتلت قلبه وبسطت سلطانها عليه فأحبها وهام بها هياماً .

والأمين فى خمره ومجونه ليس شذوذاً فى عصره بل هو امتداد لموجة حادّة

---

(١) الجهشيارى ص ١٤٤ والطبرى ٦/٤٣٠ ، ٤٣٥ وقارن بالأغانى ٥/١٦٠ والطبرى ٦/٣٢٩ .

(٢) طبرى ٦/٤٨٩ وأغانى ٥/٢١٦ ، ٢٢٤ ، ٢٩٩ وطبرى ٧/٢١٥ وأغانى ٥/٣٢٩ ، ٣٤٢ ، ٣٥٥ .

(٣) الجهشيارى ص٢٩٩ والمسعودى ٣/٣٠٥ .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢١٠ .

بدأها الوليد بن يزيد فى دمشق لآخر عصر بنى أمية ثم مطيع بن إياس ورفقاؤه من أمثال والبة بن الحباب فى الكوفة وبشار وأضرابه المُجّان فى البصرة . ومن الحق لو أن العصر العباسى لم يقبل ويقبل معه الخراسانيون من الشرق لما اتسعت تلك الموجة ولانحصرت فى حيز ضيق ، فقد أحسّ الفرس أن الحياة واتتهم وأخذوا يعبّون كئوس الخمر مترعة ، وتهالك الشعراء عليها من حولهم حتى أصبحت من أهم الموضوعات الجديدة فى الشعر العباسى ، واشتهر فيها غير شاعر بخمرياته ، على نحو ما هو معروف عن أبى نواس . ومن يقرأ فى الأغانى لأبى الفرج يخيّل إليه أن الناس جميعاً شرفاء ومشروفين قد تورطوا فى إثمها تورطاً ، وكان منهم من يسرف فى شربها إسرافاً شديداً حتى ليتناول منها عشرة[1] أرطال دفعة واحدة . ويؤثر عنهم أنهم كانوا يكرهون أن يدور الشراب بين اثنين ، لأن أحدهما قد ينهض لحاجة فيبقى صاحبه واجماً ، ومن أجل ذلك استحبّوا أن يدور الشراب بين ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، بحيث لا يزيدون عن ذلك ، حتى لا يستحيل الشراب إلى لون من ألوان الشغب ، وفى ذلك يقول أبو نواس[2] :

ثلاثةٌ فى مجلسٍ طَيِّب وصاحب الدعوة والضاربُ

فإن تجاوزتَ إلى سادسٍ أتاك منهم شغبٌ شاغبُ

وقد تفنن الشعراء فى وصف نشوتها وآثارها فى الجسد والعقل ووصف دنانها وكئوسها ومجالسها ونُدْمانها وسقاتها وكانوا عادة من النصارى والمجوس واليهود ، وكانوا يزينون رءوسهم بأكاليل الزهر كما يزينون قاعة الشراب بالرياحين ، وفى ذلك يقول أبو نواس خمريته[3] التى كان يعجب بها الجاحظ إعجاباً شديداً :

ودارِ نَدامى عطّلوها وأدلجوا بها أَثَرٌ منهم جديدٌ ودارسُ[4]

مساحبُ من جَرِّ الزِّقاق على الثَّرَى وأضغاثُ ريحانٍ جنىٌّ ويابس[5]

(١) الحيوان ٢/٢٢٦ والأغانى ٥/٢٢٥.

(٢) ديوان أبى نواس (طبعة آصاف) ص ٣٥٦ وانظر ٣٥٨ .

(٣) ابن المعتز ص ٢٠٦ .

(٤) أدلجوا : ساروا الليل كله أو آخره . دارس : ممحو.

(٥) الزقاق: دنان الخمر. أضغاث: أخلاط .

حبستُ بها صحبي فجدَّدت عهدهم ... وإنى على أمثال تلك لحابسُ
أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ... ويوماً له يومُ الترحُّل خامسُ
تُدار علينا الرَّاحُ فى عسجديَّة ... حَبَتْها بألوان التصاوير فارسُ[1]
قرارتُها كسرى وفى جَنَباتها ... مَهًى تَدَّريها بالقِسِيِّ الفوارس[2]
فللخمر ما زُرَّت عليه جُيُوبها ... وللماء ما دارتْ عليه القلانس[3]

وهى خمرية تقطر حنيناً وحباً للخمر ، فقد بثَّ فى مطلعها لوعة عشاق العرب إزاء الرسوم الدائرة لوعة تجعلهم يحبسون مطيهم عندها وفاء لحق حبهم فيها ، حتى إذا استتم هذه الصورة مضى يعلن صبابته بتلك الدار وكيف حبس بها صحبه أياماً يتداولون كئوس الخمر التى كانت تشيع فيهم البهجة والفرحة بشكلها المادى وما ارتسم عليها من صور فارسية بديعة وبما تسكب فى بطونهم من رحيق الخمر ومتاعها المتصل .

ومنذ أول العصر نجد الخمر تقترن بالغناء والرقص ، إذ تحول المقيِّنون فى كَرْخ بغداد وفى البصرة والكوفة بدورهم إلى حانات كبيرة للشرب والقصف كل مساء ، فكان الشعراء وغيرهم يؤمونها للشراب على غناء القيان وضرب الطبول والدفوف ، ومن أشهر تلك الدور دار ابن رامين المقيِّن فى الكوفة ، فقد جلب إليها طائفة من قيان الحجاز ، كان يختلف إليهن للشراب والسماع مطيع بن إياس وصحبه من الشعراء وابن المقفع ومعن بن زائدة الشيبانى وروح بن حاتم الباهلى[4] . وعلى شاكلتها دار إسماعيل القراطيسى المقيِّن فى بغداد ، وكانت مألفاً لأبى نواس والحسين بن الضحاك وأبى العتاهية وغيرهم من الشعراء[5] .

وكانت البساتين فى ضواحى بغداد تمتلىء بالحانات التى يختلف إليها الشعراء وغيرهم من الفتيان كحانة بستان صَبَّاح التى وصفها مطيع بن إياس فى بعض شعره[6] ، ويَرْوى الصولى أن أبان بن عبد الحميد أظهر من التهالك على الشراب

(١) عسجدية : كأس ذهبية .
(٢) المها : البقر الوحشى . تدريها : تدفعها .
(٣) الجيوب : أطواق الثياب .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١١/٣٦٤ ، ١٥/٦٧ .
(٥) أغانى (ساسى) ٢٠/٨٩ .
(٦) أغانى (دار الكتب) ١٣/٣٢١ وانظر كتاب الورقة (طبع دار المعارف) ص ٣٧ .

والمجون ما جعل أباه ينصحه أن يخرج إلى بعض البساتين لعله يسلو الخمر ، وغاب فيها طويلا ، فكتب إليه أبوه يتشوقه ، وما كان أشد عجبه حين أجابه بقوله[1] :

يا أبي لا تَرْثِ لى من غيْبتى   أنا فى خير ولهو ودَعَـةْ
ومعى فى كل يوم مُسْمِعٌ   حاذقٌ يُطْربنى أو مُسْمعه
ونَدامى كمصابيح الدُّجَى   كلهم يـأْخذ كأساً مُتْرعه
لا يبالى مَنْ لَحَا فى شُرْبِها   أبداً حتى يوارَى مصرعه

فالبساتين أو على الأقل طائفة منها تحولت إلى حانات كبيرة للخمر والقصف والمتعة بسماع بعض المغنين والقيان .

وكانت الأديرة تقدم لروّادها الخمر المعتقة وقد استحالت قاعات شرابها إلى مجتمعات لطلاب الخمر والمجون من الشعراء وغيرهم ، وكانت متناثرة فى ضواحى بغداد وغيرها من مدن العراق ، ونرى الشعراء الماجنين يذكرون خمرها ونشوتها ورهبانها وراهباتها من مثل قول أبى نواس[2] :

يا دَيْرَ حنَّة من ذات الأُكَيْراحِ   مَنْ يَصْحُ عنك فإنى لستُ بالصاحى
رأيتُ فيك ظباءً لا قرون لها   يلعبْن منا بـألبابٍ وأرواحِ

بل لقد كثرت أشعارهم فيها كثرة مفرطة دفعت كثيرين إلى تخصيص مؤلفات لها على نحو ما هو معروف عن كتاب الديارات للشابشتى ، وفيه نراها تتحول فى العراق إلى دور واسعة للهو والعبث .

وكثير من دور الشعراء أنفسهم فى بغداد وغير بغداد تحولوا بها إلى مقاصف للخمر والمجون على نحو ما كانت دور مطيع بن إياس ورفقائه فى الكوفة ودار بشار فى البصرة ودار أبى نواس فى بغداد . وكانت هناك أيام على مدار السنة يخرجون فيها للهو والقصف والعبث والمجون ، وهى أيام الأعياد : أعياد الإسلام وأعياد الفرس والنصارى وكانت تأخذ شكل كرنفالات عظيمة ، يخرج فيها الناس للشراب

(١) الأوراق للصولى ، أخبار الشعراء ص ٢٦ .
(٢) الديارات النصرانية فى الإسلام لحبيب زيات (طبع بيروت) ص ٢٢ . وذات الأكيراح : موضع .

واللهو المباح وغير المباح والفرجة على أصحاب المساخر ، وكان منهم من يتهادون على صفحة دجلة فى القوارب الجميلة ومنهم من يبعد فى البساتين . أما أعياد الإسلام فهى عيد الفطر وعيد الأضحى ، وأما أعياد الفرس فكانت كثيرة ، مثل عيد السَّذق وهو عيد مجوسى للنار وكانوا يوقدونها طوال الليل متغنين من حولها وراقصين ، ومن أعيادهم عيد هرمزْد إله الخير ، وفيه يقول والبة بن الحباب[1] :

قد قابلتْنا الكئوسُ ودابرتْنــا النحوسُ

واليوم هُرْمَزْدْ روزٍ قد عظّمته المجوسُ

وأهم أعيادهم عيد النَّيْروز ، وهو عيد الربيع ، وكانوا يحتفلون به احتفالات صاخبة لأول الربيع حين تدخل الشمس بُرْجَ الحَمل ، وفيه يقول أبو نواس[2] :

أما ترى الشمس حَلَّتِ الحَمَلا وقام وَزْنُ الزمان فاعتدلا

وغَنَّت الطير بعد عُجْمتها واستوفتِ الخمر حولَها كَمَلا

واكتستِ الأرضُ من زخارفها وَشْيَ نباتٍ تخاله حُلَلاَ

فاشربْ على جِدَّة الزمان فقد أصبح وجه الزمان مقتبلا

وكانوا يحتفلون بعيد المهرجان بعده بمائة وأربعة وتسعين يومًا .

وكانت أعياد النصارى كثيرة أيضًا ، فنها عيد الميلاد وعيد الفصح وعيد دَيْر الثعالب فى الجانب الغربى لبغداد وعيد دير أشمونى بقُطْربُّل ، ومنها عيد الشَّعانين وكان عيداً قديمًا للأشجار وخاصة أشجار الزيتون ، وكانت الجوارى النصرانيات يحتفلن به فى قصر الخلافة ، إذ يَرْوِى أحمد بن صَدَقة المغنى أنه دخل على المأمون فى هذا العيد ، فرأى بين يديه عشرين وصيفة رومية أدرن الزُّنَّار حول أوساطهن وتزينَّ بالديباج وعلّقن فى أعناقهن صُلبان الذهب وأمسكن فى أيديهن بالخوص والزيتون ، ولم يكد المأمون يراه حتّى طلب إليه أن يغنيه فى أبيات تصفهن ، تجرى على هذا النمط :

ظِبــاءٌ كالدّنانيرِ مِلاحٌ فى المقاصيرِ

---

(١) ابن المعتز ص ٨٨ وروز : يوم بالفارسية .   (٢) ديوان أبى نواس ص ٣١٣ .

جلاهنّ الشّعانينُ علينا فى الزّنانيرِ (١)
وقد زرّقن أصداغا كأذناب الزرازير (٢)
وأقبلْن . بأوساطٍ كأوساط الزّنابيرِ (٣)

وغناه فيها ابن صدقة ورقصت الوصائف فى أثناء الغناء ، وشرب المأمون على رقصهن وغنائه وأكثر من شربه حتّى تغشاه السكر (٤) .

ومما لا ريب فيه أن إدمان الخمر حينئذ دفع إلى كثير من المجون والعبث والإباحية ، وكان المجتمع زاخراً بزنادقة وملاحدة وأناس من ديانات شتّى مجوسية وغير مجوسية ، فمضى كثيرون يطلقون لأنفسهم العنان فى ارتكاب الآثام متحررين من كل قانون للخلق والعرف والدين . وكان من أهم العوامل التى هيأت لذلك السلع التى كانت تباع وتشترى من الجوارى والقيان ، فقد كن من أجناس وشعوب مختلفة ، ولم يكن يشعرن إلا فى النادر بشىء من الكرامة ولا كن يصطنعن شيئاً من التحفظ والاحتشام وسعّر ذلك فى قلوبهن النخاسون والمقينون الذين يبتزون عن طريق علاقتهن بالشباب والفتيان أموال السّراة . وبذلك تحولت كثرتهن إلى أدوات فتنة وإغراء وريبة ومجون وعبث ، وأخذن يتفنّنّ فى الحيل التى يجذبن بها قلوب الرجال من شعراء وغير شعراء ، مداعبات لهم بالتبسم وغامزات بطرف العين وناشطات معهم بالسكر ، ولم تكن الواحدة منهن تكتفى برجل واحد ، فقد كن يستكثرن من اتخاذ الخلان سالكات إلى ذلك طرقاً مستقيمة ومعوجة ، ووصف ذلك الجاحظ فقال : « ربما اجتمع عند القينة من معشوقيها ثلاثة أو أربعة . . فتبكى لواحد بعين وتضحك للآخر بالأخرى ، وتغمز هذا بذاك ، وتعطى واحداً سرّها والآخر علانيتها وتوهمه أنها له دون الآخر وأن الذى يظهر خلاف ضميرها ، وتكتب لهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة ، تذكر لكل واحد منهم تبرّمها بالباقين وحرصها على الخلوة به دونهم ، فلو لم يكن لإبليس شَرَكٌ يقتل به ولا علم يدعو

(١) الزنانير : جمع زنار وهو خيط كان يشده غير المسلمين على أوساطهم تمييزاً لهم .
(٢) الزرازير : جمع زرزور وهو طير مفوف الريش .
(٣) الزنابير : جمع زنبور وهو النحل .
(٤) أغانى (طبعة الساسى) ١٩/١٣٨ .

إليه ولا فتنة يستهوى بها إلا القيان لكفاه»[١] . ويمضى الجاحظ فيصور العلة التى جرّت إلى فُجْر القينة وتهالكها على الإثم وأوزاره، فيقول : « كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة وإنما تُكْتَسَبُ الأهواء وتتعلّم الألسن والأخلاق بالمنشأ، وهى إنما تنشأ من لدنْ مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصدّ عن ذكر الله من لهو الحديث ... وبين الخُلعاء والمُجّان ومن لا يسمع منه كلمة جِدّ، ولا يُرْجَع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة، وتَرْوى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت (أغنية) فصاعدًا، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، وعدد ما يدخل فى ذلك من الشعر إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ولا ترهيب من عقاب ولا ترغيب فى ثواب، وإنما بنيت كلها على ذكر . القيادة والعشق والصبوة والشوق والغُلْمة، ثم لا تنفكّ من الدراسة لصنعتها منكبّة عليها تأخذها من المطارحين الذين طَرْحهم كله تجميش وإنشادهم مراودة » .

وقد دفع هذا الفساد الخلقى الذى كان يشيعه القيان والجوارى فى هذا العصر إلى انتشار الغزل المكشوف الذى لا تصان فيه كرامة المرأة والرجل جميعًا، فقد كانت المرأة غير الحرة تبتذل ابتذالا، وتطورت الحياة فلم يعد العرب هم الذين يستبدون بالشعر مصورين فيه مروءتهم وارتفاعهم بالمرأة عن الصغار والامتهان، بل مضى شعراء الفرس يستبدون به، إذ كان أكثر الشعراء حينئذ منهم، فلم يعرفوا للمرأة حقها من الصيانة. والارتفاع عن الفجر الفاجر، بل لعلهم كانوا يدفعونها إليه دفعًا، بما كانوا ينظمون من أشعار صريحة عاهرة، على نحو ما يلقانا عند مطيع بن إياس ورفقته فى الكوفة وبشار بن برد ومعاصريه فى البصرة، وقد استحال شعر بشار إلى نداء صارخ للغريزة الجسدية، نداء يندى له جبين الشرف والخلق مما جعل وعاظ بلدته من أمثال واصل بن عطاء ومالك بن دينار يصرخون به أن يكفّ عن غيّه، وتعالى صياحهم هم ونظرائهم حتى وصل سمع[٢] المهدى، فهدّده وأنذره أن ينزل به عقابه إن هو لم يزدجر ولم يَرْعَوِ، واضطرّ أن ينزل على مشيئته

(١) ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل ص ٧١.
(٢) انظر الأغانى ١٨٢/٣ وفى مواضع متفرقة من ترجمة بشار فى هذا الجزء.

وبكى ذلك طويلا فى أشعاره. على أن تدخل المهدى جاء متأخراً ، فقد عمّ طوفان هذا الغزل لا فى البصرة والكوفة وحدهما بل أيضاً فى بغداد عند أبى نواس وأضرابه ، بحيث عُدّ ظهور العباس بن الأحنف بغزله الطاهر العفيف شذوذاً على جيله ومجتمعه .

وليس معنى ذلك أن الحياة فى بغداد كانت كلها مجوناً وتهالكاً على الفجر والعهر ، فإن تعدد الزوجات الذى أباحه الإسلام وما أعطاه للرجل من حق تسرّى الجوارى ، كل ذلك كان يحول دون سقوط بغداد جميعها فى هوة الفساد ، ومن أجل ذلك ينبغى أن لا نبالغ فى تصور موجة المجون والعبث حينئذ وأن نظن أن أهل بغداد جميعاً قد تخلوا عن الحياة المستقيمة الطاهرة التى يحوطها الخلق والتقاليد والدين ، إنما هو الكَرْخ حيث بيوت النخاسين والمقينين ومن يفدون عليها من الفتيان والشعراء للشراب والمجون فى غير استخفاء ولاحياء .

وقد أشاع هؤلاء المجان والخلعاء آفة مزرية هى آفة التعلق بالغلمان المُرْد ، وكان أول من اشتهر بالغزل فيهم والبة بن الحباب ، وهو يصرح بذلك تصريحاً فى غير مواربة ولا استحياء[1] ، ويقال إنه هو الذى يتحمل وزر إفساد أبى نواس ، بل هو فى رأينا الذى يتحمل وزر العصر كله وما شاع فيه من هذا الغزل المقيت الذى يخنق كرامة الشباب والرجال خنقاً . وربما كان من أسباب شيوعه كثرة الغلمان الخصيان فى بغداد وغيرها من مدن العراق ، وكان منهم من تسقط عنه رجولته حتى ليلبس لبس النساء . وكان من الجوارى من يلبس لبس الغلمان لفتاً للشباب والرجال ، ويُرْوَى أن الأمين حين أفضت إليه الخلافة قدّم الخصيان وآثرهم ، فشاعت قالة السوء فيه ، ورأت أمه زُبَيْدة دَرْءاً لتلك القالة أن تبعث إليه بعشرات من الجوارى ، ألبستهن لبس الرجال ، حتى ينصرف عن الخصيان فكن يختلفن بين يديه ، وأبرزهن للناس ، ولم يلبث كثيرون أن جاروه فى هذا الصنيع[2] ، وكن يسمّين بالغلاميات ، وعمّت هذه البدعة فى الساقيات[3] بالحانات ، ولعل ذلك هو السر فى أن أبا نواس كثيراً ما يتحدث عن بعض

---

(١) البيان والتبيين ٣/ ٢٢٠ وانظر ترجمته فى الأغانى (طبع الساسى) ١٦/ ١٤٢ .

(٢) المسعودى ٤/ ٢٤٤ .

(٣) أغانى ٥/ ٣٢٠ .

الجوارى بضمير المذكر . ومن تتمة هذا التبادل بين الجوارى والخصيان فى الزى والهيئة حينئذ كثرة المخنثين بين المغنين والضاربين على الدفوف ، وكانوا يتشبهون بالنساء فى عاداتهن وثيابهن وضَفْر شعورهن وصبغ أظافرهن بالحناء[1] .

٤

الشعوبية والزندقة

نادى الإسلام فى قوة بهدم الفوارق العصبية للقبائل والفوارق الجنسية للشعوب ، حتى يسود الوئام بين أفراد الأمة الإسلامية ، فلا عدنانى ولا قحطانى ولا عربى ولا أعجمى ، إنما هى أمة واحدة يتساوى أفرادها فى جميع الحقوق ولا تفاضل فيها إلا بالتقوى والعمل الصالح ، يقول جلّ شأنه : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى» [2] .

وهذا بلا ريب مثلٌ أعلى أراده الإسلام لأمته ، غير أنا لا نصل إلى عصر على بن أبى طالب وما نشب لعهده من حرب صِفِّين حتى نرى العصبيات القبلية تعود جذَعةً بين القبائل ، وكأنهم لم ينسوا حياتهم القديمة ، بل لقد اضطرمت اضطراماً لم تهدأ ثائرته طوال عصر بنى أمية . وقد مضى الأمويون ينحرفون عن جادّة الدين فى معاملة الموالى ، فهم يرهقونهم بكثرة الضرائب ، وهم لا يسوون بينهم وبين العرب فى الحقوق ، إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز ، ولكن مدة حكمه كانت قصيرة ، فلم يؤْت عمله فى هذا الجانب أى ثمرة .

وكانت هذه المعاملة السيئة للموالى سبباً فى اضطغانهم على العرب ، أو بعبارة أدق على الدولة الأموية ، فشاركوا الخوارج والشيعة فى الثورة عليها ، وأخذ فريق منهم يمثلهم إسماعيل[3] بن يسار النسائى يفاخر العرب بحضارة أمته الفارسية وملوكها

---

(١) أغانى ٤/٧ .
(٢) البيان والتبيين ٢/٢٣ .
(٣) أغانى ٤/١٠ ٤ وما بعدها .

الساسانيين الذين غلبوا على الأرض . وعظم حقد الموالى على الدولة ، وملأت الحفيظة والموجدة صدورهم ، والتفت منهم جماعات كثيرة حول أبى مسلم داعية العباسيين بخراسان ، وما لبثوا أن زحفوا فى جيش ضخم أدالوا به للعباسيين من الأمويين وللفرس من العرب إدالة نفذوا فى أثنائها إلى مناصب الدولة العباسية العليا ؛ بحيث كان منهم أكثر القواد وأكثر الولاة ، وخاصة حين استولى على أزمة الحكم البرامكة فى عهد الرشيد وبنو سهل فى عهد المأمون .

وكان هذا التحول الخطير فى مقاليد الحكم وما أصبح للفرس من مكانة رفيعة فى المجتمع العباسى الجديد سبباً فى بروز نزعة الشعوبية نسبة إلى الشعوب الأعجمية ، وهى نزعة كانت تقوم على مفاخرة تلك الشعوب — وفى مقدمتها الشعب الفارسى — للعرب مفاخرة تستمد من حضارتهم وما كان العرب فيه من بداوة وحياة خشنة غليظة . وكان منهم معتدلون وقفوا عند حد التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب حسب تعاليم الإسلام فلا عربى يفضل أعجمياً ولا أعجمى يفضل عربياً ، إذ ليست العروبة ولا العجمة ميزة فى نفسها تعلى من شأن صاحبها ، فالناس جميعاً سواء وقد خلقوا من تراب ويعودون إلى التراب .

وكان بجانب هؤلاء المعتدلين متطرفون تجاوزوا التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب إلى الإزراء عليهم والنزول بهم دونها مرتبة أو مراتب ؛ وهؤلاء هم الذين تصدق عليهم كلمة الشعوبيين ، إذ قدموا الشعوب الأجنبية على العرب وتنقصوا قدرهم وصغروا شأنهم ، وكانوا طوائف مختلفة فمنهم رجال السياسة الذين يريدون أن يستأثروا دون العرب بالحكم والسلطان ، ومنهم قوميون كانوا يستشعرون مشاعر قوميتهم ضد العرب الذين اجتاحوا ديارهم وقوضوا دولهم وهى مشاعر ما زالت تحتدم فى نفوس الفرس حتى أحيوا لغتهم ودولتهم فيما بعد ، ومنهم مجان خلعاء أعجبتهم الحضارات الأجنبية وما اقترن بها من خمر ومجون واستمتاع بالحياة . وأشد من كل هؤلاء عنفاً وغيظاً من العرب الملاحدة الزنادقة الذين كانوا يبغضون الدين الحنيف وكل ما اتصل به من عرب وعروبة ، وفيهم يقول الجاحظ : « إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أولُ ذلك رأىَ الشعوبية والتمادىَ فيه وطول الجدال المؤدّى إلى الضلال ، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك

الجزيرة ، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحبّ من أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتّى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هى الّتى جاءت به ، وهى السلف والقدوة » [١] .

وكانت أهم مطاعنهم الّتى وجهوها إلى العرب أنهم كانوا بدوًا [٢] رعاةَ أغنام وإبل ، ولم يكن لهم ملك ولا حضارة ولا مدنية ولا معرفة بالعلوم ، فأين هم قديمًا من ملك الأكاسرة والقياصرة ؟ وأين هم من الحضارة الفارسية والرومية ؟ وأين هم من علوم الهند والفرس والكلدان واليونان والرومان ؟ وقد مضوا يُزْرون على خطابتهم واعتمادهم فيها على العصى وإشارتهم بها واتكائهم على أطراف القسىّ كما أزروا على أسلحتهم الساذجة وأطعمتهم الخشنة . وأخذوا يتتبعون مثالبهم ويحصونها عليهم ويستقصونها ، وكان العرب بسبب أهاجيهم القبلية العنيفة قد وضعوا تحت أيديهم مادة وفيرة منها ، فاستغلوها فى ذمهم وأضافوا إليها مادة مُخْتَلَقَةَ صاغوها فى قصص وأشعار وأضافوها إليهم . وبلغ من سوء نيتهم وشدة موجدتهم عليهم أن حاولوا تقبيح بعض شيمهم الرفيعة كشيمة الكرم ، وقايسوا بين ما عندهم من المعارف والتعمق فى السياسة وبين ما للعرب من حكم منثورة . وزعموا — فيما زعموا — أن الرسول فضلهم على العرب بمثل قوله : « لأنابهم أوثق منى بكم » [٣] والوضع فى هذا الحديث لا يحتاج دليلا . وحاولوا أن يستلّوا قريشاً قوم الرسول من العرب ويدخلوهم فى غمارهم فزعموا أن سائلاً سأل الرسول عن أهله وأصل قريش ، فقال : نحن قوم من نبط كوثى [٤] .

ومن المحقق أن رجال الفرس البارزين من أمثال البرامكة وآل سهل وآل طاهر ابن الحسين كانوا يُذْكون نار هذه الشعوبية فيمن حولهم من الفرس، وقد اختلف الناطقون عنها بين عالم وأديب وشاعر ، نذكر منهم أبا عبيدة اللغوى الإخبارى المشهور ، وأصله من يهود فارس ، وقد صبّ عنايته على تسجيل مثالب العرب

---

(١) الحيوان ٧/٢٢٠ .

(٢) انظر فى هذه المطاعن البيان والتبيين ٣/٥ — ١٢٤ وكتاب العرب لابن قتيبة فى مجموعة رسائل البلغاء بتحقيق محمد كرد على (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) والعقد الفريد ٣/٤٠١ وما بعدها .

(٣) انظر تيسير الوصول ٣/١١١، ١٢٧ .

(٤) انظر مادة كوثى فى معجم البلدان لياقوت.

وبلغ من فساد طويته أن طعن فى بعض أسباب[1] الرسول صلى الله عليه وسلم . وليس من شك فى أن عنايته بتلك المثالب هى التى دفعته إلى شرح نقائض جرير والفرزدق لما تحمل منها من وقود جزل ، وكان فى الوقت نفسه يُعْنَى بالكتابة فى فضائل الفرس[2] . ومنهم عَلاَّن الشعوبى الفارسى وكان منقطعاً إلى البرامكة ونَسَخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون ، وألَّف فى مثالب القبائل العربية كتاباً سماه الميدان[3] . وكان يستشعر هذه النزعة فى أعماقه الكاتب الأديب سهل بن هرون الفارسى أحد صنائع البرامكة ، وقد أسْنَد إليه المأمون الإشراف على بعض خزائن بيت الحكمة ، وكان يتعصب على العرب تعصباً مسرفاً ، وصنف فى ذلك كتباً كثيرة[4] ، وقد افتتح الجاحظ كتابه البخلاء برسالة له أشاد فيها بالبخل وغضّ غضًّا شديداً من فضيلة الكرم العربية .

وأهم شاعر فى العصر أوقد نيران هذه الخصومة وظل يمدها بحطب جزل من أشعاره بشار بن برد وكان فى عصر بنى أمية يكثر من الفخر بمواليه من قيس ، حتى إذا حدث الانقلاب العباسى انقلب معه يتبرأ من العرب وولائهم ناسباً ولاءه إلى الله ذى الجلال ، يقول[5] :

أصبحتُ مولى ذى الجلالِ وبعضهم   مولى العُرَيْبِ فخُذْ بفضلك فافْخَرِ

وقد مضى يشنُّ حرباً عنيفة على العرب ، وكان أبوه طيَّاناً يضرب اللَّبِن ، فاعتزى إلى أشراف العجم وملوكهم داخلا — كما يقول الجاحظ — بذلك فى باب فسيح لا حجاب عليه ونسب واسع لا مدافع عنه . ولم يكتف بهذا النسب الذى ادعاه فقد مضى يزعم أنه ينتسب من قبل أمه إلى قياصرة الرُّوم على نحو ما نجد فى قصيدته[6] :

هل من رسولٍ مُخْبِرٍ   عنى جميعَ العـــربِ

(١) الفهرست (طبعة القاهرة) ص ٧٩ .
(٢) الفهرست ص ٨٠ والبيان والتبيين ١/٣٠٨ والكامل للمبرد ص ٣٥١ .
(٣) الفهرست ص ١٥٣ .
(٤) الفهرست ص ١٧٤ .
(٥) أغانى ٣/١٣٩ .
(٦) ديوان بشار (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/٣٧٧ .

وهى تصور ضراوة حقده العنيف على العرب ، وقد مضى فيها يقارن بين بداوتهم الجافية وحضارة آبائه اللينة من الفرس والروم . وفى الحق أن شعوبيته كانت صارخة ، إذ كان زنديقاً وعدوًّا للعرب ودينهم الحنيف عداوة ترسب فى ضميره وفؤاده .

وممن يُسْلَكُون فى شعراء الشعوبية أبو يعقوب الخريمى ، ولم يكن جادًّا فى تعصبه على العرب وخصومتهم ، إنما كان يطلب التسوية بينهم وبين غيرهم من الشعوب ، ولذلك ينبغى أن ينحَّى عن جماعة الشعوبيين ، وأدخلُ منه فيهم أبو نواس وشعوبيته إنما ترجع إلى شغفه بالخمر وعكوفه على المجون وإعجابه بالحضارات الأجنبية ، فهى شعوبية ناشئة عن الاستمتاع باللذات ، وكان يبتغيها ما وجد إليها سبيلا ، ويجعلها غاية الغايات من حياته ، وقد مضى يصور ذلك بدعوته إلى الانصراف عن الحياة المتبدِّية الخشنة وما يتصل بها من بكاء الأطلال والوقوف برسوم الديار إلى الحياة الناعمة المترفة وما يتصل بها من النشوة بالخمر والغلو فى الشراب والإغراق فى اللذات ، وله فى ذلك أشعار كثيرة . وكانت تسقط أسراب من هذه النزعة إلى شعراء النبط والهند ، من مثل قول أبى الأصلع الهندى يفخر بالهند وما أخرجت بلاد الهند(١) :

لقد يَعْذلنى صَحْبِى وما ذلك بالأَمْثَلْ
وفى مِدْحَىَ الهِنْدُ وسَهْمُ الهندِ فى المَقْتَلْ
وفيه السَّاجُ والعاجُ وفيه الفيلُ والدَّغْفَلْ(٢)

وينبغى أن نعرف أن الروح العربية — على الرغم من هذه الشعوبية — ظلت شامخة مسيطرة ، يسندها الخلفاء وزعماء العرب من الولاة والقواد ومستشارى الدولة ، كما يسندها الفقهاء والمحدثون وعلماء اللغة ورواة الشعر . وقد ردَّ بعض شعراء العرب على الشعوبية وأصحابها على نحو ما نجد عند أبى الأصبع الأموى فى تَصَدِّيه لعبد الله بن طاهر حين افتخر فى قصيدة له بنسبه من الفرس وبأبيه طاهر بن

---

(١) الحيوان ٧/١٧١ .
(٢) الساج : نوع ثمين من الخشب ، والدغفل : ولد الفيل .

الحسين قاتل الأمين ، فقد نقضها نقضًا بقصيدته[1] :

لا يَرُعْكِ القَالُ والقِيلُ كلُّ ما بُلِّغْتِ تضليلُ

وتجرَّد نفر من الموالى أنفسهم للرد على أصحاب هذه النزعة الخبيثة وما تحمل من كيد للعرب ودينهم الحنيف على نحو ما يلقانا عند الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين وابن قتيبة فى رسالته التى سماها « كتاب العرب» ومر بنا منذ قليل رأى الجاحظ فى أنها كانت تدفع الموغلين فيها دفعًا إلى الإلحاد فى الدين والزندقة .

وكلمة الزندقة ليست عربية إنما هى تعريب لمصطلح إيرانى كان يطلقه الفرس على صنيع من يؤوِّلون « الأفستا » كتاب داعيتهم زرادشت تأويلا ينحرف عن ظاهر نصوصه ، ومن أجل ذلك نعتوا به دعوة مانى ومن فُتنوا بها من الفرس . وأخذ مدلول الكلمة يتسع فى العصر العباسى ليشمل كل من استظهر نحلة من نحل المجوس ، واتسعت أكثر من ذلك فشملت كل إلحاد بالدين الحنيف وكل مجاهرة بالفسق والإثم .

ومعروف أن جمهور الفرس قبل الإسلام كانوا مجوسًا على دين زرادشت الذى ظهر فى ديارهم حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد وما وضعه لهم من تعاليم[2] ضمَّنها كتابه « الأفستا » وفيه زعم أن للعالم إلهين هما « أهورا مزد » إله النور خالق كل خير و « أهرمن » إله الظلمة خالق كل شر ، وأن وراء الحياة الدنيا حياة أخرى يكون فيها حساب الشخص على أعماله فإما النعيم وإما الجحيم ، وأن النار مقدسة طاهرة مما جعل الإيرانيين يقيمون لها المعابد فى كل مكان . وظهر عندهم فى القرن الثالث الميلادى داعٍ يسمى مانى مزج فى تعاليمه بين الزرادشتية والبوذية والنصرانية[3] ، فأبقى من الأولى على عقيدة إلهى النور والظلمة واستباحة الزواج بالبنات والأخوات ، وأخذ من الثانية عقيدة التناسخ وتحريم ذبح الحيوان والطيور ، وأخذ من الثالثة الزهد والنُّسك ، وفرض على أصحابه صلوات وأدعية

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٠٤/١٢ وابن المعتز ص ٣٠٠ .

(٢) انظر فى تعاليم زرادشت الملل والنحل للشهرستانى (طبعة كيورتن) ص ١٨٥ وتراث فارس (الطبعة العربية) ص ٣٦ وفجر الإسلام لأحمد أمين (الطبعة الأولى) ص ١١٨ .

(٣) راجع فى مانى والمانوية الفهرست ص ٤٥٦ والشهرستانى ص١٨٨ ومختصر تاريخ الدول لابن العبرى ص ١٢٢ وفجر الإسلام ص١٢٤ .

كثيرة . وفى أواخر القرن الخامس للميلاد يظهر فى إيران داع جديد هو مَزْدك وكان ثَنَوياً[1] يؤمن بإلهى النور والظلمة وتقديس النار ، وقد مضى يدعو دعوة صارخة إلى العكوف على اللذات والشهوات والإمعان فيها ، وأحلّ النساء وأباح الأموال وجعلهما شركة للناس ، وكان له — كما كان لمانى — أتباع كثيرون .

وقد عامل الإسلام والمسلمون المجوس معاملة أهل الكتب السماوية ، وبذلك ظلت المجوسية حية حياة قوية حتى العصر العباسى ، ومرّ بنا ما كان من ثورات سنباذ والخرمية فى خراسان وأذربيجان وطبرستان ، وهى ثورات كانت تستوحى هذه الملل المجوسية السابقة ، وكانت تسرى فى نفوس كثيرين من نازلة بغداد والعراق سرّاً وجهراً ، وكانت المانوية أخطرها جميعاً لما كانت تأخذ به من الزهد ومن بعض التعاليم المسيحية ، مما جعلها تقترب من دعوات الديانات السماوية فى السلوك وفى التخلق بالخلق الحسن ، وإن افترقت عنها بعد ذلك افتراقاً شديداً فى ثنويتها وتحليلها الزواج بالبنات والأخوات وما جلبته من بعض مذاهب الهند .

وتنبه المهدى لانتشار هذه الملل المجوسية المارقة فى أمصار العراق ورأى فيها خطراً أى خطر على الدولة والإسلام ، فأمر — كما أسلفنا فى الفصل السابق — باتخاذ ديوان خاص لتعقب من يعتنقها من المسلمين ونصب لهم حرباً لا هوادة فيها ولا لين ، فكل من تثبت عليه زندقته قُدّم وقوداً لتلك الحرب التى ظلت قائمة إلى عهد ابنه الرشيد . ويظهر أن الفرس كانوا قد نشطوا نشاطاً واسعاً فى نشرها بين الناس ونشط معهم كثير من الزنادقة أنفسهم يترجمون كتب النحل الفارسية ويصنّفون فى الدعوة لها وفى تعاليمها ، وأيضاً فهم وبعض النصارى نقلوا إلى العربية كتب بعض مارقة النصارى وملحدتهم مثل مَرْقيون[2] وابن دَيصان[3] ، يقول المسعودى : « أمعن المهدى فى قتل الملحدين والمداهنين فى الدين لظهورهم فى أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم فى خلافته لما انتشر من كتب مانى وابن ديصان ومَرْقيون

---

(١) انظر فى مزدك والمزدكية الفهرست ص ٤٧٩ والشهرستانى ص ١٩٢ وفجر الإسلام ص ١٣٠ .

(٢) من أهل آسيا الصغرى وكان يعتنق المسيحية وانحرف عن تعاليمها وكون لنفسه مذهباً مستقلا كان فيه الملهم لابن ديصان ، وقد طردته الكنيسة سنة ١٤٤ م .

(٣) من أهل الرها ولد سنة ١٥٤ وكان يعتنق المسيحية وشذ على تعاليمها مكوناً عقيدة مستقلة فطردته الكنيسة .

مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجمه من الفارسية والفهلوية إلى العربية وما صنَّف من ذلك ابن أبى العوْجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المنانية[١] والديصانية والمرقيونية ، فكثْرت بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم فى الناس» [٢] ويقول الجاحظ : «لولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار إلى أغبيائنا وظُرفائنا ومجّاننا وأحداثنا شىء من كتب المنّانية والدّيْصانية والمرقيونية .. ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها ومخبّأة فى أيدى ورثتها فكل سخنة عين رأيناها فى أحداثنا وأغبيائنا فمن قِبَلهم كان أولها»[٣].

ولم ينصب المهدى وخلفاؤه للزنادقة حرب السيف وحدها ، فقد نصبوا لهم أيضًا حرب اللسان : لسان المتكلمين الذين مضوا يجادلونهم ويفحمونهم وينقضون شبهاتهم بالبرهان القاطع والدليل الساطع ، وصنفوا فى ذلك الرسائل والكتب الطوال ، ومن يقرأ كتاب الحيوان للجاحظ يجده يتوقف كثيراً ليُورد ردّ النظام وغيره من المتكلمين على هؤلاء الزنادقة وكيف كانوا يسددون إليهم أدلة مصمية رادعة ، وكان للمعتزلة فى ذلك القِدْحُ المعلّى ، فهم الذين عاشوا يناظرونهم ويدفعون شرهم عن العامة والخاصة موضحين ما فى شُبهِهم من زيف وتمويه وما فى عقائدهم من فساد ومناقضة للعقل المنطقى السليم .

وقد قُتل كثيرون من رءوس الزنادقة لهذا العصر ، يتقدمهم ابن المقفع الذى قُتل لعهد المنصور ، وفيه يقول المهدى : «ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع[٤]» . وقُتل منهم كثيرون لعهد المهدى ، منهم — فى بعض الروايات — صالح بن عبد القدوس[٥] ، وكان يعتنق المانوية ، ويحاضر فيها ويناظر فقُتل وصُلب على الجسر ببغداد[٦] نكالا للناس وعظة ، ومنهم بشار وكان يعلن إشادته بالنار معبودة قومه المجوس ويفضلها على الطين كما يفضل إبليس على الإنسان ، وبلغ من تحمس المهدى لقتله أن خرج بنفسه إلى البصرة ليشهد مقتله[٧] . وكانت

---

(١) النسبة إلى مانى إما منانى أو مانوى .
(٢) المسعودى ٤/٢٤٢ .
(٣) ثلاث رسائل للجاحظ ص ٢٠ .
(٤) أمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١/١٣٤.
(٥) يجزم ابن المعتز بأنه قتل فى عهد الرشيد.
(٦) أمالى المرتضى ١/١٣٤ وانظر ترجمته فى تاريخ بغداد ٩/٣٠٣ .
(٧) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣/٢٤٤.

البصرة – فيما يظهر – أكبر وَكْرٍ حينئذ للزنادقة والملاحدة ، ففيها نبت وعاش بشار وصالح بن عبد القدوس ، ونرى محمد بن سليمان العباسى واليها للمهدى يقتل من ملاحدتها زنديقين كبيرين هما عبد الكريم[١] بن أبى العوجاء وحماد[٢] عجرد « وكان عبد الكريم مانويًّا يؤمن بالتناسخ ويتخذ من سيرة مانى وسيلة لدعوته إلى الزندقة وتشكيك الناس فى عقائدهم »[٣] ولما قُدِّم للقتل قال : « لئن قتلتمونى لقد وضعت فى أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة »[٤] . وفى ذلك ما يصور جانبًا من دَسِّ هؤلاء الزنادقة على الإسلام ومحاولة تشويه هديه الكريم . وقد تنبَّه لهم رواة الحديث النبوى فأسقطوا ما وضعوه وبينوا كذبه واختلاقه . ومرَّ بنا آنفاً أن حماد عجرد كان ممن يؤلفون الكتب فى تأييد الإلحاد والزندقة استغواء للعامة وإفساداً لها وقد سلك معه المسعودى فى هذا الاتجاه يحيى بن زياد الحارثى ومطيع بن إياس ، ولا نجد ذكراً لقتلهما ولا لحبسهما على الزندقة ، وربما لم تثبت عليهما ثبوتًا قاطعًا .

واشتد الهادى مثل أبيه فى طلب الزنادقة حين ولى الخلافة لسنة ١٦٩ وقتل منهم جماعة[٥] من بينهم أحد أبناء عمه داود بن على ويعقوب بن الفضل من سلالة الحارث بن عبد المطلب . وسرعان ما خلفه هرون الرشيد لسنة ١٧٠ فسار فيهم نفس السيرة ، وممن تعقبهم يزيد[٦] بن الفيض، ويونس بن أبى فروة وكان قد ألف كتابًا فى مثالب العرب وعيوب الإسلام – بزعمه – وصار به إلى ملك الروم فأغدق عليه مالا كثيراً[٧] . وطلب الرشيد أيضًا على بن الخليل الشاعر لما ذاع من زندقته ، غير أنه تبرَّأ منها فأطلقه[٨] .

وكان المأمون إذا سمع بزنديق أو زنادقة أمر بحملهم إليه وأحضرهم مجالسه حيث المتكلمون ودفعهم جميعًا إلى المناظرة ، لعلهم يقنعونهم ويردونهم إلى الإسلام ومحجته المستقيمة ، وكان يناظرهم هو نفسه أحيانًا[٩] ، فإذا لم يكفوا عن غوايتهم

---

(١) لسان الميزان لابن حجر ٤/٥١ وما بعدها .
(٢) لسان الميزان ٢/٣٥٠ .
(٣) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٣٤٩ .
(٤) أمالى المرتضى ١/١٢٨ .
(٥) طبرى ٦/٤٠٨ وما بعدها .
(٦) طبرى ٦/٤٤٤ .
(٧) انظر أمالى المرتضى ١/١٣٢ والحيوان ٤/٤٤٨ والطبرى ٦/٤٤٤ .
(٨) أغانى (طبع دار الكتب) ١٤/١٧٤ وأمالى المرتضى ١/١٤٦ .
(٩) الحيوان ٤/٤٤٢ .

أمر بقتلهم ، ويقال إنه بلغه خبر عشرة رجال فى البصرة يجتمعون على المانوية ، فأمر بحملهم إليه ، فلما أُدْخلوا عليه امتحنهم ، وحاول أن يردّهم عن ضلالهم ، غير أنهم ثبتوا على عقيدتهم الفاسدة فأمر بقتلهم جميعاً[1] . ومرّ بنا فى الفصل السالف ما كان من ثبوت الزندقة على الأفشين قائد المعتصم التّركى ، مما جعله يزج به فى غياهب السجن حتّى مات وصُلب بعد موته .

ومما لا ريب فيه أن خلفاء بنى العباس لم يكونوا يقتلون على الزندقة إلا بعد ثبوتها على صاحبها ثبوتاً لا يرقى إليه شك ، ويظهر أنهم إنما كانوا يقتلون من ينزع نزعة مجوسية وخاصة أصحاب النزعة المانوية كما تشهد بذلك الأخبار السابقة ، فكثْرة المقتولين تضاف إليهم صفة المانوية ، ويؤكد هذا تأكيداً قويّاً وصية المهدى لابنه الهادى بتتبع الزنادقة ، فقد وصفهم له وصفاً يدل على أنه إنما أراد من يعتنقون تعاليم المانوية[2] . ومعنى ذلك أنهم لم يكونوا يقتلون على الإباحة المسرفة والإمعان فى المجون ولا كانوا يعاقبون عليهما عقاباً صارماً ، وكان حريّاً بهم أن يشددوا فى ذلك حتّى لا تؤول الحياة فى أمصار العراق إلى ما آلت إليه فى بعض جوانبها من الفساد والتحلل الخلقى .

٥

الزهد

ليس معنى ما قدمنا من حديث عن الزندقة والمجون أن المجتمع العباسى كان مجتمعاً منحلاً أسلم نفسه للإلحاد والشهوات ، فالإلحاد والزندقة إنما شاعا فى طبقة محدودة من الناس كان جمهورها من الفرس ، وكانت موجة المجون أكثر حدة ، ولكنها لم تكن عامة فى المجتمع ، بل كانت خاصة بالمترفين ومن حولهم من الشعراء والمغنين . أما عامة الشعب فإنها لم تكن تعرف زندقة ولا مجوناً ، أما من حيث الزندقة فإنها لم تكن تعادى الإسلام وصاحبه ، بل كانت مسلمة حسنة الإسلام تهتدى بأضوائه وتَجْرى على سَنَنه ، وأما من حيث المجون فإنها لم تكن مترفة ولا

---

(١) المسعودى ٣/٣٣٢.

(٢) طبرى ٦/٤٣٣ وما بعدها .

ثرية ، بل كانت تعيش على الكفاف ، بل كان كثير منها يعيش فى البؤس والضنك والضيق وقلوبه تتقطع حسرات على ما تحظى به الطبقة المترفة من أسباب النعيم . وكانوا ساخطين سخطاً شديداً على كل ما يرونه حولهم من جموح الأهواء والإمعان فى المجون ، وهو سخط اتسع فى أيام الفتنة بين الأمين والمأمون حين حوصرت بغداد واستطال شر المُجّان والعُهّار ، وظلت من ذلك بقية فى سنتى ٢٠١ و ٢٠٢ فإذا جماعات كبيرة تتطوّع للنكير عليهم والأخذ على أيديهم[١] .

وإذا كانت حانات الكَرْخ ودور النخاسة والمقينين به اكتظت بالجوارى والإماء والقيان والمغنين ، فإن مساجد بغداد كانت عامرة بالعُبّاد والنسّاك وأهل التقوى والصلاح ، وكان فى كل ركن منها حلقة لواعظ يذكّر بالله واليوم الآخر وما ينتظر الصالحين من النعيم المقيم والعاصين من العذاب والجحيم . وكان من الوعّاظ مَنْ يقتحم قصر الخلافة ليعظ الخلفاء على نحو ما هو معروف عن عمرو بن عبيد فى وعظه للمنصور[٢] وصالح بن عبد الجليل فى وعظه للمهدى[٣] وابن السماك فى وعظه لهرون الرشيد[٤] ومن كلامه : « الدنيا كلها قليل والذى بقى منها فى جَنْب الماضى قليل ، والذى لك من الباقى قليل ، ولم يبق من قليلك إلا القليل »[٥] .

وكان الوعظ فى هذا العصر يلتحم بالقصص للعظة والعبرة ، وهو التحام قديم منذ تميم الدارى وكعب الأحبار فى عصر الخلفاء الراشدين ومنذ قُصّاص الفتوح من أمثال أبى سفيان بن حرب . وقد ازدهر هذا الوعظ القصصى فى عصر بنى أمية عند الحسن البصرى وأضرابه ، وتكامل ازدهاره فى هذا العصر . وينبغى أن نميز بين هذا الضرب من القصص الدينى وقصص آخر كان الناس يجتمعون حول أصحابه فى طرقات بغداد وغيرها من أمصار العراق ليسلوهم بالنوادر والحكايات القصيرة ، ومن أجل ذلك قُرنوا بأصحاب المساخر من مثل القَرّادين[٦] . وقد كثر قصاص الوعظ الذين كانوا يدفعون الناس إلى العبادة ورفض المتاع الدنيوى وسلوك السبيل الواضحة إلى نعيم الآخرة كثرة مفرطة[٧] .

---

(١) طبرى ٧/١٣٦ وما بعدها .
(٢) انظر عيون الاخبار ٢/٣٣٧ والعقد الفريد ٣/١٦٤ .
(٣) عيون الأخبار ٢/٣٣٣ والعقد الفريد ٣/١٥٨ .
(٤) طبرى ٦/٥٣٨ والعقد الفريد ٣/١٦٤ .
(٥) النجوم الزاهرة ٢/١١٢ .
(٦) انظر ما كتبه الجاحظ عن أبى كعب الصوفى فى كتابه الحيوان ٣/٢٤ وراجع التاج ص ٤٠ .
(٧) القصاص لابن الجوزى ص ١٨ .

وكان بجانب هؤلاء القُصَّاص الواعظون كثير من النساك ، ومن الصعب استقصاؤهم إذ كانوا منتشرين فى كل الأمصار ، وكان يحيون حياة زهد خالصة كلها تبتل وعبادة وتقشف وانقباض عن الاستمتاع بالحياة وملذاتها وانصراف عن كل نعيم فيها انتظاراً لما عند الله من النعيم السرمدى الذى لا يزول . وفى البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد منثورات رائعة من أقوال مشاهيرهم أمثال سُفْيان الثورى المتوفى سنة ١٦١ وداود الطائى المتوفى سنة ١٦٥ وعبد الله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١ والفُضَيل بن عياض المتوفى سنة ١٨٧ وسُفْيان بن عُيَيْنة المتوفى سنة ١٩٨ وكان يقول : « فكرك فى رزق غَدٍ يكتب عليك خطيئة[١] » ويقول : « لا يمنعْ أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فإن الله قد استجاب دعاء شَرِّ الخلق وهو إبليس (قال رَب فأنْظِرْنى إلى يوم يُبْعَثُون قال فإنك من المُنْظَرين) » ، وكان يستحب أن يقال فى الدعاء : اللهم استُرْنى بسترك الجميل[٢] . ومن مشهورى هؤلاء النساك عبد الواحد بن زيد المتوفى سنة ١٧٧ وهو الذى أنشأ أول رباط أو أول صومعة للناسكين فى عَبَّادان بالقرب من الكوفة ، وفيهم وفى رباطهم يقول أبو العتاهية[٣] :

سَقَى اللهُ عَبَّادان غَيْثاً مُجَلِّلاَ ... فإن لها فضلا جديدًا وأوَّلا

وثَبَّتَ مَنْ فيها مُقِيماً مرابطًا ... فما إن أرى عنها له متحوَّلا

إذا جئتَها لم تَلْقَ إلا مكبِّرًا ... تخلَّى عن الدنيا وإلا مهلِّلا

فأكرمْ بمن فيها على الله نازلا ... وأكرمْ بعبَّادان دارًا ومنزلا

وقد أخذت تُقام فى هذا العصر رباطات أخرى فى أنحاء العالم الإسلامى ، وكانت الدولة التى تقيمها أحيانًا ، ففى أخبار الفضل بن يحيى البرمكى أنه شخص إلى خراسان فى سنة ثمان وسبعين ومائة ، فبنى المساجد والرباطات[٤] .

ويدلّ أكبر الدلالة على ارتفاع موجة النسك حينئذ أنه أخذت تنبثق بين

---

(١) عيون الأخبار ٣١٥/٢ .
(٢) النجوم الزاهرة ١٥٨/٢ .
(٣) ديوان أبى العتاهية (طبع بيروت) ص ٢١٨ .
(٤) الجهشيارى ص ١٩٠ وما بعدها .

النُسَّاك مقدمات نزعة التصوف متمثلة فى شيوخ كثيرين ، فى مقدمتهم إبراهيم ابن أدهم البَلْخِيّ المتوفى سنة ١٦٠ ورابعة العدوية المتوفاة بالبصرة سنة ١٨٠ وشقيق البلخى تلميذ ابن أدهم المتوفى سنة ١٩٤ ويقال إنه أول من تكلم فى التصوف وعلوم الأحوال بكُورة خراسان وأن له يداً طولى فى إشاعة مبدأ التوكل[١] . ومن مشهوريهم معروف الكرخى من أهل كرخ بغداد المتوفى سنة ٢٠٠ ومن مأثور كلامه : « مَنْ كابر اللهَ صرعه ، ومَنْ نازعه قَمعه ، ومن ماكره خدعه ، ومن توكل عليه منعه ومن تواضع له رفعه »[٢] . ومن مشهوريهم أيضاً عَبْدك الكوفى وأبو سليمان الدارانى الشامى المتوفى سنة ٢٠٥ وبشر بن الحارث الحافى الخراسانى نزيل بغداد المتوفى سنة ٢٢٧ وكان يقول : « الجوع يصفّى الفؤاد ويُميت الهوى ويورث العلم الدقيق ، والمتقلّب فى جوعه كالمتشحط فى دمه فى سبيل الله ، وإذا أعجبك الكلام فاصمت ، وإذا أعجبك الصمت فتكلّم[٣] » . وتلقانا من هؤلاء المتصوفة جماعة بمصر على رأس المائتين[٤] .

وينبغى أن لا نبالغ فنزعم أن التصوف نضج فى هذا العصر ، إنما أخذت مقدماته فى البروز والظهور ، أما تكونه التام فقد حدث فى العصر التالى ، أما فى هذا العصر فقد تفتحت تباشيره الأولى ، وقد حاول بعض المستشرقين أن يربط ربطاً وثيقاً بين زهد هؤلاء النُسَّاك وبين زهد الرهبان المسيحيين الذين كانوا منتشرين فى العالم الإسلامى وخاصة فى العراق والشام ومصر[٥] ، ونحن لا نمنع التأثر العام ، ولكن ينبغى أن يستقر فى نفوسنا أن الزهد الإسلامى يختلف عن الزهد المسيحى فى جوهره إذ الزهد عند المسيحيين ورهبانهم يقوم على أساس من فكرة الخطيئة ، والإسلام لا يُقرّ هذه الفكرة ولا ما تؤدى إليه من تعذيب الجسد ، فإن لبدن المسلم عليه حقاً ، ومن أجل ذلك نَهَى الإسلام عن العزوبة ، بينما دعت إليها المسيحية .

وقد حاول جولد تسيهر أن يربط بين مقدمات نزعة التصوف الإسلامية وبين

---

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢١ وانظر فى تاريخ وفاته ٢/١٤٦ .
(٢) النجوم الزاهرة ٢/١٦٧ .
(٣) النجوم الزاهرة ٢/٢٥٠ .
(٤) كتاب الولاة والقضاة للكندى ص ١٦٠ .
(٥) العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ١٣١ وما بعدها .

تعاليم الأفلاطونية الحديثة وما يتصل بها من مذهب الفيض ووحدة الوجود[١] ، كما حاول أن يربط بين هذه المقدمات وبوذية الهند ، إذ رأى فى سيرة إبراهيم بن أدهم التى صورها بعض من تحدثوا عن أخباره ما يحكى محاكاة تامة سيرة بوذا ، إذ يقال إنه كان ابن ملك من ملوك بلخ ورأى من إحدى نوافذ قصره رجلا مسكيناً فتدبر أمره ، ولم يلبث أن خلع ثوب الإمارة إلى الأبد ولبس أطماراً بالية وفارق قصره وزوجه وأولاده وأوى إلى الصحراء سائحاً مطوّفاً عابداً ربه[٢] . وهى سيرة لابن أدهم صنعتها له الأجيال المتأخرة[٣] فلا يصح أن تُحمل على العصر العباسى الأول ولا أن تتخذ دليلا على أن متصوفته كانوا يتأثرون البوذية وما ترويه عن بوذا الناسك . وقد رأى جولد تسيهر الجاحظ يروى خبراً عن ناسكين سائحين[٤] فقال إنهما من ناسكى البوذية ، كى يدعم دعواه ، وهما من ناسكى المانوية .

والحق أن جولد تسيهر يبالغ فى كل ما رآه من هذا الربط بين مقدمات التصوف الإسلامى والبوذية من جهة والأفلاطونية من جهة أخرى . يمكن أن يكون قد حدث ذلك فى بعض جوانب التصوف فيما بعد هذا العصر إذ كان التصوف لا يزال يستمد من معين الإسلام ذاته كما لاحظ ذلك نيكلسون[٥] ، وهو حينئذ لم يكن أكثر من نمو للزهد الإسلامى وما ارتبط به من نسك ، وآية ذلك القاطعة أن نظريتى الفيض ووحدة الوجود لم تمدا ظلالهما عليه حتى هذا التاريخ .

على أن هذا الزهد الإسلامى وما ارتبط به من مقدمات التصوف كانت تجرى بجانبه أسراب من زهد فاسد هو زهد الزنادقة الذين اعتنقوا تعاليم المانوية على نحو ما يلقانا فى أشعار صالح بن عبد القدوس المقتول لمانويته وهى تزخر بالترغيب عن متاع الدنيا الزائل حتى ليقول ابن المعتز إن له فى ذلك ما ليس لأحد[٦] .

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص١٣٦.

(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص١٤٣.

(٣) قارن هذه السيرة التى حكاها جولدتسيهر بما قاله ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٣٦/٢ وهو من المصادر المتأخرة ، يقول : «كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف ، وكان أبوه شريفاً كثير المال والخدم والجنائب (الدواب) والبزاة ، فبينا إبراهيم يأخذ كلابه وبزاته للصيد وهو على فرسه يركضه إذ هو بصوت يناديه : يا إبراهيم ماهذا العبث ؟ ! أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، اتق الله وعليك بالزاد ليوم الفاقة ، فنزل عن دابته ورفض الدنيا . وانظر صفة الصفوة ١٢٧/٤ .

(٤) الحيوان ٤٥٦/٤ وما بعدها .

(٥) انظر كتاب فى التصوف الإسلامى وتاريخه لنيكلسون (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٣ .

(٦) ابن المعتز ص ٩١ .

ومعنى ذلك أن العصر العباسى الأول شهد لونين من الزهد : زهداً إسلامياً خالصًا أعدّ للنسك والتصوف ، وزهداً مانويـًا مارقـًا ، وهو الذى يمكن أن يوصل بينه وبين البوذية ، إذ المانوية تتأثر بها — كما مر بنا — من قديم . وقد مضت الدولة تقاومه وتقاوم أصحابه مقاومة عنيفة على نحو ما أسلفنا ، وكان من تمام النسك فى هذا الزهد المارق المنحرف أن يعيش الناسك من سؤال الناس[١] .

---

(١) الحيوان ٤/٤٥٦ .

الفصل الثالث

الحياة العقلية

١

الامتزاج الجنسى واللغوى والثقافى

كانت الدولة العباسية تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ومن المحيط الهندى والسودان جنوباً إلى بلاد الترك والخزر والروم والصقالبة شمالا ، وبذلك كانت تضم بين جناحيها بلاد السند وخراسان وما وراء النهر وإيران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب . وهى أوطان كثيرة ، وكان يعيش فيها منذ القدم شعوب متباينة فى الجنس واللغة والثقافة ، غير أنها لم تكد تدخل فى نطاق العروبة حتى أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربى امتزاجاً قوياً ، فإذا بنا إزاء أمة عربية تتألف من أجناس مختلفة ، وقد مضت هذه الأجناس تنصهر فى الوعاء العربى حتى غدت كأنها جنس واحد .

ومن أهم الأسباب التى هيأت لذلك نزول القبائل العربية فى الأمم المفتوحة وامتزاجها بشعوبها فى السكنى وعن طريق المصاهرة وتسرى الإماء ، بحيث غدت بيوت العرب تزخر بالجوارى من كل جنس : سنديات وحبشيات وفارسيات وخراسانيات وتركيات وروميات وصقلبيات ، وبحيث أصبح العربى خالص الدم فى بغداد نادراً ، فالكثرة الكثيرة من أبناء العرب أمهاتهم من الجوارى والإماء ، وكذلك الشأن فى الخلفاء أنفسهم على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى الفصل السابق .

وكان وراء هذا المزج الدموى بين العنصر العربى والعناصر الأجنبية مزج روحى عن طريق الولاء الذى شرعه الإسلام والذى اتخذ شكل رابطة تشبه رابطة الدم ، فالشخص يكون فارسياً أو هندياً أو رومياً أو قبطياً ويكون عربياً ولاء ، وحتى الرقيق كانوا بمجرد تحريرهم يصبحون موالى لأصحابهم وينسبون إلى قبائلهم مثلهم مثل أبنائها الأصليين ، وقد دعا الإسلام إلى هذا التحرير دعوة واسعة ،

وجعله كفارة عن كل ذنب كبير أو صغير ، وكان كثير منهم حين يحرّرون يجِدُّون ويعتلون المناصب الكبرى فى الدولة .

وهذا الرقيق إنما كان قلة قليلة بالقياس إلى أحرار الموالى الذى كانت تتكون منهم الشعوب المفتوحة ، وقد دخلت كثرتهم فى الإسلام ، وامتزجوا بأهله من العرب ونعموا بما يَكْفَلُ للناس من عدل ومساواة ، وحقًّا تعسف معهم الأمويون ولكن العباسيين ردوا الأمر إلى نصابه ، بل لقد فسحوا للفرس كى يغلبوا على العرب فى تصريف شئون الدولة . وحتّى من لم يسلم من الموالى : من المجوس والصابئة والنصارى أخذ يندمج فى المحيط العربى بفضل ما شرعه الإسلام لهم من حقوق اجتماعية وحرية دينية . وبذلك فُتحت بينهم وبين المسلمين أبواب التعاون الوثيق — على مصاريعها — فى جميع شئون الحياة ، وحقًّا دخل جمهورهم الضخم فى الإسلام ولكن دون إكراه أو عنف أو عسف .

وبذلك استطاع الإسلام — بتعاليمه السمحة — أن يحدث امتزاجًا قويًّا بين العناصر المختلفة التى كانت تتألف منها الدولة العربية ، وهو امتزاج لم يبلغه بامتلاك الأرض المفتوحة ، إنما بلغه بامتلاك القلوب ، فإذا الكثرة الكثيرة من الشعوب التى انبسط عليها سلطانه تُسْلِم وإذا من بقوا على دينهم يشعرون تلقاء المسلمين وحكامهم بضرب من الأخوة الكريمة .

وقد أسرع من أسلموا من الشعوب المفتوحة جميعًا إلى تعلم لغة القرآن الكريم والحديث النبوى ، فلم يمض نحو قرن حتّى أخذت العربية تسود فى كل أنحاء العالم الإسلامى لا بين المسلمين وحدهم ، بل أيضًا بين غيرهم ممن بقى على دينه القديم لافى البيئات التى كانت قد أخذت تستعرب فى العصر الجاهلى : بيئات العراق والجزيرة والشام فحسب ، بل أيضًا فى البيئات النائية : فى إيران وخراسان ومصر وبلاد المغرب ، وهى بيئات لم يكن لها بالعروبة عهد من قبل ، فإذا هى تتعرّب وتتعرّب معها الأطراف الغربية للقارة الأوربية فى الأندلس .

وكان سكّان هذه البيئات يتكلمون لغات مختلفة ، فى إيران كانوا يتكلمون الفهلوية ، وفى العراق والجزيرة كانوا يتكلمون الآرامية وما انبثق منها من النبطية والسريانية ، وفى الشام كانوا يتكلمون اللغة الأخيرة ولغات سامية مختلفة ، وفى مصر

كانوا يتكلمون القبطية وفى بلاد المغرب كانوا يتكلمون البربرية . وكانت اللغة اليونانية قد أخذت تشيع — منذ غزو الإسكندر — فى الأوساط الثقافية بالشرق كله : فى إيران والعراق والجزيرة والشام ومصر ، بينما كانت اللاتينية تشيع فى تلك الأوساط بشمالى إفريقية والأندلس .

ولا نكاد نتقدم فى كل هذه البيئات بعد فتحها بنحو قرن حتى نجد العربية قد ملكت ألسنة الناس وقلوبهم فى جميع أنحائها القريبة والبعيدة ، وكان هذا تطوراً خطيراً حدث فيها ، إذ أصبحت شعوبها جميعاً عربية اللغة والتفكير والشعور والثقافة والأدب والحضارة . وقد اختلف إسراعها إلى هذا التعرب باختلاف مواقعها من الجزيرة العربية ، فكان أسرعها تعرباً العراق والجزيرة والشام ، وكان تعربها جميعاً قد بدأ فى الجاهلية ، فأتمته الفتوح العربية سريعاً ، فإذا اللغات السامية التى كانت تنتشر فى تلك البيئات وعلى رأسها السريانية تترك مكانها من ألسنة الناس وتنحاز إلى الأديرة وإلى بيئة الصابئة فى حران وبعض المراكز الثقافية القديمة كمدرسة جنديسابور . وتتعرب مصر وبلاد المغرب تدريجاً .

وقد أقبل الفرس على التعرب إقبالا منقطع النظير ، فقد أكبوا على تعلم العربية حتى أتقنوها واتخذوها سريعاً للتعبير عن عقولهم ووجداناتهم بحيث لا نكاد نتقدم فى العصر العباسى حتى يصبح جمهور العلماء والكتاب والشعراء منهم ، فهم يقبلون على درس الشريعة الإسلامية ويتألق فيها نجم أبى حنيفة وتلاميذه ، وهم يقبلون على جمع العربية وتدوين أصولها النحوية على نحو ما هو معروف عن سيبويه وهم يقبلون على إحسان صناعة الكتابة على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع ، وهم يقبلون على الشعر بحيث يصبح أعلامه النابهون منهم على نحو ما هو معروف عن بشار وأبى نواس .

وليس معنى ذلك أن جميع أصحاب اللغات القديمة هجروا لغاتهم تماماً ، فقد ظلت من ذلك بقايا حتى فى أكثر البيئات تعرباً أى فى العراق والشام ، مما نشأ عنه سقوط بعض كلمات نبطية وآرامية إلى العربية[1] . ولعل أهم لغة قديمة

---

(١) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) ٥/١٧٦ وقد اشتهر فى أواخر عصر بنى أمية شاعر عربى بكثرة ما كان يدخل فى أشعاره من ألفاظ نبطية هو الطرماح : انظر الموشح للمرزبانى ص ٢٠٨.

ظلت حية هي الفارسية، لا بين سكان إيران فحسب، بل أيضًا بين سكان الأمصار في العراق، إذ زحفت إليها منذ عصر بني أمية جموع كبيرة منهم، وازداد زحفهم في هذا العصر الذي علا فيه سلطانهم. ويدل على ذلك من بعض الوجوه ما يرويه الجاحظ عن قاص من قُصَّاص البصرة ووعاظها هو موسى الأسْوارى إذ يقول: «كان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فتقعد العرب عن يمينه والفُرْس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحوِّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يُدْرَى بأي لسان هو أبين»[1]. وكان كثير من العرب أنفسهم يتعلم الفارسية ويحسنها، حتى لنراها تدور في مجالسهم[2]، وحتى لنرى الأصمعي العربي القُحَّ يفهم ما يجرى منها على لسان بعض الفرس[3]. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنها كانت تشيع على ألسنة كثيرين في الحياة اليومية لبغداد والكوفة والبصرة، وبسبب من ذلك ولأنها كانت لغة الحضارة الفارسية دخل منها إلى العربية ألفاظ كثيرة، وخاصة ما اتصل بأسماء الأطعمة والأشربة والأدوية والملابس. ودخل العربية في هذا العصر بعض ألفاظ هندية وخاصة في أسماء النباتات والحيوانات من مثل الآبنوس والببغاء والفلفل كما دخل بعض ألفاظ يونانية وخاصة ما اتصل بأسماء المقاييس والموازين والأمراض والأدوية من مثل القيراط والأوقية والقولنج.

ولم تُفْسد هذه الكلمات الدخيلة العربية فقد كانت تأتي على هامشها، وكثيراً ما كانت تعرَّب بحيث تتفق واللسان العربي، وقد ألف العرب فيها مصنفات كثيرة تمييزاً لها وتعريفاً بها. ولم يكونوا يعمدون دائمًا إلى استعارة الأسماء الأجنبية لمدلولاتها التي لم يكونوا يعرفونها، بل كانوا يحاولون في أحوال كثيرة أن يضعوا لتلك المدلولات أسماء عربية خالصة إما عن طريق الاشتقاق وإما عن طريق التوسع في مدلولاتها ومعانيها القديمة. وبذلك اتسعت العربية وتحولت من لغة البدو القديمة إلى لغة حضارية مع المحافظة الشديدة على مقوِّماتها ومشخصاتها وأوضاعها وأصولها الاشتقاقية والصرفية والنحوية.

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٦٨.
(٢) أغاني (طبعة الساسي) ١٧/١٩.
(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٥/٧.

وحقًّا أخذ يفشو اللحن ولكن علماء اللغة كانوا بالمرصاد لكل من يلحن ، حتى لكأنهم كانوا يعدّون اللحن إحدى الكبائر ، وقد مضوا يسجّلون على كل عالم وكل كاتب وكل شاعر ما تعثر فيه أحيانًا من بعض اللحن . وجمع من ذلك « يوهان فك » فى كتابه « العربية » مادة واسعة ، ومَن ينعم النظر فيها يعرف أن اللحن لم يكن متفشيًا فى أوساط المثقفين بل كان محدوداً جدًّا ، إذ مبلغ مايضاف إلى أى شخص لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة إلا فى النادر . وقد وقف يوهان فك طويلا عندما ساقه الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » من لُكنات بعض الأعاجم ، وهى لكنات مردُّها إلى ما كان يجده نفر منهم من صعوبة فى التكيف العضوى لمخارج الحروف العربية التى لا توجد فى لغاتهم ، إذ كان منهم من يبدل الراء غينًا والزاى والتاء والشين سينًا والعين همزة والقاف كافاً أو طاء والجيم زايًا أو ذالاً والحاء هاء والصاد سينًا والظاء زاياً واللام ياء. وهذه اللكنات إنما كانت تشيع على ألسنة العامة وقلما سقط منها شىء إلى ألسنة الفصحاء من العرب والموالى. وهذا نفسه يلاحظ فى اللحن فإنه إنما كان يشيع فى أوساط العامة ، وكان علماء اللغة يعنون بتنقية العربية وتصفيتها من الشوائب ، وفى ذلك ألف الكسائى كتابه فى لحن العامة ، وهو مطبوع .

ومما لا ريب فيه أن الفصحى كانت المثل الأعلى للناس فى هذا العصر ، وخاصة الطبقة المثقفة ، وكان أهم ما دعمها وبسط سلطانها القرآن الكريم ، وحتى الشعوبيون والزنادقة اتخذوها لسانهم وأداتهم فى التعبير ولم يحاولوا الخروج على قوانينها . وقد عاش علماء اللغة يحوطونها ويحرسونها حراسة حفظت لها كل مقوماتها الاشتقاقية والتعبيرية والنحوية ومكنتها من الثبات والجريان على الألسنة لا فى الأوساط الثقافية والأدبية فحسب ، بل أيضًا فى أوساط العامة وبين العناصر التى لم تدخل فى الإسلام مما أحالها وعاء كبيراً لكل ما لقيته من ثقافات فى البيئات التى ذكرناها ومن معارف مختلفة متباينة ، وهى معارف امتزجت فيها منذ فتوح الإسكندر عناصر شرقية بعناصر إغريقية مكونة ما يسمى باسم الثقافة الهيلينية ، ومعروف أن فتوحه شملت مصر وليبيا والشام والعراق وإيران وخراسان وأفغانستان وشطراً من بلاد الهند ، وقد عُنى بنشر الثقافة الإغريقية فى كل البلدان التى افتتحها ومضى خلفاؤه الذين

ورثوا ملكه يستنون بعمله . وبذلك امتزجت هذه الثقافة بثقافات الأمم المفتوحة ، وتكونت من هذا الامتزاج ثقافة جديدة فيها من فلسفة الإغريق المتشعبة وفيها من ديانات الشرق وروحانياته وأساطيره ومعارفه الفلكية وغير الفلكية . وكانت تقوم على هذه الثقافة الهيلينية قبل الإسلام مدارس مختلفة فى الإسكندرية وقيسارية وأنطاكية والرها ونصيبين وحرّان وجُنْديسابور ، فاتصلت العربية بكل هذا التراث وأخذت تعمل على المزج بينه وبين معارف العرب وآدابهم ، واتخذ هذا المزج صوراً كثيرة ، منها الترجمة ونقل علوم الأوائل وسنعرض لذلك فى موضع آخر . ومنها تأثر العرب بالمعارف العملية التطبيقية عند الأجانب مما اضطروا إلى الوقوف عليه فى إنشاء المدن وضبط الدواوين وعمل الأساطيل وإعداد الجيوش والنهوض بالزراعة والتجارة . ومنها جدالهم لأصحاب الملل والنحل ، فقد كانوا ناشرين للدين الإسلامى ، فاضطرمت المجادلات والمناظرات بينهم وبين البوذيين والمجوس والصابئة والنصارى واليهود وغيرهم ، وتعرفوا على عقائدهم ونحلهم . وأعمق من ذلك تحول أصحاب النحل والديانات المختلفة إلى الإسلام ، فقد تحولوا إليه بتراثهم العقيدى ، بل بكل تراث آبائهم الثقافى .

ولا نبالغ إذا قلنا إن كل ألوان الثقافات العامة التى كانت مبثوثة فى البلدان المفتوحة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس تحولت إلى العربية دون حاجة إلى ترجمة منظمة لسبب طبيعى وهو أن شعوب هذه الثقافات تحولوا عرباً ، فكان طبيعيًّا أن تتحول معهم ثقافاتهم وأن لا تنتظر حتى ينظّم لها النقل والترجمة . وأهم هذه الثقافات حينئذ الثقافة الهندية والفارسية واليونانية . وكانت الثقافة الهندية تصل العرب حينئذ عن طريقين : طريق الفرس وما سقط إليهم منها من قديم وطريق من دخلوا منهم حديثًا فى الإسلام واندمجوا فى عرب العراق ، ومعروف أن جمهور الهنود وثنيون يدينون بالبوذية ، ومنهم براهمة[1] ينكرون النبوات ودهريون لا يؤمنون بشىء سوى الدهر وسُمَنية لا يؤمنون بشىء سوى الحس وقد ناظرهم قديمًا جهم[2] ابن صفوان ، وظل المعتزلة — على نحو ما يصورهم الجاحظ فى كتابه الحيوان —

---

(١) انظر فى نحل الهند الشهرستانى ص ٤٤٤ وما بعدها .

(٢) المنية والأمل لابن المرتضى ص ٢١ .

يردون عليهم ردًّا عنيفاً[١] ، ونعجب أن نرى عربياً أزدياً يعتنق عقيدة السُّمَنِيَّة[٢] .
وكانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح إيماناً شديداً حتى ليقول البيرونى : « كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين والتثليث علامة النصرانية والإسبات علامة اليهودية كذلك التناسخ علم النحلة الهندية ، فمن لم ينتحلها لم يك منها ولم يعد من جملتها »[٣] إذ استقر بينهم أن الأرواح تنتقل من جسد إلى جسد تطلب بذلك الكمال ، وما تزال تطلبه حتى تستوفى شرف ذاتها وتستغنى عن الاتصال بالأبدان ، وحينئذ يتحد العقل والعاقل والمعقول ويصبحون جميعاً شيئاً واحداً . وقد سقطت هذه العقيدة — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — إلى مانى والمانوية كما سقطت إلى بعض الشيعة القائلين بتناسخ النور الإلهى فى الأئمة ، وأيضاً فإنها سقطت فى هذا العصر إلى الخرمية ، وكان يؤمن بها أحمد بن حائط المتكلم صاحب فرقة الحائطية ويدافع عنها دفاعاً شديداً[٤] . وكان يشيع على ألسنة عامتهم بعض قصصهم كقصة السندباد . وقد تأثرت المانوية — على نحو ما أشرنا فى الفصل السابق — بزهد البوذيين وطرقهم فى النسك وتحريمهم لذبح الحيوان .

وكانت الثقافة الفارسية الشعبية أبعد تأثيراً فى المحيط العربى لهذا العصر ، فقد دخل جمهور الفرس فى الإسلام واقتبس العرب كثيراً من صورة حياتهم فى المطعم والملبس وبناء القصور ونظام الخدم والحشم ، وكانوا يحتفلون معهم بأعيادهم كما أسلفنا ، ويحكون عنهم أقاصيصهم عن رستم وإسفنديار وأخبارهم عن ملوكهم وحكمائهم . وكانت المجوسية لاتزال حية بمعابد نيرانها ونحلها المختلفة من زرادشتية ومانوية ومزدكية وما كانت تجتمع عليه هذه النحل من ثَنَوْية أو إيمان بأن للعالم إلهين : إلهاً للنور وإلهاً للظلمة . ونعجب إذ نجد بعض العرب يصبح ثنوياً مانوياً على نحو ما كان صالح بن عبد القدوس . وكان تأثير المزدكية فى المجتمع أشد عمقاً ، بما كانت تدعو إليه من التحلل الخلقى والعكوف على اللهو والمجون والاندفاع فى إباحية مسرفة .

ولم يختلط العرب باليونان والبيزنطيين إلا اختلاطاً محدوداً عن طريق الرقيق البيزنطى الذى كان يقع فى الأسر أو يباع فى أسواق النخاسة ، وكان تأثيره فى

---

(١) انظر مثلا الحيوان ٤ / ٧٠ وما بعدها .
(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٣/١٤٧ .
(٣) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٢٤ .
(٤) الشهرستانى ص ٤٢ .

المجال العربى محدوداً ، وحقا أن الثقافة اليونانية أهم ثقافة أثرت فى الفكر العباسى ، ولكن عن طريق النقل والترجمة لا عن طريق اختلاط أصحابها بالعرب ، وأيضًا عن طريق ما ألقته من ظلال على الثقافة الهيلينية الشعبية العامة التى كانت سائدة فى المنطقة والتى حملت فى أطوائها معارف الكلدانيين والصابئة عن النجوم والكواكب ومعارف الشآميين والمصريين عن شئون الزراعة وما كان يتداول هنا وهناك من أقاصيص عن السحر والعرافة وما يجرى فى كل ذلك من إيمان بالغيبيات ومن نزعات روحية عميقة .

وكان يشارك فى الحياة اليومية أصحاب الديانتين النصرانية واليهودية ، ويصور لنا الجاحظ فى رسالته «الرد[1] على النصارى» موقف العرب منهم حينئذ ومن اليهود فيقول إنهم كانوا أقرب من اليهود إلى العرب مودة وأسلم صدوراً ، فإن اليهود طووا قلوبهم على عداوة الإسلام ورسوله الكريم منذ مقامه بين ظهرانيهم فى يثرب ، على حين آوى نصارى الحبشة من هاجروا إليهم من أصحاب الرسول فراراً من اضطهاد قريش ومدّوا إليهم يد البرّ والعون . ويقول إن نصارى بغداد كانوا ينهضون بالصناعات المربحة مندمجين فى حياة الخلفاء والرعية ، بينما كان اليهود يحترفون الصناعات الرذيلة الحقيرة ، فمن النصارى كتاب السلاطين وأطباء الأشراف والعطارون والصيارفة ، أما اليهود فمنهم الصباغون والدباغون والقصّابون والشعّابون ، وقد رسخ فى ذهن العرب أنهم أقذر الأمم . ونرى نفراً منهم يسلمون منذ عهد الإسلام الأول ويذيعون كثيراً من الإسرائيليات التى دخلت فى تفسير القرآن الكريم على نحو ما هو معروف عن كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وقد استغلها القصاص فى وعظهم للعامة استغلالا واسعًا ، وكان منهم من أسلم بلسانه ولم يسلم بقلبه ، فمضى يسر عداوته للإسلام ويحاول أن يهدمه هدمًا بما يدخل عليه من عقائد منحرفة وبما يثير من الفتن بين أصحابه مثل عبد الله بن سبأ ، وقد لعب دوراً واسعًا فى فتنة عثمان والتأليب عليه وإحداث أول فرقة فى الإسلام ، حتى إذا حدثت أخذ يلقى فى روع بعض الضعفاء والعوامّ أن على بن أبى طالب فوق البشر وأن روح الرسول حلّت فيه ، ولما مات قال إنه اختفى وسيعود . وبذلك وضع نواة

(١) انظر هذه الرسالة فى ثلاث رسائل للجاحظ . نشر فنكل .

التشيع الباطن ، بل وضع نواة غلاة الشيعة جميعاً ورافضتهم الذين طالما حاجّهم وجادلهم المعتزلة فى هذا العصر . وكان له خلفاء كثيرون من جنسه مضوا يفسدون على شاكلة إفساده ، بل لقد كان ممن ظلوا على يهوديتهم مَنْ يخالطون العرب فى مجالسهم [١] ويوردون عليهم بعض معتقداتهم الفاسدة من مثل التشبيه على الذات العلية [٢] ، حتى ليصبح هناك قوم معروفون باسم المشبهة من الرافضة وغيرهم . وقد عُنى المعتزلة طويلا بتسفيه أحلامهم ونقض ما زعموه من التشبيه على الله نقضاً . وكانوا يقولون إن التوراة محدثة ومخلوقة وأكبر الظن أن المعتزلة أو نفراً منهم نقلوا عنهم هذه الفكرة فقالوا إن القرآن مخلوق [٣] . وإنما يدفعنا إلى هذا الرأى أنه كان من رءوس القائلين بها ثمامة بن أشرس وبشر بن غياث المريسى المتكلم ، وكان غياث يهودياً يسكن بغداد وأسلم ابنه واشتغل بعلم الكلام والقول بخلق القرآن [٤] وما زال هو وثمامة بالمأمون حتى اعتنق هذا القول وجعله محنة وبلاء على الفقهاء والعلماء . وهو بلاء جرّ إلى صدع متفاقم بين المعتزلة وأهل السنة حتى لقد قضى قضاء مبرماً على ما كان للأولين من مجد فى العصر العباسى الأول .

وقد شكا الجاحظ — على نحو ما مر بنا فى الفصل السابق — من متكلمى النصارى وأطبائهم ومنجميهم لنقلهم إلى العربية كتب المنانية والديصانية والمرقيونة المارقة ، مما أفسدوا به عقول العوام ، ولكن من الحق أن النصارى لم يكونوا يبطنون للإسلام من العداوة ما أبطنه اليهود على نحو ما لاحظ ذلك الجاحظ نفسه ، وكان المسلمون يَبَرُّونهم ويعاملونهم معاملة كريمة ، وقد دخل منهم جمهور غفير فى الإسلام وامتزج العرب بهم وأكثروا من تسرى جواريهم مما هيأ للقاح واسع بين العناصر الإسلامية والمسيحية فى المجتمع العباسى ، ولا نقصد اللقاح الدموى فحسب ، بل نقصد أيضاً اللقاح الثقافى ، إذ نشأ جيل كبير أمهاته من المسيحيات روميات وغير روميات ، وطبيعى أن يحمل هذا الجيل عن أمهاته ثقافتهن وكثيراً

---

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢٩ .

(٢) انظر الشهرستانى ص ٦٤ — ٦٥ ، ٧٧ حيث يقول إن التشبيه فى اليهود طباع حتى قالوا فى الله : اشتكت عيناه فعادته (نزارته) الملائكة .

(٣) انظر ضحى الإسلام لأحمد أمين ١/٣٣٤ .

(٤) النجوم الزاهرة ٢/٢٢٨ وقارن ب ٢/١٨٧ .

من طباعهن وعاداتهن وربما بعض معتقداتهن ، ونرى أحد المتكلمين وهو أحمد بن حائط الذى ذكرناه منذ قليل يزعم أن المسيح تدرَّع بالجسد الجسمانى وأنه الكلمة القديمة المجسدة[١] .

وكان للأناجيل تأثير — من بعض الوجوه — فقد كانوا يقرءونها ويستظهرون كثيراً من كلام المسيح وأقواله فى وعظهم ، وفى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة والبيان والتبيين للجاحظ من ذلك مادة وافرة ، وقد أشرنا فى غير هذا الموضع إلى ما كان من تأثير الرهبان المنبثين فى العالم الإسلامى من أثر عام فى زهد الزهاد حينئذ ، إذ كانوا يرون تقشفهم وخلوصهم للعبادة والنسك . وأشرنا أيضًا فى غير هذا الموضع إلى ما كانت تقدمه الأديرة للمجان والخلعاء من خمور معتقة . ومما لا شك فيه أن المسلمين اندمجوا فى النصارى لهذا العصر اندماجًا واسعًا ، وهو اندماج جعلهم يحتفلون بأعيادهم الدينية ويتخذون منهم كتَّاب الدواوين والأطباء والمنجمين ونقلة علوم الأوائل ، كما جعلهم يملئون قلوبهم أمنًا ورضًا دون أى عسف أو ظلم .

٢

الحركة العلمية

أذكى الإسلام جذوة المعرفة فى نفوس العرب إذ دفعهم دفعًا قويًّا إلى العلم والتعلم ، فلم يمض نحو قرن حتى أخذت العلوم اللغوية والدينية توضع أصولها ، وحتى أخذ العرب يلمُّون بما لدى الأمم المفتوحة من ثقافات متباينة ، وقد مضوا فى هذا العصر يتقصونها وينقلونها بكل موادها إلى لغتهم ، ونهض التعليم حينئذ نهضة واسعة ، وعادة كان الناشئ يبدأ بالتعلم فى الكتاتيب حيث يتعلم مبادئ القراءة والكتابة وبعض سور القرآن الكريم وشيئًا من الحساب وبعض الأشعار والأمثال[٢] ، وكان بعض معلمى هذه الكتاتيب يعلمون الناشئة أيضًا السنن والفرائض والنحو والعروض[٣] . وكانوا يؤثرون فى تعليم البنات تحفيظهن القرآن الكريم وخاصة سورة

---

(١) الشهرستانى ص ٤٢ .
(٢) البيان والتبيين ٢/١٨٠ .
(٣) البيان والتبيين ٢/٢١٩ .

النور[١]، ويورد الجاحظ وابن قتيبة أسماء طائفة مشهورة من معلمى الكتاتيب[٢] من مثل أبى البيداء الرياحى اللغوى ومحمد بن السكن المحدث وأبى عبد الرحمن السلَمى المقرئ وأبى صالح الإخبارى . وخصّ الجاحظ هؤلاء المعلمين برسالة ملأها بنوادرهم[٣] ، مما كان سببًا فى أن تدور شخصية معلم الكتّاب بين الشخصيات المضحكة فى الأدب العربى ، وممن كثر التندير عليه فى هذا العصر منهم علقمة ابن أبى علقمة النحوى الذى كان يتقعّر فى كلامه مكثرًا فيه من الغريب الشاذ وكان يعنى فى مكتبه بتعليم الناشئة العربية والنحو والعروض ومات فى خلافة المنصور[٤] وقد ألف بعض الأدباء رسالة تجمع نوادره[٥]

وكان للناشئة ألواح من الخشب العادى أو من الآبنوس يكتبون فيها دروسهم وكلما فرغوا من درس محوه منها وأثبتوا مكانه درسًا آخر . وكان معلموهم يؤدبونهم بالجلد والضرب والحبس، وفى أخبار إبراهيم الموصلى أنه « أسلم إلى الكُتّاب فكان لا يتعلّم شيئًا ، وكان لا يزال يُضرَبُ ويُحبَسُ ولا ينجع ذلك فيه ، فهرب إلى الموصل وهناك تعلم الغناء »[٦] ويذكر الجاحظ أنه كان لأعشى بنى سُلَيم ابن رآه مسنًّا كان يدع الكُتّاب ويلعب بالكلاب ، فكتب أبوه إلى معلمه[٧] :

تركُ الصلاة لأكلبٍ يلهو بها ... طلبَ الهِراش مع الغُواةِ الرُّجَّسِ
فاذا خلوتَ فعَضّه بملامة ... أو عِظْه موعظة الأديب الأكْيَسِ
وإذا هممت بضَربِهِ فبدِرّةٍ ... وإذا ضربت بها ثلاثاً فاحبِسِ

وكان هؤلاء المعلمون يتقاضون من الناشئة أجورًا زهيدة ، لا تتجاوز أحيانًا بعض رُغفان من الخبز كانت تختلف أحجامها وأنواعها باختلاف أحوال آبائهم غنى وفقراً ، حتى لقد ضُربت برغفان المعلم الأمثال على شدة الاختلاف والتفاوت.

وكان بجانب معلمى أولاد العامة فى الكتاتيب معلمون لأبناء الخاصة ، كان منهم اللغوى والإخبارى والفقيه والمحدث والمقرئ ، وكانوا أحسن حالا من معلمى

---

(١) البيان والتبيين ١/١٨١ .
(٢) انظر البيان والتبيين ١/٢٥١ والمعارف لابن قتيبة (طبعة وستنفلد) ص ٢٧١ .
(٣) انظر قطعاً من هذه الرسالة بين رسائل الجاحظ المطبوعة على هامش الكامل للمبرد .
(٤) المعارف ص٢٧٢ .
(٥) الفهرست لابن النديم ص٤٣٥ .
(٦) أغانى (طبعة دار الكتب) ٥/١٥٧ .
(٧) الحيوان ٢/٨٤ وانظر عيون الأخبار ٢/١٦٧ .

أبناء العامة ، على أن الجاحظ يقول فى جمهورهم : « يكون الرجل نحوياً عروضياً وقسَّاماً فرْضياً وحسن الكتاب جيد الحساب حافظاً للقرآن راوية للشعر وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهما »[١] . وهذا إنما يصدق على من كان منهم يعلم أبناء الطبقة الوسطى ، أما من كان يعلم أبناء الخلفاء والوزراء والبيت العباسى والقواد والسَّراة فقد كانت تُفْرَض لهم رواتب كبيرة ، جعلتهم يعيشون فى خَفْض من العيش وسعة من الرزق ، نذكر من بينهم المفضل الضبي معلم المهدى وله اختار مجموعته الشعرية الملقبة بالمفضليات ، والكسائى معلم الرشيد وابنيه الأمين والمأمون ، وقطرب مؤدب الأمين وأبناء أبى دلف العجلى قائد المأمون المشهور ، وعلى بن المبارك الأحمر أحد مؤدبى الأمين ويقال إنه أعطاه يوماً ثلاثمائة ألف درهم[٢] ، ومنهم اليزيدى يحيى بن المبارك مؤدب أبناء يزيد بن المنصور الحميرى خال المهدى ومن أجل ذلك لقب باليزيدى ، ومنهم الفراء معلم أبناء المأمون ، وأبو عبيد القاسم بن سلام مؤدب أبناء هرثمة قائد الرشيد والمأمون .

وامتازت فى هذا العصر البصرة بسوق باديتها المعروف باسم المرْبَد ، وكان منهلاً لشباب البصرة يغدون عليه ويروحون للقاء الفصحاء من الأعراب والتحدث إليهم تمريناً لألسنتهم وتربية لأذواقهم ومحاولة لاكتساب السليقة العربية المصفَّاة من شوائب العجمة . وكانوا يكتبون ما يسمعونه منهم من طرائف الشعر ، على نحو ما يحدثنا الرواة عن أبى نواس وأنه كان يغدو على المربد بألواحه للقاء الأعراب[٣] . وكان من شباب الشعراء من يرحل إلى البادية ليأخذ اللغة والشعر من ينابيعهما الأصيلة على نحو ما هو معروف عن بشار[٤] .

وكانت المساجد ساحات العلم الكبرى ، فلم تكن بيوتاً للعبادة فحسب ، بل كانت أيضاً معاهد لتعليم الشباب حيث يتحلَّقون حول الأساتذة ، يكتبون ما يلقونه أو يملونه ، وكان الأستاذ يستند عادة إلى أسطوانة فى المسجد ، ثم يأخذ فى إلقاء محاضرته أو إملائها ، وفى الحلقات الكبيرة كان يردِّد مستملٍ كلامه حتى يسمعه ويكتبه البعيدون عنه فى الحلقة . وكان لكل فرع من المعرفة حلقة أو حلقاته

---

(١) البيان والتبيين ١/٤٠٣ .
(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى (نشر الخانجى) ص ١٤٧ .
(٣) الحيوان ٦/٢٣٩ .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ٣/١٥٠

الخاصة ، فحلقة لفقيه وحلقة لمحدث وحلقة لقصاص أو لمفسر وحلقة للغوى وحلقة لنحوى وحلقة لمتكلم ، وكانت حلقة الفقهاء من أكبر الحلقات إذ كان يقصدهم طلاب الفقه ومن يريدون أن يتولوا منصب القضاء أو الحسبة ، وكذلك كانت حلقة المتكلمين لما يجرى فيها من مناظرات ومحاورات بينهم أنفسهم وبينهم وبين أصحاب الملل والنحل . وكان يتحلّق كثيرون فى حلقات اللغويين والنحاة ، ويقال إنه كان يحضر حلقة ابن الأعرابى الكوفى زهاء مائة شخص[١] ، وكثيراً ما كانت تدور فى تلك الحلقات هى الأخرى مناظرات بين أصحابها على نحو ما يُرْوى عن الأخفش من أنه تعرض للكسائى فى حلقة وسأله عن مائة مسألة محاوراً له ومناقشاً مناقشات مستفيضة[٢] . وكانت هناك حلقات للشعراء ينشدون فيها أشعارهم[٣] .

وهذه الحلقات الكثيرة التى لم يكن يشترط للحضور فيها أى شرط سوى الرغبة فى السماع والتى كانت مباحة لأى وارد كى يأخذ منها ما يريد من زاد المعرفة هيأت لظاهرتين كبيرتين ، أما أولاهما فكثرة العلماء المتخصصين فى كل علم وفن ، حتى ليُرْوَى أن النضر بن شُمَيْل تلميذ الخليل بن أحمد حين عزم على الخروج من البصرة إلى خراسان شيّعه نحو ثلاثة آلاف شخص بين محدث ونحوى ولغوى وعروضى وإخبارى[٤] ، ولا بد أنه كان وراء هذا العدد الضخم كثيرون تخلفوا عن توديعه وتشييعه . وإذا كانت البصرة قد اشتملت على هذا العدد الوفير من العلماء فإنه مما لا شك فيه أن بغداد كانت تشتمل منهم على أضعاف له مضاعفة .

وتلك هى الظاهرة الأولى ، أما الظاهرة الثانية فهى نشوء طائفة من العلماء والأدباء الذين نوّعوا معارفهم تنويعاً واسعاً ، إذ لم يكتفوا بالاختلاف إلى حلقة واحدة ، بل مضوا يختلفون إلى جميع الحلقات آخذين بطرف من كل لون من ألوان المعرفة حتى أصبحوا يشبهون الصحفيين المعاصرين الذين يستطيعون أن يتحدثوا حديثاً شائقاً فى كل صور المعرفة والثقافة . وكان يطلق على هذه الطائفة فى البصرة

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة (طبعة دار الكتب المصرية) ٣/١٣٠

(٢) إنباه الرواة ٢/٣٧ ومعجم الأدباء ١١/٢٢٨.

(٣) الموشح ص ٢٨٩ .

(٤) معجم الأدباء ١٩/٢٣٨ .

اسم المسجديين ، وكان لهم حلقات خاصة بهم فى المساجد ، يسوقون فيها فنوناً من الجدال والحوار فى أى شىء يعن لهم ، وقد عرض الجاحظ فى كتاب البخلاء صورة من جدالهم تناولوا فيها الاقتصاد فى النفقة والتثمير للمال[١] . وكانت لهم سوق نافقة فى مجالس الخلفاء والوزراء وعلية القوم ، إذ كانوا يستطيعون أن يطرفوهم بالأحاديث الطلية ويروحوا عنهم فى ساعات صفوهم وغضبهم بما يوردون على سمعهم من طرائف الأخبار والمعارف . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن ظهور هذه الطائفة وما حظيت به فى المجتمع العباسى هو الذى جعل الجاحظ وغيره يحولون كتبهم الأدبية إلى دوائر معارف واسعة ، بل لقد استقر فى الأذهان أن الأدب هو الأخذ من كل علم وفن بطرف .

وإذا كان الخلفاء ووزراؤهم قد أغدقوا على هذه الطائفة كثيراً ، فإنهم لم يحرموا طائفة العلماء المتخصصين ، بل كثيراً ما كانوا يضفون عليهم عطاياهم الجزيلة ، وجاراهم فى ذلك الولاة وكبار القواد ، وكان أول من سن ذلك وجعله تقليداً للدولة المهدى. فإنه أكثر من مكافآته للعلماء كثرة جعلتهم يشدون إليه الرحال من كل بلدة[٢] ، واحتذاه فى ذلك ابنه الرشيد ، ويقال إنه وصل الأصمعى يوماً بمائة ألف درهم[٣] وكان من المحظوظين لدى البرامكة ، ويروى أن جعفراً البرمكى وصله بخمسمائة ألف[٤] . وكان المأمون سحابة منهلة على العلماء والمتكلمين ، وقد أعطى النضر بن شميل وهو لا يزال أميراً بمرو خمسين ألف درهم[٥] . ويروى أن طاهر بن الحسين قائد المأمون وواليه على خراسان وصل أبا عبيد القاسم بن سلام بألف دينار ثم عاد فوصله بثلاثين ألفا ، وأجرى عليه ابنه عبد الله عشرة آلاف درهم فى كل شهر[٦] .

وليس من شك فى أن هذا الصنيع كان من أهم الأسباب فى ازدهار الحركة العلمية بالمساجد ، إذ كان من يبزغ نجمه فى حلقاتها لا يلبث أن يستدعى إلى دار الخلافة أو دار الولاية أو دور الوزراء ، فإذا العطايا تُسْبَغُ عليه وإذا الرواتب تُفْرَضُ له شهرياً . وحقاً كان بين علماء الفقه والحديث من لا يبغون بعلمهم وتعليمهم سوى الثواب من الله ، ولعله من أجل ذلك شاع بينهم التكسب من الحرف

---

(١) كتاب البخلاء للجاحظ (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ٢٤ .
(٢) إنباه الرواة ٣٤/٢ .
(٣) طبرى ٥٤١/٦ .
(٤) إنباه الرواة ١٩٩/٢ — ٢٠١ .
(٥) إنباه الرواة ٣٤٩/٣ وما بعدها .
(٦) إنباه الرواة ١٦/٣ وما بعدها .

أو التجارة كأبى حنيفة وكان بَزَّازاً ، غير أن الكثرة وخاصة من علماء اللغة وأصحاب العلوم الدنيوية كانوا يتخذون علمهم حرفة لهم ومتجراً ، بل لقد كان متجراً رابحاً .

وكان من أهم الأسباب فى بلوغ الحركة العلمية غايتها من النهضة الواسعة استخدام الورق ، إذ أخذ يعمُّ منذ مفتتح هذا العصر وكانوا قبل ذلك يكتبون فى الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردى . ولم يلبث الفضل بن يحيى البرمكى أن أنشأ فى عهد الرشيد مصنعاً ببغداد للورق ، ففشت الكتابة فيه لخفته وغلبت على الكتابة فى الجلود والقراطيس . وكان الإملاء حينئذ أعلى مراتب التعليم ولكن لم تلبث أن ظهرت المصنفات الكثيرة واحتيج معها إلى النسخ ، فاتسعت صنعة الوِراقة ، وهى تحل فى هذا العصر محل الطباعة فى عصرنا الحديث ، وقد مضى العلماء حينئذ يفيدون منها ، فاتخذوا لأنفسهم ورّاقين ينقلون عنهم كتبهم ويذيعونها فى الناس مثل دماذ أبى غسان وراق[١] أبى عبيدة . وكان مما دفع لرواج الوراقة تنافس كثيرين على اقتناء الكتب واتخاذ المكتبات ، وقد أقامت الدولة منذ عصر الرشيد مكتبة ضخمة هى دار الحكمة وعُنيت فيها أشد العناية بالكتب المترجمة التى تحمل كنوز الثقافات الأجنبية ، ولا ريب فى أن هذه المكتبة كانت جامعة كبرى لطلاب العلم والمعرفة .

وقد أخذ كثيرون من الأفراد يعنون باقتناء المكتبات ، وكانوا يوظفون فيها بعض الوراقين للنسخ : من ذلك مكتبة إسحق بن سليمان العباسى وكانت تمتلىء بالكتب والأسفاط والرقوق والقماطير والدفاتر والمساطر والمحابر[٢] ، وأضخم منها وأعظم مكتبة يحيى بن خالد البرمكى ويقال إنه لم يكن فى مكتبته كتاب إلا وله ثلاث نسخ[٣] ، وربما فاق هذه المكتبة عظماً وضخماً مكتبة الواقدى المؤرخ المشهور المتوفى سنة ٢٠٧ وكانت تشتمل على ستمائة صندوق مملوءة بالكتب[٤] وكان له مملوكان يكتبان له ليلاً ونهاراً[٥] .

ولعل فى ذلك ما يدل دلالة واضحة على أن الكتب أصبحت مادة أساسية

---

(١) الفهرست ص ٨١ .
(٢) الحيوان ١/٦١ .
(٣) الحيوان ١/٦٠ .
(٤) معجم الأدباء ١٨/٢٨١ .
(٥) الفهرست ص ١٤٤ .

للمعرفة ، إذ كانت تسجّل أمهات العلم وأصوله بما لعله يفضل تلقيه وأخذه عن العلماء ، وفى ذلك يقول الجاحظ : « وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً ، وهو لا يُعَدّ فقيهاً ولا يُجْعَلُ قاضياً فما هو إلاأن ينظر فى كتب أبى حنيفة وأشباه أبى حنيفة ويحفظ كتاب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال وبالحَرَى أن لا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً (قاضياً) على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان »[١] .

ولم تكن الكتب تُعدّ لهذا التحصيل السريع فى الفقه وحده ، بل كانت تعد لذلك فى جميع فروع العلم والمعرفة ، فطبيعى أن يقبل عليها الناس إقبالا شديداً لما تجمع لهم فى كل فن وكل علم من مادته الغزيرة المنظمة المرتبة ، بل لقد أصبحت الأداة الطيعة التى تسوق لهم المعرفة وألوان الثقافة سوقاً وهم يكبُّون على هذه الأداة أو هذه الوسيلة السهلة منفقين عليها كل ما يستطيعون من أموال مؤمنين بأن « من لم تكن نفقته التى تخرج فى الكتب ألذّ عنده من إنفاق عشاق القيان والمستهترين بالبنيان لم يبلغ فى العلم مبلغاً رضياً ، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابى فرسه باللبن على عياله »[٢] .

وأنشأ بعض الورّاقين لهم دكاكين كبيرة ملئوها بالكتب يتجرون فيها ، وكان بعض الشباب يغدو إلى هذه الدكاكين لا ليشترى منها فحسب ، بل ليقرأ فيها ما لذّ وطاب من صنوف الآداب نظير أجر بسيط يتقاضاه منه صاحبها . وبلغ من عناية الوراقين بعملهم أن موّه بعضهم خطوطه بالذهب ، ويذكر الجاحظ أن الزنادقة كانوا يتأنقون فى كتبهم تأنقاً شديداً[٣] وكان بعض السراة يطلب هذه الأناقة المسرفة حتى فى كتب الهزل والفكاهة[٤] .

ولم تكن الكتب والمساجد كل ما هيأ لازدهار الحركة العلمية حينئذ ، فقد هيأ لها أيضاً مجالس الخلفاء والوزراء والأمراء والسّراة ، إذ تحولوا بها إلى ما يشبه ندوات علمية يتناظر فيها العلماء من كل صنف ، على نحو ما يُرْوَى من مناظرة

---

(١) الحيوان ١/٨٧ .
(٢) الحيوان ١/٥٥ .
(٣) نفس المصدر والصفحة وما بعدها .
(٤) الحيوان ١/٦١ .

الكسائى الكوفى واليزيدى البصرى بين يدى المهدى[١] وما يُرْوَى من مناظرة الكسائى وسيبويه بين يدى الرشيد أو بين يدى يحيى بن خالد البرمكى[٢] . وكانت مجالس البرامكة ندوات كبيرة للمتكلمين والمتفلسفين من كل نحلة يتجادلون فيها ويتحاورون فى كل ما يعرض لهم من مسائل ، وفى ذلك يقول المسعودى : « كان يحيى بن خالد البرمكى ذا بحث ونظر ، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل ، فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده : قد أكثرتم الكلام فى الكمون والظهور والقدم والحدوث والإثبات والنفى والحركة والسكون والمماسّة والمباينة والوجود والعدم والجوهر والطفرة والأجسام والأعراض والتعديل والتجوير والكمية والكيف والمضاف والإمامة أنصٌ هى أم اختيار وسائر ما توردونه من الكلام فى الأصول والفروع فقولوا الآن فى العشق على غير منازعة ، وليورد كل منكم ما سنح له فيه وخطر بباله »[٣] ويورد المسعودى أطرافاً من كلامهم وحوارهم فى العشق تصور كيف كانوا يفرّعون الأفكار ويستنبطونها ويشعبونها فى الموضوعات المختلفة التى كانت تمس مسائل الفلسفة وعلم الكلام ومذاهب الشيعة والسنة فى الإمامة .

وكان مجلس المأمون ساحة واسعة للجدال والمناظرة ، وكان مثقفاً ثقافة واسعة عميقة بالعلوم الدينية واللغوية وبالفلسفة وعلوم الأوائل ، فمضى يحول مجالسه فى دار الخلافة ببغداد إلى ندوات علمية تتناول كل فروع المعرفة وفى ذلك يقول يحيى بن أكثم : « أمرنى المأمون أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض فى فنون الحديث والعلم[٤] » ويمضى ابن أكثم فيقول : إنه لما انتهى ذلك المجلس طلب إلىّ المأمون أن أنوّع مجالسه بحيث تكون لكل طائفة من العلماء مجلس . ويعرض طيفور فى كتابه بغداد كثيراً من هذه المجالس وما طُرح فيها من موضوعات مختلفة للجدل والمناظرة . ويصور المسعودى ما عاد على الحركة العلمية من هذه الندوات التى غدت كأنها مجمع علمى كبير ، فيقول : « قرّب المأمون إليه كثيراً

---

(١) مجالس العلماء للزجاجى ص ٢٨٨.
(٢) إنباه الرواة ٢/٢٧١ .
(٣) مروج الذهب ٣/٢٨٦ .
(٤) بغداد لطيفور ص ٤٥ .

من الجدليين والنظّارين كأبى الهذيل العلاّف وأبى إسحق إبراهيم بن سيار النظام وغيرهما ممن وافقهما وخالفهما (يريد من المعتزلة وغيرهم) وألزم مجالسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء وأقدمهم من الأمصار وأجرى عليهم الأرزاق (الرواتب) فرغب الناس فى صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل ، ووضع كل فريق منهم كتبا ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله »[١] .

وقد كُفلت الحرية العقلية فى هذا المجلس أو هذا المجمع إلى أبعد غاية ممكنة ، بحيث كان كل رأى يُعْرَض للمناقشة العقلية الخالصة حتى آراء الزنادقة[٢] . ومما لا شك فيه أن المجتمع كان يرتبط حينئذ بالإسلام ارتباطًا وثيقًا فى جميع شئونه الروحية والاجتماعية ، ولكن كأنما أصبح سلطان العقل فوق سلطان الدين ، وكل ذلك باعثه الحقيقى رقى الحياة العقلية فى هذا العصر ، فإذا كل شىء يناقش فى حرية ، وإذا كل شىء يعرض على بساط البحث والجدل .

وكان وراء هذا المجلس الكبير ومجلس يحيى بن خالد البرمكى مجالس صغرى ما يزال يجتمع فيها العلماء ويتجادلون ويتناظرون ، من ذلك مجلس أيوب بن جعفر ابن أبى جعفر المنصور ، وقد اجتمع فيه يوماً النظام وأبو شَمِر المتكلم ، وكانت فى أبى شمر رزانة تجعله لا يحرك يديه ولا منكبيه إذا جادل أو ناظر ، فاضطره النظام بما أورد عليه من الحجج وأثقل عليه من البراهين فى مسألة ناظره فيها أن يحرك يديه وأن يحبو إليه حبواً يريد أن يسكته بيده بعد أن أعجزه أن يسكته بالأدلة العقلية[٣] ، ومن ذلك مجلس أزدى بالبصرة وفيه يقول صاحب الأغانى : « كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام : عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وبشار الأعمى وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبى العوجاء ورجل من الأزد ، فكانوا يجتمعون فى مجلس الأزدى ويختصمون عنده »[٤] ويتحدث صاحب النجوم الزاهرة عن مجلس آخر فى نفس البلدة ، فيقول : « كان يجتمع بالبصرة عشرة فى مجلس لا يُعْرَفُ مثلهم : الخليل بن أحمد صاحب العروض سُنِّىّ ، والسيد ابن محمد الحميرى الشاعر رافضى وصالح بن عبد القدوس ثَنَوى ، وسفيان بن

---

(١) مروج الذهب ٤/٢٤٥ .
(٢) الحيوان ٤/٤٤٢ .
(٣) البيان والتبيين ١/٩١ .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ٣/١٤٦ .

مجاشع صُفْرِىّ ، وبشار بن برد خليع ماجن ، وحماد عجرد زنديق ، وابن رأس الجالوت الشاعر يهودى ، وابن نظير النصرانى متكلم ، وعمرو بن أخت المؤبذ مجوسى ، وابن سنان الحَرّانى الشاعر صابئى ، فتتناشد الجماعة أشعاراً وأخباراً»[١] .

وواضح من هذين النصين كيف كان يلتقى أصحاب الملل والنحل والأهواء المختلفة فى المجالس ، وكيف كانوا يثيرون كثيراً من المسائل التى تتصل بأهوائهم ونحلهم ومللهم ويتحاورون فيها حواراً طويلا . وكانت هناك مجالس أخرى للمتفلسفة والمتكلمين ، ويقال إن مجلس يوحنا بن ماسويه « كان أعمر مجلس بمدينة بغداد لمتطبب أو متكلم أو متفلسف إذ كان يجتمع فيه كل صنف من أصناف أهل الأدب » وكان تلاميذه يقرءون عليه فى هذا المجلس كتب المنطق لأرسطاليس وكتب جالينوس فى الطب[٢] . وعلى شاكلة مجلسه مجلس حنين[٣] ابن إسحق ، ويقال إن المأمون رسم له على كل كتاب ينقله إلى العربية أن يأخذ وزنه ذهباً . وكانت لابن أبى دؤاد المعتزلى مستشار المأمون والمعتصم والواثق نَدْوة كبيرة يحضرها من كبار المترجمين والأطباء سلمويه وابن ماسويه وبختيشوع بن جبريل[٤] .

ويخيل إلى الإنسان كأنما كانت أزواد المعرفة والثقافة ملقاة فى كل مكان بأمصار العراق وهى حقًّا كانت مطروحة فى الطرقات معرضة لكل الأيدى ، فأبواب المساجد مفتوحة على مصاريعها لكل الواردين ومثلها دكاكين الوراقين ، ولا مصاريف تطلب للتعليم ، والتعليم مجانًا من حق الجميع . وكان لذلك آثار بعيدة ، فإن جمهور العلماء والشعراء لهذا العصر كانوا من أبناء العامة ، ويكفى أن نعرف أن أعلام الشعر حينئذ وهم بشار بن برد وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام كانوا جميعًا من الطبقة الدنيا فى الشعب فبشار كان أبوه طيّانا يضرب اللبن ، وأبو نواس كانت أمه غازلة للصوف ومن هذا الغزل كانت تعوله ، وأبو العتاهية كان فى صغره يحمل الخزف والجِرار على ظهره فى شوارع الكوفة يبيعها للناس ، وكان أبو مسلم حائكًا ، أما أبو تمام فكان أبوه عطاراً أو خماراً ، ومن

---

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢٩ .

(٢) عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة (طبعة دار الفكر العربى ببيروت) القسم الأول من الجزء الثانى ص ١٢٤ وابن القفطى فى أخبار الحكماء (طبعة الخانجى) ص ٢٤٩ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ١٣٩

(٤) الحيوان ٤/١٢٣ .

وراءهم من الشعراء كان جمهورهم من أبناء العامة ، وكذلك كان العلماء فى جميع فروع العلم، بل كان منهم من يجمع بين علمه وحرفته التى نشأ فيها مثل أبى أحمد التمَّار وشعيب القلاّل الذى كان يصنع فعلا القلال ، وهما من المتكلمين .

وأبعد من ذلك وأعمق أن بين أيدينا من النصوص ما يدل على أن أكثر العامة كانوا يصيبون حظوظاً مختلفة من الثقافة ، إذ لم يكن بينهم وبينها أى حجاب ولا أى حاجز ، بل لقد كانوا يروحون ويغدون عليها فى المساجد ودكاكين الوراقين ، فنهل كلٌ ما نزع إليه من ينابيع المعرفة ، ومن خير ما يصوِّر ذلك أن نرى الجاحظ يقول : « وسألت بعض العطارين من أصحابنا المعتزلة[1] » وكأن العطارين كانوا أقساماً منهم من يتبع المعتزلة ومنهم من يتبع غيرهم ولا بد أن كان مثلهم بقية التجار وأصحاب الحرف ، فهم يناصرون هذا المذهب أو ذاك ، وهم يناصرون هذا الأستاذ أو ذاك ولكل أستاذ أتباعه لا من أوساط المثقفين فحسب ، بل من العامة أيضاً ، وبذلك نفهم قول صاحب النجوم الزاهرة عن النظام ونشاطه فى الدعوة لآرائه الاعتزالية ببغداد إذ يقول : « وفى سنة ٢٢٠ ظهر إبراهيم النظام وقرر مذهب الفلاسفة وتكلم فى القدر ، فتبعه خلق[2] » . ونرى الجاحظ فى رسالته « الرد على النصارى » ينكر على العامة تعرضهم لمناقشة الملحدين فى آرائهم الفاسدة لعدم إحاطتهم الدقيقة بتلك الآراء وما ينقضها نقضاً من الأدلة ، يقول : « ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد » . ويهمنا ما تدل عليه شكواه من أن كل مسلم لعصره أصاب حظّاً من طريقة المتكلمين فى حجاج أصحاب الملل والنحل الفاسدة ، وبالمثل كانت العامة تصيب حظوظاً من الثقافة الدينية واللغوية والشعرية .

وليس من شك فى أن ذلك كان ثمرة ازدهار الحركة العلمية فى العصر ، فقد تغلغلت المعرفة والثقافة فى جميع الأوساط حتى فى أوساط العامة ، وأصبحتا غذاء لجميع العقول والقلوب ، وبرزت صفوة من العلماء والأدباء كان جمهورها من أبناء هؤلاء العامة قادت الحركتين العلمية والأدبية قيادة خصبة باهرة ، إذ استطاعت أن تسيغ كل ما نقل إلى العربية من ثقافات متباينة وأن تضيف إليها من عقولها

---

(١) الحيوان ٥/٣٠٤ . (٢) النجوم الزاهرة ٢/٢٣٤ .

وقلوبها ما دعم حضارتنا العربية دعماً ، بما أحدثوا من علوم وبما كتبوا من آثار عقلية رائعة وآيات شعرية خالدة .

٣

علوم الأوائل : نقل ومشاركة

كان من أهم الأسباب التى دفعت إلى ازدهار الحركتين العلمية والأدبية لهذا العصر الاتصال الخصب المثمر بين الثقافة العربية الخالصة وبين ثقافات الأمم المغلوبة المستعربة وما طوى فيها من معارف وعلوم . وكان هذا الاتصال يأخذ منذ عصر بنى أمية طريقين : طريق المشافهة مع المستعربين وطريق النقل والترجمة وقد ظل الطريق الثانى ضيقاً زمن الأمويين ، إذ لا يعدو ما يُذكَر من أنه تُرْجمت لخالد بن يزيد بن معاوية بعض كتب فى الصنعة والطب والنجوم[١] وأن عمر بن عبد العزيز أمر بترجمة كتيب فى الطب لأهرن[٢] بن أعين وأن كتاباً فى تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية تُرْجم لهشام[٣] بن عبد الملك . وقد مضت بيئات المستعربين العلمية تمارس نشاطها حينئذ ، وكانت تمثلها الأديرة وما بها من حلقات علمية من المدارس متناثرة فى جُنْديسابور القريبة من البصرة وفى نصيبين وحرّان والرُّها وأنطاكية والإسكندرية ، وكانت تغلب عليها جميعاً الثقافة اليونانية ، كما كان يغلب عليها علماء السريان المسيحيين ، وكانوا قد نشطوا منذ القرن الرابع الميلادى فى ترجمة الآثار اليونانية ، واستمر نشاطهم فى هذه الترجمة محتدما حتى القرن التاسع ، ومن أشهر مترجميهم قبل الإسلام يوحنا فيلوبونوس الإسكندرى المعروف باسم يحيى النحوى وكان يعيش فى القرن السادس الميلادى ونقل عن اليونانية كتباً كثيرة فى المنطق والطب والطبيعيات[٤] . ومن أبرزهم فى العصر الأموى سويرس سيبوخت

---

(١) ابن النديم ص ٣٤٠ والبيان والتبيين ١/ ٣٢٨ .

(٢) طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل (نشر المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة) ص ٦١.

(٣) انظر صفحات عن إيران لصادق نشأت ومصطفى حجازى (نشر مكتبة الأنجلو بالقاهرة) ص ٨١ .

(٤) انظر ابن أبى أصيبعة فى الجزء الثانى من القسم الأول (طبعة بيروت) ص ٦ وأخبار الحكماء للقفطى ص ٢٣٢ وعلوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب لأوليرى (نشر مكتبة النهضة المصرية) ص ٣٧ ، ١٢٣ .

أسقف دير قنسرين ويعقوب الرهاوى ، وله مصنف مهم فى النحو السريانى .

وكان لمن خلفوهم فى العصر العباسى اليد الطولى فى ترجمة المصنفات اليونانية من لغتها الأصلية التى كان كثير منهم يحذقها ومن لغتهم السريانية إلى اللغة العربية . وكان من أهم مراكزهم مدرسة جنديسابور القريبة من البصرة ، ولعلها لذلك سبقت الكوفة فى التعرف على الفلسفة اليونانية . وكان كثير من مصنفات اليونانيين قد ترجم إلى الفارسية ، فأدلى الفرس بدلوهم لا فى نقل ثقافتهم فحسب ، بل أيضًا فى نقل بعض الآثار اليونانية على نحو ما هو معروف من نقل ابن المقفع لمنطق أرسطو ، وقد نقل كليلة ودمنة الهندىّ الأصل إلى العربية ، وفى ذلك إشارة إلى ما كان فى الفارسية من ثقافة هندية أخذت تدخل إلى العربية بواسطة نَقَلَتهم[1] وسنرى عما قليل أن قومًا من مستعربى الهند شاركوا فى هذا النقل .

ونرى الخلفاء العباسيين منذ فاتحة العصر يعنون بهذا النقل عناية شديدة وينفقون عليه الأموال الطائلة وكأنهم لا يريدون به أن يقف عند حد أو عند غاية ، يتقدمهم فى ذلك المنصور وفيه يقول المسعودى : «كان أول خليفة قرَّب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى وأسلم على يديه — وهو أبو هؤلاء النوبختية — وإبراهيم الفزارى المنجم وعلى بن عيسى الإسطرلابى المنجم . وهو أول خليفة تُرجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية ومنها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السند هند ، وتُرجمت له كتب أرسططاليس من المنطقيات وغيرها ، وتُرجم له كتاب المجسطى لبطليموس وكتاب الأرثماطيقى وكتاب أوقليدس[2] » .

واهتمام المنصور بالتنجيم يقترن بنوبخت الفارسى ويظهر أنه كان منجمًا كبيراً ، إذ ينسب له وضع بعض الجداول[3] الفلكية ، وكذلك كان صاحباه ولثانيهما وهو على بن عيسى رسالة فى الاسطرلاب — وهو آلة فلكية لرصد الكواكب — وقد نشرها لويس شيخو . ولم يكتف المنصور بما كان عند الفرس من علم الفلك والتنجيم ، فقد نُقل له كتاب السندهند الهندى وكتاب المجسطى اليونانى لبطليموس وهما فى علم الهيئة والنجوم وحركات الأفلاك والكواكب . ومعنى ذلك أن العرب

---

(١) كانت مدينة بلخ أم مركز إيرانى امتزجت فيه الثقافتان الفارسية والهندية ، وكان بها معبد النوبهار البوذى المشهور . انظر أوليرى ص ١٤٩ .

(٢) المسعودى ٤/٢٤١ .

(٣) علوم اليونان لأوليرى ص ٢١١ .

استمدوا فى هذا العلم من الفرس والهند واليونان ولا بد أنهم استمدوا فيه أيضًا من الصابئة ورثة الكلدانيين فى الفلك والتنجيم .

وصوَّر نالينو أثر كتاب السندهند فى علم الفلك العربى وكيف وصل إلى العرب ونُقل إلى العربية فقال : « إن وَفْدًا من الهند وَفَد على أبى جعفر المنصور سنة ١٥٤ وفيهم رجل ماهر فى معرفة حركات الكواكب وحسابها وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته وخصوصًا على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه (بـَراهْمـَسْبُهُطْسِدْهانْت) ألفه سنة ٦٢٨ م أو ٦ ، ٧ هـ الفلكى الرياضى (برهمكبت) فكلف المنصور ذلك الهندى بإملاء مختصر الكتاب ، ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية وباستخراج كتاب منه تتخذه العرب أصلا فى حساب حركات الكواكب وما يتعلق به من الأعمال . وتولى ذلك الفزارى وعمل منه زيجا[١] اشتهر بين علماء العرب حتى إنهم لم يعملوا إلا به إلى أيام المأمون حيث ابتدأ مذهب بطليموس فى الحساب والجداول الفلكية . . واقتصر العرب على الجزء الأخير من اسم الكتاب السابق وهو (سِدْهانت) ثم حرَّفوه قليلا وسمَّوه السندهند[٢] » . ويذكر نالينو ممن أخذوا عن هذا العالم الهندى يعقوب بن طارق وكان رياضيًّا ممتازًا وله مؤلفات قيمة فى الفلك[٣] .

ويذكر المسعودى أنه ترجم للمنصور بجانب المجسطى كتب أرسطاليس من المنطقيات وغيرها وكتاب الأرثماطيقى فى الحساب وكتاب أقليدس وهو فى علم الأشكال الهندسية أمَّهاتها ومركباتها ، وجميع تلك الكتب يونانية . ولم يذكر المسعودى عناية المنصور بنقل الكتب الطبية إلى العربية ، ومعروف أنه استدعى فى سنة ١٤٨ للهجرة جورجيس بن جبريل بن بختيشوع كبير الأطباء فى بيمارستان جنديسابور ورئيس مدرسته ليكون بجانبه وقد نقل كتبًا كثيرة من اليونانية إلى العربية[٤] وأغلب الظن أنها كانت فى جمهورها كتبا طبية . وكان جورجيس من السريان النساطرة ، وتعاقبت من بعده أجيال من أبنائه وأحفاده تخدم الطب .

---

(١) الزيج : علم الجداول الفلكية .

(٢) انظر علم الفلك وتاريخه عند العرب لنالينو ص ١٤٩ .

(٣) نالينوص ١٥٦ والفهرست ص٣٨٨ وعلوم اليونان لأوليرى ص ٢٠٩ .

(٤) ابن أبى أصيبعة ص ٣٧ والقفطى ص ١٠٩ .

والترجمة . وممن لمع اسمهم لعهد المنصور فى ترجمة كتب الطب اليونانى أبو يحيى البطريق المتوفى سنة ١٨٠ إذ عُنى بنقل طائفة من كتب أبقراط وجالينوس[١] .

وتنشط الترجمة فى عصر الرشيد ووزرائه البرامكة نشاطًا واسعًا ، وكان مما أذكى جذوتها حينئذ إنشاء دار الحكمة أو خزانة الحكمة وتوظيف طائفة كبيرة من المترجمين بها وجلب الكتب إليها من بلاد الروم ، وكان يقوم على هذا العمل الضخم يوحنا بن ماسويه وكان طبيبًا نسطوريًا من مدرسة جنديسابور ، وفيه يقول ابن جلجل : « قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة الطبية ، مما وُجد بأنقرة وعمورية وبلاد الروم حين سباها المسلمون ، ووضعه أمينًا على الترجمة ، ووضع له كتابًا حُذّاقًا يكتبون بين يديه[٢] » . وقد عاش ابن ماسويه طويلا إذ توفى سنة ٢٤٣ وله مؤلفات كثيرة فى الطب وتركيب الأدوية . وأسهم فى الترجمة حينئذ جبريل بن بختيشوع كبير أطباء الرشيد إذ تُضاف إليه كتب مختلفة فى الطب وكتاب المدخل إلى صناعة المنطق .

وللبرامكة فضل عظيم فى إذكاء الترجمة حينئذ ، فقد شجعوا بكل ما استطاعوا على نقل الذخائر النفيسة إلى العربية من الرومية واليونانية والفارسية والهندية ، من ذلك طلب يحيى بن خالد البرمكى إلى بطريرك الإسكندرية أن يترجم فى الزراعة كتابًا عن الرومية ، وقد ترجمه برسمه[٣] ، وكان مما عنوا به إعادة ترجمة بعض الكتب اليونانية التى ترجمت قبل عصرهم ، بحيث تكون أكثر دقة وإتقانًا ، على نحو ما صنع يحيى بن خالد بكتاب المجسطى لبطليموس ، فقد ندب له أبا حسان وسلماً صاحب بيت الحكمة ، فأتقناه واجتهدا فى تصحيحه بعد أن أحضرا النقلة المجودين ، فاختبرا نقلهم وأخذا بأفصحه وأصحه[٤] . وقد عنوا عناية واسعة بترجمة التراث الفارسى ونرى جيلاً كبيراً ينهض فى عصرهم والعصر الذى تلاهم بهذه الترجمة نذكر من بينهم آل نوبخت وعلى رأسهم الفضل بن نوبخت الذى أكثر من ترجمة كتب الفلك[٥] ، وآل سهل وعلى رأسهم الفضل وكان يترجم للمأمون فى حداثته بعض الكتب

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ١٧٤ وذكر أوليرى أنه ترجم لبطليموس كتاباً فى التنجيم . انظر علوم اليونان ص ٤٢ .

(٢) ابن جلجل ص٦٥ والقفطى ص٢٤٩.

(٣) انظر مقالى ماكس مايرهوف عن مدرسة الإسكندرية وانتقالها إلى بغداد فى كتاب التراث اليونانى لعبد الرحمن بدوى .

(٤) الفهرست ص ٣٧٤ .

(٥) الفهرست ص ٣٨٢ .

الفارسية ويعجب بترجمته[١] . ومن أبرز المترجمين للتراث الفارسى حينئذ محمد بن جهم البرمكى وزادويه بن شاهويه وبهرام بن مردانشاه وموسى بن عيسى الكسروى وعمر بن الفرّخان وسلم صاحب خزانة الحكمة وسهل بن هرون أحد خزنتها المشهورين[٢] . ومن أنفس ما نقلوه أمثال بُزُرْجِمهْر وعهد[٣] أردشير بن بابك إلى ابنه سابور وكتاب جاويدان[٤] خِرَد فى صنوف الآداب ومكارم الأخلاق وكتاب هزار أفْسانه وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة . وقد نقل أبان بن عبد الحميد كتاب كليلة ودمنة إلى الشعر وأهداه إلى جعفر بن يحيى البرمكى ، ويقال إنه نظمه فى أربعة عشر ألف بيت[٥] ، وأيضاً فإنه نقل إلى الشعر العربى سيرة أردشير وسيرة أنو شروان[٦] . وعلى نحو ما دفع البرامكة إلى ترجمة التراث الفارسى واليونانى دفعوا أيضًا إلى الانتفاع بالتراث الهندى وترجمته ، يقول الجاحظ : « اجتلب يحيى بن خالد البرمكى أطباء الهند مثل منَكه وبازَيكر وقِلْبرقْل وسندباذ وفلان وفلان » وقد عملوا فى البيمارستان الكبير ببغداد وسرعان ما استعربوا وشاركوا هم وغيرهم من مستعربة الهند فى نقل بعض الكنوز الهندية وخاصة فى الطب والعقاقير[٧] وشمل نقلهم صحيفة طويلة فى قواعد البلاغة سجلها الجاحظ فى بيانه[٨] ، كما شمل قصة السندباد وكتباً كثيرة فى الخرافات والأسمار مما تولع به العامة[٩] .

وتبلغ هذه الموجة الحادة للترجمة أبعد غاياتها فى عهد المأمون ، إذ تحول بخزانة الحكمة إلى ما يشبه معهداً علمياً كبيراً وقد ألحق بها مرصده المشهور وجدّ فى الترجمة ، يقول ابن النديم : « لما استظهر (غلب) المأمون على ملك الروم كتب إليه يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدّخرة ببلد الروم ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج ابن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا

---

(١) الجهشيارى ص ٢٣٢ .

(٢) انظر فى هؤلاء النقلة عن الفارسية الفهرست ص ١٧٤ ، ٣٤١ وكتاب البيان والتبيين ٣/٢٩ .

(٣) راجع فى هذا الكتاب وسابقه ثلاث رسائل للجاحظ (نشر فنكل) ص ٤٢ وابن أبى أصيبعة ص ١٠٩ .

(٤) انظر جمع الجواهر للحصرى ص ٧٤ وما بعدها .

(٥) الجهشيارى ص ٢١١ .

(٦) الفهرست ص ٢٣٢ .

(٧) الفهرست ص ٣٤٢ ، ٤٢١ .

(٨) البيان والتبيين ١/٩٢ .

(٩) الفهرست ص ٤٢٤ .

ما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله ، فنُقل ، وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلد الروم[١] » ويقول ابن نباته فى ترجمته لسهل بن هرون : « جعله المأمون كاتباً على خزائن الحكمة وهى كتب الفلاسفة التى نُقلت للمأمون من جزيرة قبرص ، وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم فى بيت لا يظهر عليه أحد ، فأرسلها إليه ، واغتبط بها المأمون ، وجعل سهل بن هرون خازناً لها[٢] » .

ونحن نقف قليلا عند هؤلاء المترجمين بتلك المؤسسة الكبيرة ، وأولهم الحجاج ابن مطر وقد اشتهر بتحريره لكتاب الأصول فى الهندسة لأوقليدس[٣] وكتاب المجسطى لبطليموس[٤] . وأما يحيى بن البطريق فكان يجيد اللاتينية واليونانية جميعاً وقد ترجم لأفلاطون قصة طيماوس وترجم لأرسطاليس مختصراً فى النفس وكتبه فى الآثار العلوية وفى الحيوان وفى العالم[٥] وكتاب أرسطو إلى الإسكندر المعروف باسم سر الأسرار ، وهو مما نُحل على أرسطو ويشتمل على مزيج من القصص وبعض القواعد فى السياسة وفى الصحة والتغذية ، وترجم أيضاً كتاب الترياق لجالينوس[٦] . وقد مضى التعريف بيوحنا بن ماسويه ، أما سلم وسهل بن هرون فلم يكونا ممن ينقلون عن اليونانية ، إنما كانا ممن يراجعان النقل عنها وينقحان فيه ، وهما من أنبه المترجمين عن الفارسية كما أسلفنا . وممن أخذ اسمه يلمع منذ عهد المأمون فى الترجمة حنين بن إسحق ، وكان دقيقاً فى ترجمته حتى قالوا إن المأمون رسم له أن يأخذ وزن ما يترجمه ذهباً وقد عاش إلى سنة ٢٦٤ ومكانه لذلك كتاب العصر العباسى الثانى . ومن كبار المترجمين سوى من سميناهم عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصى المتوفى حول سنة ٢٢٠ للهجرة وقد اشتهر بترجمته لكتاب الأغاليط لأرسطاليس وشرح يحيى النحوى (يوحنا فيلوبونوس) على كتاب السماع الطبيعى له أيضاً ،

---

(١) الفهرست ص ٣٣٩ .
(٢) سرح العيون لابن نباته (طبع مطبعة الموسوعات بالقاهرة) ص ١٦٦ .
(٣) يقول ابن النديم ص ٣٧١ : نقل هذا الكتاب نقلين يعرف أحدهما بالهارونى نسبة إلى هرون الرشيد والثانى بالمأمونى نسبة إلى المأمون ، انظر ابن أبى أصيبعة ص ١٧٢ والحيوان للجاحظ ١ / ٨٠ والقفطى ص ٦٤ .
(٤) علوم اليونان لأوليرى ص ٢١٥ .
(٥) تاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور (نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٢ .
(٦) ابن جلجل ص ٦٧ وأوليرى ص ٢١٧ . والعلم عند العرب لألدوميلى (نشر الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية) ص ١٢٧ وما بعدها

وترجم كتاباً نُسب إليه خطأً وهو كتاب الربوبية أو أوثولوجيا أرسطو ، وهو تلخيص مقتبس من تاسوعات أفلاطون الإسكندرى المتوفى سنة ٢٧٠ للميلاد ومن أجل ذلك يفيض الكتاب بنزعة أفلاطونية محدثة قوية[١] .

وقد جعل المأمون الإشراف على مرصده الكبير ليحيى بن أبى منصور وألحق به طائفة من نابهى الفلكيين[٢] مثل على بن عيسى الإسطرلابى ومحمد بن موسى الخوارَزْمى والعباس بن سعيد الجوهرى . ولم يلبث هذا المرصد أن تحول إلى مدرسة رياضية فلكية كبيرة تخرج فيها غير فلكى مثل بنى موسى بن شاكر . وقد أفادت هذه المدرسة من الأبحاث الفلكية الرياضية والجغرافية التى سبقها إليها الهنود والفرس واليونان ، وأضافت إلى ذلك إضافات جديدة باهرة ، إذ وضعت لحركات الأفلاك زيجات وجداول أكثر دقة مما كان لدى الأقدمين وأدخلت تحسينات على خريطة بطليموس ، واستطاعت أن تقيس درجتين من درجات محيط الأرض على أساس كرويتها ، إلى مباحث فلكية وجغرافية ورياضية كثيرة[٣] .

ومحمد بن موسى الخوارزمى هو أكبر العلماء الرياضيين والفلكيين الذين قاموا على أبحاث هذا المرصد ، وهو يُعَدُّ بحق منشئ عصر جديد فى التاريخ العالمى للرياضيات إذ اكتشف علم الجبر وقواعده وأعطاه اسمه الذى شاع من بعده فى العالم كله ، وقد أضاف إليه أبحاثاً مبتكرة فى أرقام الحساب الهندية وفى حساب المثلثات وفى الجغرافية وفى الأزياج أو الجداول الفلكية ، يقول ألدوميلى : « وله فى هذا المجال أعظم تأثير ، أولا فى الشعوب الإسلامية ثم بعد ذلك فى الشعوب الغربية المسيحية ، وحسابه المفقود نصه العربى مع وجود ترجمة لاتينية له من القرن الثانى عشر الميلادى كان له أعظم الفضل فى تعريف العرب واللاتين من بعدهم بنظام العدد الهندى ، وكتابه المشهور المختصر فى حساب الجبر والمقابلة لم يؤدِّ فقط إلى وضع لفظ علم الجبر وإعطائه مدلوله الحالى . بل إنه افتتح عصراً جديداً فى الرياضيات . . وألف أيضًا كتباً فى الهندسة ، ووضع جداول خاصة بحساب

---

(١) انظر دى بور ص ٢٢ وعلوم اليونان لأوليرى ص ٢١٧ .

(٢) راجع فى الفلكيين لعهد المأمون الفهرست ص ٣٨٣ .

(٣) انظر فى بحوث هؤلاء الفلكيين ألدوميلى ص ١٤٨ وأوليرى ص ٢٢٣ .

المثلثات والسطوح الفلكية[١] » .

وقد نشر على مصطفى مشرفه ومحمد مرسى أحمد كتابه « الجبر والمقابله » وهو يذكر فى مقدمته تشجيع المأمون له منوّها به . ويظهر أنه نجح فى صنع الجداول الفلكية نجاحًا رائعًا ، ويقول نالينو إنه « اصطنع زيجا سماه السندهند الصغير جمع فيه بين مذاهب الهند والفرس ، وجعل أساسه على السندهند ، وخالفه فى التعاديل والميل ، فجعل تعاديله على مذاهب الفرس وجعل ميل الشمس فيه على مذهب بطليموس[٢] » .

والخوارزمى — بدون ريب — يفتتح افتتاحاً رائعًا سلسلة الرياضيين والفلكيين والجغرافيين من علماء العرب العظام . وقد نبغ فى هذا العصر كثيرون فى الطب وعلم العقاقير على نحو ما تشهد بذلك كتب طبقات الأطباء وما تزخر به من سيول الرسائل والكتب فى الأمراض وطرق علاجها والعقاقير وتركيبها . وقد استطاع يوحنا ابن ماسويه — بما كان يعكف عليه من تشريح القردة[٣] — أن يضيف بعض النتائج الجديدة إلى ما خلّفه جالينوس فى علم التشريح ، وله فى طب العيون رسالة مهمة سماها « دغل العين » وقد دوّت شهرتها فى عصره وبعد عصره وترجمت إلى اللاتينية[٤] .

وقد مضى العرب يُعْنَوْن — منذ خالد بن يزيد بن معاوية — بعلم الصنعة (الكيمياء) وظلوا يزدادون فيه علماً حتى ظهر لهذا العصر جابر بن حيان ، وهو ابن صيدلى كوفى ، فأرْسَى هذا العلم على دعائم التجربة وخلّف فيه كثيراً من النظريات فى الإكسير وخواصّه ، وصوّر ذلك فى أكثر من مائة رسالة ، تُرجمت منها طائفة كبيرة إلى اللاتينية وأفاد منها الأوربيون فوائد جُلّى مما كان له أكبر الأثر فى نهضة الأبحاث الكيميائية بديارهم . وقد تشكك فى شخصية جابر ومصنفاته بعض الباحثين المحدثين[٥] ، وهو شك بدأه بعض القدماء حتى لنرى ابن النديم يرد عليهم ردًّا طويلا[٦] ، وهو — دون نزاع — المؤسس الأول لعلم الكيمياء عند

(١) ألدوميلى ص ١٥٤ وقارن بصفحة ١٤٨ .
(٢) نالينو ص ١٧٥ .
(٣) ابن أبى أصيبعة ص ١٢٨ — ١٢٩ .
(٤) علوم اليونان لأوليرى ص ٢٢٤ .
(٥) انظر كتاب جابر بن حيان لزكى نجيب محمود فى سلسلة أعلام العرب ص ١٩ وألدوميلى ص ٩٩ ومادة جابر فى دائرة المعارف الإسلامية .
(٦) الفهرست ص ٤٩٩ .

العرب ، كما أن الخوارزمى المؤسس الأول للعلوم الرياضية والفلكية والجغرافية ، وكما أن يوحنا بن ماسويه المؤسس الأول للأبحاث الطبية العربية .

وكان مما عنوا بنقله إلى العربية كتب الموسيقى لأوقليدس وغيره[١] ، وكان لها تأثير بعيد فى نهضة الغناء والتلحين وقد استطاع الخليل بن أحمد أن ينفذ مما ترجم منها إلى وضع علم العروض العربى ، وأيضًا فإنه ألف كتابًا بديعًا فى علم الإيقاع اتخذه إسحق الموصلى قدوته فى كتبه الموسيقية[٢] .

وكل هذه السيول من الترجمة كانت تجرى معها سيول أخرى من تراث اليونان والفرس والهند ، حتى ليكاد الإنسان يظن أنه لم يبق شىء من هذا التراث لم ينقل إلى العربية ، سواء منه ما اتصل بالعلوم أو ما اتصل بالصناعات أو ما اتصل بالعجائب والأسمار والخرافات ، أو ما اتصل بالملل والنحل . وكانت كل هذه السيول تتجمع فى دكاكين الوراقين ، ويطلب كلٌّ منها ما يجد فيه متاعه .

وكانت الفلسفة اليونانية والمعارف العلمية أعظم ما حملت هذه السيول ، وقد مضى العقل العربى يسيغهما ويتمثلهما ويضيف إليهما إضافات باهرة ، والمتكلمون — وعلى رأسهم المعتزلة — هم أهم من تعمقوا الفلسفة بجميع شعبها ودقائقها ، وقد عرضوها على بساط البحث ، واستطاعوا أن ينفذوا إلى كثير من النظريات والأفكار والآراء التى لم يسبقهم إليها سابق .

وعلى هذا النحو أصبح العقل العربى فى العصر العباسى الأول عقلا متفلسفًا كما أصبح عقلا علميًّا ، لا من حيث فهمه وفقهه بعلوم الأوائل بل أيضًا من حيث إسهامه فيها وإضافاته الجديدة حتى ليضيف علومًا لأول مرة فى تاريخ الحضارة الإنسانية على نحو ما أضاف الخوارزمى علم الجبر . وكان هذا العقل قد أظهر نضجه العلمى وإحكامه لوضع العلوم منذ القرن الثانى ، مما نراه متجلياً فى العلوم اللغوية والدينية ومباحث التاريخ وعلم الكلام .

---

(١) الفهرست ص ٣٧٢ والأغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٢٧١ .

(٢) إنباه الرواة ١/٣٤٣ ومعجم الأدباء ١١/٧٣ والمزهر (طبعة الحلبى) ١/٨١ .

٤

العلوم اللغوية والتاريخ

عُنِى – منذ أواخر عصر بنى أمية – جمهور كبير من العلماء فى البصرة والكوفة بجمع ألفاظ اللغة وأشعار العرب فى الجاهلية والإسلام، وكان من أهم الأسباب فى هذه العناية حاجة الشعوب الأجنبية التى دخلت فى الإسلام إلى تعلم لغة القرآن الكريم، ثم ما كان من شيوع اللحن على ألسنة الموالى المستعربين، وعلى ألسنة بعض العرب أنفسهم بسبب اختلاطهم بالعناصر الأجنبية وما حدث من ضعف سلائقهم بسبب تحضرهم، وكان كثيرون منهم قد نشأوا فى حجور أمهاتهم من الإماء فضعفت عندهم الملكة اللغوية وأخذ اللحن يفشو فى كلامهم. وكانت هناك لهجات كثيرة تتفاوت قرباً وبعداً من الفصحى وتدور على ألسنة العرب الذين نزلوا واستوطنوا البلدتين الكبيرتين.

ولكل هذه الأسباب انبرى علماء البصرة والكوفة يجمعون ألفاظ اللغة وأشعارها حتى لا تفنى العربية فى لغات الشعوب المستعربة، وحتى تسلم لها مقوماتها الأصلية، وحتى تُنْفَى عنها وتُطْرَحُ شوائب اللهجات القبلية. وقد اشترطوا على أنفسهم أن لا يأخذوا اللغة من عربى حضرى وأن يرحلوا فى طلبها إلى باطن الجزيرة حيث ينابيعها الصافية، وكانوا يقصدون بذلك إلى غايتين، أولاهما أن يقوّموا ألسنتهم ويكتسبوا السليقة اللغوية السليمة؛ وثانيتهما أن يلتقطوا من الأفواه مباشرة مادتهم اللغوية الصحيحة التى يعرضونها على الناشئة وفى حلقات المساجد، ويصوِّر أبو نصر الفارابى صنيعهم فى هذا الجانب فيقول: «والذين عنهم نُقلت العربية وبهم اقتُدى وعنهم أُخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثرُ ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتُّكِلَ فى الغريب وفى الإعراب والتصريف؛ ثم هُذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم، وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ولا عن سُكّان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم

يؤخذ لا من لَخْم ولا من جُذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قُضاعة وغسَّان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولا من تغلب والنمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عُمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم[1] » .

وعلى هذا النحو كان اللغويون يتوغلون فى نجد حيث المادة اللغوية الفصيحة التى يجمعونها من هنا وهناك ويملئون بها حقائبهم ، وعن أبى عمرو بن العلاء شيخ البصرة : « لا أقول قالت العرب إلا ما سمعت من عالية السافلة وسافلة العالية » يقصد الجزء الغربى من نجد وما يترامى إليه من السفوح الشرقية لجبال الحجاز . وسرعان ما أقبل من أغوار نجد إلى البصرة والكوفة ثم بغداد بعض الأعراب الفصحاء ليتكسبوا برواية الأشعار وتلقينها للناشئة وبعض العلماء اللغويين مثل ثور بن يزيد الذى أخذ عنه ابن المقفع الفصاحة[2] ، وأبى سَوَّار الغنوى أستاذ أبى عبيدة[3] ، ويسوق ابن النديم أسماء[4] طائفة كبيرة من هؤلاء الأعراب .

وقد تعاقبت فى هذا العصر ثلاثة أجيال من علماء البصرة والكوفة تجمع اللغة والشعر ، ورأس الجيل الأول فى البصرة أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ وقيل سنة ١٥٩ وهو أحد القرّاء السبعة المقدّمين الذين أُخذت عنهم قراءات القرآن الكريم ، وكان حجة ثبتاً صدوقاً ، وفيه يقول الجاحظ : « كان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس[5] » . وأشهر أفراد الجيل التالى له خلف الأحمر المتوفى سنة ١٨٠ والأصمعى المتوفى سنة ٢١٣ وفى تعيين سنة وفاته اختلاف كبير وأبو زيد الأنصارى المتوفى سنة ٢١٤ وأبو عبيدة المتوفى سنة ٢١٠ . وكان الأصمعى ثقة ثبتاً ومجموعته الشعرية الملقبة بالأصمعيات بعيدة الشهرة ،

---

(١) المزهر للسيوطى (طبعة الحلبى) ١/٢١١.
(٢) الفهرست ص ٦٧ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) الفهرست ص ٦٥ وما بعدها .
(٥) البيان والتبيين ١/٣٢١ .

ورُويت عنه دواوين كثيرة أشهرها مجموعة الدواوين الستة : دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عَبَدة . وكان أبو زيد مثله صدقاً وأمانة وصبَّ عنايته على جمع اللغات الشاذة كما يتضح فى كتابه « النوادر » فى اللغة . وأبو عبيدة ينزل عنه وعن الأصمعى درجات فى الثقة به إذ كان شعوبيًّا ذميماً ومن أشهر مصنفاته شرح نقائض جرير والفرزدق وكتاب المجاز فى القرآن . وأهم أفراد الجيل الثالث من لُغَوِيِّى البصرة محمد بن سلام الجمحى صاحب « طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين » وهو كتاب نفيس إذ يصور عمل المدرسة البصرية فى توثيق الشعر القديم ووضع شعرائه فى طبقات وفصائل حسب جودتهم الفنيـــة .

ورأس الجيل الأول من لغويى الكوفة حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٦ وقيل بل سنة ١٦٤ وكان عالمًا بالشعر والغريب غير أنه كان ماجنًا فاسقًا زنديقاً ، فشابَ روايته بالوضع والانتحال على ألسنة العرب ، مما جعل علماء البصرة وعلماء الكوفة أنفسهم من مثل المفضل الضبى معاصره يسقطونها ويزيفونها . وكان المفضل ثقة صدوقاً وحجة فى الغريب ، ومجموعته الشعرية الملقبة بالمفضليات أنفس مجموعات الشعر القديم . وأشهر أفراد الجيل الثانى فى الكوفة أبو عمرو الشيبانى المتوفى سنة ٢١٣ ويقال إنه دخل البادية ومعه دَستيجان[1] حِبْرًا فما خرج حتى أفناهما بكتابة سماعه عن العرب الفصحاء ، ويقال إنه كتب أشعار نيف وثمانين قبيلة . ولا يقلّ عنه شهرة معاصره ابن الأعرابى المتوفى سنة ٢٣١ وقد رويت عنه دواوين كثيرة ، وهو إلى أن يكون فى جيل الكوفة الثالث أقرب منه إلى أن يكون فى جيلها الثانى . ومن أهم أفراد الجيل الثالث أبو عُبَيْد القاسم بن سلام ، ويقال إن الناس لم يكتبوا فى اللغة أصح من كتبه ولا أكثر فائدة ، وله مصنفات كثيرة من أشهرها غريب الحديث والغريب المصنف .

ومن ينعم النظر فيما سجلت كتب طبقات اللغويين والنحويين لهؤلاء العلماء من مصنفات يجدها تتطور من التأليف فى موضوعات جزئية مفردة مثل كتاب الفرس وكتاب الإبل إلى تأليف المصنفات المطولة حتى لتتحول إلى معاجم لغوية على

---

(١) الدستيج : إناء .

شاكلة كتاب الغريب المصنف لأبى عبيد ، وسترى الخليل بن أحمد يضع منهج أول معجم لغوى فى العربية . وينبغى أن نعرف أن الطريقة الأولى التى تُعنى بالجزئيات المفردة ظلت غالبة على محاضرات اللغويين طوال القرون: الثانى والثالث والرابع على نحو ما يصور ذلك الكامل للمبرد ومجالس ثعلب وأمالى القالى .

وإذا تركنا جمع اللغة ورواية الشعر إلى النحو وجدنا البصرة تسبق الكوفة إلى وضع قواعده ومصطلحاته وصَبْغها بالصبغة العلمية ، وقد حاول بعض المستشرقين أن يربطوا بين النحو العربى والنحو اليونانى أو السريانى ، محاولين أن يثبتوا وجوها من الصلة بينهما وبين النحو العربى ، وكأنه نشأ على هديهما[1] . وأكبر الظن أنه وليد العقل العلمى العربى الذى استوى على سوقه فى القرن الثانى ، ودفع دفعا إلى وضع علوم عربية كبيرة ، منها اللغوى ومنها الدينى .

وجاء فى بعض المصادر القديمة أن أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلى المتوفَّى سنة ٦٩ وشُبِّه على بعض القدماء والمحدثين أنه وضع شيئًا من قواعد النحو ، والحقيقة أنه لم يضع منها شيئًا ، إنما الذى وضعه حقًّا وكان أول واضعيه نَقْط المصحف نَقْطاً يعيِّن حركات أواخر الكلم فيه أو بعبارة أدق يعين حركات الإعراب[2] ، فكان يضع نقطة فوق الحرف الأخير للكلمة إشارة إلى الفتحة ، ونقطة بين يديه إشارة إلى الضمة ، ونقطة تحته إشارة إلى الكسرة ، وإذا تبع شيئًا من هذه الحركات غنة أو تنوين نقط الحرف نقطتين . واختلط التعبير عن هذا الصنيع بكلمة العربية على بعض أصحاب كتب الطبقات فظنوا أنه وضع بعض أبواب النحو أو بعض مسائله .

وأول نحاة البصرة الحقيقيين عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى المتوفى سنة ١١٧ وعيسى بن عمر الثقفى المتوفى سنة ١٤٩ . أما ابن أبى إسحق فيقال إنه أول من نهج النحو ومدَّ القياس وشَرَح العلل ، وأما عيسى بن عمر فإنه أول من وضع الكتب فى النحو إذ ألف فيه مصنفين هما الإكمال والجامع ، ويقال إن الأخير أصل كتاب سيبويه ، زاد فيه وحشاه . ويعد الخليل بن أحمد المتوفَّى فى سنة ١٧٥ هو الواضع الحقيقى لعلم النحو فى صورته النهائية التى أدَّاها عنه تلميذه سيبويه فى

---

(١) راجع فى ذلك تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢/١٢٤ . وزولدكه فى مجلة الجمعية الشرقية الألمانيه ، المجلد ٥٩ ص ٤١٤ .

(٢) انظر المحكم فى نقط المصاحف لأبى عمرو الدانى (طبع دمشق) ص ٤ وما بعدها .

مصنفه الملقب باسم « الكتاب » وهو فى كثير من صفحاته يحكى آراءه وقد ذكره فى نحو ثلاثمائة وسبعين موضعًا ، ويقول السيرافى : « كل ما قال سيبويه : سألته أو قال من غير أن يذكر قائله فهو الخليل[١] » ويقول إنه كان الغاية فى استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه ، ويقول الزبيدى : إنه استنبط من علل النحو ما لم يستنبطه أحد وما لم يسبقه إلى مثله سابق[٢] » .

فالخليل هو المؤسس الحقيقى لصرح النحو العربى ، بل هو المقيم لقواعده والمشيد لبنيانه وأركانه ، وكانت المادتان الأساسيتان اللتان اعتمد عليهما فى رفع هذا الصرح إلى عنان السماء — كما يوضح ذلك كتاب تلميذه سيبويه — القياس والعلل ، أما القياس فيتضح فى ضبطه القواعد واطرادها بحيث تُنْفَى الشواذ ، وأما العلل فمقدمات القياس التى تثبت صحته بما تقدمه من أدلة عقلية سديدة .

ويظهر أن الخليل كان يتقن المنطق الذى ترجمه صديقه ابن المقفع وما يتصل به من القياس ، وأيضًا فإنه كان يتقن العلوم الرياضية[٣] ، وهو إتقان جعله يقف على ما يصنعه أصحاب الحساب والرياضيات فى مسائلهم الفَرْضية لترسخ ملكة هذه العلوم فى عقول الناشئة . وعلى ضوء من هذا الصنيع مدّ القياس فى التصريف والنحو ، فتولدت له ألفاظ جديدة وفروض فى الصيغ بقصد تمرين التلاميذ وتدريبهم وهى ما يسميه النحاة بالتمارين غير العملية . وقد تمثل تمثلا دقيقًا فكرة المعادلات والتوافيق والتباديل التى هيأت عند الخوارزمى لنشأة علم الجبر ، وهى تلاحظ عنده فى الميزان الصرفى وفى الخطة التى وضعها لصنع المعجم المعروف باسم « العين » إذ دفع تلميذه الليث بن نصر بن سيار أن يقلب كل الصيغ الثنائية والثلاثية والرباعية والخماسية على حروف الهجاء وبذلك حصر جميع الكلمات مما نطقت به العرب ومما لم تنطق مع نَصه فى المعجم على الطرفين . وجعله يرتبه على مخارج الحروف بالضبط كما ترتّب عند الهنود حروف السنسكريتية[٤] ، وفى ذلك ما يشير إلى إطلاعه على بعض الأبحاث الهندية فى الأصوات ، ولعل ذلك ما جعله

---

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافى (طبعة كرنكو) ص ٤٠ .

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى (الناشر الخانجى) ص ٤٣ .

(٣) الزبيدى ص ٤٣ وإنباه الرواة ١/٣٤٦ .

(٤) انظر ترجمة الخليل فى دائرة المعارف الإسلامية .

يعنى بالهمز والتشديد والروم والإشمام[١] . ويبلغ تطبيقه لفكرة التباديل والتوافيق الرياضية الغاية فى وضعه لعلم العروض ، لا من حيثُ ما اقترحه فيه من تفاعيل فقط ، بل أيضًا من حيثُ ما وضعه فيه من دوائر ، إذا قُدِّمت فيها أجزاء التفعيلات بعضها على بعض خرجت الأوزان التى استعملها العرب وأوزان أخرى أهملوها ولم يستعملوها ، وبذلك فتح الأبواب واسعة أمام العباسيين كى يجدّدوا فى الأوزان حسب إرادتهم الفنية .

وخَلَفَه على تراثه النحوى سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ غير متجاوز للأربعين من عمره فى أرجح الأقوال ، وقد أودع هذا التراث مصنفه الموسوم باسم « الكتاب » مضيفًا إليه من أنظاره مايدل دلالة بينة على فطنته ونفاذ بصيرته . والكتاب يُعَدُّ آية خارقة من آيات العقل العربى حتى سماه بعضهم قرآن النحو ، ويقول صاعد ابن أحمد الأندلسى : « لا أعرف كتاباً أُلِّف فى علم من العلوم قديمها وحديثها اشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب ، أحدها المجسطى لبطليموس فى علم هيئة الأفلاك ، والثانى كتاب أرسطاليس فى علم المنطق والثالث كتاب سيبويه البصرى النحوى ، فإن كل واحد من هذه لم يشذ عنه من أصول فنه شىء إلا مالا خطر له[٢] » . وأهم من تلقى هذا الكتاب عن سيبويه من البصريين الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة المتوفى سنة ٢١١ فكان الطلاب يقرءونه عليه ويشرحه لهم ويفسره ، وله فى النحو مصنفات كان ينشر فيها ضرباً من الغموض والتعقيد رغبة فى التكسب بها[٣] ، واشتهر بأنه أول من أملى غريب كل بيت من الشعر تحته كما اشتهر بإتقانه لعلم العروض وتأليفه فيه .

ولم يكن النشاط النحوى منذ أوائل هذا العصر خامداً فى الكوفة ، فقد كان بها طائفة من النحاة غير أنهم لم يبرعوا فى النحو براعة البصريين ، ومن أجل ذلك كانوا يكثرون من الرحلة إليهم والتلمذة عليهم ، حتى إذا تقدم العصر أخذوا يستقلون عن نظرائهم فى البصرة بمذهب نحوى خاص بهم بحيث أصبح فى النحو مذهبان متقابلان : مذهب البصرة الذى يعنى بالقياس مستمداً له من استعمال العرب الشائع ، ومذهب الكوفة الذى يُعْنَى بالسماع ويقدمه على القياس مهما كان شاذًّا نادراً .

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (طبعة مطبعة حجازى بالقاهرة) ١٧١/٢ .

(٢) معجم الأدباء ١١٧/١٦ .

(٣) الحيوان ٩١/١ .

وأقدم نحاة الكوفة أبو جعفر الرُّؤَاسى تلميذ عيسى بن عمر أستاذ البصريين ، وخلَفه معاذ بن مسلم الهرّاء المتوفى سنة ١٨٧ ويقال إنه هو الذى وضع علم الصرف غير أننا نشك فى ذلك لأن الصرف مندمج فى كتاب سيبويه المتوفى قبله . وأرسخ منه قدماً فى الدراسات النحوية الكسائى المتوفى سنة ١٨٩ وقد تلمذ للخليل وتلقى عن الأخفش كتاب سيبويه ، ونراه يشيد بالقياس قائلا :

إنما النحو قياسٌ يُتَّبَعْ وبه فى كل أمرٍ يُنْتَفَعْ

ويقول بعض البصريين : « لولا أنه دنا من الخلفاء فرفعوا من ذكره لم يكن شيئاً ، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل [١] »

وأهم نحاة الكوفة فى العصر الفرّاء المتوفى سنة ٢٠٧ وكان مثل أستاذه الكسائى يقدِّم السماع على القياس ، وأكثر من قراءة كتاب سيبويه ، ليحاول تعقبه ومخالفته فى بعض ألقاب النحو ، وقد صاغ منها كثيراً أشاعه فى كتابه « معانى القرآن » مثل الجحد بدلا من النفى والتكرير بدلا من البدل والتفسير بدلا من التمييز [٢] . وهو الذى جسَّم الخلاف بين المدرستين الكوفية والبصرية لقدرته على الحجاج والجدل ، ويقال إنه كان مثقفاً ثقافة فلسفية واسعة ، وأنه كان يستخدم فى كتبه ألفاظ الفلاسفة ، ويدل على ذلك كتابه « الحدود » فى النحو فإن اسمه يحمل صلة قوية بينه وبين مباحث الحدود فى المنطق ، ومن أهم كتبه « معانى القرآن » وهو يكتظ بآرائه النحوية .

وواضح مما قدمناه أن الكوفة لم تُسْهِم مساهمة حقيقية فى وضع أصول النحو فقد سبقتها البصرة إلى ذلك محتكمة احتكاماً شديداً إلى القياس [٣] ، وإلى نظرية العامل التى ينفرد بها نحونا العربى والتى تُعَدُّ قوامه ، وهى تدل على أن هذا النحو لم يوضع على أساس نحو أجنبى ، فمحوره الذى تدور حوله بحوثه محور عربى خالص ، إنما كل ما يمكن أن يقال إنه أفاد من العقلية العلمية الخصبة التى اكتسبها العرب فى العصر العباسى الأول من خلال تمثلهم للثقافات الأجنبية الفلسفية والعلمية .

---

(١) مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى (نشر مكتبة نهضة مصر) ص ٧٤ .

(٢) انظر معانى القرآن للفراء ١/ ٥١ ، ٥٢ ، ٢٢٥ .

(٣) انظر مقدمتنا لكتاب الإيضاح فى علل النحو للزجاجى (طبع القاهرة) .

ومما كان يعنى به النحاة واللغويون أنساب العرب وأخبارهم التى تؤديها أشعارهم ، وهى عناية اقترنت بنمو الكتابة التاريخية حينئذ ، وهو نمو ارتبط بالسيرة النبوية ، وانضمت إليها مادة من تاريخ الرسل ومن تاريخ العرب ثم تاريخ الأمم المجاورة للجزيرة العربية وخاصة الفرس .

وكانت السيرة النبوية مبثوتةفيما يروى من الأحاديث ، فأخذ كثيرون يستخلصونها منها ، وعُنوا بالقصص عن الأنبياء والرسل لتوضيح جوانب من القصص القرآنى وللوعظ والتذكير بالله واليوم الآخر ، وعُنوا أيضًا بكتابة أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها وملوكها . وما نكاد نتقدم فى العصر العباسى حتى تكثر الكتابة عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازيه وبعوثه الحربية ، ويلمع فى هذا الجانب اسم محمد بن إسحق المتوفى سنة ١٥٠ وقد وزّع السيرة النبوية على ثلاثة أقسام كبيرة ، هى المبتدأ والمبعث والمغازى . ويتضمن المبتدأ تاريخ العرب القديم وقصص الأنبياء ، ويتضمن المبعث حياة الرسول فى مكة ، وتتضمن المغازى حياته فى المدينة . ولم يصلنا هذا الكتاب[1] ، إنما وصلتنا رواية مهذبة له رواها عبد الملك بن هشام المتوفى بالفسطاط سنة ٢١٨ .

ومن المؤرخين الكبار الذين عنوا بكتابة السيرة والمغازى النبوية فى هذا العصر محمد بن عمر الواقدى قاضى المأمون المتوفى سنة ٢٠٧ وله مصنفات كثيرة فى الفتوح وتاريخ الخلفاء وأيام الناس ، ونشرت له قطعة خاصة بالمغازى ، وقد ضمّن كاتبه وتلميذه محمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ كتابه « الطبقات الكبرى » سيرة مطولة للرسول عليه السلام .

وكان من أثر الاهتمام بالمدينة فى السيرة الزكية أن أخذت تُفرَد لها المصنفات على نحو ما هو معروف عن محمد بن الحسين بن زُبالة المتوفى بعد المائتين ، وكتابه الذى خصه بها هو الأصل الذى ألهم العلماء بعده التأليف فى تاريخ المدن .

وعُنى كثير من المؤرخين بالكتابة فى أحداث الدولة العربية على نحو ما هو معروف عن أبى مخنف لوط بن يحيى الأزدى المتوفى سنة ١٥٨ وله [illegible] مختلفة [illegible] الفتوح وفى حروب صفين ، وسيف بن عمر التميمى المتوفى سنة ١٨٠ ويشتهر بمؤلفات

---

(١) توجد قطعة من هذا الكتاب فى مكتبة الرباط العامة بالمغرب .

له فى الردة والفتوح ووقعة الجمل ، ونصر بن مزاحم المتوفى سنة ٢١٢ وقد نُشرت له بالقاهرة وقعة صِفّين .

وصبّ هشام بن محمد الكلبى عنايته على تاريخ العرب القديم وما يتصل به من أنساب وأيام وأشعار ، وكان متهماً بالوضع عند معاصريه ، ونُشر له بالقاهرة كتاب الأصنام . ومن أعلام المؤرخين لهذا العصر المدائنى المتوفى سنة ٢٢٥ وكان له كتاب ضخم فى أخبار الخلفاء وآخر فى الدولة العباسية ومصنفات مختلفة فى السيرة النبوية وفى الفتوح وأيام الناس ، وهى تُعَدّ بالمئات ، وقد استقصاها ياقوت وابن النديم . وأخذت تؤلف فى هذا العصر كتب الرجال الذين حملوا الحديث النبوى من صحابة وتابعين على نحو ما يصور ذلك كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد الذى أشرنا إليه آنفاً ، ومثله كتاب معرفة الرجال ليحيى بن معين المتوفى فى سنة ٢٢٣ .

وعلى هذا النحو نشطت كتابة التاريخ فى العصر العباسى الأول ، فلم تقف عند السيرة النبوية ، بل اتسعت لتشمل تاريخ العرب فى الجاهلية وفتوحهم ودولهم فى الإسلام وتاريخ الرسل والأنبياء ، وهبطت إليهم روافد من تاريخ الأمم القديمة وخاصة الفرس ، إذ عُنى ابن المقفع وغيره بترجمة الكتب المؤلفة فى سير ملوك العجم .

٥

العلوم الدينية وعلم الكلام والاعتزال

نشأت العلوم الدينية فى ظلال الحديث النبوى ، وقد أخذ رواته يضيفون إليه ما أُثر عن الصحابة لا فى تعاليم الدين الحنيف فحسب ، بل أيضًا ما أثر عنهم وعن الرسول الكريم فى تفسير الذكر الحكيم . وبذلك حمل الحديث كل المادة المتصلة بالتشريع والفقه والتفسير . وقد أخذ يدوَّن تدويناً عامًّا منذ أوائل القرن الثانى للهجرة ، على نحو ما هو معروف عن ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ وما نكاد نتقدم فى العصر العباسى حتى يتكاثر التصنيف فيه ، وكانوا يوزعونه فى

مصنفاته غالبًا على أبواب الفقه ، وأول جيل يلقانا لمصنفيه[1] فى هذا العصر جيل عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج بمكة المتوفّى سنة ١٥٠ ومعمر بن راشد باليمن المتوفى سنة ١٥٣ وسعيد بن أبى عَروبة بالبصرة المتوفى سنة ١٥٦ ومواطنه الربيع ابن صَبيح المتوفى سنة ١٦٠ ومواطنهما حماد بن سلمة المتوفى سنة ١٦٥ وسفيان الثورى بالكوفة المتوفّى سنة ١٦١ وعبد الرحمن الأوزاعى بالشام المتوفى سنة ١٥٧ والليث بن سعد بالفسطاط المتوفى سنة ١٧٥ . ويتبع هذا الجيل جيل ثان على رأسه مالك بن أنس بالمدينة المتوفّى سنة ١٧٩ وسفيان بن عيينة بمكة المتوفى سنة ١٩٨ وعبد الرازق الصنعانى باليمن المتوفى سنة ٢١١ وعبد الله بن المبارك بخراسان المتوفى سنة ١٨١ وهشيم بن بشير بواسط المتوفى سنة ١٨٣ ويحيى بن زكريا بن أبى زائدة بالمدائن المتوفى سنة ١٨٣ ومحمد بن فضيل بن غزوان بالبصرة المتوفى سنة ١٩٨ ووكيع بن الجراح بالكوفة المتوفى سنة ١٩٦ وعبد الله بن وهب بالفسطاط المتوفّى سنة ١٩٧ .

وأهم كتاب وصلنا عن هذين الجيلين كتاب « الموطّأ » لمالك بن أنس إمام أهل المدينة ، وهو مرتب على أبواب الفقه ، وفى كل باب أحاديث الرسول — صلى الله عليه وسلم — المتعلقة به وأقوال الصحابة وفتاوى التابعين وفتاوى مالك نفسه . وقد ظل يمليه على طلّابه نحو أربعين عامًا ، وهو يزيد وينقص فيه وفى أحاديثه ، ولذلك اختلفت رواياته ، وأشهرها رواية يحيى بن يحيى الليثى الأندلسى المتوفّى سنة ٢٣٤ وقد شرحها الزرقانى وشرحه مطبوع .

وأخذت تقترن فى أواخر القرن الثانى بالطريقة السالفة فى تصنيف الحديث طريقة جديدة تقوم على تخليص الحديث من الفقه ، مما جعل أصحابها يوزعون الحديث فى مصنفاتهم على أساس رواته من الصحابة ، وهى الطريقة المعروفة باسم « المسانيد » إذ يُسْنِد المؤلف لكل صحابى ما رُوى عنه من الأحاديث ، وممن سبقوا إلى التأليف على هذه الطريقة الربيع بن حبيب الإباضى البصرى المتوفّى سنة ١٧٠ ومسنده مطبوع وأبو داود الطيالسى المتوفى بالبصرة سنة ٢٠٣ ومسنده هو الآخر مطبوع .

(١) انظر فى جيل مصنفى الحديث الثانين خطط المقريزى ٤/١٤٣ وإحياء العلوم للغزالى ١/٧٩ وقوت القلوب ص ٢١٦ والفهرست ص ٣١٤ .

وأشهر المصنفات فى هذا الاتجاه مسند ابن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ وهو مطبوع فى ستة أجزاء ضخام .

وبجانب الطريقتين السالفتين فى تصنيف الحديث أخذت تشيع طريقة ثالثة توزّع فيها الأحاديث على المعانى والموضوعات التى تتصل بها فقهية وغير فقهية ، ومن أقدم من ألفوا فيها أبو بكر عبد الله بن أبى شيبة المتوفّى سنة ٢٣٥ وفيه يقول المقريزى : « تفرد بتكثير الأبواب وجودة التصنيف وحسن التأليف[1] » واتبع طريقته فى العصر العباسى الثانى البخارى وغيره من أصحاب الصّحاح الستة .

وأخذ المحدّثون منذ هذا العصر يعرضون رواة الحديث على نقد شديد حتى يحيطوه بسياج متين من الصحة والثقة ، مما أدّى إلى نشوء علم هو علم الرجال أو علم التعديل والتجريح ، وهو علم محّص مادة الحديث ونفى عنها الزيف والتدليس ، وأهم من بدأ التصنيف فيه — كما أسلفنا فى غير هذا الموضع — محمد بن سعد ويحيى بن معين . ومن العلوم التى نشأت حول الحديث لهذا العصر علم غريبه ، وهو علم يعنى بتفسير ما فيه من ألفاظ غريبة ، وقد ألف فيه كثيرون من لغويى[2] هذا العصر وعلى رأسهم أبو عُبَيْد القاسم بن سلام .

وإذا تركنا التصنيف فى الحديث إلى التصنيف فى تفسير القرآن الكريم وجدنا مصنفات كثيرة فيه تستمد مما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة وخاصة أبىّ بن كعب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وما أذاعه تلاميذه الكثيرون عنه ، وقد سجل ابن النديم أسماء طائفة كبيرة من هذه المصنفات[3] ، وتولاّها العلماء بالجرح والتعديل ، فمنها ما اتهموه ومنها ما وثقوه ، وقد أجمعوا على صحة ما دوّنه على بن أبى طلحة المصرى عن ابن عباس ، وفى ذلك يقول ابن حنبل : « بمصر صحيفة فى التفسير (عن ابن عباس) رواها ابن أبى طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً »[4] . ومن أهم المفسرين فى هذا العصر بتلك الطريقة التى تعتمد على التفسير بالمأثور سفيان بن عُيَيْنة وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم بالمدينة ووكيع بن الجراح وأبو بكر بن أبى شيبة . وقد ضاعت كتبهم هم

(١) خطط المقريزى ٤ / ١٤٣ .
(٢) الفهرست ص ١٢٩ .
(٣) الفهرست ص ٥٠ .
(٤) الإتقان للسيوطى (طبع مطبعة حجازى) ٢ / ١٨٨ .

ومن سبقهم غير أن الطبرى احتفظ فى تفسيره الكبير بكل هذه الثروة المأثورة الغنية.

وقد أخذ الشيعة يستقلون — منذ هذا العصر — بتفاسير للقرآن خاصة بهم ، لعل أهمها تفسير [١] جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ ، إن صحت نسبته إليه . ونشط المعتزلة فى كتابة تصانيف عن المتشابه فى القرآن على نحو ما يروى عن بشر [٢] بن المعتمر وأبى الهذيل [٣] العلاف ، وما زالوا يعنون بتأويل الآيات التى قد تفيد التشبيه على الله أو تفيد الجبر وبمباحث مختلفة حول القرآن وإعجازه حتى استطاع أخيراً أبو بكر الأصم المتوفى سنة ٢٣٢ أن يصنف أول [٤] تفسير اعتزالى .

ونشأت بجانب التفسير — لهذا العصر — علوم قرآنية كثيرة ، أحصاها ابن النديم إحصاء دقيقاً ، ذاكراً أهم من صنفوا فيها ومصنفاتهم [٥] ، وهى علم نقطه وشكله وأهم من ألفوا فيه الخليل بن أحمد ومعروف أنه أول من ابتكر الشكل فى العربية ، وقد أخذه من صور حروف العلل الممدودة فالضمة واو صغيرة الصورة والكسرة ياء تحت الحرف والفتحة ألف مبطوحة فوقه [٦] . ومن تلك العلوم علم الوقف والابتداء فى آياته ، وممن ألفوا فيه الفراء ، وعلم غريبه وممن ألفوا فيه محمد بن سلام الجمحى وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وعلم لغاته وممن صنفوا فيه الأصمعى وأبو زيد الأنصارى ، وعلم معانيه وممن صنفوا فيه الفراء وأبو عبيدة ، وعلم قراءاته وممن صنفوا فيه أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وعلم ناسخه ومنسوخه وممن صنفوا فيه أحمد بن حنبل ، وعلم أحكامه وممن صنفوا فيه الشافعى ويحيى بن أكثم صفىّ المأمون وقاضيه .

وازدهرت دراسات الفقه فى هذا العصر ازدهاراً عظيماً ، فإذا الفقهاء يصوغونه صياغة علمية دقيقة على نحو ما صاغ اللغويون النحو وغيره من العلوم اللغوية . ومعروف أن الإسلام فتح أمام الفقهاء أبواب الاجتهاد على مصاريعها ، وكان منهم من يبحث عن نص من القرآن أو السنة يهتدى به فى فتواه ، وقلما اعتمد عقله أو استنباطه العقلى ، ومنهم من كان يتسع فى الاستنباط والقياس

---

(١) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٣/٣٤٣ .
(٢) الفهرست ص ٥١ .
(٣) الفهرست ص ٥٥ .
(٤) انظر مذاهب التفسير الإسلامى لجولد تسيهر (نشر الخانجى) ص ١٣٥ .
(٥) الفهرست ص ٥١ — ٥٧ .
(٦) المحكم فى نقط المصاحف ص ٧ .

السديد على ضوء الإسلام وتعاليمه. ويمثل الأولين أهل الحجاز بينما يمثل الثانين أهل العراق ولذلك سُمُّوا أهل الرأى ، وسرعان ما تحول الاتجاهان فى هذا العصر إلى مذهبين واضحين فى الفقه والتشريع : مذهب أبى حنيفة فى الكوفة والعراق ومذهب مالك فى المدينة والحجاز ، وينفذ الشافعى من خلال المذهبين إلى مذهب مستقل به ، وبأخرة من العصر ينفذ ابن حنبل إلى مذهب رابع كانت تتبعه فيه عامّة بغداد .

وأبو حنيفة النعمان بن ثابت يرجع إلى أصل فارسى ، وقد ولد سنة ٨٠ للهجرة وتوفى ببغداد سنة ١٥٠ وكان بزازاً وهو مع ذلك يتثقف بالحديث والقرآن والفقه والتفسير حتى صار أبرع أهل زمانه فى الفقه والرأى ، بل لقد نفذ إلى مذهب مستقل به ، وهو مذهب كان يعتمد على الكتاب والسنة ، كما كان يعتمد على القياس العقلى اعتماداً واسعاً متخذاً منه حلولا للأحكام الكثيرة التى تطلبتها المشاكل التى نشأت فى حياة الناس من الجهتين الدينية والدنيوية ، ويقال إنه أفتى فى ثلاث وثمانين ألف مسألة منها ثمان وثلاثون ألفاً فى العبادات والبقية فى المعاملات . وإلى دقته فى استخدام القياس يشير مساور الوراق إذ يقول[١] :

إذا ما الناسُ يوماً قايسونا ... بآبدةٍ من الفُتْيا ظريفهْ
أتيناهم بمقياسٍ طريفٍ ... مصيبٍ من قياس أبى حنيفهْ

ونهض من بعده بمذهبه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب المولود بالكوفة سنة ١١٣ والمتوفى سنة ١٨٢ وهو الذى انتشر به مذهب أبى حنيفة فى العراق وسائر الأقطار التابعة للخلافة العباسية ، إذ كان قاضى القضاة فى عهد الهادى والرشيد وكان لا يولى على أى بلد قاضياً إلا من الفقهاء المنتمين إلى مذهبه[٢] ، وله فى الخراج كتاب مشهور مطبوع ، وهو أول من ألف فى علم الحيل[٣] وهو علم يفتح بفتاويه المنثورة فيه المنافذ لكى يخرج منها من يقع فى حرج . وانتهت رياسة المذهب بعده إلى تلميذه محمد بن الحسن الشيبانى الكوفى المتوفى سنة ١٨٩ وكان

(١) أغانى (طبعة الساسى) ١٦/١٦٣ . وانظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢/٧٧ وعيون الأخبار لابن قتيبة ٢/١٤٠ .

(٢) انظر المغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١/١٦٤ .

(٣) الحيوان ٣/١١ .

قد سمع أبا حنيفة وتتلمذ له ، كما سمع مالك بن أنس والأوزاعى فقيه الشام ، وممن أخذ عنه الشافعى وأحمد بن حنبل ، وهو الذى حرَّر المذهب الحنفى بكتبه الكثيرة من مثل المبسوط والسير الكبير والجامع الكبير والجامع الصغير ، وقد نوه ابن جنى بدقة استخدامه للعلل فى كتبه[1] . وإلى هؤلاء الأئمة الثلاثة يرجع الفضل فى صياغة الفقه الحنفى ومصطلحاته صياغة علمية دقيقة .

وكان يقابل هذا المذهب العراقى مذهب مالك بن أنس فى الحجاز ، على نحو ما يمثله كتابه « الموطأ » الذى تحدثنا عنه بين كتب الحديث والذى تعْرِض فيه أبواب الفقه ومسائله على أساس رواية الحديث النبوى والآثار عن الصحابة والتابعين . ومن أهم من تلقوا هذا المذهب عن مالك تلميذه عبد الرحمن بن القاسم المتوفى بالفسطاط سنة ١٩١ وقد أدَّاه بدوره إلى سحنون عالم القيروان المتوفى سنة ٢٤٠ فألف فيه كتابه الملقب باسم « المدونة الكبرى » ونشره ببلاد المغرب . وتلقى المذهب عن مالك أيضاً يحيى بن يحيى الليثى الأندلسى ، ونشره بموطنه على نحو ما نشر أبو يوسف مذهب أبى حنيفة إذ كان مقدَّماً عند حكام الأندلس وجعلوا له تولية القضاة فكان لا يولى قاضياً إلا من أصحابه المالكية .

ونفذ من خلال هذين المذهبين إلى تكوين مذهب جديد الشافعى محمد بن إدريس المولود بغزة سنة ١٥٠ والمتوفَّى بالفسطاط سنة ٢٠٤ وقد نشأ بمكة وحمل ما بها من حديث ، وفى سنة ١٧٠ رحل إلى المدينة ولزم مالكاً إلى أن توفى ، فرحل إلى اليمن واتُّهم باشتراكه فى ثورة لبعض العلويين ، فأُرسل به إلى الرشيد وعفا عنه . وانتهز فرصة مقامه ببغداد فقرأ كتب محمد بن الحسن الشيبانى وناظره طويلا ، وخرج إلى مصر ونشر بها مذهبه الذى يجمع بين طريقة الحجازيين فى الاعتماد على الكتاب والسنة وطريقة العراقيين فى الاعتماد على القياس . وقد انتهت عنده الروح العلمية الأصيلة التى سادت فى مباحث الفقهاء إلى الغاية المنتظرة إذ استطاع أن يضع فى كتابه الملقب باسم الرسالة علم أصول الفقه لأول مرة ، وفيه حرر المناهج فى استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع والقياس . وهو بذلك يقف علماً فى تاريخ الفقه الإسلامى ، يقول الرازى : « واعلم أن نسبة الشافعى

---

(١) راجع الخصائص (طبعة دار الكتب المصرية) ١٦٣/١ .

إلى علم الأصول كنسبة أرسطاليس إلى علم المنطق وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض . فإن الناس كانوا قبله يتكلمون فى مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعارضون ، ولكن ما كان لهم قانون كلى مرجوع إليه فى معرفة دلائل الشريعة وفى كيفية معارضاتها وترجيحاتها ، فاستنبط الشافعي — رحمه الله — علم أصول الفقه ، ووضع للخلق قانوناً كلياً يُرْجَعُ إليه فى معرفة مراتب أدلة الشرع ، فثبت أن نسبة الشافعى إلى علم الشرع كنسبة أرسطاليس إلى علم العقل[١] » . وعاد الشافعى إلى العراق فى سنة ١٩٥ ثم رجع إلى مصر سنة ١٩٨ وتركها إلى مكة ولم يلبث أن عاد إليها وظل بها إلى وفاته . وحمل عنه مذهبه فى مصر تلاميذ كثيرون من أهمهم البُوَيْطى المتوفى سنة ٢٣١ وقد انتشر مذهبه فى كثير من بلدان العالم الإسلامى .

وأكبر تلامذة الشافعى فى العراق أحمد بن حنبل المتوفَّى سنة ٢٤١ وقد استقل بمذهب فقهى جديد يُعلى من شأن الحديث إلى أبعد غاية ، وبذلك عُدَّ ممثلاً لأهل السنة ، غير أن مذهبه لم يكتب له الانتشار كما كُتب للمذاهب الثلاثة السالفة ، وإن كان قد ازدهر حديثاً بين الوهابيين .

وكان للشيعة فى هذا العصر نشاط مستقل فى الفقه ، إذ ينسب للإمام العلوى جعفر الصادق كتب مختلفة فيه مثل كتاب « مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة » المطبوع فى طهران ومثل كتاب « فقه الرضا » لعلى الرضا حفيده وهو كسابقه مطبوع بطهران .

ولعل علماً لم يزدهر فى هذا العصر كعلم الكلام ، ويراد بالكلام الجدل الدينى فى الأصول العقيدية لا عند المسلمين وحدهم ، بل عند جميع الملل والنحل ، ومن أجل ذلك نرى الوصف بالمتكلم يضاف إلى بعض الرافضة مثل هشام بن الحكم وشيطان الطاق[٢] ، بل نراهم يضيفونه إلى أهل الحجاج من المسيحيين[٣] ، بل لقد أضافوه إلى أهل الجدل من المانية الثنويه القائلين بإلهى النور والظلمة الذين يحامون ويناضلون عن عقيدتهم الفاسدة[٤] . وقد مضى كل متكلم مدافع عن

---

(١) مناقب الإمام الشافعى للرازى ص١٠٠.

(٢) الفهرست ص ٢٩ — ٢٥٢ .

(٣) ثلاث رسائل للجاحظ ص ٢٠ .

(٤) الفهرست ص ٣٣٨ .

عقيدة فى هذا العصر يتسلّح فى دفاعه بالفلسفة اليونانية وما يتصل بها من منطق وغير منطق حتى ليقول الجاحظ : « ولا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً فى الصناعة حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة[1] » .

وأهم فرق المتكلمين فى هذا العصر فرقة المعتزلة الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن عقيدة الإيمان الإسلامية وما يتصل بها من توحيد الله وتنزيهه عن التشبيه وحقائق النبوة والثواب والعقاب فى الآخرة أمام المرجئة والجبرة وروافض الشيعة والنصارى واليهود والدهريين الماديين والمانويين الثَّنَوِيين . وقد ملئوا بجدالهم وحجاجهم لهم مساجد البصرة وجذبوا بحسن بيانهم وقوتهم فى الإقناع وإفحام الخصوم الشبابَ شعراء وغير شعراء . ورحل كثير منهم منذ أواخر القرن الثانى إلى بغداد ، فخلبوا الألباب هناك ببيانهم الساحر وبما أوردوا على الناس من دقائق الأفكار ، وإذا الناس لا حديث لهم غير الاعتزال والمعتزلة ومناظراتهم لأصحاب الملل والنحل فى المساجد الجامعة ، وإذا المأمون يعتنق عقيدتهم ، حتى شعبة خلق القرآن التى دلع شررها بشر المريسى كما مرَّ بنا ، وحاول أن يعلنها عقيدة رسمية للدولة .

ولعلنا لا نغلو إذا سمينا هذا العصر عصر الاعتزال ، فقد بلغ من ازدهاره أن استولى على صولجان الحكم وأن وجَّهه حسب مشيئته ، وربما كان ذلك هو الخطأ الوحيد الذى ارتكبه أصحابه ، فإنهم وضعوه ووضعوا معه محنة خلق القرآن على رقاب الناس ، فكان ذلك سبب سقوطه من حالق . ولكنه إذا كان قد أخفق حين استخدم السيف وغياهب السجون فإنه نجح نجاحاً كبيراً فى أن صبغ العقول بصبغة فلسفية وأن مرَّنها تمريناً واسعاً على دقة التعليل والمهارة فى الاستنباط لخفيات المعانى ودقائقها والبراعة فى تفريعها وتشعيبها وتوليدها ، مع القياس الناصع والبرهان الساطع . وسرت من ذلك أسراب فى جميع جوانب الفكر العباسى ، إذ أكبَّ الناس على مناظراتهم وأكبَّ معهم الشعراء ، بل قلما نجد شاعراً نابهاً فى هذا العصر إلا وتلمذ لهم على نحو ما هو معروف عن بشار وأبى نواس وأبان اللاحقى والعتابى ومنصور النمرى وأبى تمام .

واختلف الباحثون فى سبب تسميتهم معتزلة ، فقيل إن ذلك يرجع إلى اعتزال

---

(١) الحيوان ٢/١٣٤ .

أستاذهم الأول واصل بن عطاء للحسن البصري ومجالسه ، وقيل بل يرجع إلى سَرَيان نزعة زهد فيهم واعتزالهم الناس ، ورجح نالينو أنهم نُعتوا بذلك لابتعادهم عن المنازعات الناشئة بين الخوارج وخصومهم من أهل السنة والشيعة ، فقد وقفوا على الحياد لا ينصرون فريقاً على فريق[١] ، وبالمثل لم ينصروا العلويين على أبناء عمهم العباسيين ، بل ظلوا متمسكين بحيادهم ومضوا يناضلون غلاة الشيعة نضالا عنيفاً على نحو ما ناضلوا المانويين والدهريين ، ولذلك احتضنهم العباسيون . واستطاع أستاذهم واصل أن يؤثر فى زيد بن على بن الحسين تأثيراً واسعاً وأن يحمله على التخلص من الآراء الشيعية الغالية .

وتميز الاعتزال بأصول خمسة ، هى التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والقول بأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فأما التوحيد فأراد به المعتزلة تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين فهو ليس بجسم ولا عرض ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر ولا يحصره المكان ولا الزمان ، وقد أولوا الآيات التى يُفْهَمُ منها مشابهته للمخلوقات من مثل : (يد الله فوق أيديهم) فعنى اليد فى الآية عندهم القدرة ، ومضوا ينفون عن الله الصفات لأنها من عوارض الأجسام ، فقالوا إنها عين الذات حتى لا يتعدَّد القديم جلَّ جلاله ، ومن أجل ذلك نفوا عنه صفة الكلام ، ومن هنا اندفعوا إلى القول بأن القرآن مخلوق حتى لا يُظَنّ أنه قديم ، ولا قديم سوى الله .

أما العدل فقد مضوا يُؤَصِّلون عليه فكرة خلق العباد لأفعالهم وأنهم أحرار فى إرادتهم ، وهى حرية ضرورية لكى يثابوا ويعاقبوا على أعمالهم دون أن يظلمهم الله مثقال ذرة ، وقد أوَّلوا الآيات التى تدلّ على الجبر من مثل : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) ودفعهم هذا الأصل إلى القول بالصلاح والأصلح وأن الله لا يأمر بالشر ولا يعمل إلا ما فيه صلاح العباد وما هو أصلح لهم .

وأما الوعد والوعيد فهو أن الله صادق فيما وعد من ثواب وأوعد من عقاب ولا مبدل لكلماته ، وهم بهذا الأصل يردون على المرجئة الذين يرجئون الحكم على مرتكب الكبيرة ، فالله لن يغفر لمرتكب كبيرة إثمه إلا إذا تاب وأناب ، وهو لا بد مدخل

---

(١) انظر التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية لعبد الرحمن بدوى ص ١٧٣ وما بعدها .

الأتقياء الجنة حسب وعده الذى وعده ، ومدخل العصاة النار حسب إيعاده الذى أوعده .

وأما القول بأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين فهو قول نفذوا به من خلال رأى الخوارج القائلين بأن مرتكب الكبيرة كافر ويجب حربه وقتله ورأى الحسن البصرى القائل بأن مرتكب الكبيرة مؤمن فاسق ، فقد اعتزلوا الرأيين جميعاً وقالوا إنه فى منزلة وسطى بين منزلتى المؤمن والكافر . وبذلك لم ينتصروا — كما يقول نالينو — لطرف من طرفى هذه الخصومة .

وأما الأصل الخامس فيريدون به أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان على سائر المسلمين كلّ حسب استطاعته ، وكان ينبغى وهم يعتنقون هذا الأصل أن يدفعوا الدولة للضرب على أيدى المجان والفساق وأرباب الدعارة ، وأيضاً كان ينبغى أن يصرخوا فى وجوه الخلفاء ضد طغيانهم وظلمهم للعامة ، وأن يصارحوهم بنظرية الإسلام فى الخلافة وأنها ليست حقاً من حقوق أهل البيت إنما هى حق الأكفاء من أبناء الأمة .

وقد أدّاهم النظر فى الأصول السالفة إلى مباحث كبيرة فى العلاقة بين الله والإنسان وبين الله والطبيعة وما فيها من قوى فعالة ، مما جعلهم يتوسعون إلى أقصى حد فى الأبحاث الطبيعية والرياضية والفلسفية . وتجرّدوا للرد على الملاحدة وأصحاب النحل والملل ودفعهم ذلك إلى الوقوف على كل التراث العقيدى والفكرى عند المستعربين من أهل الكتب السماوية وغيرهم كالمجوس والصابئة .

وواصل بن عطاء المتوفى بالبصرة سنة ١٣١هو مؤسس فرقتهم كماقدمنا ، وهو أول من قال منهم بأن مرتكب الكبيرة فى منزلةوسطى بين منزلتى الإيمان والكفر[١] ،وكان يكثر من جدال أصحاب الملل والنحل . وخلفه على آرائه ختنه عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٥ وكان يكثر من الجدال فى عقيدة العدل وما يتصل بها من حرية[٢] الإرادة . وقد مضى تلاميذه فى البصرة يفرّعون فى مسائل الاعتزال وبعض المسائل الفلسفية تفريعات انبثقت منها شعب اعتزالية كثيرة أهمها البشرية والثمامية والهذيلية والنظامية .

---

(١) انظر أمالى المرتضى ١/١٦٥ والشهرستانى ص ٣١ .

(٢) أمالى المرتضى ١/١٦٩ وضحى الإسلام ٣/٩٧ .

والبشرية نسبة إلى بشر بن المعتمر المتوفى سنة ٢١٠ وقد تحول من البصرة إلى بغداد فنشر بها الاعتزال ، وكان يقول بتفضيل على بن أبى طالب على بقية الصحابة ومنه سرى هذا القول إلى أصحابه من معتزلة بغداد ، وله أشعار كثيرة نظمها فى التاريخ الطبيعى وفى أصناف الفرق والاحتجاج على أصحابها . وهو أول[1] من ذهب إلى تولد الأفعال بعضها من بعض كالحجر يُرْمَى فيحطِّم زجاجاً ، فتتطاير منه شظية فتصيب إنساناً ، وقد اشتق من هذه الفكرة بحثاً واسعاً فى تحديد المسئولية إزاء مثل هذا الفعل المتولد عن غيره . وكان يخالف بعض رفاقه من المعتزلة فى فكرة وجوب الأصلح على الله لعباده ، لأنه لا غاية لما يقدر عليه من الصلاح ، فما من أصلح إلا وفوقه أصلح منه ، وإنما الذى عليه حقاً أن يمكن العبد بالقدرة والاستطاعة .

والثمامية نسبة إلى ثمامة بن أشرس النُّمَيْرى البصرى المتوفَّى سنة ٢١٣ وقد تحول مثل بشر بن المعتمر إلى بغداد ، وكان يقول هو الآخر بتفضيل علىّ على الصحابة ، كما كان يقول بخلق القرآن ، وأكبر الظن أن بشراً المريسى هو الذى أقنعه بذلك . وكان المأمون يقدمه ويجعل له الرياسة على المتكلمين فى مجالسه . وكان يذهب إلى أن الأفعال المتولدة لا فاعل لها[2] وأن المعارف كلها ضرورية وأن الحسن والقبح ذاتيان فى الأفعال ، وعلى أساسهما يدور التحليل والتحريم فى الأوامر والنواهى الإلهية .

والهذيلية نسبة إلى أبى الهُذَيل العلّاف المتوفى بسامرَّاء لسنة ٢٢٧ وقيل : بل سنة ٢٣٥ وهو تلميذ عمرو بن عبيد وقد عُمر طويلا ، ويُعَدّ المؤسس الحقيقى للاعتزال . وكان يرى أن الصفات الإلهية عين الذات العلية[3] . وفرّق بين أفعال الإنسان الاختيارية وأفعاله الطبيعية أو بعبارة أخرى بين أفعال القلوب وأفعال الجوارح . وتحدث فى مسائل فلسفية كثيرة كمسألة الجوهر الفرد أو الجزء الذى لا يتجزَّأ ومسألة الكمون ككمون النار فى الحجر وغير ذلك مما يتصل بالأبحاث الفلسفية والطبيعية .

---

(١) الشهرستانى ص ٤٤ وضحى الإسلام ١٤١/٣ .

(٢) الشهرستانى ص ٤٩ وضحى الإسلام ٢٤٧/٣ .

(٣) الشهرستانى ص ٣٤ وأمالى المرتضى ١ / ١٧٨ وضحى الإسلام ٩٨/٣ ودى بور ص ٥٧ .

والنظّامية نسبة إلى النظّام المتوفى سنة ٢٣١ ويقول الشهرستانى إنه خلط كلام الفلاسفة بكلام المعتزلة وإنه كان يميل إلى تقرير مذاهب الطبيعيين من الفلاسفة دون الإلهيين ، وكان يرى أن الله لا يفعل إلا الأصلح لعباده ، وأن إرادته التى يتحدث عنها القرآن الكريم إنما يراد بها الخلق والإنشاء . وكان ينفى الجوهر الفرد أو الجزء الذى لا يتجزّأ[1] . وأعلى فى مباحثه سلطان العقل إعلاءً بعيداً .

(١) الشهرستانى ص ٣٧ وضحى الإسلام ١٠٦/٣ ودى بور ص٥٩ .

الفصل الرابع

ازدهار الشعر

١

ملكات الشعراء اللغوية

كانت البادية فى هذا العصر لا تزال تمد الحاضرة بكثير من الشعراء ذوى السليقة العربية السليمة من مثل أبى البَيْداء وابن الدُّمَيْنة وابن ميَّادة وأبى حيَّة النُّمَيْرِىّ وأبى ضَمْضَم الكلابى وابن عمه أبى زياد والعُمانى وشُبَيْل بن عَزْرة الضُّبَعِىّ وأبى العَمَيْثَل وعُمارة بن عَقِيل حفيد جرير . وقد تحول كثير من هؤلاء الشعراء إلى معلمين يعلمون الناشئة اللغة ورواية الشعر القديم[١] . وكان يقابلهم فى المدن شعراء لم ينشأوا فى البادية ، ولكن السليقة العربية تحولت إليهم وتمثلت فى دخائلهم ، حتّى أصبحوا لا يقلون عن شعراء البادية فصاحة وبيانًا .

ولعلماء اللغة الذين تحدثنا عنهم فى الفصل السابق الفضل فى تحول هذه السليقة إلى شعراء الحضر ، فقد جمعوا لهم اللغة والشعر الجاهلى والإسلامى ، ووضعوا لهم مقاييسهما وضعاً دقيقاً ، وظلوا طوال العصر يبعثون فيهم الإيمان بأن الشعر القديم هو القُدْوة المُثْلَى . وكان من هؤلاء اللغويين شعراء بارعون بادروا إلى الاحتذاء على هذه القدوة ، نذكر من بينهم حمادا الراوية والخليل بن أحمد وخلفا الأحمر والأصمعى .

ولم يعرض هؤلاء اللغويون على شعراء الحاضرة نماذج الشعر القديم السهلة فحسب ، بل لقد كان همهم الأول أن يعرضوا عليهم نماذجه العويصة المليئة بالحوشىّ والألفاظ الغريبة ، ومضوا فجعلوها مدار إملاءاتهم ومحاضراتهم حتى ليقول الجاحظ : « لم أرَ غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أرَ غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج[٢] » . ومعروف أن أهم مجموعتين للشعر القديم أُلِّفتا فى العصر هما المفضليات للمفضّل

---

(١) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة) ص ٦٥ .

(٢) البيان والتبيين ٤/٢٤ .

الضبى الكوفى والأصمعيات للأصمعى البصرى ، وهما تزخران بالغريب . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن اللغويين لم يكادوا يتركون قصيدة ولا مقطوعة جيدة لشاعر جاهلى أو إسلامى إلا سجلوها ودوّنوها ، وفسروها وشرحوها . وبذلك انقادت اللغة وسلست لمعاصريهم من الشعراء وغير الشعراء .

وكان من أهم ما حفزهم إلى ذلك القرآن الكريم والحديث النبوى ، حتى لا تستغلق دلالتهما على أفهام الناس وأفهام العلماء أنفسهم ، مما جعل الجاحظ يقول : « للعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإراداتهم . فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل . فإذا نظر فى الكلام وفى ضروب من العلم وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك الناس[١] » . وانضم إلى ذلك باعث سياسى ، فإن خلفاء بنى العباس أظهروا محافظة شديدة على لغة القرآن الكريم وبعثوا العلماء على مدارستها والتعمق فيها ورواية كل ما يتصل بها من أنساب وأيام وأخبار وأشعار . وقد جعلوا مقياس وظائفهم الكبيرة التفوق فيها ، فكانوا لا يستوزرون ولا يستكتبون إلا من حذقها وبرع فى أدائها . وأخذوا أبناءهم بتعلمها ، بل بإتقانها ، فأحضروا لهم كبار اللغويين ليحفظوهم كثيراً من نماذجها الشعرية وكى يقفوهم على صياغاتها وأساليبها ، وتأليفُ المفضل الضبى للمهدى كتاب المفضليات ، وهو لا يزال ناشئاً فى عهد أبيه ، ذائع مشهور . وبذلك سَرى فى القصر العباسى ذوق محافظ كان له أثره فى الشعراء ، إذ كانوا يَمْثُلون بين أيدى الخلفاء مادحين لهم . وكانوا يقيسون جودتهم بهذا الذوق ، فكان لا بد لهم أن يتلاءموا معه حتى يظفروا بما يبتغون من جوائز كبيرة . وكانت مجالس الخلفاء تكتظ باللغويين من مثل الكسائى والأصمعى ، فكان لا بد للشعراء أن يروقوهم حتى ينالوا استحسانهم ، ويرى ذلك الخلفاء منهم فيجزلوا لهم فى العطاء .

وبذلك أصبح اللغويون سَدَنَة الشعر فى هذا العصر وحُرّاسه ، فمن نوّهوا به طار اسمه ، ومن لوّحوا فى وجهه خَمَلَ وغدا نَسْياً مَنْسِيّاً . ويلقانا كثير من الشعراء يعرضون عليهم أشعارهم قبل إنشادها فى المحافل العظام ، فإن استحسنوها مضوا فأنشدوها ، وإن لم يستحسنوها ذهبوا يعاودون الكرّة بصُنع قصائد جديدة آملين أن تظفر باستحسانهم ، فمن ذلك ما يُرْوَى عن مَرْوَان بن أبى حَفْصة

(١) الحيوان ١/١٥٣ .

من أنه لما نظمَ قصيدته : (طَرَقَتْكَ زائرةٌ فحَيِّ خَيَالها) وهي إحدى روائعه في المهدى ذهب إلى حلقة يونس النحوى فقال له : قد قلت شعراً أعرضه عليك ، فإن كان جيداً أظهرته ، وإن كان رديئًا سترته . وأنشده القصيدة ، فأعجب بها يونس وقال له إنها بريئة من العيوب[١] . حينئذ مضى فأنشدها المهدى ، فزحف من صدر مُصَلَّاه حتى صار على البساط إعجابًا بما سمع ، ثم قال لمروان : كم هي ؟ قال مروان: مائة بيت ، فأمر له بمائة ألف درهم، فكانت أول مائة ألف درهم أعطيت لشاعر فى أيام بنى العباس[٢] . ويسوق المرزبانى فى كتابه الموشح فصلا طويلاً[٣] ، يصور فيه كيف كان الشعراء يعرضون أشعارهم على اللغويين ليجيزوها لهم ، فهم قضاة الشعر وصيارفته ، وفى ذلك يقول الخليل بن أحمد لابن مناذر : « إنما أنتم — معشرَ الشعراء — تَبَعٌ لى ، وأنا سُكَّان السفينة إن قَرَّظتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتم[٤] » .

وعلى هذا النحو سيطر اللغويون على سوق الشعر العباسى ، وقد مضوا يتمسكون بالمثل الشعرى القديم تمسكًا شديداً ، وهو تمسك جعل كثيرين منهم يُسْقطون الشعراء العباسيين إسقاطاً حتى لنرى أبا عمرو بن العلاء يختم الشعر بذى الرُّمَّة والرَّجز برُؤبَةَ قائلا فى المُحْدَثين : « إنهم كَلٌّ[٥] على غيرهم ، إن قالوا حَسَنًا فقد سُبقوا إليه ، وإن قالوا قبيحًا فمن عندهم[٦] » . وكان الأصمعى يختم الشعر بابن ميَّادة وابن هَرْمَة وأضرابهما من شعراء نجد والحجاز الذين أدركوا الدولة العباسية[٧] . وأنشده إسحق الموصلى بيتين من شعره دون أن يسمى قائلهما ، فلما أظهر إعجابه بهما قال له إسحق : إنهما من نظمه ، فبادره قائلاً : أفسدت الشعر ، إن التوليد فيهما لبَيِّن[٨] . ويروى الرواة أن ابن مناذر كان يقول لأبى عبيدة : « اتَّقِ الله واحكُمْ بين شعرى وشعر عَدِىّ بن زيد ، ولا تقل ذاك جاهلى وهذا عباسى ، وذاك قديم وهذا مُحْدَثٌ ، فتحكم بين العصرين ولكن احكمْ بين الشعرين ، ودَع العصبية[٩] » . وكان ابن الأعرابى يقول : إنما أشعار هؤلاء

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٠/٨٢ .
(٢) أغانى ١٠/٨٨ .
(٣) الموشح ص ٣٥٨ وما بعدها .
(٤) أغانى (طبعة الساسى) ١٧/١٦ .
(٥) كل : عالة .
(٦) أغانى (ساسى) ١٦/١٠٩ .
(٧) أغانى (دار الكتب) ٤/٢٧٣ .
(٨) أغانى ٥/٣١٨ .
(٩) أغانى (ساسى) ١٧/١٢ .

المحدثين — مثل أبى نواس وغيره — مثل الرَّيْحان يُشَمّ يوما وَيَذْوَى فيُرْمى به، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيباً[١] » .

ولا شك فى أن إهدار اللغويين لشعر العباسيين بسبب حداثته خطأ فى التقويم ، إذ الجودة الفنية لا تقاس بالقدم والحداثة ، والشعر الجيد جيد فى كل زمان ومكان . ولكن من الحق أنهم — بهذا الموقف — جعلوا نماذج الشعر القديم ، بالقياس إلى العباسيين ، تصبح كالأمهات الغاذية ، فكلهم نهلوا من أثدائها وتغذوا بها غذاء سرى فى قلوبهم وتمكن من نفوسهم . ويأخذنا العجب حين نقرأ لهؤلاء الشعراء ، فنراهم عرباً تامين وكأنهم فصلوا تَوّاً من الجزيرة . ومع هذه العروبة اللغوية القوية فيهم كان اللغويون لا يستشهدون بأشعارهم مخافة أن يحدث اضطراب فى النموذج الشعرى القديم ، وحتى يحتفظوا له بكل ما يمكن من صحة وسلامة ودقة . وقد مضوا يعدُّون عليهم سقطاتهم ، وهى ليست سقطات بالمعنى الصحيح ، إذ هى فى كثرتها إما ضرورات رآها الشعراء العباسيون فى الشعر القديم ، فقاسوا عليها ، وإما لغات شاذة رأوها أيضًا فى هذا الشعر وظنوا أن من حقهم مجاراتها ، وإما اشتقاقات وأبنية استحدثوها على ضوء المقاييس اللغوية التى تلقنوها . واقرأ فى كل ما نثره المرزبانى فى « الموشح » من هذه السقطات فستراه قلما يَعْدُو هذه الوجوه الثلاثة . ونضرب مثلا لذلك : ما كان يأخذه الأخفش على بشار من اشتقاقه فى بعض أشعاره كلمتى « الوَجَلَى ، والغَزَلَى » من الوجل والغزل ظنّاً منه أن هذا من حقه وإن لم يُسْمَع عن العرب ، وكذلك جمعه لفظة « نون » بمعنى البحر على « نينان» ظنّاً منه أن الكلمة تدخل فى قياس هذا الجمع[٢] . وأبو نواس هو أكثر العباسيين مآخذ[٣] ، وهى تُرَدُّ عنده إما إلى ضرورات شعرية وإما إلى بعض لهجات عربية ، وفى ذلك يقول ابن قتيبة : « وقد كان أبو نواس يُلَحَّنُ فى أشياء من شعره لا أراه فيها إلا على حُجَّة من الشعر المتقدم وعلى علّة بَيِّنَةٍ من علل النحو ، منها قوله :

فَلَيْتَ ما أنت واطٍ من الثَّرَى لِىَ رَمْسَا[٤]

(١) الموشح ص ٢٤٦ .
(٢) الموشح ص ٢٤٦ وما بعدها .
(٣) الموشح ص ٢٧٢ وما بعدها .
(٤) رمسا : قبرا .

أما تركه الهمز فى « واطئ » فحجته فيه أن أكثر العرب تترك الهمز وأن قريشاً تتركه وتبدل منه . وأما نصبه « رمسا » فعلى التمييز . ألا تراه قال : (فليت ما أنت واط من الثرى لى) فتمّ الكلام وصار جواب ليت فى « لى » ثم بيّن من أى وجه يكون ذلك ، فقال « رمسا » كما تقول فى الكلام : « ليت ثوبك هذا لى » ثم تقول « إزاراً » لأن جواب ليت صار فى قولك « لى » وصار الإزار تمييزاً[1] » .
ومضى ابن قتيبة يوجّه له أبياتاً أخرى وقف اللغويون والنحاة عند حروف منها .

ولعل من الغريب أن يقف يوهان فك فى كتابه « العربية» عند هذه الأبيات[2] وما يماثلها مما أُخذ على أبى نواس وعند أخرى تشبهها لشعراء آخرين متخذاً منها دليلا على مخالفة العباسيين لقواعد العربية ، وكأنه لم يقرأ ما نقلناه عن ابن قتيبة . ولو أنه أنعم النظر فيما سجّله الموشح على شعراء الجاهلية والإسلام من مثل هذه الأحرف لعرف أن العباسيين لم يخرجوا على قواعد الفصحى فى الصورة التى رسمها لهم اللغويون ، وأن كل ماهنالك أنهم قاسوا أشعارهم على أشعار الأقدمين ، فأجازوا لأنفسهم ما كان يجيزه أسلافهم من بعض الضرورات وبعض الشواذ ، وهم فى ذلك يتابعونهم ويصوغون على إرث منهم .

ووقف يوهان فك عند استخدام نفر من الشعراء العباسيين لبعض الألفاظ والصيغ الفارسية فى أشعاره معتمداً على ما كتبه الجاحظ فى « البيان والتبيين » عن بعض الأعراب مثل العُمانى والعُذافر الكندى ذاكراً أنهما كانا يتملحان بإدخال بعض الألفاظ الفارسية فى أشعارهما ، وتمثّل للعمانى بلفظتين ، وساق لشاعر يسمّى أسود بن أبى كريمة قطعة اختلطت فيها الألفاظ الفارسية بالألفاظ العربية[3] . وقد جعل ذلك يوهان فك يزعم أن الفارسية أدخلت فى هذا العصر ضَيْماً على العربية ، مبالغاً فى تصور هذا الضيم[4] ، وهى مبالغة لا تسندها نفس النصوص التى رواها الجاحظ ، إذ كان الشعراء يسوقون فى أشعارهم أحياناً بعض الألفاظ الفارسية تملحاً وتظرفاً كما يلاحظ الجاحظ نفسه ، أما بعد ذلك فإنهم كانوا يحافظون على ما استقر فى ملكاتهم من قوانين الصياغة العربية ، وربما كان أكثرهم استخداماً

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة (طبع دار المعارف) ص ٧٩٤ .
(٢) كتاب العربية ص ٩١ وما بعدها .
(٣) البيان والتبيين ١ / ١٤١ وما بعدها .
(٤) كتاب العربية ص ١١٢ وما بعدها .

للألفاظ الفارسية فى شعره أبا نواس إذ كان يأتى بها فى بعض خمرياته تعابثا ومجانة ، وخاصة حين يوجه كلامه إلى بعض غلمان المجوس مقسماً عليهم بآلهتهم وشعائرهم الدينية وأعيادهم المجوسية ، على شاكلة قوله[١] :

والمهرجانِ المُـدَارِ لوقتـه الكرَّار[٢]
والنوكروزِ الكبار[٣] وجَشْنَ جاهنْبـار[٤]
وآبِنسال الوهـارِ[٥] وخُـرَّه إيران شارِ[٦]

ولم يكن يصنع ذلك دائمًا إنما كان يصنعه فى الحين بعد الحين تملحاً وتندراً . وقد تسقط على لسان بعض الشعراء لفظة نبطية ، من مثل قول إبراهيم الموصلى واصفاً وداعه لخمَّارٍ نَبَطِيٍّ[٧] :

فقال : إزْلْ بِشين ، حين حدَّثنى وقد — لعمرك — زُلْنا عنه بالشَّيْن

وكلمة « إزْلْ بشين » نبطية ، ومعناها : امْضِ بسلام . غير أن ما قدمنا ومثله لم يتحول إلى ظاهرة عامة ، فقد كان يأتى على ألسنة الشعراء فى الندرة ، وكثرتهم — على الرغم من أصولهم الفارسية — لم يتورطوا فى شىء منه . ومن أجل ذلك كان ينبغى أن لا يندفع باحث إلى القول بأن السليقة العربية انتُقصتْ فى نفوس العباسيين ، فقد كانت أقوى قوة من أن تنتقص ، حتى لَدَى مَنْ كانوا يحسنون الفارسية مثل أبى نواس . وقد كانت اللغة العربية تتعمق جوهر نفسه بفضل من زوَّدوه بها من اللغويين أمثال خلف الأحمر أستاذه ، ومضى ينهلها من ينابيعها الصافية فى البادية ، فأقام بها حولاً كاملا[٨] ، يعبُّ منها ويرتوى . وأكبَّ على دواوين الجاهليين والإسلاميين من أصحاب القصيد والرجز يستظهرها ، حتى قالوا إنه كان يحفظ دواوين ستين امرأة فضلا عن الرجال[٩] ، وإنه حفظ

---

(١) انظر أشعاراً مماثلة فى كتابنا «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» (طبع دار المعارف) ص١٢٣ .
(٢) المهرجان : من أعياد الفرس .
(٣) النوكروز : عيد النيروز .
(٤) جشن : من أعياد الفرس . جاهنبار : الدعوة العامة .
(٥) آبسال : ابتداء الربيع. الوهار : المشرق.
(٦) خره : موضع التربب ، أو عيد، إيران شار : إيران العزيزة .
(٧) أغانى (طبع دار الكتب) ٥/١٧٦ .
(٨) أخبار أبى نواس لابن منظور (طبع مصر) ص ١٢ .
(٩) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ١٩٤ .

سبعمائة أرجوزة غير ما كان يحفظه من قصائد الجاهليين والمخضرمين والأمويين[١]، وفيه يقول الجاحظ : « ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبى نواس ولا أفصح لهجة مع حلاوة ومجانبة لاستكراه[٢] » ويقول أبو عمرو الشَّيْبانى العالم اللغوى المشهور : « لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرَّفَث لاحتججنا بشعره ، لأنه محكم القول[٣] » .

ولم يكنْ أبو نواس وحده الذى حذق العربية وبرع فيها ، فقد كان من سبقوه وعاصروه من الشعراء لا يقلُّون عنه براعة وحذقاً بأساليبها ، ويكفى أن نرجع إلى بشار الفارسي الأصيل زعيم المحدثين فسنراه يعلل لإتقانه العربية بنشأته فى بنى عُقَيْل وتبدِّيه أعواماً طويلة ، يقول : « وُلدت ههنا (فى البصرة) ونشأت فى حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بنى عُقَيْل ، ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت على نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأَيْفَعْتُ فأبديتُ (دخلت البادية) إلى أن أدركت (بلغت الحُلُم) فمن أين يأتينى الخطأ »[٤] . ولم تكن المسألة مسألة خلو كلامه من الخطأ ، إنما كانت — فى حقيقتها اكتساب السليقة العربية ، حتى غدا كأنه عربى أصيل ، مما جعل اللغويين يشيدون به طويلا[٥] .

وبشار من خير الأمثلة على مدى استيعاب العباسيين ممن يرجعون إلى أصول غير عربية لصورة الشعر العربى بقصيده ورجزه ، وتُروَى له فى ذلك طرائف كثيرة ، منها ما رواه أبو الفرج من أنه استمع إلى عقبة بن رُؤْبة وهو ينشد عقبة ابن سلم والى البصرة أرجوزة يمدحه بها ، فلما فرغ منها قال له : هذا طراز لا تحسنه يا أبا مُعاذ ، فغضب بشار وقال له : ألى يقال مثل هذا الكلام ؟ أنا والله أرجز منك ومن أبيك وجدك (يريد العجَّاج) . ومضى إلى منزله فألَّف أرجوزة بديعة ، وغدا فأنشدها عقبة بن سلم وعنده عقبة بن رُؤْبة ، وهى التى يستهلها بقوله :

يا طَلَلَ الحىِّ بذات الصَّمْدِ بالله خَبِّر كيف كنت بعدى[٦]

فطرب عقبة بن سلم وكأفاه مكافأة كبيرة ، وانكسر عقبة بن رؤبة انكساراً

---

(١) ابن المعتز ص ٢٠١ .
(٢) أخبار أبى نواس ص ٦ .
(٣) ابن المعتز ص ٢٠٢ .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١٤٩/٣ وما بعدها .
(٥) أغانى ١٤٣/٣ وما بعدها .
(٦) ذات الصمد : موضع .

شديداً[١] ، ويُرْوَى أنه أُنشد فى شعر الأعشى الكبَير :

وأنكرتْنى وما كان الذى نَكِرَتْ   من الحوادث إلا الشَّيْبَ والصَّلَعَا

فأنكره ، وقال : هذا بيت مصنوع ما يشبه كلام الأعشى ، ولم يلبث الرواة أن تحققوا من قوله[٢] . وذكر الرواة أنه أنشد خلفاً الأحمر قصيدته فى سلم بن قتيبة :

بَكِّرا صاحبىَّ قبل الهَجِيرِ   إن ذاك النجاح فى التَّبْكيرِ

فلاحظ فيها إكثاره من الغريب ، وسأله عن سبب ذلك ، فقال له : بلغنى أن سلماً يتباصر بالغريب ، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرفه . وقال له خلف : لو قلت مكان (إن ذاك النجاح فى التبكير) (بكِّرا فالنجاح فى التبكير) كان أحسن . فأجابه بشار : « إننى بنيتها أعرابية وحشية فقلت : (إن ذاك النجاح) كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت (بكِّرا فالنجاح) كان هذا من كلام المولَّدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل فى معنى القصيدة ، فقام خلف ، فقبَّل بين عينيه[٣] » .

وعلى هذا النحو كان الشاعر العباسى يحوِّل إلى نفسه نماذج الشعر القديم بكل خصائصها وكل شاراتها ، يعينه فى ذلك اللغويون بما يعرضون عليه منها تجاه سمعه وتحت بصره . وشركهم فى ذلك بعض الشعراء على نحو ما هو معروف عن أبى تمام ، ومجموعاته الشعرية التى انتخبها بذوقه من أشعار القدماء والمحدثين ، وفى مقدمتها ديوان الحماسة . ولم يكتف اللغويون بما عرضوا من القصيد والرجز ، فقد وضعوا للشعراء أقيسة اللغة فى الاشتقاق والتصريف والنحو وموسيقى الشعر وعروضه . وبذلك وضعوا فى أيديهم جميع الآلات التى تعينهم لا على التثقف بالعربية والتدرب عليها فحسب ، بل أيضًا على أن يتقنوا التعبير بها والتصرف فيها حسب حاجاتهم الوجدانية والعقلية والحضارية .

ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن اللغويين هيَّئوا للشاعر العباسى من العلم بالشعر القديم

---

(١) أغانى ٣/١٧٤ وانظر ابن المعتز ص٢٥ والموشح ص ٣٦٦ .

(٢) أغانى ٣/١٤٣ .

(٣) أغانى ٣/١٩٠ .

ما لم يكن يتهيأ لأصحابه أنفسهم ، فقد جمعوه له وكشفوا مادته من جميع أطرافها ، وأخذت تونق وتزدهر من جديد ، وهو ازدهار نفذ منه العباسيون إلى أسلوب لهم حديث عُرف باسم أسلوب المولدين ، وهو أسلوب قام على عتاد من القديم وعُدَّة من الذوق الحضرى الجديد ، أسلوب يحافظ على مادة اللغة ومقوماتها التصريفية والنحوية ويلائم بينها وبين حياة العباسيين المتحضرة بحيث تُنْفَى عنه ألفاظ العامة المبتذلة كما تُنْفَى عنه ألفاظ البدو الحوشيَّة . وكان من الشعراء نَفَرٌ يسرفون على أنفسهم فى النهج على أساليب الرُّجَّاز المحشوة بأوابد الألفاظ ، ولكنهم كانوا يُعَدُّون نابين على ذوق العصر ، ومن خير مَنْ يمثل ذلك ابن مناذر ، وقد تعرَّض له أبو العتاهية يوماً قائلاً : « إن كنت أردت بشعرك العَجَّاج ورؤبة فما صنعتَ شيئاً ، وإن كنت أردتَ أهل زمانك فما أخذت مآخذنا[1] » . وأبو العتاهية إنما يشير إلى ما حدث لأساليب اللغة فى عصره ، فقد تناولها فى الحاضرة صُنَّاع مَهَرة لم يلبثوا أن اشتقوا لهم منها أسلوباً متميزاً يبتعد عن خشونة البدو وألفاظهم الكَزَّة . وليس ذلك فحسب فإنهم أشاعوا فى هذا الأسلوب الألفاظ المنتخبة مع العذوبة والرشاقة حيناً والجزالة والرصانة حيناً آخر ، يهديهم فى ذلك ذوقهم المتحضر الدَّمِث الذى ينفر من كل لفظة غريبة وكلمة وعرة .

وعلى هذا النحو دفع التحضر شعراء العصر العباسى الأول إلى استحداث أسلوب مولَّد جديد ، وهو أسلوب كان يعتمد على الألفاظ الواسطة بين لغة البدو الزاخرة بالكلمات الوحشية ولغة العامة الزاخرة بالكلمات المبتذلة ، أسلوب وسط بين الغرابة والابتذال ، تُختار الكلمات فيه ، وكأنما هى جواهر تختار فى عقود ، إذ تحوَّل الشعراء إلى ما يشبه الصَّاغة ، وكل منهم يحاول أن يثبت مهارته فى صياغته وسبكه بما ينتخب من الكلمات التى يحسن وقعها فى السمع والتى تصنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة .

وبشار فى طليعة من أرسْوا هذا الأسلوب المولد الجديد ، وفيه يقول ابن المعتز : « كان شعره أنقى من الراحة ، وأصفى من الزجاجة وأسلس على اللسان من الماء العذب[2] » . وأسلوبه يمتاز بالنصاعة والرصانة والصفاء والرونق . وتلاه جيل من

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ٤/٩٠ والموشح ص ٢٩٥ .

(٢) ابن المعتز ص ٢٨ .

الشعراء توزّعوا بين من يؤثرون الجزالة والفخامة وقوة البناء وضخامته مثل مسلم بن الوليد ، ومن يؤثرون الليونة والسهولة مثل أبى العتاهية الذى عمّم ذلك فى الشعر الرسمى : شعر المديح ، والشعر الشخصى : شعر الخمر والغزل ، وشعر الزهد والوعظ ، وكان معاصره أبو نواس يحتفظ بكل ما يمكن من جزالة فى الشعر الرسمى ، وفى بعض شعره الشخصى ، وكثيراً ما يعمد فى الضرب الأخير إلى السهولة المفرطة . على أن الشعراء سرعان ما انصرفوا عن طريق أبى العتاهية مؤثرين طريق بشار وما انتهى إليه هذا الطريق عند مسلم من المتانة وقوة البناء والرصانة ، وخلفه أبو تمام فأوفى بهذا الأسلوب الجزل الرصين على غايته من الفخامة والروعة . وبذلك رُدَّ الأسلوب المولد إلى قوة السبك وضخامة البناء . وحقًّا جمد بعض الشعراء وأسرفوا فى الاقتداء بأساليب القدماء من الرجاز وأضرابهم ، ولكنهم سقطوا صَرْعَى فى الميدان الفنى ، إذ ازورّ عنهم جمهور الشعراء منضوين تحت لواء بشار ومسلم وأبى تمام . أو تحت لواء أبى العتاهية وأبى نواس ، بحيث ينتخب الشاعر أنصع الألفاظ وأجزلها وأرشقها وأعذبها مكوّناً أصداف شعره وجواهره المتألقة .

٢

طوابع عقلية دقيقة

رأينا فى الفصل السابق كيف رقيت الحياة العقلية فى هذا العصر رقيًّا بعيداً . وهو رقى هيأتْ له الكتب الكثيرة التى ترجمت عن الهنود والفرس واليونان ، كما هيأت له المحاورات والمناظرات بين أصحاب الملل والنحل والأهواء ، وهى مناظرات ومحاورات دفعت الشعراء كما دفعت غيرهم إلى التفكير المتصل ، الذى ما ينى صاحبه يحاور ويناظر ، متناولا كل شىء ، حتى يصقل عقله ، وحتى يبلغ أقصى ما يريد من العلم والمعرفة . وما لم يعرفه ولم يعلمه سأل عنه العلماء ، ليصوروه له ، وليزيلوا الشبهة فيه عن نفسه ، وفى ذلك يقول بشار[1] :

---

(١) عيون الأخبار ١٢٣/٢ وأدب الدنيا والدين للماوردى (طبعة الحلبى) ص ٥٠ .

شفاءُ العَمَى طولُ السؤال وإنما دوامُ العَمَى طولُ السكوتِ على الجَهْلِ
فكُن سائلا عما عَنَاك فإنما دُعِيتَ أخا عَقْلٍ لتبحثَ بالعَقْلِ

ولم يكن الشاعر العباسى يلتمس المعرفة عند العلماء ولقائهم وسعيه لسؤالهم وإلحاحه فى السؤال فحسب ، بل كان يلتمسها أيضًا فى الكتب المترجمة من كل صنف ، ومن خير ما يصور ذلك أبيات لمحمد بن يسير ، يشرح فيها أنه فى بيت كتبه ، وكنوزُ الآداب من حوله ، يغذى بها نفسه وعقله غذاء ممتعاً ، يقول[١] :

هم مؤنسون وأُلَّافٌ غَنِيتُ بهم فليس لى فى أنيسٍ غيرهم أَرَبُ
فأيما أدبٍ منهم مددتُ يدى إليه فهْو قريبٌ من يدى كَثَبُ[٢]
حتى كأنِّىَ قد شاهدت عَصْرهمُ وقد مضتْ دونهم من دهرهم حِقَبُ

وابن يسير إنما يعبر عن نزوع الشعراء عامة فى عصره للتزود بجميع ألوان المعرفة وما كانوا يجدون فى ذلك من لذة عقلية لا تعد لها لذة . وقد مضوا يتمثلون كثيراً من هذه الألوان ويحيلونها غذاء شعريـًّا بديعاً ، سواء منها الهندى والفارسى واليونانى ، وما لم يحيلوه تأثروا به من قريب أو من بعيد . ولنقف قليلا عند الثقافة الهندية ، فقد لاحظ ابن قتيبة أن أبا نواس كان يتأثر بعض أفكارها فى أشعاره ، من ذلك قوله فى الخمر :

تُخُيِّرَتْ والنجوم وُقْفٌ لم يتمكَّن بها المَدَارُ

يقول ابن قتيبة : « يريد أن الخمر تُخُيِّرَتْ حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفةً فى بُرْج ثم سيَّرها من هناك ، وأنها لا تزال جاريةً حتى تجتمع فى ذلك البرج الذى ابتدأها فيه ، وإذا عادتْ إليه قامت القيامة وبطل العالم ، والهند تقول إنها فى زمان نوح اجتمعت فى الحوت إلا يسيراً منها ، فهلك الخلق بالطوفان ، وبقى منهم بقدر ما بقى منها خارج الحوت[٣] » . وينشد ابن قتيبة قول أبى نواس فى بعض المغنين هاجياً :

---

(١) الحيوان ١/٩٥ .
(٢) كثب : قريب .
(٣) الشعر والشعراء ص ٧٧٤ .

قُلْ لزهيرٍ إذا حَدا رَشَدا أَقْلِلْ أو اكْثِر فأنت مِهْذارُ
سَخُنْتَ من شدة البرودة حَـ تّى صِرتَ عندى كأنك النارُ
لا يعجب السامعون من صفتى كذلك الثَّلْجُ باردٌ حارُ

ويعلق بقوله : « هذا الشعر يدلُّ على نظر أبى نواس فى علم الطبائع ، لأن الهند تزعم أن الشىء إذا أفرط فى البرد عاد حارًّا مؤذياً ، ووجدتُ فى بعض كتبهم : لا ينبغى للعاقل أن يغترَّ باحتمال السلطان وإمساكه ، فإنه إما شَرِس الطبع بمنزلة الحية إن وُطِئَتْ فلم تَلْسَعْ لم يُغْتَرّ بها فيُعاد لَوْطئِها ، أو سمح الطبع بمنزلة الصَّنْدَل الأبيض البارد إن أفرط فى حَكّه عاد حارًّا مؤذياً[1] ». وأكبر الظن أن ابن قتيبة يريد ببعض كتبهم كتاب كليلة ودمنة الذى ترجمه الفرس عن الهندية ، ثم نقله ابن المقفع إلى العربية ، على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، وخلفه أبان بن عبد الحميد فنظمه شعراً بكل ما فيه من قَصَصٍ وحكم . وكان أثره عميقاً فيما صاغه العباسيون من حكم وأمثال ، ونرى ابن عبد ربه فى العقد الفريد يتمثل بحكمة منه هى : « إن الحازم يكره القتال ما وجد بُدًّا منه ، لأن النفقة فيه من النفس والنفقة فى غيره من المال » ولاحظ أن أبا تمام نقل هذا المعنى إلى شعره فقال[2] :

كم بين قومٍ إنما نفقاتهم مالٌ وقومٍ ينفقون نفوسا

وكان تأثير الثقافة الفارسية فى الشعر والشعراء أشد وأقوى من تأثير الثقافة الهندية ، إذ كان كثير من الشعراء يتقنون اللغة الفهلوية ، لا من يرجعون إلى أصول فارسية فحسب مثل أبى نواس ، بل أيضًا بعض من يرجعون إلى أصول عربية مثل العتّابى ، وكان يعكف على قراءة كتبها ، ورآه شخص يوماً ينسخ بعض صحفها ، فسأله متعجباً : لِمَ تكتب كتب العجم ؟ فأجابه منكراً سؤاله : وهل المعانى والبلاغة إلا فى كتب العجم ؟ اللغة لنا والمعانى لهم[3] . وقد مضى الشعراء منذ ظهور كتابى الأدب الكبير والأدب الصغير لابن المقفع يتأثرون بما نقله فيهما من تجارب الفرس

(١) الشعر والشعراء ص ٧٧٧ .
(٢) العقد الفريد (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/١٤٢ .
(٣) كتاب بغداد لطيفور ص ٨٧ .

وحكمهم ووصاياهم فى الصداقة والمشورة وآداب السلوك والسياسة ، ومن يرجع إلى بشار يجده يفرد للمشورة قطعة طويلة فى إحدى مدائحه ، يقول فيها[١] :

إذا بَلَغَ الرَّأىُ المَشُورَةَ فاستَعِنْ ... برأىِ نَصيحٍ أو نصيحة حازمِ

ولا تجعل الشُّورَى عليك غضاضةً ... مكانُ الخَوافِى نافعٌ للقوادمِ[٢]

وقد نُقلت أمثال بزرجمهر الوزير الفارسى إلى العربية ودارت فى كتب الأدب ، وتمثل الشعراء كثيراً من معانيها البديعة ، من مثل قوله : « إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق فإنها لا تفنَى ، وإذا أدبرت عنك فأنفق فإنها لا تبقَى » وقد أخذه بعض الشعراء وزاد عليه قائلا[٣] :

فأَنفقْ إذا أَنفقتَ إن كنت موسِرًا ... وأَنفق على ماخيَّلتْ[٤] حين تُعْسِرُ

فلا الجودُ يُفْنِى المال والجَدُّ مقبلٌ ... ولا البخل يبقِى المالَ والجَدُّ مُدبرُ[٥]

ويقال إنه كان فى ديوان صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعجم[٦] .

ولا ريب فى أن الثقافة اليونانية كان تـأثيرها فى الشعر والشعراء أعمق وأبعد غوراً ، بما فتحت أمامهم من أبواب الفكر الفلسفى وأبواب المنطق ومقاييسه وأدلته ، وما بعثت فيهم من محاولة استكشاف دفائن المعانى واستخراج دقائقها . وقد مضى كثير من الشعراء يزيدون محصولهم من تلك الثقافة ، بل كان منهم من ألف فى المنطق[٧] ، حتى يشحذ ذهنه وأذهان الشعراء من حوله . وكان مما تُرْجِمَ لهم من تلك الثقافة مراثى فلاسفة اليونان للإسكندر المقدونى عند وفاته ، وقد نقل منها أبو العتاهية أطرافاً إلى مراثيه[٨] فى صديقه على بن ثابت ، من ذلك أن أحدهم وقف عند رأسه ، وقال : سكنت حركة الملك فى لذّاته وقد حرّكنا اليوم فى سكونه جزعاً لفقده ، فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية قائلاً :

---

(١) أغانى ٣/١٥٦ وانظر ص ٢١٤ .
(٢) القوادم : الريش الطويل فى جناح الطائر والخوافى : الريش القصير .
(٣) عيون الأخبار ٣/١٧٩ .
(٤) على ماخيلت : على أى حال .
(٥) الجد : الحظ .
(٦) التحفة البهية ص ٢١٧ .
(٧) معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ١٧/ ٢٧ .
(٨) أغانى (طبع دار الكتب) ٤/ ٤٤ والبيان والتبيين ١/ ٤٠٧ وزهر الآداب للحصرى ٣/ ٩١ .

يا عليُّ بن ثابت بان منِّى   صاحبٌ جَلَّ فَقْدُهُ يوم بِنْتَا
قد لعمرى حَكَيتَ لى غُصَصَ الموت وحرَّكتنى لها وسكَنْتَا

وقال فيلسوف آخر : « الإسكندرُ كان أمسِ أنطقَ منه اليوم ، وهو اليومَ أوعظُ منه أمس » . فتمثَّله أبو العتاهية فى مرثية أخرى لصديقه على هذا النمط :

بكيتك يا علىُّ بدمع عينى   فما أغنى البكاءُ عليك شَيَّا
كَفَى حُزْناً بِدَفْنِك ثم أنى   نفضتُ تراب قبرك عن يدَيَّا
وكانت فى حياتك لى عظاتٌ   وأنت اليومَ أوعظُ منك حَيًّا

وقد ذكرنا فى الفصل السابق أن كثيراً من أقوال المسيح فى الأناجيل نقل إلى العربية وتداوله الوعاظ فى وعظهم كما تداوله شعراء الزهد ، واستوحوه فى كثير من أشعارهم ، من ذلك ما يروى عن المسيح من أن قومه عيَّروه بالفقر ، فقال : من الغِنَى أُتيتم ، واستوحى محمود الوراق هذا المعنى وزاد عليه إيضاحاً وتبييناً بقوله[1] :

يا عائبَ الفقر ألا تَزْدَجِرْ   عَيْبُ الغِنَى أكثر لو تَعْتَبِرْ
من شرف الفقر ومن فضله   على الغِنى إن صحَّ منك النَّظَرْ
أنك تعصى كى تنال الغِنَى   وليس تَعْصِى الله كى تفتقر

وسنعرض فى ترجمتنا لأبى العتاهية وصالح بن عبد القدوس بعض ما دخل على الزهد من عناصر غريبة بوذية أو مانوية .

ولعل أكبر بيئة عُنيت بهذه الثقافات المتنوعة ، وكان لعنايتها بها أثر واسع فى الشعر والشعراء ، بيئة المعتزلة إذ كانت تقوم من الفكر العباسى فى هذا العصر مقام السكان والمجداف من السفينة ، فهى تثيره وتدفعه إلى أن يزيد محصوله من جميع المعارف والمعتقدات ، وأن يتمثلها إلى أبعد حد ممكن . وبدءوا بأنفسهم فتثقفوا أروع ما يكون التثقف بكل ما ترجم عن الهنود والفرس واليونان ، وعكفوا على الفلسفة اليونانية عكوفاً جعلهم يقفون على كل شعبها وكل مناحيها فى الفكر الدقيق ، ولم يلبثوا أن استكشفوا لأنفسهم عالمهم العقلى الذى يموج بطرائف الذهن فى جميع

---

(١) العقد الفريد ٣/٢٠٩ .

المعانى الحسية والعقلية . وكانوا ما يزالون يحاورون أصحاب الملل والنحل فى المساجد الجامعة ، ومن حين إلى حين يحاور بعضهم بعضاً فى غوامض الفلسفة ، محللين مستنبطين كأروع ما يكون التحليل والاستنباط ، وكثيراً ما ردوا على فلاسفة اليونان واشتقوا لهم آراء جديدة ، يدعمها العقل الذى شغفوا به وبأدلته وبراهينه ، وهو شغفٌ صوره منهم بشر بن المعتمر تصويراً طريفاً ، إذ يقول[1] :

لله درُّ العقل من رائدٍ وصاحبٍ فى العُسْر واليُسرِ

وحاكمٍ يقضى على غائبٍ قضية الشاهد للأمْر

وإن شيئاً بعضُ أفعاله أن يفصل الخَيرَ من الشَّرّ

لذو قُوًى قد خصَّه ربُّهُ بخالص التقديس والطُّهْرِ

وقد سخَّر بشرعقله فى الرد على أصحاب المقالات والنِّحَل وفى نظم قصائد تدخل فى التاريخ الطبيعى يتحدث فيها عن مشاهد الطبيعة ودلالتها على قدرة الصانع الأكبر . وكان وراءه من المعتزلة شعراء لم يبعدوا بشعرهم عن دوائر الشعر المألوفة من المديح والغزل والهجاء والرثاء والوصف ، ولكنهم طبعوا ما نظموه بطوابع جديدة من دقة المعانى ومن غرائب الأخيلة والصور ، على نحو ما يلقانا عند العتَّابى والنظَّام ، وسنخص كلاًّ منهما بحديث مستقل فى الفصل السابع .

وقد سرت هذه الطوابع فى شعر الشعراء ، وخاصة من التحموا منهم بالمعتزلة ومباحث المتكلمين ، ويكفى أن نصور ذلك عند ثلاثة من الشعراء النابهين هم : بشار وأبو نواس وأبو تمام . فأما بشار فكان يُعَدُّ من أصحاب الكلام ، وكان يكثر من الاختلاف إلى مجالس واصل بن عطاء رأس المعتزلة ، ويستمع إلى ما يجرى فيها من حوار بين أصحاب الملل والنحل سماوية وغير سماوية ، وتشوَّش عقله ، فإذا هو يصبح زنديقاً ، مما سنعرض له فى ترجمته . وكان من أهم المشاكل التى يحاور فيها واصل خصومه مشكلة الجبر والاختيار ، وكان يرفض فكرة الجبر وتعطيل إرادة الإنسان أمام إرادة الله المطلقة ، لما يؤدى إليه ذلك من فقدان الإنسان حريته فى أعماله وأنه كتبها عليه القضاء المحتوم ، وأيضاً لما يؤدى إليه ذلك من

---

(١) الحيوان ٦/٢٩٢ .

ظلم الله للناس فهو يكتب عليهم الشقاء ويأخذهم به ، والله لا يظلم الناس مثقال ذرة ، وما يأتون من أفعال وأقوال إنما يأتونه بإرادتهم وحريتهم ، وهم لذلك مسئولون عنه ومحاسَبون . وقد مضى بشار فى أشعاره يعارض واصلا فى هذه المشكلة الإنسانية الكبرى ، مصرًّا على أن الإنسان مسيَّر فى رحلته الدنيوية بقضاء يخطُّ له غده ومستقبله ، وفى ذلك يقول[1] :

طُبِعتُ على ما فىَّ غيرَ مُخَيَّرٍ ... هَوايَ ولو خُيِّرتُ كنت المهذَّبا

أُريد فلا أُعْطَى وأُعطَى ولَم أُرِدْ ... ويَقْصُر علمى أن أنالَ المُغَيَّبَا

فأُصْرَفُ عن قصدى وعلمى مقصِّر ... وأُمسِى وما أُعْقِبتُ إلا التعجُّبَا

وربما كان لفقده بصره أثر فى اعتناق هذا المذهب . وأهم من هذه المشكلة وأدخل فيما نحن بصدد الحديث عنه من الطوابع العقلية الدقيقة التى تغلغلت فى الشعراء العباسيين وأشعارهم أننا نجد عنده استدلالات عقلية كثيرة على نحو ما مرَّ بنا فى أبيات الصداقة والصديق ، كما نجد عنده توليدات وتشعيبات للمعانى التى طرقها القدماء لا تكاد تحصى ، مع محاولة الإطراف والإتيان بالمعنى المبتكر والصورة البديعة . ولنقفْ قليلا عند معنى طول الليل الذى وقف عنده امرؤ القيس ، فى معلقته ، إذ يقول :

فيا لك من ليلٍ كأَن نجومه ... بكل مُغار الفتْل شُدَّتْ بِيَذْبُلِ[2]

فهو يتصور نجوم الليل لطوله الشديد كأنما سُمِّرَتْ ، فهى لاتريم . وقد مضى الجاهليون والإسلاميون بعده يتناولون هذا المعنى ، وقلما أضافوا إليه إضافة جديدة ، حتى إذا كان بشار أخذ يتناوله بِطُرُقٍ مختلفة تدل دلالة بينة على دقة العقل العباسى وقدرته على التعليل والتحليل وأنه يستطيع أن يؤدى المعنى القديم فى معارض جديدة شديدة الروعة ، من ذلك قوله[3] :

خليلَّ ما بالُ الدُّجَى ليس يَبْرَحُ ... وما بالُ ضوءِ الصبح لا يتوضَّحُ

أَضلَّ الصَّباحُ المستنير طريقَهُ ... أَم الدَّهرُ ليلٌ كلُّه ليس يَبْرَحُ

(١) أغانى (دار الكتب) ٣/٢٢٧ .
(٢) مغار : محكم . يذبل : جبل .
(٣) الديوان ٢/١٠٤ .

وهو خيال زاخر بالحركة ، وفيه تعميم ، فقد تحول الدهر ليلا مظلماً لا آخر له . ويعود إلى التفكير فى نفس المعنى ، وما يزال يلحُّ فى التفكير والتخيُّل حتى تتكوَّن له صورتان جديدتان لا تقلان طرافة عن الصورتين السابقتين ، إذ يقول عن نفسه وقد بات ليلة مسهَّدة إثر فراقه لإحدى صواحبه[1] :

كأَنَّ جفونه سُمِلَتْ بِشَوْكٍ فليس لوَسْنَةٍ فيها قَرارُ
أقول وليلتى تزداد طولا أما لليل بعدهمُ نهارُ
جَفَتْ عَيْنِي عن التغميض حتى كأَنَّ جفونها عنها قِصارُ

ولكن أيكفيه أن يعلل لمعنى طول الليل القديم وما يُطْوَى فيه من السهر بهذه العلل البارعة ؟ أو لا ينبغى أن يسلك مسالك المتكلمين والمعتزلة لا فى الإتيان بالعلل الخفية المستورة وإنما فى الإتيان بما ينقض المعنى نقضاً من أساسه على شاكلتهم فى محاوراتهم ومداوراتهم ؟ وإذن فلينقض ما يقال من طول الليل ، إنما هو السهر والسهاد الطويل الذى يخيِّل إليه كأن الليل يطول ، والليل مظلوم ، وفى ذلك يقول :[2]

لم يَطُلْ ليلى ولكن لم أَنَم ونفَى عنى الكَرَى طَيْفٌ أَلَمّ

وتشيع هذه القدرة على التعليل الطريف فى جميع جوانب شعر بشار ، كما تشيع معها قدرته على تقليب المعانى والاحتيال للتوليد فيها والتفريع ، على شاكلة قوله[3] :

وعِيٌّ الفِعال كعِيِّ المقالِ وفى الصَّمت عِيٌّ كَعِيِّ الكَلِمْ

فقد جعل العِيَّ أقساما ، فهو لا يكون فى الكلام فحسب ، بل يكون أيضاً فى الصمت حين يكون واجباً ويكون الكلام ثرثرة ، بل إنه يكون أيضاً فى الفعال السقيمة .

ولعل فى ذلك ما يوضح من بعض الوجوه كيف منح المعتزلة ومباحثهم بشاراً هذه الطوابع العقلية التى جعلته يمتاز فى شعره بشخصية قوية . ولم يكن ما مُنحه أبو نواس من تلك البيئة أقل حظاً وقدراً ، بل لعله ظفر منها بأكثر مما ظفر بشار ،

---

(١) الديوان ٣/٢٤٩ .
(٢) أغانى ٣/١٥١ .
(٣) البيان والتبيين ١/٤ .

إذ كان يغدو ويروح فى نشأته على مجالس المتكلمين والمعتزلة ، وفى أشعاره سيول من ألفاظهم وأفكارهم ، من ذلك فكرة التولد ، وهى الفعل الذى ينشأ عن فعل آخر دون قصد ، فقد صدر عنها فى قوله متغزلاً بجنّان [1] :

وذاتِ خَدٍّ مورَّدْ فَتَّانة المتجرِّدْ
تأمَّلُ العين منها محاسناً ليس تنفَدْ
فبعضُها قد تناهى وبعضها يتــولَّدْ

ومن ذلك فكرة الجزء الذى لا يتجزّأ أو فكرة الجوهر الفرد ، وكان النظّام ينكره ، وتجادل فيه طويلا مع نظرائه من المعتزلة ، وقد ألمّ بها أبو نواس فى قوله متغزلا[2] :

يا عاقدَ القلب عنى هلا تذكرتَ حَلاَّ
تركتَ منى قليلا من القليل أقَلاَّ
يكاد لا يتجــزّا أقلَّ فى اللفظ من لا

ويقال إن النظام سمع منه هذه الأبيات ، فقال له : « أنت أشعر الناس فى فى هذا المعنى ، والجزء الذى لا يتجزأ — منذ دهرنا الأطول — نخوض فيه ما خرج لنا فيه من القول ما جمعت أنت فى بيت واحد[3] » . ومن ذلك قوله فى شخص كان يبغضه[4] :

كمنَ الشَّنْآنُ فيه لنا ككمُونِ النارِ فى حَجَرِهْ

ونظرية الكمون إحدى النظريات التى تحاور فيها النظّام مع بعض معاصريه طويلا ، إذ كان يرى أن الله جلّ جلاله خلق الموجودات دفعة واحدة ، ثم أكمن بعضها فى بعض على نحو ما أكمن فى آدم أبناءه . ومما كان يحاوره فيه أبو نواس فكرة صدق الوعد والوعيد على الله وهى إحدى الأفكار الأساسية فى عقيدة المعتزلة ،

---

(١) البيان والتبيين ١/١٤١ .
(٢) نفس المصدر والصفحة ، وانظر فى أشعار أخرى له تزخر بألفاظ المتكلمين أخبار أبى نواس لابن منظور ص ١٣ .
(٣) أخبار أبى نواس لابن منظور ص ١٣ .
(٤) الديوان (طبعة آصاف) ص ٦٧ .

كما مر بنا فى الفصل السابق ، وقد جعلتهم يرفضون فكرة العفو التى قال بها المرجئة والتى تذهب إلى أن الله من حقه أن يترك وعيده لمن أجرم وارتكب الكبائر ، فيسدل عليه أستار عفوه ، وكان أبو نواس يـَصْدر عن فكرة المرجئة فى حواره للنظام بمثل قوله فى إحدى خمرياته[1] :

فَقُلْ لمن يَدَّعى فى العلم فلسفةً … حفظتَ شيئاً وغابتْ عنك أشياءُ

لا تَحْظَرِ العفو إن كنت امرءًا حَرِجاً … فإن حَظْرَكه بالدين إزْراءُ

وقد فتقت مجالس المعتزلة والمتكلمين عقل أبى نواس ، فإذا هو يتحول إلى ما يشبه كنزاً سائلا بالمعانى المبتكرة والأخيلة المبتدعة من مثل قوله[2] :

لا أذود الطير عن شَجَرٍ … قد بلوتُ المُرَّ من ثَمرِه

خِفْتَ مأثور الحديث غَدًا … وغَدٌ دانٍ لمنتظــرِه

وقوله[3] :

وكأْسٍ كمصباح السماء شربتها … على زَوْرَةٍ أو موعدٍ بلقاء

أتت دونها الأَيامُ حتى كأَنها … تساقطُ نُورٍ من فُتوق سماء

وتلقانا فى كثير من جوانب شعره طوابع المعتزلة فى لغتهم وفى حجاجهم وفى تفكيرهم المجرد من مثل قوله يصف الخمر[4] :

توهمتُها فى كأسها فكأنما … توهمتُ شيئاً ليس يُدْرَكُ بالعَقْلِ

وصفراءَ أبقى الدهرُ مكنونَ روحها … وقد مات من مخبورها جوهر الكُلِّ

فما يرتقى التكييف منها إلى مَدًى … تُحَدُّ به إلا ومن قبله قَبْلُ

وقوله[5] :

وقد خَفِيَتْ من لُطْفها فكأنها … بقايا يقينٍ كاد يُذْهبه الشَّكُّ

---

(١) الديوان ص ٣٥ .

(٢) الوساطة بين المتنبى وخصومه (طبعة الحلبى) ص ٥٨ .

(٣) الوساطة ص ٥٩ .

(٤) الصناعتين (طبعة الحلبى) ص ٣٦٤ .

(٥) خزانة الأدب للحموى (طبع المطبعة الخيرية) ص ١٨٣ .

وواضح ما فى هذه الأبيات من ألفاظ المتكلمين ومصطلحاتهم وتجريداتهم التى تبلغ حد الوهم ، فقد جعل الخمر لا تُدْرَكُ بالعقل كأنها معنى خفى لا ينكشف ، ودعاها : « جوهر الكل » وقال إنه لا يحيط بها كَيْفٌ أو تكييف تُحَدُّ به وتُعْرَف ، وعاد يصور خفاءها ببقايا يقين تسترها سحب الشك حتى لا تكاد تَبِين .

وكان أبو تمام — على شاكلة أبى نواس — يتعمق الاعتزال وعلم الكلام ، بل يظهر أنه مدَّ تعمقه إلى الفلسفة وما يتصل بها من المنطق ، وقد ألمح إلى ذلك الآمدى فى فاتحة كتابه : « الموازنة بين الطائيين » فقال إن شعره إنما يعجب أصحاب الفلسفة . وتتراءى ألفاظها عنده من حين إلى حين كقوله فى هجاء بعض خصومه[١] :

هَبْ مَن له شىءٌ يريد حِجَابَهُ ما بالُ لا شىءٍ عليه حِجابُ

وكلمة لا شىء فى اصطلاح المتفلسفة تعنى العدم . ومن ذلك قوله[٢] :

لن ينال العُلا خصوصاً من الفِتْـ ـيانِ من لم يكن نَداه عموما[٣]

والعموم والخصوص من كلام المناطقة . ومن ذلك قوله فى أحد ممدوحيه[٤] :

صاغهم ذو الجلال من جوهر المَجْـ ـدِ وصاغ الأَنام من عَرَضِهْ

والجوهر عند الفلاسفة والمتكلمين أثبت من العرض . وفى أشعاره بعض إشارات إلى المذاهب الكلامية ، وعلى رأسها مذهبا الاعتزال والجهمية ، يقول فى أبى سعيد الثَّغْرى أحد القواد المشهورين فى عصره[٥] :

عَمْرِىٌّ عُظْم الدين جَهْمِىٌّ النَّدَى يَنْفى القُوَى ويُثَبِّتُ التكليفا

وهو فى أول البيت يجعله عمرى العقيدة ، يريد أنه على مذهب عمرو بن عُبَيْد إمام المعتزلة بعد واصل بن عطاء ، فهو يأخذ — كما يأخذ عمرو وأصحابه — بفكرة

(١) ديوان أبى تمام (طبع المطبعة الأدبية ببيروت) ص ٤٣٦ .
(٢) نفس الديوان (طبعة دار المعارف) ٣/٢٢٥ وانظر الطبعة السابقة ص ٢٥٩ .
(٣) الندى : الكرم .
(٤) الديوان (طبع دار المعارف) ٢/٣١٧ وطبعة بيروت ص ١٦٨ .
(٥) الديوان (طبع دار المعارف) ٢/٣٨٧ وطبعة بيروت ص ١٨٥ .

حرية الإرادة الإنسانية ، وأن الإنسان يتصرف كما يشاء له عقله ، ولا يلبث أن يجعله فى نداه وكرمه على مذهب جَهْم بن صفوان الذى كان يقول — كما يقول المعتزلة — بوجوب التكاليف الشرعية بينما كان يؤمن بالجبر وتعطيل الإرادة الإنسانية . وكل ذلك ليبالغ فى مدح أبى سعيد بالكرم وأنه قدر مقدور عليه ، لا يستطيع عنه حِوَلا . ويعود إلى مذهب جهم ، ولكن لا فى الجبر وإنما فى أسماء الله وصفاته ، فقد كان يمتنع عن تسميته باسم ، حتى لا يُثْبت عليه شيئاً من التشبيه بالمخلوقات . وقد استمد أبو تمام من هذه الفكرة الدقيقة فى نعته الخمر ، إذ يقول [1] :

جَهْمِيَّةُ الأَوْصاف إلا أنهم قد لقَّبوها جَوْهرَ الأَشياءِ

فالخمر فى رأيه رقّت حتى كادت لا تَبِين ، بل حتى كادتْ لا تسمى — على مذهب جهم — باسم ، ولكنها لعظم شأنها لُقِّبَتْ جوهر الأشياء . ولعل ذلك ما يشهد بأن أبا تمام كان يتغلغل فى معرفة مذاهب المتكلمين ، وهو تغلغل التحم بتغلغله فى قراءة الفلسفة ، فإذا شعره يُطْبَعُ بطوابع الفكر الدقيق ، وهو فكر يجلّله الغموض فى كثير من جوانبه ، ولكنه الغموض الزاهى الذى يلذ العقل والشعور ، والذى ما تزال توليداته واستنباطاته الخفية فيه تروع قارئه روعة شديدة ، وهى روعة جعلت القدماء يقولون إنه أكثر العباسيين اختراعاً وابتكاراً [2] . ولا تقف المسألة فى شعره عند اختراع بعض المعانى وابتكار بعض الصور ، فقد نشر فى صحف أشعاره التضاد الذى يقف عنده المناطقة واستخرج منه ما لا يحصى من المعانى والصور الجديدة ، كقوله يصور جمال إحدى صواحبه : [3]

بيضاءُ تَسْرِى فى الظلام فيكتسى نوراً وتَسْرُبُ فى الضِّياء فيُظْلِمُ

فقد جعلها تكسف نور الشمس ببهائها ، وكأنها القمر يكسف ضوء الكواكب حتى ليصبح ضياء النهار مظلماً لشدة نورها . وهو تضاد بديع ، فالضياء يظلم . ويمكّن لهذا المعنى ويزيده عمقاً فيقول واصفاً إحدى صواحبه فى ساعة الوداع [4] :

---

(١) الديوان (طبع دار المعارف) ٣٤/١ وطبعة بيروت ص ١٢ .

(٢) انظر العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ١٧٧/١ ، ١٨٩/٢ .

(٣) الديوان (طبع دار المعارف) ٢١٣/٣ وطبعة بيروت ص ٢٥٢ .

(٤) الديوان (طبع دار المعارف) ٢٤٩/٣ وطبعة بيروت ص ٢٧٧ .

وَلِهَتْ فأظلمَ كل شيء دونها وأنار منها كلُّ شيء مظلم

فهى تودعه والهة لفراقه ، ويحس كأنما طمست بنورها كل ضوء من حولها ، وأنها سرعان ما كست الوجود بنورها ، ففارقت الأشياء الظلمة والظلام . وكثيراً ما يمتد هذا التضاد فى وصفه ، فتتوالى الأبيات مغموسة به ، على نحو وصفه المشهور لقلم ابن الزيات وزير المعتصم ، وفيه يقول[1] :

لعابُ الأفاعى القاتلاتِ لُعَابُهُ وأرْىُ الجَنَى اشتارَتْه أيْدٍ عَواسِلُ[2]

له رِيقةٌ طَلٌّ ولكنَّ وَقْعَها بآثاره فى الشرق والغرب وابِلُ[3]

فصيحٌ إذا استنطقته وهْو راكبٌ وأعجمُ إن خاطبته وهْو راجل[4]

وكثير ممن كانوا وراء أبى تمام وأبى نواس وبشار كانوا لا يقلون عنهم محاولة فى الإتيان بطرائف المعانى والصور ، وكانوا ما يزالون يغدون ويروحون على مجالس المعتزلة وغيرهم من المتكلمين ، كما كانوا يكبُّون على قراءة كتب الفلسفة والثقافات الأجنبية ، محاولين أن يكتسبوا من ذلك كله ما يتيح لهم فى أشعارهم أن يشيعوا فيها المعانى النادرة والأخيلة المبتكرة .

٣

التجديد فى الموضوعات القديمة

ظل العباسيون ينظمون فى الموضوعات القديمة من المديح وغير المديح مما كان ينظم فيه الجاهليون والإسلاميون وبذلك أبقوا للشعر العربى على شخصيته الموروثة ، وقد مضوا يدعمونها دعما بما لاءموا بينها وبين حياتهم العقلية الخصبة وأذواقهم المتحضرة المرهفة ، فإذا هى تتجدد من جميع أطرافها تجدداً لا يقوم على التفاصل بين صورة هذه الموضوعات الجديدة وصورتها القديمة ، بل يقوم على التواصل الوثيق .

---

(١) الديوان (طبع دار المعارف) ١٢٣/٣ وطبعة بيروت ٢٢٩ .

(٢) لعاب الأفاعى : سمها . والأرى : العسل واشتاره : جناه .

(٣) الطل : المطر والندى الخفيف . والوابل المطر الغزير .

(٤) راجل : ضد راكب ، ويريد بركوبه إمساك الأصابع به للكتابة .

وأول موضوع نقف عنده المديح ، ومعروف أن الشاعر الجاهلى والإسلامى كان يرسم فى ممدوحه المثالية الخلقية الرفيعة التى تقدرها الجماعة ، وإذا كان مؤثراً فى حياة عصره السياسية كأن يكون خليفة أو والياً عرض لأعماله ، وللأحداث التى شارك فيها ، أما إذا كان بطلا يقود الجيوش ضد أعداء الأمة العربية فإنه يصور بطولته وما خاضه من معارك حربية . وقد اضطرمت هذه الغايات للمدحة فى العصر العباسى ، إذ نرى الشعراء يعيدون ويبدئون فى تصوير المثل الخلقية صوراً حية ناطقة ، ويعدو الحصر ما استنبطوه من معان طريفة فى السماحة والكرم والحلم والحزم والمروءة والعفة وشرف النفس وعلو الهمة والشجاعة والبأس ، وقد جسموها فى الممدوحين تجسيما قويًّا ، حتى لتصبح كأنها تماثيل قائمة نصب أعين الناس كى يحتذوها ويحوزوا لأنفسهم مجامع الحمد والثناء . وبذلك ظلت المدحة تبث فى الأمة التربية الخلقية القويمة حافزة لها على الفضائل والمكارم الرشيدة . والذى لا ريب فيه أنها تحمل خصالنا وخصائصنا النفسية ، وقد أشعل الشعراء العباسيون جذوتها فى النفوس بما رفدوها به من عقولهم الخصبة وأخيلتهم البارعة . وقد مضى الشعراء فى مديح الخلفاء والولاة يضيفون إلى هذه المثالية مثالية الحكم وما ينبغى أن يقوم عليه من الأخذ بدستور الشريعة وتقوى الله والعدالة التى لا تصلح حياة الأمة بدونها ، وبذلك كانوا صوتًا قويًّا لها ، صوتا ما يني يهتف فى آذان الحكام بما ينبغى أن يكونوا عليه فى سلوكهم وسياستهم من مثل قول مروان بن أبى حفصة فى مطالع قصيدة للمهدى [1] :

أَحْيَا أميرُ المؤمنين محمدٌ سُنَنَ النبيِّ : حَرَامَها وحلالَها

وفيه يقول الحسين بن مُطَيْر [2] :

يعِفُّ ويَسْتحيِي إذا كان خاليا كما عفَّ واستَحْيَا بحيث رَقيبُ

ويقول أبو العتاهية فى هرون الرشيد [3] :

وراعٍ يُراعى الله فى حِفْظِ أُمَّةٍ يدافع عنها الشرَّ غير رَقُودِ

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٠/٨٩ .
(٢) أغانى ١٦/٢٣ .
(٣) أغانى ٤/١٠٤ .

تجافى عن الدنيا وأيقن أنها مفارقةٌ ليستْ بدار خلودِ

وفيه يقول منصور النَّمَرِى(١) :

بُورِكَ هرونُ من إمامِ بطاعة الله ذى اعتصامِ

له إلى ذى الجلال قُرْبَى ليست لِعَدْلٍ ولا إمامِ

وقد يكون الخليفة سيئ السلوك مثل الأمين ، ولكن الشعراء يمدحونه بنفس هذه المثالية الكريمة للخلفاء ، لأنهم لا يمدحونه من حيث هو ، وإنما يمدحونه خليفة للمسلمين وموضع آمالهم ، وكأنما يريدون أن يرفعوا أمام عينه الشعارات التى تطلبها الأمة فى خليفتها وراعيها ، لعله يثوب إلى طريق الرشاد . وقد نمت من هذا المديح فروع الشعر السياسى ، الذى يقف فيه الشاعر مدافعاً عن حق حزب من الأحزاب فى الحكم والخلافة ، وهو نمو بدأ منذ وقعة صفين ، وهيأ لظهور أحزاب الخوارج والشيعة ، ومعروف أن حركة الأولين خمدت فى هذا العصر ، أما حركة الشيعة فظلت مضطرمة ، وسنعرض لشعرائها وأشعارهم السياسية فى الفصل السادس ، وأيضًا لمن كانوا يشايعون العباسيين .

ولم يصور الشعراء مثاليتنا الخلقية العامة فى مدائحهم وكذلك مثاليتنا السياسية فحسب ، بل صوروا أيضًا الأحداث التى وقعت فى عصور الخلفاء ، وخاصة الفتن والثورات الداخلية وحروب أعداء الدولة من الروم والترك ، وبذلك قامت قصيدة المديح فى هذا العصر مقام الصحافة الحديثة ، فهى تسجل الأحداث التى عاصرها الشاعر والأعمال الكبرى التى ينهض بها الخلفاء ، مما يعطيها قيمة بعيدة إذ تصبح وثائق تاريخية ؛ ومن أجل ذلك كنا نرى الطبرى فى تاريخه يتوقف من حين إلى حين لينشد ما نظمه بعض الشعراء فى الحادث الذى يرويه ، وليجلوه جلاء تامًّا على لسان هؤلاء الشعراء الذين عاصروه . وبذلك أعدوا من بعض الوجوه ليتحول المديح إلى تاريخ ، وكان من أوائل من نفذ إلى ذلك السيد الحميرى ، فإنه حوّل أخبار على بن أبى طالب ومناقبه إلى مدائح بديعة ، وفى ترجمته بكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى من ذلك طرائف كثيرة .

---

(١) أغانى ١٣/١٣٩ .

وربما كان أهم ما سجلته صحف المديح فى هذا العصر صور الأبطال الذين كانوا يقودون جيوش الأمة المظفرة ضد أعدائها من الترك والبيزنطيين ، فقد أشادت إشادة رائعة بكل معركة خاضوا غمارها وكل حصن اقتحموه ، حتى كادت لا تترك موقعة ولا بطلا دون تصوير يضرم فى النفس العربية الاستبسال والمضاء وجلاد الأعداء جلاداً عنيفا ، وكل كاتب فى هذه الصحف أو قل كل شاعر يتفنن فى رسم بطولة القائد الذى يمدحه رسما يشعل الحماسة فى نفوس جنوده ونفوس الشباب العربى من ورائهم فإذا هم يترامون على منازلة أعدائهم ترامى الفراش على النار يريدون أن يسحقوهم سحقاً . وكان الرشيد والمأمون والمعتصم يقودون بأنفسهم الجيوش التى كانت تمحق البيزنطيين محقاً ، فتغنى الشعراء بانتصاراتهم غناء يسكب الفرحة فى كل نفس ، لعل من أروعه غناء أشجع شاعر البرامكة بفتح الرشيد لهرقلة فى آسيا الصغرى واكتساحه لجيش نقفور إمبراطور بيزنطة[١] ، وأكثر منه روعة غناء أبى تمام بفتح المعتصم لأنقرة وحرقه لعمورية فى بائيته المشهورة ، وهى إلى أن تكون ملحمة أقرب منها إلى أن تكون قصيدة . وتكتظ كتب الأدب ودواوين الشعراء بتصويرهم لبسالة جميع القواد ، لا الذين أسهموا فى حروب البيزنطيين فحسب ، بل أيضاً فى حروب الترك وبابك الخُرَّمى وغيره من الثائرين فى شرقى الدولة . ولم يكتف الشعراء بهذا التصوير فقد عنوا بتسجيل كل ما يستطيعون من تفاصيل عن المعارك الحربية ، وبذلك لم تعد قصائدهم مديحاً فحسب بل أصبحت أيضاً تاريخاً ، وهو تاريخ كتب شعراً ، تاريخ أبطالنا وأمجادهم الحربية . وكان هؤلاء الأبطال ومن ورائهم الخلفاء يرصدون الجوائز الضخمة للشعراء كى يرسموا هذه البطولات ، ورسموها حقاً رسما باهراً سنرى مقتطفات منه فى تضاعيف تراجمهم ، ويكفى أن نسوق قطعة من تصوير على بن جبلة لبطولة أبى دُلَف العجلى قائد المأمون المشهور ، إذ يقول من قصيدة طويلة يصف فيها بعض وقائعه[١] :

المنـــايا فى مَقَانبِهِ ... والعطايا فى ذَرَا حُجَرِهْ[٢]

وزَحوفٍ فى صواهلـــه ... كصِياح الحَشْر فى أَمَرِه[٣]

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٧٥ والأغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٠٣ .

(٢) المقانب : جماعات الخيل ، ذرا الحجر فناؤها .

(٣) زحوف : صفة مبالغة من الزحف ، يريد الجيش . والأمر : الكثرة .

قُدتَه والموتُ مكتمنٌ ... فى مذاكيه ومُشْتَجِرِه [١]

فرمتْ جِيلُوه منه يَدٌ ... طوتِ المنشورَ من بَطَره [٢]

زُرتَهُ والخيل عابسةٌ ... تحمل البُؤْسى إلى عُقُرِه [٣]

فأبحتَ الخيــلَ عَقْوَته ... وقَرَيْتَ الطير من جَزَره [٤]

صاغك الله أبا دُلَفٍ ... صيغةً فى الخَلْق فى خِيَرِه

كلُّ من فى الأرض من عَرَبٍ ... بين باديه إلى حَضَره

مستعيرٌ منك مكرُمَةً ... يكتسيها يومَ مُفْتَخَرِه

وكانت المدحة قديمًا تشتمل على مقدمات تصف الأطلال وعهود الهوى بها وما يلبث الشاعر أن يستطرد إلى وصف الصحراء ناعتًا ما يركبه من بعير أو فرس وما يراه فيها من حيوان وحشى ، وقد يعرض لوصف مشهد الصيد ، وكثيراً ما يضمنها بجانب ذلك حكمًا توسع مدارك السامع وتبصره بأطراف من سنن الحياة . وكل ذلك استبقاه شاعر المدحة فى العصر العباسى ، ولكن مع إضافات كثيرة ، حتى يلائم بينه وبين عصره . وتتسع الإضافة أحيانًا وتضيق أحيانًا ، ولكنها دائمًا تعبر عن الذخائر العقلية والخيالية للشاعر العباسى . وقد نعجب لاستبقاء هؤلاء الشعراء المتحضرين لعناصر الأطلال ورحلة الصحراء البدوية ، غير أنهم اتخذوها رمزاً ، أما الأطلال فلحبهم الداثر ، وأما رحلة الصحراء فلرحلة الإنسان فى الحياة ، وقد استغلوا ما كان يصحب الأطلال من حنين لذكريات حبهم ومعاهده لا يزال يترقرق فى أشعارهم من مثل قول مسلم بن الوليد [٥] :

هلا بكيتَ ظعائناً وحُمولا ... ترك الفؤادَ فراقُهم مخبولا

فإذا زجرتُ القلب زاد وَجيبُهُ ... وإذا حبستُ الدمع زاد هُمولا [٦]

---

(١) المذاكى : الخيل ، والمشتجر : القنا والرماح .

(٢) جيلوه : من ثوار أذربيجان . البطر : الطغيان بالنعمة .

(٣) العقر : محلة القوم .

(٤) العقوة : ساحة الدار . والقرى : الضيافة . والجزر : مايذبح .

(٥) ديوان مسلم (طبع دار المعارف) ص٥٣ .

(٦) واضح أن مسلماً يخاطب نفسه وكأنه يخاطب غيره ، والظعائن : النساء فى الهوادج . والحمول : مايحملنه معهن .

وإذا كتمتُ جَوَى الأسى بعثَ الهوى نَفَساً يكون على الضمير دليلا[١]

واهاً لأيام الصِّبا وزمانِه لو كان أمتع بالمُقَام قليلا

وحاول بعض الشعراء أن يترك الحديث عن الأطلال المهجورة إلى قصور الحاضرة المأنوسة ، وحينئذ كان لا يسترسل فى وصف حنينه ، على شاكلة أشجع إذ يستهل إحدى قصائده بقوله[٢] :

قَصْرٌ عليه تحيَّةٌ وسلامُ نشرتْ عليه جمالَها الأيامُ

وعلى نحو ما استبقوا الأطلال وما يتصل بها من حنين يعبث بنفوسهم استبقوا رحلة الصحراء ، وتفننوا فى وصف وعوثة طرقها ورياحها الحارة التى تكاد تتوقد توقداً ، على شاكلة قول مسلم[٣] :

ومَجْهلٍ كاطِّراد السيف مُحْتجَزٍ عن الأدلاَّء مسجور الصياخيدِ[٤]

تمشى الرياحُ به حَسْرَى مُوَلَّهَةً حَيْرَى تلوذ بأطراف الجلاميد[٥]

فالرياح من شدة الحر وما يجرى فى قلبها من الفزع تلجأ إلى أطراف الصخور المستعلية فوق الآكام ، كأنها تريد الفرار من هذا الجحيم المطبق . وقد داروا حول وصف الحيوان الوحشى محاولين أن يستنبطوا بعض الصور الطريفة من مثل قول بشار فى بائيته[٦] ، يصور ما نال أُتن الوحش من حرقة العطش الشديد :

غدتْ عانةٌ تشكو بأبصارها الصَّدَى إلى الجَأْبِ إلا أنها لا تخاطبُهْ[٧]

وهى صورة تخفق بالحياة ، إذ مثَّل العطش فى غَوْر أحداقها ، حتى لتهمُّ بالكلام شاكية لحمارها ، ولكن أنَّى لها ذلك وهى عجماء لا تُبين . وكان الشاعر القديم يكثر من وصف نحول بعيره ونوقه لطول الطرق الوعرة وما يصيبها من شدة الكلال والإعياء ، حتى ليشبهها بالأقواس والأهلة ضموراً وهزالاً ، وردَّد الشاعر

---

(١) جوى الأسى : ناره وحرقته .

(٢) ابن المعتز ص ٢٥٢ .

(٣) الديوان ص ١٥٤ .

(٤) مسجور : موقد . الصياخيد : جمع صيخود وهو اليوم اللافح الحر .

(٥) الجلاميد : الصخور .

(٦) انظر القصيدة فى الديوان ١/٣٠٥ .

(٧) العانة : القطيع من الأتن . الجأب : حمار الوحش . الصدى : العطش . ومعنى شكواها العطش بأبصارها أنه قد تبين فى أحداقها فنارت .

العباسى هذا المعنى طويلا محاولا الخلوص إلى بعض الأفكار المستحدثة ، من مثل قول أبى الشيص مخاطباً أحد ممدوحيه وواصفاً نحول نوقه ونحول راكبيها[١] :

أكل الوَجيفُ لحومَها ولحومَهم ... فأتوك أنقاضاً على أنقاضِ[٢]

ولقد أتتْك على الزمان سوا خطاً ... فرجعن عنك وهُنَّ عنه رَواضى

وتحول الشاعر العباسى فى أحيان كثيرة من وصف الصحراء ومسالكها وسمومها وحيوانها إلى وصف الرياض فى الحاضرة ومناظرها البهيجة فى الربيع ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدة أبى تمام فى مديح المعتصم التى يستهلها بقوله[٣] :

رَقَّت حواشي الدَّهر فهْى تَمَرْمَرُ ... وغدا الثَّرَى فى حَلْيِهِ يتكسَّرُ[٤]

وقد مضى يتحدث فى إسهاب عن جمال الطبيعة فى الربيع ، وكأنه يتخذ منه رمزاً لعصر المعتصم . واتخذوا أحياناً من وصف السفن ورحلتها فى الأنهار صورة مقابلة لرحلة البعير فى الصحراء ، مثل قول بشار فى إحدى مدائحه للمهدى[٥] :

وعذراء لا تجرى بلحمٍ ولا دمٍ ... قليلة شكوى الأَيْن مُلْجَمةِ الدُّبْرِ[٦]

إذا ظَعَنَتْ فيها الفُلول تشَخَّصَتْ ... بفُرسانها لا فى وُعوثٍ ولا وَعْرِ[٧]

تُلاعب تيَّارَ البحور وربَّما ... رأيتَ نفوس القوم من جَرْيها تَجرِى

وجعلتهم موجة المجون الحادة فى العصر يصفون فى مقدمات مدائحهم الخمر أحيانا ، واستهل ذلك بشار ، وتوسع فيه مسلم وأبو نواس وأبو العتاهية سعة شديدة . وعُنوا على نحو ما عنى الشاعر القديم ببثِّ الحكم فى قصائدهم ، وكان قد ترجم كثير من الحكم الفارسية والهندية واليونانية ، فأفادوا من ذلك كله ونثروه فى تضاعيف مدائحهم ، مضيفين إليه كثيراً من تأملاتهم فى الحياة والطباع ، من مثل قول أبى تمام فى فضل المحسود ونقص الحسود[٨] :

---

(١) ابن المعتز ص ٧٦ .

(٢) الوجيف : السير السريع .

(٣) الديوان (طبع دار المعارف) ٢/١٩١ وطبعة بيروت ص ١٣٩ .

(٤) تمرمر : تموج ليناً ونعومة . الثرى : التراب ويريد به النبات . ويتكسر : يتثنى .

(٥) أغانى طبعة دار الكتب ٣/٢٤٢ .

(٦) الأين : الإعياء .

(٧) الفلول : الجماعات . ووعوث : جمع وعث وهو المكان السهل .

(٨) الديوان (طبع دار المعارف) ١/٤٠٢ وطبعة بيروت ص ٧٨ .

وإذا أراد الله نَشْرَ فضيلةٍ طُوِيَتْ أتاح لها لسان حسودِ
لولا اشتعالُ النار فيما جاورتْ ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العود (١)

وهو كثير الحكم فى مدائحه ، وقد صبَّ فيها كثيراً من شكوى الزمن وخطوبه ، بحيث يعد مقدمة قوية لابن الرومى والمتنبى . وهو يمزج شكواه بمغالية عاتية للدهر ونوازله ، وبذلك كانت مدائحه تسكب القوة فى نفس كل عربى ، لا بما يصور من بسالة الأبطال والقواد فى الحروب فحسب ، بل أيضًا بما يودعها من فتوة عارمة على شاكلة قوله (٢) :

أعاذلَتى ما أخشنَ الليلَ مركبا وأخْشَنُ منه فى المُلِمَّات راكبُهْ (٣)
ذَرِينى وأهوالَ الزمان أُفَانِها فأهوالُه العُظْمى تَليها رغائبه (٤)
ألم تعلمى أن الزِّماع على السُّرَى أخو النُّجح عند النائبات وصاحبه (٥)
دَعِينى على أخلاقَ الصُّمِّ للتى هى الوَفْرُ أو سِرْبٌ تَرِنُّ نوادِبُهْ
فإن الحُسام الهُنْدوانىّ إنمـا خشونته ما لم تُفَلَّل مضاربه

وعلى هذا النحو ازدهرت المدحة على لسان الشاعر العباسى لا بما رسم فيها من مثاليتنا الخلقية وسجل من الأحداث وصوَّر من البطولات العربية فحسب ، بل أيضًا بما تمثَّل من العناصر القديمة وأذاع فيها من ملكاته وما أضافه إليها من عناصر جديدة استمدها من بيئته الحضارية ومن نفسيته وملكاته العقلية . ودفعتهم دقتهم الذهنية إلى أن يلائموا بين مدائحهم وممدوحيهم ، فإذا مدحوا الخلفاء نوهوا بتقواهم وعدلهم فى الرعية ، وإذا مدحوا القواد أطالوا فى وصف شجاعتهم ، وإذا مدحوا الوزراء تحدثوا عن حسن سياستهم ، وكذلك صنعوا بالفقهاء والقضاة والمغنين ، فلكل أوصافه التى تخصه ، وهى أوصاف طلبوا فيها وفى كل مدائحهم الفكر الدقيق والتعبير الرشيق .

---

(١) العرف : الرائحة والشذى .
(٢) الديوان (طبع دار المعارف) ٢٢٦/١ وطبعة بيروت ص ٤٤ .
(٣) يقول إن السرى فى الليل صعب ولكنه أصعب منه الفتى من الرجال الصلب .
(٤) أفانها : تفنينى وأفنيها .
(٥) الزماع : المضاء فى الأمر ، يقول : من ترك الدعة ورحل فى طلب المجد نال طلبته .

وإذا تركنا المديح إلى الهجاء وجدنا معالم التطور فيه أعمق وأوسع منها فى المديح الخالص ، إذ كان يتصل بحياة الشعب والعامة اتصالا لعله أدق من اتصال المديح ، وهى حياة لم يعد أساسها العصبيات القبلية كما كان الشأن فى العصر الأموى ، ومن أجل ذلك ضعف فن النقائض لقيامه عليها إلا أسرابا قليلة كانت تظهر من حين إلى حين . ولكن إذا كان هذا الفن ضعف، فإن الهجاء لم يضعف بسبب التنافس الشديد بين الشعراء، وقد عمت فيه روح جديدة، إذ أخذوا يَريشونه سهاماً مصمية. ويخيل إلى الإنسان أن أصحابه لم يتركوا مثلبة خلقية أو نفسية فى شخص إلا صوروها ، وكأنما يريدون أن يطهروا المجتمع منها ، ولم يتورعوا أحياناً عن هجاء الخلفاء والوزراء ، كلما رأوهم ينحرفون عن الجادة على نحو ما هو مشهور عن دعبل . وبذلك يصبح الهجاء الصحيفة التربوية المقابلة للمديح ، فالمديح يرسم المثالية الخلقية لهذه التربية، والهجاء يرسم المساوئ الفردية والاجتماعية التى ينبغى أن يتخلص منها المجتمع الرشيد . وقد تبارى الشعراء فى رسم معانيه، تارة يَخِزون وخز الإبر ، وتارة يطعنون طعنات قاتلة ، من ذلك قول بشار فى هجاء ابن قزعة بشُحِّه (١)

فلا تَبْخلا بُخْلَ ابن قزعةَ إنه   مخافةَ أن يُرْجى نَداه حزينُ
إذا جئته للعُرْف أغلق بابه   فلم تَلْقَه إلا وأنت كمين

وقول أبى تمام مصوراً غيرة شخص لا فى موضع الغيرة من نسائه ، وإنما فى الغيرة على طعامه ورُغْفانه حتى لكأن كسر رغيفه كسر عظم من عظامه ، بل لكأنه فتك به أشد الفتك ، يقول(٢) :

صَدَّقْ أَلِيَّتَهُ إن قال مجتهداً   لا والرغيفِ، فذاك البِرُّ من قَسَمِهْ(٣)
قد كان يعجبنى لو أنَّ غَيْرَ تَه   على جَراذقه كانتْ على حُرَمِه (٤)
إن رُمْتَ قِتْلَتَهُ فَافتِكْ بخُبْزَتِهِ   فإنَّ موقعها من لحمه ودَمِهْ

وأهم ليقة غمس فيها الشعراء هجاءهم ليقة الاستخفاف والتهوين والتحقير ،

---

(١) ابن المعتز ص ٢٦ .
(٢) الديوان (طبعة بيروت) ص ٤٥٩ وقارن بعيون الأخبار ٣/٢٤٦ .
(٣) أليته : قسمه وحلفه .
(٤) الجراذق : جمع جرذق وهو الرغيف ، معرب كرده .

وقد استمد منها حماد عجرد كثيراً حين استطار الهجاء بينه وبين بشار من مثل قوله[١] :

وأعمى يشبه القِرْدَ إذا ما عَمِيَ القِرْدُ
دَنِيُّ لم يَرُحْ يوماً إلى مَجْدٍ ولم يَغْدُ
ولم يَحْضُرْ مع الحُضَّا ر في خَيْرٍ ولم يَبْدُ
ولم يُخْشَ له ذَمٌّ ولم يُرْجَ له حَمْدُ

ويقال إن بشارا حين سمع هذه الأبيات بكى من شدة إيلامها لنفسه ، فقال له قائل : أتبكى من هجاء حماد ؟ فقال : والله ما أبكى من هجائه ، ولكن أبكى لأنه يرانى ولا أراه ، فيصفنى ولا أصفه . وأتاه من باب جديد ألهمته به الحضارة وما يأخذ به أهل الحاضرة أنفسهم من النظافة والتعطر ، فوصفه بالقذارة والدنس فى أبيات لعلها كانت أشد إيلاما وأوجع وخزا لنفسه من الأبيات السابقة ، إذ يقول[٢] :

نهارُهُ أخبثُ من ليلِهِ ويومُه أخبث من أمسِهِ
وليس بالمُقْلِع عن غَيِّه حتى يوارَى فى ثَرَى رَمْسِهِ[٣]
ما خلق الله شبيهاً له من جِنِّه طُرًّا ومن إنسِهِ
والله ما الخنزيرُ فى نَتْنِهِ بِرُبْعِه فى النَّتْنِ أو خُمْسِهِ
بل ريحُه أطيب من ريحِهِ ومَسُّه ألينُ من مَسِّهِ
ووَجهُه أحسن من وجهه ونفسه أنبلُ من نفسِهِ
وعودُه أكرمُ من عودِهِ وجِنْسُهُ أكرمُ من جِنْسِهِ

يقول الجاحظ : « وأنا — حفظك الله تعالى — أستظرف وضعه الخنزير بهذا

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٤/٣٢٩ .
(٢) الحيوان ١/٢٤٠ وأغانى ١٤/٣٣٠ .
(٣) الرمس : القبر .

المكان فى هذا الموضع حين يقول : (وعُوده أكرم من عوده) وأى عود للخنزير قبّحه الله تعالى وقبّح من يشتهى أكله » . وحماد يضيف إلى قذارة الجسد قذارة الخلق . ومع أن بشارا كان فى الذروة الرفيعة من صنع الشعر ونظمه وكان حماد فى السفح البعيد فإن حمادا كان يستعلى عليه فى الهجاء . ولما أعياه أمره جاءه من باب ضيق ، محاولا أن يضع أغلال أولى الأمر فى يديه ، إذ ادّعى عليه أنه زنديق يؤمن بإلهى النور والظلمة كما يؤمن المجوس قائلا فى أبيات :

يا بن نِهْيا رأْسٌ علىَّ ثَقِيلُ   واحتمالُ الرءوس خَطْبٌ جَلِيلُ
ادْعُ غَيرى إلى عبادة رَبَّيْـ   ـنِ فإنى بواحدٍ مشغولُ

ومكر به حماد فأشاع الأبيات لبشار فى الناس وجعل فيها مكان (فإنى بواحد مشغول) : (فإنى عن واحد مشغول) ليثبت عليه الزندقة والكفر . يقول أبو الفرج : فما زالت الأبيات تدور فى أيدى الناس حتى انتهت إلى بشار ، فاضطرب منها وتغيّر وجزِع ، وقال : عرّضنى للقتل ، والله ما قلت إلا (فإنى بواحد مشغول) فغيّرها حتى يشهرنى فى الناس بما يهلكنى »[1] . وكانا جميعا زنديقين مستترين ، وكأنما خافا أن يفتضحا ويحاكمهما المهدى . ونرى بشاراً يلطخ بالتهمة زنديقا ثالثا هو عمارة بن حربيّة ، وله يقول[2] :

لو كنت زنديقاً ــ عمارُ ــ حَبَوْتَنِى   أو كنت أعبد غير ربٍّ محمَّدِ
لكننى وحَّدتُ رَبِّى مخلصاً   فجفوتَنِى بُغْضاً لكل موحِّدِ

ويكثر فى هجاء بشار وغيره هتك الأعراض ، وربما كان لشيوع المجون والفحش أثر فى ذلك . وتشيع فى كثير من قطع الهجاء روح السخرية المريرة ، وقد تشيع روح الفكاهة المضحكة ، على نحو ما يلقانا فى هجاء أبى العتاهية لعبد الله[3] بن معن وقد جعل منه فتاة تتزين لتلفت إليها الرجال . ودفعت بشاراً شعوبيته الذميمة ليهجو العرب بأشعار تُعَدُّ وصمة فى جبينه . وعلى نحو ما لاءموا بين مدائحهم وممدوحيهم لاءموا بين أهاجيهم ومهجويهم ، فإذا كانوا قضاة وصفوهم بالظلم ، وإذا كانوا مغنين وصفوهم برداءة الصوت ودمامة المنظر . ولعل من الطريف

---

(١) أغانى ١٤/٣٢٥ وما بعدها .
(٢) الحيوان ٤/٤٤٣ .
(٣) أغانى ٤/٢٢ .

أن نجد شاعراً يهجو محمد بن يسير بما يدعى من معرفة السحر والشعبذة والعزائم على الجن والشياطين[١] .

وظلت للفخر حيويته القديمة ، وإن كان قد ضعف فيه الفخر القبلى ، على أن أسراباً بقيت منه عند نفر من الشعراء ، وفى مقدمتهم أبو نواس إذ كان يتعصب لمواليه من بنى سعد العشيرة القحطانيين وينظم فى ذلك أشعاراً كثيرة ، ومثله كان دعبل ، وقد رد على مذهبّية الكميت التى تشيّع فيها للنزاريين على القحطانيين ردّاً عنيفاً ، مما جعل أبا سعد المخزومى يهاجيه طويلا[٢] . وحاول شاعر يسمى ابن قنبر أن يدفع مسلم بن الوليد للاشتباك به فى معركة حامية من معارك الهجاء القبلى ، ولكن مسلما أخرسه[٣] . وكان بشار يتعصب فى عصر بنى أميّة لمواليه القيسيين تعصباً حادّاً ، حتى إذا نجحت الثورة العباسية أظهر ما كان يستره من كره الإسلام والعرب ، وأخذ يعنف بهم عنفاً شديداً ، مصوراً البغض الذى كان يحرق كبده . والجديد حقاً فى الفخر لهذا العصر أن كثيراً من الشعراء صدروا فى فخرهم عن شعور طاغ بالمروءة والكرامة والشيم الرفيعة من مثل قول عوف بن محلّم الخُزاعى[٤] :

وإنى لذو حِلْمٍ على أن سَوْرتى ... إذا هزّنى قومٌ حميتُ بها عِرْضى[٥]

وإنى لأَجزى بالكرامة أهلها ... وبالحقد حقداً فى الشدائد والخَفْض

وقول بكر بن النطّاح[٦] :

ومَن يفتقرْ منا يَعِشْ بحسامِه ... ومن يفتقر من سائر الناس يَسْأَلِ

وإنا لنلهو بالسيوف كما لهتْ ... فتاة بِعِقْدٍ أو سِخَابِ قَرَنْفُلِ[٧]

ونشط الشعراء فى الرثاء نشاطاً واسعاً ، إذ لم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد مشهور إلا وأبّنوه تأبيناً رائعاً ، وقد صوّروا فى القواد بطولتهم ومحنة الأمة والجيوش فى وفاتهم ، وكيف ملأ موتهم القلوب حسرة وفزعا . وحقّاً رثاؤهم لهم يفيض بالحزن

---

(١) الحيوان ٦/٢٣٢.

(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٨/٢٩ .

(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/١٦٢ وانظر ترجمة أبى الفرج لمسلم الملحقة بديوانه ص ٣٨٣ وما بعدها .

(٤) ابن المعتز ص ١٩٢ .

(٥) السورة : السطوة وشدة الغضب .

(٦) أغانى (طبعة الساسى) ١٧/١٥٥ .

(٧) السخاب : قلادة ، وعادة تكون من القرنفل و بعض الطيب .

واللوعة ، ولكنه مع ذلك يكتظ بالحماسة والقوة وتمجيد بطولتهم تمجيداً يضرم الحمية فى نفوس الشباب للدفاع عن العرين حتى الموت ، دفاعاً يقوم على البأس والبسالة والاستطالة . وكان يحدث أن يخرّ بطل صريعاً فى بعض الميادين ، حينئذ ينظم فيه الشعراء مراثى حماسية تؤجج لهيب الحفيظة فى القلوب وتدفع إلى الاستشهاد تحت ظلال الرماح ذبًّا عن حرمات الوطن ، ومن خير ما يمثل ذلك مراثى أبى تمام فى محمد بن حُمَيْد الطوسى الطائى ، فإنه أوقع ببابك وجنوده لعهد المأمون وقائع ملأته هو وعسكره فزعاً ورعباً ، ولكن حدث فى آخر وقعة أن اندفع ابن حميد فى مضيق حرج ، والتف به جنود بابك ، فظل قائماً يدافعهم ويقاومهم لا يتزحزح عن موضعه ، حتى إذا أحيط به لم يستسلم ولم يلق السلاح ، بل قاتل حتى قُتل عزيزاً كريماً . وحزنت الأمة حزناً عميقاً لموته ، وانبرى أبو تمام يرثيه مراثى رائعة تصور جلده فى القتال وصبره فى النضال حتى الموت الزؤام ، على نحو ما يلقانا فى مرثيته العينية ، التى استهلها استهلالا بديعاً بقوله [١] :

أصمَّ بك النّاعى .وإن كان أسْمَعَا ‏ ‏ ‏ وأصبح مَغْنَى الجود بعدك بَلْقَعَا [٢]

وفيها يقول :

فَتًى كلما ارتاد الشجاعُ من الرَّدَى ‏ ‏ ‏ مَفَرًّا غداة المأزِق ارتاد مَصرعا [٣]

فإن تَرْمِ عن عُمْرٍ تدانى به المدى ‏ ‏ ‏ فخانك حتى لم تجد فيه منزعا [٤]

فما كنت إلا السيف لاقى ضريبةً ‏ ‏ ‏ فقطَّعها ثم انثنى فتقطَّعا [٥]

ومن الأبطال الذين بكاهم الشعراء منصور بن زياد ، وقد أبلى لعهد الرشيد فى القضاء على ثورة بالقيروان ، ووافاه القدر ، فرثاه عبد الله بن أيوب التَّيْمِىُّ بقصيدة بديعة يقول فى تضاعيفها [٦] :

أما القبورُ فإنهن أوانِسٌ ‏ ‏ ‏ بجوار قبرك والديارُ قبورُ

---

(١) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٣٥ .
(٢) المغنى : المنزل . البلقع : الخالى .
(٣) ارتاد : طلب . الردى : الموت .
(٤) المنزع : مكان نزع السهام من القوس والتشبيه واضح .
(٥) الضريبة : الرجل المضروب بالسيف
(٦) ديوان الحماسة بشرح المرزوقى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٩٥٠ .

والناس مأتمهم عليه واحدٌ في كل دارٍ رنَّةٌ وزفيرُ

عجبا لأربع أذرعٍ في خمسةٍ في جوفها جبلٌ أشمُّ كبيرُ

ولعل بطلا لم تُذْرَفْ دموع الشعراء عليه كما ذُرفت على يزيد بن مزيد الذى فتك بخوارج الموصل فتكة لم تقم لهم بعدها قائمة ، وسنلتقى فى تراجم الشعر بمراث له مختلفة ، وفى تأبينه يقول منصور النَّمَرِى[١] :

وإن تَكُ أفنتْه الليالى وأوشكتْ فإن له ذكراً سيُفْنِى اللياليا

وواضح ما فى هذه الأشعار من دقة التفكير وبعد الخيال ، ويلقانا ذلك دائماً فى تأبيناتهم ، إذ كانوا يتنافسون فى استنباط المعانى النادرة ، ومن طريف ما لمسلم ابن الوليد من هذه المعانى قوله فى رثاء شخص [٢] :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطِيبُ تُراب القبر دلَّ على القَبر

وكان الشاعر القديم كثيراً ما يفزع إلى العزاء بالأمم السالفة والقرون الخالية وأن الموت كأس دائر يتجرع غصصه جميع الناس ، فردّد ذلك الشاعر العباسى فى مراثيه ، وأخذ يضيف إليه من فكره الخصب تأملات فى حقائق الموت وسنن الوجود ، من مثل قول ابن مناذر فى تأبين عبد المجيد الثقفى[٣] :

كل حَىٍّ لاقى الحِمام فمُودِى مالحىٍّ مُؤَمَّلٌ من خلود [٤]

لا تَهاب المَنون شيئاً ولا تَرْ عَى على والدٍ ولا مولودِ [٥]

يَقْدَحُ الدَّهر فى شماريخ رَضْوَى ويحطُّ الصخورَ من هَبُودِ [٦]

ولقد تترك الحوادث والأيّا مُ وَهْيًا فى الصخرة الجلْمود [٧]

يفعل اللهُ ما يشاء فيمضى ما لفعل الإلٰه من مردود [٨]

فكأنا للموت رَكْبٌ مُجِدُّون سراعٌ لمنهلٍ مورودِ

---

(١) العقد الفريد ٣/٢٨٧ .
(٢) الديوان ص ٣٢٠ .
(٣) ابن المعتز ص ١٢٢ .
(٤) الحمام : الموت . مودى : ميت .
(٥) المنون : الموت .
(٦) رضوى : جبل . وشماريخه : أعاليه . هبود : موضع .
(٧) وهيا : شقا .
(٨) مجدون : مسرعون .

وشاع فى العصر بكاء الرفقاء والأصدقاء ، بكاءٌ يفجر الحزن فى النفس ، لما يصور من شقاء الأصدقاء بموت رفاقهم وكيف يصطلون بنار الفراق المحرقة ، من مثل قول بشار فى ندب أحد أصدقائه من الزنادقة [1] :

اشربْ على تَلفِ الأَحِبَّة إننا جُزُرُ المنية ظاعنين وخُفَّضَا [2]
ويلى عليه وويلتى من بَيْنِهِ كان المحبُّ وكنت حِبًّا فانقضى
قد ذقتُ أُلفته وذقت فراقه فوجدت ذا عَسَلاً وذا جَمْرَ الغَضَا [3]

وكان إخوتهم وأبناؤهم يموتون تحت أعينهم ، فتدور بهم الأرض ويبكون بدموع غزار ، وينفّسون عن أنفسهم بأبيات تصور الحزن المقيم فى قلوبهم لا يبرح ، من مثل قول العُتْبى فى ابن له اختطفه الموت بعد أبناء آخرين ، وقد مات فى ريعان شبابه [4] :

وقاسمنى دهرى بَنِىَّ بِشَطْرِهِ فلما تقضَّى شطره عاث فى شَطْرِى [5]
ألا ليت أمى لم تَلِدنى وليتنى سبقتك إذ كنا إلى غايةٍ نَجْرِى
وكنت به أُكْنَى فأَصبحت كلما كُنيت به فاضتْ دموعى على نَحْرِى

وعلى نحو ما تفجعوا على أبنائهم وإخوتهم تفجعوا على زوجاتهم تفجعاً كله عطف وبر ورحمة ، ولابن الزيات مراث مختلفة لزوجته ، توضح من بعض الوجوه ثراء الفكر العباسى بالخواطر وقدرته على تحليلها وتمثيل أحزانه وحُزْنِ طِفْله الذى افتقد عَطْفَ الأم وحنانها ، من مثل قوله [6] :

ألا مَنْ رأى الطفلَ المفارقَ أمَّهُ بُعَيْدَ الكرَى عيناه تَبْتدران [7]

---

(١) المختار من شعر بشار للخالديين (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٥ .

(٢) جزر : جمع جزور وهو البعير الذبيح . ظاعنين : سائرين . خفضاً : جمع خافض وهو المقيم .

(٣) الغضا : من شجر البادية .

(٤) الحماسة بشرح المرزوقى ص ١٠٧١ وانظر زهر الآداب ٣/١٢/٢ .

(٥) يريد أن الدهر قاسمه بنيه إذ أخذ نصفهم وأبقى له نصفاً ثم عاد يعيث فى نصفه ونصيبه .

(٦) ديوان ابن الزيات (نشر جميل سعيد بمطبعة نهضة مصر بالفجالة) ص ٦٧ وانظر العمدة لابن رشيق ١٢٥/٢ .

(٧) الكرى : النوم . تبتدران : تسحان وتهملان بالدموع .

رأى كلُّ أُمٍّ وابنَها غيرَ أُمِّهِ ... يبيتان تحت الليل ينتجيان

وبات وحيداً فى الفراش تُجِنُّهُ ... بلابلُ قلبٍ دائم الخفقان[١]

فلا تَلْحيانى إن بكيتُ فإنما ... أداوى بهذا الدمع ما تريان[٢]

وهَبْنِى عزمتُ الصبر عنها لأننى ... جَلِيدٌ فمن بالصَّبْر لابن ثمان

ضعيف القُوَى لايطلب الأَجر حِسْبَةً ... ولا يأْتسى بالناس فى الحدثان[٣]

وظلت المآتم قائمة على قتلى الشيعة فى العصر والعصور السابقة منذ قتل على بن أبى طالب ، فهم ينوحون عليهم نواحًا حارًّا ، ودموعهم لا ترقأ ولا تجفُّ ، وسنعرض لذلك فى الفصل السادس . وبكى الشعراء البرامكة طويلاً حين نكبهم الرشيد ، من مثل قول سلم الخاسر[٤] :

خَوَتْ أَنْجُمُ الجَدْوَى وشَلَّتْ يَدُ النَّدَى ... وغاضتْ بحارُ الجود بعد البرامكِ[٥]

هَوَتْ أَنجمٌ كانت لأَبناء بَرْمَكٍ ... بها يعرف الحادى طريقَ المسالك

وظهرت ضروب جديدة فى الرثاء لم تكن معروفة قبل هذا العصر ، من ذلك رثاء المدن حين تنزل بها كوارث النهب والحرق ، وكان الجيش الذى أحاط ببغداد قبل مقتل الأمين رماها بالمجانيق فاندلعت فيها النيران واحترقت بعض الأحياء ، وعمَّ فيها نهب الأموال وقتل الأبرياء ، مما جعل كثيرين من الشعراء يبكونها وقد غمرهم الحزن والأسى ، من مثل قول بعضهم[٦] :

ألا ابْكِ لإحْراقٍ وهَدْمِ منازلٍ ... وقَتْلٍ وإنهاب اللُّهى والذخائرِ[٧]

وإبراز ربَّات الخدور حواسرًا ... خَرَجْنَ بلا خُمْرٍ ولا بمآزرِ

كأَن لم تكن بغدادُ أَحسن منظرًا ... ومَلْهًى رأتْه عين لاهٍ وناظرِ

ومن ضروب الرثاء الجديدة مراثى الطير الصادح من مثل القُمْرِىِّ والحيوانات

---

(١) تجنه : تلفه وتشتمل عليه .

(٢) لاتلحيانى : لاتلومانى .

(٣) حسبة الأجر : احتساب الثواب عند الله بالصبر على نزول الموت . الحدثان : نوائب الدهر.

(٤) مروج الذهب للمسعودى (طبعة مصر) ٢٩٦/٣ .

(٥) خوت : سقطت وخرت . الجدوى : العطاء . الندى : الكرم .

(٦) مروج الذهب ٣١٣/٣ .

(٧) اللهى والذخائر : الأموال .

المستأنسة ، وقد جعل القاسم بن يوسف أخو أحمد بن يوسف كاتب المأمون ذلك وَكْده ، كما يقول أبو الفرج[1] الأصبهانى ، فاستغرق أكثر شعره فيه ، من مثل قوله يرثى شاة :

عَيْنُ إبْكى لعنزنا السَّوْداء كالعروس الأَدْماء يوم الجِلاء [2]

وكان لابن الزيات فرس أشهب لم يُرَ مثله فراهة وحسنا ، فوصفت للمعتصم فراهته ، فطلبه منه ، فلم يستطع رد طلبه ، حتى إذا بان عنه رثاه بقصيدة طويلة يقول فيها[3] :

كيف العزاءُ وقد مضى لسبيلِه عنا فودَّعنا الأَحَمُّ الأَشْهَبُ [4]
منع الرقادَ جَوًى تضمَّنه الحشَا وهَوًى أُكابده وهَمٌّ مُنْصِبُ [5]

ومن المراثى الجديدة الموضوع مرثية[6] محمد بن يسير لبستان له عاثت فيه شاة أفلتت لأحد جيرانه ، ودخلت البيت ، فعاثت ببعض صحفه وقراطيسه ، وفيها يَنْدُبُ روعة هذا البستان قبل أن تعبث به ضارعاً إلى ربه بالشكوى من هذه الشاة وأن يَنْزل بها عقاب أليم .

وقد أكثر الشعراء فى العصر من العتاب والاعتذار متخذين لهما مسالك دقيقة تدل أوضح الدلالة على رهافة الحس وخصب الذهن من مثل قول أبى دلف معاتبا[7] :

ومَنْ لىَ بالعين التى كنت مَرَّةً إلىَّ بها فى سالف الدَّهرِ تنظرُ

وقول أبى تمام[8] :

لئن كنت أخطو ساحة المَحْل إننى لأترك روضاً من جَداك وجَدْولا [9]

وستلقانا فى تراجمهم معاتبات كثيرة بين الأصدقاء ، تعبر عن عواطف

---

(١) أغانى (طبع الساسى) ٢٠/٥٦ وانظر الأوراق للصولى (أخبار الشعراء) ص ١٦٣ .
(٢) الأدماء : السوداء .
(٣) ديوان ابن الزيات ص ٦ .
(٤) الأحم : الأسود ، الأشهب : من الشهبة وهى سواد يصدعه بياض .
(٥) الجوى : حرقة الهوى . منصب : متعب.
(٦) انظر الأغانى (طبعة دار الكتب) ٢٠/١٤ وما بعدها. وانظر مرثيته للوح آبنوس فى الأغانى ١٤/٤٧ .
(٧) العقد الفريد ٢/١٦٥ .
(٨) الديوان (طبع دار المعارف) ٣/١٠٨.
(٩) المحل : الجدب . الجدا : العطاء .

الصداقة الدقيقة ؛ وقد تفننوا فى صور اعتذاراتهم مستوحين قدرتهم العقلية فى الحجاج والمنطق ، من مثل قول إبراهيم بن سيَابة يعتذر للفضل بن الربيع ، وكان قد سخط عليه سخطًا شديدًا[١] :

إن كان جُرْمى قد أحاط بحُرْمَتى ... فأَحِطْ بجُرْمِى عَفْوَكَ المأْمولا

فكم ارتجيتك فى التى لا يُرْتجى ... فى مثلها أحدٌ فنِلْتُ السُّولا [٢]

وضللتُ عنك فلم أجدْ لى مذهبا ... ووجدت حلمك لى عليك دليلا

هبْنى أسأْتُ ـ وما أسأْتُ ـ أُقِرُّ كى ... يزداد عَفْوُك بعد طَوْلك طُولا[٣]

فالعفوُ أجملُ والتفضل بامرئٍ ... لم يَعْدم الراجون منه جميلا

وواضح أن هذا الاعتذار مكتوب بأقيسة منطقية سديدة .

ولعل الشاعر العباسى لم يُعْنَ بموضوع قديم كما عُنى بالغزل وتصوير عاطفة الحب الإنسانية التى كانت تخفق بأغانيها صباح مساء العيدانُ والطنابير والدفوف والمعازف من كل شكل مختلطة بأصوات المغنيات والمغنين على جميع صور الإيقاعات من الشدة واللين . وكانت المغنيات خاصة أو بعبارة أخرى القيان يعبثن بقلبه هن ومن حولهن من الجوارى والإماء ، وكان يتصل بهن اتصالا غير مقطوع على نحو ما أسلفنا فى الفصل الثانى ، وكل منهن تود لو استحوذت على شاعر ، وبادلته حبًّا بحب وهيامًا بهيام . وكاد أن يكون لكل شاعر طائفة من الجوارى يحففن به ، وكان منهن كثيرات يحسنّ نظم الشعر ، فكن يكتبن أبيات الغزل المثيرة على عصائبهن وثيابهن ، وقد يطارحن بعض الشعراء أبيات العشق والصبابة ، على نحو ما صوّرنا من ذلك فى غير هذا الموضع .

ومن المحقق أن هؤلاء الجوارى والقيان هن اللائى دفعن المجتمع العباسى فى بعض جوانبه إلى الفساد الخلقى ، إذ كن يَعِشْنَ فى بيوت النخاسة ، وكانت دوراً كبيرة للعبث واللهو ، ولم يكنّ يستمعن فيها إلى ما يعدل بهن إلى السيرة السوية ، إنما كن يستمعن إلى أحاديث العشق والصبوة ، ومن حولهن الشياطين الذين يستهينون

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٢/٩١ .

(٢) السول : السؤل ، وهو ما يسأله ، وخففت الهمزة للشعر .

(٣) الطول بفتح الطاء : الفضل .

بكل شىء ، بل كان منهم من ينكر أصول الدين إنكاراً غارقًا فى اللذة والمجون من أمثال بشار وأبى نواس . فطبيعى أن تسوء سيرتهن، أو على الأقل سيرة طائفة منهن ، وأن يفتح ذلك الأبواب للغزل الإباحى الذى يَدْفع إليه الجشع الجسدى والذى لا يدع فارقاً بين الإنسان والحيوان ، وهو غزل لم يكن يعرفه العرب فى العصور الماضية ، عصور الوقار والارتفاع عن دَرْك الغرائز النوعية . حقًّا عرفوا الغزل الصريح ، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ العباسيين فى الصراحة وما وراء الصراحة من الجهر بالفسوق والإثم دون رادع من خلق أو زاجر من دين .

لذلك كان طبيعيًّا أن يشيع الغزل الماجن فى هذا العصر ، وبلغ من حدّته أن شاع الغزل الشاذ بالغلمان ، فحتّى هذا الغزل المزرى بكرامة الرجل دار على كثير من الألسنة الدنسة . وقد استطاع تراث الغزل القديم أن يكبح جماح هذه الموجة المادية الحادة من بعض الوجوه ، فإن هؤلاء الشعراء الماجنين كانوا يستظهرونه ويتلونه ، وكانوا يرون فيه إكبار الرجل للمرأة وإعزازها ، بل كانوا يرون فيه حبًّا عذريًّا عفيفا ، كله تحفظ واحتشام ، وكله عذاب وآلام . فمزجوا ذلك بنداءات غرائزهم الجسدية . وأيضًا فإنه كان قد تُرجم — على ما يظهر — شىء من الحب الأفلاطونى اليونانى ، وأخذ مفكرو العرب ومتفلسفتهم يتحدثون عن العشق أحاديث فيها كثير من السمو والسعة والعمق ، على نحو ما يلقانا عند المسعودى ، إذ أورد مجلسا ليحيى البرمكى تناظر فيه نفر من المعتزلة والمتكلمين وبعض أهل الملل والنحل فى العشق وحقائقه وظواهره وعذابه وحرارته ولطافة صاحبه ورقته ورهافة شعوره[1] ، وهو حديث أو هى مناظرة دارت كلها حول العشق العفيف الطاهر الذى يستأثر بالقلوب ويملك عليها أهواءها وعواطفها ومشاعرها . وفى رأينا أن هذه المناظرة ترمز بوضوح إلى ما كان فى أيدى الشعراء من كلام عن الحب النقى البرىء بالإضافة إلى ما ورثوه عن أسلافهم وخاصة شعراء نجد العُذْريين من الحب السامى الذى يوقد فى القلوب جذوة لا تنطفئ والذى يدلع فيها جحيماً من العذاب لا يطاق . وكل ذلك سرى فى نفوس الغزلين الماجنين من العباسيين ، ومضوا يضيفون إليه من خواطرهم الثرية الخصبة ما أذكى جذوته ، ومن أجل ذلك كنت تقرأ عند بشار وأبى نواس وغيرهما

---

(١) مروج الذهب ٢٨٦/٣ .

من المجان قطعا من الحب الأفلاطونى أو قل من الحب العفيف البرىء الذى يرتفع عن المادة والحس من مثل قول أولهما [١] :

دَعَا بفراق مَنْ تَهْوَى أَبانُ ففاض الدَّمْعُ واحترق الجَنَانُ
كأَن شرارةً وقعتْ بقلبى لها فى مقلتى ودمى اسْتِنانُ [٢]
إذا أنشدتُ أَو نَسَمتْ عليها رياحُ الصَّيف هاجَ لها دُخَانُ

على أنه سرعان ما ظهر شاعر تخصص بالغزل العفيف واشتهر به هو العباس ابن الأحنف ، وسنفرد له فى الفصل السادس ترجمة خاصة . وكانوا فى غزلهم العفيف والصريح الماجن يحرصون دائماً على أن يملأوا معاصريهم إعجاباً بدقائق معانيهم وطرائف أخيلتهم ، من مثل قول بشار [٣] :

أتتنى الشمسُ زائرةً ولم تك تَبْرح الفَلَكا

وقول أبى نواس [٤] :

كأَن ثيـــابه أطلعْ نَ من أزراره قَمرَا
يزيدك وجهه حُسْنا إذا ما زدته نظرا
بعينٍ خالطَ التَّفْتيرُ من أجفانها الحَورا
وخَــدٍّ سابرىٍّ لو تصوَّب ماؤُهُ قَطرا

وقول مسلم بن الوليد [٥] :

أُقِرُّ بالذَّنْبِ منى لست أعرفهُ كيما أَقول كما قالتْ فنتَّفِقُ
حبستُ دمعى على ذَنْبٍ تجدِّده فكلَّ يوم دموعُ العين تَسْتَبِقُ

وقد اتسعت موجة المجون كما مرَّ بنا ، واتسع معها وصف الخمر ، وكان القدماء يصفونها على نحو ما هو معروف عن الأعشى وعدى بن زيد العبادى ، وأخذ

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣/٢٠٦ .
(٢) استنان : جرى شديد .
(٣) المختار من شعر بشار للخالديين ص ٦٤ .
(٤) الديوان (طبعة آصاف) ص ١٦٥ .
(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٩ .

وصفها يكثر فى أواخر عصر بنى أمية عند الوليد بن يزيد وأبى الهندىّ وأضرابهما . ونرى مجالسها ، منذ مطالع هذا العصر ، معقودة فى البصرة والكوفة ، حتى إذا قامت بغداد نافستهما فى تلك المجالس . وكانت تنبثّ حاناتها فى الكرخ ببغداد وغير الكرخ وفيما وراءه من دور النخاسة والأديرة المنثورة فى ضواحى الكوفة وعلى الطريق منها ومن البصرة إلى بغداد ، فأمّها جميعًا مجان الشعراء هم وغيرهم من عامة الفساق ، وكانوا أخلاطا ، منهم الزنديق الثائر على الإسلام وتعاليمه ، ومنهم الحزين الذى لم تحقق له الدولة أحلامه ، فأكبّ على الخمر يغرق فيها آلامه ، ومنهم المجوسى والدهرى الذى لا يؤمن بأى كتاب سماوى . وقد مضوا جميعًا يعبّون من الخمر حتى الثمالة ، وتلقانا منهم منذ أوائل العصر جماعات ألّف المجون والعشق والفسق الآثم بينهم مثل جماعة مطيع بن إياس ووالبة وحماد عجرد ويحيى بن زياد الحارثى فى الكوفة وكانوا يعبّون الخمر أرطالاً ويتغزلون الغزل المكشوف الماجن بالجوارى والغزل الشاذ الدنس بالغلمان ، متحرّرين من كل خلق وعُرْف ودين ، وفى ذلك يقول مطيع [1] :

اخلعْ عذارك فى الهوَى ... واشربْ معتّقَةَ الدِّنانِ

وصِل القبيحَ مجاهرًا ... فالعَيْشُ فى وَصْلِ القيانِ

لا يُلْهِينَّك غير مــا ... تَهْوَى فإن العُمْرَ فانِ

وتبلغ حدة هذه الموجة غايتها فى عهد الأمين ، إذ حوّل قصر الخلافة إلى ما يشبه مقصفًا للخمور والمجون ، واتخذ أبا نواس نديمه ، وكان يعكف على الخمر والمجون عكوفًا يقترن بعجيج وضجيج وهجوم على مقدمة الأطلال القديمة طالبًا إلى الشعراء أن يضعوا مكانها وصف الخمر المعتقة ، صائحًا بذلك صياحا كثيراً من مثل قوله [2] :

قُلْ لمن يبكى على رَسْمٍ دَرَسْ ... واقفاً ما ضرّ لو كان جَلَسْ [3]

تصف الرَّبْعَ ومَنْ كان بهِ ... مثل سَلْمَى ولُبَيْنَى وخَنَسْ [4]

---

(١) الديارات للشابشتى ص ١٦٦ .

(٢) الديوان (طبعة آصاف) ص ٢٩٩ .

(٣) درس : امحى .

(٤) لبينى : تصغير لبنى . وخنس : الخنساء .

اتْرُكِ الرَّبْعَ وسَلْمَى جانباً · واصْطَبِحْ كَرْخِيَّةً مثلَ القبَسْ[١]

وتردد مع هذا الصياح فى خمرياته مجاهرة بأنه يقترف ما يقترف من آثامه دون تفكير فى جنة أو نار ، ولكن من الحق أنه لم يكن زنديقاً ولا شعوبياً ، إنما كان متحلل الأخلاق ساقط المروءة ، وأكبر الظن أنه اندفع فى مجونه هروباً من واقع نشأته وواقع أمه على نحو ما سنوضح ذلك فى ترجمته ، وكأنه يريد أن ينسى ماضيه وذكرياته السيئة .

وقد انتشر فى العصر شعر الزهد ، وكان أكثر اتصالا بحياة الجماهير من شعر الخمر والمجون ، فإنها لم تكن تعرف ترفاً ولا ما يشبه الترف ، وكانت تعيش حياة دينية مستقيمة يشيع فى بعض جوانبها النسك والعبادة . وإذا كان كتاب الأغانى يفيض بالمجون فإن كتب الطبقات التى ترجمت للفقهاء والمحدثين تفيض بأخبار العبّاد والزهاد الذين رفضوا الدنيا وشهواتها وملاذها وآثروا ما يبقى على ما يفنى ، ممسكين أيديهم عن أخذ عطاء أو مال من خليفة أو والٍ . ويشيع مع هذه الأخبار كثير من الأشعار التى تصور زهد هؤلاء الناسكين وانصرافهم عن متاع الدنيا الزائل والإقبال على الآخرة بالتقوى والتوكل على الله والعمل الصالح . وقد تبعهم كثير من الشعراء يردّدون نفس النغم ، حتى شعراء المجون أنفسهم فإن منهم من كان يثوب إلى نفسه فيعاف ما تردّى فيه من فسق ومجون ، وحينئذ إما أن يقلع عن غيه إلى الأبد على نحو ما أقلع محمد بن حازم الباهلى [٢] ، وإما أن يقلع إلى حين يطول أو يقصر على نحو ما يلقانا عند أبى نواس مما جعل ديوانه يشتمل على مثل قوله [٣] :

ألا ربَّ وجْهٍ فى التراب عتيق · ويارُبَّ حُسْنٍ فى التراب رقيقِ[٤]

فقل لقريب الدار إنك راحلٌ · إلى منزلٍ نائى المحل سحيق

وما الناس إلا هالكٌ وابن هالكٍ · وذو نسبٍ فى الهالكين عريقِ

إذا امتحن الدُّنْيا لبيبٌ تكشَّفتْ · له عن عدوٍّ فى ثياب صديق

---

(١) كرخية : خمراً منسوبة إلى الكرخ ضاحية الملاهى ببغداد .

(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/١٠٥ وما بعدها .

(٣) الديوان ص ٢٩٩ .

(٤) عتيق : جميل .

وإذا كان أبو نواس شُغل فى زهدياته بمصير الإنسان فإن ابن حازم ، وغيره كثيرون ، شغلوا بالدعوة إلى القناعة بالكفاف والرضا بالحظ المقسوم والغنى عما فى أيدى الناس والحكام من مثل قوله [1] :

اضْرَعْ إلى الله لاتَضْرَع إلى الناسِ ... واقنَعْ بيأْسٍ فإن العزَّ فى الياسِ

واسْتَغْنِ عن كل ذى قُرْبى وذى رَحِمٍ ... إن الغنىَّ من استغنى عن الناسِ

وأخذت تظهر حينئذ تباشير التصوف ، غير أنه لا يزدهر فى هذا العصر ، إنما يزدهر فى تاليه ، وسنعرض لتلك التباشير فى الفصل السادس ، وأيضاً سنعود إلى الحديث عن الزهد حديثاً أكثر تفصيلا .

٤

موضوعات جديدة

رأينا موضوعات الشعر القديمة تتجدد تجدداً واسعاً فى معانيها ، فقد أخذت تُعْرَضُ بصورة أدق وأعمق ، وأخذت تدخل عليها إضافات كثيرة . ولم يقف الشاعر العباسى عند ذلك فقد أخذ ينمّى بعض جوانب هذا الشعر حتى لتخرج منه فروع جديدة كثيرة . ونحن نعرضها بترتيب الموضوعات التى تحدثنا عنها ، وأولها مثالية الشيم العربية الرفيعة التى كان يصف بها الشعراء ممدوحيهم ، فقد تناولوا هذه الشيم شيمة شيمة ، وأخذوا يفردونها بمقطوعات أو قصائد ، يجردونها لها محللين ، ومفكرين ملاحظين ، فقطعة فى تصوير الكرم ، وقطعة فى تصوير الحلم ، وقطعة فى تصوير الحياء ، وقطعة فى تصوير العفة ، وقطعة فى تصوير الصبر والتنفير من اليأس من مثل قول محمد بن يسير : [2]

لا تيأسنَّ وإن طالتْ مطالبةٌ ... إذا استعنتَ بصبرٍ أن ترى فَرَجَا

إن الأمور إذا انسدَّتْ مسالكها ... فالصبر يَفْتَحُ منها كلَّ ما ارتَتَجا [3]

---

(١) العقد الفريد ٣/٢٠٧ .

(٢) أغانى ١٤/٤٢ وقد نسبها ابن المعتز لابن حازم . انظر ص ٣٠٩ .

(٣) ارتتج : أغلق .

أَخلِقْ بذى الصبر أن يَحْظَى بحاجتِه ... ومدمن القَرْعِ للأبواب أن يَلِجَا(١)

فاطلبْ لرجلك قبل الخَطْوِ موضعَها ... فمن علا زَلَقاً عن غِرَّة زلَجا(٢)

وهيأ ذلك لفتح باب واسع من تحليل الأخلاق المحمودة . وأيضًا فإنهم وسعوا معانى الهجاء وما فيه من أخلاق مذمومة ، فتناولوها هى الأخرى بالبسط والتفصيل منفصلة عن أشعار الهجاء . وبذلك أتاحوا للمربين والمعلمين مادة طريفة لتأديب الناشئة وحثهم على الأخلاق الفاضلة وصدهم عن الأخلاق المذمومة . وقد وقفوا طويلا عند واجبات الأخوة والصداقة واختيار الإخوان والأصدقاء وسَبْر أخلاقهم قبل اصطفائهم فهم على طبقات منهم من يشبه الدواء ومنهم من يشبه الداء ، ومنهم المتصنع الملق الذى يشبه الثمرة المرّة حسنة المنظر ، فإن نزل بك سوء فر منك وازورّ عنك ، وفى ذلك يقول حماد عجرد(٣) :

كم من أخٍ لك لستَ تنكرُهُ ... ما دمتَ من دنياك فى يُسْر

متصنّعٍ لك فى مودّتِهِ ... يلقاك بالترحيب والبِشْرِ

يُطْرِى الوفاء وذا الوفاء ويَلْـ ... ـحَى الغَدْر مجتهداً وذا الغَدْرِ(٤)

فإذا عدا ـ والدّهر ذو غِيَرٍ ـ ... دَهْرٌ عليك عَدَا مع الدَّهْرِ(٥)

فارفُضْ بإجمالٍ مودّةَ منْ ... يَقْلِى المُقِلَّ ويَعْشَقُ المُثْرِى(٦)

وعليك مَنْ حالاه واحدةٌ ... فى العُسْرِ إما كنتَ واليُسْر

لا تخلطنَّهمُ بغيرهمُ ... من يَخْلِطُ العِقْيان بالصُّفْر(٧)

وحماد يجعل مقياس الأخوة الصادقة المواصلة فى العسر ، ويعرض علينا صورة الإخاء الكاذب الذى لا يعرف الأخ فيه أخاه إلا فى السراء ، أما فى الضراء فيزورُّ عنه ازوراراً . وجعلهم تفكيرهم فى الأخوة ينهون عن صحبة الحمق لما تجرُّ من بلاء كثير ،

(١) يلج : يدخل .
(٢) زلقا : مكانا زلقاً . غرة غفلة زلج : زلق وزل .
(٣) ابن المعتز ص ٦٨ وأغانى ١٤ / ٣٥٩ .
(٤) يطرى : يمدح . يلحى : يذم .
(٥) عدا الأولى من العداء والثانية من العدو أى الجرى .
(٦) بإجمال : بأدب . يقلى : يكره .
(٧) العقيان : الذهب . الصفر : النحاس .

وفى ذلك يقول أبو العتاهية :[١]

اخْذرِ الأَحمقَ أن تصحبه ... إنما الأَحمقُ كالثوب الخَلَق[٢]
كلما رقَّعته من جانبٍ ... زعزعته الريح يوماً فانْخَرَقْ
أَو كصدعٍ – فى زجاجٍ –فاحش ... هل ترى صَدْعَ زجاجٍ يلتصق
فإذا عاتبته كى يرعوى ... زاد شراً وتمادى فى الحُمُقْ

وكان الشاعر القديم كما أسلفنا يقدم لمدحته بوصف الأطلال معبراً عن حنين قوى لملاعب حبه فى صباه وشبابه ، مستطرداً من ذلك إلى وصف الصحراء ، وقد صورنا ما حدث من إضافات فى هذه المقدمات ، والمسألة تتسع ، فإذا هى توحى للشاعر العباسى بمقطوعات أو قصائد مستقلة وكأنه اتخذ منها نوافذ لموضوعات جديدة ، وهى موضوعات نجد بذورها فى مدائحه، فقد ذكرنا أنه عدل أحياناً عن وصف الأطلال إلى وصف القصور ، ولكن الذى نسجله هنا أنه ترك أطلال نجد إلى أطلال بعض القصور فى الحاضرة وخصها بمقطوعات مفردة من مثل قول محمد ابن يسير فى قصر خرب[٣] :

أَلا يا قصرُ قصرَ النُّوشَجانى ... أَرى بك بعد أَهلك ما شجانى[٤]
فلو أَغنى البلاءُ ديارَ قومٍ ... لفضلٍ منهمُ ولعُظْم شانى
لما كانتْ تُرى بك بيِّناتٍ ... تلوح عليك آثارُ الزمان

وهذا الموضوع الجديد هو الذى ألهم البحترى فيما بعد سينيته المشهورة فى إيوان كسرى . وقد دفع الحنين الذى صحب وصف الأطلال الشاعر العباسى فى بعض مدائحه إلى بَثّ حنين مقابل لوطنه وبلده حين ينأى عنه وتظل روحه ملتصقة به ، ولكن الجديد أنه أفرد لهذا الحنين قطعاً بديعة من مثل قول دعبل[٥] :

أَلمْ يأْنِ للسَّفْرِ الذين تحمَّلوا ... إلى وطنٍ قبل الممات رجوعُ[٦]

---

(١) العقد الفريد ٦/٣٥٧ .
(٢) الخلق : البالى .
(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ١٤/٣٩ .
(٤) شجانى : أحزننى .
(٥) أغانى (ساسى) ١٨/٤٤ .
(٦) يأن : يحن . تحملوا : ارتحلوا .

فقلتُ .ولم أملك سوابقَ عَبْرَةٍ ... نَطقْنَ بما ضُمَّتْ عليه ضُلوعُ
تَبَيَّنْ ، فكم دارٍ تفرّق شَمْلُها ... وشَمْلٍ شتيتٍ عاد وهْو جَميعُ
كذاك الليالى صَرْفُهنَّ كما ترى ... لكل أُناسٍ جَدْبَةٌ ورَبيع [١]

ومرَّ بنا أن الشاعر العباسى كان يحتفظ أحيانًا فى مقدمات مدائحه بوصف الصحراء وأحيانًا يتركها إلى وصف الطبيعة فى الحاضرة ببساتينها ورياحينها ، وقد أخذ يخص هذه الطبيعة بمقطوعات وقصائد كثيرة ، بحيث أصبحت موضوعاً جديداً واسعًا ، وكان يمزج نشوته بها فى بعض الأحيان بنشوة الحب أو نشوة الخمر وسماع القيان ، وفى كثير من الأحيان كان يقف عند تصوير فتنته بها وبورودها ورياحينها من مثل قول إبراهيم بن المهدى فى النرجس [٢] :

ثلاثُ عيونٍ من النَّرْجِسِ ... على قائمٍ أخْضَرٍ أمْلَسِ
يذكِّرْنَنى طِيب رَيَّا الحبيبِ ... فَيَمْنَعْنَنِى لذَّة المجلِس [٣]

وقد أكثروا من وصف الأمطار والسحب ، كما أكثروا من وصف الرياض وخاصة فى الربيع حين تتبرج الطبيعة بمناظرها الفاتنة . وعبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم أحيانا خلال هذا الوصف ، مما جعلهم يخاطبون بعض عناصرها ، وكأنها أناسىّ تحمل عواطف الإنسان ويصيبها ما يصيبه من ريب الزمان ، ومن خير ما يصور ذلك مخاطبة مطيع بن إياس لنخلتى حلوان على هذه الشاكلة [٤] :

أَسْعِدانِى يا نَخلَتَىْ حُلْوانِ ... وابْكيالى من ريْب هذا الزمان [٥]
واعلما أن رَيْبه لم يزل يَفْـ ... رُق بين الأُلَّاف والجيرانِ
ولعمرى لو ذقتما أَلم الفُرْ ... قة أبْكاكما الذى أبْكانى
أسعدانى وأيْقِنا أنَّ نَحساً ... سوف يلقاكما فتَفْتَرِقانِ
كم رمتنى صروفُ هذى الليالى ... بفراق الأَحباب والخُلَّانِ

---

(١) جدبة : المرة من الجدب وهو القحط .
(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ١٠ / ١١٥
(٣) الريا : الرائحة الجميلة .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١٣ / ٣٣١.
(٥) حلوان : من بلاد العراق فى طرفه الشمالى مما يلى إيران . أسعدانى أعينانى بالدموع .

ونرى شعراء كثيرين يعنون بوصف مظاهر الحضارة العباسية المادية وما يتصل بها من الترف فى الطعام والتأنق فى الملابس والثياب ، ووصف القصور وما حولها من البساتين وما يجرى فيها من الظباء والغزلان من مثل قول أبى عيينة المهلبى فى وصف قصر ابن عمه عمر بن حفص المهلبى [١] :

فيا طيبَ ذاك القَصْرِ قصرًا ومنزلا ... بـأَفْيَحَ [٢] سَهْلٍ غيرِ وَعْرٍ ولا ضَنْكِ

بِغَرْسٍ كأَبْكار الجوارى وتُرْبَةٍ ... كأَن ثَراها ماءُ وَرْدٍ على مِسْكِ

وسِرْبٍ من الغِزْلانِ يَرْتَعْنَ حوله ... كما استُلَّ منظومٌ من الدُّرِّ من سِلْكِ

وأكثروا من وصف الحيوان والطير والحشرات ، واشتهر بذلك خلف [٣] الأحمر وجهم [٤] بن خلف ، وفى كتاب الحيوان للجاحظ من ذلك مادة وافرة .

وعلى هذا النحو نفذ الشاعر العباسى من وصف الشاعر القديم للصحراء وحيوانها الأليف والوحشى إلى وصف بيئته بجميع مظاهرها وعناصرها الصامتة والمتحركة ، وقد وصف وصفًا دقيقًا الأمراض والآفات التى انتابته ، ويصور ذلك من بعض الوجوه قصيدة لعبد الصمد بن المعذَّل يصف فيها حمى اعترته ، وفيها يقول [٥] :

وبنتُ المنية تنتابنى ... هُدُوًّا [٦] وتطرقنى سُحْرَهْ

كأَن لها ضَرَمًا فى الحشا ... وفى كل عضوٍ لها جَمْرَهْ

لها قُدْرَةٌ فى جسوم الأَنامِ ... حباها بها الله ذو القُدْرَهْ

وطورًا أُلَقَّبها سُخْنَةً ... وطورًا أُلَقِّبها فَتْرَه

وصِرْتُ إذا جُعْتُ يومًا ظَلِلْتُ ... كأَنَّ على كبدى شَفْرَه [٧]

ويربو الطحالُ إذا ما شَبِعْتُ ... فتعلو التَّرائِبُ والصُّدْرَه [٨]

---

(١) الشعر والشعراء ص ٨٥٣ والأغانى (طبعة الساسى) ١٤/١٨ .

(٢) أفيح : أوسع ، أولعله من فاتحة الرائحة .

(٣) الحيوان ٤/٢٧٩ .

(٤) الحيوان ٣/٢٤٢ وانظر الهامش .

(٥) الوساطة بين المتنبى وخصومه (طبعة الحلبى) ص ١٢١ .

(٦) الهدو : أوائل الليل . سحرة : وقت السحر .

(٧) الشفرة : حد السيف وجانب النصل .

(٨) الصدرة : الصدر .

وأُمسى كأَنِّىَ من معدتى   لبستُ الثياب على زُكْرَةْ[١]

إذا ما رأيت امرءًا مُطْلَقاً   له الأَكلُ تخنقنى العَبْره[٢]

كأَنى فى منزلى مُخْصِباً   بِبَلْقَعَةٍ جَدْ بَةٍ قَفْرَه

وهو وصف دقيق لأثر الحمى فى الجسم وأوقاتها التى تفد فيها وآلامه مع الجوع والأكل وما يحس به فى جوفه من مرارة وحدة . وقد صور شعوره بالحرمان وغبطته الأصحاء على ما يطعمون ، وبيته حافل بألوان الغذاء ، ولكنه يشعر كأنما هو فى فلاة مجدبة .

وقد رأينا أبا تمام يخلط بعض مقدمات مدائحه بالشكوى من الزمن ونوازله ، وقد نظم هو نفسه قصائد خصها ببث شكواه من الدهر وهمومه [٣]، وشركه فى ذلك بعض الشعراء ، مما جعل هذا الباب يتسع منذ هذا العصر ويصبح أحد الموضوعات الأساسية فى دواوين الشعراء ، وخاصة دواوين العصر التالى ، إذ ساءت أحوال المجتمع وانعكست أصداء ذلك على نفسيات الشعراء وبالتالى على أشعارهم .

ومرَّ بنا اتساع الشعراء بمراثيهم حتى شملوا بها الطير والحيوان والبساتين والمدن ، وكان منهم من يبكى فى مقدمات مدائحه أحيانًا الشباب فى بيت أو أبيات قليلة. وسرعان ما رأينا القصائد تستقل بهذا الموضوع ،ومن أروعها قصيدة محمد بن حازم، وفيها يقول[٤] :

سَقْياً ورَعْياً لأَيام الشباب وإنْ   لم يبق منه له رَسْمٌ ولا طَلَلُ

ليت المنايا أصابتْنى بـأَسْهُمها   فكنَّ يبكين عهدى قبلَ أَكْتهلُ

عهدَ الشباب لقد أبقيت لى حَزَناً   ما جَدَّ ذكرك إلا جَدَّ لى ثَكَلُ[٥]

ومما استحدثوه من المراثى محللين لمشاعرهم تحليلا دقيقًا بكاؤهم حين يخبو نور البصر ، وممن أكثروا من تصوير هذه المشاعر أبو يعقوب الخُرَيْمِىّ، وكان قد أصبح ضريراً ، حين طعن فى السن ، فتحول يصور أحاسيسه ، متفجعا على عينيه

(١) الزكرة : زق الخل .
(٢) البلقعة : الفلاة .
(٣) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٧٥ ، ٣٨٠ .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١٤ / ٩٤ .
(٥) الثكل : الحزن على فقد الولد .

تفجعاً يبعث الأسى فى النفس من مثل قوله[١] :

أُصْغى إلى قائدى ليخبرنى إذا التقينا عَمَّنْ يحيِّينى
أُريد أن أَعْدِلَ السَّلامَ وأن أفصلَ بين الشريف والدُّونِ
أَسمع مالا أَرى فأكره أن أخطِئَ والسمعُ غيرُ مأمونِ
لِلهِ عينى التى فُجِعْتُ بها لو أن دهراً بها يوانينى
لو كنت خُيِّرتُ ما أخذتُ بها تعميرَ نوحٍ فى ملك قارون

وقد صوروا كثيراً من العواطف الدقيقة ، من ذلك التعاطف الرقيق بين الأب وبنيه وبناته وما يطوى فيه من الرحمة والبر والحنان ، على نحو ما يلقانا عند ابن يسير مصوراً عطفه على بنيَّة له وكيف يستأثر به ويجشمه اقتحام المصاعب من أجل سعادتها ، وكيف يحبِّبه فى الحياة خَوْفاً عليها من ذل اليتم وجفوة الأهل ، وإنه ليشفق عليها حتى من الدموع التى سترسلها حين يتأهب لمفارقة الحياة ، يقول[٢] :

لولا البُنيَّةُ لم أجزع من العَدَمِ ولم أجُبْ فى الليالى حِنْدِسَ الظُلَمِ[٣]
وزادنى رغبةً فى العيش معرفتى ذُلَّ اليتيمة يجفوها ذوُو الرَّحِمِ
أخْشَى فظاظة عَمٍّ أو جفاءَ أخٍ وكنت أخشى عليها من أذَى الكَلِمِ
إذا تذكرتُ بِنْتى حين تندبنى جَرَتْ لِعبْرَة بنتى عَبْرتى بِدَمِ

وحلَّلوا كثيراً من المشاعر ، من ذلك شعور الزوج بالغَيْرة الشديدة على زوجته وما يجر ذلك عليهما من البلاء ، وللخريمى فى ذلك مقطوعة بديعة يفرق فيها بين الغيرة المطلوبة فى حينها وبين الغيرة التى تتحول إلى ما يشبه مرضا يعزّ دواؤه ، فإذا الزوج يشك فى زوجته ، حتى ليعصف بها شكه ، فإذا هى توشك أن تتردى فى مسالك الريبة . وينصحه أن يمنحها ثقته وأن لا يشوب سلوكه بريبة ، فتسير سيرته المعوجة ويَفْسد عليه كل شىء ، وفى ذلك كله يقول[٤] :

(١) الحيوان ٣/١١٣ والشعر والشعراء ص ٨٣٠ .
(٢) ابن المعتز ص ٢٨١
(٣) العدم هنا : الموت . الحندس شدة الظلمة .
(٤) عيون الأخبار ٤/٧٩ والشعر والشعراء ص ٨٣٤ .

ما أحسن الغَيْرَةَ فى حِينها وأقْبَحَ الغَيْرَةَ فى كلِّ حين
من لم يزل متّهما عِرْسَهُ . متّبعا فيها لقول الظّنون [1]
يوشك أن يُغْرِيَهـا بالذى يخاف أن يُبْرزها للعيون
حَسْبُكَ من تحصينها .وَضْعُها منك إلى عِرْضٍ صحيحٍ ودينْ
لا تَطَّلِعْ منك على رِيبةٍ فيتبعَ المقرونُ حَبْلَ القَرِينْ

وقد صوروا تصويراً دقيقاً حياة البؤس والمسغبة التى كان يرزح تحت أثقالها جماهير الشعب ، ومن خير ما يمثل ذلك مقطوعة لأبى فرعون الساسى يصور فيها جوع عياله وكيف يبيتون فى الشتاء القارص عُراة لا يجدون ما يحميهم من هول البرد وزمهريره ، وهى تجرى على هذا النمط [2] :

وصبْيَةٍ مثل صغار الذَّرِّ سود الوجوه كسواد القِدْر [3]
جـاءهمُ البَرْدُ وهم بِشَرِّ بغير قُمْص وبغير أُزْرِ
تراهمُ بعد صلاة العَصْرِ وبعضهم ملتصقٌ بِصَدْرِى
وبعضهم ملتصق بظهـرى وبعضهم مُنْحَجِرٌ بحِجْرِى
إذا بكوا عَلَّلْتهم بالفَجْرِ حتى إذا لاح عمود الفَجْر
ولاحت الشمس خرجتُ أَسْرِى عنهم وحَلُّوا بأُصول الجُدْرِ
كأنهم خنافسٌ فى جُحْر

وقد أسلفنا فى حديثنا عن الحياة الاجتماعية ولع الخلفاء بالصيد ، وكيف كانوا يخرجون إليه فى مواكب حافلة ، ومعهم البزاة والصقور والكلاب ، وتبعهم فى هذا الصنيع الوزراء وعِلْيَةُ القوم . وقد نظم الشعراء فى هذه المتعة الرياضية أراجيز كثيرة سموها الطرديات ، وأكثر من النظم فيها أبو نواس ، وأحسن غاية الإحسان فى وصف الكلاب « لأنه كان قد لعب بها زماناً وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب » . وحقا سبقه فى هذا الموضوع بعض شعراء العصر الأموى من مثل الشمردل

(١) الظنون : سيء الظن .
(٢) ابن المعتز ص ٣٧٧ وانظر كتاب الورقة لابن الجراح (طبع دار المعارف) ص ٥٤ .
(٣) الذر : النمل .

وأبي نُخَيْلة ، ولكنه هو الذى مدَّ طُنُبه وفتح أبوابه ، لا من حيث كثرة ما نظمه فيه فحسب ، بل أيضًا من حيث دقة وصفه لأدواته وجوارحه مما جعل الجاحظ ينوِّه بطردياته طويلا فى الجزء الثانى من كتابه « الحيوان » وقد أنشد منها طائفة معجَبًا ببراعته وحذقه ، من مثل قوله فى إحداها [١] :

ما البرقُ فى ذى عارضٍ لمَّاحِ ولا انقضاضُ الكوكبِ المُنْصاحِ [٢]
ولا انبتاتُ الدَّلْوِ بالمَتَّـاحِ أجدُّ فى السُّرْعة من سِرْياحِ [٣]
يطير فى الجوِّ بلا جَناحِ يفترُّ عن مثل شَبَا الزِّماحِ [٤]
فكم وكم ذى جُدَّةٍ لَيَاحِ ونازبٍ أعْفَرَ ذى طِماحِ [٥]
غادره مضرَّجَ الصِّفاحِ [٦]

وكانت مجالس الخلفاء والوزراء والأمراء تعنى بالنوادر والفكاهات ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، وهيَّأ ذلك لشيوع روح الهزل فى بعض المقطوعات والقصائد ، وكانوا أحيانًا يختارون لذلك بعض القصائد التى اشتهرت بقوتها الحماسية مثلا ، فيقلبونها فى الدعوة إلى اللهو والتواصى بشرب الخمر [٧] ، وأحيانًا يختارون موضوعًا جادًّا ، كقصة العشق العذرى الذى كان يفضى بأصحابه — كما يقول القصاص — إلى الجنون أو الموت ، فيجرونه على لسان حمار أحب ومات عشقًا ، مما نلقاه عند بشار ، فقد ذكر الرواة أنه مات له حمار ، فانتظر حتى اجتمع إليه رفاقه ، فأظهر لهم أنه مغموم محزون ، وألحوا عليه يريدون أن يعرفوا سبب حزنه وغمه ، فقال لهم : إنى رأيت حلمًا مزعجًا : رأيت حمارى فى النوم فقلت له : ويلك ! مالك متَّ ؟ قال : إنك ركبتنى يوم كذا فمررنا على باب

---

(١) الحيوان ٢/٦٨ .
(٢) العارض: السحاب . المنصاح: المضىء.
(٣) انبتات الدلو : انقطاعها وهويها . المتاح : الذى يستقى بالدلاء . وسرياح : اسم الكلب الذى يصفه .
(٤) شبا الرمح : حده .
(٥) ذو الجدة : حمار الوحش ، والجدة : الخطة السوداء فى ظهره . لياح : أبيض . النازب الظبى . الأعفر : مايعلو بياضه حمرة . طماح : جماح .
(٦) الصفاح : الجوانب . يريد أنه تركه مضرجاً بدمائه .
(٧) ابن المعتز ص ٢٢٧ .

الأصبهانى فرأيت أتانا عند بابه ، فعشقتها فمتّ . وزعم بشار أنه أنشده هذه المقطوعة :

سَيِّدى ! مِلْ بعِنانى نحو باب الأصْبهانى
إنَّ بالباب أتاناً فضلتْ كلَّ أتانِ
تيَّمتْنى يوم رُحْنا بثناياها الحِسان
تيَّمتْنى ببَنانٍ وبدَلٍّ قد شَجانى
وبحُسْنٍ ودَلالٍ سَلَّ جسمى وبَرانى
ولها خَدٌّ أسِيلٌ مثلُ خَدِّ الشَّيْفَران
فبِها مِتُّ ولو عِشْتُ إذن طال هَوانى

فقال له أحد جُلسائه : ما الشيفران ؟ قال : ما يُدْريني هذا من غريب الحمير ! فإذا لقيتم حماراً فسلوه[١] . ولعلهم لم يكثروا من التندير على شيء كما أكثروا من التندير على اللِّحَى ، وكان كثير من أهل الوقار يطيلونها ويعرِّضونها جدًّا ، فتندَّر عليهم الشعراء طويلا من مثل قول مروان بن أبى حفصة فى لحية شيخ يسمى رَباحا[٢] :

لقد كانت مجالسُنا فِساحاً فضيَّقهـا بلحْيته رَباحُ
مبعثرةُ الأسافل والأعالى لها فى كلِّ زاويةٍ جَناحُ

ولم نتحدث حتى الآن عن فن استحدثه الشعراء العباسيون ، ولم تكن له أى أصول قديمة ، ونقصد فن الشعر التعليمى الذى دفع إليه رقى الحياة العقلية فى العصر ، فإذا نفر من الشعراء ينظمون بعض القصص أو بعض المعارف أو بعض السير والأخبار . ومن أوائل ما يلقانا من ذلك تحدث صفوان الأنصارى فى أشعاره عن فضل الأرض وما تحمل من كنوز ومعادن كريمة[٣] . ولا ريب فى أن أبان ابن عبد الحميد هو الذى عمل على إشاعة هذا الفن الشعرى الجديد ، فقد نظم فيه

(١) أغانى ٣/٢٣١ والعقد الفريد ٦/٤٤٢ .
(٢) عيون الأخبار ٤/٥٦ .
(٣) البيان والتبيين ١/٢٧ وما بعدها .

تاريخاً وفقهاً وقصصاً كثيراً[١] ، فأما التاريخ فنظم فيه سيرتى أردشير وأنوشروان ، وأما الفقه فنظم فيه الأحكام المتعلقة ببابى الصوم والزكاة ، وصنع قصيدة فى مبدأ الخلق وضمنها شيئاً من المنطق . وأهم من ذلك كله أنه نظم فى القصص كتاب كليلة ودمنة فى أربعة عشر ألف بيت . وفى كتاب الأوراق للصولى قطعة كبيرة من منظومته الفقهية وقطع أخرى من نظمه لكليلة ودمنة ، ونراه يستهلها بقوله[٢] :

هذا كتابُ أَدَبٍ ومِحْنَهْ ... وهو الذى يُدْعَى كليله دِمْنَهْ

فيه دلالاتٌ وفيه رُشْدُ ... وهو كتابٌ وضعته الهِنْدُ

فوصفوا آداب كلِّ عالَمِ ... حكايةً عن أَلْسُنِ البهائمِ

فالحكماءُ يعرفون فَضْلَهُ ... والسخفاءُ يشتهون هَزْلَهُ

وهو على ذاك يسيرُ الحفظِ ... لذٌّ على اللسان عند اللَّفْظ

ويتأثره ابنه حمدان فى هذا الضرب من الشعر التعليمى فينظم مزدوجة طويلة مسرفة فى الطول يصف فيها الحب وأهله وطبيعته وصوره المختلفة. وعلى قَبَسٍ من عمل أبان ينظم أبو العتاهية مزدوجته التى سماها « ذات الأمثال » وهى — كما يتضح من اسمها — حكم وأمثال ، ويقال إنها كانت تبلغ أربعة آلاف بيت . وقد أنشد أبو الفرج فى ترجمته قطعة منها ، ومن قوله فى تضاعيفها[٣] :

حَسْبُكَ مما تَبْتغيه القوتُ ... ما أكثر القوتَ لمن يموتُ

لكل ما يُؤْذى — وإن قَلَّ — أَلَمْ ... ما أطولَ الليلَ على مَنْ لم يَنَمْ

ما انتفع المَرْءُ بمثل عقلهِ ... وخيرُ ذُخْرِ المرءِ حُسْنُ فعلهِ

إن الفساد ضِدُّه الصلاحُ ... وربَّ جِدٍّ جَرَّه المُزَاحُ

واقتفى محمد بن إبراهيم الفزارى أثر أبان ، فنظم فى علم النجوم مزدوجة طويلة ، يقول ياقوت إنها كانت تدخل فى عشرة مجلدات ، وقد بناها من ثلاثة أقفال أو

---

(١) انظر ترجمة أبان فى كتاب الأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء) وفى الأغانى (طبع الساسى) ٢٠/٧٣ .

(٢) الأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء) ص ٤٦ .

(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ٤/٣٦ .

ثلاثة شطور، ثلاثة شطور، على هذا النمط[١]:

الحمد لله العلىّ الأعظم ذى الفضل والمجد الكبير الأكرم
الواحدِ الفرْد الجواد المنعمِ

الخالقِ السَّبْعَ العُلا طِباقا والشَّمْسَ يجلو ضَوْءُ ها الإغساقا[٢]
والبَدْرَ علاُ نورهُ الآفاقا

ودخلت شعاعات من هذا الفن التعليمى الجديد إلى بيئات الأخباريين، فإذا الأصمعى ينظم قصيدة طويلة فى ذكر الملوك والجبابرة الهالكين والأمم الخالية البائدة[٣] وتتكاثر هذه الشعاعات فى بيئات المتكلمين، فإذا معْدان الأعمى الشيعى الشُّمَيْطِىُّ أحد متكلمى الشيعة الإمامية ينظم قصيدة طويلة فى أصناف الشيعة وعقائدهم، مقدماً عليهم فرق الشميطية الغالية[٤]. ولعل متكلماً لم ينظم فى هذا الفن كما نظم بشر بن المعتمر المعتزلىّ المشهور، فقد أكثر من النظم فى الردّ على أصحاب المقالات والنحل المختلفة، وقد ساق له الجاحظ فى الحيوان قصيدتين طويلتين[٥] يمكن أن يدخلا من بعض الوجوه فى علم التاريخ الطبيعى إذ تحدث فيهما عن الحشرات وأصناف الحيوانات، وما يتجلّى فيها جميعاً من حكمة الله البالغة فى خلقه العجيب. ومن نمطهما قصيدة الحكم بن عمرو البَهْرانىّ فى غرائب الخلق[٦] وقصيدة هرون مولى الأزد فى وصف الفيل وصورة خلقه وتركيبه[٧].

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور النشاط العقلى والفنى للشاعر العباسى وكيف كان يحرص على التجديد، فهو يشتق من الشعر القديم موضوعات جديدة لمقطوعاته وقصائده، ولا يكتفى بها، بل ما زال يكتشف موضوعات أخرى، تلهمه بها بيئته الحضارية وحياته العقلية الراقية، ولم يلبث أن اهتدى إلى الشعر التعليمى، فسجّل فيه كثيراً من القصص والتاريخ والدين والعلم والحكمة.

(١) معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ١٧/١١٨
(٢) السبع: هى السموات السبع. طباقاً: لمطابقة بعضها بعضاً. الإغساق: الظلام.
(٣) الحيوان ٦/١٤٩.
(٤) الحيوان ٢/٢٦٨ والبيان والتبيين ١/٤٣، ٣/٧٥، ٣٥٦.
(٥) الحيوان ٦/٢٨٤، ٢٩١.
(٦) الحيوان ٦/٨٠.
(٧) الحيوان ٧/٧٦.

٥

التجديد فى الأوزان والقوافى

سبق أن تحدثنا فى كتاب « العصر الإسلامى » عن مدى ما أثّر به الغناء المستحدث حينذاك فى موسيقى الشعر وألحانه، إذ ساد فيه نَظْمُ المقطوعات القصيرة فى الغزل وأخذ الشعراء يصفّون موسيقاهم حتى غدت بعض تلك المقطوعات أنغاماً خالصة: نغمة حلوة بجانب نغمة حلوة. وقد مضى شعراء الغزل يَعْدلون غالباً عن النظم فى الأوزان الطويلة المعقدة إلى النظم فى الأوزان الخفيفة البسيطة، فإن ألموا بالأوزان الأولى جزّءوها غالباً حتى تحمل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام مجهورة أو مهموسة، ومن أجل ذلك أكثروا فيها من الخروق أو بعبارة أخرى من الزحافات، إكثارا نفذ منه الوليد بن يزيد إلى استكشاف وزن المجتثّ وصُنْع بعض المقطوعات فيه.

وانتقلت موجة هذا الغناء فى أواخر العصر الأموى إلى الكوفة، حتى إذا كان العصر العباسى الأول بلغت فى مدن العراق كلّ ما كان يُنْتَظَرُ لها من حدة وقوة، فمن جهة صُفِّيَتْ لغة الشعر وبلغت كل ما يمكن من رشاقة وعذوبة ونعومة على نحو ما مرّ بنا فى أوائل هذا الفصل، ومن جهة ثانية اتسعت الملاءمات الموسيقية العروضية مع الغناء، فإذا القصيدة الطويلة تكاد تختص بالشعر الرسمى: شعر المديح والرثاء، بينما تشيع المقطّعات فى الغزل والهجاء والمجون والزهد والحكم. ومضى الشعراء ينظمون — على هدى الشعراء الأمويين — فى الأوزان الخفيفة والمجزوءة وفى وزن المجتث الذى اقترحه الوليد بن يزيد، ومِنْ خير مَنْ يمثّل ذلك مطيع بن إياس الكوفى فإننا حين نتصفح الشعر المبثوث فى ترجمته بكتاب الأغانى نجد كثْرته من مجزوءات الخفيف والبسيط والرجز والكامل والرمل أو من الهزج أو من المجتث على شاكلة قوله[١] :

ويلىَ ممّن جَفَانى وحبُّه قد بَرانى

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/٢٩٢ .

وَطيفُــهُ   يلقـــانى   وشَخْصُــهُ   غيرُ   دانى
أغرُّ   كالبدر   تَغْشَى   بحسنـــه   العَيْنانِ

ولم يلبث الشاعر العباسى أن حاول النفوذ إلى أوزان جديدة ، وإذا هو يكتشف وزنين سجلهما الخليل بن أحمد حين وضع نظرية العروض ، وهما وزنا المضارع والمقتضب ، أما المضارع فأجزاؤه مفاعيلن فاع لاتن مفاعيلن ، ودائماً تُحْذَفُ فيه التفعيلة الأخيرة ، ومنه مقطوعة أبى العتاهية [1] :

أيا عُتْبَ ما يضرُّ   كِ أن تطلقى صِفادى [2]

وأما المقتضب فأجزاؤه مفعولات مستفعلن مستفعلن ، وتُحْذَفُ منه التفعيلة الأخيرة أيضًا ، كما يلقانا عند أبى نواس فى مقطوعته [3] :

حاملُ   الهَوَى   تَعِبُ   يستخفُّــه   الطَّربُ
إن   بكى   يحقُّ   له   ليس   ما   به   لَعِبُ

وواضح أن هذا الوزن أكمل نغماً وإيقاعاً من سابقه ، ولعل ذلك هو الذى جعله يشيع ويتداوله الشعراء ، بينما كادوا يهملون المضارع . واكتشف الشـــاعر العباسى أيضًا وزن المتدارك أو الخبب ، ويقال إن الخليل لم يسجله فى عروضه ، إنما سجله تلميذه الأخفش [4] ، ولكنه إن كان لم يقترح له اسما فإنه عرفه ونظم منه أشعارًا مختلفة [5] ، من مثل :

أبكيتَ على طَلَلٍ طَرَباً   فشَجاك وأحزنك الطَّلَلُ

ومثل :

ليس المرءُ الحامى أَنْفاً   مثلَ المرء الضَّيمْ ِ الراضى [6]

---

(١) الفصول والغايات لأبى العلاء ص١٣٢ .
(٢) الصفاد : القيد .
(٣) الديوان ص ٣١٦ .
(٤) شرح الدمنهورى على الكافية (طبع مكتبة محمود توفيق) ص ٣٩ .
(٥) إنباه الرواة ٣٤٢/١ وانظر مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى ص ٣٢ .
(٦) الحامى أنفا : العزيز الأبى . الضيم : الذليل .

وبذلك وضع للشاعر العباسى منه نماذج كى يحاكيها ، وكان أولَ مَن بادر إلى محاكاته — فيما نظن — أبو العتاهية فله على نسق مقطوعته الثانية بيتان نظمهما فى بعض القضاة على هذه الشاكلة[١] :

همٌّ القاضى بَيْتٌ يُطْرِبْ قال القاضى لما طولِبْ
ما فى الدنيا إلا مُذْنِبْ هذا عُذْر القاضى واقلبْ

والحق أن الخليل اكتشف للشعراء أوزاناً جديدة كثيرة لم يستخدمها أسلافهم ، وذلك أنه — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — استضاء بفكرة التباديل والتوافيق الرياضية فى وضع عروض الشعر ، إذ جعل أوزانه تدور فى خمس دوائر أو بعبارة أدق تدور أجزاؤها من الأسباب والأوتاد ، فإذا هو يحصى الأوزان التى استخدمها العرب واضعاً لها ألقابها ويحصى أو يستنبط أوزاناً أخرى مهملة لم يستخدموها فى أشعارهم ، كى ينفذ منها الشاعر العباسى إلى ما يريد من تجديد فى أوزان الشعر وبحوره . وكان من أوائل من استغلوا صنيعه تلميذه عبد الله بن هرون بن السَّمَيْدع البصرى ، وفيه يقول أبو الفرج : « أخذ العروض عن الخليل بن أحمد ، فكان مقدَّما فيه وانقطع إلى آل سليمان بن على ، وأدَّب أولادهم ، وكان يمدحهم كثيراً . وكان يقول أوزاناً من العروض غريبة فى شعره ، ثم أخذ ذلك عنه ونَحا نحوه فيه رُزَيْن العَرُوضى ، فأتى فيه ببدائع جمَّة ، وجعل أكثر شعره من هذا الجنس »[٢] . ولم يصلنا من شعره سوى قصيدة واحدة احتفظ بها ياقوت فى معجمه ، وهى فى مديح الحسن بن سهل وزير المأمون ، وأولها :

قَرَّبوا جمالهمُ للرحيل غُدْوَةً أَحبَّتك الأَقربوك
خَلَّفوك ثم مضوا مدلجين مفرداً بهمِّك ما ودَّعوك[٣]

وإذا أنعمنا النظر فيها وجدناها تجرى على وزن من أوزان الخليل المهملة ، هو عكس وزن المنسرح ، فوزنها مفعولات مستفعلن فاعلن . وربما كان أهم شاعر

---

(١) المسعودى ٣/٣٦٠ .
(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ١٦٠/٦٦ .
(٣) مدلجين : سائرين ليلا .

نابه عُنى بصنع أشعار على تلك الأوزان المهملة ، هو أبو العتاهية ، فقد روى له ابن قتيبة قوله [١] :

للمنون دائراتٌ يُدِرْن صَرْفَها   هُنَّ ينْتَقِيننا واحداً فواحدا

وقوله :

عُتْبَ ما للخيال خبِّرينى ومالى   لا أراه أتانى زائرًا مُذْ ليالى

ووزن البيت الأول فاعلن مستفعلن مرتين فهو عكس البسيط بينما وزن البيت الثانى فاعلن فاعلاتن مرتين وهو عكس وزن المديد . والوزنان جميعًا من الأوزان المهملة التى تستنبط من دوائر الخليل . على أنه ينبغى أن نعرف أن هذه الأوزان المهملة التى استخدمها أبو العتاهية ورزين وابن السميدع لم تشع على ألسنة العباسيين ، وكأنهم أحسوا نقص أنغامها وإيقاعاتها بالقياس إلى الأوزان المستعملة . وينسب إلى هذا العصر وزن شعبى هو وزن « المواليا » ويقال إن سبب ظهوره أن الرشيد منع الناس من رثاء البرامكة ، فلم يجرءوا على رثائهم ، ولكن جارية لجعفر بن يحيى البرمكى بكته فى أشعار نظمتها من هذا الوزن بالعامية ، وكانت تختمها بكلمة « يامواليه » غير أن هذه القصة — فيما يظهر — أسطورة إذ لم يثبت أن الرشيد منع الشعراء من رثاء البرامكة ، وفى كتب الأدب من مراثيهم أشعار كثيرة . ولعل مما ينقضها نقضًا أن ابن تغرى بردى أنشد مواليا للعتَّابى شاعر البرامكة والرشيد على هذا النمط [٢] :

يا ساقياً خُصَّنى بما تهواهُ   لا تمزج أقداحى رعاك الله

دَعْها صِرْفاً فإننى أمزجها   إذ أشربها بذكر من أهواه

وكأن المواليا لم تبدأ عامية ملحونة ، وإنما بدأت فصيحة ، ثم تحولت إلى العامية ، إذ ازورّ عنها شعراء الفصحى كما ازورُّوا عن الأوزان المهملة السابقة .

وعلى نحو ما جدّدوا — لهذا العصر — فى الأوزان جدّدوا فى القوافى مستحدثين ما سموه باسم المزدوج والمسمَّطات ، أما المزدوج فالقافية فيه لا تطرد فى الأبيات ، بل تختلف من بيت إلى بيت ، بينما تتحد فى الشطرين المتقابلين ، وعادة تُنْظم من

---

(١) الشعر والشعراء ص ٧٦٦ .

(٢) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢/ ١٨٦

بحر الرجز . وتُنْسَبُ إلى الوليد بن يزيد منظومة من هذا الطراز صاغ فيها خطبة من خطب يوم الجمعة[١] ، وإذا صح ذلك كان هو أول من استحدثه ، ثم تلاه العباسيون وفى مقدمتهم بشار ، إذ نعته الجاحظ بأنه صاحب مزدوج[٢] ، وإن كنا لا نجد منه أمثلة فيما طُبع من ديوانه . وبمجرد أن ظهر الشعر التعليمى ازدهر هذا الضرب الجديد ، إذ صاغ أبان بن عبد الحميد فيه كل ما نظمه من قصص وتاريخ وعلم ودين ، وكذلك صنع محمد بن إبراهيم الفزارى فى مزدوجته الفلكية ، وإن جعل وحدتها ثلاثة شطور لا شطرين . وقد نظم أبو العتاهية من هذا النمط الجديد مزدوجته « ذات الأمثال » وسبق أن اقتبسنا منها أبياتاً . ويقول الجاحظ إنه لم يكن أحد أقْوَى على النظم فى المزدوج من بشر بن المعتمر وإنه كان أقدر فيه من أبان بن عبد الحميد[٣] ، وقد روى له فى الحيوان مزدوجة طويلة ، فى تفضيل على بن أبى طالب والرد على الخوارج[٤] . وللرقاشى مزدوجة طويلة فى المجون والخلاعة[٥] وكذلك لبكر بن خارجة مزدوجة فى أعياد النصارى وشرائعهم وأديرتهم[٦] . ونرى الفرس حين يعودون إلى لغتهم ويحدثون نهضتهم الأدبية يستخدمون هذا الضرب من الشعر فى قصصهم متخذين له اسما جديداً هو « المثنوى » . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه هو الذى رشح لظهور الرباعيات فى الأدبين العربى والفارسى ، وهى تتألف من أربعة شطور ، تتفق أولها وثانيها ورابعها فى قافية واحدة ، أما الشطر الثالث فقد يتخذ نفس القافية وقد لا يتخذها ، من مثل قول بشار مازحاً مع جاريته ربابة[٧] :

ربابَةُ رَبَّةُ البَيْتِ تَصُبُّ الخَلَّ فى الزَّيْتِ
لها عَشْرُ دَجاجاتٍ وديكٌ حَسَنُ الصَّوْتِ

ويروى أن حماد عجرد صاغ من هذا النمط الرباعى أشعاراً مزاوجة كان يقرأ بها الزنادقة من أمثاله فى صلاتهم[٨] ، ومما يروى من رباعياته غير الدينية قوله

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ٧/٥٧ .
(٢) البيان والتبيين ١/٤٩ .
(٣) أمالى المرتضى ١/١٨٧ .
(٤) الحيوان ٦/٤٥٥ .
(٥) ابن المعتز ص ٢٢٦ .
(٦) أغانى (طبعة الساسى ٢٠/٨٧ .
(٧) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣/١٦٣ .
(٨) أغانى ١٤/٣٢٤ .

يهجو غيلان جد عبد الصمد بن المعذّل ، وكان على أعشار البصرة وظهرت منه خيانة[١] :

ظهر الأمير عليك يا غَيْلانُ إذ خُنْتَهُ إن الأمير مُعانُ
أمع الدمامةِ قد جمعتَ خيانةً قَبُحَ الدميمُ الفاجر الخَوّان

وتكثر الرباعيات فى ديوان أبى نواس وخاصة فى الخمريات والغزل[٢] ، ونستبعد أن تكون مقتطعة من مطالع قصائد له ضاعت ، لكثرتها عنده ، ومن أمثلتها الطريفة قوله[٣] :

أدرِ الكأسَ وأعْجِلْ مَنْ حَبَسْ واسْقِنا مالاح نَجْمٌ فى الغَلَسْ[٤]
قَهْوَةً كَرْخِيَّـــةً مشمولةً تنفض الوحشةَ عنا بالأَنَسْ[٥]

ومن يرجع إلى تراجم الشعراء فى الأغانى يجد منها أمثلة كثيرة ، وممن كان يكثر منها — فيما يظهر — أبو العتاهية سواء فى الغزل أو فى الزهد، من مثل قوله فى الموت الدائر على جميع الناس[٦] :

الموتُ بين الخلق مُشْتَرَكُ لا سوقةٌ يَبْقَى ولا مَلِكُ
ما ضَرَّ أصحابَ القليل ومـــا أغنى عن الأملاك ما ملكوا

والمسمّطات قصائد تتألف من أدوار ، وكل دور يتركب من أربعة شطور أو أكثر، وتتفق شطور كل دور فى قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية مغايرة ، وفى الوقت نفسه يتحد فيها مع الشطور الأخيرة فى الأدوار المختلفة ، ومن أجل ذلك يسمى عمود المسمط فهو قطبه الذى يدور عليه . وإنما سُمِّى مسمطا من السمط وهو قلادة تُنْظَم فيها عدة سلوك تجتمع عند لؤلؤة أو جوهرة كبيرة ، وكذلك كل دور فى المسمط يجتمع مع الأدوار الأخرى فى قافية الشطر

---

(١) أغانى ١٤/٣٦٢ .
(٢) راجع الديوان ص ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٨١ ، ٢٤٨ ، ٢٨٦ ، ٣٩٨ ، ٤٢٧ ، ٤٣٥ .
(٣) الديوان ص ٢٩٩ .
(٤) حبس : انتظر وتلبث . الغلس : الظلام .
(٥) كرخية : نسبة إلى الكرخ ضاحية اللهو والمجون ببغداد . مشمولة : فائحة الرائحة.
(٦) أغانى ٤/٩٨ وانظر فى رباعيات له أخرى الأغانى ٤/٢٠ ، ٦٩ ، ٨١ ، ٩١ ، ٩٧ ، ١١٠ .

الأخير . ومن أمثلة المسمط المربع خمرية لأبى نُواس تتوالى على هذا النمط[١] :

سُــلافُ دَنٍّ كشمسِ دَجْنِ[٢]
كدَمْــعِ جَفْنِ كخمــرِ عَدْنِ
طبيخ شَمْسِ كلــون وَرْسِ[٣]
رَبيبُ فُــرْسِ حليف سِجْنِ
يا من لحانى عــلى زمانى
اللهــو شانى فــلا تَلُمْنى

وواضح أنه بنى شطورها على تفعيلة واحدة . وكان شيوع المسمطات المخمسة أوسع من شيوع أختها المربعة ، واشتهر بشار بنظمه ابعض المخمسات[٤] ، ويقول الجاحظ إنه لم يكن أحد أقوى على صنع المخمسات من بشر بن المعتمر[٥] ، وقد أنشد الدميرى لأبى نواس مخمسا ختمه بهذا الدور[٦] :

ياليلةً قضيتها حُلْوَهْ مرتشفاً من ريقها قَهْوَهْ
تُسْكِر مَنْ قد يبتغى سَكْرَهْ ظننتها من طِيبها لَحْظَهْ
يا ليت لا كان لها آخِرْ

وقد اختار لآخر المخمس — كما هو واضح — صيغة يبدو من تركيبها أنها عامية ، وكأنه هو الذى ألهم الوشاحين الأندلسيين أن يختموا بعض موشحاتهم بأقفال عامية . ونفس الموشحات نجد صورة تقترب منها اقتراباً شــديداً سواءمن حيث الأدوار والمراكز أو الأقفال ، إذ يُنْسَبُ لديك الجن صُنْعه لمنظومة على هذا النحو[٧] :

قولى لطيفك ينثنى عن مضجعى عند المنامْ

(١) الديوان ص ٣٤٦ .
(٢) دجن : غيم .
(٣) الورس : نبات زهره أصفر .
(٤) العمدة لابن رشيق ١/ ١٢٠ .
(٥) أمالى المرتضى ١/ ١٨٧ .
(٦) حياة الحيوان الكبرى للدميرى (طبعة بولاق) ١/ ٩٦ .
(٧) خزانة الأدب للحموى (طبعة بولاق) ص ٩٧ .

عَند الرُّقادْ عند الهجوعْ عند الهجودْ عند الوسنْ
فعسى أَنامُ فتنطفى نارٌ تأَجَّجُ فى العظامْ
فى الفوادْ فى الضلوعْ فى الكبـودْ فى البدنْ
جسدٌ تُقَلِّبه الأَكُـفُّ على فراش من سقام
من قَتـادْ من دموعْ من وَقـودْ من حزنْ
أما أنا فكما علمـ ـتِ فهل لوصلك من دوامْ
من مَعادْ من رجوعْ من وجـودْ من ثَمنْ

وواضح أن هذه المنظومة نشأت من فكرة بسيطة هى تكرار قافية البيت بروى جديد ، وكأنما وقعت هذه المنظومة لمقدم بن معافى القبرى الأندلسى شاعر الأمير عبد الله بن محمد المروانى (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) فنظم على نمطها بعض منظوماته إعجابا بها ، واستحسانًا لها . وكُتب لهذا النمط أن يشيع بعده فى الأندلس باسم الموشحات وأن يسكب الوشاحون فيه من الأنغام ما يمتع الأسماع والأفئدة .

الفصل الخامس

أعلام الشعراء

بشار [١]

وُلد بشار بن بُرْد بن يَرْجوخ[٢] بالبصرة لأوائل العقد العاشر من القرن الأول للهجرة . وجَدّه يرجوخ من طُخارُسْتان ممن سَباهم المهلب بن أبى صفرة والى خراسان (٧٩ — ٨١هـ) . ومن أجل ذلك نشأ ابنه بُرْد على الرقّ . وكان أولا فى عداد رقيق خيرَة القُشَيْرية امرأة المهلب ، ثم وهبته لامرأة من بنى عُقَيْل ، وفى ملكها وُلد له بشار على الرق ، ولم تلبث العُقَيْلية أنْ أعتقت بُرْدًا . وبذلك عُدَّ هو وابنه فى موالى بنى عُقَيْل . وقد نسب نفسه من جهة أمه إلى الروم ، إذ يقول[٣] :

وقيصرٌ خالى إذا عددتُ يوماً نَسَبى

وإن صح ذلك كان فارسىّ الأب رومى الأم ، وقد ذكرها حماد عجرد فى بعض أهاجيه لبشار باسم غزالة[٤] ، وقد ولدته أعمى فما نظر إلى الدنيا قط ، وفى ذلك يقول[٥] :

---

(١) انظر فى بشار وترجمته الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣٥/٣ ، ٢٤٢/٦ والشعر والشعراء ص ٧٣٣ وابن المعتز ص ٢١ وتاريخ بغداد ١١٢/٧ والمختار من شعر بشار للخالديين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) والموشح للمرزبانى ص ٢٤٦ ونكت الهميان (طبعة المطبعة الجمالية بالقاهرة) ص ١٢٥ ومرآة الجنان لليافعى ٣٥٤/١ وشذرات الذهب ٢٦٤/١ وابن خلكان ومراجعات فى الآداب والفنون للعقاد ص ١١٩ وحديث الأربعاء لطه حسين ٢٣٢/٢ وكتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (طبع دار المعارف) ص ١٤٨ وكتاب بشار بن برد للمازنى (طبع عيسى الحلبى) وبشار ابن برد لعمر فروخ (طبعة بيروت) وبشار بن برد لطه الحاجرى (طبع دار المعارف) . وقد طبع من ديوانه ثلاثة أجزاء بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) ذهب بعض الرواة إلى أن اسم جده بهمن . انظر الأغانى ١٣٥/٣ .

(٣) الديوان ٣٧٧/١ .

(٤) الحيوان ٣٥٤/١ ، ٤٥٣/٤ .

(٥) أغانى ١٤٢/٣ .

عميتُ جَنِيناً والذكاء من العَمَى فجئتُ عجيبَ الظَّنِّ للعلم موئلا

وكان أبوه طَيَّانا يعيش من ضَرْبِ اللَّبِنِ معيشة تقوم على الشظف ، ويقال إنه كان له أخوان : بشر وبشير ، وكانا قَصَّابين يبيعان اللحم ، ولم يكونا سَوِيَّيْن إذ كان أحدهما أعرج والآخر أبْتَر اليد .

وحدَّدَتْ آفة بشار حياته منذ نعومة أظفاره ، فاتجه إلى المساجد وإلى مِرْبَد البصرة ينهل من حلقات العلم والشعر ، وأعانته نشأته فى بنى عُقَيْل على أن يتمثل السليقة العربية . ولم يكد يبلغ العاشرة حتى أخذ ينبوع الشعر يسيل على لسانه . وكان الهجاء حينئذ يضطرم فى موطنه اضطراما لا بين جرير والفرزدق فقط ، بل بين جميع الشعراء ، فكان طبيعيًّا أن يكون أول موضوع ينظم فيه الغلام . ويقال إن أباه كان يضربه بسببه ضربًا مبرحا لكثرة ما يشكو الناس منه ، وكانت أمه لا تزال تستعطفه عليه ، فيقول : إنى لأرحمه ، ولكنه يتعرض للناس ، فقال له بشار : قُلْ لهم : أليس الله يقول : (ليس على الأعمى حَرَجٌ) . وعادوا إلى برد يرددون شكواهم ، فتَلا عليهم الآية الكريمة ، فانصرفوا وهم يقولون : فِقْهُ بُرْدٍ أغْيَظُ لنا من شعر بشار . واشتد ببشار طموحه إلى إتقان العربية ، فيمم نحو البادية ، فأقام فيها فترة مكَّنت له فى عربية لسانه وفقهه الدقيق باللغة وشئون البادية .

وعاد إلى البصرة يكثر من الاختلاف إلى حلقات المتكلمين ومجالسهم ، كما يكثر من النظم فى المديح وغير المديح ، ومن أقدم مدائحه ما نظمه فى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق لسنة ١٢٦ للهجرة[١] . ولما خطب واصل بن عطاء رأس المعتزلة بين يدى هذا الوالى مع بعض الخطباء البلغاء أشاد به وببيانه طويلا[٢] ، مما يدل على أن صلة وثيقة كانت منعقدة بينهما ، وفى الأغانى أنه كان يحضر مجالسه ويستمع إلى محاوراته مع مَنْ يعتنقون مذاهب الثَّنَوِيَّة المجوسية والدهرية الهندية[٣] ، وأكبر الظن أنه تسرب إليه من هذه المجالس وما يماثلها من مجالس المتكلمين شىء من الفلسفة والمنطق، على أن الأمور لم تلبث أن فسدت بينه وبين

(١) الديوان ٣/١٧٢ .
(٢) البيان والتبيين ١/٢٤ .
(٣) أغانى ٣/١٤٦ .

واصل إذ عرف فيه أنه يدين بالرّجْعة أو عودة الإمام المختفى ويكفّر جميع الأمة، وتتابع منه ما يشهد على إلحاده من مثل قوله يشيد بعبادة النار وأنها أفضل من الأرض والطين [١] :

الأرضُ مظلمةٌ والنارُ مشرقةٌ والنارُ معبودةٌ مذ كانت النارُ

وتمادى يفضّل إبليس المخلوق من النار على آدم المخلوق من الطين ، قائلا [٢] :

إبليسُ أفضلُ من أبيكم آدمٍ فتنبّهوا يا معشرَ الفُجّارِ
النارُ عُنْصُرُهُ وآدمُ طينةٌ والطينُ لا يَسْمو سموَّ النارِ

وتصدّى له صفوان الأنصارى شاعر المعتزلة يردُّ عليه وعلى ما رمى إليه من تصويب رأى إبليس فى عدم سجوده لآدم وعصيانه لأمر ربه حين طلب إليه هذا السجود ، لأن النار ، فى رأيه هو وأضرابه من الزنادقة الذين كانوا يقدسونها ، خير من الأرض . وأطال صفوان فى تفضيل الأرض وذكر له العلة التى بعثته على تفضيل النار وأنها ليست إلا حقده وموجدته على الدين الحنيف ، قائلا [٣] :

كأنك غضبانٌ على الدين كلِّه وطالبُ ذَحْلٍ لايبيت على حِقْدِ [٤]

غير أن بشارا مضى يُعْلن زندقته لا يزدجر مصرحًا بأنه لا يؤمن إلا بالعيان وما شهده الحس [٥] . فهو لا يؤمن بجنة ولا نار ولا ببعث ولا حساب ، ويحاول أن يثير الغبار فى وجه واصل وغيره من المعتزلة ، فيعلن أنه يعارض ما يذهبون إليه من أن الإنسان يخلق أفعاله ، ويقول إنه جَبْرِىٌّ ، بل لا شىء سوى الجبر وتعطيل الإرادة الإنسانية [٦] .

وكل ذلك جعل واصل بن عطاء يثور عليه ثورة شديدة ، وكان مما زاد هذه الثورة فى نفسه اضطراما أن رآه يكثر من غزل مادىٍّ آثم يُعَدُّ خطراً أى خطر على شباب البصرة ونسائها [٧] ، فهتف به فى بعض خطبه الواعظة داعيًا إلى قتله

---

(١) البيان والتبيين ١/١٦ والأغانى ٣/١٤٥.
(٢) رسالة الغفران لأبى العلاء (نشر كامل كيلانى) ٢/١٣٧ .
(٣) البيان والتبيين ١/٢٩ .
(٤) ذحل : ثأر.
(٥) أغانى ٣/٢٢٧ .
(٦) نفس المصدر والصفحة .
(٧) أغانى ٣/١٨٢ .

بمثل قوله : «أما لهذا الأعمى الملحد المشنّف[١] المكنّى بأبي معاذ من يقتله[٢] ؟!» وتعاون واصل وأتباعه من معتزلة البصرة أمثال عمرو بن عبيد على طرده عن مدينتهم ، وكان الخوف قد بلغ من نفس بشار ، فبارحها وظل غائبًا عنها حتى توفى عمرو[٣] ابن عبيد خليفة واصل سنة ١٤٤ للهجرة . ونراه يقصد إلى حرّان فى سنة ١٢٧ فيمدح سليمان[٤] بن هشام بن عبد الملك إلا أنه لا ينيله ما كان يؤمله[٥] ، فيتجه إلى واسط ، حيث يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراق لعهد مروان بن محمد وزعيم قيس ، فيستقبله استقبالا حافلا ، ويُغْدِق عليه من بِرّه وصلاته السنية[٦] ، ويُغْدق عليه بشار من شعره ، وكان يزيد يتعصب لقومه من قيس تعصبًا قويًا ، وصادف ذلك هوى فى نفس بشار إذ كان ولاؤه لبنى عُقَيل القيسيين ، وكان مروان بن محمد يؤثر قيساً على بقية القبائل العربية ويعتمد عليها فى حروبه مع الثوار من بنى عمه وغيرهم ، فاندفع بشار يمدح ابن هبيرة ويفخر بقيس ومواليه القيسيين فخراً عارما .

ولم تلبث رايات العباسيين السوداء أن أقبلت فى سنة ١٣١ للهجرة من خراسان ، وطوّحت جيوشهم ببنى أمية وواليهم يزيد ، وانعقد لسان بشار شاعر خصومهم فلم يستطع أن يفد على السفاح ولا على المنصور ، وكان نجم خالد بن برمك آخذاً فى التألق إذ استوزره المنصور ثم ولاه ولاية فارس ، وكأنما رأى فيه بشار لحمة نسب تصله به إذ كان إيرانيًا مثله ، فوفد عليه يمدحه ، وخالد يجزل له فى العطاء والإكرام[٧] . ويحس بشار فى عمق بإقبال الدنيا عليه ، فيتغنّى بشعوبيته ويفخر بقومه الفرس فخراً مسرفاً .

ويعود إلى البصرة بعد وفاة عمرو بن عبيد ، ولا يكاد العام يستدير حتى يثور العلويون بزعامة إبراهيم بن عبد الله سنة ١٤٥ للهجرة ، ويخيل إليه أن الانتصار من إبراهيم وثورته قاب قوسين أو أدنى فيمدحه بقصيدة ميمية رائعة ، وسرعان

---

(١) المشنف : ذو القرط ، يقال إنه كان يلبس قرطاً وهو صغير فلقب بالمرعث من الرعاث وهو القرط . وإلى ذلك يشير واصل . انظر الأغانى ١٤٠/٣ .

(٢) البيان والتبيين ١٦/١ والأغانى ١٤٦/٣ .

(٣) البيان والتبيين ٢٥/١ .

(٤) الديوان ٢٩١/١ والأغانى ٢١٧/٣ .

(٥) أغانى ٢١٨/٣ .

(٦) أغانى ٢٣٦/٣ — ٢٣٧ .

(٧) أغانى ١٩٢/٣ .

ما يخيب فأله ، إذ قمع المنصور الثورة ، ويسارع بشار فيحدث تغييرات فى القصيدة ، ويجعلها فى مديحه[١] ، غير أنه لا يستطيع الوفود عليه . ويأخذ منذ هذا التاريخ فى مديح ولاة البصرة ، وخاصة سلم[٢] بن قتيبة الباهلى الذى وليها لخمسة أشهر فى سنتى ١٤٥ و ١٤٦ وعقبة[٣] بن سلم الهُنائى الأزدى الذى وليها لأربع سنوات من سنة ١٤٧ إلى سنة ١٥١ .

ويمضى بشار فى غزله الفاجر ، وكان كل شىء فيه ينفِّر المرأة ، إذ كان قبيح المنظر مجدور الوجه جاحظ العينين قد تغشَّاهما لحم أحمر ، ولعل هذا القبح ونفور النساء منه هو الذى كان يستثير عنده الغريزة النوعية ويدفعه إلى الإفراط من غزله المكشوف . على أن هذا الغزل نفسه جعل بعض بنات الهوى اللائى كانت تكتظ بهن دور القيان يُقْبِلن عليه ويتغنين فى شعره . وفى هذه الأثناء يصطدم بحماد عَجْرد وتنشب بينهما معركة هجاء حامية الوطيس .

ويتوفَّى المنصور سنة ١٥٨ للهجرة ويخلفه المهدى فتطمح نفسه إلى الوفادة عليه والحصول على جوائزه ، ويقدم بغداد ويلجأ إلى يزيد بن مزيد الشيبانى القائد الممدَّح المشهور كى يذكره للمهدى ويدخله عليه ، ويظهر أن يزيد كان يعرف سيرته فأخذ يسوِّفه ، غير أن قائداً آخر هو روح بن حاتم بلغه خبره وكأنما كان يود لو يصبح من ممدوحيه ، فتبرَّع بذكره للمهدى متلطفاً ، فأمر بإحضاره ، ولم يكد يفرغ من إنشاده مدحته التى أعدَّها حتى وصله بعشرة آلاف درهم ووهب له عبداً وقينة وخلع عليه خِلَعاً كثيرة[٤] ، وجعله من سُمَّاره ومن يحضرون مجالسه[٥] . وكانت فى المهدى شدة فى شئون الدين وانتهى إليه من غير وجه أن بشاراً يفسد النساء والشباب بغزله الفاضح ، فأمره أن يكفَّ عن ذلك ، وكفَّ بشار على مضض ، وأخذ يردد فى أشعاره أنه ترك الغزل والنسيب نزولا على إرادة الخليفة من مثل قوله[٦] :

---

(١) أغانى ٣/١٥٦ — ١٥٨ .
(٢) أغانى ٣/١٩٠ والديوان ٢/٣٢٦ — ٣٣٨ ، ٣/٢٠٢ .
(٣) أغانى ٣/١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٩ والديوان ١/١٠٧ ، ١٤٠ ، ٢/٢١٩ .
(٤) أغانى ٣/٢١٣ .
(٥) ابن المعتز ص ٢١ وما بعدها .
(٦) أغانى ٣/٢٣٩ وانظر ص ٢٤١ وما بعدها .

يا منظَرًا حسناً رأيتُه ... من وجه جاريةٍ فديتُه
بعثتْ إلىَّ تَسُومنى ... بُرْدَ الشباب وقد طويتُهْ
والله ربِّ محمَّــدٍ ... ما إن غدرتُ ولا نويتُه
أمسكتُ عنك وربما ... عرض البلاءُ وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبَى ... وإذا أبى شيئاً أبيتُه
ونهانىَ الملك الهما ... مُ عن النَّسِيب وماعصيته

وكان ذلك يؤذى الخليفة منه إذ كان يراه لا يكفُّ عن الغزل ، وترامت إليه زندقته وما يَغْرَق فيه من مجون ، فحرمه جائزته ، ولا نصل إلى سنة ١٦٦ حتى يتعقب المهدى الزنادقة ويقتل منهم خلقاً كثيراً ، ويلزم بشار البصرة إشفاقاً على نفسه ، غير أنه لا يصمت ، بل يأخذ فى رثاء أصدقائه الذين يُقْتَلون على الزندقة[١] ، ويهجو المهدى ووزيره يعقوب بن داود هجاء مقذعا[٢] ويَقْدَمُ المهدى إلى البصرة فى سنة ١٦٨ فيشهد أمامه شهود موثَّقون بأن بشارا زنديق ، حينئذ يأمر بضربه حتى التلف ، فيُضْرَبُ سبعين سوطاً يموت على إثرها ويُرْمَى به فى البَطيحة ، ويجىء بعض أهله فيحملونه ويدفنونه .

وأخبار بشار فى أسرته قليلة ، ويدلُّ هجاء حماد عَجْرد له أنه كان له امرأة تسمَّى أمامة[٣] ، وهو يُكْثر فى أشعاره من ذكر أطفاله الصغار يستعطف بهم ممدوحيه حتى يضاعفوا له الجائزة[٤] ، وقد حزن حين اختطف منه القدر ابنه محمدا[٥] ، واختطف منه بنتاً صغيرة[٦] . ومر بنا فى غير هذا الموضع أنه كانت له جارية تسمى رَبابة ، وكانت له جارية أخرى سوداء ، وفيها يقول[٧] :

وغادةٍ سوداءَ بَرَّاقةٍ ... كالماء فى طيبٍ وفى لينِ

(١) أغانى ٣/٢٣٤ والمختار من شعر بشار ص ٢٥ وأمالى المرتضى ٢/١٣٢ .
(٢) أغانى ٣/٢٤٣ .
(٣) أغانى ١٤/٣٦٥ .
(٤) الديوان ١/٢٣٩ .
(٥) أغانى ٣/١٦١ ، ٢٢٠ ، وانظر الديوان ١/٢٥٦ .
(٦) أغانى ٣/٢٢٩ .
(٧) أغانى ٣/١٩٣ .

كأنها صِيغتْ لمن نالها   من عَنْبَرٍ بالمسك معجونِ

ولعلها السندية العَجْماء التي لم يتبع جنازته سواها(١) . وذكر فى غزله كثيرات من القِيان والجَوارى ، وفُتن فتونا بعَبْدة ، وقد أفرد صاحب الأغانى لأخباره معها فصلاً خاصاً (٢).

وواضح مما قدمنا أن طبيعة بشار لم تكن بسيطة ولا ساذجة ، بل كانت معقدة ، فقد كان فارسى الأصل ، وورث عن الفرس حدة فى المزاج ، ونشأ قِنـًّا ابن قِنٍ ، ووُلد أعمى لا يُبْصر . وكان لذلك يحسُّ بغير قليل من المرارة ، وضاعفها فى نفسه فقرأسرته وتخلفها فى المجتمع . وقد رُبِّىَ فى مهد عربى ، فأتقن العربية وتمثَّل سليقتها بكل مقوِّماتها . وسرعان ما أخذ يختلف إلى حلقات المتكلمين بالمسجد الجامع يستمع إلى محاوراتهم لأصحاب الملل والنحل والأهواء المختلفة ، وليس من ريب فى أنه اطلع على ما نقله ابن المقفع إلى العربية من الآداب الفارسية وغير الفارسية ومن الآراء المزدكية والمانوية. وكان ذلك كله سبباً فى أن يحدث تشويش فى فكره وأن تمتلىء نفسه بالشك والحيرة ، ولم يستطع الخلوص من ذلك فتحول زنديقاً يبغض الدين الحنيف ، حتى إذا نجحت الثورة العباسية تحوَّل شعوبياً يبغض العرب والعروبة . وكانت بيئته تكتظ بالجوارى والقيان ممن لا يعصمهن من الغواية دين ولا عرف ، فاختلط بهن ، وتغزل فيهن غزلا حسياً ، وربما دفعه فقد بصره إلى ذلك من بعض الوجوه ، إذ الضرير لا يرى الجمال ببصره ، إنما يحسه بلمسه ويده ، ويتسع جشعه الجسدى ، حتى ليصبح غزله ، فى بعض جوانبه ضربا من صياح الغريزة النوعية الذى ينبو عن الذوق .

وكل هذه العناصر السالفة أثرت فى طبيعة بشار وجعلتها شديدة التعقيد ، ويجمع الرواة والنقاد على أنه زعيم الشعراء المحدثين ، وهى زعامة تُرَدُّ إلى أنه استطاع أن ينهج لهم فى قوة السبيلَ التى ترسَّمها الشعراء من حوله ومن بعده ، وهى سبيل تقوم على التمسك بالأصول التقليدية للشعر العربى من جهة ، ومن جهة ثانية تفسح لتجديد الشاعر العباسى بحكم رقيه العقلى ومعيشته الحضارية. وبذلك ازدهر الماضى فى الحاضر ونما الحاضر من خلاله هذا النمو الذى جعل الشعر العربى عنده يحتفظ

(١) أغانى ٣/٢٤٨ .   (٢) أغانى ٦/٢٤٢ وما بعدها .

بشخصيته الخالدة ، إذ ظلت أساليبه — مهما لانت ورقّت — مطبوعة بطوابع النصاعة والإيجاز والتركيز ، تلك الطوابع التى تشيع فيه الدقة والوضوح والجمال ، كما ظلت معانيه وأغراضه البدوية القديمة بجميع رواسبها الخيالية . وحقًّا حدث فيه تجديد واسع ولكنه تجديد لا يفصله من تراثه ، بل يتيح لهذا التراث أن يعاد خَلْقه بحس متحضر وذوق مرهف وعقل بصير يعرف كيف يفيد من كنوز الآداب والثقافات المترجمة وكيف يلائم بين ما يصوغه وبين بيئته المتحضرة . وقد أتاح ذلك لأغراض الشعر عند بشار أن تتطور تطوراً قليلاً أو كثيراً ، بحيث يظل الاتصال قائمًا بين الشعر العباسى والشعر القديم .

وعجيبٌ حقًّا أن يستطيل بشار على العرب وعلى دينهم الحنيف وأن يقهره شعرهم ، ويملك عليه ذات نفسه ، ويسخره ليكون أداة من أدوات ازدهاره وبرهانا بيّنًا على قوة شخصيته ، تلك الشخصية التى يظل فيها الماضى الفنى ماثلا ، مهما سقط على أصحابه من اختلافات فى الزمان والمكان ومهما وقع عليهم من مؤثرات حضارية وثقافية ، ومهما ألحدوا فى العروبة والدين . وما من شك فى أن بشاراً كان ملحداً زنديقًا يكفر بالعرب ، ومع ذلك اضُطرّ اضطراراً حين عاش شعرهم أن يتمثّل أحاسيسهم ومشاعرهم وأفكارهم وخواطرهم مخترقا فى تمثله حجب الزمان والمكان مطأطئاً من غروره . وليس معنى ذلك أنه انفصل عن عصره ، فقد مضى يزاوج بين الماضى والحاضر ، يتلقّى الماضى ويحياه ، وأيضًا يتلقّى الحاضر ويحياه ، وبذلك وصل بين الحاضر والماضى برقيه العقلى وحياته الحضارية وصلا خصباً

وقد يكون من الغلو أن نزعم أن ذلك كان من عمل بشار وحده ، فقد شركه فيه جميع شعراء عصره إلا نفراً قليلا ، إذ مثّل الشعر القديم أمامهم كالأم الغاذية ، فكل شاعر يتغذى منه ما يقوّم به عمله ، حتى إذا مرّن عليه أخذ يوازن بين الغذاء القديم والغذاء الحديث : غذاء الثقافة والحضارة ، وهى موازنة غدت كأنها طبيعة العصر ، وكان مما أذكى جذوتها فى نفوس الشعراء أن شاعراً لم يكن يَحْظَى بتقدير بين أقرانه إلا إذا حقق لنفسه حظًّا من هذه الموازنة ، ومما لا شك فيه أن حظ بشار منها كان موفوراً ، فإنه احتفظ للشعر بأصوله التقليدية ، ومضى يطوّر فى أغراضه ومعانيه تطوراً يختلف قلة وكثرة وسعة وعمقاً .

والمديح أهم غرض وصل بشاراً بالتراث القديم ، فقد حافظ فيه محافظة شديدة على سننه الموروثة ، سواء من حيث جزالة الصياغة ورصانتها ومتانتها ، أو من حيث المنهج الذى سار عليه القدماء ، إذ كانوا يقدّمون بين يديه وصف الأطلال والنسيب والغزل ووصف البعير أو الناقة ورحلتهم عليهما فى الصحراء مستطردين إلى وصف مشاهدها الطبيعية وما يجرى فيها من حيوان ، ثم يخرجون من ذلك إلى المديح بمآثر الأفراد والقبائل ناثرين فى أطراف قصيدهم بعض الحكم . وكل ذلك احتذاه بشار فى كثير من مدائحه ، بل لقد احتذى نفس المعانى والأخيلة ، وبلغ من شدة هذا الاحتذاء عنده أن نظم بعض مدائحه على غرار أراجيز رؤبة مكثراً فيها من الغريب الوحشى على نحو ما هو معروف فى أرجوزته[1] : (يا طلل الحىّ بذات الصَّمَد) . ونراه يصرح فى بعض مدائحه بأنه بناها أعرابية وحشية حتى يرضى ممدوحه سلم بن قتيبة الذى كان يتباصر بالغريب[2] .

وإذا تركنا إطار المديح ومقدماته إلى معانيه التى ساقها فى وصف الخلفاء والولاة وجدناه يخلع عليهم نفس الشيم الرفيعة التى طالما خلعها الجاهليون والإسلاميون على ممدوحيهم من الكرم والمروءة والشجاعة والنجدة وإباء الضيم ، وكان الإسلاميون من أمثال جرير والفرزدق قد لاحظوا الفرق الحادث بين من يمدحونهم من الخلفاء والولاة وبين سادة القبائل فى الجاهلية ، فأسبغوا عليهم كثيراً من الصفات الدينية والزمنية ، ونرى بشارا يقتدى بهم وخاصة فى مديحه للمهدى[3] ، وكأنه حتى فى هذا الجانب لا يزال موصولا بالتراث الفنى القديم . وكان طبيعياً لذلك أن يستمد جمهور معانيه فى المديح من القدماء ، وهذا نفسه يلاحظ على مقدماته الطللية والغزلية ، وبذلك فتح الأبواب واسعة أمام النقاد كى يبحثوا فى سرقاته منهم ، كما فتحها أمام الشعراء لكى يحتذوا على صنيعه . على أنه ينبغى أن نعود فنقرر أنه كان يحاول النفوذ من خلال هذا الصنيع إلى معان وصور جديدة يستلهم فيها حسه المرهف وعقله الدقيق وذوقه الحضارى المترف حتى حين يعمد إلى المحاكاة المسرفة للقدماء على نحو ما يلقانا فى أرجوزته : « يا طلل الحىّ بذات الصَّمَد » . وحرى بنا أن نقف

---

(١) الديوان ٢١٩/٢ والأغانى ١٧٤/٣ وراجع فى أراجيز له أخرى الديوان ١٣٤/١ ، ١٤٠/١ .

(٢) الأغانى ١٩٠/٣ وما بعدها .

(٣) انظر الديوان ٣٢١/٣ ، ٢٧٧/٢ وما بعدها ، ٢٩٧/٢ .

قليلا عند قصيدته البائية التى مدح بها يزيد بن عمر بن هبيرة وفى رواية أنه مدح بها مروان بن محمد ، وهى تلك التى يستهلها بقوله :

جفا ودّه فازورّ أو ملّ صاحبُهْ وأزْرَى به أنْ لايزالُ يُعاتِبُهْ

فإننا نجده يستهلها بالنسيب ووصف سُرَى الليل على بعيره وسط الفيافى المقفرة ، ويستطرد إلى وصف حمار الوحش وأتنه وما مرّ بها وبه من أيام الربيع المنعشة ثم ما سقط من أيام الصيف اللافحة التى أوقدت العطش فى صدورالأتن وحمارها ، فإذا هى تطلب الماء تريد أن تشفى غلتها منه ، وما إن تريد أن تقع عليه حتى يرسل الصائد عليها سهامه . ويمضى إلى مديح يزيد فيوغل فى فخر شديد بقيس قبيلته التى كان لها ولاؤه ، ويطيل فى وصف بلائها فى حروب مروان بن محمد وقمع الثائرين عليه . وبشار فى كل ذلك ينزع منزع القدماء حين كانوا يمدحون سادة عشائرهم فيفخرون بمآثر العشيرة ووقائعها الحربية ، وكأنه يقصد إلى ذلك قصداً ، ولكن لا تظن أنه طابق النموذج القديم تمام المطابقة ، فقد أدخل فى نسيج قصيدته خيوطاً جديدة ، وتلقانا هذه الخيوط واضحة فى نسيبه إذ تحدث فيه عن الصداقة والصديق ، وكأنه يستلهم ما كتبه فيهما ابن المقفع بكتابه « الأدب الكبير » كما يستلهم الكلاميين فى قوة البرهان والحجة ، فإذا هو يقول[1] :

إذا كنتَ فى كل الأُمورِ معاتباً صديقَكَ لم تلقَ الذى لا تعاتبهْ
فعِشْ واحداً أوصِلْ أخاكَ فإنه مقارِفُ ذَنْبٍ مرةً ومجانبُهْ[2]
إذا أنت لم تشربْ مراراً على القَذَى ظمئتَ وأىُّ الناس تَصْفو مشاربه

ونمضى معه فى وصف مشاهد الصحراء وصفاً حيناً ، حتى إذا انتهى منه فخرَ بقيس مواليه وما يذيقون به أعداءهم من بأسهم الشديد حتى ليمحقونهم محقاً ، يقول :

إذا الملكُ الجبّارُ صعّر خَدَّه مشينا إليه بالسيوف نعاتبه[3]

---

(١) أغانى ٣/١٩٧ وانظر القصيدة فى الديوان ١/٣٠٥ .

(٢) مقارف : مرتكب .

(٣) صعر خده : تكبر وعتا وبغى .

وكنا إذا دبَّ العدوُّ لسُخطنا ... وراقَبنا فى ظاهرٍ لا نراقبُهْ[١]

ركبنا له جَهْرًا بكل مثقَّفٍ ... وأبيضَ تَسْتسقى الدِّماءَ مضارِبُه[٢]

وجيشٍ كجُنْح الليل يزحف بالحَصَى ... وبالشَّوْك والخَطِّىِّ حُمْرٌ ثَعالِبُه[٣]

غدونا له والشمسُ فى خِدْرِ أُمِّها ... تطالعنا والطَّلُّ لم يَجْرِ ذائبه

بضربٍ يذوق الموتَ من ذاق طعمَه ... وتدركُ من نجَّى الفرارُ مثالبه[٤]

كأَنَّ مُثَارَ النَّقْع فوق رءوسنا ... وأَسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكبه[٥]

بعثنا لهم موتَ الفُجاءَة إننا ... بنو المُلْك خفَّاقٌ علينا سبائبُهْ[٦]

والفخر بالبلاء فى الحروب قديم ، غير أن جديداً واضحاً يداخل معانى هذه الأبيات ، وهو يُرَدُّ من بعض الوجوه إلى مزاج بشار الفارسى الذى أدَّى به إلى المبالغة ومجاوزة القصد الذى يُعَدُّ من مميزات الطبع العربى الخالص ، كما يُرَدُّ إلى محاولة الإبداع فى التصوير ، ويُرْوَى أن الأصمعى وقف متعجبًا إزاء البيت السابع وأنه قال : « وُلد بشار أعمى فما نظر إلى الدنيا قط ، وكان يشبّه الأشياء بعضها ببعض فى شعره فيأتى بما لا يقدر البُصَراء أن يأتوا بمثله »[٧] . وكان يعتمد فى ذلك على ذكاء حاد جعله يستغلُّ ذاكرته من صور الأقدمين وأخيلتهم استغلالا فاق فيه المبصرين من حوله ، مستعينًا بحس دقيق . وكان مما دفعه إلى ذلك شعوره بفقده لبصره ، وكأنه كان يريد أن يثبت أنه على الرغم من آفته يستطيع أن يؤلف الصور الحسية بل أن يبدع فى تأليفها . على أن من يمعن النظر فى تصاويره يلاحظ عجزه عن تمثل الدقائق التى لا تُرَى إلا بحاسّة البصر .

ومهما يكن فقد استطاع بشار فى مديحه أن يضيف إلى العناصر البدوية القديمة عناصر مستحدثة ، وهى تبدو قليلة فى قصائده الأموية ، وكلما أوغلنا معه فى العصر العباسى أحسسنا بنموها ، فقد أخذ يتخفف من مشاهد الصحراء ومن

---

(١) دب : مشى فى استخفاء .
(٢) المثقف : الرمح المقوم . الأبيض : السيف .
(٣) يزحف : يهجم . بالحصى أى أنه كالحصى كثرة . الشوك هنا : السلاح . الخطى : الرمح . ثعالبه : أطرافه .
(٤) مثالبه : معايبه .
(٥) النقع : غبار الحرب .
(٦) سبائبه : أعلامه وراياته .
(٧) أغانى ١٤٢/٣ .

المقدمات الطللية مكتفياً بالغزل . ولما أمره المهدى بالكفّ عن الغزل الماجن أخذ يردد — كما أسلفنا — فى مطالع بعض مدائحه له أنه سيكفّ عن الغزل نزولا على مشيئته . وكان قد وصف السفينة فى إحدى[١] مدائحه لابن هبيرة ، ونراه يعود إلى ذلك مراراً فى بعض مدائحه[٢] للمهدى ، وكأنه يريد أن يضيف إلى المقدمات الطللية القديمة مقدمة جديدة من بيئته . وقد عكف على معانى المديح القديمة يولّد فيها ويفرّع ويستنبط دقائق كثيرة من مثل قوله فى خالد بن برمك يصف سماحته ونائله الغمر[٣] :

إذا جئتَه للحَمْد أشرقَ وَجْهُـهُ   إليك وأعطاك الكرامةَ بالحَمْدِ
مفيدٌ ومتلافٌ سبيلُ تُراثه   إذا ما غدا أورَاحَ كالجَزْر والمَدِّ[٤]

وقوله فى عمر بن العلاء قائد المهدى الذى قضى على ثورة الخرّمية بجرجان[٥]

فَتًى لا ينام على دِمْنَةٍ   ولا يَشْرب الماء إلا بِدمْ
يَلَذُّ العطاء وسفكَ الدِّماء   وَيغْدُو على نِعَمٍ أو نِقَمْ

ويقرن دائمًا فى مديحه للقواد والولاة الشجاعة إلى الكرم الفياض ، ويستنبط منهما دقائق كثيرة مستلهمًا لطائف عقله ودقائق تصويره ، من مثل قوله فى مديح عقبة بن سلم والى البصرة[٦] :

إنما لذّةُ الجواد بنِ سَلْم   فى عطاءٍ ومَرْكَبٍ للقاء
كخَراج السماء سَيْبُ يديهِ   لقريبٍ ونازح الدار نائى[٧]
ليس يعطيك للرجاء ولا الخو   ف ولكنْ يَلَذُّ طعم العطاء
يسقط الطيرُ حيث يَنْتثرالحـ   ـبُّ وتُغْشَى منازلُ الكرماء
لا يهاب الوَغَى ولا يعبدُ الما   لَ ولكنْ يهينه للثناء

---

(١) الديوان ١٤٧/١ .
(٢) الديوان ٢٨٣/٢ ، ٢٨٠/٣ .
(٣) أغانى ١٩٢/٣ والديوان ١٢٥/٣ .
(٤) التراث هنا : المال مطلقاً .
(٥) المختار من شعر بشار للخالديين ص ٧٧ .
(٦) الديوان ١١١/١ والأغانى ١٨٩/٣ .
(٧) خراج السماء : الغيث. السيب : العطاء.

أرْيَحِيٌّ له يَدٌ تُمْطِرُ النَّيْـ لَ وأخرى سُمٌّ على الأعداء[1]

وواضح أنه يجعل لذته فى الكرم والشجاعة،ويصور كرمه واسترساله فيه بالغيث الذى لا مفر من سقوطه على القريبين والنائين . ويجرِّد عطاءه عن الغايات ، فهو لا يعطى خوفًا من هجاء ولا رجاء فى مديح ، وإنما يعطى لأنه يجد لذة فى العطاء من حيث هو ويجد فيه استرواحا . ويتمثل عكوف السائلين على بابه بسقوط الطير على الحب . ويصف شجاعته ويقول إنه لا يهاب الموت،وإنه لا يزال يبذل ماله كأنه يريد أن يهينه لمن يثنون على صنيعه . ويصوره مرسلا نَـدَاه على السائلين وصواعق الموت على الأعداء الباغين . وتتضح فى هذه القطعة خصائصه ، فهو يحاول أن يستقصى المعانى عارضًا لها فى وجوه شتى تصور دقة فكره وطرافة أخيلته ، مستعينًا بالمقابلة والطباق وببعض الحكم كما فى البيت الرابع . وقد أفرد للحكم قصيدة خاصة[2] .

ولم تُؤْثَرْ لبشار مراث كثيرة ، وربما رجع ذلك إلى أنه كان منغمسًا فى اللهو وأن نفسه لم تكن مفطورة على الحزن ، ومع ذلك فإننا نرى الموت يهز نفسه هزًّا حين فقد ابنه محمداً ، وفيه يقول[3] :

أُصِيبَ بُنَيٌّ حين أورق غُصْنُهُ وألْقَى علىَّ الهمَّ كلُّ قريبِ

وكان كرَيْحان العَروس تخالُهُ ذَوَى بعد إشراق الغصون وطِيبِ

وما نحن إلا كالخليط الذى مضَى فرائسُ دهر مخطىءٍ ومصيب

نؤمِّل عيشاً فى حياةٍ ذميمــة أضرَّتْ بأبدانٍ لنا وقلوبِ

ونراه يحزن حزنًا عميقًا على أصدقائه من الزنادقة الذين فتك بهم المهدى فتكًا ذريعًا ، وكأنما رأى فيهم مصيره الذى ينتظره ، وقد مرت فى الفصل السابق قطعة يرثى بها صديقًا منهم ، وكأنه يرثيهم جميعًا وقد ندبه بها أحرَّ ندب وأشجاه . وروى له أبو الفرج ميمية رثَـى بها خمسة من أصدقائه تقطر أسى وحزنا،ولا نشك

---

(١) أريحى : كريم يهتز للندى . النيل : العطاء .

(٢) الديوان ١/٢٥٢ .

(٣) الديوان ١/٢٥٤ والأغانى ٣/١٦١ .

فى أنهم جميعاً قتلوا على الزندقة ، إذ نراه فيها جزعا أشد الجزع ، مُلْتاعاً أشدّ الالتياع على شاكلة قوله[١] :

كيف يصفو لىَ النعيمُ وحيدًا والأخلاّءُ فى المقابر هامُ[٢]

نَفِسَتْهم علىَّ أمُّ المنايا فأنامتْهمُ بعنفٍ فناموا

لا يَغيض انسجامُ عينى عليهم إنما غاية الحزين السُّجامُ[٣]

والرثاء عنده — على كل حال فن طارىء ، وكانت وراءه فنون أخرى عاش لها حياته ، ونقصد فنون الفخر والهجاء والغزل والمجون . وقد بدأ حياته مفاخراً هاجياً ، مستلهماً ما شاع فى بيئة البصرة من الفخر والهجاء على لسان جرير والفرزدق ومن كان حولهما من الشعراء . وحاول أن يدخل فى معاركهما ، وهو لا يزال غضّ العود ، فهجا جريراً مؤملا أن يردّ عليه فيطير اسمه فى الناس ، ولكن جريراً لم يحفل به لأنه كان لا يزال فتى ناشئاً ، ولم يردّه عدم احتفال جرير به عن الميدان ، فقد أخذ يصول ويجول فى هجاء الناس ، ودخل فى الخصومات القبلية بين عشيرته من بنى عُقَيْل القيسية وغيرها من العشائر . ولما تفاقم شره شكاه الناس إلى أبيه ، ولكنه ازداد شرًّا وإيذاء ، كما مر بنا فى صدر ترجمته .

وعوامل مختلفة جعلت بشاراً يسرف فى هجائه وفخره ، من ذلك أنه كان يريد أن يشتهر فى هذين الفنين شهرة جرير والفرزدق ، ومن ذلك أن نفسه كانت تنطوى كما أسلفنا على غير قليل من المرارة بسبب فقده لبصره ، وهى مرارة زادها اضطراماً فى نفسه أنه كان مولى ، والموالى كانوا متخلفين فى المجتمع الأموى ، وكان فقيراً بائساً ، فاندلع ينفّس بفخره وهجائه عن قروحه النفسية ولكن بمن يفخر ؟ أما فى العصر الأموى فقد مضى يفخر بعشيرته وأصولها من قيس ، وكان مما أشعل هذا الفخر فى نفسه أن الخليفة حينئذ — وهو مروان بن محمد — كان قيسى الهوى ، وأن والى العراق يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى كان يتعصب لأصوله من قيس تعصباً شديداً ، وكان بشار يعيش فى كنفه ، فمضى آنذاك يفتخر بقيس ومضر

---

(١) أغانى ٣/٢٣٦ .
(٢) هام هنا : أموات .
(٣) يغيض : يجف . السجام : سيلان الدمع .

افتخاراً يحاول به أن يبلغ عنان السماء على نحو ما رأينا في قصيدته البائية وعلى شاكلة قوله[1] :

إذا ما غَضِبنا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً هتكنا حجابَ الشَّمس أو تُمْطِرَ الدَّما

إذا ما أعَرْنا سَيِّدًا من قَبيلةٍ ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى علينا وسَلَّما

وإذا مضينا معه إلى العصر العباسي ، عصر انتصار الفرس على العرب وجدنا شعوره بالعصبية القبلية يتحول إلى شعور جديد بالعصبية الجنسية ، فإذا هو يفاخر العرب بماضي قومه التليد ، وإذا هو يتحول شعوبيًّا مارقًا يتغنَّى بأمجاد قومه الحضارية كافراً بالعرب والعروبة ، وتصوِّر هذه النزعة عنده أدق تصوير قصيدته[2] :

هل من رسولٍ مخبرٍ عني جميعَ العربِ

وهي صياح وضجيج بتصوير أبَّهة الملك الفارسي وأيضًا الملك الرومي ، إذ زعم أن الروم أخواله ، هاتفًا هتافًا مقذعا بالعرب ومعيشتهم البدوية الخشنة .

واصطدم بشار بكثير من الشعراء ، وجرَّ عليه هذا الاصطدام بلاء كثيراً وخاصة من حماد عجرد الذي سلقه بلسانه ، وأصلاه بناره ، مما جعل معارك هجائية عنيفة تنشب بين الوَعْلين على نحو ما مر بنا في الفصل السابق وهي معارك كانت تُستَخْدَمُ فيها غالبًا مقطوعات قصيرة ، تشبه أدقَّ الشبه سهامًا مسمومة ، وقد اختلفت أنواع السموم التي كانا يغمسانها فيها ، فتارة يعمدان إلى التهوين والتحقير ، وتارة يعمدان إلى انتهاك العرض وقذف الزوجات والأخوات والأمهات ، مع محاولة كل منهما تلطيخ صاحبه بتهمة الزندقة . ومما نسوقه من ذلك قول بشار في أم حماد[3]

إذا سُئِلَتْ لم تكن كَزَّةً ولكنْ تذوب ولا تَجْمُدُ

ووراء هذا البيت في القصيدة أبيات يصرح فيها بفُجْرها وغوايتها تصريحًا تتقزَّز منه النفس الكريمة .

واشتهر بشار بالتفنن في الغزل ، ويتضح فيه عنده تمثله لكل ما نُظم في هذا الفن قديمًا من التشبيب والنسيب وبكاء الديار ، ومن الغزل المادي عند عمر بن

---

(١) أغاني ٣/١٦٢ .
(٢) الديوان ١/٣٧٧ وانظر ٣/٢٢٩ .
(٣) الديوان ٣/١٢٣ .

أبى ربيعة وأضرابه من شعراء مكة والمدينة ، ومن الغزل العُذْرى عند جميل وأمثاله من النجديين والنازلين ببوادى الحجاز . وقد مضى فى ذلك كله يستلهم الرقى العقلى الحديث والحضارة المادية التى تنفَّس فيها ، ونراه أحيانًا يقترب اقترابًا شديداً من القدماء ، حتى ليتحدث عن الأطلال والرسوم فى مثل قوله[١] :

لعَبْدَةَ دارٌ ما تكلِّمنا الدَّارُ   تلوح مغانيها كما لاح أسْطارُ[٢]

أسائلُ أحجارًا ونُؤْياً مهدَّماً   وكيف يجيب القولَ نُؤْىٌ وأحجارُ[٣]

وما كلَّمتْنى دارُها إذْ سألْتُها   وفى كبدى كالنِّفْط شُبَّتْ به النَّارُ

وعند مَغانى دارها لو تكلَّمتْ   لمكتئبٍ بادِى الصبابة أخبارُ

ويقترب أيضًا حين يستغل عناصر النسيب والغزل القديم وما يجرى فيه من وصف لوعة الحب والسهاد الطويل ، وما صوَّر عشاق العرب من إذعانهم لمعشوقاتهم وما يسكبن فى قلوبهم من سحر وفتنة،وما يبعث نسيمُ الصبا الحلو المار بديارهن فى أنفسهم من بَرْد وأمن وغبطة وما ينصبون حولهن من شباك التضرع والتذلل والاستعطاف ، حتى ليخيِّلون إليهن أنهم قتلى حبهن وسهام عيونهن ، يقول من قصيدة فى معشوقته عَبْـــدة[٤] :

أَبِيتُ أَرْمَدَ ما لم أكتحِلْ بكمُ   وفى اكتحالى بكم شافٍ من الرَّمَدِ

رَقَّتْ لكم كبدى حتى لو انكمُ   تهوون أن لا أُريد العيش لم أُرِدِ

كأن قلبى إذا ذكراكمُ عَرضتْ   من سحر هاروتَ أو ماروتَ فى عُقَدِ[٥]

ما هَبَّت الريحُ من تلْقاء أرضكمُ   إلا وجدتُ لها بَرْدًا على كَبِدِى

يرقُّ قَلْبِى وتزدادين لى غِلَظاً   ما ذاك فيا أُرَجِّى منك بالسَّدَدِ[٦]

تحرَّجى بالهوى إن كنتِ مومنةً   بالله أن تقتلى نَفْساً بلا قَوَدِ[٧]

(١) أغانى ٦/٢٤٦ .

(٢) مغانيها : منازلها المهجورة . أسطار : جمع سطر ، يشبه المغانى بسطور الكتابة .

(٣) النؤى : حفرة يحفرونها حول الخيمة على شكل هلال تمنع عنها سيول الأمطار.

(٤) انظر الديوان ٢/٣١٥ والمختار من شعر بشار ص ٨٢ .

(٥) العقد : ماينفثه الساحر بزمزمته لغرض السحر .

(٦) السدد : السداد والصواب .

(٧) القود : القصاص .

وقد رققت الحضارة حسه وفتحت له فى الغزل أبوابا من المعانى والصور التى تنم عن أثر البيئة وما شاع فيها من ترف مادى وشعور رقيق حاد ، ومما يمثل ذلك عنده من بعض الوجوه قوله [١] :

ياليلتى تزداد نُكْرَا	من حُبِّ مَنْ أحببتُ بِكْرَا
حَوْراءُ إن نظرتْ إليْـ	ـك سَقَتْكَ بالعينين خَمْرَا
وكأنَّ رَجْعَ حديثها	قِطَعُ الرياض كُسِينَ زهرا
وكأن تحت لسانها	هاروتَ يَنْفُثُ فيه سِحْرا
وتخال ما جمعتْ عليـ	ـه ثيابَها ذهباً وعِطْرا
وكأنهــا بَرْدُ الشرا	ب صَفَا ووافق منك فِطْرَا
جنِّيَّـــةٌ إنسِيَّةٌ	أو بين ذاك أجلُّ أمرا

وواضح فى هذه القطعة أثر فقده لبصره ، فإنه لا يكاد يرتفع عن نطاق الشم والسمع واللمس والحس ، فهو يصف أنفاسها وما تنشره من طيب كطيب الرياض ويصف حديثها وما تذيع فيه من سحر ، ويصور جسدها ذهبا وعطرا ، أما ما ينعم به من جمالها فشراب بارد سلسبيل صادف صائما يتحرق عطشا . وقلما ارتفع فى غزله عن الحس والسمع والأذن ، ونوه بذلك كثيراً فى شعره ، محاولا أن يعتذر عن فقده لمتعة الجمال متعة حقيقية بالبصر ، ومن ثم مضى يردد فى أشعاره أن السمع يحل محل العين فى تقدير الجمال والإحساس التام به ، من مثل قوله [٢] :

يا قومُ أُذْنى لبعض الحَىِّ عاشقةٌ	والأُذْن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تَهْذِى ؟ فقلت لهم	الأُذْن كالعين تُوفِى القلب ما كانا

وكان لذلك أثر عميق فى غزله إذ طبعه بطوابع الحس ، وليس ذلك فحسب ، فقد أماله بشار — كما أسلفنا — نحو الإفصاح فى وضوح عن الغريزة النوعية إفصاحاً بث فيه كل ما استطاع من فحش وإثم وفسق ، لا يتحرج ولا يرعى ديناً ولا خلقاً ،

---

(١) أغانى ٣/١٥٥ .

(٢) أغانى ٣/٢٣٨ .

حتى ليصور جانبه الحيوانى الجشع ، عامداً إلى التفصيل أحياناً [١]، وأحياناً إلى الإجمال بمثل قوله[٢]:

فبِتْنا معاً لا يَخْلُصُ الماءُ بيننا   إلى الصبح دونى حاجبٌ وستورُ

وقد مضى يحض حضاً صريحاً على الإثم ويغرى الناس بفتنة الجسد، وكأنما لم يعد لجمال المرأة عنده من معنى نفسى سام ، فقد رُدَّ جمالها كله إلى جسدها وأصبحت فى رأيه أداة للغريزة الجنسية،أداة طيعة تنال مهما تأبَّت واستعصت، إذ لا تلبث أن ترضى وأن تُبْلغ الرجل منها ما يريد ، يقول[٣]:

لا يُؤْيِسنَّك من مخبَّأةٍ   قولٌ تغلّظه وإن جَرحا
عُسْرُ النساءِ إلى مياسرةٍ   والصعبُ يمكن بعد ماجمحا

ويحاول أن يبرر المعصية ، فيحلّ القبلة ، ويغرى باجتناء زهرات الجسد واقتطاف ثمراته ، بل خطيئاته ، دون التفات إلى الناس وإلى عُرْفهم وألسنتهم، فالحياة فرص واستمتاع جسدى ، بل هجوم على هذا الاستمتاع وما يُطْوَى فيه من لذة وإثم ، يقول[٤] :

قالوا حرامٌ تلاقينا فقلتُ لهم   ما فى التلاقى ولا فى قُبْلةٍ حَرَجُ
من راقب الناس لم يظفر بحاجته   وفاز بالطيِّبات الفاتك اللَّهِجُ

ومن أجل ذلك كله ضاق به الوعاظ وأهل الصلاح وهتفوا به فى وعظهم وكلامهم، ولم يَرْعَوِ فرفعوا أمره إلى السلطان،وتدخل المهدى ونهاه فانتهى ، ولكن بعد فوات الأوان وبعد أن شاع غزله الفاجر على كل لسان ، وكان مما هيأ لذلك تعلُّق الجوارى والقيان بهذا الغزل وتغنيهن فيه ، وكان جمهورهن مثل بشار لا يعصمهن خلق ولا عرف ولا دين ، وكان قد انغمس بعض الناس فى اللذات . وقد يكون من المبالغة أن نجعل بشاراً وحده المسئول عن شيوع هذا الغزل العاهر ، فقد كان يشركه فيه المجان من حوله فى البصرة والكوفة وبغداد ، ولكنه على كل حال يعد

---

(١) أغانى ١٨٣/٣ وما بعدها .
(٢) المختار من شعر بشار ص ٢٤١ .
(٣) أغانى ٢٠٩/٣ .
(٤) أغانى ٢٠٠/٣ .

فى طليعة من روّجوا له بحكم خصب ملكاته الشعرية . وقد مضى يكثر من وصف مجالس اللهو والغناء ، وله مقطوعات بديعة يصور فيها غناء بعض القيان ومدى ما كنّ يخلبن به الألباب من غنائهن وضربهن على آلات الطرب[1] ، وقد تغنى طويلا بالخمر وكئوسها ودنانها ونُدْمانها وسُقاتها من مثل قوله[2]:

ربَّ كأسٍ كالسَّلسبيل تعلَّلْـ مْتُ بها والعيون عنى نيامُ
حُبِسَتْ للشُّراة فى بيت رأسٍ عُتِّقَتْ عانساً عليها الخِتام[3]
نَفَحَتْ نَفْحةً فهزَّتْ نديمى بنسيمٍ وانشقَّ عنها الزُّكام
وكأنَّ المعلولَ منها إذارا حَ شَجٍ فى لسانه بِرْسام[4]
صدَمتْه الشَّمولُ حتى بعينيْـ ـه انكسارٌ وفى المفاصل خام[5]
وهْو باقى الأطراف حَيَّتْ به الكأ س وماتتْ أوْصاله والكلام[6]

وهو يصور صفاءها وقدمها وشذاها الذى يشق الزكام ، وتأثيرها الجسدى فى الشارب وما تصيبه به من هذيان ومن فتور فى العيون وارتخاء فى المفاصل ، ثم ما تنزل به من هدوء وسكون وصمت حتى لكأنما ماتت أوصاله ومات الكلام . وهو يتصل فى وصفه للخمر بتراثها القديم عند الأعشى وأضرابه وما أضيف إليه عند الوليد بن يزيد ونُظَرائه ، فى الوقت نفسه يُعَدُّ مقدمة للماجنين من حوله ومن بعده لكى يزيدوا فى الطنبور ما شاءوا من أنغام وألحان .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور كيف أن بشارا تمسك بالتراث الفنى وأصوله التقليدية وكيف مضى ينميه ويلائم بينه وبين حياته العقلية الخصبة وما عاش فيه من حضارة مادية حفّت بها المجون . وقد حاول ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، أن يجدد فى شكل القصيدة ، فنظم فى الرباعيات وفى المزدوج والمسمطات ، غير أنه ظل محتفظًا للغة الشعر بأساليبها الجزلة الرصينة، وقد يرقّ ويلين ، ولكن دون

---

(١) أغانى ٣/١٦٥ .
(٢) أغانى ٣/٢٣٥ .
(٣) بيت رأس : من قرى فلسطين وتشتهر بالكروم والخمر.
(٤) البرسام : مرض يصحبه هذيان ، وهو يريد الهذيان نفسه .
(٥) الشمول : الخمر . خام هنا : ارتخاء، وأصله طاقات الزرع الغضة .
(٦) حيت : حييت .

أن يصيب أساليبه ضعف أو وهن ، إذ كان يفقه أسرار اللغة فقهًا دقيقًا وكل ما يتصل بتلك الأسرار من رونق وبهاء وجمال .

٢

أبو نواس[1]

إذا مضينا بعد بشار إلى الجيل الذى خلفه رأينا تأثره بالحضارة الفارسية المادية يزداد اتساعًا كما تزداد ثورته على العُرْف والخلق والدين الحنيف ، حتّى لتتحول فى بعض جوانبها إلى صياح وعجيج وضجيج ، وطبيعى أن ذلك لم يكن عامًّا بحيث يشمل الجيل كله ، فقد كان هناك الفقهاء والوعاظ وأهل الصلاح ، إنما كان ذلك يَسْرِى بين نفر من الشعراء الذين كانوا يختلفون إلى دور النخاسة وحانات المجون وبيوت اللهو والعبث ، فإن تركوها فإلى دورهم التى حوّلوها إلى مقاصف للخمر والغناء يتطارحون فيها أشعارهم المعبرة عن غرائزهم وكل ما اقترن بها من شذوذ الغزل بالغلمان .

وأبو نواس الحسن بن هانئ هو أهم شاعر يصور هذا الفساد الخلقى من جميع نواحيه ، وهو فارسى الأم والأب أيضًا ، وقد انبهم أمر أبيه وجنسه على بعض الرواة حين رأوه ينتسب لآل الحكم بن الجراح من بنى سعد العشيرة اليمنيين ويتكنى بكنية يمنية هى أبو نواس ، وكذلك حين رأوا فى أخبار هذا الأب أنه كان من جند مروان ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، مما جعل بعض المعاصرين يظن أن أباه من أهل الشام بينما ذهب بعض الأقدمين إلى أنه عربى ، وتمادوا فصنعوا له نسبا فى بنى سعد

---

(١) راجع فى أبى نواس وترجمته وشعره الشعر والشعراء ص ٧٧٠ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص١٩٣ والأغانى (طبع الساسى) ١٨ / ٢ وتاريخ بغداد ٧ / ٤٣٦ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٤ / ٢٥٤ وابن خلكان فى الحسن بن ابن هانىء ونزهة الألبا ص٩٩ وشذرات الذهب ١ / ٣٤٥ ومرآة الجنان ١ / ٤٤٩ والموشح للمرزبانى ص ٢٦٣ وأخبار أبى نواس لابن منظور ولأبى هفان وأبو نواس لعبد الرحمن صدق وله أيضاً فى خمرياته كتاب ألحان الحان طبع دار المعارف وانظر أيضاً « أبو نواس الحسن بن هانىء » للعقاد نشر مكتبة الأنجلو المصرية ومقالات طه حسين عنه فى حديث الأربعاء الجزء الثانى. وديوانه طبعة آصاف ، وقد طبع عدة طبعات .

العشيرة[١] . والصحيح أنه كان مولى فارسيًّا من موالى الجراح بن عبد الله الحكمى[٢] والى خراسان لعهد عمر بن عبدالعزيز ، ويظهر أنه انتظم فى جند الخلافة[٣] ، وقدنزل مع فريق منهم بالأهواز لعهد مروان بن محمد (١٢٧–١٣١ هـ) وهناك تعرَّف على جارية فارسية تسمى جُلَّبان كانت تغزل الصوف وتنسجه ، فاقترن بها ورُزِقَ منها عدة أولاد[٤] ، منهم أبو نواس ، واختلف الرواة فى السنة التى ولد فيها ، والراجح أنها سنة مائة وتسع وثلاثين للهجرة[٥] ، ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفى أبوه ، فنقلته أمه إلى البصرة ، وقامت على تربيته ، وسرعان ما دفعته إلى الكُتَّاب ، فحفظ القرآن وأطرافًا من الشعر ، وتفتَّحت موهبته ، فأخذ يلهج ببعض الأشعار ، وكان مليحًا صبيحًا[٦] ، ويقال إن صبية وضيئة الوجه مرت به فمازحته ساعة ، ثم رمت إليه بتفاحة معضَّضة ، فقال على البديهة من أبيات[٧] :

ليس ذاك العَضُّ من عيبٍ لها إنما ذاك سؤالٌ لِلقُبَلْ

وشبَّ الغلام فأخذ يختلف إلى حلقات المسجد الجامع يتزود من الدراسات اللغوية والدينية ومن الشعر القديم ومعانيه غير أن أمه رأت أن تلحقه بأحد العطارين ، فكان يذهب فى العشىّ إلى المسجد يستمع من أبى عبيدة أخبار العرب وأيامهم ، ويلتقط من أبى زيد غرائب اللغة ومن خلف الأحمر نوادر الشعر[٨] وساقه القدر ليتعرَّف على والبة بن الحُباب أحد مجان الكوفة المشهورين ، ويقال إن هذه المعرفة نشأت فى البصرة ، ويقال بل إن عامل الأهواز طلب صاحبه العطار ، فوافقه ، وكان عنده والبة ، فلم تكد تقع عينه على أبى نواس حتى استظرفه ، فحثَّه على أن يصطحبه معه إلى الكوفة ، ولم يتردد الغلام ، فمضى معه[٩] ، ويقال إن الذى أرغبه

---

(١) انظر أخبار أبى نواس لابن منظور ص ٣.

(٢) الاشتقاق لابن دريد (نشر الخانجى) ص ٤٠٦ وابن المعتز ص ١٩٤ وأبو هفان ص ١٠٩ ، ١٢١ .

(٣) وقيل : بل كان كاتباً من كتاب الخراج وقيل بل كان حائكاً . انظر ابن منظور ص ٤ .

(٤) ابن المعتز ص ١٩٤ وابن منظور ص ٤ وما بعدها .

(٥) ابن المعتز ص ١٩٤ وانظر ابن منظور ص ٥ .

(٦) راجع ابن منظور ص ٦ وابن المعتز ص ٢٠٨ وذيل زهر الآداب للحصرى ص ٩٤ .

(٧) ابن المعتز ص ٢٠٨ .

(٨) ابن منظور ص ٢٣ وما بعدها وأبو هفان ص ١٠٩ .

(٩) ابن المعتز ص ١٩٤ وابن منظور ص ٧ وما بعدها وتاريخ بغداد ١٣ / ٤٨٧ . وأبو هفان ص ١٠٩ .

فيه حسنِ شعره وما سمعه على لسانه من قوله[١]:

ولها ولا ذنبٌ لهـا حُبٌّ كأطراف الرماحِ
فى القلب يَجْرَحُ دائماً فالقلبُ مجروحُ النواحى

وربما كان من دوافع رحلته معه وإغراقه — فيما بعد — فى المجون أنه كانت تؤذيه سيرة أمه فى البصرة[٢]، فارتحل معه، وأخذ يَعُبُّ من الخمر كى ينسى أمه، وكان كالمستجير من الرمضاء بالنار، فقد وقع فى حبائل شيطان كبير، غمسه فى كل ما كان يقع فيه من خطايا وآثام هو ورفاقه مجّان الكوفة من أمثال مطيع بن إياس وحماد عجْرد، وكأنما كتب القدر عليه أن يصبح ضريبة الفسق والمجون لعصره. وثاب قليلا إلى رشده، فخرج إلى بادية بنى أسد، وظل بينهم حولا كاملا يتزود من ينابيع اللغة[٣]، وعاد، ولكنه ولّى وجهه نحو موطنه، وأخذ يفد على المربد بألواحه للقاء الأعراب الفصحاء[٤]، كما أخذ ينهل من دروس اللغويين ومحاضراتهم وخاصة خلفاً الأحمر الذى حثّه على حفظ الشعر القديم وحفظ المئات من أراجيزه، وكان خلف من أشعر رواة عصره وأعلمهم فحمل عنه أدبا واسعًا، وفيه يقول فى بعض مراثيه له[٥]:

أوْدَى جِماعُ العلم إذ أوْدَى خَلَفْ من لا يُعَدُّ العلمُ إلا ما عَرَفْ
كنا متى ما نَدْنُ منه نَغْتَرِفْ روايةً لا تُجْتَنَى من الصُّحُفْ

ولم يكتف بالشعر واللغة فقد طلب الفقه والتفسير والحديث حتى قالوا إنه: «كان عالما فقيهاً عارفا بالأحكام والفُتْيا بصيراً بالاختلاف صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه»[٦]. وطلب أيضًا علم الكلام عند النظام وغيره من المتكلمين، ومرّ بنا فى الفصل السابق كيف كان يستظهر مصطلحاتهم فى أشعاره، وبلغ من إتقانه لهذا العلم أن أكّد بعض الرواة أنه بدأ متكلمًا ثم انتقل إلى نظم الشعر[٧]. وقد وصله هذا العلم

(١) ابن المعتز ص ٢٠٨.
(٢) ابن منظور ص ٣٢ وما بعدها.
(٣) ابن منظور ص ١٢.
(٤) الحيوان ٦/٢٣٩.
(٥) الديوان ص ١٣٣.
(٦) ابن المعتز ص ٢٠١.
(٧) ابن المعتز ص ٢٧٢ وانظر الحيوان ٤/٤٥٠

بالثقافات التى كان يتصل بها المتكلمون، ومرت بنا أمثلة تصور أخذه من الثقافات الهندية ، ولا شك فى أن اتصاله بالثقافتين الفارسية واليونانية كان أكثر عمقاً فقد كان فارسى الأصل ، وكان يحسن الفارسية إحساناً بعيداً جعله يلوك كثيراً من كلماتها فى أشعاره ، ولا بد أنه نظر فيما ترجمه ابن المقفع وغيره من آدابها المختلفة ، وأيضاً لا بد أنه نظر فى الفلسفة اليونانية وما اتصل بها من منطق بحكم تثقفه بعلم الكلام، إذ كان المتكلم لا يتمكن فى هذا العلم ولا يجمع أفكاره « حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة »[١] . وفى خمرياته ما يدل دلالة واضحة على أنه وقف وقوفاً دقيقاً على طقوس المجوس واليهود والنصارى وعقائدهم[٢] . وتفرّغ للنوادر والملح وحفظ منها شيئاً كثيراً[٣] ، وتصادف أن كان خفيف الروح ظريفاً[٤] ، مما أعدّه لتكثر مطايباته ومداعباته ، وليكون سميراً للخلفاء والوزراء ويصف ذلك من نفسه ليحيى بن خالد البرمكى ، فيقول:[٥]

كم من حديثٍ معجبٍ لى عندكا ... لو قد نبذتُ به إليك لسرّكا

إنى أنا الرجلُ الحكيم بطبعه ... ويزيد فى علمى حكاية من حكى

أتتبّع الظرفاءَ أكتب عنهمُ ... كيما أحدّث من أحبُّ فيضحكا

وعلى الرغم من ظرفه لم يكن قريباً من نفس المرأة التى عاصرته ، فقد كانت تـزْدرى فيه غلامياته وسيرته الشاذة ، وكانت أول امرأة شغفته حبا ، وهو لا يزال فى البصرة يختلف إلى المربد وحلقات العلماء؛ جنان جارية الثقفيين ، وعقد أبو الفرج فصلا فى أغانيه[٦] لأشعاره فيها وأخباره معها ، ونراه يرسل لها بغزلياته ، وترسل له بسبّها وشتمها ، وهو يزداد بها شغفاً ، حتى ليقول[٧]:

أتانى عنك سَبُّكِ لى فسُبّى ... أليس جرى بِفيك اسمى فحَسْبى

وقُولى ما بدالكِ أن تقولى ... فما ذا كلُّه إلا لحُبّى

وغزله فيها غزل عفيف لا فحش فيه . وجذبته بغداد فيمن جذبت من شعراء

---

(١) الحيوان ٢/١٣٤ .

(٢) انظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص١٢٣ وأبا هفان ص٢٥ والديارات للشابشتى (طبع بغداد) ص ١٣١ .

(٣) ابن المعتز ص ٢٠١ .

(٤) ذيل زهر الآداب ص ٩٤ .

(٥) ذيل زهر الآداب ص ٢٢ .

(٦) أغانى (طبع الساسى) ٢/١٨ وما بعدها.

(٧) الديوان ص ٣٦٢ .

البصرة ، ففارق موطنه إلى غير رجعة لا باكيًا عليه ولا آسفًا ، إذ كانت حياته فيه سلسلة من الإخفاق فى علاقته بجنان وعلاقته بالرفاق حتّى كان يشعر كأنه سليب الحرية ، وفى ذلك يقول[1] :

أيا من كنت بالبَصْر ة أصفى لهم الوُدَّا
ومن كانوا مـوالىَّ ومن كنت لهم عَبْدا
ومن قد كنت أرعاه وإن ملَّ وإن صَدَّا
شربنا ماءَ بغدادٍ فأنسانا كم جـدًّا
فلا تَرْعوْا لنا عَهْدا فما نَرْعَى لكم عَهدا

ولم يلبث حين قدم بغداد أن قدّمه هرثمة بن أعين إلى الرشيد فمدحه ونال جوائزه ، وأخذ ينفقها فى مباذله ، غير تارك حانةً بالكرخ أو فى ضواحى بغداد إلا ارتادها ، ملمًّا من حين لآخر بدير من الأديرة المنبثّة على شواطئ دجلة ، وكأنما تحولت حياته إلى حانة كبيرة يقترف فيها كل ما لذّ له من إثم وفجور ، وارتقى ذلك إلى سمع الرشيد فحبسه مراراً لعله يزدجر[2] ، ولكنه كان سرعان ما يعود إلى سيرته السيئة حين تُرَدُّ له حريته . وقد غضب عليه غضبًا شديداً حين رآه يهجو عدنان ويفتخر بقحطان ومواليه اليمنيين ، فأطال حبسه[3] ، ثم عاد فعفا عنه ، وربما كان للبرامكة أثر فى هذا العفو المتكرر ، فقد كانوا يقربونه منهم ويغدقون عليه من برّهم ونوالهم الغَمْر ، ونراه يحزن عليهم حزنًا عميقًا حين ينكبهم الرشيد سنة ١٨٧ للهجرة ويرثيهم بمثل قوله[4] :

لم يظلم الدهرُ إذ توالتْ فيهم مصيبـاتُه دِراكا
كانوا يجيرون مَنْ يُعادى منـه فعاداهمُ لذاكا

ويولّى وجهه نحو الفسطاط بمصر ، ليمدح والى الخراج بها الخصيب بن عبد الحميد ، وكان فارسيًّا مثله . وقد استقبله استقبالا حافلا ، وأضفى عليه من

---

(١) الديوان ص ١٦٦ .
(٢) أبو هفان ص ١٠٠ والموشح ص ٢٨٧ .
(٣) ابن منظور ص ١٥ .
(٤) أبو هفان ص ١٢١ .

نواله كثيراً ، كما أضفى عليه أبو نواس غير مدحة ، وله يقول[١] :

أنتَ الخصيبُ وهذه مِصْرُ فتدفَّقا فكلاكما بَحْرُ

النيلُ يُنْعِش ماؤه مصراً ونداك ينعش أهلَه الغَمْرُ

وسرعان ما أخذ يحن حنيناً شديداً إلى بغداد حيث المجون قائم على قدم وساق ، وصوَّر هذا الحنين بصور مختلفة ، من مثل قوله[٢] :

كفى حَزَناً أنى بفسطاط نازحٌ ولى نحو أكناف العراق حَنينُ

وعاد إلى بغداد ولم يلبث الرشيد أن توفى وخلفه الأمين (١٩٣ — ١٩٨ هـ) وكان فيه ميل شديد إلى اللهو فحوَّل قصر الخلافة إلى مقصف كبير للغناء والرقص ، واتخذ أبا نواس نديماً له يمدحه وينظم له ما شاء من غزل وخمر ، واستغلَّ ذلك المأمون حين عزم على حرب الأمين ، « فكان يعمل كتبا بعيوبه تُقْرَأ على المنابر بخراسان ، وكان مما عابه به أن قال إنه استخلص رجلا شاعراً ماجناً كافراً يقال له الحسن بن هانئ ليشرب معه الخمر ويرتكب المآثم ويهتك المحارم ، وهو القائل :

ألا فاسْقِنى خمراً وقل لى هى الخَمْرُ ولا تَسْقنى سراً إذا أمكن الجَهْرُ

وبُحْ باسْمِ من تَهْوَى ودَعْنى من الكُنَى فلا خَيْرَ فى اللذات من دونها سِتْرُ

وكان يقوم رجل بين يديه فينشد أشعار أبى نواس فى المجون » . فاتصل ذلك بالأمين فنهى أبا نواس عن الخمر ولم ينته ، حينئذ أغراه الفضل بن الربيع وزيره بحبسه ، فحبسه ، وقد مضى فى حبسه يستعطف الفضل بأشعار مشيعاً فيها روحه الفكهة بما يُصَوِّر من نسكه وعلامات السجود فى جبهته وحمله للمسابيح أو السُّبح فى ذراعه وللمصحف فى لَبَّته .[٣] وعطف عليه الفضل فتلطف له عند الأمين وردَّ إليه

(١) الديوان ص ١٠٢ .
(٢) الديوان ص ٣٩٩ وانظر ص ٩٧ .
(٣) الديوان ص ١٠٨ .

حريته[١] . وكانت قد تقدمت به السن وعلته كبرة وشيخوخة ، فأخذ يُنيب إلى ربه ، وينظم أبياتاً مختلفة في الزهد ، وفي أخباره ما يدل على أنه تنسك مراراً ، ثم عاد إلى غيّه ، وربما رقيت فترات هذا النسك إلى زمن الرشيد ، وحين كان يُلْقَى به في السجن ، إذ يقال إنه حجّ سنة ١٩٠ للهجرة[٢] ، وكأنما هي صحوات كان يفيق فيها ثم يرجع إلى خطاياه . وتوفي الأمين ، ولم يلبث أن توفي من بعده ، وقد اختلف الرواة في تاريخ وفاته[٣] ، فمنهم من تقدم به إلى سنة ١٩٥ ومنهم من تأخر به إلى سنة ١٩٩ وقيل بل توفي بعد المائتين بقليل وفي ديوانه رثاء للأمين يشهد بأن وفاته لم تكن قبل سنة ١٩٨ . واختلف الرواة أيضاً في سبب وفاته[٤] ، فقيل إنه توفيّ وفاة طبيعية وقيل بل هجا إسماعيل بن نوبخت هجاء مقذعا ذكر فيه أمه ورماه بالبخل والرفض ، فدسّ له شربة من سمّ قتلته بعد أربعة أشهر ، وقيل بل دسّ له مَن ضربه حتى مات .

ولعل فيما قدمنا ما يدل بوضوح على أن عناصر كثيرة اشتركت في تكوين طبيعة أبي نواس ، فقد كان فارسياً حاد المزاج وثقف كل الثقافات التي عاصرها من عربية وإسلامية ومن هندية وفارسية ويونانية ومن مجوسية ويهودية ونصرانية ، وغرق في حضارة عصره المادية وفي آثامها وخطاياها ، تدفعه إلى ذلك أزمته النفسية العنيفة إزاء سيرة أمه المنحرفة وكأنما اتخذ من المجون والفسق أداة ، بل ملجأ ، للهروب من أزمته ومن هموم الحياة وأحزانها ، وتردّى في أسوأ صور المجون ونقصد غزله الشاذ بالغلمان . ونراه أحياناً يعلن تمرداً وإلحاداً في الدين ، ولكنه إلحاد عابر ، لا إلحاد عقيدة كإلحاد بشار ، فقد كان بشار زنديقاً ، وكان يظهر زندقته حين لا يخشى على نفسه ، ويبطنها حين يأخذه الخوف ، أما أبو نواس فلم يكن يعتنق الزندقة إنما كان يعتنق المجون ، ويتعبد لملاذّ الحضارة التي عاشها ، فصاح بالدين الحنيف كأنه يرى فيه عائقاً عن خمره ومجونه وإثمه . وهو من هذه الناحية مضطرب

---

(١) زهر الآداب ٢/١١١ وما بعدها وذيل زهر الآداب ص ١٣٦ وما بعدها والوزراء والكتاب للجهشياري ص ٢٩٥ وما بعدها .

(٢) أبو هفان ص ٩٨ وانظر النجوم الزاهرة ٢/١٥٦ .

(٣) ابن منظور ص ٥ والشعر والشعراء ص ٧٨٣ .

(٤) أبو هفان ص ٣٤ .

أشد الاضطراب تارة يغلن دهريته وأنه لا يؤمن ببعث ولا نشور[١] وتارة يعلن أنه مؤمن عاص ، وأنه على الرغم من جهره بعصيانه وفسقه يعتمد على عفو الله ومغفرته على نحو ما مرّ بنا فى الفصل السابق وحواره للنظام فى فكرة العفو التى قال بها المرجئة[٢] .

ولا بد أن نلاحظ مع ذلك كله عنصراً مهمًّا فى مزاجه هو عنصر التنذير والميل إلى الهزل والعبث ، ولعل ذلك هو الذى جرّه إلى صياح كثير فى وجه الدين الحنيف ، وكان إذا تلوَّمه بعض معاصريه قال : « والله ما أدين غير الإسلام ولكن ربما نَزَا بى المجون حتى أتناول العظائم»[٣] وهو بذلك يعترف أن جمهور هذا الصياح إنما كان ينظمه فى أثناء معاقرته للخمر هزلا وتعابثا ومجانة ، ومن أجل ذلك ترددت نبراته فى خمرياته ، إذ نراه فى ثناياها يهاجم الدين أو يهاجم العرب ووقوف شعرائهم على الأطلال ، حتى إذا صحا وعادت إليه يقظته أوقف ثورته على الدين والعرب جميعاً ومضى يقدم لمدائحه بوصف الأطلال وبكاء الديار ونَعْت رحلته فى الصحراء على ناقته أو بعيره . .

وأبو نواس — على الرغم من مجونياته — يُعَدُّ من أعاجيب عصره فى الشعر ، إذ كان يحظى بملكات شعرية بديعة ، وهى ملكات صقلها بالدرس الطويل للشعر القديم واللغة العربية الأصيلة ، حتى قال الجاحظ : « ما رأيت أحداً أعلم باللغة من أبى نواس»[٤] وأضاف إلى هذا العلم علما دقيقاً بقوالب الشعر الجاهلى والإسلامى وما صارت إليه عند بشار وأضرابه من أوائل العباسيين ، ومن خلال هذه القوالب جميعها أخذت شخصيته تنمو فى اتجاهين : اتجاه يحافظ فيه على التقاليد الموضوعة دون أن يشتط فى التجديد ، واتجاه يجدد فيه تجديداً واسعاً ، يجدد فى معانيه وألفاظه .

ويمكن أن نسلك فى الاتجاه الأول مدائحه وأراجيزه ومراثيه ، بينما نسلك فى الاتجاه الثانى أهاجيه وغزلياته وخمرياته وكل ما يتصل بعبثه ولهوه . أما المديح

(١) أبو هفان ص ٣٧ .
(٢) انظر الديوان ص ٢٣٥ .
(٣) أبو هفان ص ٣٨ .
(٤) تاريخ بغداد ٧/٤٣٧ .

فكان كثيراً ما يحتفظ فيه بمقدماته القديمة وله فى ذلك قلائد بديعة مثل رائيته فى الخصيب[١] :

أجارة بَيْتينا أبوكِ غَيورُ وميسورُ ما يُرْجَى لديكِ عسير

وميميته فى الأمين[٢] :

يا دارُ ما فعلتْ بك الأيَّامُ لم تُبْقِ فيكِ بشاشةً تُسْتامُ[٣]

ويلاحظ أنه لم يكن يطيل مثل بشار فى وصف رحلته بالصحراء وأنه كان يتعمق أكثر منه فى المبالغة حين يلم بنعت الممدوحين كقوله فى الرشيد[٤] :

وأخفتَ أهل الشِّرْك حتى إنه لتخافك النُّطَفُ التى لم تُخلَقِ

وقوله أيضاً فيه[٥] :

ملكٌ تصوَّر فى القلوب مثالُهُ فكأنه لم يَخْلُ منه مكانُ

وقوله فى الأمين مخاطباً ناقته[٦] :

يا ناقُ لا تَسْأَمى أوتبلغى ملكا تقبيلُ راحته والرُّكْنِ سيَّانِ

محمدٌ خير من يَمْشِى على قَدَمٍ مِمَّنْ بَرَا اللهُ من إنْس ومن جانِ

ونراه فى هذه القصيدة يضفى على الأمين هالة كبيرة من القدسية والجلال حتى ليشبهه بالرسول صلى الله عليه وسلم على الرغم مما كان يتردَّى فيه من لهو ومجون ، واستطرد فى تضاعيف ذلك يقرر حق العباسيين فى الخلافة رادًّا ردًّا عنيفاً على بنى عمهم العلويين . ومن مبالغاته الطريفة قوله فى بعض ممدوحيه[٧] :

تغطَّيتُ من دهرى بظِلِّ جناحِه فعَيْنى ترى دَهْرى وليس يرانى

فلو تُسْأَل الأيامُ ما اسمى لمادرتْ وأين مكانى ما عرفْنَ مكانى

وجانب آخر فى بعض مدائحه يمتاز به من بشار فإنه كان يعمد كثيراً إلى

---

(١) الديوان ص ٩٨ .
(٢) الديوان ص ٦٣ .
(٣) تستام : ترى
(٤) الديوان ص ٦٢ .
(٥) الديوان ص ٥٩ .
(٦) الديوان ص ٦٥ وما بعدها .
(٧) الديوان ص ٩٧ .

الألفاظ العذبة الرشيقة التى تموج بالنعومة والخفة فيؤلف منها مدائحه على شاكلة سينيته فى الأمين وفيها يقول[1] :

أضحى الإمام محمدٌ للدين نورًا يُقْتَبَسْ
تبكى البدورُ لضِحْكِهِ والسيفُ يضحك إن عَبَسْ

وكان له حس دقيق وذوق مرهف ، يعرف عن طريقهما كيف يختار أرق الألفاظ وأرشقها وأخفَّها فى النطق وأحلاها فى السمع ، وكان يدنو فى ذلك حتى يمس شغاف القلوب ، إذ كان يحسن اختيار أسهل الألفاظ وأيسرها وأقربها إلى ما يجرى على ألسنة الناس فى حياتهم اليومية . ومن أجل ذلك كان يتجافى عن ألفاظ القدماء ، حتى فى المديح ، أو قل فى كثير منه ، فإنه كان يبتغى فيه أو على الأقل فى بعضه أن يأخذ بألباب سامعيه بما يعرض عليهم من لغة عذبة تسيل خفة ورشاقة .

وأبو نواس فى أراجيزه ووصفه للصيد وأدواته وجوارحه أكثر تمسكًا بالقوالب القديمة ، وقد سبقه ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، أبو نُخَيلة وأضرابه من شعراء العصر الأموى مثل الشَّمَرْدَل إلى اتخاذ الرجز أداة لهذا الوصف ، ومضى فى إثرهم يحاكيهم فى التمسك بهذا القالب وكل ما يتصل به من لفظ غريب . وقَرَن بهذه المحاكاة الشديدة ضروباً من التجديد فى المعانى والصور على شاكلة قوله فى إحدى طردياته[2] :

لما تبدَّى الصُّبْح من حجابِهِ كطلعة الأَشْمَط من جلبابِهِ[3]
وانعدلَ الليلُ إلى مآبِهِ كالحبشىِّ افترَّ عن أنيابه
هِجْنا بكلب طالما هِجْنا بهِ يَنْتَسِفُ المِقْوَدَ من كَلاَّبه[4]
كأن مَتْنَيه لدى انسِرابهِ مَتْناشجاعٍ لَجَّ فى انسيابه[5]

(١) ابن المعتز ص ٢١١ .
(٢) الديوان ص ٢١٠ والحيوان ٢/٤٠ .
(٣) الأشمط : الذى يخالط سواد شعره بياض الشيب .
(٤) ينتسف : ينتزع بقوة .
(٥) انسرابه : انسيابه وإسراعه . الشجاع هنا : الأفعى ، متناه : مكتنف صلبه .

كأنما الأظفورُ فى قِنابهِ ... مُوسَى صَناعٍ رُدَّ فى نِصابهِ[١]
كأن نَسْرًا ما توكَّلْنا بهِ ... يعفو على ما جَرَّ من ثيابهِ[٢]
ترى سَموام الوحش يُحتَوى بِه ... يَرُحْنَ أسْرَى ظُفْرِه ونابه[٣]

وتمتلئ طردياته بمثل هذه الصور ، وهى تُعَدّ ركنا هامًّا فى شعره إذ كان يكثر من التشبيهات والاستعارات ، وكان يعرف كيف يجدد فيها وكيف يأتى بالطريف النادر .

وكان يتخير لمراثيه أسلوبًا جزلا مصقولا ، وقد يكثر فيه من الغريب ، وخاصة إذا كان من يبكيه من اللغويين مثل خلف الأحمر أستاذه ، وقد يتخفف من ذلك ، ولكنه على كل حال يظل محتفظًا بالأسلوب الرصين . وهو فى مراثيه يمتاز بحرارة اللهجة وصدق العاطفة ، وربما كان أجودها جميعًا مراثيه فى الأمين ، وهى تفيض باللوعة والحزن العميق من مثل قوله[٤] :

طوى الموتُ ما بينى وبين محمَّدٍ ... وليس لما تَطْوى المنِيَّةُ ناشرُ
فلا وصلَ إلا عَبْرَةٌ تستديمها ... أحاديثُ نَفْسٍ مالها الدهرَ ذاكر
وكنت عليه أحذر الموت وحده ... فلم يبق لى شىءٌ عليه أحاذر
لئن عَمرتْ دورٌ بمن لا أودُّه ... لقد عَمرتْ ممن أحبُّ المقابرُ

ومن نفس هذا الأسلوب المتين المصقول أشعاره التى نظمها فى السجن يستعطف بها الرشيد والأمين ووزيره الفضل بن الربيع[٥] .

وإذا كان أبو نواس اعتدَّ فى كل تلك الأغراض بسنن الأسلوب الموروثة ، فإنه حاول أن يجدد فى الهجاء والغزل والمجون ، وأهاجيه نوعان : نوع تمسك فيه بالأوضاع التقليدية ، وذلك حين كان يهجو العدنانيين ويفخر بمواليه القحطانيين[٦] وكأننا نستمع إلى قصائد من نمط نقائض جرير والفرزدق ، فهى تعجّ بالمثالب

(١) الأظفور : الظفر ، قنابه : غطاؤه . صناع : ماهر . نصابه : قرابه ومقبضه .
(٢) توكلنا به : اعتمدنا عليه . يعفو : يمحو .
(٣) سوام الوحش : الوحش المنطلقة فى الفيافى .
(٤) الديوان ص ١٢٩ .
(٥) الديوان ص ١٠٦ وما بعدها .
(٦) الديوان ص ١٥٥ وما بعدها .

القبلية التى عرفها فى نقائضهما والتى طالما سمعها من أبى عبيدة وهو يحاضر فيها طلابه بالبصرة ، ونوع ثان كان يجرى فيه فى نفس الدروب التى مهَّدها من قبله بشار ، إذ نراه يشغب على العرب من جهة ، ويحاول أن يطلق على خصومه نفس السهام المسمومة التى كان يطلقها بشار وبعض من عاصروه . وأبو نواس لا يشغب على العرب شغب شعوبية كشعوبية بشار ، فشعوبيته — إن صح هذا التعبير — من لون آخر ، ذلك أنه لا يوازن بين خشونة البدو وحضارة الفرس كما يصنع بشار وغيره من الشعوبيين الحقيقيين ، إنما يوازن بين تلك الخشونة والحضارة العباسية المادية وما يجرى فيها من خمر ومجون كان يعكف عليهما عكوفاً ، ويأخذ ذلك عنده شكل ثورة جامحة على الوقوف بالرسوم والأطلال وبكاء الديار ، ودعوة حارة إلى المتاع بالخمر على شاكلة قوله[1] :

عاج الشقىُّ على رسمٍ يسائلُهُ ... وعُجْت أسألُ عن خمَّارة البلدِ[2]

يبكى على طَلَل الماضين من أَسَدٍ ... لا دَرَّ دَرُّك قل لى من بنو أسدٍ؟

كم بين ناعتِ خمرٍ فى دَساكرِها ... وبين باكٍ على نُؤْىٍ ومنتَضَدِ[3]

دَعْ ذا ، عَدِمتك ، واشربْها معتَّقَةً ... صفراء تفرق بين الروح والجسد

ونحن نظلم أبا نواس إذا سمينا ذلك — كما ذهب بعض المعاصرين[4] — شعوبية حقة ، إنما هو تماجن وإمعان فى التماجن . ولذلك لم يرفض هو نفسه البكاء على أطلال البادية ، بل لقد بكاها كثيراً . وقد دفعته حدة مزاجه إلى الاصطدام بكثيرين من الشعراء وممن كان يمدحهم ويرعى على موائدهم مثل إسماعيل بن نوبخت وكان ما يزال يرميه بالبخل من مثل قوله[5] :

خُبْزُ إسماعيل كالوَشْـ ... ـىِ إذا ما انشقَّ يُرْفَا

عجبًا من أثر الصنْـ ... ـعَةِ فيه كيف يخفى

---

(١) الديوان ص ٢٦٦ .

(٢) عاج : عطف .

(٣) الدساكر : جمع دسكرة وهى القرية العظيمة . النؤى : حفرة حول الخيمة لمنع السيول ، منتضد : مكان تجمع الناس ، يريد ديار الحبيبة .

(٤) حديث الأربعاء (طبعة سنة ١٩٣٧) ص ١١٣ — ١١٤ .

(٥) الديوان ص ١٧٢ .

إن رفاءك هذا ألطفُ الأمــة كَفًا

وأهم شاعرين اصطدم بهما أبان بن عبد الحميد وفضل الرقاشي ، أما أبان فكان البرامكة يقيمونه على ديوان الشعر والشعراء يقدر جوائزهم ، فبخسه جائزته[1] ، ويقال بل إن البرامكة طلبوا إلى أبي نواس أن ينقل لهم كليلة ودمنة شعراً ، فنصح له أبان أن لا يصنع لما يجشمه ذلك من صعاب كثيرة ، فاستعفى منه ، وتخلى به أبان فترجمه ، وأعطاه البرامكة على ترجمته مالا جزيلا . وعرف ذلك أبو نواس وتبين له أنه احتال عليه ، فهجاه ونشبت بينهما خصومة عنيفة[2] ، كان أبو نواس ما يزال يرميه فيها بالزندقة واقتراف الآثام[3] ، وكان من أشد ما هجاه به على نفسه نعته له بصفات لا تليق بمن يكون سميراً للوزراء من أمثال البرامكة ، إذ يقول فى إحدى أهاجيه مصورا ثقله[4] :

فيك ما يَحْمل الملوكَ على الخُرْ قِ ويُزْرِى بالسيد الجَحْجاحِ[5]

فيك تِيهٌ وفيك عُجْبٌ شَديدٌ وطِماحٌ يفوق كلَّ طِمـاحِ

باردُ الظَّرف مظلِم الكذب تيَّا هٌ مُعيد الحديث غَثُّ المزاح

وكانت هذه الأبيات سببًا فى سقوط أبان عند البرامكة ، وصار له كالعَبْد لا يلقاه ولا يُذْكر له إلا بجلّه . ويظهر أن اصطدامه بفضل الرقاشي يرجع إلى تقديم أبان والبرامكة له ، وكان خليعًا ، فأتاه أبو نواس من هذا الجانب كثيراً ، وله يقول[6] :

واللهِ لو كنتُ جريرًا لمـا كنت بأَهْجَى لك من أَصْلكا

وله أهاج كثيرة فى القيان والمغنين ، وحتى مَنْ أكرموه مثل الخصيب والبرامكة لم يسلموا من هجائه ، وهو فيه دائمًا يلتمس السيئات وكثيراً ما يُفْضى إلى فحش وإقذاع شديد .

ولأبى نواس غزل كثير فى المرأة والغلمان ، وأروع ما له من غزل فى المرأة ما نظمه فى جنان ، إذ يعبّر فيه عن مشاعر صادقة ، ومن الغريب أنها كانت

---

(١) ابن المعتز ص ٢٠٢ .
(٢) ابن المعتز ص ٢٤١ .
(٣) الديوان ص ١٨٠ وما بعدها .
(٤) ابن المعتز ص ٢٠٣ .
(٥) الخرق : الحمق . الجحجاح : الجواد.
(٦) الديوان ص ١٧٨ .

تردُّه ردًّا منكراً عنيفاً ، وهو كلما ردَّته ازداد بها غراماً وعليها تهالكاً ، وكلف بها أشد الكلف ، وله فيها مقطوعات بديعة من مثل قوله ، وقد رآها تندب فى بعض المآتم[1]:

يا قمرًا أبصرتُ فى مأتمٍ ... يَنْدب شَجْوًا بين أَتْرابِ
أبرزه المأتَمُ لى كارها ... برغم داياتٍ وحُجَّاب
يبكى فيُذْرِى الدُّرَّ من نرجسٍ ... ويَلْطِمُ الوَرْدَ بعُنَّابِ[2]
لا تَبْكِ مَيْتًا حلَّ فى حُفْرَةٍ ... وابْكِ قتيلا لك بالباب
لا زال موتاً دَأْبُ أحبابه ... وكان أَنْ أُبْصره دابى[3]

وعبثا استطاع يوماً أن يلقاها ، مما جعله يصطلى حقًّا بحبها وناره المحرقة ، ويتعذب عذاباً طويلا ، بثَّه فى كثير من أشعاره ، ولعلها المرأة الوحيدة التى استأثرت بقلبه وملكت عليه كل شىء من أمره . ونراه فى بغداد يسوق غزلا كثيراً فى إمائها وجواريها ، يشوبه بكثير من الفحش الذى ينبو عنه الذوق ، حتى مع عنان جارية الناطفى ، وكانت شاعرة ظريفة ولها أيام تستقبل فيها الشعراء وتطارحهم الشعر ، ممعنة معهم فى كل ما يخوضون فيه من بذاءة تظرفاً ومعابثة[4] . وديوانه من هذه الناحية يصور الجوارى المبتذلات اللائى كان يجلبهن النخاسون إلى بغداد ، وكانت كثيرات منهن يقبلن على الخلاعة والمجون ، وقلما عَرَفْنَ شيئاً من العفة والطهارة .

ويتسع الفحش فى غزل أبى نواس الشاذ بالغلمان ، حتى ليصبح وصمة فى جبين عصره ، وإن كان ابن المعتز يلاحظ أنه كان يتستَّر بذلك عن فسقه الحقيقى بالجوارى الخليعات[5] . وإذا صح ذلك يكون من الخطأ أن تفسَّر نفسية أبى نواس على أساس هذه الآفة الشاذة التى كان يتظاهر بها ليخفى حقيقة سريرته وحياته الماجنة . وينبغى أن نلاحظ هنا ما أشرنا إليه فى حديثنا عن إلحاده ، فإن كثيراً من غزله المفحش فى الغلمان والنساء جميعاً كان ينظمه فى مجالس الخمر تعابثاً

---

(١) أغانى ١٨/٦ والديوان ص ٣٦١ .
(٢) استعار الدر للدمع والنرجس للعين والورد للخد والعناب لأطراف الأصابع .
(٣) الدأب : الشأن والعادة .
(٤) العقد الفريد ٦/٥٧ .
(٥) ابن المعتز ص ٣٠٩ .

ومجانة ، على أننا كثيراً ما نقع فى ثنايا هذا الغزل على أبيات رائعة من مثل قوله[١] :

يا مَنْ له فى عَيْنه عقْرَبُ ... فكلُّ مَنْ مرَّ بها تضربُ

ومن له شمسٌ على خَدِّهِ ... طالعـةٌ بالسَّعْد ما تَغْرُبُ

وهو أستاذ فن الخمرية فى الشعر العربى غير مدافَع سواء من حيث الكمية أو من حيث الكيفية ، فقد عاش للخمر يتغنَّى بها ، مجاهراً بالفسوق والمجون . وكان شىء من ذلك قد أخذ يشيع على ألسنة الشعراء منذ ظهور الوليد بن يزيد ، ونمَّاه بشار ومطيع بن إياس ووالبة بن الحباب وعصاباتهم من المجان فى البصرة والكوفة ، غير أن أبا نواس اتسع به اتساعاً شديداً ، فإذا الخمرية تتكامل صورتها وتُفْرَدُ لها القصائد والمقطوعات وتصبح فنًّا مستقلا ، له وحدته الموضوعية ، مستعينًا فى ذلك بملكاته العقلية الخصبة التى أمدته بكثير من المعانى الدقيقة ومستعيناً أيضًا بملكاته الخيالية التصويرية البديعة التى رفدته بكثير من التشبيهات والاستعارات البارعة ، وحتى إن فاته التصوير النادر والمعنى الدقيق أحيانًا فإنه لم تكن تفوته حلاوة النغم ورشاقة اللفظ . وقد مضى يتحدث عن كئوسها ودنانها وعتقها وطعمها ورائحتها ومجالسها مصوراً كلفه بها وهيامه وتهالكه على احتسائها من أيدى سقاتها بين آلات الطرب ورنَّات القيان ، يقول[٢] :

إنما العيشُ سماعٌ ومُـدامٌ ونِـدامُ

فإذا فاتك هـذا فعلى الدنيـا سلام

فلا حياة فى رأيه سوى حياة الخمر والمجون فى بيوت القيان وفى الحانات ، ومن ثَمّ مضى يدعو فى خمرياته دعوة واسعة إلى العدول عن وصف الأطلال إلى وصف الخمر والمتاع بما يقترن بها من غناء وسُقاة ، على نحو ما يصور ذلك فى قوله[٣] :

لا تَبْكِ ليلى ولا تطربْ إلى هِنْدِ ... واشْرَبْ على الورد من حمراء كالوردِ

كأساً إذا انحدرتْ فى حَلْق شاربها ... أَجْدَتْه حُمْرَتَها فى العين والخَدِّ[٤]

---

(١) الديوان ص ٤٠٧ .

(٢) العقد الفريد ٦/٢٢١ .

(٣) الديوان ص ٢٦٥ .

(٤) أجدته : أفادته وأعطته .

فالخمرُ ياقوتةٌ والكأْسُ لؤلؤةٌ في كفِّ جاريةٍ ممشوقة القَدِّ
تسقيك من يدها خَمْرًا ومن فمها خمرًا فما لك من سُكرين من بُدِّ

وأخذ يجدّف كثيراً ضد الدين الحنيف الذى يحرم الخمر وجملة الآثام التى كان يتردّى فيها ، معلناً ذلك إعلانـًا صريحًا بمثل قوله[1] :

ترى عندنا ما يُسْخطـ الله كلَّه من العمل المُرْدِى الفتى ماعدا الشِّرْكا

وقد يتمادى فى ذلك حتى ليعلن دهريته وأنه لا يؤمن ببعث ولا حساب ولا بجنة ولا نار ، وهو فى ذلك كله إنما يتماجن ويتعابث .

وكان كثيراً ما يلمّ بالأديرة ، فيصف معاقرته الخمر فيها وسُقاتها من الرهبان والراهبات ، وقد يلمُّ بحانة لمجوسى أو ليهودى . وأتاح له ذلك أن يصف كل تلك البيئات بالإضافة إلى حانات الكرخ ببغداد وعلى ضفاف دجلة ، وشعره من هذه الناحية ملىء بتصوير الحياة الاجتماعية لعصره .

وفى خمرياته فحش كثير ،وكأنما وُجد ليحمل ذنوب عصره وجميع خطاياه . على أنه ينبغى أن نلاحظ أنه وُضع عليه كثير من الشعر فى هذا الباب ، إذ تحول إلى ما يشبه شخصية أسطورية ، فإذا هو يدخل فى قصص ألف ليلة وليلة ، وإذا هو توضع فى فحشه ونوادره كتب مستقلة ، بدأها أبو هفان فى كتابه « أخبار أبى نواس » ومضت تتسع من بعده . وليس ذلك فحسب ، فإن كثيراً من أشعار المجّان الذين عاصروه أضيفت إليه ، وعَرف ذلك القدماء ، إذ نرى ابن قتيبة ينصُّ على أن الخمرية المشهورة : « ياشقيقَ النفس من حَكَم» تُنْسَبُ إليه وهى لوالبة[2] ، ويقول أبو الفرج فى ترجمة الحسين بن الضحاك الخليع إنه «كان إذا شاع له شعر نادر فى الخمر نسبه الناس إلى أبى نواس »[3] ويقول ابن المعتز : « إن العامة الحمقَ قد لهجت بأن تنسب كل شعر فى المجون إلى أبى نواس ، وكذلك تصنع فى أمر مجنون بنى عامر ، كلُّ شعر فيه ذكر ليلى تنسبه إلى المجنون »[4] ولم تقف المسألة عند العامة ، بل تعدتهم إلى الرواة ، وأيضًا لم تقف عند شعر الخمر والمجون

---

(١) الديوان ص ٢٥٠ .
(٢) الشعر والشعراء ص ٧٧١ .
(٣) أغانى ١٤٦/٧ .
(٤) ابن المعتز ص ٨٩ .

فقد نُسب إليه كثير من شعر معاصريه فى جميع الموضوعات، ويكفى أن نرجع إلى ترجمة النظام فى ابن المعتز ، فستراه ينشد له فى الخمر بيتين وردا فى ديوان أبى نواس[١]، وينشد له قطعة فى مديح الأمين جاءت أيضًا فى ديوان أبى نواس[٢]، وإذا تركنا ابن المعتز إلى أمالى المرتضى وجدناه ينسب قطعة دالية فى الغزل إلى النظام وهى مبثوثة فى الديوان[٣] وكأن الرواة حملوا عليه شعر المتكلمين لما رأوا فيه من غوص على المعانى وبعد فى الخيال والوهم . وكان حَمْلهم عليه لأشعار المجّان أوسع مدى ، بل إنهم حملوا عليه كثيراً من زهديات أبى العتاهية[٤]

ونحن لا نريد أن نبرئه من الفحش ولا من الغزل الماجن، إنما نزعم أنه حُمل عليه كثير فى هذا الباب، ومن ثَمَّ ينبغى أن لا نتسع فى أحكامنا عليه، وربما كانت أسوأ رواية لديوانه رواية حمزة الأصفهانى ، فإنها تمتلىء بالشعر الموضوع عليه ، ولذلك لا يصح أن تتَّخذ أساسا لدرسه وبحثه . وهو يعتدُ فى كثير من خمرياته وغزلياته باللفظ الموثق والأسلوب الرَّصين ، وله فيها مقطوعات كثيرة تسيل عذوبة ونعومة ، غير أن له أيضًا وراء ذلك كثيرا من الشعر المهلهل ، إذ « كان لا يقوم على شعره ويقوله على السكر كثيراً ، فشعره متفاوت ، لذلك يوجد فيه ما هو فى الثُّرَيَّا جودة وحسناً وقوة وما هو فى الحضيض ضعفا وركاكة »[٥] . وكان كثيراً ما يُدْخل ألفاظًا فارسية فى خمرياته بحكم شيوع الفارسية فى الحياة اليومية وبين خلعاء الغلمان المجوس الذين كان يتغزل بهم، ودَفَعه ذلك إلى استخدام كثير من أساليب العامة الغثَّة ، مما جعل بعض اللغويين والنحاة يصطدمون به وجعله يكثر من هجائهم . وكان إذا خلص من هزله وعبثه وأفضى إلى حاسته الفنية أتى بالعجب العجاب من روائع الشعر ونادره ، وكانت ترفده مواهب فنية أصيلة ، جعلته يحكم تصاويره ويجرى فيها كثيراً من الطباقات والمقابلات والجناسات البديعة .

وحين علت سِنُّ أبى نواس وخطه الشيب أخذ يفيق أحياناً من سكره مفكراً

---

(١) انظر ابن المعتز ص ٢٧٢ والديوان ص ٢٦٢ .

(٢) ابن المعتز ص ٢٧٢ والديوان ص ١١٦

(٣) أمالى المرتضى ١/١٨٨ والديوان ص ٤١٩ .

(٤) انظر الأغانى ٤/١١ ، ٢٩ ، ٧٠ والديوان على الترتيب ص ٢٠٥ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ .

(٥) ابن المعتز ص ١٩٥ .

فى الحياة وعواقبها وفى البعث والنشور والموت والفناء ، وكان من حين إلى حين ينيب إلى ربه ، مما جعله يردد أنغاماً مختلفة فى الزهد والدعوة إلى الانصراف عن الشهوات ومتاع الحياة الزائلة والإعداد للآخرة بالتقى والعمل الصالح من مثل قوله[1] :

يا طالبَ الدنيا ليجمعها جمحتْ بك الآمال فاقتصِدِ
والقَصْد أحسنُ ما عملتَ له فاسلكْ سبيل الخير واجتهد
واعملْ لدارٍ أنت جاعلُها دارَ المقامة آخرَ الأَبد

وكان يدعو الله ويبتهل له ابتهالات كثيرة . وكنا نتمنى لو اختلط مثل هذا التفكير فى الحياة والموت ومصير الإنسان والقدر وما ينزله بالناس من خير وشر بمجونياته وخمره ونشوته بها ، إذن لما انتظرنا طويلا حتى يوجد عمر الخيام ولكان أبو نواس خياما آخر ولوَجَد من مسائل الحياة الكبرى : مسائل المقادير والشقاء والسعادة والموت والفناء ما يشغله عن فسقه ومجونه وفحشه وهزله وعبثه الوقحَ مع الغلمان والجوارى . ومرَّ بنا فى الفصل السابق أنه عُنى فى بعض أشعاره بقالب الرباعيات والمسمطات غير أنه لم يتسع بذلك ، وكان أهم ما وفَّر له عنايته صفاء النغم وعذوبته . ولعل ذلك هو الذى دفعه إلى الإكثار من الأوزان القصيرة والمجزوءة .

٣

أبو العتاهية[2]

وُلد أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سُوَيْد بن كَيْسان فى « عين التَّمْر » بالقرب من الأنبار سنة ١٣٠ للهجرة ، وكان أبوه نبطيًّا من موالى بنى عَنَزة ، أما

---

(١) الديوان ص ١٩٣ .

(٢) راجع فى ذى العتاهية وأخباره وأشعاره أغانى (طبع دار الكتب) ٤ / ١ وطبعة الساسى فى ترجمة والبة ١٦ / ١٤٢ وترجمة سلم الخاسر ٢١ / ٧٣ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٦٥ وابن المعتز ص ٢٢٨ وما بعدها و٣٦٤ وتاريخ بغداد ٦ / ٢٥٠ وابن خلكان والموشح ص ٢٥٤ ومرآة الجنان ٢ / ٤٩ وشذرات الذهب ٢ / ٢٥ ومروج الذهب للمسعودى ٣ / ٢٤٠ ، ٢٧٤ ، ٣٥٨ وزهر الآداب للحصرى ٢ / ٣٤ وما بعدها وأبو العتاهية لمحمد أحمد برانق (نشر لجنة البيان العربى بالقاهرة) . ونشرت ديوانه مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٨٨٦ م .

أمه فكانت من موالى بنى زهرة القرشيين . وكان أبوه يشتغل بالحجامة ويظهر أن سبل العيش ضاقت به فى بلدته ، فانتقل منها إلى الكوفة بأسرته ، ومعه ابناه الصغيران : زيد وأبو العتاهية ، ولا يكاد يشبّ ثانيهما ، حتى نراه ينتظم فى سلك المخنثين ممن كانوا يخضبون أيديهم ويتزينون ويلبسون ملابس النساء حاملين لزوامل تميزهم[1] . ولعل فى ذلك ما يدل على ما كان يحسه هذا الغلام من ضياع ، إذ نشأ فى أسرة فقيرة مغموراً ، لا يعتزّ بأى شىء فى دنياه من جاه أو حتى ثروة ضيقة ، وكان دميم الوجه قبيح المنظر[2]، نزعت به نفسه إلى اللهو والمجون ، فماذا يصنع ؟ إنه لم يجد أمامه إلا أن ينخرط فى جماعة المخنّثين ، وبذلك كُتب عليه أن يكون سيِّئ السيرة فى مطالع حياته . وكان أخوه زيد قد احترف عمل الخزف وبيع الجرار والفخار ، فحاول أن ينقذه مما تردّى فيه ، وما زال به حتى أشركه معه فى حرفته ، وكان نبع الشعر قد أخذ يتدفّق على لسانه ، فكان يأتيه الأحداث والمتأدبون فينشدهم أشعاره ويكتبونها على ما تكسّر من الخزف وما يشترونه من الجرار[3] .

واشتهر أمر أبى العتاهية فى الكوفة وأخذ يختلط ببيئات المجّان من الشعراء أمثال مطيع بن إياس ووالبة ، كما أخذ يختلف إلى حلقات العلماء والمتكلمين فى مساجد الكوفة ، مما أتاح له إتقان العربية والوقوف على مذاهب أصحاب المقالات ، وهو فى أثناء ذلك يُكثر من نظم رقائق الغزل ومن الغدوّ والرواح إلى نوادى القيان والمغنين ، ولم تلبث الصلة أن توثقت بينه وبين مغن ناشئ من النبط دوّت شهرته فيما بعد هو إبراهيم الموصلى ، وتعاقدا على أن ينزلا بغداد[4] ، لعل بضاعتهما تروج فيها ، وفُتحت الأبواب لإبراهيم بينما سُدّت فى وجه أبى العتاهية ، فصمم على العودة إلى الكوفة ، وعرّج فى طريقه على الحيرة ، ورأى بها نائحة تسمى سُعْدى كانت مولاة لبنى مَعْن بن زائدة ، وكانت ذات حسن وجمال ، فشغفت قلبه حبّاً ، وأخذ ينظم فيها شعره، غير أنها أعرضت عنه ، وتصدّى له مولاها عبد الله ابن مَعْن ، ونهاه أن يعرض لها ، فعمد إلى هجائه هجاء مُقْذعاً ، فأنزل به

---

(١) أغانى ٤/٧ .

(٢) أغانى ٤/٧٥ وانظر المسعودى ٣/٣٦٠.

(٣) أغانى ٤/٩ .

(٤) أغانى ٤/٤ .

عقاباً صارماً إذ ضربه مائة سوط ، وتوسط بينهما مواليه من عنَزة ، وكفّ أبو العتاهية لسانه[١] .

ويمّم الكوفة غير أن مقامه لم يَطُلْ بها ، فإن إبراهيم الموصلي صديقه أقبلت عليه الدنيا حين ولى الخلافة المهدى (١٥٨ – ١٦٩ هـ) وقرّبه مع من قرّب من المغنين ، فأرسل إليه أن يَلْحق به ، ليقدمه للخليفة ، وطار إليه أبو العتاهية ، وأعجب الخليفة بمديحه ، وأخذ يغدق عليه جوائزه[٢] ، وأوسع له فى مجالسه حتى أصبح أثيراً عنده مقدّما له على كثير من الشعراء ، وحتى نراه يقبل شفاعته فى أحد وزرائه وقد أمر بسجنه[٣] . ويعظم شأن أبى العتاهية ويتهاداه كبار رجال الدولة ووجوهها وفى مقدمتهم خال المهدى يزيد بن منصور الحميرى وقائده وواليه على طبرستان عمر بن العلاء ممدوح بشار ، وله يقول من قصيدة :

إنى أمنتُ من الزمان وريْبِهِ ... لما علقتُ من الأميرِ حِبالا

ويقال إنه وصله على القصيدة بسبعين ألف درهم[٤] .

وتمر الأيام بأبى العتاهية باسمة ، غير أن سحابة لاتلبث أن تنعقد فى سمائها ، فقد تعلّق بجارية من جوارى زوجة المهدى رائطة بنت السفاح ، وهى عُتْبَة ، وكانت تزدريه كما ازدرته سُعْدى من قبل ، ومضى لا يكفّ عن غزله بها ولا يرعوى ، فعرّفت مولاتها خبره وأثارتها عليه ، فحدّثت المهدى بشأنه ، فغضب لتعرضه لُحرمه وجوارى قصره ، وأمر بضربه مائة سوط وسجنه ، ولم يلبث يزيد بن منصور الحميرى أن شفع له لدى المهدى ، فعفا عنه وردّ إليه حريته ، ويقول الرواة إنه لم يكن يحبها حبّاً صادقاً إنما كان يريد الشهرة فى الأوساط الأدبية بذكرها وأنه امتحن فى حبها وأثبت الامتحان كذبه وأنه إنما كان يتكلف هذا الحب تكلفا[٥] ، وقد ظل يذكرها ويتغنّى باسمها طويلا ، ولعل ذلك هو الذى جعل المهدى يقول له إنك إنسان معتّه ، فاستوى له بذلك لقبه « أبو العتاهية » وغلب على اسمه[٦] .

وكانت بغداد لعهد المهدى قد جذبت إليها شعراء كثيرين من الكوفة والبصرة

---

(١) انظر القصة فى الأغانى ٤ / ٢٢ ومابعدها .
(٢) انظر ابن المعتز ص ٢٣١ والمسعودى ٣ / ٢٤٠ وزهر الآداب ٢ / ٣٨ .
(٣) أغانى ٤ / ٥٦ .
(٤) زهر الآداب ٢ / ٣٤ وانظر الأغانى ٤ / ٣٨ .
(٥) انظر فى قصته مع عتبة ابن المعتز ص ٢٣٠ وزهر الآداب ٢ / ٣٥ وتاريخ بغداد ٦ / ٢٥٤ وما بعدها .
(٦) أغانى ٤ / ٢ .

قصد المعاش والتكسب ، وخرج إليها فيمن خرجوا جماعة المجان من أمثال مطيع ابن إياس ووالبة وأبى نواس ، واختلط بهم أبو العتاهية وأخذ يعبُّ معهم من كئوس الخمر واللهو فى دور القيان والمجانة بالكرخ من أمثال دار القراطيسى [١] وفى الأديرة من مثل دير أشمونى [٢] . ويفسد الأمر بينه وبين والبة ، فيصليه ناراً حامية من هجائه بمثل قوله يعرِّض باعتزائه المزيف للعرب، إذ كان ينسب نفسه فى بنى أسد [٣] :

أوالبُ أنت فى العَربِ كمثل الشِّيصِ فى الرُّطَبِ
هلمَّ إلى الموالى الصِّيـ ـدِ فى سَعةٍ وفى رَحَبِ
فأنت بنا لعمر اللـ ـه أشبه منك بالعرب

وما زال به حتّى فضحه فعاد إلى الكوفة كالهارب وخمل ذكره [٤] .

ويتوفّى المهدى فيخلفه الهادى (١٦٩ — ١٧٠ هـ) ويلزمه أبو العتاهية ينشده مدائحه فى كل مناسبة وعطاياه تهطل عليه كالغيث المنهمر ، ولا يلبث أن يعتلى الرشيد أريكة الخلافة (١٧٠ — ١٩٣ هـ) وكان منقطعاً إليه ملازماً له أيام أبيه المهدى ، فاتصل ما انقطع فى مدة الهادى القصيرة ، وأصبح لا يفارقه فى سفر ولا حضر « وكان يُجْرى عليه فى كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والصلات السنية » [٥] وكثيراً ما كانت تبلغ فى المرة الواحدة مائة ألف درهم [٦] . وينال جوائز كثيرة من كبار رجال الدولة حينئذ وعلى رأسهم يزيد بن مزيد الشيبانى ، ويقال إنه أجازه فى إحدى مدائحه فيه بعشرة آلاف درهم [٧] ويظهر أنه دقّ أبواب البرامكة طويلا ، ولكنهم لم يفتحوها له ، إذ كانوا مشغولين عنه بشعرائهم من أمثال أبان وأشجع السُّلَمِىّ .

وظل يعيش للهو والقَصْف ، حتّى كانت سنة ١٨٠ للهجرة ، وهى السنة التى نزل فيها الرشيد الرَّقّة فإذا هو يتحول من حياة اللهو والمجون إلى حياة الزهد والتقشف ولبْس الصوف . ويحاول الرشيد أن يعود به ثانية إلى حياته القديمة وإلى ما كان يصنع له من رقائق الغزل ، فيمتنع ويضيق الرشيد بامتناعه ، ويأمر بضربه وحبسه

---

(١) أغانى (ساسى) ٢٠/٨٨ .
(٢) الديارات للشابشتى ص ٣١ .
(٣) أغانى (ساسى) ١٦/١٤٢ والشيص : أردأ التمر .
(٤) أغانى ١٦/١٤٢ .
(٥) أغانى (دار الكتب) ٤/٦٣ .
(٦) أغانى ٤/٧٤ .
(٧) أغانى ٤/١٠٠ .

فى دار موسّعاً عليه حتى يصدع لأمره ، ويسترسل أبو العتاهية فى استعطافه بمثل قولــه [١] :

إنما أنت رحمةٌ وسَلامَهْ زادك الله غبطةً وكرامَهْ
لو توجّعتَ لى فروَّحتَ عنى روَّح الله عنك يوم القيامهْ

ويرقّ له الرشيد ويأمر بإطلاقه ، ويأخذ منذ هذا التاريخ فى الإكثار من شعر الزهد وذكر الموت والفناء والثواب والعقاب والدعوة إلى مكارم الأخلاق .

وقد تشكك معاصروه فى هذا الزهد الذى طرأ عليه ، وردّته كثرتهم إلى عناصر مانوية ، حتى أوشك حَمْدُوَيْه صاحب الزنادقة المانويين أن يُنْزل به العقاب الصارم الذى كان يُنْزله بأمثاله ، لولا أن موّه عليه بالقعود لحجامة الفقراء والمساكين [٢] ، ويقال إن منصور بن عمّار هتف به فى بعض وعظه ، وقال : إنه زنديق مستدلا على ذلك بأنه يكثر من ذكر الموت فى شعره ولا يذكر الجنة والنار [٣] . وهى ملاحظة دقيقة ، ذلك أن أبا العتاهية يذكر الثواب والعقاب فى الآخرة حقّاً ، ولكنه لا يفصل الحديث فيهما تفصيل القرآن الكريم ، ومن المعروف أن المانوية كانوا يدعون للزهد فى الدنيا والعمل للآخرة كما كانوا يدعون إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش [٤] ، ومن هنا يختلط الموقف على من يقرأ أشعار أبى العتاهية الزاهدة ، وخاصة أنه استقى فيها كثيراً من آى الذكر الحكيم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير أن من يتعمق فى هذه الأشعار يجد أبا العتاهية مشغولا بما كان يراه المانوية من أن العالم نشأ عن أصلين هما النور والظلمة ، ومن النور نشأ كل خير ومن الظلمة نشأ كل شر ، وأن أجناس الخير خلاف لأجناس الشر ، وفى كل حاسة من حواس الإنسان جنس قائم بنفسه من النوعين ، جنس مستقل عما يماثله فى الحواس الأخرى [٥] ، وفى ذلك يقول أبو العتاهية [٦] :

لكل شىءٍ معْدِنٌ وجَوْهَرُ وأوسطٌ وأصغرٌ وأكبرُ

---

(١) الشعر والشعراء ص ٧٦٧ .
(٢) أغانى ٤/٧ .
(٣) أغانى ٤/٣٤ .
(٤) طبرى ٦/٤٣٣ .
(٥) انظر الحيوان ٤/٤٤١ والشهرستانى ص ١٨٨ .
(٦) أغانى ٤/٣٧ .

وكلُّ شيءٍ لاحِقٌ بجوهره   أصغره متصلٌ بأكبره

الخير والشرُّ هما أزواج   لذا نِتَاجٌ ولذا نتاجُ

لكل إنسانٍ طبيعتان   خيرٌ وشرٌّ وهما ضِدَّان

والخير والشر إذا ما عُدَّا   بينهما بونٌ بعيد جدًّا

وكان المانوية يضيفون إلى ذلك إيماناً بأن للعالم إلهين : إله النور وإله الظلمة ، وبذلك فارقوا أصحاب الديانات السماوية ، ويظهر أن أبا العتاهية لم يكن يجرى فى العقيدة إلى آخر الشوط ، إذ كان يدين بالتوحيد على نحو ما يمثل ذلك قوله[١]:

فيا عجباً كيف يُعْصَى الإلـ   ـهُ أم كيف يجحده الجاحِدُ

وفى كل شِيءٍ له آيةٌ   تدلُّ على أنه واحِدُ

وكأنه حاول أن يمزج بين عقيدة الإسلام وعقيدة المانوية ، وفى ذلك يقول أحمد بن حرب : « كان مذهب أبى العتاهية القول بالتوحيد وأن الله خلق جوهرين متضادين لا من شىء ، ثم إنه بَنَى العالم هذه البنية منهما .. وكان يزعم أن الله سيردُّ كل شىء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعاً[٢] » وهو يقصد بالجوهرين طبعاً النور والظلمة أو الخير والشر .

وابن حرب يضع فى يدنا المفتاح لحل مشكلة أبى العتاهية، فهو ليس مانوياً ثَنَوِيا يؤمن بأن للعالم إلهين ، كما ظن ابن المعتز[٣] وبعض معاصريه ، إنما هو مانوى من نمط جديد ، إذ يمزج بين المانوية والإسلام ، إلا إذا كان قد موَّه عن مانويته الخالصة بادعائه وحدانية ربه . ومر بنا فى الفصل الثانى أن تعاليم مانى كانت مزيجاً من الزرادشتية والنصرانية والبوذية ، ونرى أبا العتاهية يصور لنا فى بعض شعره الزاهدَ الناسكَ فى صورة بوذا المشهورة إذ يقول[٤] :

يا مَنْ تشرف بالدنيا وزينتها   ليس التشرُّف رفْعَ الطِّين بالطين

إذا أردت شريفَ الناس كلِّهم   فانظرْ إلى ملكٍ فى زِيِّ مسكين

---

(١) أغانى ٤/٣٥ .
(٢) أغانى ٤/٥ .
(٣) ابن المعتز ص ٢٢٨ ، ٣٦٤ .
(٤) الديوان ص ٢٧٤ .

ومعروف أن بوذا — عند الهنود — كان ملكا أو ابن ملك خلع ثياب ملكه وساح فى العالم عابداً ناسكاً . وخَصْلة عند أبى العتاهية لا يمكن تفسيرها إلا على أساس نزعته المانوية ، ذلك أنه كان مع دعوته إلى الزهد شحيحا شُحًّا شديداً مع كثرة ما كان يكتنز من الذهب والفضة وترْوَى فى شحه نوادر كثيرة[١] ، تدلُّ على حرصه البالغ ، حتى ليأبى أن يتصدَّق بدانق ، وتفسير ذلك أن المانوية كانوا يؤمنون بأن المانوى الصادق ينبغى أن يعيش على المسألة فلا يأكل إلا من كَسْب غيره الذى عليه غُرْمه ومأثمه[٢]، فهو يحرِّم ماله على نفسه وعلى غيره ويعيش على السؤال والاستجداء. وفعلا ظل أبو العتاهية على الرغم من نسكه الظاهر يمدح الرشيد وينال جوائزه ، فهو يمدحه حين يعهد عهده المعروف لبنيه الثلاثة[٣] سنة ١٨٦ وهو يمدحه حين يهزم نقفور إمبراطور بيزنطة ويستولى على هرقلة[٤] سنة ١٩١ . وحين يتوفَّى الرشيد يبادر إلى مديح الأمين بمثل قوله[٥]:

ياعمودَ الإسلام خير عَمودِ والذى صِيغ من حياءٍ وجودِ
إن يوماً أراك فيهِ ليومٌ طلعتْ شَمْسه بِسَعْدِ السُّعودِ

وينال جوائزه وجوائز أمه زبيدة . ولما قتل الأمين وقَلَّدَ المأمون العراق الحسن ابن سهل أسرع يدقُّ بابه ، فأمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب وأجرى له كل شهر ثلاثة آلاف درهم[٦] ، وقدم المأمون فاستقبله بمثل قوله[٧]:

لخَيْرُ إمامٍ قام من خيرِ عُنْصُرٍ وأفْضلُ راقٍ فوق أعواد مِنْبَرِ

ويقول الرواة إنه كان يجرى عليه فى كل عام عشرين ألف درهم غير ما كان يغدق عليه من جوائزه فى الحين بعد الحين[٨] . ومعنى ذلك أن زهده إنما كان زهداً فى الظاهر ، أما فى الباطن والواقع فقد ظل من طلاب الدنيا ومتاعها الزائل ، وظل يطلبها ويلح فى الطلب إلحاحاً شديداً وسجَّل عليه سلم الخاسر ذلك فى بعض أشعاره[٩]

(١) أغانى ٤/١٦ وما بعدها .
(٢) الحيوان ٤/٤٥٩ .
(٣) أغانى ٤/١٠٤ .
(٤) أغانى (طبع الساسى) ١٧/٤٦ .
(٥) أغانى (طبع الساسى) ٢١/١١ .
(٦) أغانى (طبع دار الكتب) ٤/٨٩ .
(٧) أغانى (ساسى) ٢١/١٣ .
(٨) أغانى (دار الكتب) ٤/٥٣ .
(٩) أغانى (ساسى) ٢١/٧٦ وانظر أغانى (دار الكتب) ٤/٧٦ .

وهكذا ظلّ يسترفد الخلفاء والوزراء ، حتى وافته منيته سنة مائتين وإحدى عشرة وقيل سنة اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة .

ولعل فيما قدمنا ما يدلّ دلالة بينة على أن طبيعة أبى العتاهية كانت معقدة ، فهو نبطى أحسّ غير قليل من المسكنة منذ نشأته ، وقاده هذا الإحساس أولا إلى أن يصبح مخنثًا ، ثم ماجناً ، وقاده أخيراً إلى أن يصبح زاهداً على طريقة المانويين من سؤال الناس ومما طابت به أنفسهم له . وتدل نزعته المانوية على أنه اضطرب بين أصحاب المقالات ، ويؤكد ذلك عنده ما يقال من أنه كان على مذهب الشيعة الزيدية البُتْرية [١] ، ونؤمن — مع نيكلسون [٢] — بأنه لم يعش هذا المذهب حقًّا ، إذ يشيد فى أشعاره بأبى بكر وعمر وعثمان [٣] ، إنما هو ضرب من الاضطراب بين أصحاب النحل سرعان ما زايله . وقد دفعته صلته بالمانويين إلى الاطلاع الواسع على الآداب الفارسية ، ونَقَل كثيراً من حكمها إلى أشعاره ؛ ومن خير ما يصور ذلك قصيدته «ذات الأمثال» التى صور فيها نظرية الخير والشر المانوية والتى أنشدنا منها الأبيات السالفة . ويظهر أنه قرأ كثيراً مما تُرْجم عن فلاسفة اليونان ، ومن ثَمّ وصل بعض معاصريه بينه وبينهم [٤] ، ومرّ بنا فى الفصل السابق نقله لجوانب من مراثى فلاسفة اليونان للإسكندر فى رثائه لصديقه على بن ثابت ، وكان من رءوس [٥] الزنادقة ، ولعله هو الذى دفعه فى هذا الطريق . وكان إلى ذلك مثقفًا ثقافة إسلامية واسعة ، وهى تتضح فى كثْرة ما نقله إلى زهدياته من آى الذكر الحكيم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان أيضًا مثقفًا ثقافة عربية دقيقة جعلته يتقن اللغة ويبرع فى الشعر ، حتى أصبح له طبعًا .

وكل هذه العناصر التى اصطلحت على تكوين طبيعة أبى العتاهية جعلتها أبعد الأشياء عن البساطة كما جعلتها خصبة واسعة الخصب . وكل من يقرأ أشعاره يلاحظ أنها تمثل حياته وما حدث فيها من انقلاب أوضح تمثيل ، فهو فى شطر منها يتغزل ويصف الخمر ، وهو فى الشطر الثانى يكف عن الغزل ووصف الخمر

---

(١) أغانى ٤/٦ .
(٢) انظر التاريخ الأدبى للعرب لنيكلسون ص ٢٩٧ .
(٣) الديوان ص ١٠٤ .
(٤) أغانى ٤/٢ .
(٥) الفهرست لابن النديم ص ٤٧٣ .

مستبدلا بهما الزهد ونشر الحكم والدعوة إلى محاسن الأخلاق . وإذا كنا لاحظنا عند أبى نواس وبشار أنهما كانا يحافظان إلى حد كبير فى مدائحها على الأوضاع والتقاليد الموروثة فى الصياغة وفى التمسك بوصف الأطلال وبكاء الديار ونعت الصحراء وإبلها وحيوانها وكل ما يتصل بها فإن أبا العتاهية يخطو إلى الإمام خطوة بمدائحه إذ يتنحَّى عن الصحراء والأطلال إلاما قد يأتى عرضاً ، وأيضاً فإنه لا يتمسك غالباً بالأسلوب القديم الجزل الرصين ، وكأنه يريد أن يفسح لأساليب عصره اللينة الخفيفة ، ومن خير ما يمثِّل ذلك مدحته اللامية للمهدى ، وفيها يقول[1] :

أتَتْه الخلافةُ منقادةً إليه تُجَرِّرُ أذيالهـا
ولم تَكُ تَصْلُحُ إلا له ولم يَكُ يَصْلُحُ إلا لها
ولورامها أَحدٌ غيرهُ لزُلْزِلَتِ الأَرضُ زلزالها
ولو لم تطعْهُ بناتُ القلوبِ لمـا قَبِلَ اللهُ أَعمالها[2]
وإن الخليفة من بُغْض لا إليه لَيُبْغض من قالها

والقصيدة من بحر المتقارب الخفيف ، وألفاظها تسيل نعومة وعذوبة . وأكبر خليفة عُنى بمديحه هرون الرشيد فقد كان يمدحه فى سلمه وحربه وفى كل المناسبات من مثل توليته العهد لبنيه ، وفى هذه التولية يقول[3] :

وشدَّ عُرَى الإسلام منه بفتيةٍ ثلاثةِ أَملاكٍ وُلاةِ عهودِ

وكان يحرص دائماً على مديحه بالتقوى والانصراف عن الدنيا متعرضاً لوصف جيوشه وذَبِّه عن حمى الإسلام وما يُنْزل بأعدائه من موت يَمْحَقُهم مَحْقاً ، على شاكلة قوله[4] :

وهرونُ ماءُ المُزْنِ يُشْفَى به الصَّدَى إذاما الصَّدِى بالرِّيق غَصَّتْ حناجِرُهْ[5]
وأَوسطُ بيتٍ فى قريشٍ لَبِنْتُهُ وأَوَّلُ عِزٍّ فى قريشٍ وآخره

(١) أغانى ٤/٣٣ .
(٢) بنات القلوب : النيات .
(٣) أغانى ٤/١٠٤ .
(٤) أغانى ٤/١٥ .
(٥) المزن : السحاب المطر . الصدى : بفتح الدال : العطش وبكسرها العطشان .

وزَحْفٍ له تحكى البروقَ سيوفُه   وتحكى الرعودَ القاصفات حَوافره
إذا نُكب الإسلامُ يوما بِنَكْبَةٍ   فهرونُ من بين البريّة ثائرُهْ
ومن ذا يفوت الموتَ ، والموتُ مدركٌ   كذا لم يَفُتْ هرونَ ضِدٌّ يُنافِرُهْ

والأسلوب هنا جزل رصين ، ولكنه لا يُبْعد فى جزالته ورصانته ، إذ كان يُعْنَى باختيار ألفاظه من المعجم اليومى أو بعبارة أدق مما يقاربه سهولة . وقد نظم استعطافات كثيرة للرشيد حين حبسه ، وهى لا تمتاز بالأسلوب السهل اليسير فحسب ، بل تمتاز أيضا بشدة التضرع ، حتى ليبادر الرشيد بالعفو عنه كما أسلفنا لمثل قوله[1] :

أنا اليومَ لى ، والحمد لله ، أشْهُرُ   يروح علىَّ الهمُّ منكم ويَبْكُرُ
تذكَّرْ أمينَ الله حَقِّى وحُرْمتى   وما كنت تُوليني لعلك تَذْكُرُ

وهو لا يكثر من الهجاء غير أن ما خلَّفه فيه يدل على إحكامه لسهامه ، حتى لنرى والبة بن الحُباب يفرُّ على وجهه منه إلى الكوفة ، ومن أوائل هجائه أشعاره فى عبد الله بن معن مولى محبوبته الأولى سُعْدى الناتحة ، وقد صوّره فى بعض هذه الأشعار صورةً نَدِىَ لها وجهه طويلا ، إذ أخلاه من العقل والشجاعة بل أيضًا من الرجولة ، حتى ليقول على لسانه[2] :

أنا فتاةُ الحَىِّ من وائلٍ   فى الشّرف الشامخ والنُّبْلِ
ما فى بنى شَيْبان أهلِ الحِجَى   جاريةٌ واحدةٌ مِثْلى
قد نَقَّطت فى وجهها نَقْطَةً   مخافةَ العَيْن من الكُحْلِ
إن زُرْتموها قال حُجّابها   نحن عن الزُّوّارِ فى شُغْلِ

وكان يعرف كيف يرمى مهجويه بمثل هذه النبال المصمية ، فمن ذلك أن الأمور فسدت بينه وبين سَلْم الخاسر ، فما هو إلا أن قال فيه :

تعالى اللهُ يا سَلْمَ بن عَمْرٍو   أذلَّ الحرصُ أعناقَ الرجالِ

(١) أغانى ٤/٦٣ .
(٢) أغانى ٤/٢٢ .

حتى سار البيت مسير الأمثال ، وحتى أنَّ منه سلم طويلا[١] . ويقول ابن المعتز إنه « أتى باب أحمد بن يوسف كاتب المأمون ، فحُجِبَ عنه ، فقال :

متى يظفرُ الغادى إليك بحاجةٍ ونِصْفُك محجوبٌ ونصفك نائم

فسار بيته هذا فى الآفاق ، وجعل الناس يتناشدونه ، فاعتذر إليه ابن يوسف[٢] ، وَجِلاً من أن يتمادى فى هجائه .

وبين أيدينا له مراث مختلفة ، لعل أحرَّها مراثيه فى صديقه على بن ثابت الزنديق ، وقد أنشدنا منها أطرافاً فى الفصل السابق ، وقد ظل يبكيه ويندبه طويلا ندباً كله لوعة وحرقة وأسى عميق من مثل قوله[٣]:

فَتًى لم يمِلَّ النَّدَى ساعةً على عُسْرِهِ كانَ أو يُسْرِهِ
أتتْه المنيَّةُ مغتالـةً رُوَيْدًا تَخلَّل من سِتْرِهِ
فخلَّى القصور لمن شادها وحلَّ من القبر فى قَعْرِه
وأصبح يُهْدَى إلى منزلٍ عميقٍ تُوُثِّق فى حَفْـرِهِ
أشدُّ الجماعة وَجْدًا بهِ أشدُّ الجماعة فى طَمْرِه

وليس له خمريات كثيرة وكأنما عصفت بخمرياته يد الزمن فيما عصفت به من شعره ، ونراه يقدم لإحدى مدائحه للهادى بنعت مرقصٍ للخمر ونُدْمانها وساقيها ومن يلمُّ بهم من الجوارى الحسان ، يقول وقد طافت به بعض ذكرياته الماجنة فى الكوفة[٤] :

لهفى على الزَّمن القصيرِ بين الخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ[٥]
إذ نحن فى غُرَف الجِنَا نِ نعومُ فى بحر السُّرور
فى فتيةٍ مـلكوا عِنا نَ الدهر أمثالِ الصقور

(١) أغانى ٤/٧٥ وطبعته الساسى ٢١/٧٦.
(٢) ابن المعتز ص ٢٣٣ .
(٣) الديوان ص ١٢٤ .
(٤) أغانى ٤/٦٠ .
(٥) الخورنق والسدير : قصران قديمان بالقرب من الكوفة .

ومُقَرْطَقٍ يمشى أما م القوم كالرَّشإِ الغَرِيرِ[1]

بزجاجةٍ تَسْتخرج السِّـ رَّ الدفين من الضمير

زهراءَ مثل الكوكب الـ دُّرِّىِّ فى كفِّ المُدِير

ومخصَّرات زُرْنَنَـا بعد الهدوِّ من الخدورِ[2]

يَرْفُلْنَ فى حُلَلِ المحا سنِ والمجاسدِ والحريرِ[3]

والمقدمة تكتظ على هذا النحو بغير قليل من مشاعر الفرح والبهجة .

وقد مرَّ بنا تدلهه بعُتْبة ، وله فيها غزل كثير ، وهو فيه رقيق رقة بالغة ، وأكبر الظن أن رقته فيه جاءته من تخنثه القديم ، حتّى ليقول ابن قتيبة إن غزله يشاكل طبائع النساء ، وكأنما سَرَتْ فيه مشاعرهن ، وهى مشاعر تقترن عنده بالتذلل والتضرع على شاكلة قوله :

بَسَطْتُ كَفِّى نحوكم سائلا ماذا تردُّون على السائلِ

إن لم تُنيلوه فقولوا له قولا جميلا بَدَلَ النائلِ

أو كنتمُ العامَ على عُسْرَةٍ وَيْلِى فمَنُّوه إلى قابلِ

ويقول ابن المعتز معلقًا على هذه الأبيات : « لهذا الشعر من قلوب النساء موقع الزلال البارد من الظمآن لرقّته[4] » . وعلى نفس هذا المثال قوله فى عُتْبة أيضا[5] :

كأنها من حُسْنها دُرَّةٌ أخرجها اليَمُّ إلى السَّاحلِ

كأن فى فِيها وفى طَرْفِها سواحرًا أقبلْنَ من بابلِ

لم يُبْقِ منى حُبُّها ماخلا حُشَاشةً فى بدنٍ ناحلِ

يا مَنْ رأى قبلى قتيلاً بكى من شِدَّةِ الوَجْد على القاتلِ

---

(١) مقرطق : يلبس القرطق وهو ثوب ذو طاق واحد .

(٢) مخصرات : دقيقات الخصور . الهدو من الليل : أوائله .

(٣) يرفلن : يتبخترن . المجاسد : القمصان الداخلية الرقيقة .

(٤) ابن المعتز ص ٢٣٠ .

(٥) أغانى ٤/٤٥ .

ودائماً يشكو مسكنته وأن صاحبته لا تنيله كثيراً ولا قليلاً وأنها استرقته ولا ترد عليه حريته ، وأنها أضنته وأسقمته ، وأنها تزهد فيه وهو المحب الوامق الذى يرسل الدموع مدْراراً على من ظلمتْه ، وإنه ليستجير ولا مجير ويتصبَّر ولا صبر إلا النواح الطويل

وينتقل أبو العتاهية من مرحلة غزله وخمره إلى مرحلة جديدة تُعَدُّ انقلاباً فى حياته ، فقد تحول من حياة اللهو إلى حياة الزهد ، وظل نحو ثلاثين عاماً يتغنى بالكأس الخالدة كأس الموت الدائرة على الخلق ، فالكل مصيره إلى الفناء والكل وشيك الزوال ، والكل سيصبح تراباً فى تراب ، يقول[١] :

لِدُوا للموت وابنوا للخَراب فكلُّكمُ يصير إلى تَبابِ[٢]

ويقول[٣] :

الناس فى غَفَلاتِهم ورَحَى المنيَّـــة تَطْحَنُ

ويقول[٤] :

كلُّ حَىٍّ عند مِيتَتِه حظُّه من ماله الكَفَنُ

ويقول[٥] :

بين عَيْنَى كلِّ حَىٍّ عَلَمُ المـــوت يلوحُ
نُحْ على نفسك يامِسْـ كين إن كنت تنوحُ

وهكذا يمضى ينعى الحياة إلى أهلها ويبكيها ويندبها ، مهولاً رقدة الموت الأبدية ، ومنغصاً على مَنْ يسمعه كل لذة له وكل نعيم ، فالأجل قصير والمنايا رأصدة ، والقدر أزلى ونحن آلات بأكفه . ولعله من أجل هذا الإحساس آمن بالجبر والاضطرار[٦] ، وإنه ليصرخ من أعماق قلبه : ليس هناك إلا الفناء وإلا الأسى والكآبة ، وهى نظرة سوداء جاءته من مانويته ، إذ الإسلام لا ينْحَى إلى

---

(١) الديوان ص ٢٣ .
(٢) تباب : هلاك .
(٣) الديوان ص ٢٦٧ .
(٤) الديوان ص ٢٥٢ .
(٥) أغانى ١٠٣/٤ .
(٦) أغانى ٦/٤ .

الناس حياتهم ولا يصورها لهم فى كروب أبى العتاهية التى تخنق الأنفاس والتى تجعله يقف طويلا عند سكرات الموت وما يعانيه المحتضر من آلام كما تجعله يقف عند نزلاء القبور والقبور نفسها يسألها عن أصحابها ، مسجلا أن ذوى السلطان يستوون مع السوقة فى الموت وأن الطبيب كثيراً ما يسبق مريضه إلى ساحته ، يقول[١] :

وقبلك داوى الطبيبُ المريضَ فعاش المريضُ ومات الطبيبُ

وهو يضيف إلى حديثه الطويل عن الموت والقبور حديثاً عن البعث والنشور ، ولكنه لا يسترسل فى ذكر عذاب الجحيم ونعيم الجنان ، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً ، بل يلم إلماماً بالبعث والحساب على شاكلة قوله[٢] :

فلو أنا إذا مُتْنا تُرِكْنا لكان الموتُ غايةَ كلِّ حيٍّ
ولكنا إذا مُتْنا بُعِثْنا ونُسْأَلُ بعده عن كل شَيٍّ

ويتسع أبو العتاهية فى أشعاره الزاهدة ، حتى لتؤلف وحدها ديواناً كاملا ، وفعلا جمع منها ابن عبد البَرّ النَّمرى الأندلسى ديواناً مستقلا ، وقد بنى اليسوعيون على هذا الديوان نشرتهم لأشعار أبى العتاهية باسم « الأنوار الزاهية فى ديوان أبى العتاهية » ضامين إلى رواية النمرى ما تيسر جمعه من أشعار الشاعر وقصائده .

وأبو العتاهية فى زهدياته ، كما رأينا ، يطيل الحديث عن الحياة والموت والفناء ومصير الإنسان ، ويتحول بجانب ذلك إلى ما يشبه واعظاً ، وهو فى عظاته يستمد من القرآن الكريم والحديث النبوى ووعظ الوعاظ من أمثال الحسن البصرى ، كما يستمد من أشعار سابقيه ، وقد وقف المبرد عند موعظة له يستهلها بقوله :

يا عجبًا للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا

وردّها إلى بعض الأحاديث النبوية وإلى كلام الحسن البصرى وعلى بن أبى طالب وإلى معانى بعض الشعراء مثل الخليل بن أحمد[٣] . وهو فى جوانب من مواعظه يلتقى بآى الذكر الحكيم فى اتخاذ العبرة من الأمم الدائرة والقرون الخالية

---

(١) الديوان (طبعة سنة ١٩٠٩) ص ١٨ .
(٢) الديوان ص ٣٠٢ .
(٣) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٢٣٠ وما بعدها .

وفى تصوير الموت وسكراته ، وقد يسوق ذلك بلفظ القرآن الكريم من مثل قوله[١] :

يا عجبا كلُّنا يَحيد عن الْـ ... حَيْنِ وكلٌّ لحَيْنه لاقِ

كأن حَيًّا قد قام نادبُه ... والتفّت الساق منه بالساقِ[٢]

واستلّ منه حياته مَلَكُ الْـ ... موتِ خَفيًّا وقيل : مَنْ راقِ[٣]

وطبيعى أن يطبع أسلوبه فى الزهد بطوابع الأسلوب الوعظى من التكرار وكثرة النداء والاستفهام والأمر . ونراه يشيع فى زهدياته أدعية وابتهالات لربه من مثل قولـــه[٤] :

سبحان من لا شىءَ يحجبُ علمه ... فالسِّرُّ أجمع عنده إعــلانُ

سبحان من هو لا يزال مُسَبَّحًا ... أبدًا وليس لغيره السُّبْحان

وقوله[٥] :

إلهى لا تُعَذِّبْنى فإنِّى ... مُقِرٌّ بالذى قد كان منِّى

ومالى حِيلةٌ إلا رجائى ... لعفوك إن عفوتَ وحُسْنُ ظنِّى

وبجانب ذلك نراه يذيع دعوة واسعة إلى محاسن الأخلاق كما يذيع حكما وأمثالا كثيرة مقتبسًا لها من الآداب الفارسية كما أسلفنا ، ومما رُوِىَ عن حكماء العرب مثل لقمان[٦] ، وأفرد لها — كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع — قصيدته « ذات الأمثال » التى يقال إنها امتدت إلى أربعة آلاف بيت .

وكانت عامة بغداد تتعلق بحكمه ووعظياته وزهدياته ، وفى أخباره أن بعض الملاحين غنوا الرشيد فى إحدى نزهاته على صفحات دجلة بعظة من عظاته[٧] ، وفى ذلك ما يدل على ما كان لأشعاره الزاهدة من صدى عميق فى نفوس الطبقة

---

(١) البيان والتبيين ٣/١٨٥ .

(٢) الشطر الثانى اقتباس من الآية رقم ٢٩ من سورة القيامة . والتفاف الساق بالساق كناية عن فقدهما الحركة .

(٣) آخر البيت اقتباس من الآية ٢٧ من سورة القيامة ، والقائل إما أهل الميت حين ييأسون منه ويطلبون له الراقى أو الطبيب ، وإما الملائكة حين يسألون من يرقى به إلى السماء ، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب .

(٤) الديوان ص ٢٥٨ .

(٥) الديوان ص ٢٦٣ .

(٦) البيان والتبيين ٢/٧٦ .

(٧) أغانى ٤/١٠٢ وما بعدها .

العامة التى لم تكن تعرف ترفاً ولا نعيمًا ، إنما كانت تعرف الكدح وشظف العيش ، وكأنما أحسّت عنده أنه يتغنى آلامها وبؤسها . ونراه يتعمقه الشعور بما هى فيه من ضنك ، فإذا هو يرفع لبعض الخلفاء شكوى مريرة من غلاء الأسعار ، يقول فى تضاعيفها[1] :

من مبلغٌ عنى الإما ... مَ نصائحًا متتاليَهْ
أنى أرى الأَسعار أسْـ ... ـعارَ الرعيَّة غاليه
وأرى المكاسب نَزْرَةً ... وأرى الضرورةَ فاشيه
مَنْ يُرْتَجى للناس غَيْـ ... ـرُك للعيون الباكيه
مِنْ مُصْبِياتٍ جُوَّعٍ ... تمسى وتصبح طاويه
مَنْ يُرْتَجى لدفاع كَرْ ... بِ ملمّةٍ هى ماهيه
من للبطون الجائعا ... ت وللجسوم العاريه
ألقيتُ أخبارا إليـ ... ـك من الرعية شافيه

ولم يكن أبو العتاهية يقترب من العامة بزهده وما صوّر فيه من بؤسها وأوصابها فحسب ، بل كان يقترب منها أيضًا بأسلوبه الذى كان يشتقه اشتقاقًا من لغة الحياة اليومية ببغداد ، وهو أسلوب ابتعد فيه عن الغرابة والتعقيد كما ابتعد عن العجمة ، ولكنه بعد ذلك أجراه فى مستوى أفراد الشعب ، بحيث لا يعزُّ على أحد منهم أن يفهمه ، ويُؤْثَرُ عنه أنه كان يقول : « الصواب لقائل الشعر أن تكون ألفاظه مما لا تَخْفَى على جمهور الناس مثل شعرى ، ولا سيما الأشعار التى فى الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلاَّب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء . . والعامة ، وأعجبُ الأشياء إليهم ما فهموه[2] » ومن الحق أنه ظلت فى أسلوب شعره منذ فاتحة حياته السهولة ، حتى إذا أخذ فى الزهد ضاعفها وأكّدها تأكيداً شديداً

---

(١) الديوان ص ٣٠٣ .
(٢) أغانى ٤/٧٠ .

حتى لتكاد تسقط منه بعض مقطوعاته ، لما يجرى فيها من ضعف ، وحتى ليقول صاحب الأغانى إنه كثير الساقط المرذول[١] . وينبغى أن لا نبالغ مبالغة أبى الفرج ، فقد كانت لأبى العتاهية أذن موسيقية دقيقة وقلما نجد عنده قافية غير متمكنة فى موضعها أو كلمة لم تحل فى نصابها ، إذ كان الشعر عنده طبعاً أو كالطبع[٢] ، حتى كان لا يسمع كلمة من مناد على بضاعة أو من بعض جلسائه تصلح أن تكون شطراً لبيت حتى يبادر بصنع الشطر الثانى توًّا على البديهة[٣] . وبلغ من اقتداره على صنع الشعر وسهولته على لسانه أن اخترع — كما أسلفنا فى الفصل السابق — أوزاناً جديدة لا تدخل فى بحور الشعر المستعملة ، وكان إذا روجع فى ذلك وقيل له إن أشعارك لا تدخل فى عروض الخليل قال : أنا أكبر من العروض[٤] يريد أن الشعر يجرى على لسانه قبل أن يضع الخليل عروضه ، وهو لذلك أسن منه ، ولا نشك فى أن ديوانه لو وصلنا كاملا لاستخرجنا منه أوزاناً كثيرة طريفة ابتكرها ابتكاراً ، غير أن نَبْعَ الشعر عنده كان غزيراً ، فكثر ما نظمه ولم تستطع الأجيال التالية أن تحمله تامًّا لكثرته .

٤

مسلم[٥] بن الوليد

وُلد فى الكوفة حوالى سنة ١٤٠ للهجرة لأب كان يشتغل بالحياكة ، واختلفت المصادر القديمة فى تصحيح نسبته ، فقيل إنه خزرجى من الأنصار ، وقيل بل هو من مواليهم ، وهو القول الصحيح ، ويشهد له أنه كان من الصنّاع ، ولم يكن العرب يُقْبلون على الصناعات حتى هذا التاريخ . وفى أخبار مسلم وأشعاره ما يدل على أنه كان شيخاً صالحاً ، وأغلب الظن أنه كان من موالى الفرس ، ووُلد قبل

---

(١) أغانى ٤ / ٢ وانظر رأى الأصمعى ص ٤٠ .

(٢) أغانى ٤ / ١٣ والبيان والتبيين ١ / ١١٥ .

(٣) أغانى ٤ / ٣٩ والحيوان ٥ / ١٣٧ .

(٤) أغانى (دار الكتب) ٤ / ١٣ .

(٥) انظر فى أخبار مسلم وأشعاره الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٨٠٨ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٥ وتاريخ بغداد ١٣ / ٩٦ وترجمته بالأغانى الملحقة بديوانه وكذلك بقية المصادر الملحقة بنشرة سامى الدهان للديوان (طبع دار المعارف) وراجع مسلم بن الوليد لفؤاد ترزى (طبع بيروت) .

مسلم ابنٌ كان يكبره يسمى سليمان ، وكان كفيفًا ، كما كان شاعرًا مُجيداً ، ويُجْمع الرواة على أنه كان زنديقًا وأن الذى لقّنه زندقته بشار [١] ، ومن قول الجاحظ فيه : « كان من مستجيبي بشار الأعمى ، وكان يختلف إليه وهو غلام ، فقَبِل عنه ذلك الدين [٢] » . وفى اختلافه إليه ما يدلُّ على أنه نزل البصرة ، ويظهر أنه نزلها مع أبيه ، إذ كان لا يزال غلاماً ، وكان ضريراً ، يحتاج إلى من يعينه ويَعُوله ، وفى ديوان مسلم قصيدة طويلة [٣] يذكر فيها مقامه أولا بالكوفة ، ثم نزوله البصرة وذكرياته السعيدة بها ، وذكريات الحب واللهو .

وفى ذلك كله ما يدل على أن مسلماً نشأ بالكوفة ، ثم انتقل إلى البصرة ، ولا نرتاب فى أنه كان يختلف مع أخيه سليمان إلى بشار ، وأن ذلك أتاح له أن يحمل عنه شعره ، ولكنه لم يحمل عنه زندقته ، كما حملها أخوه ، إذ لم يُعْرف عنه شيء من الزندقة . ويظهر أنه مضى يثقف نفسه بكل معارف عصره وأنه عكف على قراءة كثير من الآداب المترجمة ، ونراه يصرح بأن قوله :

دَلَّتْ على عَيْبها الدُّنيا وصدَّقها ما استرجع الدهرُ مما كان أعطانى

قد أخذ معناه من التوراة [٤] . وفى أشعاره من التعمق فى الأفكار ما يدل دلالة قاطعة على أنه اختلف إلى متكلمى البصرة وحذق على أيديهم النظر والتفكير وتصحيح المعانى والخلوص إلى دقائقها وطرائفها وحدودها الخفية . وأيضًا فى أشعاره ما يدل دلالة بينة على ثقافة واسعة بالشعر القديم : الجاهلى والإسلامى ، فقد أُشْرِبَتْه روحه لا بصياغاته فحسب ، بل أيضًا بجميع معانيه وصوره وخصائصه الموسيقية . والتحمت فى نفسه هذه الثقافة بشعر بشار ومعاصريه من شعراء الجيل العباسى الأول التحامًا قويًا خصبًا .

ويظهر أن مواهبه الشعرية استيقظت فى نفسه مبكرة ، وليس بين أيدينا أخبار

---

(١) انظر الحيوان ٤/١٩٥ ومعجم الأدباء ١١/٢٥٥ ونكت الهميان ص ١٦١ وفى الكتابين الأخيرين أنه ابن مسلم وهو خطأ ، انظر فيه الحيوان والبيان والتبيين ٣/٢٠٢ حيث ينص الجاحظ على أنه أخوه ، وقد توفى قبله بنحو ثلاثين عاماً سنة ١٧٩ للهجرة .

(٢) الحيوان ٤/١٩٥ .

(٣) راجع الديوان (طبع دار المعارف) ص ٢٢٥ .

(٤) انظر ترجمة أبى الفرج لمسلم الملحقة بديوانه ص ٣٧٣ .

واضحة عن حياته فى موطنه الأول الكوفة ولا فى البصرة ، غير أننا نراه يصطدم بشاعر بصرى يسمى ابن قُنْبُر ، عُنى بأن يَرُدَّ على الطرماح الشاعر الأموى الخارجى أهاجيه فى قبيلته تميم ، وأن يهجو طيئاً والأزد وغيرهما من قبائل اليمن التى انتصر لها الطرماح ، وامتعض مسلم لمواليه من الأنصار الأزديين اليمنيين ، وزجّ بنفسه معه فى معركة هجاء عنيفة ، وكان أقوى منه شاعرية ، فهتكه ومزقه واضطره إلى أن يمسك عن مناقضته .

وجذبت بغداد مسلماً فهاجر إليها، لعل بضاعته تروج فيها ويَحْظَى بما حظى به أعلام الشعراء فى عصره من جوائز الخلفاء والأمراء والوزراء والولاة والقواد. ولا يُعْرَف بالضبط تاريخ هجرته ، ولكن فى أخباره أنه هاجر إليها مع أخيه سليمان وانقطعا لمديح يزيد بن مزيد ومحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة ، وقد توفى سليمان سنة ١٧٩ للهجرة . وفى أخبار مسلم أنه كان يمدح مَنْ دون الخليفة ولا يطمح إليه ، فكان يقول : أرى نفسى تذوب حسرات من أنه يحوى جوائز الخلفاء مَنْ لا يوازينى فى أدب . ويدل ذلك على أنه ظل فى بغداد مدة قصرت همته فيها عن لقاء الرشيد ثم لقيه ، ويقال إن منصور بن يزيد الحميرى خال الرشيد هو الذى أوصله إليه . وتلتقى أخبار لقائه له بمدائحه ليزيد بن مزيد وقضائه على ثورة الوليد بن طريف الخارجى فى سنة ١٧٩ للهجرة ، ومن حينئذ لمع اسمه وعلا نجمه بين شعراء بغداد ويظهر أن صلةً انعقدت بينه وبين البرامكة ، فقد كان وثيق الصلة بمحمد بن منصور كاتبهم ، وله فيهم مدائح مختلفة .

وفى ديوانه قصائد أربع فى مديح الرشيد ، ويظهر أن كثيراً من مدائحه فيه سقط من يد الزمن ، ويقال إنه لما أنشده لاميته فيه، وأورد على سمعه قوله فى مقدمتها :

هل العَيْشُ إلا أن أروح مع الصِّبا وأغدو صَرِيعَ الرَّاحِ والأَعْيُنِ النُّجْلِ [1]

قال له : أنت صريع الغوانى ، فلصقت به الكلمة ، وأصبحت لقباله لا يُعْرَفُ إلا به [2] . ونراه دائماً ينوه بانتصاراته على أعدائه ، من مثل قوله [3] :

---

(١) نجل : جمع نجلاء وهى الواسعة . الراح : الخمر .

(٢) ابن المعتز ص ٢٣٥ والديوان ص ٤٣ .

(٣) الديوان ص ٢٥٤

خليفةَ اللهِ إن النَّصْرَ مُقْتَصِرٌ عليك مُذْ أنت مَبْلُوٌّ ومُخْتَبَرُ

أعددتَ للحرب سيفًا من بنى مطَرٍ يمضى بأمرك مخلوعًا له العُذُرُ[1]

لاقى بنو قَيْصَرٍ لما هممتَ بهم مثل الذى سوف تلقى مثلَه الخَزَرُ

لقد بعثتَ إلى خاقانَ جائحةً خَرْقاء حصَّاء لا تبقى ولا تَذَرُ

أظلَّهم منك رُعْبٌ واقفٌ بهِمُ حتى يوافق فيهم رَأْيَكَ القَدَرُ

وهو يريد بسيف بنى مطر يزيد بن مزيد الشيبانى ، وقد مضى يتحدث عن انتصارات الرشيد على الروم وظفره بخاقان ملك الترك ، وكان شخص إليه الفضل بن يحيى البرمكى فى جيش ضخم سنة ١٧٨ للهجرة ، فأسره واستباح عسكره وغنم أمواله[2] . وفى أخباره أن الرشيد وصله صلات كثيرة ، حتى ليقال إنه وصله مرة بمائتى ألف درهم[3] . وتقرن أخباره إعجابَ الرشيد به بإعجابه بمديحه لقائده يزيد ابن مزيد الشيبانى ، وهو إعجاب نظن أن السياسة تتداخل فيه ، فقد كان كل شىء فى الحكم بيد البرامكة الإيرانيين ، وأكبَّ عليهم الشعراء بمدائحهم إكبابًا جعل الخليفة يَنْفَس عليهم ذلك ، وربما كان مما يؤذيه أنه لا يجد لقادته من العرب الخلَّص من يمدحهم وينوه بهم ، وكان البرامكة يقفون فى وجه بعض هؤلاء القادة ويحاولون إبعادهم عن الخليفة ، وكان يُضْطَرّ للنزول على إرادتهم لعلو نفوذهم ، وكان ممن صنعوا به ذلك يزيد بن مزيد ، فإنه لما قضى على ثورة الوليد ابن طريف وانصرف بالظفر حُجب برأيهم وجاراهم الرشيد فأظهر سخطه عليه ، فقال : « وحَقِّ أمير المؤمنين لأصيفَنّ وأشتُوَنَّ على فرسى أو أدخل ، فارتفع الخبر بذلك إلى الرشيد ، فأذن له ، فدخل ، فلما رآه ضحك وسُرَّ وأقبل يصيح : مرحبًا بالأعرابى ، حتى دخل وأجْلس وأكرم[4] » وأقبل الشعراء يمدحونه ، ومدحه مسلم بقصيدته المشهورة[5] :

---

(١) العذر : جمع عذار ، وهو هنا العزيمة .

(٢) اليعقوبى ٣/١٣٩ وقارن بالجهشيارى ص ١٩٠ وما بعدها .

(٣) انظر ترجمة الأغانى الملحقة بالديوان (طبع دار المعارف) ص ٣٦٩ .

(٤) أغانى (دار الكتب) ١٢/٩٦ وما بعدها .

(٥) هى أولى قصائد الديوان .

أجْرِرْتُ حَبْلَ خليعٍ فى الصِّبا غَزِل   وشمَّرتْ هِمَمُ العُذَّال

وارتفعت إلى سمع الرشيد ، فطار سروراً بمدح قائده وبمادحه . ومن حينئذ توثقت الصلة بين الشاعر والخليفة من جهة وبينه وبين القائد من جهة ثانية ، وأخذ يزيد يُغْدق عليه نواله الغَمْر ، حتى ليقال إنه أعطاه فى إحدى وفاداته عليه مائة وتسعين ألف درهم ، وأقطعه إقطاعات تُغِلُّ مائتى ألف درهم . ولما ولَّى الرشيد يزيد أرمينية وآذربيجان سنة ١٨٣ للهجرة صحبه وظل معه حتى توفى سنة ١٨٥ . وقد احتفظ الديوان بقصيدته السابقة فيه وقصيدة ثانية ميمية ومقطوعة قصيرة ، وهو فى القصيدة الأولى ينوِّه بانتصاراته فى حروب الروم وظفره بيوسف البَرْم الثائر فى خراسان لعهد المهدى ثم الوليد بن طريف الخارجى الثائر بالجزيرة لعهد الرشيد . ونراه فى القصيدة الثانية وهى التى يستهلها بقوله[2]:

طَيْفَ الخيالِ حَمِدْنا منك إلماما   داويتَ سُقْماً وقد هَيَّجْتَ أسْقاما

يتغنَّى بانتصاره على الوليد بن طريف ويشيد بشجاعته وإقدامه .

وكان منذ نزوله بغداد يمدح محمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة ، وكان خليفة الفضل بن جعفر البرمكى بباب الرشيد ، وكان يسمى فتى العسكر لبلائه فى الحروب ، ولمسلم فيه قصيدتان وبعض مقطوعات منثورة فى ديوانه ، وهو فى إحدى قصيدتيه ، وهى التى افتتحها بقوله[3]:

عاصَى الشبابَ فراحَ غيرَ مفنَّدِ   وأقام بين عزيمةٍ وتجلُّدِ[4]

يشيد طويلا بانتصاره فى بعض حروب الروم وفتكه بأحد بطارقتهم ، كما ينوِّه بانتصارات أبيه « منصور » على خوارج القيروان ، ولعله كان فى عداد جيش يزيد بن حاتم المهلبى الذى فتك بهم فتكاً ذريعاً لعهد الخليفة المنصور[5] . وقد وصله محمد بن منصور بن زياد بالبرامكة ، وفى ديوانه بيتان فى مديح يحيى ، وقصيدة ومقطوعة فى مديح ابنه جعفر ، وهو فى القصيدة يشير إلى قضائه على فتنة

---

(١) أجررت حبل خليع كناية عن تركه يصنع ما يشاء .

(٢) الديوان ص ٦١ .

(٣) الديوان ص ٢٣٠ .

(٤) مفند : ملوم .

(٥) النجوم الزاهرة ٢/ ٢١ .

بالشام سيّره إليها الرشيد سنة ١٨٠ للهجرة[١] ، يقول[٢] :

أعطى المَقادةَ أهلُ الشام حين غُشُوا   من جَعْفرٍ بِهَناتٍ مالها حِوَلُ

وأبدع قصائده فى البرامكة لاميته فى الفضل بن جعفر ، وهى تُعَدّ من روائعه[٣] وإذا صح أن من سماه إسماعيل فى قصيدته : « وإنى وإسماعيل يوم وداعه »[٤] من البرامكة كانت هى الأخرى من دُرره فيهم . ونراه بعد وفاة يزيد بن مزيد يتصل بداود بن يزيد المهلبى أحد قواد الرشيد وولاته على إفريقية ، وقد ولاه السند سنة ١٨٤ فرَمّ ما فيها من شعث بين اليمنية والنزارية ، وفتح كثيراً من مدنها ، ويقال إنه « كان يجلس للشعراء فى السنة مجلساً واحداً فيقصدونه ذلك اليوم وينشدونه مدائحه ، فوجّه إليه مسلم راويته بقصيدته فيه[٥] :

لا تَدْعُ بى الشَّوْقَ إلى غير معمودِ   نَهَى النُّهَى عن هَوَى البِيض الرَّعاديدِ[٦]

فلما أنشدها بين يديه أمر له بعشرة آلاف درهم وأمر لمسلم بمائة ألف ، وهى إحدى فرائده ، ونراه فيها يتحدث عن انتصاراته فى « كِرْمان » وسجستان ومن فتك بهم من الخوارج والثوار ، وكيف دانت له السند واستقامت أمورها خير استقامة .

ونرى مسلما يمدح جماعة من كتاب الدواوين والولاة وكبار رجال الدولة فى عهد الرشيد ، وفى مقدمتهم يعقوب[٧] بن سعدان ، وكان سعدان كاتب زُبَيْدة[٨] زوج الرشيد ، وسهل[٩] بن الصباح المدائنى ، وكان من مقدَّمى رجال الدولة وأجوادهم[١٠] ، والحسن[١١] بن عمران الطائى والى الرشيد على دمشق[١٢] ، وزيد ابن مسلم الحنفى أحد قواده ، وقد نوّه به وبكرمه وشجاعته وبلائه فى الحروب فى الأكفال .

---

(١) الجهشيارى ص ٢٠٨ والطبرى ٦/٤٥٧ و ٤٦٦ .
(٢) الديوان ص ٢٥٠ .
(٣) الديوان ص ٢٦٠ .
(٤) الديوان ص ٣٣٢ وقارن بسمط اللآلىء ٣٢٧ وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع دار المعارف) ص ٨٠ .
(٥) الديوان ص ١٥١ .
(٦) معمود : عاشق . الرعاديد : المرتجات
(٧) الديوان ص ١١٤ ، ٣٣٦ .
(٨) الجهشيارى ص ٢٥٦ .
(٩) الديوان ص ٢٤ وانظر ص ٣٢٦ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧ .
(١٠) الجهشيارى ص ١٦٥ وما بعدها
(١١) الديوان ص ٢٥٧ .
(١٢) زهر الآداب ٤/٨٢ .

قصيدتين[1] بديعتين . ونمضى معه إلى عصر الأمين فنراه يمدحه بقصيدته[2] :

شُغْلى عن الدار أَبكيها وأَرْثيها   إذا خلت من حبيبٍ لى مَغانيها

ونراه يشيد بانتصاراته على أعدائه فى الشرق ، وهو بلا ريب يشير إلى انتصار هرثمة بن أعين على رافع بن الليث الثائر بسمرقند سنة ١٩٤[3] . ولا يلبث الأمين أن ينقض عقد ولاية العهد من بعده لأخيه المأمون ، ويأخذ من الناس البيعة لابنه موسى مما أدَّى إلى تطاحن الأخوين وظفر المأمون بأخيه على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . ويولِّى مسلم وجهه شطر مَرْو حيث المأمون ووزيره الفضل بن سهل . وتلقَّاه الفضل بترحيب عظيم ، إذ كان من ندمائه قبل وزارته للمأمون[4] ، ونظن ظنًّا أن الصلة توثقت بينهما منذ كان مسلم يغدو ويروح على البرامكة ، وخاصة على الفضل بن جعفر البرمكى فقد كان ابن سهل يخدمه أولا ثم التحق بخدمة المأمون . ولم يكد مسلم يمثل بين يديه حتى أنشده قوله فيه :

لو نطقَ الناسُ أَو أَنْبَوْا بعلمهمِ   ونبَّأَتْ عن معالى دهرك الكتبُ

لم يبلغوا منك أَدنى ما تَمتُّ به   إذا تفاخرتِ الأَملاكُ وانتسبوا

فأمر له عن كل بيت من هذه القصيدة بألف درهم[5] ، وقد سقطت من ديوانه ، كما سقطت قصيدة كافية له فى المأمون لم يبق منها إلا هذان البيتان[6] :

وردتْ على خاقان خَيْلُك بعدما   كرِهَ الطِّعان وقد أَطَلْنَ عِراكا

حتى وَرَدْن وراءَ « شاش » بِمَنْزِلٍ   تَركتْ به نَفَلاً له الأَتراكا

وأيضًا فقد سقطت له قصيدة ثالثة فى الفضل بن سهل لم يبق منها إلا بيت واحد[7] ، وحظى عنده حُظْوَة كبيرة جعلته يوليه جرجان أو بعض ضياعها أو بَريدها أو مظالمها أو ضياع أصبهان على اختلاف فى الروايات[8] . ولعل

---

(١) الديوان ص ١٧٧ ، ٢٠٠ .
(٢) الديوان ص ٢١٦ .
(٣) اليعقوبى ٣/١٦٥ .
(٤) ابن الطقطقى ص ١٦٦ .
(٥) ترجمة مسلم فى الأغانى الملحقة بالديوان ص ٣٨٠ .
(٦) الديوان ص ٣٣١ .
(٧) الديوان ص ٣٠٧ .
(٨) انظر ملحقات الديوان ص ٣٥٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٣ ، ٤٣١ ، ٤٤٤ وما بعدها .

أولها أكثرها صحة ، ويقال إنه كان يربح ألف ألف درهم فى العام، وما زال بجرجان حتى لبّى داعى ربه سنة ٢٠٨ للهجرة .

وواضح أن مسلما أخذ يعيش فى هناءة ورغد منذ أواخر العقد الثامن من القرن الثانى ، فقد انهالت عليه الدنيا وأخذ يظفر بجوائز ضخمة ، وما زال يرقى به شعره حتى تولّى جُرْجان . وفى أخباره وأشعاره ما يدل على أنه كان يقبل على اللهو والطرب ، ويفْسَحُ فى حياته للحب والغزل ، ولكن يظهر أنه لم يكن ينغمس فى ذلك انغماس أبى نواس وأخدانه ، فقد كان فيه وقار ، وإحساس غير قليل بكرامته . وكل شيء يؤكد أن حياته فى أسرته كانت تجرى رُخاء ، فقد رُزق ابنة وولدين هما مخلد وخارجة ، وسبقته زوجته إلى دار البقاء ، فحزن عليها حزنًا شديداً ، ولعل فى حزنه عليها ما يدل على أنها كانت له شديدة الوفاء والإخلاص .

وفيما قدمنا ما يدل دلالة بيّنة على أن ديوان مسلم لم يحتفظ بكثير من قصائده ، فأشعاره فى المأمون والفضل بن سهل مفقودة كما أسلفنا ، إلا البيت بعد البيت ، وحتى من رُويت له فيهم بعض قصائده يظهر أن وراءها قصائد له فيهم سقطتْ من يد الزمن . ومما يجعلنا نقطع بذلك أننا نجد ابن المعتز يشيد بلاميته السائرة التى أنشدها الرشيد والتى لقّبه كما مر بنا من أجل أحد أبياتها باسم « صريع الغوانى » ويقول إن الرشيد كتبها بماء الذهب[1] ، ومع ذلك لم يبق منها فى الديوان إلا مقدمتها ، ويصفها ابن المعتز بأنها « مشهورة سائرة جيدة عجيبة » . وكأن ديوانه مختارات تتضمن بعض قصائده و بعض مقطوعاته . ويظهر أن العبث بالديوان قديم ، حتى ليروى بعض الرواة أن مسلماً تغافل راويته يوما وبيده دفتر ديوانه ، فقذف به فى بحر ! ولهذا قَلّ شعره ولم يبق منه بأيدى الناس إلا ما رواه بعض معاصريه العراقيين وإلا ما كان فى أيدى الممدوحين من مدائحه[2] . وربما كان هو نفسه أول مَنْ حَوّل ديوانه إلى مختارات ، إذ كان شديد الحساب لنفسه ، وكأنه أسقط كثيراً من أشعاره ، حتى لا يبقى له فى أيدى الناس إلا عيون شعره .

ولعل القرن الثانى للهجرة لم يعرف شاعراً جهد نفسه فى صنع الشعر ، كما

---

(١) ابن المعتز ص ٢٣٥ .

(٢) انظر ترجمة الأغانى الملحقة بالديوان ص ٣٧٤ .

جهدها مسلم ، فقد أقبل يتمثل نماذج الشعر القديم : جاهليه وإسلاميه بكل معانيه وصوره وأساليبه ، وأضاف إلى هذا التمثل تمثلا لا يقل عنه عمقاً ولا دقة لنماذج الشعر العباسي عند بشار ومعاصريه . وبذلك التأم القديم والجديد فى نفسه ، وعاش ينفق حياته الفنية فى المزج بينهما ، مفكراً فى كل التراث الشعرى الذى سبقه وناقداً ومحللا مستنبطاً . وهداه ذلك منذ أول الأمر إلى أن يستكشف فى وضوح أدوات البديع والتصنيع من جناس وطباق ومشاكلة وتصوير وأن يجعلها أساساً فى صنع شعره واعترف له القدماء بذلك حتى قالوا إنه « أول من قال الشعر المعـــروف بالبديع ، وهو الذى أعطاه لقبه[1] » . وحقاً نجده مبثوثاً فى أشعار بشار وأبى نواس وأضرابهما من سابقيه ومعاصريه ، ولكنه يأتى عندهم فى الحين بعد الحين ، أما عند مسلم فإنه يتخذه وكْده وغايته من عمل الشعر . وقد حاول ابن المعتز فى كتابه « البديع » أن يردّ البديع إلى الشعر القديم والقرآن الكريم ، فهو عربى الأصول . ولا يمكن لأحد أن يدعى أن مسلماً حين استظهر مذهب البديع والتصنيع فى شعره لم يعتمد على أصول تزكّيه ، فقد كان منبثاً فى العصور السابقة له ، إذ كان الجاهليون والإسلاميون يأتون به فى خفة ، ثم عُنى به العباسيون منذ بشار ، حتى ليجعله الجاحظ زعيم فن البديع ، وبه اقتدى مسلم وحذا حذوه[2] . ولا نستطيع أن نجرى مع الجاحظ فى ردّه مذهب البديع إلى بشار ، لأنه لم يقصر فنه عليه ، ولم يتخذه مذهباً يعيش له ويعيش به ، أما مسلم فإنه اتخذه مذهباً له ، وفرضه على شعره فرضاً منحازاً إليه واقفاً نفسه على التفكير فيه تفكيراً متصلا معتمداً على حس دقيق وشعور رقيق وعقل مثقف ثقافة ممتازة .

وليس ذلك فحسب فقد أشربت روح مسلم صياغة الشعر القديم بأبنيتها الجزلة الضخمة الناصعة ، وتحولت إليه هذه الصياغة بكل ما يجرى فيها من روعة وجمال ، فإذا أساليبه معتدلة مستوية ليس فيها أى عوج أو انحراف إنما فيها التناسق الكامل الذى يفتن قارئه بدقته وباتساع جنباته ليبث فيه مسلم بديعه ، وليـنميه مع روح عصره ، وليصبّ فيه نفسه وعقله وخياله ، وهو فى ذلك يتكلف

---

(١) ترجمة الأغانى الملحقة بالديوان ص ٣٦٤ .

(٢) البيان والتبيين ١/٥١ .

كل ما يستطيع من جهد عنيف وعناء شاق ، مراجعاً نفسه ومتأنياً محتاطاً ، حتى يبلغ كل ما يريد من امتياز على أقرانه . ولعله لم يمنح موضوعا عنايته كما منح المديح وهو فيه يلائم ملاءمة دقيقة بين ماضى الشعر وحاضره ، فيستنفد ما قاله القدماء فى وصف الصحراء والنوق والتشبيب ملتفتاً إلى إخراج العباسيين لهذه الموضوعات فى أشعارهم وما أضافوا إليها من وصف الخمر، أو وصف السفن فى طريقهم إلى ممدوحيهم. حتى إذا خلص إلى المديح أخذ ينفذ من خلال معانيه القديمة والحديثة إلى عرض جديد رائع يصوِّر زاده الأصيل من التراث الفنِّى مضيفاً كثيراً من المعانى والصور البديعة ، واقرأ له هذه القطعة من لاميته الطويلة العجيبة فى يزيد بن مزيد وتصوير فروسيته وكرمه وما ينزل بالأعداء من تقتيل ساحق ماحق وما يتسم به من مروءة كاملة :

لولا يزيدُ لأَضحى الملكُ مطَّرَحاً ... أَومائلَ السَّمْك أَومُسْتَرْخِيَ الطُّوَلِ[1]

يَغْشَى الوَغَى وشهابُ الموت فى يدهِ ... يَرْمِى الفوارسَ والأَبطال بالشُّعَلِ[2]

موفٍ على مُهَجٍ فى يوم ذى رَهَجٍ ... كأَنه أَجَلٌ يسْعَى إلى أَمَلِ[3]

لا يَرْحَلُ الناس إلا نَحو حُجْرتِه ... كالبيت يُفْضِى إليه مُلْتَقَى السُّبُلِ[4]

يكسو السيوفَ دماءَ الناكثين به ... ويجعل الهامَ تيجان القَنَا الذُّبُلِ[5]

قد عَوَّد الطَّيْرَ عاداتٍ وثِقْنَ بها ... فهنَّ يَتْبَعْنه فى كل مُرْتَحَلِ

تراه فى الأَمن فى دِرْعٍ مضاعفةٍ ... لا يأْمن الدهرَ أَن يُدْعَى على عجلِ

لا يَعْبَقُ الطِّيبُ خَدَّيْه ومَفْرِقَه ... ولا يُمَسِّح عينيه من الكُحُلِ[6]

فإنك تشعر بضخامة البناء وقوة الحبك وأن مسلماً يتسلط على كلماته ومعانيه وصوره ، فلا نبوٌّ ولا قصور وإنما ضبط وإحكام . وهو يستمد صورته فى البيت

---

(١) مطرحاً : مخذولا . الطول : الحبال . وقد ضرب السمك والطول مثلا لاستقامة الأمر كاستقامة الخيمة حين يقوم عمودها وتشد حبالها.

(٢) شهاب الموت : السيف . وأراد بالشعل اللهيب المتساقط من الشهاب .

(٣) المهج : الأرواح . الرهج : غبار الحرب .

(٤) يريد أن الطرق تلتقى براكبيها عند الممدوح لجوده الغمر.

(٥) الهام : الرءوس . الذبل : الرقيقة الحادة.

(٦) لايمسح عينيه من الكحل : لايكتحل .

الأول من البادية وخيامها وما يُطْوَى فيها من حبال وأعمدة . وطالما شبه الشعراء السيوف بالشهب ، غير أن مسلماً يضيف إلى ذلك تشبيهاً بشعل النار وهى فى يد يزيد يرى بها يميناً وشمالا . ومضى فى البيت الثالث يضيف إلى تصويره السابق جناسين واضحين . والتمس صورة سبقه إليها زهير فى بيته الرابع ، إذ يقول فى مديح صاحبه هرم بن سنان :

قد جعل المبتغون الخيرَ فى هَرِمٍ ... والسائلون إلى أبوابه طُرُقا

ومضى يصور فتكه بالأبطال تصويراً بديعاً فى بيته الخامس ، وكان القدماء يذكرون صحبة الطير للجيوش حين يصفونها كناية عما ستجد من أشلاء قتلاها ، فاستغل ذلك فى بيته السادس وجعلها تتبع يزيد دائماً فى رحلاته واثقة بما سيُميرها به ، حتى أصبح ذلك من عاداتها فهى دائماً مرفرفة فوقه . ومثّله فى البيتين السابع والثامن شجاعاً تام الشجاعة حتى لا يفارقه درعه فى أوقات أمنه وسلمه ، وحتى لا يتعطر شأن المترفين اللاهين فعطره شجاعته وما يسيل على سيفه من دماء الأبطال. واقرأ له هذه القطعة من مديح داود بن يزيد بن حاتم المهلبى ، وتصويره فيها لبسالته وبطولته :

موحَّدُ الرأى تنشقُّ الظنون له ... عن كل ملتبِسٍ منها ومعقودِ [١]

كاللَّيْثِ بل مثله اللَّيْثُ الهَصُور إذا ... غَنَّى الحديد غناءً غيرَ تغريد

يلقى المنيَّةَ فى أمثال عُدَّتِها ... كالسَّيْل يقذف جُلمودًا بجلمود

يجود بالنفس إذ ضَنَّ الجوادُ بها ... والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود

فإنك تحس قوة البناء ودقة التعبير وروعة التصوير ، فداود محكم الرأى إذا فكر فى شىء انكشف له غامضه ومتشابهه ، وهو كالليث فى انقضاضه على فريسته ، بل الليث هو الذى يحاكيه ويتخذه قدوته ، وإن بسالته لتتحول إلى ما يشبه موجاً لا يزال يسقطه على الأبطال موجة فى إثر موجة كالسيل يدفع جلموداً بجلمود . وإن

---

(١) ملتبس : مشتبه . معقود : غامض .

شجاعته لضرب رائع من جوده وكأنما الجود شريعته حتى بروحه الزكية . ومن رائع مديحه قوله فى الفضل بن جعفر البرمكى :

تُساقط يُمْناه النَّدَى وشماله الـ ـرَّدَى وعيونُ القول مَنْطقه الفَصْلُ (١)
عَجولٌ إلى مايُودِعُ الحَمْدَ مالهُ يَعُدُّ النَّدَى غُنْماً إذا اغتُنِم البُخْل
بكفِّ أبى العباس يُسْتَمْطَرُ الغِنَى وتُسْتَنْزَلُ النُّعْمَى ويَسْتَرعِفُ النَّصْلُ (٢)

والأبيات من طراز بنائه الضخم ، وهى متينة السبك ، قوية الحبك ، وانظر فى البيت الأول كيف صوَّر تصويراً بديعاً كرم الفضل وشجاعته وبلاغة بيانه ، وقد طابق فى البيت الثانى بين الكرم والبخل ، وعاد فى البيت الثالث إلى تركيزه الشديد وتجميعه المعانى الكثيرة فى الألفاظ القليلة ، مع قوة تجسيمها وتجسيدها . ومن بارع مديحه قوله فى إسماعيل البرمكى :

وإنى وإسماعيلَ يوم وداعِهِ لكالغِمْد يوم الرَّوْع فارقه النَّصْلُ
فإن أغْشَ قوماً بعده أو أَزُرْهمُ فكالوحش يُدْنيها من الأَنَسِ المَحْلُ (٣)

يقول ابن المعتز : « وهذا معنى لا يتفق للشاعر مثله فى ألف سنة (٤) » . وفى نفس هذه القوالب القوية كان يصوغ مراثيه على شاكلة قوله فى رثاء يزيد بن مزيد :

نَفَضَتْ بك الآمالُ أَحْلاسَ الغِنَى واسترجعتْ نُزَّاعَها الأَمصارُ (٥)
أَجَلٌ تنافسه الحِمامُ وحفرةٌ نَفِسَتْ عليها وجهك الأَحْفَارُ (٦)
فاذْهَبْ كما ذهبتْ غَوَادِى مُزْنَةٍ أَثْنَى عليها السَّهْل والأَوعارُ (٧)

والصورة فى البيت الأول دقيقة ، فقد أراد أن يصور قعود المعتفين والسائلين عن الرحلة فى طلب نواله ، فقال إن الآمال نفضت أحلاس الغنى ، أى أنها لم تعد

(١) الندى : الكرم . الردى : الموت .
(٢) يسترعف : يقطر دماً . النصل حد السيف .
(٣) الأنس : بفتح الهمزة كالأنس بضمها ، المحل : الجدب .
(٤) ابن المعتز ص ٢٣٦ .
(٥) أحلاس جمع حلس وهو كساء يوضع على ظهر البعير تحت الرحل . نزاعها : الذين ينزعون إليه ويغتربون عن أوطانهم .
(٦) الحمام : الموت .
(٧) المزنة : السحابة الممطرة .

تهيِّئ الإبل للارتحال نحوه . وجعل فى البيت الثانى الموت والقبر يتنافسان عليه ، كل يريد أن يحوزه إليه ، ولم يلبث أن جعل جميع القبور تنفس على قبره جسده الغالى . ودعا له متمثلا جوده الذى عَمَّ به الناس كما تعم السحابة بوابلها السهل والوعر . ومن دقائق معانيه فى الرثاء قوله :

ومخادعٍ السمع النَّعِىَّ ودونه خَطْبٌ أَلَمَّ بصادقٍ لا يَخْدَعُ

وهو يصور فى البيت ذهول الصديق حين يأتيه نعى صديقه فيفزع إلى تكذيبه ، ثم يثوب إلى رشده . وقد بدأ حياته بنقائض فى الهجاء ناقض بها ابن قنبر ، وهو فى هذه النقائض يصدر عن روح النقائض القديمة عند جرير والفرزدق وما يُطْوَى فيها من عصبيات ، ويتكافآن فلا يعود إلى هذا النمط القديم ، بل يأخذ فى النمط المستحدث الذى وصفناه فى غير هذا الموضع والذى كان يجرى فى أبيات قصيرة تشبه السهام المسمومة ، كقوله فى دعبل تلميذه وقد فسد ما بينهما :

أَما الهجاءُ فدقَّ عِرْضُك دونه والمدحُ عنك كما علمتَ جليلُ
فاذهَبْ فأنت طليقُ عِرْضِك إنه عِرْضٌ عَزَزْتَ به وأنت ذليل

وتُرْوَى له أبيات فى هجاء يزيد بن مزيد ، وأكبر الظن أنها منتحلة أو لعلها أضيفت إليه خطأ ، ويظهر أنه مدح موسى بن خازم بن خزيمة وسعيد بن سلم ابن قتيبة ، فلم يَبَرَّاه ، واستشاط غضباً ، فرماهما بسهام لاذعة من هجاء مرير ، على شاكلة قوله فى موسى :

لو أَنَّ كَنْزَ البلاد فى يَدِهِ لم يَدَعِ الإعتذار بالعُدْمِ[1]

وقوله فى سعيد :

وأَحْبَبْتُ من حُبِّها الباخلـ ـين حتى وَمِقْتُ ابنَ سَلْمٍ سعيدا[2]
إذا سِيل عُرْفًا كَسَا وَجْهَهُ ثياباً من اللُّوم صُفْرًا وسودا[3]

وكان لا يزال يدقق فى معانى الهجاء حتى يقع على معنى نادر يروع سامعيه ،

---

(١) العدم : فقدان المال . (٢) ومقت : أحببت .
(٣) سيل : سئل ، خفف . العرف : المعروف والجود .

من مثل قوله يهجو رجلا بقبح وجهه وخُلُقه :

قَبُحَتْ مَناظره فحين خَبَرْتُهُ حَسُنَتْ مَناظِرُهُ لقُبْحِ المَخْبَرِ

وبنفس هذا النسيج من الصياغة وهذه الدقة فى المعانى والصور كان مسلم ينظم فى الحب والخمر ، سواء أودعهمامقدمات مدائحه أو أفردهما ببعض المقطوعات ، وهو يصور منزعه فيهما ومتعته بهما إذ يقول :

وما العيش إلا أن أبيتَ موسَّدًا ــ صريعَ مُدامٍ ــ كفَّ أحْورَ أكْحَلِ[1]

وكان لا يزال يبقى فيهما على نفسه ولا يزال يحتفظ بغير قليل من كرامته . وهو فى غزله لا يمجن ولا يفحش ، بل يقترب اقتراباً شديداً من أصحاب الهوى العذرى الذى يصور آلام العاشق وحنينه ونيران شوقه وحبه الذى يلذع فؤاده من مثل قولـــه :

إن كنتِ تَسْقين غير الرَّاح فاسقيني كأساً ألذُّ بها من فيكِ تَشْفيني

عيناكِ راحى ، وريحانى حديثُك لى ولونُ خَدَّيك لونُ الورد يكفيني

وقوله :

ولما تلاقينا قضَى اللَّيْلُ نَحْبَهُ بوجهٍ كوجه الشمس ما إنْ له مِثْلُ

وخالٍ كخال البَدْر فى وجه مِثْلهِ لَقِينا المُنَى فيه فحاجَزنا البَذْل

وقوله :

وأقسمتُ أنسى الداعياتِ إلى الصِّبا وقد فاجأتْها العَيْنُ والسِّتْرُ واقعُ

فغطَّتْ بأيديها ثِمارَ نُحورها كأيدى الأسارَى أثْقَلَتْها الجَوامع[2]

والخمر عند مسلم تأتى غالبًا فى مقدمات مدائحه ، وفيها يحاول أن يستنبط المعانى النادرة والأخيلة المبتكرة من شاكلة قوله :

ومانحةٍ شُرَّابَها المُلْكَ قَهْوَةٍ مجوسيَّةِ الأنساب مسلمة البَعْل

---

(١) المدام : الخمر.

(٢) الجوامع : الأغلال والقيود.

قد استُودِعتْ دَنًّا لها فهْو قائمٌ ... بها شَفَقًا بين الكروم على رِجْل
شَقَقْنا لها فى الدَّنِّ عَيْنًا فأَسْبَلَتْ ... كألسنة الحَيَّاتِ خافتْ من القَتْلِ (١)

وقد جعلها فى البيت الأول من بنات المجوس كما جعل شاربها مسلماً وسماه بَعْلا أو زوجاً ، لأنه اشتراها وخطبها وهو يعنى نفسه . أما فى البيت الثانى فقال إنها ظلت طويلا فى شجرة الكرم ، وظلت واقفة بها شفقة لها وحنواً عليها . وقال فى البيت الثالث إنهم شَقّوا لها فى دَنّها ثُقْبًا وهى تسيل منه حمراء مهتزة ، كأنها ألسنة حيّات ترتجف من القتل ، فهى لا تكف عن إرسالها لها خوفًا وفزعًا . ومسلم من أمهر الشعراء وأدقهم فى التصوير ، وهى دقة تتراءى فى جميع جوانب ديوانه من مثل قوله مصوراً سرعة النوق ونحولها لطول السَّفر :

إلى الإمام تهادانا بِأَرْحُلِنا ... خَلْقٌ من الرِّيح فى أشباح ظِلْمانِ (٢)
كأن إفلاتَها والفجرُ يأخذها ... إفلاتُ صادرةٍ عن قَوْس حُسْبانِ (٣)

فقد جعل نوقهم كأنما خلقت من الريح لسرعتها ، وصوَّرها فى ضمورها كأنها ذكور نعام وهى تمرُّ مسرعة مرور ظبية رماها صائد فأخطأها ، فهى لا تنى عن الانطلاق والعَدْو الشديد . وقد نوَّه القدماء طويلا بتصويره للسفينة بمثل قولـــه :

إذا أقبلتْ راعتْ بقُنَّةِ قَرْهَبٍ ... وإن أدبرتْ راقتْ بقادِمَتَىْ نَسْرِ (٤)
أَقِلَّتْ بِمجدافين يعتورانها ... وقوَّمها كَبْحُ اللِّجام من الدُّبْرِ (٥)
كأن الصَّبا تحكى بها حين واجهتْ ... نسيمَ الصَّبا مَشْىَ العروس إلى الخِدْرِ (٦)

وهو يشبه فى البيت الأول صدرها برأس ثور وحشى كما يشبه مجدافيها بجناحى نَسْر ، ويرسم صورتها فى البيت الثانى بمجدافيها وسُكّانها الذى يقوِّم جموحها .

---

(١) يقصد بالعين الثقب . أسبلت : سالت
(٢) تهادانا : تحملنا . أشباح : أشخاص . ظلمان : جمع ظليم وهو ذكر النعام .
(٣) إفلاتها سرعتها وانبعاثها فى السير . صادرة راجعة . قوس حسبان : ضرب مشهور فى عصرهم من القسى .
(٤) راعت : أفزعت . قنة قرهب : رأس ثور وحشى . قادمتا النسر : جناحاه ، أراد بها المجدافين .
(٥) أقلت : ارتحلت وسارت .
(٦) الخدر : البيت الذى تستتر فيه المرأة .

أما فى البيت الثالث فيشبهها فى سيرها الوئيد بالعروس فى سيرها الرفيق إلى خِدْرها .

وعلى هذا النحو لا يزال مسلم يلتقط لأبياته وأشعاره درر المعانى والصور ، مضيفًا إلى ذلك حُلّى كثيرة من وَشْى الطباق والمقابلة والجناس والمشاكلة ، وهو فى ذلك لا ينسى العناية بموسيقاه الضخمة وما ترسل من رنين قوى محكم ، مزاوجا بكل ما استطاع بين عناصر الشعر القديمة والجديدة ، فإذا أشعاره تحتفظ بالصياغة الجزلة الرصينة التى تلذ الأسماع العربية ، وإذا هى تفسح لمذهب البديع الجديد بكل طرائفه العقلية والخيالية ، بحيث يمتع القلوب والأفئدة .

٥

أبو تمام [١]

هو حبيب بن أوس الطائى ، وُلد بقرية جاسم بقرب دمشق على الطريق منها إلى طبرية ، وقد تعددت الروايات فى سنة ولادته ، فقيل سنة ١٧٢ وقيل سنة ١٨٢ وقيل سنة ١٨٨ وقيل سنة ١٩٢ ونُسب إليه أنه قال : ولدتُ سنة ١٩٠ [٢] ، والآراء متضاربة فى صحة نسبه من طيئ ، فقد هجاه بعض معاصريه بأنه نبطى [٣] ، وزعم قوم أن أباه كان نصرانيًّا [٤] يسمَّى تدوس وأنه حرَّفه إلى أوس وانتسب فى طيئ . وظن مرجليوث فى ترجمته له بدائرة المعارف الإسلامية أنه ربما كان اسم أبيه المذكور فى المراجع القديمة على أنه تدوس محرف عن « تيودوس » وبَنَى

---

(١) انظر فى أبى تمام وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٨٣ والأغانى (طبع دار الكتب) ٣٨٣/١٦ وتاريخ بغداد ٢٤٨/٨ والموشح ص ٣٠٣ وابن خلكان (طبعة سنة ١٢٩٩ هـ) ١٥٠/١ وتهذيب ابن عساكر ١٨/٤ وشذرات الذهب ٧٢/٢ ومرآة الجنان ١٠٢/٢ وكتاب الموازنة بين الطائيين للآمدى وأخبار أبى تمام للصولى وهبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام للبديعى ودائرة المعارف الإسلامية فى مادة أبى تمام ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين والفن ومذاهبه فى الشعر العربى (طبع دار المعارف) ص ٢١٩ « وأبو تمام الطائى : حياته وحياة شعره » لنجيب محمد البهبيتى «وأبوتمام» لعمر فروخ . وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة ، أهمها طبعة دار المعارف بشرح التبريزى وقد ظهر منها ثلاثة أجزاء تشتمل على مدائحه ، وسنرجع إلى هذه الطبعات ، وما ليس فيها سنرجع فيه إلى طبعة بيروت سنة ١٨٨٩ م .

(٢) أنظر فى ميلاده وفيات الأعيان وأخبار أبى تمام للصولى ص ٢٧٢ .

(٣) الصولى ص ٢٣٥ .

(٤) الصولى ص ٢٤٦ وانظر النجوم الزاهرة ٢٦١/٢ .

طه حسين على هذا الظن أنه يونانى الأصل[1] ، بينما ذهب بروكلمان إلى أن اسم تدوس يشيع بين نصارى السريان[2] . ونصرانية أبيه — إن صحت — لا تنفيه من العرب ولا من طيئ ، فقد كانت النصرانية شائعة من قديم فيها ، وجمهورٌ من ترجموا له من الثقات يذهبون إلى أنه طائى صَلِيبة[3] ، ويشهد لذلك فخره المضطرم بطيئ وأنه اختار منها أكثر ممدوحيه ، ونوّه تنويهاً عظيماً بمن سجّلوا لها فى عصره أمجاداً حربية ، مما يدل على أنه طائى عريق وعربى أصيل .

وقد تضاربت الآراء أيضًا فى نشأته ، فقيل إنه نشأ بمصر يسقى الناس فى مسجدها الكبير ، وأكثرُ المؤرخين له على أنه نشأ بدمشق وأن أباه كان عطاراً فيها وأنه ألحقه بحائك كى يحسن حياكة الثياب . ويبدو أنه أخذ يختلف — منذ نعومة أظفاره — إلى حلقات المساجد ينهل مما كان يجرى فيها من جداول الشعر والثقافة ، وسرعان ما تدفق ينبوع الشعر على لسانه ، واتجه به إلى بعض اليمنيين والطائيين فى بلدته وفى حمص مثل نوح بن عمرو السَّكْسَكِيّ وبنى عبد الكريم الطائيين . ونراه يولّى وجهه نحو مصر قاصداً عيّاش بن لهيعة الحضرمى الذى كان يقوم أحيانًا على شرطتها وخراجها ، وله يقول فى إحدى مدائحه[4] :

وأنت بمصر غايتى وقرابتى ... بها وبنو الآباء فيها بنو أبى

وهو يشير دائمًا فى مديحه له إلى حرمته منه وأنه يمنى مثله ، ويلجّ فى الافتخار بملوك اليمن وأقيالها القدماء . ويظهر أنه عاد فازورّ عنه ، مما جعله يكثر من عتابه ، حتى إذا يئس منه أصلاه بنار هجائه . وليس بين أيدينا ما يدلُّ دلالة صريحة على تاريخ قصده إلى عياش ، غير أن فى كتاب « الولاة والقضاة » للكندى أشعاراً له تتصل بأحداث مصر بين سنتى ٢١١ و ٢١٤ مما يؤكد مقامه بها فى تلك الفترة ، وفى هذه الأشعار ما يدل على أنه تعرّف على عبد الله بن طاهر فى ولايته على مصر (٢١١ — ٢١٣ هـ) وقد نوّه به وبقضائه فيها على الفتن . وفى ديوانه بيتان هجا بهما

---

(١) مقدمة نقد النثر لقدامة (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٩ وانظر مقالته عنه فى كتابه « من حديث الشعر والنثر » .

(٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٧٢/٢ .

(٣) الأغانى ٢٨٣/١٦ وجمهرة أنساب العرب لابن حزم (الطبعة الثانية بدار المعارف) ص ٣٩٩ .

(٤) الديوان (طبع دار المعارف) ١٦٢/١

المطلب بن عبد الله الخزاعى معلناً له أن مدحه فيه كان كذباً وبهتاناً ، وقد ولى المطلب مصر فى سنتى ١٩٨ و ١٩٩ للهجرة وكان يقيم عياش بن لهيعة على شرطته ، فهل يعنى ذلك أنه نزل مصر مرتين : مرة فى أواخر القرن الثانى ومرة فى أوائل العقد الثانى من القرن الثالث ؟ . الحق أنه ليس بين أيدينا ما يجعلنا نقطع برأى فاصل فى ذلك ، وخاصة أنه ليس فى ديوانه مديح للمطلب ، وربما قال هذين البيتين بعد عزل المطلب عن مصر أو ربما كانا منحولين عليه .

وقد عاد إلى موطنه فى سنة ٢١٤ والمآتم منصوبة فى كل مكان على بطل طيئ المغوار محمد بن حميد الطوسى الذى كافح بابك كفاحًا مريراً ، وخانه القدر فسقط فى ميدان النضال لأوائل هذه السنة . وتعمقت الحادثة نفس أبى تمام فبكاه بكاء حارًا أخذ يدور على الألسنة وأخذ يحتلُّ به مكانة ممتازة بين الشعراء . وأخذ يتردّد على الرقة والموصل ويمدح أجوادهما مثل حبيش بن المعافى قاضى نصيبين ورأس عين ومحمد بن حسان الضبى ، ونراه يقول فى إحدى مدائحه له[1] :

بالشام أهلى وبغدادُ الهوى وأنا ... بالرَّقَّتَيْن وبالفُسْطاط إخوانى

وما أظن النَّوَى ترضى بما صنعتْ ... حتى تشافه بى أقصى خراسان

وذكره الفسطاط يدل على أنه كان حديث عهد بالأوبة منها ، ولا تزال ذكرى واليها عبد الله بن طاهر حية فى نفسه ، ولذلك ينوى أن يزوره فى خراسان : ولايته الجديدة ، وهو يتمنى أن تكتحل عيناه بمرأى بغداد ، ويظهر أنه ألمَّ بها فى صحبة محمد بن حسان الضبى إلماما قصيراً[2] ، وفى ديوانه قصيدة موجهة إلى الحسن بن سهل الذى كان جوده الغَدِق لا يزال يسيل على الرغم من اعتزاله الوزارة وفيها يقول[3] :

ستٌّ وعشرون تدعونى فأتْبعها ... إلى المشيب ولم تظلم ولم تَحُب[4]

فإذا صح أنه مدحه بها فى بغداد فإنه يكون قد زارها وهو فى السادسة والعشرين من عمره . على أنه لم يلبث أن عاد سريعًا إلى الموصل متنقلا بينه وبين موطنه ،

---

(١) الديوان (طبعة دار المعارف) ٣/٣٠٩.
(٢) ابن المعتز ص ٢٨٣ .
(٣) الديوان (طبعة دار المعارف) ١/١١٥ :
(٤) لم تحب : من الحوب وهو الإثم .

وربما بدأ مديحه لمالك بن طَوْق التغلبي والى الجزيرة منذ هذا التاريخ . ونراه يحاول المثول بين يدى المأمون فى إلمامه بدمشق وثغور الشام أثناء حملاته على الروم ، وربما كان أول ما مدحه به قصيدته : (كُشِف الغطاء فأوقدى أو أخمدى) وفيها يعلن له حبه لآل البيت مشيدا بقضائه على الثورات والفتن بمصر ، يقول[1] :

وانتاش مصر من اللُّتَيَّا والتى ... بتجاوزٍ وتعطُّفٍ وتعمُّدِ

والمعروف أن المأمون زار مصر فى أول سنة ٢١٧ للهجرة ، وقد عاد منها إلى دمشق ثم توجه منها إلى ثغر « أذنة » معسكراً بها وجيوشه تتغلغل وراء البيزنطيين ، مبددين لجموعهم فى غير جبهة ، وتقدَّم بنفسه إلى حصن « لؤلؤة » فأناخ به ، وجيوشه تغدو وتروح فى آسيا الصغرى منزلة بالروم هزائم ساحقة . ونرى أبا تمام يتغنى بتلك الانتصارات فى ميميته للمأمون تغنيا بديعاً بمثل قوله يصف تلك الجيوش واستبسالها فى القتال[2] :

مُسْترسلين إلى الحتوف كأنما ... بين الحتوف وبينهم أرحامُ

آسادُ موتٍ مُخْدِراتٌ مالها ... إلا الصَّوارمَ والقنا آجام[3]

وقد مضى يشيد بقائدين من قواد هذه الحروب ، أما أولهما فخالد بن يزيد ابن مزيد الشيبانى والى أرمينية وقد سجَّل له انتصاراً حربيًّا ماحقاً على تيوفيل إمبراطور بيزنطة مصوراً كيف ولَّى الأدبار وكيف استولى الرعب على جنوده، يقول[4] :

ولما رأى تُوفِيلُ راياتك التى ... إذا ما اتلأَبَّت لا يقاومها الصُّلْبُ[5]

تولَّى ولم يألُ الرَّدَى فى اتِّباعه ... كأن الرَّدَى فى قصدهِ هائمٌ صَبُّ

كأن بلاد الروم عُمَّتْ بصيحةٍ ... فضمَّتْ حَشَاها أو رَغا وسْطها السَّقْبُ[6]

---

(١) الديوان ٢/ ٤٨ . انتاش : خلص .

(٢) الديوان ٣/ ١٥٦ .

(٣) مخدرات : ساكنات بيوتها وغاباتها . آجام : جمع أجمة وهى الشجر الكثير الملتف .

(٤) الديوان ١/ ١٩٧ .

(٥) اتلأبت : تتابع هزها . الصلب : جمع صليب ، ويريد النصارى .

(٦) السقب : ولد الناقة التى عقرتها ثمود فصارت شؤماً عليهم وهلاكاً لهم .

وأما القائد الثاني فجعفر الخياط ، على أنه لم يتوسع فى تصوير حروبه وانتصاراته ، ونظن ظنًّا أنه لقى فى هذا الحين المعتصم إذ كان المأمون يعهد إليه بقيادة بعض تلك الجيوش الغازية للروم ، فقد جاء فى بعض أخباره أن أول لقائه له إنما كان فى المَصيصة إحدى ثغور الشام[١] ، وفى بعض الروايات أنه إنما لقيه بعد بنائه لسُرَّ من رأى وفتحه لعمورية فى سنة ٢٢٣ للهجرة غير أنه فى إحدى مدائحه له يقول[٢] :

أَربيعَنا فى تِسْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً حَقًّا لَهِنَّكَ للرَّبيعُ الأَزْهَرُ[٣]

وواضح أنه يشير إلى سنة تسع عشرة بعد المائتين مما يؤكد أنه كان ببغداد فى تلك السنة ، وكأنه شدّ رحاله إليها بعد وفاة المأمون سنة ٢١٨ وقد أخذت تتوثق علاقة بينه وبين إسحق بن إبراهيم المصعبى القائم على شرطة بغداد وأعمالها ، ونراه يشيد بانتصاراته على المحمِّرة الذين ثاروا بالجبل شمالى إيران لسنتى ٢١٨ ، ٢١٩ إشادات رائعة[٤] . ويظهر أنه لم يلبث أن ارتحل إلى عبد الله بن طاهر والى خراسان، واستقبله هو ومن حوله من الكُتَّاب والشعراء استقبالا حافلا ، ويقال إنه لما أنشده قصيدته فيه : (هُنَّ عوادى يوسف وصواحبه) نثَر عليه ألف دينار . وقد دبَّج قصائد كثيرة فى رئيس ديوانه وكُتَّابه محمد بن الهيثم بن شُبانة وأيضًا فى كثير من العُمَّال والقواد هناك مثل محمد بن المستهل ودينار بن عبد الله وحفص بن عمر الأزدى وعلى بن مر ، ونوَّه فى طريقه بكثير من الولاة وخاصة الحسن بن رجاء والى فارس . وفى عودته نزل بهمذان على أبى الوفاء بن سلمة ، وتصادف أن حبسه الثلج عنده أشهراً ، فأكبَّ على خزانة كتبه يؤلف ويصنِّف مجاميع من الشعر أشهرها كتاب الحماسة وهو مطبوع مراراً ، وطُبع له شرحان : شرح التبريزى وشرح المرزوقى ، وهو يصوِّر لنا من بعض الوجوه دقة ذوق أبى تمام كما يصور ثقافته الواسعة بالشعر العربى ودرره النفيسة فى القديم والحديث .

وعاد إلى « سُرَّ من رأى » وأخذ يتغنى بانتصارات القواد على بابك الخرَّمى وكان قد ثار منذ سنة ٢٠١ للهجرة ونازله كثيرون من قُوَّاد المأمون ، وما توافى

(١) الصول ص ١٤٤ .
(٢) الديوان ٢/١٩٣ .
(٣) لهنك : لغة فى لإنك .
(٤) الديوان ٣/١٦٨ ، ٢٦٤ ، ٢٩٧ .

سنة ٢٢٠ حتى يعقد المعتصم للأفشين على الجيوش التى تنازل أتباعه من الخرَّمية فى الجبال وأرمينية وأذْرَبيجان ، وكان من أهم القواد الذين عصفوا حينئذ بأتباعه أبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى الطائى وقد مضى أبو تمام يشيد بانتصاراته وكأنه يحيِّى فيه قبيلته طيِّئاً وأمجادها الحربية الحديثة ، ومن ثَمَّ لم يترك له انتصاراً دون أن يسجله فى ملحمة رائعة . ومجَّد بجانبه بطلاً عربيًّا ثانياً ممن نكلوا ببابك وأصحابه تحت لواء الأفشين هو أبو دُلَف العجلى ، وكان فارساً مغواراً ، وغَيْثاً مدراراً ، فنوَّه به تنويهاً رائعاً . وأخيراً فى أوائل سنة ٢٢٣ قدم الأفشين ببابك مقيداً إلى سُرَّ مَنْ رَأىَ ، فتعالى بها التكبير والضجيج ، وقُتل وقُطِّع جسده وصُلب جزاءً وفاقاً لبغيه ونكثه بالعهود . وأخذ الشعراء وفى مقدمتهم أبو تمام يهنئون المعتصم والأفشين بهذا النصر المبين ، وله فيه ثلاث قصائد رائعة ، هى : (غدا الملك معمور الحمى والمنازل) و (آلت أمور الشرك شر مآل) و (بَذَّ الجلادُ البَذَّ[1] فهْو دفين) . ولم يلبث تيوفيل إمبراطور بيزنطة أن أغار على زِبَطْرة بالقرب من سُمَيْساط والحدث فى طرف بلاده ، واستشاط المعتصم غضباً ، فجهَّز الجيوش لغزو الروم ، والتقى بتيوفيل وهزمه هزيمة ساحقة ، افتتح على إثرها عمورية وتفرقت جيوشه فى آسيا الصغرى تمحق الروم محقاً ، وتوطئهم صَغارا وذلا . وكان لمحمد بن يوسف الثغرى فى تلك الحروب دور كبير جعل أبا تمام يتغنَّى به وبانتصاراته طويلا على نحو ما تصور ذلك قصيدتاه : (لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديارُ) و (ما عهدنا كذا نحيبَ المشوق) وهو فيهما يسمِّى كثيراً من الحصون الرومية التى افتتح أقفالها ، مصورا كيف تغلغل حتى خليج القسطنطينية سائقاً بين يديه مئات الأسرى والمغانم الكثيرة . ودُرَّة تلك الحروب قصيدته فى عمورية التى امتدح بها المعتصم : (السيف أصدق أنباء من الكتب) وهى ملحمة رائعة .

وأخذت تتوثق علاقة أبى تمام منذ عودته من خراسان بأحمد بن أبى دؤاد مستشار المعتصم وقاضى قضاته ، وبأحمد بن المعتصم وبكثيرين من رجالات الدولة وقوادها . وما نكاد نتقدم فى سنة ٢٢٤ حتى يخلع الطاعة مازيار بطبرستان ، وما تزال جيوش الخلافة تنازله حتى تأتى به صاغراً إلى « سُرَّ من رأى » فى سنة ٢٢٥ فيقتل ويُصْلب

---

(١) البذ : كورة بين أران وأذربيجان خرج بها بابك .

بجانب بابك . وتجمعت أدلة قاطعة على خيانة الأفشين وزندقته وأنه يبطن الكفر وينتوى الغدر بالدولة والإيقاع بأبطالها وخاصة من العرب أمثال أبى دلف ، فيأمر المعتصم بالقبض عليه وإلقائه فى غيابات السجون ، ويموت ، فيُصْلَب بجانب بابك ، ثم يُحْرَقُ بالنار التى كان يعبدها من دون الله ، وما يلبث أبو تمام أن ينشد المعتصم قصيدته البديعة[1] :

الحقُّ أَبْلَجُ والسيوفُ عَوَارِى فحذارِ من أَسَد العَرِين حذار

وقد صوَّر فيها كفران الأفشين بالإسلام وبنعم الدولة ونقضه لما بينه وبين المعتصم من عهود ومواثيق وبغيه الذى أورده موارد الهلاك ، وما كان من حرقه بالنار وصلبه قبل ذلك بجوار بابك ومازيار يقول :

ما زال سِرُّ الكفر بين ضلوعهِ حتى اصطلى سِرَّ الزِّناد الوارى[2]
نارًا يُساور جسمه من حَرِّها لهبٌ كما عَصْفرتَ شِقَّ إزارِ[3]
صَلَّى لها حَيًّا وكان وقودَها مَيْتاً ويدخلها مع الفُجَّارِ
ولقد شَفَى الأَحشاءَ من بُرَحائها أن صار بابَكُ جارَ مازيَّار
سودُ الثيابِ كأنما نسجتْ لهم أيدى السَّموم مَدارِعًا من قارِ[4]
كادوا النبوَّة والهدى فتقطَّعتْ أَعناقُهم فى ذلك المضمار

وانعقدت صلة وثيقة بينه وبين ابن الزيات منذ وزارته للمعتصم سنة ٢٢٥ وكذلك بينه وبين كاتبه الحسن بن وهب وظل يمدح أبا سعيد الثغرى وخالد بن يزيد والى أرمينية ومالك بن طوق التغلبى والى الجزيرة ، ومدح موسى بن إبراهيم الرافقى والى دمشق للمعتصم والواثق . وتهاداه الرؤساء وكبار رجال الدولة . وتوفى المعتصم وخلفه الواثق فهنأه وعزَّاه بقصيدته البديعة : (ما للدموع تروم كلَّ مرام) ويُضْفى عليه مدائح مختلفة . ويظهر أنه أخذ يحس منذ ولاية الواثق سنة ٢٢٧ ملله

---

(١) الديوان ٢/١٩٨ .

(٢) يشير بسر الزناد الوارى إلى حرقه بالنار .

(٣) يشير إلى أنه حرق بالنار وهو مصلوب على الجذع ، ومن أجل ذلك يشبهه بإزار عصفر نصفه طولا .

(٤) يشير إلى صلب الثلاثة الأفشين وبابك ومازيار ، وأراد بسواد ثيابهم سواد جلودهم بالشمس وغبار الرياح .

من حرفته ، وأنها تضطره أحياناً لبذل مديحه لغير مستحقه من مثل موسى بن إبراهيم الرافقى ، فتمنى لو صار له عمل فى الدولة يدر عليه ما يكفيه مئونته ، وسرعان ما حقق له صديقه الحسن بن وهب أمنيته ، فعينه على بريد الموصل ، وظل هناك عامين ، جاءه فيهما نعى خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى فبكاه وبكى بطولته بكاء حاراً ، ولا يدور العام حتى يلبى داعى ربه سنة ٢٣١ للهجرة ويرثيه كثير من الشعراء ، وفى مقدمتهم الحسن بن وهب ، وفيه يقول[١] :

فُجع القريضُ بخاتم الشعراء   وغَديرِ روضتها حبيبِ الطائى
ماتا معاً فتجاوروا فى حُفْرَةٍ   وكذاك كانا قَبْلُ فى الأحياء

ويقال إن بنى حُميد الطوسى بنوا على قبره قبةً خارج باب الميدان على حافة الخندق[٢]

وأخبار أبى تمام فى أسرته قليلة ، وبين مراثيه مرثية فى زوجة له ، ويقال إنه كان له أخ يسمى سهماً يجرى على لسانه شعر ضعيف[٣] . وكان ابنه تمام يقول الشعر ، ويظهر أنه كان له بنون مختلفون ، وقد احتسب منهم اثنين رثاهما رثاء مؤثراً. ويقول الصولى إنه كان أسمر طُوالا ، وكانت فيه تمتمة يسيرة جعلته يتخذ غلاماً لإنشاد شعره بين يدى المعتصم وغيره[٤] . ويقال إنه كان من أكثر الناس مزاحاً[٥] تسعفه فى ذلك بديهة حاضرة . وفى ديوانه رائية يمدح بها أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيها يفضل علياً ويشيد بمواقفه فى عصر الرسالة ، فهل معنى ذلك أنه كان يتشيع ؟ . الحق أنه لم يكن متشيعاً ، أما هذه القصيدة فنظن ظناً أنه نظمها حين كتب المأمون إلى الآفاق فى سنة ٢١٢ للهجرة بتفضيل على بن أبى طالب على أبى بكر وعمر ، وكان حينئذ بمصر وفى القصيدة نفسها ما يدل على أنه نظمها بها إذ يقول فى مطالعها[٦] :

وإن نَكِيرًا أَنْ يضيق بمن له   عشيرةُ مثلى أو وسيلتُه مِصْرُ

(١) الصولى ص ٢٧٧ .
(٢) هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام ص ٤٩ .
(٣) الصولى ص ١٤٤ .
(٤) الصولى ص ٢٥٩ وما بعدها .
(٥) ابن المعتز ص ٢٨٣ .
(٦) الديوان (طبعة بيروت) ص ١٤٣

ونراه فى أول قصيدة لقى فيها المأمون يصرح له فيها كما قدمنا بأنه مشغوف بحب آل محمد ، تقربًا إليه وزُلْفَى ، حتى ليزعم أنه من شيعة الكوفة ، يقول متحدثا عن قصيدته[1] :

ووسيلتى فيها إليك طريفةٌ شامٍ يدين بحبِّ آل محمَّدِ

نِيطتْ قلائدُ عزمه بمحبِّر متكوِّفٍ مُتَدَمْشِقٍ مُتَبَغْددِ[2]

حتى لقد ظن الغُواة ـ وباطلٌ ـ أن قد تجسَّم فىَّ روح السيِّدِ[3]

ومعنى ذلك أن تشيعه فى القصيدتين جميعًا إنما كان فى سبيل المأمون ، يحاول أن يمتَّ إليه بما يعطفه عليه . وفى أخباره أن الحسن بن رجاء لاحظ عليه وهو عنده أنه يصلى صلاة خفيفة لا يطيل فيها[4] ، وتوسع بعض الباحثين فى الخبر فقالوا إنه لاحظ عليه تقصيره فى أداء الفروض الدينية[5] . وديوانه وما به من مواعظ دينية يشهد على صحة إسلامه ، وأيضًا ففيه قصيدة وصَف بها حِجَّةً حجَّها[6] . وليس فى ديوانه وراء ذلك ما يصور أنه كان عابثًا أو ماجنًا . يلهو ولكن بقسطاس وكأن خصومه حاولوا أن يغضُّوا منه فزيَّفوا عليه الخبر السالف طعناً عليه ومحاولة للنقص منه . أما الخبر الذى يُذْكَرُ فيه أنه كان له غلام رومى وللحسن بن وهب غلام خَزَرِىّ وكل منهما يتعشق غلام صاحبه[7] ، فهو أدنى إلى الفكاهة ، ولعل غلام أبى تمام المذكور هو الذى كان ينشد شعره . والحق أنه كان وقوراً وكان يترفع عن الدنايا ، وكان مخلصاً لدينه كما كان مخلصاً لعروبته.

وشعر أبى تمام زاخر بما يدل على أنه انقضَّ على معارف عصره انقضاضاً حتى تمثَّلها تمثلا دقيقًا ، وخاصة التاريخ وعلم الكلام وما يتصل به من الفلسفة والمنطق ، أما التاريخ فيتضح فى كثير من جوانب مديحه ، وخاصة حين يعرض لقبيلة الممدوح ووقائعها وأمجادها فى الجاهلية والإسلام على نحو ما يلقانا فى قصائده[8] لخالد بن

---

(١) الديوان (طبع دار المعارف) ٢/٥٥ .

(٢) بمحبر : يقصد نفسه وأنه يحبر القصائد ويجودها . متكوف يقصد أنه كوفى تشيعاً . متبغدد : يقصد أنه ظريف من أهل بغداد .

(٣) السيد : يريد السيد الحميرى المشهور بتشيعه .

(٤) الصولى ص ١٧٢ .

(٥) انظر مقالة مرجليوث عن أبى تمام فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٦) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٧٩ .

(٧) الصولى ص ١٩٤ .

(٨) الديوان (طبع دار المعارف) ١/١٩٤ وانظر ١/٨٧ وما بعدها .

يزيد بن مزيد الشيبانى ومالك بن طوق التغلبى ، وكذلك حين يقرن وقائع بعض الأبطال ودويّها فى الخافقين إلى وقائع جاهلية وإسلامية مشهورة على نحو ما نرى فى تمجيده لانتصار إسحق بن إبراهيم المصعبى على المحمّرة بالجبل[1]، وكان يعرف كيف يحول التاريخ شعراً على شاكلة قوله فى إحدى قصائده لخالد بن يزيد الشيبانى وانتصار قومه فى يوم ذى قار المشهور على الفرس[2] :

لهم يومُ ذى قار مَضَى وهْوَ مُفْرَدٌ ... وحيدٌ من الأشباه ليس له صَحْبُ

به علمتْ صُهْبُ الأعاجم أنه ... بهِ أعربتْ عن ذاتِ أنفسها العُرْبُ[3]

هو المشهد الفَصْل الذى ما نَجا بهِ ... لكسرى بنِ كسرى لا سَنامٌ ولا صُلْبُ[4]

وكانت تميم قبل هذا اليوم أصابها جدب شديد ، فابتغت الرَّعْىَ فى أرض العراق ، وكاتب والى الحيرة كسرى هل يأذن لهم فى الرعى ؟ فاشترط أن يقدّموا رهائن منهم ، ولما طُلبت من رئيسهم حاجب بن زُرارة ، قال : ليس معى إلا قوسى ، فاسترهنوها منه ، ووفَى لهم بما وافقهم عليه . فصار ذلك معدوداً فى مناقب بنى تميم . وإلى ذلك يشير أبو تمام فى قصيدة يمدح بها أبا دُلَف متحدثا عن المنقبة الكبرى لشيبان يوم ذى قار ، إذ فتكوا بالفرس الذين كسوا تميما منقبة القوس وأدالوا منهم للعرب والعروبة ، مسجلين هذا المجد الحقيقى على التاريخ ، يقول[5] :

إذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بِقَوْسها ... وزادتْ على ما وطّدَتْ من مناقبِ

فأنتم بذى قارٍ أمالتْ سيوفكم ... عروشَ الذين اسْتَرْهَنُوا قوس حاجبِ

محاسنُ من مجدٍ متى تقرنوا بها ... محاسنَ أقوامٍ تَكُنْ كالمعايبِ

مكارمُ لَجَّتْ فى عُلُوٌ كأنما ... تحاول ثأراً عند بعض الكواكبِ

وقد تحدثنا فى الفصل السابق عن تعمقه فى مذاهب المتكلمين وفى الفلسفة والمنطق تعمقاً جعله ينشر فى معانيه الأضداد المتنافرة نشراً يدخل البهجة على

(١) الديوان ٣/٣٠٠ وما بعدها .

(٢) الديوان ١/١٩٥ .

(٣) صهب : شقر شعر الرأس، ويوصف الأعاجم بالشقرة لغلبة ذلك عليهم .

(٤) السنام : كناية عن النوق . والصلب هنا : كناية عن الخيل .

(٥) الديوان (طبع دار المعارف) ١/٢١٥ .

النفس بما يصور من تعانقها فى الحياة ، تصويراً يدل على عمق غوره فى الإحساس بحقائق الكون ، وبترابط جواهرها ، حتى الجواهر التى تبدو متضادة ، فإن بعضها ينشأ من بعض ، ويلتقى التقاء وثيقاً ، على شاكلة قوله[١] :

رُبَّ خَفْضٍ تحت الثَّرَى وغناءٍ   من عَناءٍ ونُضْرةٍ من شُحوبٍ[٢]

وجعلته صلته بالمنطق والفلسفة يكثر من استخدام الأدلة المنطقية ، وهى عنده تستمد من نفس إحساسه العميق بتشابك حقائق الكون ، فإذا بعضها يُرَى من خلال بعض ، بل إذا بعضها يتخذ دليلا وحجة على بعض ، من مثل قوله لمن عذلته على ضيق ذات يده[٣] :

لا تُنْكرى عَطَلَ الكريم من الغنَى   فالسَّيْلُ حَرْبٌ للمكان العالى

وقوله فى تحبيب الرحلة عن الأوطان[٤]:

وطولُ مُقام المرء فى الحيِّ مخلقٌ   لديباجتيه فاغتربْ تتجدَّد[٥]
فإنى رأيت الشمس زيدتْ محبَّةً   إلى الناس أن ليستْ عليهم بِسَرْمَدِ[٦]

ويتسع التأثر بالفلسفة عنده حتى ليشيع الغموض فى كثير من أبياته ، وهو غموض بهيج كغموض الطبيعة فى الصباح والغروب إذ يجلله دائماً شفق يأخذ بالألباب ، ونعجب إذ نجد القدماء يحملون عليه من أجله[٧] ، كما حملوا على إكثاره من اللفظ الغريب ومن التصاوير وألوان البديع[٨] ، حتى قالوا إنه أفسد الشعر ، وهو لم يفسده بل هيأ له ازدهارا رائعاً ، تسنده فيه ثقافة واسعة بالفلسفة والمنطق ، وبالشعر العربى قديمه وحديثه ، كما تسنده قوة ملكاته التى جعلته يُعَدُّ بحق حامل لواء الشعر العربى فى عصره ، بل جعلته صاحب مذهب مستقل بخصائصه العقلية والزخرفية ، أما الخصائص العقلية فتتضح فى دقة معانيه وغوصه على طرائفها

---

(١) الديوان ١/١٢٦ .
(٢) الخفض : سعة العيش . الثرى : الثرى يلا ، غناء : نفع .
(٣) الديوان ٣/٧٧ .
(٤) الديوان ٢/٢٣ .
(٥) مخلق : من أخلق أى أبلى . ويريد بالديباجتين الوجه والمكانة الأدبية .
(٦) سرمد : دائم .
(٧) انظر مناقشتنا لهم فى كتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة السادسة بدار المعارف) ص ٢٣٩ وما بعدها .
(٨) المصدر نفسه ص ٢٣٥ .

النادرة ، محتكماً إلى قانونى التضاد والقياس وإلى كثرة التوليد والاستنباط ، وأما الخصائص الزخرفية فتتضح فى روعة تصاويره وكثرة بديعه ، بل نحن لا نحقق حين نفصل بين الضربين من الخصائص ، إذ هما يتزاوجان عنده تزاوجاً رائعاً بحيث يصبح الزخرف عملا عقليا والعمل العقلى زخرفاً نادراً لا يكاد يتعلق به أحد .

والمديح أهم الأغراض التى تتجلّى فيها خصائصه ، وهو فى كثير منه ، بل فى جمهوره ، يحتفظ بالمقدمة الطللية وما يتصل بها من التشبيب والنسيب ، مودعاً فيها كثيراً من لفتاته وخواطره النادرة التى تدل على سعة خياله وتأمله الطويل وأنه يُخْضِع التفكير للشعر ، وكأنه فياسوف يخضع فلسفته للشعر أو شاعر يخضع شعره للفلسفة والفكر الدقيق ، وهل هناك جانب فى شعره إلا وهو يفكر فيه تفكيراً متصلا ، وهو تفكير كان يعرف كيف يصوغ به خواطره وكيف يبرزها فى معارض من التصاوير والحكم الرشيقة من مثل قوله فى تصوير أيام عشقه الماضية[1] :

أعوامُ وَصْلٍ كاد يُنْسِى طولَها ذكرُ النَّوَى فكأنَّها أيامُ

ثم انبرتْ أيام هجرٍ أردفتْ بِجَوًى أسىً فكأنَّها أعوام

ثم انقضتْ تلك السنون وأهلها فكأنَّهـا وكأنَّهم أحْلام

وواضح أن قانون التضاد يلعب بأقواسه الأرجوانية فى هذه الأبيات ، فالأعوام أيام ، والأيام أعوام ، وأوقات الصحو الممتعة أحلام . ومن طريف حكمه فى الغزل والنسيب قوله[2] :

أجدرْ بجمرةِ لوعةٍ إطفاؤُهـا بالدَّمع أن تزداد طولَ وقودِ

وقوله[3] :

أحْلَى الرجال من النساء مواقعا من كان أشبههم بهنَّ خُدودا

وقد ردَّد كثيراً فى تضاعيف نسيبه شكواه المرة من الزمن وما ينزله به من الخطوب والكوارث ، حتى ليقول ضجراً متأففاً منه ومن سياسته الخرقاء[4] :

---

(١) الديوان ٣/١٥١ .

(٢) الديوان ١/٣٩٢ .

(٣) الديوان ١/٤١٥ .

(٤) الديوان ٢/٣٢٤ .

لقد ساسنا هذا الزمانُ سياسةً سُدًى لم يَسُسْها قَطُّ عَبْدٌ مجدَّعُ
تروحُ علينا كلَّ يوم وتغتدى خطوبٌ كأن الدهر منهن يُصْرَعُ

وقد أشرنا فى الفصل السابق إلى أنه هو الذى ألهم ابن الرومى والمتنبى الشكوى من الزمن وما يصبه على الناس من البلاء وما يتصل بذلك من حكم ، وأيضاً فإنه هو الذى ألهم المتنبى اعتداده بنفسه وما طُوِىَ فى ذلك عنده من فخر محتدم ، واقرأ له هذه الأبيات التى ساقها بعد نسيبه فى مديحه للحسن بن سهل(١) :

وغَرَّبْتُ حتى لم أجد ذكرَ مشرقٍ وشرَّقتُ حتى قد نسيتُ المغاربا
خطوبٌ إذا لاقيتهنَّ رَدَدْننى جريحاً كأنى قد لقيتُ الكتائبا
وقد يَكْهَمُ السيف المسمَّى منيَّةً وقد يرجع المرءُ المظفَّر خائبا (٢)
وكنت امرءًا ألقى الزمان مسالماً فآليتُ لا ألقاه إلا محاربا

وهو نفس نغم الفخر والاعتداد بالنفس الذى نلقاه عند المتنبى مع ما يمسح عليه ويتخلله من شكوى الدهر ، ومع ما يسوده من الشعور بقوة النفس وصلابتها وأنها أقوى عوداً وأصلب من الزمن ، فهى لا تتخاذل أمامه ولا تضعف بل تحاول أن تقهره وتطعنه الطعنة المصمية .

وكان أبو تمام يضيف إلى نسيبه أحياناً وصفاً لبعيره وما يقطع من الفلوات ، مستمداً من معانى القدماء فى هذا الوصف ومضيفاً طرائفه الحديثة ، كقوله يصف بعيره وما أصابه من هزال لطول رحلته به إلى خراسان ليمدح ابن طاهر (٣):

رعَتْه الفيافى بعد ما كان حِقْبَةً رعاها وماءُ الروض ينهلُّ ساكبُهْ

فالصحراء بطرقها الوعثة كأنما هى التى رعته إذ أضمرته وأنحلته، بينما كان يرعى أعشابها ، وهو تضاد بديع ، فهو يرعى الصحراء والصحراء ترعاه . وقد ألم بوصف الخمر فى بعض مقدماته للمديح ، وهو ليس ممن يجيدون فى وصفها ، لأنه لم يكن ممن ينغمسون فى إثمها ، وقد يلقانا عنده بعض أبيات طريفة فيها كقوله(٤) :

---

(١) الديوان ١/١٤٧ .
(٢) يكهم : لايقطع .
(٣) الديوان ١/٢٣٠ .
(٤) الديوان ١/٣٤

وضعيفة فإذا أصابتْ فُرصةً قتلتْ كذلك قدرةُ الضعفاء
وكأنَّ بَهْجتها وبهجةَ كأسِها نارٌ ونورٌ قُيِّدا بوِعاء

وقد فسح فى مقدماته مراراً للحديث عن الشيب ، وكان قد وخطه فى سن مبكرة ، وهو لا يحاول تزيينه ، بل يعرف دائماً بأنه قبيح مكروه وخاصة فى عين المرأة ، ومن طريف ماله فيه قوله[1] :

لو رأى الله أنَّ للشيب فضلا جاورتْه الأبْرارُ فى الخلد شيبًا

ولعل من الطريف أنه وقف بعض مقدماته للمديح على وصف الطبيعة ، وهو لا يبارَى فى تصوير مشاعر الطير وأحاسيسه ، ومن خير ما يمثل ذلك عنده تصويره لقُمْرية وقمرىّ وهما يرشفان رحيق الهوى بينما هو يتعمقه الحزن ، وكأنما ترثى له السماء فتستهل بروقها ورعودها ، والطبيعة من حوله مكتسية بثياب الربيع المشرقة والطواويس تومض بألوانها الزاهية وأذنابها المزركشة ، وكأنها خدم هذا العرس الرائع من أعراس الربيع ، يقول[2] :

غَنَّى فشاقك طائرٌ غِرِّيدُ لما ترنَّم والغصونُ تَميدُ
ساقٌ على ساقٍ دعا قُمْرِيَّةً فدعتْ تقاسمه الهوى وتَصيد[3]
إلفان فى ظلِّ الغصون تألَّفا والتفَّ بينهما هَوًى معقودُ
يتطعَّمان بريق هذا هذه مَجْعاً وذاك بريق تلك مُعيد[4]
يا طائران تمتَّعا هُنِّيتُما وعِما الصباحَ فإننى مجهودُ
أبكى وقد تلتِ البروقَ مضيئةً من كل أقطار السماء رُعود
واهتزَّ رَيْعانُ الشباب فأشرقتْ لتهلُّلِ الشجر القرى والبيد[5]
ومَضَتْ طواويسُ العراق فأشرقتْ أذنابُ مُشْرِقةٍ وهنَّ حُفود[6]

(١) الديوان ١/١٦٨ .
(٢) الديوان ٢/١٤٨ .
(٣) الساق الأولى : القمرى أو ذكر الحمام ؛ والساق الثانية : ساق الشجرة . تصيد : تصيده وتوقعه فى شباكها .
(٤) مجعاً : حسواً .
(٥) يريد بريعان الشباب الربيع .
(٦) ومضت : لمعت وتلألأت . وحفود ، جمع حافد ؛ وهو الخادم .

يَرْفُلْنَ أمثال العَذَارى طُوَّفاً حول الدَّوار وقد تدانى العِيدُ [١]

وهى قطعة رائعة زاخرة بوصف المشاعر والأحاسيس، مشاعر أبى تمام المحزون وأحاسيس الطير المبتهجة بالحب والطواويس المبتهجة بالربيع . ونراه فى إحدى مدائحه للمعتصم يصور الربيع واصلا بينه وبين عصر المعتصم وكأنه يرى عصره ربيع العصور العباسية . وقد مضى يحتكم فى هذا الوصف للربيع وفتنته بأنه يجمع الضدين : الصيف والشتاء ، فالصيف يتراءى فى طقسه والشتاء يتراءى فى زهره [٢] ، بل إن المطر فى الشتاء ليحمل بين أطوائه الصحو المشرق الجميل كما يحمل الصحو بترطيبه للجو نضرة المطر ، يقول :

مَطَرٌ يذوب الصَّحْوُ منه وبعده صَحْوٌ يكاد من النضارة يمطر

ويتسع به الخيال فإذا الندى الذى تترقرق حبَّاته على الأوراق والغصون كأنه طيب سقط من غدائر السحاب على لمم الثَّرَى ولحاه ، يقول :

ونَدًى إذا ادَّهَنَتْ به لِمَمُ الثَّرَى خلتَ السحاب أتاه وهْو مُعَذَّرُ

ويمضى فى حُلْمه ، فإذا هو يرى نفسه فى رياض الربيع وأضواء الشمس تخالط الورود والرياحين كأنه فى ليلة مقمرة جميلة ، والأحلام تفد عليه من كل صَوْب ، يقول :

ياصاحبيَّ تقصَّيا نَظَرَيْكُما تريا وجوه الأَرض كيف تَصَوَّرُ
تريا نهارًا مُشْمِساً قد شابه زَهْرُ الرُّبىٰ فكأَنما هو مُقْمِرُ

وله بائية [٣] فى مديح ابن الزيات استهلّها بوصف ديمة ممطرة مصوراً فرحة الطبيعة بها بعد الجفاف الطويل ونراه يصل بينها وبين مديحه لابن الزيات وكأنه يرى فيها خلاله وكرمه الفياض . وهذا الوصل بين الممدوحين والطبيعة سواء فى هذه القصيدة أو سابقتها يجعلنا نحس فى وضوح عنده بوحدة القصيدة ، وكأنها بمقدماتها عمل فنّىٌّ تام لا يزال بعضه يتولد من بعض .

---

(١) طوفاً : جمع طائفة . الدوار : صنم كان النساء يطفن حوله فى الجاهلية .
(٢) انظر القصيدة فى الديوان ٢/١٩١ .
(٣) الديوان ١/٢٩٦ وانظر هبة الأيام ص٣٧ حيث نص على أنها فى ابن الزيات .

وإذا أخذنا ننظر فى معانى مديحه وجدناه يحاول دائمًا أن يستنبط منها مبتكرات طريفة مستمدًّا من مناجم عقله الغنية وكنوز أخيلته الثرية التى تحفل دائمًا بما يملأ النفس إعجابًا به وبشعره ، كقوله يصف جود أبى دُلَف[١] :

تكاد مغانيه تَهَشُّ عِرَاصُها ... فتركب من شوقٍ إلى كل راكبٍ[٢]

وقوله يصور جود المعتصم وكثرة بذله ونواله[٣] :

تعوَّد بَسْطَ الكفِّ حتى لو انَّهُ ... ثَنَاها لِقَبْضٍ لم تُجِبْه أناملُهْ

ولو لم يكن فى كفِّه غيرُ روحِه ... لجادَ بها فَلْيَتَّقِ اللهَ سائِلُهْ

وقد تحول بوصفه بسالة الأبطال الذين تغنى بمديحهم وانتصاراتهم إلى ملاحم كبرى جسَّم فيها بطولتهم تجسيماً يدلع الحماسة فى قلب كل عربى ، ويضرمها إضراماً . ونراه يتغنى طويلا ببطولة محمد بن يوسف الثغرى الطائى وما أنزله من صواعق الموت على رءوس الخُرَّمية أصحاب بابك ورءوس الروم ، وكأنه قيس يتغنى بليلاه . ومن رائع ما له فيه قوله يصور هجومه من الجنوب واقتحامه حصون العدو فى الشمال ، والثلوج تغطى الطرق والآفاق[٤] :

لقد انْصَعْتَ والشتاء له وَجْـ ... ـهٌ يراه الرجالُ جَهْماً قَطُوبَا[٥]

طاعنا مَنْحَرَ الشمال مُتِيحاً ... لبلاد العدوِّ موتًا جنوبا .

فى ليالٍ تكاد تُبْقِى بِخَدِّ الشَّـ ... ـمْس من ريحها البَلِيل شحوبا

فضربتَ الشتاء فى أَخْدَعَيْهِ ... ضَرْبَةً غادرتْه عودًا رَكوبا[٦]

لو أَصَخْنا من بعدها لسمعنا ... لقلوب الأيام منك وجيبا[٧]

وأمَّا ملاحمه قصيدته فى عَمّورية التى مدح بها المعتصم مسجلا انتصاره العظيم على البيزنطيين ، وهو فيها مبتهج ابتهاجًا لا حدَّ له بهذا الفتح المبين ، وقد استهلها

---

(١) الديوان ١/٢١٢ .

(٢) العراص : الساحات .

(٣) الديوان ٣/٢٩ .

(٤) الديوان ١/١٧٣ وما بعدها .

(٥) انصعت : رجعت مسرعاً . الجهم ، القطوب : العبوس .

(٦) الأخدعان : العرقان البارزان فى العنق . العود : البعير المسن . ركوب : مذلل .

(٧) أصخنا : أرهفنا السمع . الوجيب : الخفقان .

بتفضيل القوة على العقل والسيف على الكتب والهزؤ بالمنجمين وما زعموا من أن المعتصم لا يفتحها فإذا هي تسقط أركانها ويتداعى بنيانها أمام مجانيقه وجنوده البواسل ، ويفرُّ تيوفيل إمبراطور بيزنطة على وجهه ، وقد عصف بقلبه الرعب ، والنيران تأخذ عمورية من كل جانب ، يقول[١] :

فَتْحُ الفتوح تعالى أن يُحيط به نَظْمٌ من الشعر أو نَثْرٌ من الخُطَبِ
فَتْحٌ تفتَّحُ أبوابُ السماء له وتَبْرُزُ الأرض في أثوابها القُشُبِ

ويتحدث عن وقعتها وما حققت للمسلمين والإسلام من منى معسولة ومن عز ومجد ، بينما هوت بالروم وديارهم في الحضيض . ويصور استعصاءها على ملوك الفرس والتبابعة وأنها عتيقة منذ الإسكندر ومع ذلك تحتفظ بشبابها للخليفة الموعود بفتحها وكأنما كان نصر جنود المعتصم في يوم « أنقرة » جرباً أصابها ، فإذا هي تركع صاغرة تحت قدمى المعتصم وقد لطّخ الدم ذوائب فرسانها وجباههم ، والتهمتها النيران التهاماً ، وعلى الرغم مما أصاب جسدها من جرب ووجهها من تشويه تسكب في نفوس العرب من الفرح والبهجة مالا تُذْكر بجانبه فرحة ذى الرمة وبهجته حين كان يلمُّ بربع مية التي تغنتْ بحبه لها الأحياء والبيد ، يقول :

لقد تركتَ أمير المؤمنين بها للنار يوماً ذليل الصخر والخشبِ
غادرْتَ فيها بهيمَ الليل وهو ضُحًى يَشُلُّه وَسْطها صُبْحٌ من اللَّهَبِ[٢]
حتى كأن جلابيبَ الدُّجى رَغِبَتْ عن لونها أو كأن الشمس لم تغبِ
ضَوْءٌ من النار والظلماءُ عاكفةٌ وظلمةٌ من دخانٍ في ضُحًى شحِبِ
فالشمسُ طالعةٌ من ذا وقد أفَلَتْ والشمس واجبةٌ في ذا ولم تجبِ[٣]
ما رَبْعُ مَيَّةَ معموراً يُطيف به غَيْلانُ أبْهَى رُبًى من رَبْعها الخربِ[٤]
ولا الخدودُ وقد أُدْمِينَ من خَجَلٍ أشْهَى إلى ناظرى من خَدِّها التَّرِبِ

---

(١) انظر القصيدة في الديوان ١/٤٥ .
(٢) الليل البهيم : شديد الظلام . يشله : يطرده .
(٣) واجبة ، آفلة : غاربة .
(٤) غيلان : ذو الرمة .

وواضح استمداده من قانون الأضداد فى وصف حريقها ليلا ، وهو استمداد تخلّق فى تضاعيفه هذا الخيال بل الحلم العجيب ، فهو فى الليل البهيم ويتصور كأنه فى الصبح المضىء ، بل هو فى الضحى المنير ، وكأنما خاع الليل ثيابه بل لكأنما رغب عنها ، بل كأن الشمس لم تغب ولم تغرب ، بل لقد غربت ولم تلبث أن أشرقت فى ربوع عمورية . فيا للحلم ويالروعته ، وإن نشوة الظفر ليجرى رحيقها فى نفسه ، فإذا هو يحس إزاءها نفس أحاسيس ذى الرمة إزاء مية التى شغفت قلبه حبًّا . وقد مضى يصور قوة المعتصم وجنوده ، وكيف فر تيوفيل بفلول جيشه أمامه وقد ضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ ، وما زال يصور فتك المعتصم بجيوشه وأبطاله ، حتى قال والجذل يغمره :

خليفةَ اللهِ ! جازى اللهُ سَعْيَكَ عن ... جُرْثومة الدين والإسلام والحَسَبِ[1]
بَصُرْتَ بالرَّاحة الكبرى فلم ترها ... تُنال إلا على جِسْرٍ من التَّعَبِ
إن كان بين صُروف الدَّهْرِ من رَحِمٍ ... موصولة أو ذِمامٍ غير مُنْقَضِبِ[2]
فبين أيامك اللاَّتى نُصِرْتَ بها ... وبين أيام بَدْرٍ أقربُ النَّسَبِ
أبقتْ بنى الأصفر المراض كاسمهم ... صُفْرَ الوجوه وجَلَّتْ أَوجهُ العربِ[3]

وعواطفه الدينية والقومية بارزة فى هذه الأبيات الأخيرة ، بل إنها لتبرز فى جنبات الملحمة جميعها ، وإنه ليهدر فيها هدير الظافر المبتهج الذى تبددت أمامه جحافل الأعداء وانجابت غياهب الظلام وحات مكانها أضواء النصر فى كل مكان .

وإذا تركنا ملاحمه إلى مدائحه الأخرى وجدناه يلائم دائمًا بين مدحه وممدوحه ، فإذا مدح كاتبًا شاعراً مثل الحسن بن وهب نوه بأدبه و بلاغته ودرر لفظه ومعانيه ، وكذلك الشأن فى مدحه لابن الزيات ، وكان هو الآخر كاتبًا شاعراً ، وجلّى فى وصفه لقلمه الذى أنشدنا منه قطعة فى الفصل الرابع والذى استهلّه بقوله[4] :

---

(١) جرثومة : أصل .
(٢) صروف الدهر : أحداثه . منقضب : منقطع .
(٣) بنو الأصفر : الروم .
(٤) الديوان ٣/١٢٢ وما بعدها .

لك القَلَمُ الأعلى الذى بِشَباتِه تُصابُ من الأمرِ الكُلَى والمفاصلُ[١]

وقد استمد فى وصفه له من قانون الأضداد مستنبطًا كثيراً من المعانى اللطيفة الدقيقة . ونحسُّ فى مديحه له وللحسن بن وهب ظاهرة نادرة هى الصداقة التى تنعقد بين رجال الأدب والشعر والفن ، وقد عبّر عنها تعبيراً بديعًا فى قوله لصديقه على بن الجهم الشاعر المعروف[٢] :

إن يُكْدِ مُطَّرَفُ الإخاء فإننا نَغْدو ونَسْرى فى إخاءٍ تالدِ[٣]
أو يختلفْ ماءُ الوصال فماؤنا عَذْبٌ تحدَّر من غمامٍ واحدِ
أو يفترقْ نَسَبٌ يؤلِّفْ بيننا أدبٌ أقمناه مُقام الوالدِ

ومراثى أبى تمام لا تقلُّ عن مدائحه روعة ، وإذا كان قد بلغ ذروة الإحسان فى أناشيد النصر وملاحمه فإنه بلغ أيضاً هذه الذروة فى مراثيه لابن حميد الطوسى الطائى ، وكان قد سقط — كما أسلفنا — فى ميدان النضال ، وما إن أتاه نعيه حتى غمس — كما يقول الرواة — طرف ردائه فى مداد ، ثم ضرب به كتفيه وصدره[٤] وأخذ يندبه بقصيدته الرائية الخالدة بمثل قوله[٥] :

فتًى كلما فاضتْ عيونُ قبيلةٍ دَماً ضحكتْ عنه الأحاديث والذِّكْر
فتى مات بين الطَّعْن والضَّرْب ميتةً تقوم مقام النصر إن فاته النَّصْرُ
وما مات حتى مات مَضْرِب سيفه من الضَّرْب واعتلَّتْ عليه القَنا السُّمْرُ
وقد كان فوت الموت سهلا فردَّه إليه الحِفاظ المُرُّ والخلق الوَعْرُ[٦]
ونَفْسٌ تعاف العارَ حتى كأنما هو الكفر يوم الرَّوْع إن فاته الكُفْرُ[٧]
فأثبت فى مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلَهُ وقال لها من تحت أَخْمَصِك الحَشْرُ[٨]

---

(١) الشباة : الحد .
(٢) الديوان ١/٤٠٧ .
(٣) يكدى : لايثمر ، ويريد بمطرف الإخاء حديثه . تالد : قديم .
(٤) هبة الأيام ص ١٤١ .
(٥) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٣٠ .
(٦) الحفاظ : الذب عن الحمى والمحارم . الوعر : الصعب .
(٧) يوم الروع : يوم الحرب والفزع .
(٨) الأخمص : باطن القدم .

تَرَدَّى ثيابَ الموتِ حُمْرًا فما دَجَى ... لها الليلُ إلا وهْيَ من سُنْدُسٍ خُضْرُ (١)

مضى طاهرَ الأثواب لم تَبْقَ رَوضةٌ ... غداةَ ثوَى إلا اشتهتْ أنها قَبْرُ (٢)

وحقًّا قال أبو دُلف له : لم يمتْ من رُثى بمثل هذا الشعر (٣) ، فقد جسَّم فيه بطولة ابن حميد تجسيما رائعاً، وما زال يتغنى ببطولته واستبساله فى قتال الأعداء حتى أبدله من كسوة الدم الزكى كسوة الفردوس السندسية . وجاءه نعى خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى وهو على بريد الموصل فبكاه بكاء حارًّا ،ونراه يتفجع تفجعاً كله حزن وأسًى على ابنيه محمد وأبى على وعلى أخ له حضَر وفاته وفيه يقول واصفاً لحظة النزع الأخير (٤) :

لله مقلتُه والموت يَكْسرها ... كأن أجفانه سَكْرى من الوَسَنِ (٥)

يردُّ أنفاسه كَرْهاً وتَعْطفها ... يَدُ المنية عَطْفَ الرِّيحِ لِلغُصُنِ

ويقال إنه مات لعبد الله بن طاهر ابنان صغيران فى يوم واحد، وهزَّه الخبر ، وحرَّك شاعريته ، فدخل عليه وأنشده مرثية بديعة يقول فى تضاعيفها (٦) :

نجمان شاءَ الله أن لا يَطْلُعا ... إلا ارتدادَ الطَّرْف حتى يَأْفِلا

وكان يجيد العتاب والاعتذار ، ومن أروع اعتذاراته ما قدمه لابن أبى دؤاد حين غضب عليه لنيله من مُضَر فى إحدى قصائده لأبى سعيد (٧) الثغرى الطائى ، فقد أحسَّ أنه أذنب ذنباً عظيماً وأخذ يستعطفه بمثل قوله (٨) :

أتانى عائرُ الأنباءِ تَسْرى ... عَقاربُه بداهيةٍ نآدِ (٩)

نَثَا خَبَرٍ كأنَّ القلب أمسى ... يُجَرُّ به على شَوْكِ القتادِ (١٠)

كأن الشمسَ جَلَّلها كسوفٌ ... أو استترتْ برِجْلٍ من جَرادِ (١١)

---

(١) دجى : أظلم .
(٢) ثوى : مات .
(٣) الأغانى ١٦ / ٣٩٠ والصولى ص١٢٥ .
(٤) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٥١ .
(٥) الوسن : النعاس .
(٦) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٤٠ والصولى ص ٢١٧ .
(٧) هبة الأيام ص ٢٢٥ .
(٨) الديوان (طبع دار المعارف)١/٣٧٨.
(٩) عائر : سائر وذائع . نآد : عظيمة .
(١٠) نثا : ذائع ومنتشر . القتاد : شجر له شوك كالإبر .
(١١) رجل هنا : طائفة .

بأنى نِلْتُ من مُضَرٍ وخَبَّتْ ... إليك شَكيتى خَبَبَ الجواد[١]
لقد جازيتُ بالإحسان سُوءًا ... إذن وصَبَغْتُ عُرْفك بالسَّواد[٢]
وما سافرتُ فى الآفاق إلا ... ومن جَدْواك راحلتى وزادى[٣]

ولم يَقْبل ابن أبى دؤاد استعطافه فاستشفع عنده بخالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ودبّج فيه قصيدة يستدرُّ عطفه بها ، موازناً بين استشفاعه عنده بخالد واستشفاع يزيد بن المهلب قديمًا بسليمان بن عبد الملك عند أخيه الوليد وعفوه عنه . وتراه يحاول أن يبرئ ساحته مما قُرِف به وأنه كيدُ حاسد لعل له فضلا إذ يذيع فضائله وما يلبث أن يقول[٤]:

لولا التخوُّف للعواقبِ لم تَزَلْ ... للحاسد النُّعْمَى على المحسودِ[٥]

ولأبى تمام أوصاف كثيرة فى المطر والسحاب والشتاء وفى بعض الخلع التى كانت تُهْدَى إليه وبعض الخيل . وله غزل مفرد عن مقدمات مدائحه ، ولكنه لا يبلغ روعة ما يجلبه منه فى تلك المقدمات . وله زهديات قليلة وأهاج مختلفة ، وهو لا يجيد فى الهجاء ، ويقول الصولى إنه كان لا يجيب هاجيًا له حتى لا يَسْتَدِرَّ سبَّه[٦] . أما الفخر فله فيه قصائد ينوّه فيها بقومه من طيئ تنويهاً على شاكلة قوله يصور مكارمهم ومحامدهم[٧]:

أنا ابن الذين استُرْضِع الجود فيهمُ ... وسُمِّىَ فيهم وهْو كهلٌ ويافعُ
مضوا وكأن المكرمات لديهمُ ... لكثرة ما أوصوا بهنَّ شرائع
بهاليلُ لو عاينتَ فَيضَ أكُفِّهم ... لأَيقنت أن الرزق فى الأرض واسع[٨]

وتتوهج فى مقدمات قصائده قطعٌ كثيرة تصور طموحه واعتداده بنفسه اعتداداً لا حدَّ له ، اعتداد النفوس الكبيرة التى تسعى إلى الكمال واجدة لذتها فى هذا السعى

---

(١) خبت : من الخبب وهو ضرب من عدو الفرس .
(٢) العرف : الجود .
(٣) جدواك : عطاؤك .
(٤) الديوان (طبع دار المعارف) ١/ ٤٠٢
(٥) يريد أنه لولا أن الحسد مذموم لكان للحاسد فضل على المحسود لأنه يظهر فضله وينشر محامده .
(٦) الصولى ص ٢٤١ .
(٧) الديوان (طبعة بيروت) ص ٤٢٧ .
(٨) بها ليل : سادة .

مهما كلفها من جهد مُضْنٍ ومهما لقيت من خطوب ، وهو يعرض ذلك فى ثنايا حديثه إلى من شغفن قلبه مصوراً بعد همته وجلده وقوة احتماله للمحن ، حتى لكأنه يبذُّ كل سابق ولاحق فيما حاول — ويحاول — من اكتساب المجد . وله فى ذلك طرائف كثيرة ، كقوله لإحدى صواحبه ، وقد تعمقها الأسى لشيبه المبكر [١] :

يومى من الدهر مثلُ الدهر مشتهرٌ عَزْماً وحَزْماً وساعِى منه كالحِقَبِ
فأَصْغِرِى أَنَّ شَيْباً لاحَ بى حَدَثاً وأَكْبِرِى أننى فى المَهْدِ لم أَشِبِ
ولا يؤرِّقْك إيماضُ القَتِير بِهِ فإن ذاك ابتسامُ الرأى والأَدب [٢]
لا تنكرى منه تخديدًا تَجَلَّلَهُ فالسَّيْفُ لايُزْدَرَى أن كان ذاشُطَبِ [٣]

وعلى هذا النحو يملأ شعره نفس قارئه فتوة وقوة ، لا بما يصوره من بطولة لِيوث الغاب من العرب فحسب ، بل أيضًا بما يصوره من بطولة نفسه واقتحامه للصعاب وما ظفر به من مجد فنى ، وقد دأب على وصف أشعاره بالغرابة وباللآلئ الفريدة ، يقول [٤] :

مُفَصَّلَةٌ باللؤلؤ المُنْتَقَى لها من الشِّعر إلا أنه اللُّؤْلُؤُ الرَّطْبُ

وهى حقًّا لآلئ تومض بالفكر الدقيق وبألوان البديع الزاهية ، لآلىء سوّى منها عقود قصائده وقلائد شعره .

---

(١) الديوان ١/١١٦ .
(٢) يؤرقك : يسهدك . إيماض : لمعان . القتير : ابتداء الشيب وأوائله .
(٣) التخديد : الطرائق التى تبدو فى الخد والجبين مع تقدم السن . شطب السيف : طرائقه التى تظهر فيه بسبب شحذه .
(٤) الديوان ١/٢٠٤ .

الفصل السادس

شعراء السياسة والمديح والهجاء

١

شعراء الدعوة العباسية

رأينا فى الجزء الثانى من هذه السلسلة كيف كانت أحزاب الشيعة والخوارج والزبيريين والأمويين تصطرع ويجاهد بعضها بعضاً، وكيف استقرت على أصول ثابتة فى نظرية الخلافة ، فحزب الشيعة كان يرى أن تكون الخلافة فى أبناء على من بنى هاشم، لأنهم أبناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم وجمهورهم من حَفَدَته وقد أوصى لأبيهم — فيما يذكرون — بالخلافة ، وكان حزب الخوارج يرى أن تُرَدَّ الخلافة إلى الأمة لتولِّى عليها الخليفة التقى الصالح من أعلامها ، وكان حزب الزبيريين يرى أن تُرَدَّ الخلافة إلى أبناء الصحابة الأولين من المهاجرين وأن تعود إلى الحجاز، حتى يسندها الحجازيون من أهل مكة والمدينة لا عرب القبائل اليمنية الشامية التى تؤازر الأمويين . بينما كان الأمويون يدعون لأنفسهم بأنهم الأكفاء لتلك الخلافة، ووصلوها بنظام الحكم الأجنبى المتوارث عند القياصرة والأكاسرة . ومضت هذه الأحزاب الأربعة تختصم ويجاهد بعضها بعضاً ، وكان أقصرها عمراً حزب الزبيريين فإنه لم يكد يتجاوز بضع سنوات لا تزيد على ثمان ، أما حزب الشيعة فقد ظفر بحظ من الحكم فى الكوفة لعهد المختار الثقفى الذى كان يدعو لمحمد بن الحنفية من أبناء على والذى أسس نظرية الكيسانية إحدى نظريات المذهب الشيعى ، على أن هذه الحركة سرعان ما خمدت ، غير أن التشيع ظل ملتهباً سرًّا، وتكوَّن مذهب الزيدية ، وقُضِىَ على صاحبه ، ولكن جمرات اللهب ظلت متقدة . وامتشق الخوارج الحسام فى غير ميدان ونازلوا الأمويين ودوَّخوهم ، ولكنهم استطاعوا أن يقضوا عليهم أو كادوا . ووراء كل هذه الأحزاب كان هناك شعراء كثيرون ينافحون عن سياسة أحزابهم ويظاهرونها على أعدائها ويناضلون نضالا عنيفاً ،

مما هيأ لازدهار الشعر السياسي .

وإذا تحولنا إلى العصر العباسي وجدنا هذا الشعر يأخذ فى الضعف ، لسبب مهم هو ضعف الأحزاب التى يعبر عنها ، أما حزب الزبيريين فكان قد سقط نهائياً منذ سنة ٧٢ للهجرة ، ولم تقم له بعد ذلك قائمة ، وأما حزب الخوارج فإن معاركه مع الأمويين كانت قد طحنته طحناً ولم تُبْق منه إلا بقايا ضعيفة ،كانت كلما تجمعت وأوقدت ثورة قضى عليها قائد عباسى قضاء مبرماً، وبذلك سقط هذا الحزب هو الآخر لا من حيث جهاد الدولة وحربها فحسب ، بل أيضاً من حيث الشعر والشعراء . أما حزب الشيعة فقد ظل حياً فى كثير من النفوس، وظلت ثوراتهم تتوالى من حين إلى حين وظل كثير من أئمتهم وأعلامهم يُقْتَلون ويسجنون إذ كانوا يزعمون أنهم أولياء الخلافة الأقربون وأصحابها الشرعيون،وأن العباسيين اغتصبوها منهم اغتصاباً . وكان العباسيون كما أسلفنا فى غير هذا الموضع قد حولوا إلى أسرتهم دعوة الكيسانية وأصبحوا أوصياءها ، ومضوا ينظمون الدعوة ضد بنى أمية ، حتى قوّضوا حكمهم، وأصبحوا ولاة الأمر وأصحاب السلطان، وأخذوا يرصدون كل حركة للعلويين ، لا تأخذهم فيهم شفقة ولا رحمة . حتى إذا كان المأمون ورأى أن يوصى بالعهد من بعده لعلوى هو على الرضا بن موسى الكاظم ثار عليه بيته ، واضطُرّ إلى الانصراف عن تلك الفكرة كما مر بنا .

وعلى هذا النحو ظل الشيعة فى العصر العباسى الأول يطالبون بأن ينزل العباسيون عن الحكم ويردوا الأمر إلى نصابه ، وتبعهم فى تقرير نظريتهم كثير من الشعراء ، غير أنهم كانوا يخافون بطش العباسيين ، فكانوا ينْظمون ما ينظمون سراً وقلما أعلنوه ، بل لقد مضى فريق منهم يمدح الخلفاء تقيّةً ويبالغ فى مديحه ، حتى ليصبح كأنه من دعاتهم . وكثر حينئذ من يدعون لهم كثرة مفرطة ، فقد كانت الدنيا بيدهم وكنوز الدولة فى حجورهم فسال لها لعاب الشعراء ومضوا يدافعون عن حق العباسيين فى الخلافة ويردّون على العلويين منكرين حقهم فيها ، مستلهمين رسالة المنصور إلى محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية والتى عرضنا لها فى الفصل الأول ، وما ذكره فيها من أن أبناء البنت لا يحوزون الميراث ، إنما يحوزه العم وأبناؤه كما قرر الإسلام . ومن الغريب أنه لم يرتفع فى هذه الأثناء صوت ثالث يقرّر أن

الخلافة فى منشئها كانت تقوم على استشارة الأمة فى تولية الصالح من زعمائها، فهى ليست لُقْمة تستأثر بها أسرة خاصة ، بل هى نظام يقوم على الشورى ، هدفه الأساسى مصلحة الجماعة ، وهى شركة بين أفرادها جميعاً يتولاها أكفؤهم سواء أكان من بيت هاشمى أم لم يكن ، وسواء أكان قرشياً أم كان غير قرشى . وكان المفروض أن يجهر بذلك الفقهاء والمتكلمون ، وكأنما لم يتبينوا حينئذ الطريق الصحيح لحكم الأمة ومصلحتها العامة ، فمضوا يصانعون العباسيين مُذْعنين لهم خاضعين .

وإذا مضينا نتعقب من كانوا يمدحون الخلفاء العباسيين لهذا العصر وجدناهم أكثر من أن يُحْصوا ويستقصوا ، وإنما يهمنا منهم من كانوا يقفون مدافعين عن نظريتهم فى الخلافة مناضلين عنهم خصومهم من الشيعة العلويين ، ولا بد أن نلاحظ منذ أول الأمر أن أصحاب مذهب الكيسانية كانوا يوالون العباسيين ، ولذلك لا نعجب إذا رأينا السيد الحميرى يكثر من مديحه لهم ، وقد مدح طويلا أبا العباس السفاح والمنصور والمهدى [١] . ويلمع اسم أبى دلامة فى بلاطهم جميعاً ، وكانت فيه دعابة جعلتهم يتخذونه لهم نديماً ، ومن أوائل من استظهروا فى أشعارهم النضال عن سلطان العباسيين أبو نُخَيْلة ، وهو من مخضرمى الدولتين : الأموية العباسية فى مديح السفاح إذ يقول [٢] :

حتى إذا ما الأوصياءُ عسكروا وقام من تِبْرِ النبىِّ الجَوْهَرُ
أقبل بالناس الهوى المشهَّرُ وصاحَ فى الليل نهارٌ أنور

وواضح أنه يجعل العباسيين أوصياء على الخلافة ، فليس العلويون أصحابها إنما أصحابها العباسيون الذين استُخْلصوا لها كما يستخلص الجوهر . وقد مدح المنصورَ كثيرون فى مقدمتهم بشار وأبو دلامة نديمه والسيد الحميرى ، ونرى أبا نخيلة يمدحه طويلا ، وقد رُوِىَ له فيه قطعة من أرجوزة يغريه فيها بخلع ولى عهده عيسى بن موسى وعَقْد العهد لابنه محمد المهدى ، وفيها يقول [٣] :

---

(١) انظر ترجمته فى الجزء السابع من الأغانى طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٤٩ وما بعدها .

(٣) أغانى ١٨/١٥٠ .

ليس وليُّ عَهْدِنا بالأَسْعَدِ   عيسى فَزَحْلِفْها إلى محمَّدِ[١]

من عند عيسى معهدًا عن معهدِ   حتّى تؤدّى من يدٍ إلى يَدِ

فنادِ للبَيْعةِ جمعًا نَحْشُدِ   فى يومنا الحاضر هذا أو غَدِ

ويُعَدُّ المهدى أول خليفة فتح أبوابه على مصاريعها للشعراء ، فقد مضى يجزل لهم فى العطاء ومضوا يجزلون له فى الثناء ، وفيه يقول ابن الخياط ، إن صح أنها له [٢] :

لمستُ بكفى كفَّه أبتغى الغِنَى   ولم أدر أن الجود من كفِّه يُعْدِى

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى   أفدتُ وأعدانى فأتلفت ما عندى

وممن أكثروا من مديحه مروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر وأبو دلامة وبشار وأبو العتاهية والسيد الحميرى ونُصَيْب الأصغر والعُمانى الراجز ، وقد روى له ابن المعتز أرجوزة يستحثه فيها على توليته العهد من بعده ابنيه الرشيد والهادى[٣] ، ومن مُدّاحه الحسين بن مُطَيْر مولى بنى أسد ، وكان يغلو فى مديحه غلوا شديداً حتّى ليرفعه على البشر درجات من مثل قوله[٤] :

لو يعبدُ الناسُ يا مهدىُّ أفْضَلَهم   ما كان فى الناس إلا أنت معبودُ

أضحتْ يمينكُ من جودٍ مصَوَّرَةً   لا بل يمينك منها صُوِّرَ الجودُ

لو أن من نوره مِثْقالَ خَرْدَلةٍ   فى السود طُرًّا إذنْ لابيضّت السودُ

ونرى كثيرين من الشعراء لعهده يدافعون عن حقه وحق العباسيين فى الخلافة منكرين على العلويين حقهم فيها ، فهم ورثتها الشرعيون وحصونها الحقيقيون ، وفى ذلك يقول ابن المولى[٥] :

وإن أميرَ المؤمنين ورَهْطَهُ   لأهلُ المعالى من لُؤَىِّ بن غالِبِ

أولئك أوتادُ البلاد ووارثو النَّـ   ـبِىِّ بأمر الحقِّ غير التكاذبِ

---

(١) زحلف : دحرج ودفع .

(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٨/٩٤ .

(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبعة دار المعارف) ص ١١١ .

(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١٦/٢٣١ .

(٥) أغانى ٣/٢٩٣ .

ومضى فى القصيدة يذكر بلاء العباسيين فى تقويض الحكم الأموى والأخذ للعلويين بثأرهم الذى كان مهدرًا وأعلن بلسان الخليفة أنه رحيم بهم شفيق عليهم لما يربطه بهم من وشائج القربى، وأن من رجع منهم عن غيه وتاب قبل منه توبته وأسدل عليه نعمه .

وكان الهادى منذ ولاية أبيه يقعد للشعراء ويمدحونه[1] ، وفى مقدمتهم مروان ابن أبى حفصة وسلم الخاسر ومطيع بن إياس وأبو الخطاب البَهْدَلِىُّ . وخلفه سريعًا هرون الرشيد، وظل فى الخلافة نحو اثنين وعشرين عامًا، ويقول الرواة إنه لم يجتمع بباب أحد ما اجتمع ببابه من الشعراء[2]، ومن مدَّاحه أبو الشِّيص والعُمانى وابن مناذر وعمر بن سلمة ومروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأشجع السُّلَمى والسيد الحميرى ومنصور النَّمرى وأبو الغول الطُّهَوى ، وله يذكر عقده العهد لابنيه الأمين والمأمون[3]:

بنيتَ لعبد الله بعد محمَّدٍ ذُرَا قُبَّة الإسلام فاخضرَّ عودها
هما طُنُباها ــ بارك الله فيهما ــ وأنت ــ أميرَ المؤمنين ــ عَمودها

ومن مُدَّاحه أيضًا ربيعة الرَّقِّىُّ ونُصَيْب الأصغر، ونراه يردِّد له أن خلافته ميراث ورثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[4] ، كما نرى الشعراء يحيطونه بهالة من التقديس حتى ليقول النَّمرى[5] :

إن المكارم والمعروف أوديةٌ أحلَّك الله منها حيث تتسعُ
إذا رفعتَ امرءًا فالله يَرْفَعُهُ ومن وضعتَ من الأقوام متَّضع

ويقال إنه كان لا يرى بأسًا فى أن يمدح بما تمدح به الأنبياء[6] ! . وكانت له انتصارات مدوية على الخوارج والروم ، فتغنى بها الشعراء طويلا .

وولى بعده الأمين ، وكان فيه لهو ومجون فلزمه أبو نواس ، ومن مدَّاحه أبو الشيص وعبد الله بن أيوب التيمى ، وكان يكثر فى مديحه له من التنديد بأخيه

---

(١) أغانى ١٢/٣٢٦ .
(٢) انظر الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ٤/٣٨٢ .
(٣) ابن المعتز ص ١٤٩ .
(٤) أغانى (طبعة الساسى) ٢٠/٢٥ وما بعدها .
(٥) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/١٤٧
(٦) أغانى ١٣/١٤٤ .

المأمون حين خلع طاعته على شاكلة قوله[١] :

خلافةُ الله قد توارثها آباؤه فى سوالف الكتُبِ
فهْى له دونكم مورَّثةٌ عن خاتم الأنبياء فى الحِقَبِ

وقوله[٢] :

مَنْ رأى الناسُ له الفضْـ لَ عليهم حَسَدُوهُ
مثلَ ما قد حَسَدَ القا ئمَ بالمُلْك أخـوه

وكان المأمون ممدَّحًا مثل أبيه الرشيد ، ومن مُدَّاحه — وهو لا يزال ولىَّ عهد — منصور النَّمرِى وأشجع السُّلَمىّ وأبو محمد اليزيدى مؤدبه ، وممن تغنَّوا بمديحه فى خلافته أبو تمام وإبراهيم بن المهدى عمه ودعبل وعبد الله بن أيوب التَّيْمى ومحمد بن عبد الملك الزيات وابن البواب ومحمد بن وهيب ، ومدائحهم فيه مبثوثة فى أخبارهم بكتاب الأغانى . ومرَّ بنا فى الفصل السالف تنويه أبى تمام بالمعتصم وانتصاراته المدوية ، ومن مدَّاحه ابن الزيات ومحمد بن وهيب والحسين بن الضحاك ومخلد بن بكار الموصلى وخالد الكاتب . وممن نوهوا بالواثق أبو تمام وله فيه قصائد بديعة . ولعل من الخير أن نقف قليلا عند نفر من مداح هؤلاء الخلفاء ، هم أبو دلامة ومروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر .

أبو دلامة[٣]

هو زَنْد بن الجَوْن ، كوفى أسود ، من موالى بنى أسد ، كان أبوه عبداً فأعتقه رجل منهم ، وهو من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، ولم يكن له فى أيام الدولة الأولى شأن يذكر ، غير أن الدولة العباسية لم تكد تظله حتى أخذ نجمه

---

(١) أغانى (ساسى) ١٨/١٢٠ .
(٢) النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب) ٢/١٦١ .
(٣) انظر فى ترجمة أبى دلامة وأشعاره وأخباره ابن المعتز ص ٥٤ وابن قتيبة فى الشعر والشعراء (طبعة دار المعارف) ص ٧٥١ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٠/٢٣٥ وابن خلكان وتاريخ بغداد ٨/٤٨٨ وشذرات الذهب ١/٢٤٩ ومرآة الجنان لليافعى ١/٣٤١ والمؤتلف ١٣١ ومعجم الأدباء ١١/١٦٥ وذيل زهر الآداب للحصرى (طبعة القاهرة) ص ٨١ وما بعدها . وقد طبع ديوانه بالجزائر .

يتألَّق إذ قرَّبه منه السفَّاح ، وكانت فيه دعابة جعلته خفيف الظل على قلبه فاتخذه هو ومن وليه من الخلفاء نديمًا لهم يُطْرفهم بنوادره . ويقول أبو الفرج : « كان فاسد الدين رديء المذهب مرتكبًا للمحارم مضيعاً للفروض مجاهراً بذلك ، وكان يُعْلَمُ هذا منه ويُعْرَفُ به فيُتَجافى عنه للطف محله » . ولعل أبا الفرج بنى هذا الحكم على ما ساقه من أخباره إذ ذكر أن المنصور بلغه أنه معتكف على الخمر ولا يحضر صلاة ولا مسجداً ، فأمره بلزوم الجماعة فى مسجد قصره ، وطال عليه ذلك فاستعفاه بقصيدة يقول له فيها :

ألم تعلما أن الخليفة لزَّنى *** بمسجده والقصرِ مالى وللقَصْرِ !

وما ضرَّه والله يغفر ذَنْبَهُ *** لو اَنَّ ذنوب العالمين على ظهرى

وضحك المنصور حين قرأ القصيدة وأعفاه من الحضور معه . وروى أبو الفرج فى موضع ثان أن المنصور أمره بالقيام معه فى ليالى شهر رمضان ، وأنه شَقَّ عليه ذلك فكتب إلى رَيْطة زوجة ابنه المهدى شعراً يُضْحكها به ويستشفعها عند عمها المنصور . وفى خبر ثالث أن المنصور سجنه لسكره . وقد يكون فيه لهو وميل للمجون ، أما أن يكون فاسد الدين مخلا بالفروض للخبرين الأولين وما يشبههما فإن ذلك يكون مبالغة فى الحكم إذ كان يذهب بذلك إلى الدعابة شأنه فى دعاباته الأخرى التى رواها أبو الفرج وغيره .

ويُرْوَى أنه انقطع فى بعض أيامه إلى رَوْح بن حاتم بن قبيصة المهلبى ، أما فى عامة أيامه فكان ملازماً للخلفاء إذ كانوا يتخذونه نديمًا لهم يضحكهم بنوادره ، ويُقال إنه لم يصل إلى أحد من الشعراء ما وصل إليه من المنصور خاصة ، وكان أول ما جعله يُسْنى له الجوائز داليَّته التى مدحه بها حين قتل أبا مسلم الخراسانى وفيها يقول :

أبا مجرمٍ ما غيَّر الله نعمةً *** على عبده حتى يغيِّرها العَبْدُ

أفى دولة المهدىِّ حاولتَ غدرةً *** ألا إن أهل الغَدْر آباؤك الكُرْدُ

وواضح أنه يلقب المنصور فى البيت الأخير بالمهدى ، مستعيراً ذلك من الشيعة وما يردِّدونه فى آثارهم عن صفاته وأنه المنقذ الذى يخلِّص الناس من بلاياهم

ويملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلماً ويهدى الناس إلى الطريق السَّوِىِّ المستقيم ، وتذهب بعض الروايات السنية إلى أن الاسم الحقيقى للمهدى إنما هو محمد ، ولعل المنصور لاحظ ذلك حين لقب ابنه محمداً بالمهدى ، وكأنه كان يريد أن يوحى للناس بأنه المهدى المنتظر . على أن من الشعراء من مضى مثل أبى دلامة يلقبه هو نفسه بهذا اللقب ، وكان ما يزال يرفع من شأنه هو وأسرته درجات فوق العالمين على شاكلة قوله :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرمٍ قومٌ لِقيلَ اقْعُدُوا يا آل عَبَّاسِ
ثم ارْتَقُوا فى شعاع الشمس وارتفعوا إلى السماء فأنتم سادةُ الناسِ

وكان يجيد الرثاء كما يجيد المديح وقد بكى السفاح طويلا . ولما توفى المنصور رثاه بقصيدة جيدة جمع فيها بين الحزن عليه والفرحة بتولية المهدى ، والطريف أنه جمع المعنيين فى كل بيت من أبياتها على نحو ما نرى فى قوله :

عينان : واحدة تُرَى مسرورةً بإمامها جَذْلَى وأخرى تَذْرِفُ
تبكى وتضحك مرة ويسوءُها ما أبصرتْ ويسرُّها ما تعرفُ

وله نوادر كثيرة ترويها كتب الأدب ، منها ما يتصل بالخلفاء ونسائهم ، ومنها ما يتصل بزوجته وبأولاده ، وكان يعرف كيف يحيل بعض نوادره شعراً ، إذ كان الشعر يتدفق على لسانه تدفقاً ، ويُرْوَى أنه بُشِّر ببنت له ، فقال تَوًّا مداعباً ومتفكهاً :

فما ولدتْكِ مريم أمُّ عيسى ولم يَكْفُلْكِ لقمانُ الحكيمُ
ولكن قد تضمُّكِ أمُّ سوءٍ إلى لَبَّاتِها وأبٌ لئيم

وله بجانب ذلك أشعار فى وصف الشراب والرياض ، وانقطع بعد المنصور إلى المهدى فكان يصله بالجوائز السنية ويستطيب مجالسته ونوادره إلى أن توفى سنة ١٦١ للهجرة .

مروان[1] بن أبي حفصة

أصل جده من يهود خراسان ، وكان مولى لمروان بن الحكم وهبه له عثمان بن عفان ، ويقال إنه أبلى فى الدفاع عنه حين حوصر فى داره وقُتل ، فأعتقه مروان جزاء بلائه ، ولما ولى المدينة لمعاوية ولاّه على خراج اليمامة ، واقترن هناك بعربية أنجب منها ابنه يحيى ، وكان شاعراً متوسطاً ، ويقال إنه تزوج بنت زياد بن هوذة وأنجب منها فيمن أنجب ابنه سليمان وكان هو الآخر يقرض الشعر ، ورزق سليمان بابنه مروان سنة ١٠٥ للهجرة . وقد نشأ فى اليمامة حيث استقرت أسرته والشعر يجرى فى أعراقه فلم يلبث أن شدا به ، غير أن اسمه لم يلمع إلا فى العصر العباسى ، ونراه ينقطع لمعن بن زائدة الشيبانى ، وكان جواداً مقداماً وبطلا مغواراً ، ولاه المنصور اليمن ثم سجستان . ويقال إن مروان أخذ منه مالا كثيراً ، وخاصة حين مدحه بقصيدته اللامية ، وفيها يقول عنه وعن عشيرته :

بنو مطرٍ يوم اللقاء كأنهم ... أسودٌ لها فى بَطْنِ خَفَّانَ أَشْبُلُ[2]

هُمُ يمنعون الجار حتى كأنما ... لجارهمُ بين السِّماكين مَنْزِلُ

بَهَا لِيلُ فى الإسلام سادوا ولم يكن ... كأولهم فى الجاهليةُ أولُ

همُ القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعُوا ... أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأَجْزلوا

وما يستطيع الفاعلون فعالَهم ... وإن أحسنوا فى النائبات وأجملوا

وله بجانب هذه القصيدة فيه قصائد كثيرة ملأ بها حِجْره من الأموال ، ومن طريف مديحه فيه قوله يصور سيادته وشرفه وكرمه وشجاعته :

---

(١) انظر فى ترجمة مروان وأشعاره وأخباره ابن المعتز ص ٤٢ وابن قتيبة ص ٧٣٩ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٠ / ٧١ والموشح للمرزبانى ص ٢٥١ والنجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب) ٢ / ١٠٦ وتاريخ بغداد ١٣ / ١٤٢ وشذرات الذهب ١ / ٣٠١ وابن خلكان ٢ / ١١٧ والوزراء والكتاب للجهشيارى ، انظر الفهرس ، وكذلك فهرس الأغانى ومرآة الجنان لليافعى ١ / ٣٨٩ وحديث الأربعاء لطه حسين (طبعة الحلبى) ٢ / ٢٨٦ .

(٢) خفان : مأسدة بالقرب من الكوفة . ومطر اسم جد معن ، وهو مطر بن شريك الشيبانى .

مَعنٌ بن زائدة الذى زيدت بهِ   شرفاً إلى شرفٍ بنو شيبانِ
إن عُدَّ أيّامُ الفعَال فإنمـــا   يومـــاه يوم نَدًى ويوم طِعانِ

وما زال يوالى مديحه له حتّى توفى سنة ١٥٢ للهجرة ، فأبَّنه تأبيناً حارّاً ، ومن رائع تأبينه له لاميته ، وفيها يقول معبراً عن حزنه العميق وأساه :

أقمنا باليمامة بعد مَعْنٍ   مُقاماً لا نُريد له زِيالا
وقلنا : أين نرحل بعد مَعْنٍ   وقد ذهب النَّوال فلا نوالا

ويقول من أخرى :

قُلْ للمنيةِ لا تُبْقى على أحدٍ   إذ مات مَعْنٌ فما مَيْتٌ بمفقودِ

ولما ولى المهدى بعد أبيه المنصور وَفَدَ عليه ، ولم يكد يلقى بين يديه أولى قصائده فيه حتّى بهره بمديحه ، ولم يكن مديحاً عادياً بالكرم والشجاعة والخلال الكريمة التى يقدرها العرب دائماً ، بل كان أيضاً مديحاً سياسيًّا ، إذ عمد إلى الدفاع عن حقوق العباسيين فى الخلافة والرد على العلويين وما يدعونه من هذه الحقوق ، ولعل شاعراً لم يبلغ فى هذا الدفاع مبلغه ، إذ كان يعرف كيف ينقضُّ على العلويين بالحجة القاطعة على نحو ما نرى فى قوله :

هل تَطْمسون من السماء نجومَها   بأكُفّكم أو تَسْترون هلالها
أو تجحدون مقالةً عن ربكم   جبريلُ بلّغها النبيَّ فقالهـــا
شهدتْ من «الأنفال» آخرُ آيةٍ   بتُراثهم فأردتمُ إبطالها

وهو يريد بآية الأنفال قوله تعالى : (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شىء عليم) يشير بذلك إلى حق العباسيين فى وراثة الخلافة وأنهم مقدمون فى هذا الحق على أبناء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم فاطمة الزهراء إذ العم مقدم على الأسباط فى الوراثة ، على نحو ما هو معروف فى الشريعة الإسلامية . وبلغ من

فرط إعجاب المهدى بالقصيدة أن سأل كم عدد أبياتها ، فقال مروان : مائة ، فأمر له بمائة ألف درهم ، وكانت أول مائة ألف درهم أخذها شاعر فى أيام بنى العباس . ومضى مروان يردد فى مديحه للمهدى هذا الدفاع السياسى عن حق العباسيين فى وراثة الخلافة ، وهو يغدق عليه عطاياه الجزيلة ، ومن إحكامه لهذا الدفاع أبياته التالية التى يخاطب بها المهدى :

يا بن الذى ورث النبىَّ محمَّدًا   دون الأَقارب من ذوى الأَرحامِ
الوَحْىُ بين بنى البنات وبينكم   قطَع الخِصام فلاتَ حينَ خِصام
ما للنساء مع الرجال فريضةٌ   نزلتْ بذلك سورة الأنعام
أنَّى يكونُ وليس ذاك بكائنٍ   لبنى البنات وراثةُ الأَعمام

وما زال يفد على المهدى حتى توفِّى وخلفه ابنه الهادى فوفد عليه مع من وفدوا يهنئونه بالخلافة ويعزونه عن أبيه ودخل فأخذ بعِضادتى الباب ، ثم قال :

لقد أصبحتْ تختالُ فى كل بلدةٍ   بقبر أمير المؤمنين المقابِرُ
ولو لم تسكُن بابنه فى مكانه   لما برحتْ تبكى عليه المنابرُ

ومضى يفد على هرون الرشيد ويجزل له فى الصلات السنية ، ووَفَدَ على البرامكة ـ شأنه فى ذلك شأن جميع شعراء الرشيد ، إذ كانوا يجمعون بين مديحه ومديحهم ـ وله فى يحيى بن خالد البرمكى من قصيدة :

إذا بلَّغَتْنا العِيسُ يحيى بن خالدٍ   أَخذنا بحبل اليُسْر وانقطع العُسْرُ
فإن نشكر النُّعْمَى التى عمَّنا بها   فحقٌّ علينا ـ ما بقينا ـ له الشكر

ومن رائع قوله فى الفضل ابنه :

إذا أمٌّ طفلٍ رَاعَها جوعُ طفلها   غَذَتْه بذكر الفضل فاستعصَم الطِّفْلُ
ليحيى بك الإسلام إنك عِزُّه   وإنك من قومٍ صغيرهمُ كَهْلُ

وليس له وراء المدح والرثاء شعر مذكور . وقد اشتهر ببخله وشدة حرصه وكان يلم ببغداد ثم يعود سريعًا إلى اليمامة ، ولذلك لم يتضح عنده التأثر بالحضارة العباسية

وما تُرْجم من ثقافات أجنبية، على أنه كان يحكم صنعته إحكامًا بعيدًا، ويُرْوَى عنه أنه كان يحوك القصيدة فى سنة ، أما فى الأشهر الأربعة الأولى فكان ينظمها ، وكان فى الأربعة الأشهر الثانية يصقلها وينقحها ، أما فى الأربعة الأشهر الأخيرة فكان يعرضها على الرواة والنقاد حتى إذا وثق من جودتها أنشدها ممدوحيه ، وما زال فى المحل المرموق من الشعر حتى توفى سنة ١٨٢ ويقال إنه مات مقتولا بيد شيعى انتقاماً منه للعلويين .

سلم[1] الخاسر

من موالى تَيْم عشيرة أبى بكر الصديق ، وُلد بالبصرة وبها نشأ، واختلف الرواة فى سبب تلقيبه بالخاسر ، فقيل إن أباه عمرو بن حماد خلَّف له مالا كثيراً أنفقه على الشعر وفى اللهو فلقِّب بذلك ، وقيل بل لأنه اشترى بمصحف ورثه من أبيه طُنْبورا، وقيل أيضًا إنه إنما لُقِّب بذلك لأنه باع مصحفًا واشترى بثمنه دفتر شعر . ويقول أبو الفرج : « هو راوية بشار بن بُرْد وتلميذه وعنه أخذ ومن بحره اغترف وعلى مذهبه ونمطه قال الشعر » ورَوَى عنه أنه قال : « هل أنا إلا جزء من محاسن بشار ، وهل أنطق إلا بفضل منطقه . . إنى لأروى له تسعة آلاف بيت ما يعرف أحد غيرى منها شيئًا » ويقال إنه كان من أعرف الشعراء بأشعار الجاهلية . ونراه فى مطالع حياته يمدح معن بن زائدة وعمر بن العلاء والى طبرستان وممدوح أستاذه بشار ، وله يقول :

كم كربةٍ قد مسَّنى ضُرُّها ... ناديتُ فيها عمر بن العلاء

ورثى معنا حين توفى رثاء حارًّا ، وبنفس اللوعة رثى أبا جعفر المنصور ، وفيه يقول :

عجباً للذى نعى الناعيانِ ... كيف فاهتْ بموته الشفتانِ

---

(١) انظر فى سلم وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٩٩ والأغانى (طبعة الساسى) ٢١/٧٣ وتاريخ بغداد ٩/١٣٦ وابن خلكان ومعجم الأدباء ١١/٢٣٦ والوزراء والكتاب للجهشيارى انظر الفهرس .

ليتَ كَفًّا حَثَتْ عليه تُرَاباً ... لم تَعُدْ فى يمينها بِبَنانِ

وتُفْتَحُ له أبواب الخلافة منذ عصر المهدى ، إذ كان يعطيه هو ومروانَ بن أبى حفصة عطية واحدة . ويقول ابن المعتز إنه كان يذهب به فى مديحه إلى أنه المهدى الذى وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم فى بعض ما نُسب إليه من آثار ، وله يقول فى بعض قصائده :

وإلى أمير المـــؤمنين محمدٍ خير الأنامِ

فضَلَ الملوكَ محمدٌ فَضْلَ الحلال على الحرامِ

ويقول :

ومهدىّ أمَّتنا والذى حماها وأدرك أوتارهـــا

له شيمةٌ عند بذل العطا ء لايعرف الناسُ مقدارها

وكان يقف بجانبه فى كل مناسبة ، من ذلك أن نراه ينبرى حين اتخذ يعقوب ابن داود وزيراً له قائلا منوهاً به وبوزيره :

قُلْ للإمام الذىجاءتْ خلافتُه ... تُهْدَى إليه بحقٍّ غير مردودِ

نعْمَ المعينُ علىالتقوى أُعِنْتَ بهِ ... أخوك فى الله يعقوب بن داودِ

ولما ماتت ابنته « البانوكة » حزن عليها هو وأمها الخيزران حزناً شديداً ، وإذا بشاعره يقف بين يديه معزياً بل نادباً باكيا بمثل قوله :

أَوْدَى ببانوكةَ رَيْبُ الزمانْ ... مُؤْنِسةِ المهدىِّ والخيزرانْ

بانوكَ يا بنتَ إمام الهُدَى ... أصبحتِ من زينة أهل الجنانْ

بكتْ لكِ الأرضُ وسُكَّانُها ... فى كلِّ أُفْقٍ بين إنْسٍ وجانْ

ويقال إنه بلغ المهدى أنه مدح بعض العلويين فتوعده وهمَّ به ، ولكنـــه استطاع أن يسلّ منه سخيمته بقصيدة بالغ فيها فى تصوير اعتذاره بمثل قوله :

وأنت كالدهر مبثوثاً حَبائِلُهُ ... والدهر لا ملجأٌ منه ولا هَرَبُ

والحق أنه كان خالصًا للعباسيين ، وقد مضى يمدح الهادى بعد المهدى مُضْفيا عليه نفس صفات القدسية والجلال من مثل قوله :

وجدناك فى كتب الأوّلي ن محيي النفوس وقتّالها
لقد جعل الله فى راحتيك حياةَ النفوس وآجالهـا

وله يقول من أخرى :

لولا هُداكم وفضل أولكم لم تَدْرِ ما أصل دينها العربُ

ولم يكد الهادى يسمع منه هذا البيت حتّى استخفه الطرب ، وأمر له بثلاثمائة ألف درهم . وولى بعده الرشيد فوالى فيه سلم مدائحه ، ووالى عليه هرون عطاياه الجزيلة ، ومن قوله فيه حين جعل ولاية العهد فى ابنه الأمين :

قد بايع الثقلان فى مَهْدى الهدى لمحمد بن زُبَيْدة ابنة جعفرِ

ويقال إن زبيدة وصلته من أجل هذه القصيدة بمائة ألف درهم . ولم يلبث الرشيد أن عقد العهد من بعد الأمين للمأمون فنوّه به كما نوّه بأخيه . وجذبه البرامكة إليهم ، فأشاد بهم طويلا ، ومن رائع قصائده فيهم لاميته التى مدح بها يحيى ابن خالد وفيه يقول :

بَلَوْتُ الناسَ من عُجْمٍ وعُرْبٍ فمـا أحدٌ يسير كما تسيرُ
فكلُّ الأمر من قولٍ وفعل إذا عَلِقَتْ يداك به صغير
وفى كفّيك مَدْرَجَةُ المنايا ومن جَدْواهما الغيث المطيرُ

وأكثر من مديح الفضل بن يحيى ، حتّى كاد ينقطع له ، ومن بارع مديحه فيه قوله مصوراً شجاعته وكرمه :

له يومان : يومُ نَدًى وبَأْسٍ كأن الدهر بينهما أسِيرُ

وقوله :

أقام الندى والجود فى كل منزلٍ أقام به الفضل بن يحيى بن خالدِ

وكان يمدح أيضا الفضل بن الربيع وزير الرشيد . ويظهر أن الفضل البرمكى أكثر من بِرِّه ونواله عليه حتّى حسده الشعراء وفى مقدمتهم صديقه أبو العتاهية ، مما جعل كلا منهما يلمز صاحبه بعض اللّمز ، أما أبو العتاهية فوصفه بالحرص والشح فى بيته الذى أنشدناه فى الفصل السابق :

تعالى الله يا سَلْم بن عمرو أذلَّ الحِرْصُ أعناقَ الرجالِ

وأما سلم فاتهمه بأنه كاذب منافق فى زهده وتقشفه ، وكان قد تحول إلى الزهد على نحو ما أسلفنا ، ومع ذلك كان لا يزال يمدح ويستجدى وفى ذلك يقول له سلم :

ما أقبحَ التَّزْهيدَ من واعظٍ يُزَهِّدُ الناسَ ولا يزهــدُ

لو كان فى تزهيده صادقاً أضحى وأمسى بَيْتُه المسجد

وفى أخباره ما يدل على أنه كان يهاجى والبة بن الحباب ، غير أنه لم يكن يحسن الهجاء . ويظهر أنه كان يلم بشىء من اللهو والمجون فى مطالع حياته ، غير أنه لم تتقدم به السِّنُّ حتّى التزم جانب الوقار . وشعره يؤكد أن المديح لم يترك فيه بقية لفن آخر سواه . ولم يكن شحيحاً كما وصفه أبو العتاهية ، بل كان كريماً سمحاً إذ يقول ابن المعتز إنه كان ينفق ما يأخذه من الأموال على إخوانه وغيرهم من أهل الأدب . وفى أخباره ما يدل على أنه كان يتأنق تأنقاً شديداً فى ملبسه ومظهره وأنه كان يحيا حياة مترفة ناعمة . وأشعاره مليئة بالرشاقة والعذوبة والنعومة ، وله فى الهادى مدحة اشتهرت فى عصره وبعد عصره ، إذ بنى شطورها من تفعيلة واحدة على هذا النمط :

موسى المطَرْ عَدْلُ السِّيَرْ

وقد جعلها على قافية واحدة ، وهى تفيض بالخفة والرشاقة ؛ ومن حكمه البديعــة :

لا تَسْألِ المرءَ عن خلائقهِ فى وَجْهِهِ شاهدٌ عن الخَبَرِ

وما زالت حياته تجرى رُخاء حتّى توفى سنة ١٨٦ للهجرة .

٢

شعراء الشيعة

كان استيلاء العباسيين على مقاليد الخلافة مفاجأة لكثير من العلويين وأنصارهم من فرق الشيعة ، وربما كانت الفرقة الوحيدة التى لم تجد فى ذلك غضاضة هى فرقة الكيسانية من أصحاب أبى هاشم بن محمد بن الحنفية، فإنه تنازل لهم ، كما أسلفنا ، عن الخلافة ، ولعل ذلك ما جعل شعراءها ، من أمثال السيد الحميرى ، يقفون فى صفوف العباسيين مادحين مثنين . أما شعراء الفرق الأخرى فقد عمتهم الفرحة حين انتصرت الثورة العباسية ، ظانين أن العباسيين سيشركون أبناء عمهم العلويين فى الحكم معهم ، حتى إذا انبلجت الحقيقة نفضوا أيديهم منهم ، وخاصة شعراء الزيدية . أما شعراء الإمامية فقد وجدوا أمامهم فسحة كى ينافقوا العباسيين ، وكى يظهروا غير ما يبطنون ، لمبدأ التقية المشهور الذى كان يأخذ به الشيعة الإمامية جميعاً من اثنى عشرية وإسماعيلية ، ومن ثَمَّ رأيناهم يمدحون خلفاء بنى العباس ، يسترون بذلك حقائقهم ، على نحو ما هو معروف عن منصور النَّمرى . وخير من يمثل شعراء الزيدية فى أوائل هذا العصر سُدَيْف وهرون بن سعد العِجْلىّ . أما سديف فاشتهر بتحريضه السفّاح لأول خلافته على الثأر من بنى أمية بمثل قوله[1] :

أصبح الملك ثابت الآساسِ ... بالبَهاليل من بنى العباسِ
لا تُقيلنَّ عبدَ شمسٍ عِثارًا ... واقْطَعَنْ كل رَقْلَةٍ وغِراسِ[2]

ومضى يستثيره على الفتك بهم حتى استشاط موجدة وحنقاً ، فدعاهم إلى مأدبة كبيرة ، حتى إذا قدموا وتهيَّأوا للطعام وقف سديف ينشده[3] :

لا يَغُرَّنْك ما ترى من رجالٍ ... إن تحت الضلوع داءً دَوِيًّا
فضَعِ السيف وارْفَعِ السَّوْط حتى ... لا ترى فوقَ ظهرها أمَوِيًّا

(١) ابن المعتز ص ٣٩ والأغانى (طبع دار الكتب) ٤/٣٤٥ .

(٢) الرقلة : النخلة الطويلة تفوت اليد .

(٣) ابن المعتز ص ٤٠ والأغانى ٤/٣٤٨ .

ووضع أبو العباس السفاح السيف فيهم حتى أتى عليهم ، ويقال : بل شُدخوا بالأعمدة . وصنع صنيعه بجموعهم فى الشام والحجاز والبصرة أعمامه : عبد الله وداود وسليان . وتوفى السفاح وخلفه المنصور فاستقر فى نفوس زعماء العلويين أن الخلافة قد أفلتت من أيديهم وأن العباسيين لن يدعوا لهم منها شيئاً . وما تُوافى سنة ١٤٥ للهجرة حتى يثور بالمدينة محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية . وهى — كما أسلفنا فى الفصل الأول — أول ثورة للزيدية ، ونرى سديفاً يقف مع أخيه إبراهيم بن عبد الله حين ثار بالبصرة ، ناظماً كثيراً من الأشعار ضد المنصور ، مما يؤكد أنه كان يعتنق مذهب الزيدية ، ومن قوله فى بعض تلك الأشعار ، مخاطباً النفس الزكية[1] :

إنا لنأمل أن ترتدَّ أُلْفَتُنَا بعد التباعد والشحناء والإِحَنِ
وتنقضى دولةٌ أحكامُ قادتها فينا كأحكام قومٍ عابدى وَثَنِ
فانهضْ ببيعتكم ننهضْ بطاعتنا إن الخلافة فيكم يا بنى الحسنِ

وطبيعى أن يذيقه المنصور وبال تحريضه على الثورة ، إذ يقال إنه أمر بدفنه حيًّا . ومن شعراء الزيدية وهذه الثورة هرون بن سعد العِجْلى ، وقد ولاَّه إبراهيم ابن عبد الله فى أثنائها واسطاً ، وبمجرد قضاء المنصور عليها توفى وهو يهم بدخول البصرة[2] ، وفى عيون الأخبار له قصيدة يرد فيها على غالية الشيعة من الإمامية ردًّا عنيفًا ، ناقضًا ما زعمه رافضتهم من غلو فى تصور جعفر الصادق إمامهم ، حتى ليجعله بعضهم إلهًا وبعضهم رسولا ، مع ما ينحلونه من علم الغيب وأنه دوَّن كل ما يحتاج إليه من هذا العلم فى جلد يسمونه جَفْراً ، يقول فى تضاعيف قصيدته[3] :

ألم تَر أن الرَّافضين تفرَّقوا فكلُّهمُ فى جعفرٍ قال مُنْكَرَا
فطائفةٌ قالوا إلهٌ ومنهمُ طوائف سمَّتْه النبيَّ المطهَّرا
فإن كان يرضى ما يقولون جَعْفَرٌ فإنى إلى ربِّى أُفارقُ جَعْفَرا

(١) مقاتل الطالبيين (نشر عيسى الحلبى) ص٤٧٦ والعمدة لابن رشيق ١/٤٥ .

(٢) انظر مقاتل الطالبيين ص ٣٣١ وما بعدها وص ٣٥٩ وما بعدها .

(٣) عيون الأخبار ٢/١٤٥ .

ومن عجبٍ لم أقْضِهِ جِلْدُ جَفْرِهِم بَرِئْتُ إلى الرحمن ممن تجفّرَا

وكانت البصرة بيئة هذه النحلة ، ولعل ذلك ما جعل بعض المعتزلة يعتنقها ، من مثل بشر بن المعتمر ، وربما كان أكبر دليل على زيديته أننا نراه يهاجم غالية الإمامية على نحو ما هاجمهم هرون بن سعد العجلى[1]. ومن شعراء الزيدية غالب ابن عثمان الهمدانى ، وله مراث فى النفس الزكية وأخيه إبراهيم تقطر أسى وحزناً عميقاً[2] . وثار ، كما مر بنا فى الفصل الأول ، لعهد الهادى الحسين بن على الحسنى فى مكة ونازله جيش عباسى فى « فخ » فقُتل هو وكثيرون من أهله وتُركوا فى العراء للسباع والعقبان ، مما جعل الشعراء من الزيدية يندبونهم آحرّ ندب وأشجاه[3] . ويتحول نشاط هذه النحلة إلى خراسان والطالقان[4] ، ويتكاثر الثائرون والمقتولون من أئمتها فى تلك البلاد النائية . ومن أهم ثورات الزيدية ثورة[5] ابن طباطبا بالكوفة لأول خلافة المأمون ، ويقضى عليها قضاء مبرماً وطبيعى أن يكثر شعراء الزيدية من رثاء المقتولين فى هذه الثورات والتفجع عليهم ، مما نقرؤه فى كتاب مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصبهانى مفصلا أوسع تفصيل .

ولم يكن الإمامية بفرقهم المختلفة يشهرون السيوف فى وجوه بنى العباس ، فقد جعلوا جميعاً التقية مبدأ أساسياً فى نحلهم المختلفة ، واتخذوا الدعوة السرية وسيلتهم فى جمع الناس من حولهم بالكوفة ، واجتمع حولهم فعلا خلق كثير يبطنون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يعلنون ، وكأنهم كانوا يؤمنون جميعاً بأن الثورة على العباسيين لم يحن موعدها . وقد تفرقوا شيعاً كثيرة ، ومرّ بنا فى الفصل السابق أن لعدان الأعمى قصيدة صنف فيها طوائف الإمامية الرافضة والغالية وطوائف الزيدية وعقائدهم جميعاً ، مقدماً عليها نحلة فرقته الشُّمَيْطية الغالية ، ونراه يلوم زيد بن على زين العابدين لعدم أخذه بمبدأ التقية ، إذ سنّ لأصحابه من بعده إعلان ثورتهم وامتشاقهم للحسام فى وجه الحكام مما جعل الخلفاء العباسيين يوالون فيهم قتلهم

(١) الحيوان ٦/٣٨٤ .

(٢) مقاتل الطالبيين ص ٣٠٤ ، ٣٨٤ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ص ٤٥٨ وما بعدها .

(٤) الملل والنحل للشهرستانى (طبع لندن) ص ١١٧ .

(٥) انظر فى هذه الثورة وأنها زيدية مقاتل الطالبيين ص ٥١٨ وما بعدها .

وسفك دمائهم ، يقول فى قصيدته[1] :

سَنَّ ظُلْمَ الإمام فى القوم زَيْدٌ   إن ظُلْمَ الإمام ذو عُقَّالِ[2]

والمهم أن مبدأ التقية أتاح لكثيرين من شعراء الإمامية أن لا يجاهروا الناس فضلا عن الخلفاء بحقيقة نحلهم ، وقد مضى كثير منهم يعلنون موالاتهم لبنى العباس ، مادحين لهم ، بل إن منهم مَنْ سخَّر شعره للدفاع عن حقهم فى الخلافة مبالغة فى السِّتر والتقية على نحو ما سنرى عند منصور النمرى . وربما كان الشاعر الإمامىُّ الوحيد الذى جاهر بنحلته دعبلا ، إن صح أنه كان متشيعًا حقًّا فضلا عن إماميته . ومن شعرائهم القاسم بن يوسف أخو أحمد بن يوسف ، وقد مرَّ بنا فى الفصل السابق أنه سخَّر كثيراً من شعره فى رثاء الحيوان والطير ، وقد عمل فى خلافة المأمون فكانت إليه جباية السواد ، ونرى الصولى يروى له فى كتاب الأوراق أشعاراً شيعية مختلفة فى مديح بنى هاشم وبيان فضائل على بن أبى طالب وفى رثاء الحسين وندبه ندبا حارًّا ، ملوحا بيده فى وجه أبى بكر وعمر وفى وجوه خصوم الإمامية ، مشيراً إلى مهديِّهم الذى سيأخذ بثأرهم ، يقول[3] :

إنى لأرجو أن تنالهمُ   منى يَدٌ تشفى جَوَى الصَّدْر
بالقائم المهدىِّ إن عاجلا   أو آجلا إن مُدَّ فى عُمْرى

ومثله محمد بن وهيب كان يفد على وزراء بنى العباس وخلفائهم ، وهو غال فى تشيعه وإماميته ، ويروى الرواة ، أنه تردَّد على مجالس تُذْكَرُ فيها فضائل أبى بكر وعمر وعثمان ، ولا يُذْكَرُ فيها شىء من فضائل على ، فتولَّى حنقا ، وهو يقول[4] :

أغدو إلى عُصْبَةٍ صُمَّتْ مسامعهم   عن الهُدَى بين زنديقٍ ومأفونِ
لا يذكرون عليًّا فى مشاهدهم   ولا بنيهِ بنى البِيض الميامينِ
لو يستطيعون من ذكرى أبا حَسَنٍ   وفضله قطَّعونى بالسَّكاكينِ

(١) مقاتل الطالبيين ص ٤١٩ والبيان والتبيين ٣/٣٥٧ .
(٢) عقال : من العقل وهو مغرم الجناية .
(٣) كتاب الأوراق للصولى (أخبار الشعراء) ص ١٨٢ .
(٤) أغانى (طبعة الساسى) ١٧/ ١٤٦ .

ولستُ أترك تفضيلى له أبدًا   حتّى الممات على رَغْم الملاعينِ

وكثر فى هذا العصر بين شعراء الشيعة الحديث عن على بن أبى طالب وفضائله ، ومرّ بنا فى الفصل الرابع أن لبشر بن المعتمر مزدوجة صوّر فيها منزلته وكيف أنه يرتفع فوق خصومه من الخوارج درجات . وينبغى أن نشير هنا إلى ما كان من محاولة المأمون عقد البيعة من بعده لعلى الرضا الإمام السابع عند الشيعة الإثنى عشرية ، وأن أسرته ثارت عليه فى بغداد ، وأن عليًّا الرضا توفّى سريعاً ، فانصرف عن فكرته ، وقد ظل يوالى العلويين على الرغم من قيامهم ببعض ثورات فى خلافته ، إذ نراه — كما أسلفنا فى غير هذا الموضع — يكتب إلى الآفاق فى سنة ٢١١ للهجرة بتفضيل على بن أبى طالب على جميع الصحابة ، مما جعل شعراء الشيعة يطمئنون إليه ، ونفذ بعض الشعراء من غيرهم مثل أبى تمام إلى النظم فى فضائل على إرضاء للدولة . وأيضًا ينبغى أن نشير هنا إلى كثرة الانقسامات بين الشيعة وما جرّ إليه ذلك من أشعار انتصر فيها الشعراء لما اعتنقوه من بعض المذاهب الشيعية وفى كتاب الفرق بين الفرق للبغدادى منثورات مختلفة من تلك الأشعار . وجديرٌ بنا أن نعرض لأبرز شعراء الشيعة فى العصر ، وهم السيد الحميرى ومنصور النَّمَرى ودعبل وديك الجن .

السيد [1] الحميرى

هو إسماعيل بن محمد حفيد يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى الذى ترجمنا له فى الجزء الثانى من هذه السلسلة ، وقد تشككنا هناك فى نسبه من حمير واستظهرنا أنه يرجع إلى أصول إيرانية لما عُرف عنه من إتقانه الفارسية . على أننا نجد السيد

---

(١) انظر فى ترجمة السيد الحميرى وأشعاره وأخباره ابن المعتز ص ٣٢ والأغانى (طبعة دار الكتب) ٧/٢٢٩ وما بعدها والبيان والتبيين ٣/٣٦٠ والحيوان ٥/٣١٧ والفرق بين الفرق البغدادى ص ٣٠ والملل والنحل الشهرستانى (طبعة لندن) ص ١١١ وروضات الجنات ص ٢٨ والنجوم الزاهرة ٢/٢٩ ، ٦٨ ، ٧٤ وفوات الوفيات فى إسماعيل وفرق الشيعة للنوبختى (طبعة ريتر) ص ٢٦ ، ومعرفة أخبار الرجال للكشى ١٨٤ وترجمة جده يزيد بن مفرغ فى الجزء الثانى من هذا الكتاب وحديث الأربعاء لطه حسين ٢/٣٠٥ .

يفتخر بحميريته ، وكانت أمه من الأزد اليمنيين ، ومن ثَمَّ يقول :

إنى امرؤٌ حِمْيَرِىٌّ غيرُ مُؤْتَشِبٍ جَدِّى رُعَيْنٌ وأخوالى ذَوويَزَنِ[1]

وقد وُلد لأبويه فى البصرة سنة ١٠٥ للهجرة ، وكانا من إباضيّة الخوارج ، فنشأ يسمع منهما سبّاً على بن أبى طالب ، بل تكفيره وتكفير بعض الصحابة ، وعبثاً كان يراجعهما . ولم يلبث أن أوغل فى التشيع لعلى وآله ، ويظهر أنه وقع لبعض أصحاب مذهب الكيسانية القائلين بإمامة محمد بن الحنيفية والمعتنقين لنظرية الغيبة والرجعة ، فإذا هو يصبح كيسانياً لحمًا وروحاً ، ولا ندرى هل حدث له ذلك فى البصرة أو حدث فى الكوفة فقد أقام بها ردحًا من الزمن . وأيًّا كان فقد اعتنق المذهب مبكراً وأصبح شيعة لأصحابه منذ أواخر عصر بنى أمية ، حتى إذا أظلّه العصر العباسى تمشت فى نفسه الفرحة لانتصار الهاشميين وتقويض حكم الأمويين ، وأخذ يستبشر بقيام الدولة العباسية ، وكأنه رأى فيها انتصاراً لمذهبه الشيعى ، إذ كان أبو هاشم بن محمد بن الحنفية قد أوصى من بعده ، كما مرَّ بنا ، لمحمد بن على العباسى ، وأوصى محمد للسفاح ومن ثَمَّ كانت إمامته وخلافته هو ومن تلاه من العباسيين صحيحة فى نظر الكيسانية أو على الأقل جمهورهم الذى كان يتبع فرقة أبى هاشم . وطبيعى لذلك أن نجد السيد الحميرى الكيسانى يهلل لانتصار العباسيين حتى ليبادر أبا العباس السفاح حين خطب فى الكوفة خطبته المشهورة التى أخذ على إثرها البيعة من الناس قائلا :

دونكموهــا يا بنى هاشمٍ فجدِّدوا من عهدها الدَّارِسَا

قد ساسها قبلكمُ ساسةٌ لم يتركوا رَطْباً ولا يابِسَا

ولستُ من أن تملكوها إلى مَهْبِطِ عيسى فيكمُ آيِسَا

وواضح أنه يهنئه بالخلافة لامزاً الأمويين الذين ملأوا الأرض ظلمًا وجوراً ، ويقول إنها لن تزال فيهم إلى هبوط عيسى بأخرة من الدنيا ، فهو لا يفكر فى زوالها عنهم ، بل هو يراها لهم خالصة حتى تفنى الأرض ومن عليها ، وتوفّى السفاح

---

(١) المؤتشب : غير الصريح فى نسبه . وذورعين : من ملوك اليمن ، وذوو يزن : أبناء ذى يزن أحد أمراء اليمن الأقدمين .

وخلفه المنصور ، فأغدق عليه من صلاته السَّنية وأغدق عليه السيد الحميرى من مدحه بمثل قوله :

إن الإله الذى لاشىء يشبهه ... أعطاكم الملكَ للدُّنيا وللدِّينِ

أعطاكُم الله ملكاً لا زوال له ... حتى يقادَ إليكم صاحبُ الصين

وصاحبُ الهند مأخوذاً برُمّتِهِ ... وصاحب التُّرْك محبوساً على هُونِ

ومدح من بعده ابنه المهدى وظن طه حسين أن السيد الحميرى كان فى هذا المدح منافقاً ، فهو لا يستحلُّ أن يظهر غير ما يضمر وأن يمدح بنى العباس بلسانه ويلعنهم فى قلبه ، فيظفر بمالهم ويتقى شرهم ، كان يستحلُّ ذلك كما كانت تستحلُّه عامة الشيعة الذين كانوا يقولون بمذهب التقية[1] . ولا تقية ولا نفاق ، وإنما شاعر كيسانى يمدح أوصياء عقيدته الكيسانية الذين أدالوا من بنى أمية وسلطانهم الجائر ، وهو بعد ذلك مخلص فى كيسانيته إخلاصًا بعيداً حتى ليؤمن بأن محمد ابن الحنفية حَىٌّ وأنه راجع يومًا يقول :

حتى متى ؟ وإلى متى ؟ ومتى المدى؟ ... يا بن الوصىِّ وأنت حَىٌّ تُرْزَقُ

ويُرْوَى أن شيطان الطاق محمد بن على بن النعمان أحد متكلمى مذهب الشيعة الإمامية ناظره يوماً فى عقيدته الكيسانية يريد أن يجذبه إلى عقيدته ، وغلبه فى مناظرته ، غير أن السيد لم يلبث أن أنشأ قصيدة أدارها على أبيات كثيِّر سلفه الكيسانى فى العصر الأموى التى تجرى على هذا النمط :

ألا إن الأئمةَ من قريشٍ ... ولاةَ الحقِّ أربعةٌ سواءُ

علىٌّ والثلاثةُ من بنيه ... همُ أسباطه والأوصياء

فسِبْطٌ سِبْطُ إيمانٍ وحلم ... وسبطٌ غيَّبَتْه كَرْبَلاءُ

وسبْطٌ لا يذوق الموت حتى ... يقودَ الخيلَ يَقْدُمها اللِّواء

والسبط الأول الحسن والثانى الحسين المقتول بكربلاء. والثالث إمامه محمد بن الحنفية ، وكثيِّر يقول إنه لا يزال حَيًّا لم يذق الموت وأنه سيعود فى جيش لَجِبٍ

---

(١) حديث الأربعاء ٢/٣٠٧ .

وكان السيد الحميرى فى القرن الثانى لا يزال يؤمن مثله برجعته . وزعم بعض الرواة أنه رجع بأخرة من حياته عن كيسانيته واعتنق مذهب الإمامية أصحاب جعفر الصادق ، وأجروا على لسانه :

تجعفرتُ باسم اللهِ واللهُ أكبرُ وأيقنتُ أن الله يعفو ويغفرُ

غير أن أبا الفرج ردّ ذلك قائلا هو ورواته إنه ظل على كيسانيته حتى الأنفاس الأخيرة من حياته . ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه كان أكثر شعراء القرن الثانى تمجيداً لعلى وبنيه ، فقد أنفق حياته فى نظم أخبارهم ومناقبهم ، ويقول ابن المعتز إنه لم يترك فضيلة معروفة لعلى بن أبى طالب إلا نقلها إلى الشعر ، وقد كرّر طويلا ما تدّعيه الشيعة من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى له بالخلافة من بعده عند غَدير خُمّ بين مكة والمدينة ، وفيه يقول :

أقسم بالله وآلائـه والمـرءُ عما قال مسئولُ

إن على بن أبى طالبٍ على التُّقَى والبرِّ مَجْبُولُ

ولعل أطول قصائده الشيعية قصيدته التى تسمى المذهبة ، وقد عُنى بها الشيعة وشرحوها مراراً ، وهو يستهلها بذكر الأمويين ومسير عائشة رضى الله عنها إلى البصرة مع طلحة والزبير ، يقول :

أين التطرُّف بالولاء وبالهوى أ إلى الكواذب من بروق الخُلَّبِ

أإلى أمية أم إلى الشِّيع التى جاءت على الجمل الخِدَبِّ الشَّوْقَبِ[1]

تَهْوِى من البلد الحرام فنبّهت بعد الهدوّ كلاب أهل الحَوْأَبِ

وهو يشير إلى أن كلاباً نبحت أم المؤمنين عند بئر الحوأب ، وكان يفرط فى سبّها وسب طلحة والزبير وأبى بكر الصديق وعمر وكثير من الصحابة لا يرعوى ولا يزدجر ، وكان يستطيع أن يسجّل لعلى ما شاء من فضائله ، دون أن يزج بنفسه فى هذه المضايق الوعرة غير مراع لجلة الصحابة وأمهات المؤمنين أى حرمة ، ولبئس ما قال فى عائشة وصاحبيها :

---

(١) الخدب : البعير الضخم . الشوقب : الطويل .

جاءتْ مع الأَشْقَيْن فى هودجٍ تُزْجى إلى البصرة أَجْنادها
كأَنها فى فعلها هِرَّةٌ . تريد أن تأْكل أَولادها

ويروى أن المهدى جلس يومًا يعطى قريشاً صلاتها وهو ولى عهد ، فبدأ ببنى هاشم ثم سائر قريش ، ولم يلبث السيد أن وفد عليه بقصيدة يذم فيها عشيرتى عمر وأبى بكر الصديق وينهاه أن يعطى أحداً منهما صلته ، ولباه المهدى. وقد روى أبو الفرج قطعة منها ، وقال إنه حذف باقيها لقبح ما جاء فيها من السبّ والشتم .

ولعل فى ذلك ما يدلُّ على أن السيد الحميرى كان غالياً فى تشيعه غلوًّا قبيحاً ، ولو أنه لم يشب مديحه لعلى وبنيه بهذا السبِّ المنكر لتداول شعره الرواة ، إذ كان شاعراً بارعًا ، ومن مستحسن شعره فيهم قوله ناظماً ما رُوِى من أن الحسن والحسين أتيا الرسول فوجداه ساجداً فركبا على ظهره ، فقال عمر : نعم المطىُّ مطيكما :

أتى حسنًا والحسينَ الرسولُ وقد برزا ضَحْوةً يلعبانِ
فضمَّهما ثم فدَّاهما وكانا لديه بذاك المكانِ
وراحا وتحتهما عاتقاه فنعم المطيَّة والراكبانِ

وكان يكثر من رثاء الحسين رثاء يستنزف الدمع ويذيب القلب حسرات ، ويقال إنه استأذن يوما على جعفر الصادق فأذن له وأقعد حُرَمَه خلف سِتْر ، فدخل ، فأنشده قوله :

امْرُرْ على جَـدَثِ الحُسَـ يْنِ فقُلْ لأَعْظُمه الزَّكِيَّهْ
آ أعظمًا لا زلتِ من وَطْفاء ساكبةٍ رَوِيَّهْ[1]
وإذا مررتَ بقبرِهِ فأَطِلْ به وقْفَ المَطِيَّهْ
وابكِ المطهَّر للمطهَّـ ـرِ والمطهَّرة النَّقِيَّهْ

---

(١) الوطفاء : السحابة المحملة بالأمطار الغريزة .

كبُكاءِ مُعْوِلةٍ أتَتْ يومـاً لواحدها المنيَّه

فسالت دموع جعفر على خديه مدراراً وارتفع النشيج والصراخ فى داره فأمره بالإمساك فأمسك .

وللسيد وراء تشيعه ومدائحه للعباسيين مدائح فى بعض ولاة البصرة والأهواز ، وله أهاج فى المرجئة وفى عبد الله بن سوار قاضي البصرة الذى ردّ شهادته لقذفه فى الصحابة ، وقد شكاه للمنصور فانتصف له منه . ويقال إنه كان يعكف على الخمر ، وليس له فيها أشعار مذكورة . وفى الحق أنه عاش للتشيع ينفق فيه أيامه وقصيده ، وكان يعرف كيف يوازن بين جزالته وعذوبته ، مع الرونق والحلاوة ، ولعل ذلك ما جعله يتحامى فيه الغريب واللفظ الآبد ، حتى يلذّ الأسماع والأفئدة وحتّى يسير على الشفاه والألسنة . وما زال هذا دأبه حتّى توفى سنة ١٧٣ للهجرة .

منصور[١] النَّمَرِى

هو منصور بن الزبرقان بن سلمة[٢] من قبيلة النَّمِـر بن قاسط من أهل الجزيرة وهو تلميذ العتابى المتكلم وراويته وعنه أخذ ومن بحره استقى وتشبّه كما يقول أبو الفرج ، ويُقال إنه وَصَفه للفضل بن يحيى بن خالد البرمكى ونوّه به وقرّظه ، فاستقدمه من الجزيرة ، فأنشده بعض مدائحه فيه ، وحَظِىَ عنده ، ولم يلبث أن وصله بالرشيد ، ووقع من نفسه خير موقع ، إذ مضى يمدحه على طريقة مروان بن أبى حفصة بنَفْى الإمامة عن أبناء على بن أبى طالب وبيان أنها حق خالص للعباسيين ، وأنهم لا يزالون يطوّقون رقابهم بالمنن ، وهم يجحدونها ، فيثورون ، وكثيراً ما يتلقون ثوراتهم بالعفو عنهم على نحو ما صنع الرشيد بيحيى بن عبد الله ، فإنه اكتفى بسجنه ، ولم يقتله ، وفى ذلك يقول :

بنى حَسَنٍ وقُلْ لبنى حُسَيْنٍ عليكم بالسداد من الأمورِ

---

(١) انظر فى أخبار النمرى وأشعاره ابن المعتز ص ٢٤٢ وابن قتيبة ٨٣٥ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ / ١٤٠ وتاريخ بغداد ١٣ / ٦٥ والبداية والنهاية لابن كثير ١٠ / ٢١٢ وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ٢ / ٢٧٤ وما بعدها وزهر الآداب ٣ / ٦٨ .

(٢) فى بعض المصادر منصور بن سلمة بن الزبرقان .

أميطوا عنكمُ كذبَ الأمانى وأحلامًا يَعِدْنَ عِداتِ زُورِ
مننتَ على ابن عبد الله يحيى وكان من الحتوفِ على شَفيرِ
يَدٌ لك فى رقاب بنى علىٍّ ومَنٌّ ليس بالمَنِّ الصغير
وإنك حين تُبْلغهم أذاةً - وإن ظلموا - لمحزونُ الضمير
فإن شكروا فقد أنعمتَ فيهم وإلا فالنَّدامة للكفُــورِ
وإن قالوا بنو بنتٍ فحقٌّ وردُّوا ما يناسبُ للذكور
وما لبنى بناتٍ من تُراثٍ مع الأعمام فى ورق الزَّبور

ويقال إنه استخفَّ الرشيد حين أنشده هذه القصيدة ، فإذا هو يأمر الفضل ابن الربيع أن يدخله بيت المال ويدعه يأخذ ما يشاء ، فأخذ سبعاً وعشرين بَدْرَة . ومن روائع قصائده فيه قصيدته العينية ، ويقول ابن المعتز إنه أقام القيامة بحديثه فى مطلعها عن الشباب إذ يقول :

ما تنقضى حسرةٌ منى ولا جَزَعُ إذا ذكرتُ شباباً ليس يُرْتَجَعُ
بان الشبابُ وفاتتنى بلذَّتِهِ صروفُ دَهْرٍ وأيامٍ لها خُدَعُ
ما كنت أُوفى شبابى كُنْهَ غِرَّتِهِ حتّى انقضى فإذا الدنيا له تَبَعُ
إن كنتِ لم تطعمى ثُكْلَ الشباب ولم تَشجَىْ بغصته فالعذر لا يقع

ويُقال إن الرشيد حين سمع منه هذا المطلع قال له : أحسنت والله ، لا يتهنَّأ أحد بعيش حتّى يخطر فى رداء الشباب ، وخرج إلى المديح ملوحا فى وجه العلويين بمثل قوله :

يا ابن الأئمة من بعد النبىِّ ويا ابْـ نَ الأوصياء أقرَّ الناسُ أو دفعوا
وما لآل علىٍّ فى إمارتكم حَقٌّ وما لهمُ فى إرثكم طَمَعُ
العمُّ أولى من ابن العمِّ فاستمعوا قولَ النَّصيح فإن الحقَّ يُسْتَمَعُ

وهو يشير إلى أن العباس عمَّ الرسول صلى الله عليه وسلم يحجب على بن أبى طالب ابن أخيه كما تقضى بذلك فريضة الإرث فى الإسلام . وكان لا يزال يحيط

هرون بهالة من القدسية حتى ليرفعه على آل الرسول جميعاً ، وحتى ليجعل من يشتمل عليه سخطه لا ينتفع بدينه ولا بصلواته ، يقول فى القصيدة السالفة :

أىّ امرىء بات من هرون فى سَخَطٍ فليس بالصلوات الخمس ينتفعُ

ويقول فى قصيدة ثانية :

يا خير ماضٍ وخير باقٍ بعد النبيين فى الأنامِ

ومن قصيدة له ثالثة :

آلُ الرسول خيارُ الناس كلّهمِ وخيرُ آلِ رسولِ الله هرونُ

ولم يكن منصور فى كل هذه الأشعار مخلصاً ، بل كان يظهر غير ما يضمر ، إذ كان شيعياً إمامياً ، وكأنه كان يتخذ تلك الأشعار متجراً ، ليعيش آمناً ، ولينال ما يريد من طيبات الحياة ومتاعها معتمداً على ما يؤمن به الإمامية من التقية . وقد زعم المرتضى فى أماليه أنه « كان ينافق الرشيد ويذكر هرون فى شعره ويُريه أنه من وجوه شيعته وباطنُه ومرادُه بذلك أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام لقول النبى ، صلى الله عليه وآله ، له : أنت منى بمنزلة هرون من موسى » وتراه يكثر من مدح آل الرسول والتنديد بالأمويين والعباسيين ، ومن خير ما يصور ذلك لاميته وفيها يقول :

شاءٌ من الناس راتعٌ هامِلْ يعلّلون النفوسَ بالباطِلْ[1]

تُقْتَلُ ذريّةُ النبىِّ ويَرْ جون جِنانَ الخلود للقاتلْ

ويلك ياقاتلَ الحسين لقد بُؤْتَ بحمْلٍ يَنُوءُ بالحامل

ما الشكُّ عندى فى كُفْر قاتلهِ لكننى قد أشك فى الخاذلْ

وعاذلٍ أننى أحبُّ بنى أحمد فالتُّرْبُ فى فم العاذل

قد دِنْتُ ما دينكم عليه فما وصلتُ من دينكم إلى طائلْ

دينكمُ جَفْوَةُ النبىِّ وما الـ جافى لآل النبىِّ كالواصل

---

(١) هامل : المتروك ليلا ونهاراً .

وقد مضى فى القصيدة ينكر موقف أبى بكر وعمر من دعوى فاطمة إرث « فدك » زاعماً أنهما ظلماها ، ومطالباً بمن يثأر لها من ظلمتها ، يقول :

مظلومةٌ والنبىُّ والدُها تدير أرجاء مُقْلَةٍ حافلْ
ألَا مَساعيرُ يغضبون لها بسَلَّة البِيض والقَنا الذابل [1]

وكانت قد حدثت جفوة بينه وبين أستاذه العتابى ، فأسخط الرشيد عليه ، غير أنه عاد فعفا عنه وأوسع له فى مجالسه ، وانتهز العتابى منه يوماً فرصة ، فذكر له حقيقة النمرى وأنه شيعى غال فى تشيعه ، وأنشده اللامية الآنفة وأشعاراً أخرى من مثل قوله :

آلُ الرسول ومن يحبُّهُمُ يتطامنون مخافة القَتْلِ
أمِنَ النصارى واليهودُ وهم من أمَّةِ التوحيد فى أَزْلِ [2]

فاستشاط الرشيد غضباً ، وبعث إلى الرَّقة ، وكان مقيماً بها ، مَنْ يقتله ، غير أن رسوله وجد جنازته تستقبله ، فانكفأ راجعاً إلى الرشيد ، فأعلمه خبره .

وممن ملحهم وأشاد بهم يزيد بن مَزْيد الشيبانى ، وكان من مُدَّاح الفضل ابن يحيى البرمكى كما مرَّ بنا ، وقد بكاه حين نكبه الرشيد هو وأباه وأخاه جعفراً لسنة ١٨٧ ، وفى ذلك ما يدل على أن وفاته كانت بعد نكبتهم . وواضح مما أنشدناه من أشعاره أنه كان يعنى عناية شديدة بانتخاب ألفاظه وانتقاء معانيه ، وكان ما يزال يجهد فكره وخياله حتى يأتى بالطرائف النادرة من مثل قوله :

ولقد تبيت أناملى يَجْنين رُمَّـانَ النُّحُورْ

ومن المحقق أنه لم يكن يتعلق بلهو ولا مجون ولا خمر شأن كثير من معاصريه ، وأنه كان يكتفى من ملاهى عصره بالسماع إلى الغناء واجداً فيه ما يبتغى من لذة ومتاع .

---

(١) مساعير : جمع مسعار ، وهو موقد الحرب . البيض : السيوف . الذابل : الرقيق الحاد .

(٢) أزل : ضيق وشدة .

دعبل [١]

هو دعبل بن على بن رَزين ، وقيل دعبل لقبه ، واختلفوا فى اسمه هل هو محمد أو الحسن أو عبد الرحمن ، وهو من خزاعة صليبة لاولاءً [٢] ، ومن بيت شعر ، فقد كان أبوه شاعراً متوسطًا ، وكذلك عمه عبد الله وأخواه على ورزين وولداه الحسين وعلى وابن عمه محمد بن عبد الله المشهور باسم أبى الشيص . وقد وُلد دعبل بالكوفة سنة ١٤٨ للهجرة ويظهر أنه اختلف مبكرًا إلى حلقات الدرس . على أننا نجده فى شبابه يصحب الشُّطّار ويشترك معهم فى مغامراتهم ، مما يؤكد أنه كان فيه نزعة متأصلة إلى الشر وارتكاب الجنايات ، وقد دفعته فيما بعد إلى أن يصبح أكبر هجاء فى عصره ، وأن يعمّ بهجائه الخلفاء وكل من قدّموا له صنيعاً . ويظهر أن مواهبه الشعرية تفتحت مبكرة ، فمضى يختلط بالشعراء ، وانعقدت بينه وبين مواطنه مسلم بن الوليد مودة كان لها أثر عميق فى شعره إذ عنى فيه على شاكلة مسلم بالبديع وبالجزالة ونصاعة القول ، ويرمز الرواة لذلك بأن مسلماً صنع قوله :

مستعبرٌ يبكى على دِمْنَةٍ   ورأسُه يضحك فيه المشِيب

فما زال دعبل يدير البيت فى نفسه ، محاولا أن يبنى على معناه قطعة فى الغزل حتى صنع قطعته التى فتحت له باب الشهرة على مصاريعه ، إذ قال فى بكاء الشباب ووقوعه فى شباك الهوى :

أينَ الشبابُ ؟ وأيَّةً سَلكا ؟   لا ، أين يُطْلَبُ ؟ ضَلَّ بل هلكا

---

(١) انظر فى دعبل وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٦٤ وابن قتيبة ص٨٢٥ والأغانى (طبعة الساسى) ٢٩/١٨ وتاريخ بغداد ٣٨٢/٨ والموشح ص ٢٩٩ وابن خلكان ١٧٨/١ ومعجم الأدباء ٩٩/١١ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٢٢٧/٥ وشذرات الذهب ١١١/٢ ومعرفة أخبار الرجال للكشى ٣١٣ وأخبار الرجال للنجاشى ١١٦ ومرآة الجنان لليافعى ١٤٥/٢ ولسان الميزان ٤٣٠/٢ والنجوم الزاهرة ٣٢٢/٢ . وجمع شعره ونشره كل من محمد يوسف نجم ببيروت وعبد الصاحب الدجيلى فى النجف بالعراق وعبد الكريم الأشتر فى دمشق .

(٢) من زعموا أنه خزاعى ولاء عبد الله بن طاهر (انظر ترجمته فى الأغانى) . وراجع ابن خلكان ولسان الميزان وابن كثير فى البداية والنهاية ٣٤٨/١٠ .

لا تعجبي يا سَلْمَ من رَجُل ضحك المشيبُ برأسه فبكى
ياليت شعرى كيف نَوْمكما يا صاحبيَّ إذا دمى سُفِكا
لا تأْخذا بظُلامتى أحدًا قلبى وطرفى فى دمى اشتَرَكا

وغنى بالأبيات بعض المغنين بين يدى الرشيد ، فطرب ، وسأل عن ناظمها ، فقيل له دعبل ، فأمر بإحضاره وأرسل إليه بعشرة آلاف درهم وخلعة من الثياب ، وسار دعبل إليه ، وأنشده بعض شعره فاستحسنه وأجرى عليه رزقاً سنيًّا ، ولم يلبث أن ارتحل إلى خراسان وواليها العباس بن جعفر الخزاعى (١٧٣ — ١٧٥ هـ) فأكرمه وولاه على سِمِنْجان إحدى بلاد طَبَرِسْتان. وعاد إلى بغداد ونزل الكرخ حيث اللهو والقصف ، منشداً مثل قوله :

إنما العيشُ خلالٌ خمسةٌ حَبَّذا تلك خلالا حبَّذا
خدمةُ الضيف وكأْسٌ لَذَّةٌ ونديمٌ وفتاةٌ وغِنـا

وتُؤْثَرُ له فى الخمر بعض الأشعار ، وله بجانبها غزليات قليلة ، وهو يُعْنَى فيها ببعض فنون البديع على شاكلة قوله مطابقًا :

دموعُ عينى لها انبساطٌ ونومُ عينى به انقباضُ

وليس فى ديوانه مديح للرشيد ولا للبرامكة مما يدل على أنه ظل بعيداً عن القصر وأهله ووزرائه ، وحقًّا تُرْوَى له بعض أبيات فى البرامكة حين نكبهم الرشيد ، ولكنها لا تدخل فى باب الرثاء إنما تدخل فى باب العظة والاعتبار . وقد ظل لا يلم بالقصر فى عصر الأمين ، ونراه يخرج إلى الحج فى سنة ١٩٨ للهجرة ، ولا يعود إلى بغداد ، بل يرتحل إلى مصر وواليها المطلب بن عبد الله الخزاعى (١٩٨ — ٢٠٠ هـ) وفيه يقول :

زمنى بمُطَّلِبٍ سُقيتَ زماناً ما كنت إلا روضة وجنانا
كلُّ النَّدَى إلا نداك تكلُّفٌ لم أرض غيرك كائناً من كانا
أَصْلَحْتَنى بالبِرِّ بل أفسدتنى وتركتنى أتسخَّط الإحسانا

ولم يكتف المطلب بما أغدق عليه من البِـر والنوال ، فقد ولاَّه على أسوان ،

وسرعان ما شعر فى هذا البلد البعيد عن بغداد بوحشة شديدة، وعبث حنينه إليها بقلبه ، فإذا هو ينظم أبياته المشهورة فى الحنين إلى الوطن وقد أنشدناها فى الفصل الرابع .

ولم تلبث الأمور أن فسدت بينه وبين المطلب ، فإذا هو يهجوه هجاء مقذعاً ، كافراً يده عنده ، وكان قد ولى الموصل قبل ولايته على مصر ، فقال فى بعض هجائه له :

تعلَّق مصرُ بك المخزياتِ وتبصق فى وجهك المَوْصِلُ

وأخذ يكثر من هجائه ، مولياً وجهه نحو بغداد ، وتبعه المطلب معزولا عن مصر ، وتَلَطَّف له فكفَّ لسانه عنه .

وأتاه نبأ عهد المأمون لعلى الرضا بالخلافة من بعده لسنة ٢٠١ وكان المأمون لا يزال بخراسان فارتحل إليهما ولم يكد يمثل بين أيديهما حتى أنشد تائيته المشهورة.

مدارسُ آياتٍ خلتْ من تلاوةٍ ومنزلُ وَحْيٍ مقفرُ العرصاتِ

وقد صور فيها ما نزل بالعلويين من كوارث فى « كربلاء » و « فخ » نائحاً على قتلاهم وخاصة الحسين نواحاً مؤثراً ويفيض فى حرمانهم من الاستمتاع بحقهم فى الخلافة آملا فى خروج مهديهم المنتظر الذى يملأ الأرض عدلا بعد أن مُلئت ظلماً وجَوْراً ، وفيها يقول :

ملامَك فى آلِ النبىِّ فإنهم أحِبَّاىَ ما عاشوا وأهلُ ثقاتى
فيارب زدنى من يقينى بصيرةً وزِدْ حُبَّهم يارب فى حسناتى
ألم تر أنى من ثلاثين حِجَّةً أروح وأغدو دائمَ الحسرات
أرى فَيْئَهُمْ فى غيرهم متقَسَّماً وأيديَهم من فَيْئهم صَفِراتِ[1]
ولولا الذى أرجوه فى اليوم أو غدٍ تقطَّع قلبى إثرهم حَسَراتِ
خروجُ إمامٍ لا محالةَ خارجٌ يقوم على اسم الله والبركاتِ

---

(١) الفىء : الخراج وغنائم الحرب ، يريد أن العلويين سلبوا حقهم فى سياسة الدولة والقيام على شئون المال . صفرات : خالية .

يميِّز فينا كلَّ حَقٍّ وباطلٍ ويَجْزِى على النُّعْماء والنَّقِماتِ

وأعجب بالقصيدة المأمون وعلى الرضا ، فأعطاه أولهما عشرة آلاف درهم من دراهم كان قد ضربها باسم الرضا ، أما الرضا فخلع عليه حُلَّة من ثيابه ، ويقال إن أهل مدينة « قُم » الشيعية اشتروا منه الحلة بثلاثين ألف درهم ، كما اشتروا الدراهم المضروبة باسم الرضا ، كل درهم بعشرة . ويقول ابن المعتز إن أهل هذه المدينة قسّطوا له كل سنة خمسين ألف درهم . وتطورت الظروف سريعاً فتوفى على الرضا بطوس سنة ٢٠٣ وهو فى طريقه مع المأمون إلى بغداد ، ودفن بها ، بجانب قبر هرون الرشيد ، ولم يكد النعى يبلغ دعبلا ، حتى قال :

قبران فى طوسَ خير الناس كلِّهمِ وقبرُ شرِّهمِ هذا من العِبَرِ

ما ينفع الرِّجْس من قُرْب الزكىِّ ولا على الزَّكِىِّ بقرب الرِّجْس من ضرر

ولم يكن الرشيد رجساً كما يقول ، فقد كان طهراً ، إذ كان يحج سنة ويغزو سنة على نحو ما هو معروف فى تاريخه ، وقد أنزل بالروم هزائم ساحقة ، وليس ذلك فحسب ، فإن له يداً على دعبل إذ استقدمه من موطنه وفرض له راتباً سنيًّا كما مرَّ بنا ، ولكن كأنما ينطوى دعبل على جحود غريب ، حتى ليطعن كل من قدم له صنيعاً . وله شعر شيعى كثير ، وقد أكثر فيه من الحديث عن فضائل على بن أبى طالب ، كما أكثر فيه من بكاء الحسين ورثائه بمثل قوله :

رأْسُ ابن بنتِ محمدٍ ووصيِّه ياللرِّجال على قناةٍ يُرْفَعُ

والمسلمون بمنظرٍ وبمَسْمَعٍ لا جازعٌ من ذا ولا متخشِّع

وهو يبدو فى شعره الشيعى إماميًّا وقد تشكك أبو العلاء فى تشيعه ، فقال إنه لم يكن صادقاً فيه وإنه إنما كان يريد التكسب به[1] ، ولعله محق فى تشككه ، لأن مثل دعبل المنطوى على كره الناس لا يمكن أن يخلص لآل البيت ، إلا أن يكون وراء ذلك باعث يدفعه لأن يقول ما لا يعتقده ، وكأن أموال «قم» هى التى دفعته لما كان ينظم من أشعار شيعية ، كما دفعته إلى هجاء الرشيد وغيره من الخلفاء ،

---

(١) رسالة الغفران (طبعة أمين هندية) ص ١٣٤ .

ويقال إن المأمون كان إذا سمع هجاءه فيه أو فى بعض وزرائه ضحك ، وكان ذلك يدفعه إلى التمادى حتى ليقول له مهدداً وكأنه يهدده بلسان أهل قم :

إنى من القوم الذين سيوفهم قتلتْ أخاك وشرّفتْك بمقعدِ

وهو يشير إلى أن طاهر بن الحسين قائد المأمون وقاتل أخيه الأمين من موالى قبيلته خزاعة . على أن هذا الولاء لطاهر لم ينفعه عنده ، فقد رماه بسهم لاذع من سهام هجائه التى كان ما ينى يرسلها على جميع من حوله ، وكان طاهر أعور ، ويلقب بذى اليمينين ، فقال :

وذى يمينين وعَيْنٍ واحــدهْ نقصان عينٍ ويمين زائده

وولّى وجهه نحو صديقه القديم مسلم بن الوليد ، وكان الحسن بن سهل ولاّه بريد جرجان ، فجفاه ولم يلقه ، وأثّر ذلك فى نفس دعبل ، غير أنه لم يعمد إلى هجائه ، خوفاً من لسانه ، وقد مر بنا كيف كان مسلم يقذع فى هجائه وكيف كان يريشه سهاماً مصمية ، وكأنما خشى دعبل معرة هجائه إن هو عرض له بالهجاء ، فعاتبه عتاباً رقيقاً بأبياته المعروفة :

أبا مَخْلَدٍ كُنّا عَقِيدىْ مودَّةٍ هوانا وقلبانا جميعاً معاً معا
غَشَشْتَ الهوَى حتى تداعَتْ أصوله بنا وابتذلتَ الوصل حتى تقطّعا
فلا تَعْذُلَنّى ليس لى فيك مطمعٌ تخرّقتَ حتى لم أجد لك مرقعاً
فهَبْكَ يمينى استأْكلتْ فقطعتُها وجشّمتُ قلبى صبرةً فتشجّعا

ويقال إنه قصد عبد الله بن طاهر فى ولايته لخراسان (٢١٤ — ٢٣٠ هـ) فكان يصله فى الشهر بمائة وخمسين ألف درهم ، ومع ذلك لم يسلم من لسانه . ولعله لم يتعرض للخليفة بالهجاء كما تعرض للمعتصم ، فقد صَبَّ عليه شُواظاً ملتهباً من أهاجيه كقوله :

ملوكُ بنى العباس فى الكُتْب سَبْعَةٌ ولم تأتنا عن ثامنٍ لهمُ الكُتْبُ
كذلك أهلُ الكَهْف فى الكهف سبعةٌ كرامٌ إذا عُدّوا وثامنهم كَلْبُ

وظل يرميه بسهام هجائه حتى توفى ، وخلفه ابنه الواثق ، فأسرع يطلق لسانه فيه ، جامعاً فى هجائه بينه وبين أبيه بمثل قوله :

خليفةٌ مات لم يحزنْ له أحدٌ　　وآخَرٌ قام لم يفرح به أحَدُ

وروى الرواة له فى المتوكل بيتاً مقذعاً واحداً ، وفيه يهجوه باستيلاء مواليه من الجند الأتراك على الحكم حتى أصبح كأنه لعبة فى أيديهم ، بل أصبح لهم عبداً ، يقول :

ولستُ بقائلٍ قذَعاً ولكن　　لأمرٍ مّا تعبَّدك العَبِيدُ

ولم يقف عند هجاء الأفراد ، فقد استعاد هجاء العصبيات القديم ، وكانت قصيدة الكميت الشيعى فى هجاء أصوله القحطانيين تؤذيه فعمد إلى نقضها بقصيدة نونية أودعها مثالب القبائل العدنانية . ولو أنه كان مخلصاً فى تشيعه حقًّا لأعلَى صلة التشيع بينه وبين الكميت على العصبية القبلية ، وخاصة أن الكميت كان قد مات منذ زمن بعيد . وأثار ذلك أبو سعد المخزومى فاندلعت بينهما معركة هجاء عنيفة . والحق أن الهجاء كان طبعاً ركّب فى نفسه حتى لنراه يهجو بجانب كل من أسدى إليه صنيعة زوجته وأخاه رزينا وأهل مدينة «قم» بل الناس جميعاً ، يقول :

ما أكثر الناسَ ، لا ، بل ما أقلَّهمُ　　والله يعلم أنى لم أقل فَنَــدَا

إنى لأفتحُ عينى حين أفتحها　　على كثيرٍ ولكن لا أرى أحدا

وممن هجاهم فأقذع فى هجائه مالك بن طوق التغلبى ممدوح أبى تمام ، ويقال إنه وجد عليه موجدة شديدة جعلته يرسل له من اغتاله فى بعض قرى الأهواز . واختلف الرواة فى سنة وفاته ، فمنهم من جعلها فى عهد المعتصم ومنهم من تأخر بها إلى سنة ٢٤٦ للهجرة . وأكبر الظن أنه لم يتأخر إلى هذا التاريخ وأنه توفى لأوائل عهد المتوكل عقب هدمه لقبور الحسين والعلويين سنة ٢٣٥ .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور شاعريته ، فقد كان شديد العناية بصياغته وكان لا يزال يغوص على المعانى الدقيقة ، ومن حين إلى حين يوشى شعره بزخرف البديع ، وله أبيات كثيرة دارت على الألسنة من مثل قوله :

إن الكرامَ إذا ما أَسْهَلُوا ذكروا   مَنْ كان يألفهم فى المنزل الخشِن

وهو أحد مَنْ برعوا لعصره فى علم الشعر ونقده ، مما جعله يؤلف فى أخبار الشعراء كتاباً نفيساً طالما استقى منه القدماء فى كتاباتهم .

ديك [1] الجن

هو عبد السلام بن رَغْبان ، اشتهر بلقبه ديك الجن ، وهو من سلالة شخص يسمى تميما من أهل مُؤْتَة بالشام أنعم الله عليه بالإسلام على يد مولاه حبيب بن مسلمة الفِهْرى صاحب معاوية . ويقول الجهشيارى إن جَدّ ديك الجن حبيب ابن عبد الله كان يتقلد ديوان العطاء لأبى جعفر المنصور . ووُلد ديك الجن لأبيه بحمص سنة ١٦١ للهجرة ، ويقول أبو الفرج « إنه لم يَبْرَحْ نواحىَ الشام ولا وَفَد إلى العراق ولا إلى غيره منتجعًا بشعره ولا متصدياً لأحد ، وكان يتشيع تشيعًا حسناً ، وله مراث كثيرة فى الحسين بن على منها قصيدته :

يا عَيْنُ لا للغَضا ولا الكُثُبِ   بُكا الرَّزايا سوى بُكا الطَّرَب

وهى مشهورة عند الخاص والعام ويُناح بها ، وله عدة أشعار فى هذا المعنى . ويقول أبو الفرج أيضاً إنه كان يكثر المقام عند أحمد بن على الهاشمى وأخيه جعفر فى سَلَمْيَة (من أعمال حمص) وكان يمدحهما كثيراً ، وقد برّح به الحزن حين توفى أحمد وأبنّه فى قصيدة طويلة معزّيا بها أخاه جعفراً، وقيل بل معزياً له عن زوجته ، وهى تصور غلوه فى التشيع إذ نراه يتمثله وكأنه إمام كبير من أئمة الشيعة ، ومن ثَمّ يخلع عليه بعض صفاتهم القُدْسية فى رأى شيعتهم من مثل قوله :

نحن نعزّيك ومنك الهُدَى   مُسْتَخْرَجٌ والنورُ مُسْتَقْبَلُ

نقول بالعَقْل وأنت الذى   نأوِى إليه وبه نعقِلُ

---

(١) انظر فى ترجمة ديك الجن وأخبار وأشعاره الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٤ / ٥١ ووفيات الأعيان لابن خلكان والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٠٢ وراجع ديوانه نشر أحمد مطلوب وعبدالله الجبورى بدار الثقافة ببيروت ، وانظر أيضاً ديوانه جمع الملوحى والدرويش طبع حمص وما نقلاه فى مقدمته عن كتابى الكشكول العاملى وتزيين الأسواق للأنطاكى .

وأنت علاَّمُ غيوبِ النَّثَا يوماً إذا نَسْأَل أو نُسْأَلُ[١]
نَحن فداءٌ لك من أُمَّةٍ والأَرضُ والآخر والأَوَّلُ

فهو يجعله مصدر الهدى والنور ومعقل العقل وعلام الغيوب ، وكأنه يرى فيه ما يراه الشيعة الغالون فى أئمتهم . ولم يلبث جعفر أن توفى فبكاه بكاء حاراً . وكان يضمُّ إلى هذا التشيع شعوبية شديدة على العرب وعكوفاً على اللذات وشكوكاً فى الدين ، حتى ليبدو أحياناً شاكاً فى البعث والنشور . ولم يبق من شعوبيته إلا آثار قليلة ، كقوله فى شعر له يخاطب به بعض أجواد العرب :

إن كان عُرْفُك مذخوراً لذى نَسَبٍ فَاضْمُمْ يديك فإنى لست بالعربى[٢]
إنى امرؤٌ بازِلٌ فى ذِرْوَتَىْ شَرَفٍ لقيصرٍ ولكسرى مَحْتدى وأَبى[٣]

أما لهوه وعكوفه على الخمر فواضحان فى أشعاره ، ويقال إنه كان له ابن عم فيه تَقْوَى ، فكان لا يزال ينهاه ، وهو لا يَرْعَوِى ولا يَزْدَجِر ، ومن طريف نعته للخمر وساقيتها قوله :

تسقيك كأْسَ مُدامةٍ من كفِّها ورديَّةٍ ومدامةً من ثَغْرِها

وقد ضاع أكثر شعره ، ولم يبق منه إلا أطراف قليلة ، وإلا ما دار حول قصته مع زوجته « ورد » وكانت نصرانية من أهل بلدته ، فشُغِف بها حُبّاً ، وأكثر فيها من غزله ، وبادلته حبّاً بحب ، وأسلمت واقترنت به ، وعاشا مدة هانئين ، وهو سادر فى مجونه وغَوايته . وكان ذلك — فيما يقال — يؤذى ابن عمه ، فرأى أن يعكر عليه صفو حياته ، وسولت له نفسه أن يرصد له فى إحدى أوباته من سَلَمْيَة مَنْ يرى عنده زوجته بالسوء ، ولا ندرى كيف صَدَّق ذلك ، وقد مضى قالةُ السوء يزيدون فى وهمه ، حتى سارع يضربها بسيفه ، فقضت نَحْبَها ، ثم عرف براءتها فعاش يبكيها ويندبها ، نَدْبَ قلبٍ مزَّقه الألم والندم ، بمثل قوله :

رَوَّيْتُ من دمها الثَّرَى ولطالما رَوَّى الهوى شَفَتَىَّ من شفتيها

---

(١) النثا : الخبر .
(٢) العرف : المعروف .
(٣) البازل : الكامل فى التجربة . المحتد : الأصل .

وقوله :

كنتِ زَيْنَ الأَحياء إذ كنت فيهمْ ثم قد صِرْتِ زين أهل القبورِ

وقوله :

قَمَرٌ أنا استخرجته من دَجْنِهِ لبَلِيَّتِى وجَلوتُه من خِدْرِهِ

عهدى به مَيْتاً كأَحسن نائمٍ والحُزْنُ يَسْفَحُ عبرتى فى نَحْرِهِ

وكان يتعلَّق غلاماً وينظم فيه بعض أشعاره ، فجمعت الكتب المتأخرة بين الزوجة والغلام ، وجعلته مصدر شكه واتهامه ، ثم توسعت فى القصة ، فجعلته يراهما فجأة فى بعض الأيام متعانقين تحت إزار واحد ، فقتلهما وأحرق جسديهما وصنع من رماد كل منهما كوزاً يحتسى به الخمر ، وتزعم القصة أنه كان إذا أخذ فى الشرب تناول هذا تارة وذاك تارة ثانية ، مقبِّلا لهما ، ثم أخذ يصبُّ الخمر وهو يصبُّ دموعه منشداً مراثيه فيهما وقلبه يتقطع حزناً وكمداً .

وواضح مما أنشدناه له أنه كان يُغَنِّى بشعره ويروَّى فيه ، ويقول أبو الفرج إنه يذهب مذهب الشاميين فى أشعاره ، وكأنه يريد أن يقرنه بأبى تمام والبحترى ومَنْ كانوا يُعْنَوْن فى شعرهم بالبديع . وليس من شك فى أن أروع أشعاره ما نظمه فى بكاء صاحبته ، متفجعاً متحسراً نادماً كما لم يندم أحد ، وما زال يردِّد ذلك حتى توفِّى سنة ٢٣٥ للهجرة .

٣

شعراء البرامكة

مرَّ بنا فى الفصل الأول أن البرامكة ينحدرون من أسرة كانت تضطلع بسدانة معبد النوبهار البوذى فى بلخ ، وقد تألق اسم خالد بن برمك فى قيادته لبعض الجيوش الخراسانية التى قوَّضت حكم بنى أمية . ونرى السفاح يتخذه وزيرا له ويقيمه على بعض الدواوين ، كما نرى المنصور وابنه المهدى يقربانه منهما ويوليِّانه الولايات والأعمال الجليلة . وما زال عندهما فى حظوة حتى توفِّى سنة ١٦٦ للهجرة. وعرف

المنصور فضل ابنه يحيى ، فولاه ولايات مختلفة فى إيران وأذربيجان . ويظهر أن علاقة وثيقة مبكرة انعقدت بين زوجة يحيى والخيزران زوجة المهدى ، فإن زوجة يحيى حين ولدت ابنها الفضل فى ذى الحجة لسنة ١٤٧ وولدت الخيزران ابنها الرشيد فى شهر المحرم التالى أرضعت كل منهما ابن صاحبتها ، فكانا أخوين فى الرضاع . ولا تكاد توافى السنة الثالثة من خلافة المهدى أى سنة ١٦١ حتى يتخذ يحيى مؤدِّباً لابنه الرشيد ، ويصبح منذ سنة ١٦٣ القيم على ديوان رسائله ، فكان يلزمه ويدبر شئونه ، حتى إذا توفى المهدى وخلفه الهادى وفكر فى تنحية الرشيد عن ولاية العهد عرف كيف يصرفه عن عزمه ، فعظمت منزلته عند صاحبه ، وتطورت الأمور سريعًا ، فتوفى الهادى وخلفه الرشيد لسنة ١٧٠ فاتخذ يحيى وزيراً له ، وأطلق يده فى جميع شئون الدولة وسلَّمه خاتم الخلافة ، فأصبح كأنه الحاكم الحقيقى ، وقد أقام ابنه الفضل على المشرق كله من النهروان إلى بلاد الترك وأقام ابنه جعفراً على المغرب كله من الأنبار إلى أقاصى إفريقية .

وكان يحيى عاقلا حصيفاً يحسن السياسة وتدبير الحكم والنهوض بشئون الثقافة، فمضى كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع يَصْبغ نظم الدولة السياسية والإدارية بالصبغة الساسانية كما مضى يُعْنَى بشئون الطب والترجمة ، فأنشأ المارستان واستدعى له غير طبيب من الهنود وغيرهم ، وشجع على الترجمة لكنوز الثقافات الهندية واليونانية والفارسية ، وبعث نهضة فكرية واسعة . وفتح أبوابه للشعراء والمغنين وأسبغ عليهم هو وابناه الفضل وجعفر العطايا الجزيلة ، حتى لَتُرْوَى فى ذلك روايات تشبه الأقاصيص ، وهى تدل على أنهم كانوا بحوراً فياضة وغيوثا منهلَّة . جود سيال توارثوه عن أبيهم خالد ممدوح بشار ، وهو جود جعل صلاتهم لا تنقطع عن الشعراء ، فإذا كثيرون منهم ينقطعون لهم ، وإذا هم يَشْركون الرشيد فى جميع شعرائه ، وقلما وجد شاعر لعصرهم فى بغداد إلا ودبَّج فيهم بعض مدائحه ، ومرت بنا أطراف من ذلك عند سلم الخاسر ومروان بن أبى حفصة ومسلم بن الوليد ، وممن كان يختص بهم نُصَيْب الأصغر ، وله فى يحيى كلمة طارت أبياتها فى الآفاق من مثل قوله [1] :

عند الملوك مَضَرَّةٌ ومنافعٌ وأرى البرامك لا تضرُّ ، وتنفعُ

(١) أغانى (ساسى) ٢٠/٣٤ والجهشيارى ص ٢٠٣ .

وكان ابن مناذر كثير المديح ليحيى ، وله فيه قصيدة كانت فاكهةَ أهل الأدب لجودة ألفاظها ومعانيها ، وفيها يقول مشيداً به وبابنيه الفضل وجعفر[١] :

أتانا بنو الأملاك من آل برمكٍ فياطيبَ أخبارٍ ويا حُسْنَ منظرِ
لهم رحلةٌ فى كل عامٍ إلى العِدا وأخرى إلى البيت العتيقِ المُسَتَّرِ
إذا نزلوا بَطْحاء مكة أشرقتْ بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفرِ
فما خُلِقَتْ إلا لجودٍ أكفُّهم وأقدامُهم إلا لأعوادِ مِنْبَرِ
إذا رامَ يحيى الأمرَ ذلّتْ صِعابُه وناهيك من داعٍ له ومدبِّرِ

وممن لهج بمديح يحيى وابنيه أبو قابوس الحيرى النصرانى ، وفى يحيى يقول مصوراً بِرّه وجوده ووفاءه بوعوده وعهوده[٢] :

رأيت يحيى أتمَّ الله نعمتَهُ عليه يأتى الذى لم يأته أحَدُ
ينسى الذى كان من معروفه أبدًا إلى الرجال ولا ينسى الذى يَعِدُ

وكان الأصمعى يألف جعفر بن يحيى ويُختَصُّ به ، وله فيه مدائح كثيرة وتقريظ وتفضيل ، ومن طريف ما له فيه[٣] :

إذا قِيلَ : مَنْ للنَّدَى والعُلا مِنَ الناس قيل الفتى جعْفَرُ
ومـا إن مدحتُ فتًى قبله ولكنْ بنو بَرْمكٍ جَوْهَرُ

وفيه تقول عنان جارية الناطفى[٤] :

بديهتهُ وفكرتُهُ سواءٌ إذا التبست على الناس الأمورُ

وكان أخوه الفضل أكثر منه جوداً وأندى راحة ، فتكاثر الشعراء على بابه ، وتكاثرت مدائحهم فيه ، وصوَّر ذلك بعض الشعراء فقال[٥] :

ما لقينا من جود فَضْل بن يحيى ترك الناسَ كلَّهم شعراء

---

(١) ابن المعتز ص ١٢٥ .
(٢) الجهشيارى ص ١٧٩ .
(٣) الجهشيارى ص ٢٠٦ .
(٤) الجهشيارى ص ٢٠٤
(٥) الجهشيارى ص ١٩٥ .

علَّم المُفْحَمِين أن ينظموا الأشْـ ـعارَ منَّا والباخلين السَّخَاء

وممن أكثر من مديحه نُصَيْب الأصغر وفيه يقول واصفاً جوده الغَدِق[١] :

جادُ الربيعُ الذى كُنَّا نؤمِّلُهُ فكلُّنا بربيع الفضل مُرْتَبِعُ

وفيه يقول سعيد بن وهب[٢] :

مَدَحَ الفضلُ نفسه بالفعالِ فعَـلا عن مديحنا بالمقالِ

ويقول إسحق الموصلى من أبيات فيه عمل فيها لحناً وغنَّاه بها ، فطرب طرباً شديداً[٣] :

لو كان بينى وبين الفضل معرفةٌ فضلِ بن يحيى لأعدانى على الزَّمَنِ

هُو الفتى الماجدُ الميمونُ طائرهُ والمشترى الحمدَ بالغالى من الثمن

وكان أخوه جعفر يجفو أبا نواس فصبَّ عليه شواظا من هجائه ، أما هو فأدناه منه وعظم نائله إليه ، مما جعله يلهج بالثناء عليه ، وفيه يقول[٤] :

أوْحَدَهُ اللهُ فما مِثْلُهُ لطالِبٍ ذاك ولا ناشدِ

ليس على الله بمستنكَرٍ أن يجمع العالَم فى واحد

وممن كان ينقطعْ إليه أبو النَّضير أحد الشعراء المغنين ، وفيه وفى آله يقول[٥] :

إذا كنتَ من بغداد منقطع النَّدَى وجدتَ نسيمَ الجود من آل بَرْمَكِ

وما زال الشعراء يتناشدون مدائح الفضل وأخيه وأبيه منذ أسلم الرشيد يحيى مقاليد الخلافة فى سنة ١٧٠ حتى أول صفر سنة ١٨٧ إذ نكبهم الرشيد نكبته المشهورة آمراً بقتل جعفر وصلب أجزاء جسده وحَبْس أبيه وأخيه ، وظلا فى الحبس إلى أن ماتا ، أما يحيى فمات فى سنة ١٩٠ ومات الفضل فى سنة ١٩٢ . وكان طبيعيًّا أن يبكيهم الشعراء وأن يذرفوا عليهم الدموع مدراراً ، لما أغدقوا عليهم من النعم والصلات السنية ، ومن طرائف مراثيهم قول منصور النمرى[٦] :

---

(١) أغانى (ساسى) ٢٠/٣١ .
(٢) أغانى (ساسى) ٢١/٧١ .
(٣) الجهشيارى ص ١٩١ .
(٤) الحيوان للجاحظ ٣/٦٣ .
(٥) أغانى (طبع دار الكتب) ١١/٢٨٦ .
(٦) مروج الذهب للمسعودى ٣/٤٩٦ .

أيدى بنى برمكٍ لدينا تبكى عليهم بكلّ وادِ
كانتْ بهم بُرْهةً عروسا فأَصحتِ الأَرض فى حِدادِ

وكان الفضل بن عبد الصمد الرّقاشى منقطعاً إليهم ، وطالما نوّهوا باسمه وأجزلوا فى عطائه ، فلما صُلب جسد جعفر علي الجسر اجتاز به وهو على الجِذْع فوقف يبكى أحرّ بكاء ، ثم أنشأ يقول[1] :

أما واللهِ لولا خوفُ واشٍ وعَيْنٌ للخليفة لا تنامُ
لطُفْنا حول جِذْعك واستلمنا كما للناسِ بالحَجَرِ استلام
وما أبصرتُ قبلك يابن يحيي حُساماً حَتْفه السيف الحسام
على اللذات والدنيا جميعاً ودولة آل برمكٍ السلام

وأخذ يتحسر عليهم ويتفجع فى مراث كثيرة ، ونحن نقف قليلا عند شاعرين من أهم شعرائهما : أبان بن عبد الحميد اللاحقى وأشجع بن عمرو السُّلَمِىّ .

أبان[2] بن عبد الحميد[3] اللاحقى

من موالى البصرة ، وبها منشؤه ومرباه ، وقد تفتحت شاعريته مبكرة وأخذ يتجه بها نحو الهجاء ، وسرعان ما اصطدم بالمعذّل بن غَيْلان ، واستطار بينهما الشّرّ ، ونرى المعذّل فى هجائه يتهمه بأنه مانوى[4] زنديق ، وهى تهمة ظلت عالقة به ، مما يدلّ على أن لها أساساً فى حياته ، وسنرى الجاحظ لا ينفيها عنه ، بل يثبتها متعجباً ، ويظهر أنه كان يضم إلى هذه الزندقة شيئًا من العكوف على اللهو والمجون شأن أخدانه من الشعراء . وممن هجاهم أيضًا فى باكورة حياته بعض

---

(١) أغانى (ساسى) ١٥/٣٤ وانظر له مرثية أخرى فى غرر الخصائص الواضحة للوطواط (طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ) ص ٤٠٧ .

(٢) انظر فى ترجمة أبان وأخباره وأشعاره الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠/٧٣ والأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء) طبع مطبعة الصاوى ص ١ – ٥٢ وابن المعتز ص ٢٠٢ وما بعدها وص ٢٤١ والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢١٨ والحيوان للجاحظ ٤/٤٤٧ وما بعدها وتاريخ بغداد ٧/٤٤ والنجوم الزاهرة ٢/١٦٧

(٣) فى الفهرست لابن النديم : حميد . انظر ص ١٦٣ .

(٤) الصولى ص ٧ .

قضاة البصرة ، ومن طريف ما يُرْوَى من هجائه أنه كان فى جواره بالبصرة رجل من ثقيف يقال له محمد بن خالد كان شديد العداوة له ، فتزوج ثقفية يقال لها عمَّارة بنت عبد الرحمن ، كانت موفورة الثراء ، فقال أبان يهجوها ويحذرها منه :

لما رأيتُ البَزَّ والشَّارَهْ والفَرْشَ قد ضاقتْ به الحارَهْ
واللَّوْزَ والسُّكَّر يُرْمَى به من فوق ذى الدار وذى الداره
وأحضروا المُلْهِين لم يتركوا طَبْلاً ولا صاحبَ زمَّارَه
قلت لماذا؟ قيل أعجوبةٌ محمدٌ زُوِّجَ عَمَّارَه
لا عمرَّ الله بها بيته ولا رأَتْه مدركاً ثاره
ماذا رأتْ فيه؟ وماذا رجت؟ وهْى من النسوان مختاره
أسْوَدُ كالسُّفُّود يُنْسَى لدى التَّنُّور بل مِحْراكُ قَيَّارَه
يُجْرِى على أولاده خمسةً أرْغفةً كالرِّيش طيَّارَه
وأهله ـ فى الأرض من خوفه إن أفرطوا فى الأكل ـ سيَّاره

وما كادت عمارة تسمع هذا الهجاء حتى فَرَّت على وجهها ، وهو هجاء يدل على ما وراءه من ظرف . ولا يكاد يُظِلّ الناس عصر الرشيد والبرامكة الأجواد حتى نراه يهاجر من موطنه إلى بغداد ، متجهاً تَوًّا إلى الفضل[1] بن يحيى ، ومدبجاً فيه قصيدة طويلة صوَّر فيها نفسه مثالا للنديم وأوصافه التى كانت تُشْتَرَطُ لهذا العصر فى الندماء ، يقول :

أنا من بغْية الأمير وكنزٌ من كنوز الأمير ذو أرباحِ
كاتبٌ حاسبٌ أديبٌ خطيبٌ ناصحٌ راجحٌ على النُّصَّاحِ
شاعرٌ مفلقٌ أخفُّ من الريشةِ مما تكون تحت الجناحِ
وظريفُ الحديث من كلِّ فَنٍّ وبصيرٌ بترَّهات المـلاحِ
كم وكم قد خَبَأْتُ عندى حديثًا هُوَ عند الملوك كالتُّفَّاحِ

(١) فى بعض الروايات أنه اتجه إلى جعفر .

ومضى فى القصيدة يصف أخذه من كل علم بطرف وبصره بالصيد وشئونه وأنه ليس قصيراً ولا مفرط الطول ، مع صباحة الوجه ولطافة المزاج . فوصله الفضل وخفّ على نفسه ونفس أبيه يحيى وأخيه جعفر ، وقرب من قلوبهم جميعاً حتى صار صاحبهم وحظيّهم . وقد نوّه بالفضل طويلاً حين قضى على ثورة يحيى ابن عبد الله العلوى بالديلم لسنة ١٧٥ للهجرة وجاء به إلى بغداد ، وكان قد طلب الصلح حقناً للدماء ، وفى ذلك يقول أبان مخاطباً الرشيد :

هنيئا أميرَ المؤمنين لك الظَّفَرْ فقد تَمَّتِ النُّعْمَى وقد ساعدالقَدَرْ
أتاك بيحيى الفضلُ سلمًا يقوده مُقِرًّا ولولا يُمْنُ جَدِّك ما أَقَرّْ

ويظهر أنه كان يتشيع للعلويين تشيعاً يستره ولا يظهره ، فى أخباره أنه عتب على البرامكة أنهم لا يصلونه بالرشيد ، ذاكراً لهم أمنيته فى أن يحظى من جوائزه السنية ما يحظى به مروان بن أبى حفصة ، فقالوا له إنه إنما يحظى بتلك الجوائز لدفاعه عن حق البيت العباسى فى الخلافة وردّه على العلويين ردًّا عنيفاً ، فاسْلُكْ طريقه إن شئت ، فقال : لا أستحلّ ذلك . ثم حليت فى عينه صلات الرشيد ، فراجع نفسه ونظم فيه ملحة طويلة يقول فى تضاعيفها :

نشدتُ بحقِّ الله مَنْ كان مسلمًا أَعُمَّ بما قد قلتُه العُجْمَ والعَرَبْ
أَعَمٌّ رسول الله أقربُ زُلْفَةً لديه أم ابنُ العَمِّ فى رتبة النَّسَبْ
وأيهما أولى به وبعهدِهِ ومن ذا له حَقُّ التراث بما وجب؟
فإن كان عباسٌ أحقَّ بتلكمُ وكان علىٌّ بعد ذاك على سَبَبْ
فأَبْناء عباسٍ همُ يرثونه كما العَمُّ لابن العَمِّ فى الإرث قدحَجَبْ

ولم يكد يفرغ من إنشاد القصيدة بين يدى الرشيد حتى أمر له بعشرين ألف درهم واتصل مدْحه به . وبلغ من عظم قدره عند يحيى بن خالد أن قلّده ديوان الشعر فكان الشعراء يرفعون إليه أشعاره فى البرامكة ، فيسقط منها ما يرى إسقاطه ويعرض ما يرى أنه خليق بالعرض ، مميزاً بينهم مقدراً لكل منهم المكافأة التى يستحقها جزاء إحسانه . وحدث أن تقدم إليه أبو نواس بقصيدة مع طائفة

من الشعراء، فأمر له بدرهم ناقص ، وفى رواية أنه أسقط قصيدته ، فاغتاظ غيظاً شديداً ، وهجاه وتبادلا الهجاء طويلا . ويُقال إن الهجاء بينهما إنما اندلعت ناره لأن يحيى بن خالد كان قد تقدَّم إلى أبى نواس بنظم كليلة ودمنة فزيَّن له أبان أن يستعفى يحيى من النهوض بهذا العمل المضنى ، ثم حبس نفسه فى بيته لا يخرج منه حتى فرغ من نقلها إلى الشعر فى أربعة أشهر بالغا بها أربعة[1] عشر ألف بيت . وحمل نقله إلى يحيى بن خالد ، فأعطاه عليه مائة ألف درهم ، وفى رواية أنه أعطاه عليه عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة آلاف . فحزن أبو نواس ووجد عليه وجداً شديداً ، وأخذ يقتصُّ منه بهجاء مرير ، وردَّ عليه أبان ، فاشتعلت بينهما معركة هجاء عنيفة ، كان أبو نواس دائماً هو الذى يكثر فيها من السهام المسمومة .

وقد أتاه كثيراً من ثغرة زندقته ، وروى له الجاحظ فى حيوانه هجائية من هذا اللون ، وهو يتهمه فيها بأنه مانوى وأنه يتشبه بمطيع بن إياس ووالبة وحماد عجرد وغيرهم من المجان ، ولا ينفى الجاحظ تهمة الزندقة عن أبان غير أنه ينفى أن يوضع مع مطيع وأمثاله فى كفة واحدة ، يقول : « ولقد كان أبان وهو سكران أصحَّ عقلا من هؤلاء وهم صحاة » . ويقول ابن المعتز موازناً بينه وبين أبى نواس : « كان فى جميع أحواله أرفع طبقة من أبى نواس ، وقد هجاه أبو نواس بشعر كثير فما سار له فيه شىء على شهرة شعره ، ولم يقل فى أبى نواس غير ثلاثة أبيات ، وقد سارت فى الدنيا ، وهى هذه :

أَبو نواس بن هانى ... وأُمُّـه جُلُّبـان[2]
والناسُ أفطنُ شىء ... إلى حروف المعانى
إن زدت بيتا على ذى ... ما عشتُ فاقطعْ لسانى

وهى أبيات لاذعة . ويروى الرواة أنه كان له جار يعاديه ، فاعتلَّ علة طويلة ، وأرجف أبان بموته ، ثم صحَّ من علته ، وخرج فجلس على بابه ، وإذا أبان ينشده أهجية ، فلم يلبث أن أُرْعِدَ منها واضطرب ، ودخل منزله فما خرج منه حتى

---

(١) فى ابن المعتز : أن أبانا إنما بلغ بها خمسة آلاف بيت .

(٢) الجلبان : شجرة الورد ، وهو اسم أم أبى نواس ، وكأن أبانا يتخذ من ذلك مغمزاً له .

مات . وكان يحسن الرثاء ، ومرثيته التى رواها الصولى فى سوار بن عبد الله قاضى البصرة من أجود المراثى ، وهى طويلة طولا مسرفاً .

وأهم ما نهض به أبان فى الشعر نظمه لكليلة ودمنة ، وقد نظم بجانبها – كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع – أرجوزة مزدوجة فى الصوم والزكاة ومزدوجات أخرى فى التاريخ الفارسى وقصيدة فى نشأة الخلق وعلم المنطق . وبذلك مكَّن لشيوع الشعر التعليمى فى العربية ، ونكتفى هنا بقطعة من هذا الشعر افتتح بها باب الأسد والثور فى كليلة ودمنة ، وهى تمضى على هذه الشاكلة :

وإن من كان دَنِىْ النَّفْسِ ... يَرْضَى من الأرفع بالأَخَسِّ

كمثل الكلب الشقىِّ البائس ... يَفْرَحُ بالعظم العتيق اليابسِ

وإن أهل الفضل لايرضيهمُ ... شىء إذا ما كان لا يَعْنيهمُ

كالأسد الذى يصيد الأَرْنَبا ... ثم يرى العَيْرَ المجدَّ هَرَبَا[1]

فيُرْسِلُ الأَرْنَبَ من أظفارِهِ ... ويتبع العَيْرَ على أدبارِهِ

وتطَّرد أرجوزته فى كليلة ودمنة وفى كثير من الموضوعات التعليمية التى عُنى بالنظم فيها على هذا النمط المزدوج الذى اصطفى له لغة جزلة متينة طالما راعت معاصريه ومَنْ تلاهم ، حتى ليقول ابن المعتز فى التعريف به : « كان شاعراً أديباً ، عالمًا ظريفاً ، منْطيقاً ، مطبوعاً على الشعر مقتدراً عليه . . وهو الذى نقل كليلة ودمنة شعرا بتلك الألفاظ الحسنة العجيبة . . ولم يقدر أحد من الناس أن يتعلق عليه بخطأ فى نقله ، ولا أن يقول : ترك من لفظ الكتاب أو معناه » . وترجم الصولى لأخيه عبد الله وابنه حمدان وحفيده أبان . ونظن ظنًّا أنه ظل مشغولا بعد البرامكة بشعره التعليمى ، حتى توفى سنة ٢٠٠ للهجرة ، فإنه لم يُؤْثَرْ له شعر فى مديح الأمين ولا فى مديح المأمون وقواده ووزرائه .

---

(١) العير : حمار الوحش .

أشجع [1] بن عمرو السُّلمى

من بنى الشريد السُّلَميِّين ، كان أبوه ينزل البصرة ، وتعلق بامرأة من أهل اليمامة ، فشخص معها إلى موطنها وتزوجها ، فولدت له بموطنها أشجع حيث قضى السنوات الأولى من حياته . ومات أبوه فقدمت به أمه إلى البصرة تطلب ميراث أبيه ، وكانت قد رُزقت منه أيضًا ولديها أحمد وحُرَيْثاً . وأكمل أشجع نشأته ومَرْباه بالبصرة ، وتفتحت مواهبه الشعرية فابتهجت به قبيلته وأخواتها من القبائل القيسية ، وكان الشعر يومئذ فى ربيعة واليمن ، ولم يكن لقيس شاعر معدود ، فلما نجم أشجع ولمع اسمه افتخرت به قيس ، وبادلها فخراً بفخر من مثل قوله :

إذا افتخرتْ قيسٌ بطيبِ العناصِر على الناس طاطا رَأسَه كلُّ فاخرِ

ولم يلبث أن شد رحاله إلى بغداد لأواخر عهد المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ) فمدح ابنه جعفراً ، ويقال إن الذى وصله به عوف بن أحمد بن يزيد السُّلَمى ، وله فيه وفى أبيه أحمد وعمه محمد مدائح مختلفة . ولم يكد يبزغ عصر الرشيد حتى وصلته به زوجه زُبَيْدة بنت جعفر بعد وفاة أبيها ممدوحه ، فأسْنَى جوائزه ، ويقال : بل الذى وصله به جعفر بن يحيى البرمكى . وتؤكد بعض الروايات أن أول اتصاله به إنما كان فى الرَّقَّة حين انتقل اليها من بغداد سنة ١٨٠ لينفر منها سريعاً إلى حرب الروم حين يدعو الداعى ، ومن أجل ذلك استوطنها مدة . ونظن أن اتصاله بالرشيد يسبق هذا التاريخ ، فقد روى صاحب الأغانى عنه أنه قال : « دخلتُ على محمد الأمين حين أجلس مجلس الأدب للتعلم وهو ابن أربع سنين ، وكان يجلس فيه ساعة ثم يقوم ، فأنشدت :

مَلِكٌ أبوه وأمُّه من نَبْعَةٍ منها سراجُ الأمة الوَهَّاجُ [2]

---

(١) انظر فى أشجع وأشعاره وأخباره ابن المعتز ص ٢٥١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص٨٥٧ والأغانى (طبعة الساسى) ١٧ / ٣٠ والأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء) ص ٧٤ وتاريخ بغداد ٧ / ٤٥ والموشح للمرزبانى ص ٢٩٥ ومروج الذهب للمسعودى ٣ / ٢٩٦ والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢١٥ والمرزوقى على الحماسة ص ٨٥٦ .

(٢) النبعة : شجرة ضخمة تتخذ منها القسى والسهام ، والاستعارة واضحة .

شربتْ بمكة فى رُبَى بَطْحائها   ماءَ النبوة ليس فيه مِزاجُ[1]

فأمرتْ له أمه زُبَيْدة بمائة ألف درهم ، ويقال إنه لم يتولَّ الخلافة أحد أبوه وأمه من بنى هاشم إلا على بن أبى طالب ومحمد الأمين » . ومعروف أن الأمين ولد سنة ١٧٠ ومعنى ذلك أن دخول أشجع عليه ومدحه كانا فى سنة ١٧٤ وفى ابن المعتز ما يدل على أن البيتين من قصيدة مدح بها الرشيد . وسنراه يكثر من مدحه فى حربه لنقفور ، وقد مضى يوثق عهده للمأمون بولايته العهد بعد أخيه الأمين توثيقاً شديداً بقوله :

بيعةُ المأمونِ آخذةٌ   بعِنان الحقِّ فى أُفقِهْ
لن يفكَّ المرءُ رِبْقَتَها   أو يفكَّ الدينَ من عُنقِه
وله من وجــه والدِهِ   صورةٌ تَمت ومن خلقه

وكتب الرشيد لولديه كتاباً بهذا العهد ، وعلَّقه فى سقف الكعبة سنة ١٨٢ فانبرى أشجع يصوب رأيه ويؤكِّده فى قصيدة طرب لها الرشيد .

على أن صلته به إنما كانت فى ثنايا صلة وثيقة بجعفر بن يحيى البرمكى وأبيه وأخيه ، حتى لكأنما اقتطعوه منه ، ويقال إن أنَس بن أبى شيخ كاتب جعفر هو الذى وصله به ، ثم انعقدت صلته بأخيه الفضل وأبيه يحيى وكان أول ما أنشده :

ذهبتْ مكارمُ جعفرٍ وفَعاله   فى الناس مثل مذاهب الشَّمْسِ
ملكٌ تسوس له المعالى نَفْسُه   والعقلُ خيرُ سياسة النَّفْس

فأمر له بعشرة آلاف درهم ، وكان جعفر حينئذ بمجلس فى أحد قصورهم بحى الصالحية ، فقال له صف موضعنا ، فأنشد على البديهة :

قصورُ الصالحيَّة كالعَذَارى   لَبِسْنَ ثيابهن ليوم عُرْسِ
مطلاَّتٌ على روضٍ كستْه   أيادى الماء وشياً نَسْجَ غَرْسِ
إذا ما الطَّلُّ أثَّر فى ثَراه   تنفَّس نَوْرُهُ من غير نفْسِ[2]

---

(١) بطحاء مكة : واديها بين الربى والجبال . وكانت تنزله فى الجاهلية عشائرها الشريفة .

(٢) الطل : الندى والمطر الخفيف .

فتَغْبقه السماءُ بصِبْغٍ وَرْسٍ وتَصْبحه بأكؤس عَيْنِ شمسِ[1]

وأعجب جعفر بحسن بديهته . وأصبح شاعره وشاعر أسرته يمدحه ويمدح أباه يحيى وأخاه الفضل ، ويغدقون جميعًا عليه العطايا الجزيلة ، ومن قوله فى يحيى :

كفانى صروفَ الدهر يحيى بن خالدٍ فأصبحتُ لا أرتاع للحدثانِ
كفانى ــ كفاه الله كلَّ مُلِمَّةٍ ــ طِلابَ فلانٍ مرَّةً وفلانِ
فأصبحتُ فى رَغْدٍ من العيش واسعٍ أقلِّب فيه ناظرى ولسانى

ونراه يرافق جعفراً حين هاجت العصبية بين النزارية واليمنية فى الشام لسنة ١٨٠ وقد ظفر بجماعة ممن سعوا بالفساد وشرَّد آخرين وأصلح ذات البين بين الفئتين المتناحرتين . وأكثر من مديحه حينئذ ، ويقال إنه كان يُجْرى عليه فى كل يوم جمعة مائة دينار وأشجع يجرى عليه أشعاره من مثل قوله :

أصلحتَ أمر الشام محتسبًا ورتقت ما فيها من الفَتْقِ
ما كان يُدْرَكُ بالقتال ولا بالمال ما أدركت بالرِّفْقِ

وعزم الرشيد فى نفس السنة على تولية جعفر خراسان وسجستان وأخرج له الأمر بذلك ، فابتهج وابتهج معه شاعره ، ولم يلبث أن دبَّج فيه إحدى روائعه وفيها يقول :

يريد الملوك مدى جعفرٍ ولا يصنعون كما يصنعُ
وليس بأوسعهم فى الغنى ولكنَّ معروفَه أوسع
وكيف ينالون غاياته وهم يجمعون ولا يجمع
بديهتُه مثلُ تدبيره متى رُمْتَهُ فهْو مستجمع

وبدا للرشيد فرجع فى أمره وعزيمته ، فأنشده شعراً طريفاً يسليه به ، زاعماً أن الرشيد رأى حاجته إليه أمسَّ من حاجة أهل خراسان . ويكثر من مديح جعفر

---

(١) تغبقه : من الغبوق وهو شرب الخمر فى المساء ، والورس : زهر أصفر . تصبحه : من الصبوح وهو شرب الخمر فى الصباح .

ولا يلمُّ به مرض هو أو أبوه إلا ويكثر من دعائه لهما بالشفاء وفى يحيى يقول وقد أخذته علة :

إذا ما الموتُ أخطأه فلسنا نبالى الموتَ حيث غدا وراحا

ولما استأذن من الرشيد أن يجاور بمكة لسنة ١٨١ ظل يردد افتقاد بغاة الخير له وحزنهم لطول غيبته من مثل قوله :

قد غاب يحيى فما أرى أحدًا يَأْنَسُ إلا بذكره الحَسَنِ
أوحشتِ الأرض حين فارقها من الأيادى العظام والمِنَنِ
لولا رجاءُ الإياب لانصدعتْ قلوبنا بعده من الحَزَنِ

ويروى صاحب الأغانى أن جعفرا ولاه عملا ، فرفع إليه أهله شكايات كثيرة متظلمين منه ، فصرفه جعفر عنهم . فلما رجع إليه من عمله مَثَل بين يديه وأنشده قصيدة طويلة يقول فيها :

لقد هزَّتْ سنانَ القول منى رجالٌ وقيعةٍ لم يعرفونى
أطافوا بى لديك وغبْتُ عنهم ولو أدنيتنى لتجنَّبونى

فوصله جعفر وخلع عليه . وظل يتغنى بجعفر وبأبيه وأسرته حتى نكبهم الرشيد، فتحسر عليهم طويلاً ومن قوله فيهم :

كأنما أيامهم كلها كانتْ لأهل الأرض أعيادا

وجعلته صلته بالبرامكة يمدح كتّابهم وأصحابهم من مثل إسماعيل بن صَبيح ، ومن جيد قوله فيه :

له نظرٌ لا يغْمض الأمرُ دونه تكاد ستورُ الغيب عنه تمزَّقُ

ولعله لم يكثر من مديح صاحب لهم كما أكثر من مديح محمد بن منصور ابن زياد . وقد مضى بعد نكبتهم يحاول القربى من الرشيد ، وأوصله له حاجبه ووزيره الفضل بن الربيع قائلاً له : « هو أشعر شعراء أهل الزمان وقد اقتطعته

عنك البرامكة فأمر بإيصاله مع الشعراء » وقد تغنى بانتصاراته على نقفور وجنوده وفتحه لهرقلة غناء حارًّا ، من مثل قوله :

برقتْ سماؤك فى العدوِّ وأمطرتْ هَاماً لها ظِلُّ السيوف غَمامُ[1]

وعلا عدوَّك يا بن عمِّ محمد رَصَدان : ضوء الصبح والإظلامُ

فإذا تنبَّه رُعْتَهُ وإذا غفا سَلَّتْ عليه سيوفَك الأَحلام

ولما بلغ هذا البيت فى القصيدة اهتز الرشيد ، وأمر بأن ينثر عليه الدر إعجاباً واستحساناً ، وله يقول من قصيدة أخرى وقد جلس للشعراء عقب هذا الفتح فى يوم عيد :

لا زلتَ تنشر أعيادًا وتطويها تَمْضى بها لك أيَّامٌ وتُمْضيها

ولْيَهْنك الفتح والأيامُ مقبلة بالنصر والعزِّ معقودًا نواصيها

أمستْ هرقلة تَهوى من جوانبها وناصرُ الله والإسلام يرميها

وكان الرشيد يكثر من حجه إلى البيت الحرام ومن جهاده العنيف للروم ، قاسماً سنيه بين حج وغزو ، فصور ذلك أشجع تصويراً بديعاً فى قصيدة استقبله بها فى يوم قدوم له من حج بإحدى السنوات ، وفيها يقول :

أَلِفَ الحجَّ والجهاد فمايَنْ فكُّ من سَفرتين فى كل عامِ

سَفَرٌ للجهاد نحو عدوٍّ والمطايا لِسَفْرة الإحـرام[2]

طَلَبَ الله فهْو يسعى إليه بالمطايا وبالجياد السَّوَام

فيداه يَدٌ بمكة تدعو ه وأخرى فى دعوة الإسلام

وله مدائح مختلفة فى الفضل بن الربيع . وكان يجيد الرثاء كما كان يجيد المديح ، إذ كان يعرف كيف يمس القلوب وكيف يستثير الحزن فى الصدور ، على نحو ما يلقانا فى رثائه لمحمد بن منصور بن زياد ، وفيه يقول :

---

(١) الهام : الرءوس .

(٢) جعل المطايا أى الإبل رمزاً للحج والجياد رمزاً للجهاد ، والسوام : من سامت الريح : إذا مرت واستمرت .

أنْعَى فتًى الجود إلى الجود ... ما مثلُ مَنْ أنعى بموجود

أنْعَى فَتًى مصَّ الثرى بعده ... بقيَّةَ الماء من العــود

فالأرض يبِسَتْ أشجارها بموته . ومن مراثيه الرائعة التى رواها أبو تمام فى حماسته مرثيته فيمن يسمى ابن سعيد وفيها يقول :

مضى ابنُ سعيدٍ حين لم يبق مَشْرقٌ ... ولا مغربٌ إلا له فيه مادحُ

وما كنت أدرى ما فواضلُ كفِّه ... على الناس حتى غَيَّبَتْه الصَّفائح[1]

فأصبح فى لَحْدٍ من الأرض مَيِّتاً ... وكانتْ به حَيًّا تضيق الصحاصِحُ[2]

سأبكيك ما فاضتْ دموعى فإن تَغِضْ ... فحسبك منى ما تُجِنُّ الجوانح[3]

وما أنا من رُزْءٍ وإن جَلَّ جازعٌ ... ولا بسرورٍ بعد موتك فارح

كأن لم يمتْ حَيٌّ سواك ولم تقم ... على أحدٍ إلا عليك النوائح

لئن حسنتْ فيك المراثى وذكرُها ... لقد حَسُنَتْ من قبل فيك المدائحُ

وغزله رقيق وله خمريات قليلة . وواضح مما أنشدناه له أنه كان غزير المعانى رشيق الأسلوب وأن قصائده الجياد تعد من عيون الشعر فى هذا العصر ودرره النفيسة ، وقد عاش حتى شهد قتل الأمين فى سنة ١٩٨ إذ روى له الصولى قصيدة فى مديح طاهر بن الحسين الذى حاصره إلى أن ظُفر به وقُتل صَبْراً ، وفى ذلك يقول مخاطباً له :

سلبتَ رِداءَ الملك ظالمَ نفسِه ... وصنتَ الذى ولَّاك قَصْمَ الجبابرِ

وأكبر الظن أنه توفى بعد ذلك بقليل .

---

(١) الصفائح : الحجارة العراض فى سقف القبر .

(٢) الصحاصح : الأرض الواسعة المستوية .

(٣) تجن : تضمر . الجوانح : الضلوع .

٤

شعراء الوزراء والولاة والقواد

لا يكاد يوجد فى هذا العصر وزير ولا والٍ ولا قائد إلا وقد مدحه الشعراء طلباً لجوائزه السنية ، ولن نستطيع أن نستقصى مدائحهم ، ولذلك سنكتفى بأكثرهم تداولا على ألسنة الشعراء ، ولعل أنبه وزير لعصر المنصور أكثر الشعراء من مديحه خالد بن برمك . وكان يعقوب بن داود وزير المهدى ومهجو بشار ممدّحا لكثير من الشعراء ، وقد وجدوا عليه وجداً شديداً حين حبسه المهدى ، وصوّروا ذلك فى أشعارهم من مثل قولى أبى حنش النُّمَيْرى[1] :

يعقوبُ لا تَبْعُدْ ، وجُنِّبْتَ الرَّدَى ... فلنبكينَّ زمانك الرَّطْبَ الثَّرَى

وقول أبى الشِّيص مخاطباً المهدى[2] :

أَبلغْ إمام الهُدَى أن لستَ مصْطنعًا ... للنائبات كيعقوبَ بن داودِ

لو تبتغى مثله فى الناسِ كلِّهم ... طلبتَ ما ليس فى الدُّنيا بموجود

واستوزر المهدى بعده الفيض بن أبى صالح ، وكان غيثاً مدراراً ، وممن كان ينقطع إليه أبو الأسد الحِمَّانى التميمى وفيه يقول[3] :

ولائمةٍ لامتك ــ يا فَيْضُ ــ فى النَّدَى ... فقلتُ لها لن يَقْدَحَ اللَّوْمُ فى البَحْر

أرادتْ لِتَنْهَى الفيضَ عن عادة النَّدَى ... ومن ذا الذى يَثْنِى السحابَ عن القَطْرِ

مواقعُ جود الفَيْض فى كل بَلْدَةٍ ... مواقعُ ماء المُزْن فى البلد القَفْر

كأنَّ وفودَ الفيض لما تحملّوا ... إلى الفيض لاقَوْا عنده ليلةَ القَدْرِ

ومرَّت بنا مدائح الشعراء فى البرامكة ، وكان الفضل بن الربيع يحجب الرشيد فى وزارتهم ، ثم خلفهم على وزارته ، ووزر من بعده للأمين ، وقد مدحه ونوّه

---

(١) المرزوقى على الحماسة ص ٩٤٦ .

(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٦٣ .

(٣) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/١٣٤ .

به كثيرون وفى مقدمتهم أبو نواس وأبو العتاهية ، وفيه يقول[1] :

إذا ما كنت متخذًا خليلا فمثل الفَضل فاتَّخِذِ الخليلا
يرى الشكر القليل له عظيماً ويُعْطى من مواهبِه الجزيلا
أرانى حيثما يَمَّمتُ طرفى وجدتُ على مكارمه دليلا

ولإسحق الموصلى أشعار فيه لحَّنها وغنَّى فيها ، وممن يُسْلك فى مُدَّاحه أبو نخيلة ، وسلم الخاسر ، وأشجع السُّلَمى ، ومنصور النَّمَرى ، وفيه يقول[2] :

هو الأَوْحَدُ فى الفَضْل فما يُعْرَفُ ثانيه

ونلتقى بعده بالفضل والحسن ابنى سهل وزيرى المأمون ، وكانا جوادين ممدَّحين ، وقد نوَّه مسلم بن الوليد بالفضل طويلا ، وفيه يقول مشيراً إلى تدبيره الأمر للمأمون حتى أسقط الأمين[3] :

أَقمتَ خلافةً وأَزلْتَ أخرى جليلٌ ما أَقمتَ وما أزلتا

وقد عاش الحسن بعد الفضل طويلا ، فكثرت أمداح الشعراء فيه ، وفى مقدمتهم أبو تمام وأبو العَمَيْثَل وأبو فرعون الساسى ومحمد بن عبدالملك الزيات ومحمد بن وهيب ، وفيه يقول[4] :

به تُجْتَدَى النعْمَى وتُسْتدرك المنى وتُسْتكمل الحسنى وتُرْعَى الأَواصِرُ
ولما رأى الله الخلافة قد وهتْ دعائمها والله بالأَمر خابِرُ
بنى بك أركانًا عليها محيطةً فأَنت لها دون الحوادث ساترُ

ولعل وزيراً بعده لم يُمْدَحْ كما مُدح محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق ، وللحسن بن وهب كاتبه فيه أشعار كثيرة ولعل شاعراً لم ينوّه به كما نوّه أبو تمام .

وإذا تركنا الوزراء إلى الولاة وجدنا بينهم كثيرين من الأجواد الممدَّحين

---

(١) أغانى ٤/٦٧ .
(٢) أغانى ١٣/١٥٠ .
(٣) ديوان مسلم ص ٣٠٧ .
(٤) أغانى (ساسى) ١٧/١٤٤ .

وفى طليعتهم مَعْن بن زائدة الشيبانى والى اليمن للمنصور ثم سجستان ، وهو ممدوح مروان بن أبى حفصة كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، ومن مدَّاحه مطيع بن إياس والحسين بن مطير ، وله فيه حين توفى مرثية بديعة أنشدنا قطعة منها فى غير هذا الموضع . وطبيعى أن يكثر فى هذا العصر مديح ولاة البصرة والكوفة ، ويتردَّد مديح الأولين فى ديوان بشار حتى وفاته ، كما يتردَّد الثانون فى أشعار الكوفيين ترددا أوسع من أن يُحْصَى ويستقصى . وكان فى كل ولاية شعراء من أهلها لا يزالون يمدحون ولاتها ، وكان كثير من شعراء العراق يفدون عليهم لأخذ جوائزهم ، ويكفى لتصوير ذلك أن نرجع إلى مصر فسنرى بها شعراء من الطبقة الثانية لا يزالون يمدحون من يتولى عليها على نحو ما يصور لنا ذلك كتاب الولاة والقضاة للكندى . وقد رحل إليها غير شاعر مقدِّمًا مدائحه لولاتها الذين اشتهروا بجودهم ، ظافراً منهم بالصلات السنية ، ومن ولاتها الأجواد لعهد المنصور يزيد بن حاتم بن قبيصة المهلبى ممدوح بشار وربيعة الرَّقِّى ؛ وقد قدم عليه فى ولايته ابن المولى ومدحه بقصائد كثيرة من مثل قوله :

يا واحدَ العربِ الذى أضحَى وليس لهُ نظيرُ
لو كان مثلَكَ آخَرٌ ما كان فى الدنيا فقيرُ

ويقال إنه أعطاه فى هذه القصيدة عشرين ألف دينار[١] ، غير ما أعطاه فى قصائده الأخرى . وقد عرضنا فى حديثنا عن أبى نواس لرحلته إلى الخصيب صاحب خراجها وما أغدق عليه من برِّه ، كما عرضنا فى حديثنا عن أبى تمام لرحلته إلى عياش بن لهيعة الحضْرمى . وما كان من اتصاله بولاتها المختلفين ، وصوَّرنا من بعض الوجوه مدائحه لبعض ولاة دمشق والموصل وديار ربيعة وأذربيجان والثغور . ومرَّت بنا أيضًا مدائح دعبل للمطلب الخزاعى حين ولى مصر وكيف أشاد به أولاً ثم هجاه .

وليس من شك فى أن طاهر بن الحسين وابنه عبد الله هما أهم ولاة تغنَّى بهما الشعراء ، إذ جذبا إلى ولايتهما فى خراسان غير شاعر ، ومن مدَّاح طاهر الرقاشى وأبو العميثل والشاعر الملقب بالصيني ، على نحو ما يصوِّر لنا ذلك ابن المعتز ،

---

(١) أغانى (دار الكتب) ٣/٢٨٩ وما بعدها .

ويقول فى ترجمة عوف بن محلِّم الخزاعى : «كان معدوداً من الشعراء الظرفاء المحدَّثين وكان طاهر بن الحسين قد استخصَّه واختاره لمنادمته ، فكان لا يفارقه فى سفر ولا حَضَر . . ومما سار له فى الدنيا قوله له إذ وقف على الجسر فى حرَّاقة[1] يَنْحدر إلى دار الخليفة ، فقال رافعاً صوته :

عجبت لحرَّاقة ابن الحُسَـ ـيْنِ كيف تسير ولا تَغْرَقُ
وبحران : من تحتها واحـدٌ وآخَرُ من فوقها مُطْبِقُ
وأعجب من ذاك عيدانُهـا وقد مسَّها كيف لا تُورِقُ

وكان ابنه عبد الله على مثاله جوداً وشجاعة وسماحة ، ويقال إنه لما ولاه المأمون مصر لسنة ٢١١ أعطاه مالها لعام : خراجَها وضياعها ، فوهبه كله وفرَّقه فى الناس ، وقد لهج الشعراء فيها بمديحه وفى مقدَّمتهم مُعَلَّى الطائى وله يقول[2] :

لو أصبح النِّيلُ يَجْرى ماؤه ذهباً لما أشرتَ إلى خَزْنٍ بمثقالِ
تَفُكُّ باليُسْر كفَّ العُسْرِ من زمنٍ إذا استطال على قومٍ بإقلالِ
وما بثثتَ رَعِيلَ الخَيْل فى بلدٍ إلا عَصَفْنَ بأرزاقٍ وآجالِ

وقد لزمه فى ولايته على خراسان كثير من الشعراء أمثال أبى العَمَيْثَل وعوف بن محلم الخزاعى شاعرى أبيه ، وله يقول عوف من قصيدة طويلة[3] :

يا بنَ الذى دان له المشرقانْ وأُلبِسَ الأمنَ به المغربانْ

وهو ممدوح على بن جبلة وأبى تمام والعتَّابى ، وله يقول[4] :

ودُّك يكفينيك فى حاجتى ورؤيتى كافيــةٌ عن سؤالْ
وكيف أخشى الفقر ما عشتَ لى وإنما كَفَّاك لى بيتُ مالْ

وعلى نحو ما مدح الشعراء الولاة ونوَّهوا بهم طويلا مدحوا القواد أمداحاً رائعة ، ومدائح بشار وأبى العتاهية فى عمر بن العلاء الذى قضى على المحمرة بجرجان لعهد المهدى

(١) الحراقة : ضرب من السفن .
(٢) أغانى (دار الكتب) ١٢/١٠٢ .
(٣) ابن المعتز ص ١٨٨ .
(٤) أغانى ١٣/١١٧ .

مشهورة . ولعل قائداً لم يُمدَح فى عصر الرشيد كما مُدح يزيد بن مزيد الشيبانى ممدوح مسلم بن الوليد ، وفيه يقول منصور النمرىّ [1] :

لا تقربنَّ يزيدًا عند صَوْلتِهِ لكنْ إذا ما احْتَبَى للجود فاقترب

ومن مداحه على بن الخليل وعبد الله بن أيوب التيمى . ومن كبار القواد لعهد المأمون والمعتصم أبو دُلَف العِجْلى ، يقول أبو الفرج فى ترجمته له : « محله فى الشجاعة وعلوّ المحل عند الخلفاء وعظم الغَنَاء فى المشاهد وحسن الأدب وجودة الشعر محل ليس لكبير آخر من نظرائه [2] » وكانت غيوث كرمه لا تزال تنهلُّ على الشعراء ، مما جعل ألسنتهم تلهج بمديحه ، وممن كان ينقطع إليه على بن جبلة وأبو الأسد الحِمَّانى التميمى وبكر بن النطاح ، وفيه يقول مصوّراً شجاعته [3] :

قالوا وينظم فارسين بطعنةٍ يومَ اللقاء ولا يراه جليلا
لا تعجبوا لو أن طول قناتهِ ميلٌ إذن نظمَ الفوارسَ ميلا

وله يقول [4] :

فكَفُّك قوسٌ والنَّدَى وَتَرٌ لها وسَهْمك فيه اليُسْر فارْمِ به عُسْرِى

ويقول أيضاً فيه :

ولقد طلبنا فى البلاد فلم نجدْ أحدًا سواك إلى المكارم يُنْسَبُ

وهو من مدّاح أبى تمام ومحمد بن وهيب وغيرهما . وقد جلّى فى حروب المأمون والمعتصم مع بابك والروم قواد كثيرون فى مقدمتهم الأفشين وخالد ابن يزيد بن مزيد وأبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى ولأبى تمام فيهم أمداح رائعة صوّرنا أطرافًا منها فى ترجمته . ونحن نقف قليلا عند أربعة من شعراء هؤلاء القواد ومن سبقهم من الولاة والوزراء وهم أبو الشيص وعبد الله بن أيوب التَّيْمى وعلى ابن جبلة والخُرَيْمى .

---

(١) أغانى ١٣/١٥٥ .
(٢) أغانى ٨/٢٤٨ .
(٣) أغانى (طبعة الساسى) ١٧/١٥٥ .
(٤) ابن المعتز ص ٢١٩ .

أبو الشِّيص[١]

غلبَ عليه لقبه أبو الشِّيص واسمه محمد بن عبد الله بن رَزين وهو ابن عم دِعْبل ، ويقول أبو الفرج « كان متوسط المحل فى شعراء عصره غير نابه الذكر لوقوعه بين مسلم بن الوليد وأشجع وأبى نواس ، فخمل وانقطع إلى عقبة بن جعفر ابن الأشعث الخزاعى أمير الرَّقّة فمدحه بأكثر شعره ، فقلما يُرْوَى له فى غيره ، وكان عقبة جواداً فأغناه عن سواه » . ومن مختار شعره فيه قوله مستطرداً من وصف الإبل إلى مديحه :

إن الأمانَ من الزمان وريْبِهِ . يا عُقْبَ شطًّا بَحْرك الفيَّاضِ
بَحْرٌ يلوذ المعتفون بِنَيْلِهِ فَعْم الجداول مُتْرَع الأحواض[٢]
ثَبْتَ المقام إذا التوى بعدوِّه لم يَخْشَ من زَلَلٍ ولا إدحاضِ[٣]
غَيْثٌ توشحتِ الرياضُ عِهادَهُ لَيْثٌ يطوف بغابةٍ وغِياض[٤]
ومشمِّرٌ للموت ذَيْلَ قميصِهِ قانى القناة إلى الرَّدَى خَوَّاض

ويقول ابن المعتز إنه مدح الرشيد مدائح كثيرة ، ولما مات أكثر من رثائه ومدح الأمين وله فى ذلك بدائع كثيرة من مثل قوله :

جَرَتْ جوارٍ بالسَّعْد والنَّحْس فنحن فى وَحْشَةٍ وفى أُنْسِ
العينُ تبكى والسِّنُّ ضاحكةٌ فنحن فى مأْتمٍ وفى عُرْسِ
يضحكنا القائم الأمين وتُبْـ كينا وفاةُ الإمام بالأمسِ
بدران : بدرٌ أَضْحَى ببغداد فى الْـ خُلْد وبَدْرٌ بطوسَ فى الرَّمْسِ[٥]

(١) انظر فى أبى الشيص وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٧٢ وابن قتيبة ص ٨٢٠ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٦/٤٠٠ ونكت الهميان للصفدى ص ٢٦٧ وتاريخ بغداد ٥/٤٠١ وفوات الوفيات ٢/٢٢٥ .
(٢) فعم : مملوء .
(٣) إدحاض : انزلاق .
(٤) العهاد : أول مطر الربيع . غياض : جمع غيضة وهى الشجر الملتف .
(٥) الخلد : قصر بناه المنصور ببغداد . الرمس : القبر .

وله فيه مرثية طويلة عجيبة يقول فيها مستغلا وفاته بطوس فى المشرق :

غَرُبَتْ فى المشرق الشمـ ـسُ فقُلْ للعَيْن تَدْمَعْ
ما رأينا قطُّ شمسًا غربتْ من حيث تَطْلُعْ

ومن رائع مراثيه قوله يبكى بعض الأبطال وقد سقط صريعًا فى ميدان القتال مصوراً بأسه وشجاعته :

ختلتْه المنون بعد اختيالٍ بين صَفَّين من قَناً ونِصالِ
فى رداءٍ من الصفيح صقيلٍ وقميصٍ من الحديد مُذَالِ(١)

وهو أحد من برعوا فى الغزل ووصف الخمر ، وله فيهما أشعار كثيرة طارت فى الدنيا وسارت بها الركبان من مثل قوله فى الغزل :

مهاةٌ ترتمى الألبـا بَ عن قوسٍ من السِّحْرِ
لها طَرْفٌ يشوب الخَ مْرَ للنُّدْمان بالخَمْرِ
عفيفُ اللَّحْظِ والإغضا ءِ فى الصَّحْوِ وفى السُّكْرِ

وقوله فى الخمر :

وعذراءَ لم تفترعها السُّقَاةُ ولا استامها الشَّرْبُ فى بَيْت حانى(٢)
ولم تزلِ الشمسُ مشغولةً بصَنْعتها فى بطون الدِّنانِ
ترشِّحها لأثام الرِّجال إلى أن تصدَّى لها الساقيانِ
عجوزٍ غذَا المِسْكُ أصداغَها مضمَّخة الجلْدِ بالزَّعْفَرَانِ
يطوفُ علينا بها أَحْوَرٌ يداه من الكأس مخضوبتانِ

وله فى المشيب وبكاء الشباب كثير من الأشعار الرائعة التى يُطْرِف فيها تارة بالصور والأخيلة البديعة ، وتارة بالمعانى التى تمس المشاعر والقلوب من مثل قوله :

(١) مذال : طويل الذيل .

(٢) استامها : ساوم على شرائها .

أبدى الزمانُ به نُدوبَ عِضاضِ ورمى سوادَ قرونه ببياضِ[1]

وقوله :

خلع الصِّبا عن منكبيه مشيبُ وطوى الذوائبَ رأسُه المخضوبُ

نَشَر البِلى فى عارضيه عَقَارِباً بِيضاً لهنَّ على القرون دَبيب

وقوله يذكر الشباب :

فهل لك يا عيشُ من رجعةٍ بأيامك المونقات الحِسانِ

وهيهات يا عيش من رجعةٍ بأغصانك المائلات الدَّوانى

لقد صدع الشيبُ ما بيننا وبينك صَدْعَ الرِّداء اليَمانى

وعَمِىَ بأخرة من حياته ، فحزن حزناً عميقاً ، ومضى يرثى عينيه ويبكيهما بأبيات مؤثرة ، تصور التياعه التياعاً شديداً من مثل قوله :

يا نفسُ بكِّى بأدمعٍ هُتُنِ وواكفٍ كالجُمان فى سَنَنِ[2]

على دليلى وقائدى ويدى ونور وجهى وسائِس البَدنِ

أبكى عليها بها مخافةَ أنْ تَقْرِننى والظلامَ فى قَرَنِ

ولعل فى ذلك كله ما يصور براعته فى الشعر وكيف كان يحسن نسيجه نافذاً إلى كثير من دقائق المعانى وروائع الصور والأخيلة . ويقال إن بعض الغلمان قتله وهو ثمل بالخمر سنة ١٩٦ للهجرة .

عبد الله[3] بن أيوب التيمى

كان يُكْنَى أبا محمد وهو من موالى بنى تَيْم ومن أهل الكوفة ، وقد تركها إلى بغداد طلباً لجوائز الخلفاء والوزراء والقواد ، وبها انعقدت صلة وثيقة بينه وبين

---

(١) الندوب : الكلوم والجراح .

(٢) هتن : غزيرة . واكف : سائل لاينقطع .

(٣) انظر فى عبد الله بن أيوب وأخباره وأشعاره الأغانى (طبعة الساسى) ١٨/١١٥ وانظر ١٧/٣١ و ٤٥ والحيوان ٦/٥٠٥ والنجوم الزاهرة ٢/١٨٩ .

إبراهيم الموصلي وابنه إسحق ، ثم اتصل بالرشيد والبرامكة ومدحهم جميعاً ونال جوائزهم ، ويقال إنه أخذ من يحيي البرمكي وبنيه مائة ألف درهم ، وقد جلّى في حادثة مشهورة ، ذلك أن الرشيد هزم نقفور صاحب بيزنطة هزيمة ساحقة جعلته يركع على قدميه ويؤدى له الجزية التي افترضها صاغراً . ورجع الرشيد إلى الرقة ، فلما سقط الثلج وأمن نقفور أن يُغْزَى نقض الصلح المعقود ، وحار وزراء الرشيد كيف يخبرونه ، ثم رأوا أن يخبره بذلك بعض الشعراء ، وسرعان ما دبّج التيمى قصيدة حماسية رائعة ضمّنها الخبر، ودخل على الرشيد فأنشدها بين يديه قائلاً :

نَقَضَ الذى أعطاكه نَقْفُورُ ... فعليه دائرةُ البَوَارِ تَدورُ
أَبْشِرْ أمير المؤْمنين فإنّه ... فَتْحٌ أتاك به الإلهُ كَبِيرٌ
نقفورُ ! إنك حين تَغْدرأن نأى ... عنك الإمامُ لجاهلٌ مغرورُ
أظننت حين غدرتَ أنك مفلتٌ ... هَبِلَتْكَ أُمُّكَ ما ظننت غرورُ
أبقاك حَيْنُكَ فى زواخر بحرِهِ ... فَطمَتْ عليك من الإمامِ بحورُ[1]

واهتز الرشيد طربا بشعره ونَثَر عليه الدُّرَّ . وزحف بجيوشه حتى أناخ على هرقلة ، فافتتحها عنوة ، وذلّ نقفور وذلّت الروم .

ويقول صاحب الأغانى إن التيمى اتصل بيزيد بن مزيد ، فلم يزل منقطعا إليه حتى مات ، وليس بين أيدينا ما يصوّر مدائحه له ، وقد بكى فيه بطولته وذياده عن حياض الدولة وفتكه بأعدائها فتكاً ذريعاً حين اختطفه الموت ، وفى ذلك يقول من مرثية رائعة تعد من أجود مراثى العصر :

أحقٌّ أنه أَوْدَى يزيـدُ ... تبيَّنْ أيهـا الناعى المشيدُ[2]
أتدرى مَنْ نعيتَ وكيف فاهتْ ... به شفتاك؟! كان بك الصَّعِيد[3]
أحامى المجد والإسلام أَوْدَى ... فما للأَرض ويحك لا تَميد[4]
تأَمَّلْ هل ترى الإسلامَ مالتْ ... دعائمُـه وهل شاب الوليدُ

(١) الحين : الموت والهلاك .
(٢) أودى : مات .
(٣) الصعيد هنا : القبر .
(٤) تميد : تتحرّك وتهتز .

وهل شِيمَتْ سيوفُ بنى نِزارٍ وهل وُضِعتْ عن الخيل اللُّبودُ[١]
وهل تَسْقِى البلادَ عِشارُ مُزْنٍ بِدِرَّتِها وهل يَخْضَرُّ عود[٢]
أَبَعْدَ يزيد تختزن البواكى دموعـا أو تُصان لها خُدودُ
ومن عجبٍ قَصَدْنَ له المنايا على عَمْدٍ وهنَّ له جنود
لقد عَزَّى ربيعةَ أنَّ يومًا عليها مثل يومك لا يعود

ويقال إن الرشيد كان حين يسمع هذه المرثية فى قائده يبكى بدموع غزار حتى لو كان بين يديه كأس لملأه بدموعه .

ونرى التيمى بعد عصر الرشيد يصل حباله بالأمين ويلجِّج معه فى نقضه لعهد أخيه المأمون ، وله فى ذلك قصيدة يقال إن الأمين أعطاه عليها مائة ألف درهم . ولما تطورت الحوادث وانتصر المأمون على أخيه أخذ ينقض ما صاغه فى الأمين بمثل قولـه :

نُصِرَ المأمون عبد الله لمـا ظلموهُ
نقضوا العهد الذى كا نوا قـديماً أكَّدوه
لم يعامله أخـوهُ بالذى أوصى أبوه

وعفا عنه المأمون ووصله ، واتصل بقواده ووزرائه من مثل طاهر بن الحسين والفضل بن سهل ، وفيه يقول[٣] :

لعَمْرُكَ ما الأَشرافُ فى كل بلدةٍ وإن عظموا إلا لفَضْلٍ صَنائعُ
تَرى عظماءَ الناس للفضل خُشَّعًا إذا ما دَنا والفضل لله خاشع

وهو يُعَدُّ فى الخلعاء المُجَّان ، غير أن أشعاره فى الخمر متوسطة ، ويظهر أنه كفَّ عنها بأخرة من حياته ، وحسنت سيرته ، وحَسُن إيمانه ، يشهد لذلك مثل قوله :

---

(١) شيمت السيوف : أغمدت .

(٢) المزن : السحب . والعشار : جمع عشراء وأصلها الناقة على وشك أن تلد ، يريد المزن المحملة بالأمطار ، الدرة : أصلها كثرة اللبن ويريد المطر الغزير .

(٣) قارن الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٢٠ بالأغانى ١٨ / ١٩٩ حيث ذكر أبو الفرج أن البيتين فى مديح الفضل بن الربيع .

لا تخضعنَّ لمخلوقٍ على طمعٍ ... فإن ذاك مُضِرٌّ منك بالدينِ
وارغبْ إلى الله مما فى خزائنِه ... فإنما هو بين الكاف والنُّونِ

وواضح أنه كان شديد أسر الشعر ، وأنه كان يعرف كيف يصطفى اللفظ ، سواء أراد الأسلوب الجزل الرصين أو الأسلوب العذب الرقيق . وقد توفى سنة ٢٠٩ للهجرة .

على[1] بن جَبَلة

اشتهر بلقبه العَكَوَّك ، ومعناه القصير السمين ، وهو من أبناء شيعة العباسيين الخراسانيين ، وُلد سنة ١٦٠ للهجرة بحىّ الحربية فى بغداد ، وكان ضريراً ، وفى بعض الروايات أنه وُلد أكمه لا يبصر ، وفى روايات أخرى أنه فقد بصره فى صباه . وجعلته هذه العاهة يتجه إلى الدرس والتعلم ورواية الشعر وحفظه ، وسرعان ما استبانت فيه موهبته الشعرية ، فأخذ ينظم الشعر متكسباً به . ولم تطمح نفسه إلى مديح الخلفاء ، وإن كان يقال إنه مدح المأمون ، ولكن على كل حال ليس بين أيدينا شىء من هذا المديح . ونراه يمدح وزيره الحسن بن سهل بمثل قوله :

أعطيتَنى يا ولىَّ الحق مبتدئاً ... عطيَّةً كافأَتْ مَدْحى ولم ترنى
ماشِمْتُ بَرْقك حتى نِلْتُ رَيِّقه ... كأنما كنتَ بالجَدْوَى تبادرنى[2]

وأهم ممدوحيه حُمَيد بن عبد الحميد الطوسى وأبو دُلف العِجْلى ، وله فى أولهما قصيدتان يقال إنه أعطاه فى كل منهما مائة ألف درهم ، وقد أنشده أولاهما فى يوم عيد والثانية فى يوم نيروز ، وفيها يقول :

حُمَيْدُ ياقاسم الدنيا بنائلهِ ... وسَيْفِه بين أهل النَّكْث والدينِ

---

(١) انظر فى على بن جبلة وأخباره وأشعاره ابن قتيبة ص ٨٤٠ وابن المعتز ص ١٧١ ، ٤٣٣ والأغانى (طبع الساسى) ١٨/١٠٠ وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع دار المعارف) ص ١٠٦ وتاريخ بغداد ١١/٣٥٩ ونكت الهميان للصفدى ص ٢٠٩ ومرآة الجنان لليافعى ٢/٥٣ وشذرات الذهب ٢/٣٠ ووفيات الأعيان لابن خلكان .

(٢) شام البرق : نظر إليه أين يتجه . والريِّق : أول الغيث . الجدوى : العطاء .

أنت الزمان الذى يجرى تصرُّفه على الأنام بتشديدٍ وتليينِ
لو لم تكن كانت الأيام قد فنيتْ بالمكرمات ومات المجد مُذْ حينِ
صوَّرك الله من مجد ومن كرمٍ وصوَّر الناس من ماءٍ ومن طين

وله فيه مدائح كثيرة ، ومن بديع مديحه فيه قوله وكان يلقب بأبى غانم كناية عن بطولاته وانتصاراته المدوية فى الحروب :

دِجْلَةُ تَسْقِى وأبو غانمٍ يُطْعِم مَنْ تَسْقِى من الناسِ
والناسُ جسمٌ وإمامُ الهُدَى رَأْسٌ وأنتَ العين فى الرَّاس

وقولـــه :

إنمـــا الدُّنيا حُمَيْدٌ وأياديـــه الجِسامُ
فإذا ولَّى حُمَيْدٌ فَعلى الدنيا السلام

وعثر القدر بمحمد بن حميد فى حروبه مع بابك ، فخرَّ صريعاً فى ساحة البطولة والجهاد لأول سنة ٢١٤ للهجرة ووجدت عليه بغداد والعالم الإسلامى وجداً شديداً ، ورثاه أبو تمام بمراثٍ رائعة عرضنا لها فى حديثنا عنه ، ولعلى بن جبلة مرثية بديعة فيه ويقال بل هى فى أبيه حميد ، ويقول أبو الفرج إن البحترى وأبا تمام سلخا فى مراثيهما أكثر معانيها وفيها يقول :

أللدهرِ تبكى أم على الدهر تَجْزَعُ وما صاحبُ الأيام إلا مفجَّعُ
أُصِبْنا بيومٍ فى حُمَيْد لو انَّهُ أصاب عروش الدهر ظلتْ تضعضع
وكنت أراه كالرزايا رُزِئْتُها ولم أدر أن الخلق تبكيه أجمع
نعــاءِ حميدًا للسرايا إذ غدتْ تُذاد بأطراف الرماح وتوزَعُ(١)
كأن حميدًا لم يقد جيش عسكرٍ إلى عسكر أشياعُه لا تروَّع
ولم يبعث الخيلَ المغيرةَ بالضحى مِراحا ولم يرجع بها وهْى ظُلَّعُ(٢)

(١) نعاء : اسم فعل أمر من نعى . توزع : تكف .

(٢) ظلع : من الظلع وهو العرج .

رواجـع يحملْنَ النِّهابَ ولم تكن كتائبه إلا على النهب ترجعُ
هوى جَبَل الدنيا المنيعُ وَغَيْثُها الـ مَريع وحاميها الكميُّ المشيَّع(١)

واستنفد أبو دلف بعطاياه السنية أكثر مدائحه حتى لم يكد يبقى فيه شيئاً لغيره ، إلا ما كان من حميد الطوسى ، ومدائحه فيه أبدع وأروع ، وقد طار منها كثير على كل لسان من مثل قوله فيه :

ملكٌ تَنْدَى أناملُهُ كانبلاج النَّوْء عن مَطرهْ(٢)
مُسْتَهِلٌّ عن مواهبِهِ كابتسام الروض عن زَهَرِهْ
إنمـا الدُّنيا أبو دُلَفٍ بين مَغْزاه ومُحْتَضَرِه(٣)
فإذا ولَّى أبو دلف ولَّتِ الدنيا على أَثَرِهْ

وقوله وقد أسرف فى المبالغة :

أنت الذى تُنْزِلُ الأَيَّامَ منزلها وتنقل الدَّهر من حالٍ إلى حالِ
وما مددتَ مَدَى طَرْفٍ إلى أحَدٍ إلا قضيتَ بأرزاق وآجالِ

ويقال إنه كان يثير المأمون بمثل هذا الشعر فى أبى دلف وشعره الآخر فى ابن حميد ، فطلبه وهرب منه إلى الجزيرة ، وحُمِل إليه فأمر بإخراج لسانه من قفاه ثم قتله . وقد رفض ابن المعتز وأبو الفرج هذه الرواية الكاذبة على المأمون المعروف باتساع أفقه وسماحة نفسه وكرم سجاياه ، وقالا إنه مات حتف أنفه . وقال بعض من ترجموا له إنه مات سنة ٢١٣ وفى أخباره أنه رحل إلى عبد الله بن طاهر فى ولايته على خراسان ومدحه فأجزل صلته واستأذنه فى الرجوع ، فسأله أن يقيم واتصل برِّه به ، فلما طال مقامه اشتاق إلى أهله ، فدخل إليه وأنشده من قصيدة مستأذنا فى القفول إلى موطنه :

ملكٌ عَزْمه الزمـا نُ وأفعـاله الدُّوَلْ

---

(١) المريع : الخصيب . الكمى : الشجاع. (٢) النوء : نجوم تظهر قبل المطر.

ليتَه حين جاد لى بالغِنَى جاد بالقَفَلْ

وأذن له مغدقا عليه من نواله. وعبد الله بن طاهر إنما أقام فى خراسان منذ سنة ٢١٤ . وفى ذلك دليل على أن وفاة على بن جبلة تأخرت على الأقل إلى هذه السنة ، وواضح أنه كان يجيد المديح إلى أبعد حد ، وكان يعرف كيف يتصرف بمعانيه ، مع الألفاظ الرشيقة العذبة ، ومن طريف معانيه قوله :

يأسو الذى يجرح أعداؤهُ وما لما يَجْرحه آسِ

وقوله :

كأنهم والرماح شابكةٌ أُسْدٌ عليها أظلّتِ الأَجَمُ

وقوله فى مديح أبى دلف :

له هِمَمٌ لا منتهى لكبارها وهمّتُه الصغرى أجلُّ من الدهرِ

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور براعته فى صنع الشعر وأنه كان يعمد إلى لغة سهلة عذبة مونقة ، ودفعه مزاجه الفارسى الحاد إلى الإكثار من المبالغة فى نعت ممدوحيه ، حتى ليفرط فى ذلك إفراطاً شديداً .

الخُرَيْمِىّ

هو أبو يعقوب إسحق بن حسان بن قوهى الخُرَيْمى ، من صُغْد الترك من مرو ، وهو جزرى نزل بغداد ، وكان له ولاء فى غطفان جعله يلزم عثمان بن خُرَيم المُرِّى الغطفانى فى ولايته على أرمينية ، وظلّ وفيًّا له ، فنُسب إليه ، وفيه يقول :

جَزَى اللهُ عثمانَ الخُرَيمىَّ خير ما جَزَى صاحباً جَزْلَ المواهب مُفْضِلا

---

(١) انظر فى الخريمى وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٩٣ وابن قتيبة ص ٨٢٩ وتاريخ بغداد ٦/٣٢٦ و زهر الآداب ٤/٢٠١ وفهارس الوزراء والكتاب للجهشيارى والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ وكذلك الطبرى ٦/٤٥٨ و٧/٥٢ والكامل للمبرد (طبعة ليبسك) ص٧٠٣ ومعجم البلدان ٥/٣٦٣ وكتاب الورقة لابن الجراح ص ١٠٢ .

كفى جَفْوَةَ الإخوان طول حياتهِ وأورث مما كان أعطى وخَوّلا (١)

وفى أخباره ما يدل على أنه كان يكثر من الاختلاف فى بغداد إلى مجالس الأدب ، ويظهر أيضاً أنه كان يختلف إلى مجالس المتكلمين إذ يكثر الجاحظ فى بيانه من النقل عنه . وقد تألق نجمه فى عصر الرشيد والبرامكة ، وفيه يقول ابن المعتز : « كان يمدح الخلفاء والوزراء والأشراف فيُعْطَى الكثير » ، ومن شعره فى يحيى البرمكى :

يا راعىَ السلطان غير مفرِّطٍ فى لين مختبَطٍ وطيب شِمام (٢)
حتى تَنَخْنَخ ضاربًا بِجرانِه ورسَتْ مراسيهِ بدار سلام (٣)

وأكثر مدائحه فى صاحبه عثمان المرى وفى محمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة الملقب بفتى العسكر لقيامه على ديوان الجيش ، وفيه يقول :

زاد معروفَك عندى عِظَماً أنه عندك مستورٌ حقيرْ
تتناساهُ كأن لم تأتِه وهو عند الناس مشهورٌ خطير

ويظهر أن صلة وثيقة انعقدت بينه وبين الحسن بن البَحْباح البَلْخِيّ كاتب الفضل بن يحيى البرمكى ، إذ نراه يكتب له قصيدة بديعة حين ولى مصر للرشيد سنة ١٩٣ يعبر فيها عن شدة شوقه إليه ، ومدى ما كان يتوثق بينهما من مودة وصداقة ، وفيها يقول :

إلى صاحبٍ لا يُخْلق النَّأْىُ عهده لناءٍ ولا يَشْقَى به من يُصاقِبُهْ (٤)
هو الشهدُ سِلْمًا والذُّعافُ عداوةً وبحرٌ على الوُرَّاد تجرى غَواربه (٥)
فيا حسن الحُسْنِ الذى عمَّ فضله وتمَّتْ أياديه وجَمَّتْ مناقبه (٦)
إليك على بُعْدِ المزار وصحبهِ نوازعُ شوقٍ ما تُرَدُّ عَوازبه (٧)

---

(١) خول : أنعم .
(٢) مختبط : من اختبطه إذا سأله بدون قرابة أو معرفة . شمام : دنو وقرب .
(٣) تنخنخ : من تنخنخ البعير إذا برك وجثم على الأرض . الجران : عنقه . وضرب بجرانه : استقر واستقام .
(٤) يخلق : يبلى . يصاقبه : يجاوره .
(٥) غواربه : أعالى موجه .
(٦) جمت : كثرت .
(٧) عوازبه : جمع عازب وهو البعيد .

فهل يرجعنْ عيشى وعيشُك مرةً ببغداد دهرٌ منصفٌ لا نعاتبه
عسى ولعل الله يجمع بيننا كما لاءمتْ صَدْعَ الإناء مشاعبه

ومن مدحهم المأمون وأبو دلف قائده ، وكان أبو دلف شاعرًا بليغًا محكم القول ، ولعل ذلك ما جعله يصف شعره له فى بعض مديحه بقوله :

له كَلِمٌ فيك معقولةٌ إزاءَ القلوب كَرَكْبٍ وقوفْ

وهو تصوير دقيق . ولاحظ بعض معاصريه أن مدائحه التى دبَّجها فى ممدوحيه أحسن من مراثيهم فيهم وأجود ، وسأله فى ذلك ، فقال : كنا يومئذ نعمل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على الوفاء وبينهما بون بعيد ! ومن بديع رثائه قوله :

وأعْددته ذُخْرًا لكل مصيبةٍ وسَهْمُ المنايا بالذخائر مولَعُ
ولو شئت أن أبكى دمًا لبكيته عليه ولكنْ ساحةُ الصبر أوسع

وله فى بغداد حين رماها طاهر بن الحسين بالمجانيق فى فتنة الأمين ، فأحرق كثيراً من قصورها ، وهدم بعض أحيائها ، مرثية طويلة امتدت إلى مائة وخمسة وثلاثين بيتًا ، بكاها فيها ، وندبها نَدْبًا حارًّا ، موازنًا ماضيها وحاضرها ومصوراً ما كان فيها من مجون وإثم وما صارت إليه أحياؤها من هذا الدمار الذى صبه الله عليها جزاء طغيانها وفسوقها ، وفيها يقول :

يا بُؤسَ بغدادَ دار مملكةٍ دارتْ على أهلها دوائرُها
أمْهلها اللهُ ثم عاقبها لما أحاطتْ بها كبائرها
رَقَّ بها الدِّين واستُخِفَّ بذى الـ فَضْلِ وعزَّ النُّسَّاكَ فاجرها
وصار ربَّ الجيران فاسقهُم وابتزَّ أمرَ الدروب شاطِرُها

وهو فى القصيدة ينتصر للمأمون . ونراه يتعرض بالهجاء إلى أبى دُلف العجلى ، ويظهر أنه لم يثبه بما كان يبتغيه منه ، فتحول يهجوه بمثل قوله :

إنى وجدت أخى أبادُلف عند الفَعال مولَّد الشَّرَفِ

ومن تولع بهجائهم على بن الهيثم أحد كتاب الدواوين ، وكان يتقعر فى كلامه ، حتى ليؤذى من يجالسونه بكثرة ما يورد عليهم من غريب ، وله يقول :

لا تشادَقْ إذا تكلمتَ واعلمْ أن للناس كلِّهم أشداقا

وحدث فى أثناء رفقته لعثمان بن خريم فى ولايته على أرمينية أن عقد له فى بعض حروبه للترك على أشراف ممن معه ، فكرهوا ذلك ، وما زالوا به ، حتى عزله ، وأثاره هذا الحادث ، فنظم قصيدة فخر فيها بآبائه من الصُّغْد ، وفيها يقول :

أبِالصُّغْدِ بَأْسٌ إذ تُعَيِّرنى جُمْلُ سَفَاهاً ومن أخلاق جارتِىَ الجهلُ

فإن تفخرى يا جُمْلُ أو تتجمَّلى فلا فَخْرَ إلا فوقه الدينُ والعقل

أرى الناس شَرْعًا فى الحياة ولا يُرَى لقبرٍ على قبر عَلاءٌ ولا فَضْلُ[1]

وما ضرَّنى أن لم تَلِدْنى يُحابِرٌ ولم تشتمل جَرْمٌ علىَّ ولا عُكْلُ[2]

وقد سلكه بعض الباحثين من العرب والمستشرقين فى أصحاب نظرية الشعوبية لجريان هذا الفخر على لسانه ، وهو لا يستمد فيه من شعوبية ، إنما يستمد من نظرية الإسلام التى تسوى بين الناس عربًا وموالى ، فلا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . وفى أشعاره ما يدل على حسن تدينه وأنه لم ينغمس فيما انغمس فيه بعض معاصريه من مجون أو زندقة يقول داعيًا إلى الزهد والتقوى والعمل الصالح :

تزوَّدْ من الدنيا متاعاً لغيرها فقد شمَّرتْ حَذَّاءَ وانْصَرَمَ الحَبْلُ[3]

وهل أنتَ إلا هامةُ اليوم أو غدٍ لكل أناسٍ من طوارقِها الثُّكْلُ

وفى الأغانى بترجمة حماد الراوية خبر يدل على معاشرته للمجان ، ولعله مكذوب ، لتأخر عصره عن عصر حماد ، وقد رويت له أشعار قليلة فى الغزل ، وقيل إن أول ما نظمه قوله :

بقلبى سقامٌ لست أحسن وَصْفه على أنه ما كان فهْو شديدُ

تمرُّ به الأيام تسحب ذيلها فتَبْلى به الأيامُ وهْو جديدُ

(١) شرعاً : متساوين لا فضل لأحدهم على الآخر .

(٢) يحابر وجرم وعكل : قبائل عربية .

(٣) حذاء : سريعة الإدبار .

ونرى القدماء يلقبونه تارة بالأعور وتارة بالأعمى ، ويظهر أنه فقد إحدى عينيه مبكراً ، ثم فقد الأخرى بعد ما أسنّ ، وله أشعار كثيرة ، يبكى فيها عينه وبصره ، أنشدنا منها قطعة فى الفصل الرابع ، ومن طريف ما نسوقه له هنا قوله :

إذا ما مات بَعْضُك فابْكِ بعضاً ... فإن البعضَ من بعضٍ قريبُ
يمنّينى الطبيبُ شفاء عَيْنى ... وهل غيرُ الإله لها طبيبُ

وقوله :

كفى حزنًا أن لا أزورَ أحبّتى ... من القُرب إلا بالتكلف والجَهْدِ
وأنى إذا حُيِّيت ناجيتُ قائدى ... ليَعْدِلنى قبل الإجابة فى الردِّ

وفى أشعاره نزعة واضحة إلى التدقيق فى المعانى ، وهو تدقيق أداه إلى الوقوف عند الطباع وتحليلها تسعفه فى ذلك ملاحظات نافذة وقدرة على النظرة الكلية فى الأشياء ، ومن خير ما يمثل ذلك عنده قوله :

الناسُ أخلاقُهم شتّى وإن جُبِلوا ... على تشابه أرواحٍ وأجسادِ
للخير والشر أهلٌ وكّلوا بهما ... كلٌّ له من دواعى نفسه هادِ

وقوله :

ودون النَّدَى فى كلِّ قلبٍ ثَنِيَّةٌ ... لها مَصْعَدٌ حَزْن ومنحدَرٌ سَهْلُ
ووَدُّ الفتى فى كل نَيْلٍ يُنِيلهُ ... إذا ما انقضى لو أن نائِلَهُ جَزْلُ

ونراه يصور الكرم تصويراً بديعًا ، إذ يجعله فى بِشْر المُضيف وحسن استقباله لا فى طعامه وكثرة ذبائحه ، يقول :

أضاحِكُ ضَيْفى قبل إنزال رَحْلِه ... ويُخْصِبُ عندى والمحلُّ جَديبُ
وما الخِصْبُ للأضياف أن يكثر القِرَى ... ولكنما وَجْهُ الكريم خصيبُ

ومما يجرى هذا المجرى من دقة التفكير وطرافته قوله السائر فى الآفاق :

ولستُ بنظّار إلى جانبِ الغنى ... إذا كانتِ العلياءُ فى جانب الفَقْر

وواضح أن اللفظ البارع كان يسند دائمًا معانيه وأشعاره ، فلا تجد فيه عوجًا ولا انحرافًا ، بل تجد دائمًا المتانة والسهولة ، ويُرْوَى أنه سُئل : ما بال شعرك لا يسمعه أحد إلا استحسنه وقبلته طبيعته ؟ قال : لأنى أجاذب الكلام إلى أن يساهلنى عفواً ، فإذا سمعه إنسان سهل عليه استحسانه . وقد توفى سنة ٢١٤ للهجرة .

٥

شعراء الهجاء

مرّ بنا فى غير هذا الموضع أن شعر الهجاء المنبعث عن العصبيات القبلية خفت حدّته فى هذا العصر ، حتى كاد يتلاشى ، إلا بقايا قليلة تمثلت فى نقائض ابن قنبر ومسلم بن الوليد ، كما تمثلت فى نقائض دعبل وأبى سعد المخزومى ، ومرجع ذلك إلى تطور واسع فى الحياة ، جعل الفخر الجنسى يحل محل الفخر القبلى ، مما دفع إلى ظهور الشعوبية ، وحقًّا بقيت أسراب من هذا الفخر عند القبائل ومواليها ، على نحو ما نجد عند بكر بن النطاح الحنفى فى مثل قوله مفتخراً بقبيلته بكر [1] :

ومَنْ يفتقرْ منا يَعِشْ بحسامهِ ومَنْ يفتقر من سائر الناس يسألِ

وكان أبو نواس — كما مرّ بنا — يفتخر بمواليه القحطانيين افتخاراً حادًّا ، ولكن الدولة كانت له ولبكر وأمثالهما بالمرصاد فقد حبس الرشيد أبا نواس بسبب إحيائه لهذه العصبية ، وطلب بكراً وهرب منه . وعلى هذا النحو لم تعد تحتدم العصبيات وبالتالى خَبَتْ نار النقائض التى كانت مشتعلة فى عصر بنى أمية . وليس معنى ذلك أن الهجاء انطفأ لهيبه ، بل لقد تعالت نيرانه واضطرمت اضطرامًا ، إذ ظل الشعراء يسارعون إليه كلما حجبهم وزير أو وال أو قائد أو قصّر فى عطائهم ، وقد يهجون بعض الخلفاء على نحو ما أسلفنا عند دعبل . وهو جانب أوسع من أن يستقصى لكثرة ما قيل فيه من أشعار ، ولذلك سنكتفى هنا بالحديث عن تهاجى الشعراء بعضهم مع بعض ، وقد ذكرنا قبلا تهاجى حماد عجرد وبشار

---

(١) ابن المعتز ص ٢١٧ وما بعدها والأغانى.

(٢) (طبعة الساسى) ١٧/١٥٤.

وكانت فى حماد رعونة شديدة جعلته يتبادل الهجاء حتى مع أصدقائه مثل مطيع بن إياس ، وكان مبعث تهاجيهما تنافسهما على بعض القيان . ولعل شاعراً لم يُهْجَ فى هذا العصر كما هُجى أبان بن عبد الحميد ، وقد عرضنا لتهاجيه مع أبى نواس ، وممن أكثر من تبادل الهجاء معه المعذَّل بن غيلان ، وفيه يقول[١] :

صحّفتْ أمُّك إذ سَمَّتْك بالمَهْد أبانا
قد علمنا ما أرادتْ لم تُرِدْ إلا أتانا
صيَّرتْ باءً مكان التّاء والله عِيانا
قطع الله وشيكا من مسميكِ اللِّسانا

وكان أبو نواس كثير التعابث فأكثر من هجاء زملائه ، وسلقوه بألسنة حداد ، وفى مقدمتهم الفضل بن عبد الصمد الرقاشى ، وكان كثيراً ما يهجوه بأنه ليس عربيًّا وأنه دعىّ فى ولائه لبنى سعد العشيرة القحطانيين ، مما جعله يرد عليه بمثل قولـه[٢] .

وجدنا الفضل أبعد من رقاشٍ من الأُتُن ادَّعتْ فيها الفيولُ
وجدنا الفضل أكرم من رقاشٍ لأنَّ الفضل مولاه الرسول

يشير بذلك إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أنا مولى من لا مولى له » . وقد مرَّ بنا تهاجى أبى العتاهية ووالبة ، وكيف انتصر عليه أبو العتاهية انتصاراً حاسمًا حتى فرَّ منه راجعاً إلى الكوفة وخمل ذكره . واصطدم أبو العتاهية بسلم الخاسر ، فتبادلا الهجاء على نحو ما صورنا ذلك فى ترجمتنا لأولهما ، وكان سلم يرميه بأنه كاذب فى زهده ويرميه أبو العتاهية بشُحّ نفسه وما يجره ذلك عليه من الذل . وممن اصطدم به مروانُ بن أبى حفصة وأبو الشمقمق وشاعر يسمى الجنّىّ وله يقول[٣] :

غَدا اللُّؤْمُ يبغى مَطْرَحًا لرِحالهِ فنقَّب فى بَرِّ البلاد وفى البَحْر

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب)١٣ / ٢٢٧ .
(٢) ديوان أبى نواس. وأغانى (ساسى) ١٥ / ٣٤.
(٣) أغانى ١٠ / ٩٢ وما بعدها .

فلما أتى مروانَ خيَّم عنده   وقال رضينا بالمقام إلى الحَشْرِ
وليستْ لمروانٍ على العِرْسِ غَيْرَةٌ   ولكنَّ مروانًا يغار على القِدْرِ

وكان دعبل كثير الهجاء لكل من يظن أنه ارتفع على مرتبته من الشعراء حتى أستاذه مسلم بن الوليد لم يسلم منه ، ور بما كان أهمُّ شاعر حسده أبا تمام ، حتى كان لا يكتفى بهجائه ، بل يدعى عليه أنه سرق قصائد برمتها من الشعراء السابقين وفيه يقول[1] :

أدعبلُ إن تطاولتِ الليالى   عليك فإن شعرى سمٌّ ساعه
وما وفد المشيبُ عليك إلا   بأخلاق الدناءةِ والوضاعه
ووجهك إن رضيت به نديماً   فأنت نسيجُ وحدك فى الرَّقاعه
ولو بُدِّلته وجهاً بوجه   لما صلَّيت يوماً فى جماعه

وكانت صِلاتُ أبى تمام فى كل بيئة ينزل بها سبباً فى كثرة مَنْ هجوه ، وقد صورنا ذلك من بعض الوجوه فى حديثنا عنه . ونحن نخص بالحديث هَجَّاءين كبيرين هما أبو عُيَيْنَة المهلَّبى وعبد الصمد بن المعذَّل .

أبو عيينة[2] المهلبى

هو أبو عيينة بن محمد بن أبى عُيَيْنَة ، من سلالة المهلب بن أبى صفرة ، مولده ومنشؤه وحياته فى البصرة ، إذ لم يفارقها إلا لماماً ، وكان أبوه يولَّى الرى لأبى جعفر المنصور ، ثم قبض عليه وحبسه وغرَّمه . وكان لأبى عيينة أخوان شاعران هما عبد الله وداود ، ومن الغريب أنهم جميعاً كانوا هجائين ، أما عبد الله فقصد ابن طاهر ومدحه ، ثم هجاه هجاء مرًّا ، وأما داود فتعلق بهجاء آل سليمان بن على والى البصرة ، وقد تولاها من أبنائه غير واحد ، وفيهم يقول :

قومٌ إذا أكلوا أخفوا كلامهمُ   واستوثقوا من رِتاج الباب فى الدارِ

---

(١) أغانى (طبعة الساسى) ١٨/ ٣٤ .

(٢) انظر فى أشعار أبى عيينة وأخباره ابن المعتز ص٢٨٨ وابن قتيبة ص٨٤٧ ومابعدها والأغانى (طبعة الساسى) ١٨/ ١١ وما بعدها .

لا يَقْبِسُ الجارُ منهم فَضْلَ نارهمُ ... ولا تكفُّ يَدٌ عن حُرْمة الجارِ

وأبو عيينة أشعر الثلاثة ، ويقول ابن المعتز إنه « أحد المطبوعين الذين لم يُرَ فى الجاهلية والإسلام أطبع منهم ، وهم بَشّار وأبو العتاهية والسيد الحميرى وأبو عيينة » .

وقد استغل موهبته فى فنين هما الهجاء والغزل ، وأكثر هجائه فى ابن عمه خالد ابن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب إذ صحبه معه فى جنده حين توجَّه إلى جرجان والياً عليها للمهدى وكان خالد قد أوسع له فى الأمانى وأنه سيغدق عليه ويوليه بعض الولايات ، ولما نزل جرجان جفاه وتنكَّر له ، فبسط لسانه فيه وذكره بكل قبيح عند أهل عمله ووجوه رعيته . وعبثاً حاول أبو عيينة أن يتخلص منه ومن الجندية ، فشكاه إلى الهادى وكان قد ولى الخلافة بعد أبيه ، فأمر له بصلة وأقفله من جيش خالد، فعاد وهو يهتف بهجائه، وأكثر منه كثرة تدل على قوة طبعه وخصبه ، ومن قوله فيه :

لقد خَزِيَتْ قحطان طُرًّا بخالدٍ ... فهل لكِ فيه – يُخْزِكِ الله – يا مُضَرْ

دنىء به عن كل خيرٍ بلادةٌ ... لكلِّ قبيحٍ عن ذراعيه قد حَسَرْ

له منظرٌ يُعْمِى العيونَ سماجةً ... وإن يُخْتَبَرْ يوماً فيا سوءَ مُخْتَبَرْ

أبوك لنا غَيْثٌ نَعيشُ بِوَبْلِه ... وأنت جَرادٌ ليس يبقى ولا يَذَرْ

له أَثَرٌ فى المكرمات يسرُّنا ... وأنت تعفِّى دائماً ذلك الأَثَرْ

تسيءُ وتمضى فى الإساءة دائباً ... فلا أنت تستحيي ولا أنت تعتذر

ويقال إن الرشيد أنشد البيت الأول ، فقال : بل الخزى موفَّر على قحطان . وقد عرف كيف يخزه وخز الإبر لا بما صور فيه خزيه الذى عمَّ به عشيرته وأخلاقه السيئة وغباوته ، بل أيضاً بموازنته بينه وبين أبيه جامعاً فى البيت الواحد بين المديح والهجاء . وهو يكثر فى هجائه من الاستخفاف به والسخرية سخرية شديدة ، مع الإقذاع ومع الغمز واللمز ، ومن طريف ماله فيه قوله :

خالدٌ لولا أبوهُ ... كان والكلبَ سواءْ

لو كما ينقصُ يزدا ... دُ إذن نال السماءْ

وقوله :

وإذا تطاولت الرءو س فغطّ رأسك ثم طَاطِهْ

ويروى أنه(١) قصد ابن عمه ربيعة بن قبيصة بن روح بن حاتم المهلبي واستماحه فلم يجد عنده ما قدَّره فيه ، فولّى عنه مغاضبا وعرف ذلك داود بن يزيد بن حاتم ابن قبيصة المهلبي ، فترضاه بصلة سنية جعلته يمدحه مدحاً رائعاً هاجياً في تضاعيفه قبيصة هجاء كله سموم من مثل قوله :

داودُ محمودٌ وأنت مُذَمَّمٌ عجبًا لذاك وأنتما من عودِ

ولرُبَّ عودٍ قد يُشَقُّ لمسجدٍ نصفٌ ، وسائرُه لحُشِّ يهود

فالحُشُّ أنت له وذاك لمسجدٍ كم بين موضعِ مَسْلَحٍ وسجودِ

داود يفتح كلَّ بابٍ مُغْلَقٍ بِنَدَى يديه وأنت قُفْلُ حديد

وكأنما كان موكلا بهجاء أبناء أعمامه ، وأيضًا بناتهم ، فقد روى صاحب الأغانى أن ابن عمه سعيد بن المهلب تزوج بنت سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، وكانت قد تزوجت قبله رجلين ماتا عنها ، فكتب أبو عيينة إليه ، يعنّفه على اختياره لها وأنه إنما اختارها بسبب مالها ، يقول :

رأيتَ أثاثَها فطمعتَ فيه وكم نَصَبَتْ لغيرك من أثاثِ

فَصَيِّرْ أمرها بيدَىْ أبيها وسَرِّحْ من حِبالك بالثّلاث(٢)

وإلا فالسلامُ عليك منى سأبدأ من غَدٍ لك بالمراثى

وكانت فاطمة بنت عمه عمر بن حفص المهلبي قد شغفته حبًّا ، وتصادف أن اقترنت بعيسى بن سليمان بن على العباسى ، فكاد يُجَنُّ جنونه ويطير صوابه ، وظل يدور حولها وينظم فيها أشعاره ، غير أنه كان يخشى زوجها وآله ، فعمد إلى التكنية عنها بمولاة لها تسمى دنيا ، وفى ذلك يقول :

وكتمتُ اسمها حِذارًا من النا س ومن شرهم وفى الناس شَرُّ

---

(١) نسب أبو الفرج الخبر إلى عبد الله ، ولكن ابن المعتز نسب الشعر المصاحب له إلى أخيه أبى عيينة ، مما يدل على أنه صاحب الخبر .

(٢) سرح : طلق .

ويقولون بُحْ لنا باسم دُنْيا وإسمُ دنيا سِرٌّ على الناس ذُخْرُ

وهو يكثر فى أشعاره لها من تصوير ذكرياته معها ، وزياراته ، التى كانت متصلة لها قبل زواجها وكيف كانت تبادله وُدًّا بود وحبًّا بحب ، وكيف كانا يجتمعان فى قصرها الفخم وما حوله من رياض رائعة ، وكيف كانا يلعبان ويعيشان منذ صغرهما ، يقول :

ومَلْعبنا فى النهر والماءُ زاخرٌ قرينين كالغصنين فرعين فى أَصْلِ
ومن حولنا الريحانُ غَضًّا وفوقنا ظلالٌ من الكَرْم المعرَّش والنَّخْل
إذا شئت مالتْ بى إليها كأننى إلى غُصْنِ بانٍ بين دِعْصَيْن من رَمْلِ[1]
فيا طِيبَ طعم العيش إذ هى جارةٌ وإذ نفسها نفسى وإذ أهلها أهلى
وإذ هى لا تعتلُّ عنى برقْبةٍ ولا خوف عَيْنٍ من وشاةٍ ولا بَعْلِ
فقد عفّت الآثار بينى وبينها وقد أوحشتْ منى إلى دارها سُبْلى

وكانت سيدة فاضلة ، فكانت لا ترد عليه رسائله وكانت تنتهر رسله ، بينما هو يصطلى بنار الحب المحرقة ويتعذب كما لم يتعذب أحد ، ملوِّحاً لها بأنه سيموت فى سبيلها وأن أحدًا لن يحزن عليه حزنها لجامعة القرابة والحب القديم ، يقول :

ولأنت إن متُّ المصابةُ بى فتجنّبى قتلى بلا وِتْرِ
فلئن هلكتُ لتلطِمِنْ جزعاً خَدَّيك قائمةً على قَبْرِى

وعلى هذا النحو ظل حبها قويًّا حارًّا فى قلبه ، وظلت ترده عنها فى عنف تارة وفى رفق تارة ثانية ، وهو يذكِّرها عهودهما القديمة وكيف أنه يفِى لها وفاء شديداً ، بينما هى تدافعه وتقاومه قاطعة لكل عهد وسبب بينها وبينه ، وهو كل يوم يزداد بها كلفاً وغراماً وحبًّا ما فوقه حب ، وفى ذلك يقول :

أرى عَهْدَها كالوَرْدِ ليس بدائمٍ ولا خير فيمن لا يدوم له عَهْدُ
وعهدى لها كالآسِ حُسْناً وبهجةً له نُضْرةٌ تَبْقَى إذا ما انقضَى الوَرْدُ

(١) الدعص : كثيب الرمل .

وما وَجدَ العُذْرِىُّ إذ طال وَجْدُهُ ... بعفراءَ حتى سَلّ مهجته الوَجْدُ
كوجدى غداة البين عند التفاتها ... وقد شفَّ عنها دون أترابها البُرْدُ
فقلت لأصحابى هى الشمسُ ضوءُها ... قريبٌ ولكنْ فى تناولها بُعْدُ

وفى أشعاره ما يدل على أنه فارق البصرة مع ابن عمه خالد بن يزيد طلباً للسَّلْوَى عنها ، ولكنه ظل هناك يذكرها ويذكر حبها متغنياً به وبها ، وعاد يدور حول بيتها لا يستطيع كظم حبه ، بل يعلنه إعلاناً ويكرر هذا الإعلان مازجاً له بكثير من التضرع والاستعطاف ، وصاحبته لا تُعْنَى به ولا تكترث ، وهو يزداد بها شغفاً وهياماً ناظماً فيها أشعاره البديعة من مثل قوله :

ضيَّعتِ عهد فتًى لعهدك حافِظٍ ... فى حفظه عجبٌ وفى تضييعكِ
ونأيتِ عنه فماله من حيلةٍ ... إلا الوقوفُ إلى أوان رجوعِك
متخشِّعاً يُذرى عليكِ دموعَهُ ... أسفاً ويعجب من جمود دموعكِ
إن تَقْتُليه وتذهبى بفؤاده ... فبِحُسْنِ وجهكِ لا بحُسْن صَنيعك

وأكبر الظن أنه ظل يذكرها ويتغنى بها حتى الأنفاس الأخيرة من حياته ، وقد جرَّته غيرته من زوجها إلى لمزه ببعض هجائه . وكانت له نظرات وتأملات دقيقة فى الحياة جعلت الحكمة تجرى أحياناً على لسانه ، ومن رائع ما يروى له فى تصوير القدر والحظوظ :

ما لا يكون فلا يكون بحيلةٍ ... أبداً وما هو كائنٌ فيكونُ
سيكون ما هو كائنٌ فى وقتهِ ... وأخو الجهالة مُتْعَبٌ محزونُ
يسعى القوىُّ فلا ينال بسعيهِ ... حَظًّا ويحظى عاجزٌ ومَهِينُ

وواضح من كل ما قدمنا أنه كان نبعاً غزيراً من ينابيع الشعر العباسى ، ويقول ابن المعتز إن « شعره أنقى من الراحة ، ليس فيه عيب ولا بيت يسقط » . ويقول أبو الفرج : « كان أبو عيينة من أطبع الناس وأقربهم مأخذاً . . وكان يقرب البعيد ويحذف الفضول ويُقلّ التكلف » . وفى حديث ابن المعتز عنه ما يدل على أنه لحق خلافة المأمون ويظهر أنها لم تظلّه طويلا .

عبد الصمد[١] بن المعذّل

من قبيلة عبد القيس ، ومولده ومنشؤه بالبصرة ، وهو من بيت شعر ، كان جده غيلان بن الحكم شاعراً ، ويُرْوَى أن محمد بن سليمان العباسي كان يستخدمه فى ولايته البصرة على بعض أعشارها ، فظهرت منه خيانة فعزله وأخذ ما خانه فيه، فقال حماد عَجْرد يهجوه بهذين البيتين اللذين أنشدناهما فى غير هذا الموضع :

ظهرَ الأميرُ عليك يا غَيْلانُ إذ خُنْته إن الأمير مُعانُ
أمع الدّمامة قد جمعتَ خيانةً قَبُحَ الدّميم الفاجرُ الخوّانُ

وكان ابنه المعذل شاعراً مُجيداً ، وقد أسلفنا ما نشب بينه وبين أبان بن عبد الحميد من هجاء كانا يتعابثان به ، ومن طريف ما يُنْسب إليه من شعر قوله :

وإنى لصبّارٌ على ما ينوبنى وحسبك أن الله أثْنَى على الصّبْر

وأم عبد الصمد أم ولد يقال لها الزرقاء ، وكان له أخ يسمى أحمد كان شاعراً أيضًا ، يقول أبو الفرج : « كان عفيفاً ذا مروءة ودين وتقدم فى المعتزلة » . وفى أشعار عبد الصمد ما يدل على أنه كان يختلف إلى حلقات الرواة واللغويين إذ يقول :

لن تَلْبِسُوا منطقى بمشكلة إلا عن الأصمعىِّ أو خَلَفِ[٢]

يريد خلفاً الأحمر . وكان على عكس أخيه أحمد فيه لهو ومجون وتعابث ، وكان هَجّاء خبيث اللسان حتى ليصبح الهجاء عنده كأنه غريزة ، فإذا هو يتناول به أخاه ، وكان له جاه واسع فى بلدته وعند حكامه لا يقاربه عبد الصمد

---

(١) انظر فى عبد الصمد وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٣٦٨ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/٢٢٦ وما بعدها و ١٤/٢٦١ وما بعدها وكتاب الورقة لابن الجراح ص ٣٠ وفوات الوفيات والأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء) ص ٣٩، ٥٢، ١٣٦ والوساطة بين المتنبى وخصومه (طبعة الحلبى) ص ١٢١ و ٢٩١ و ٣٠١ .

(٢) لبس الأمر : خلطه .

فيه فكان يحسده ويهجوه فيحلم عنه ، وحدث أن قدم على بعض الخلفاء فأكرمه وخلع عليه ووصله بمال كثير ، ورجع إلى البصرة ، فاستقبله جِلَّتها استقبالا حافلا ، أما عبد الصمد فاستقبله بقوله :

ولما أن أتته دُرَيْهِمَاتٌ ... من السلطان باع بهنَّ ربَّهْ
كسبتَ أبا الفضولِ لنا مَعاباً ... وعارًا قد شُمِلْتَ بِهِ وسُبَّهْ

وفكر أحمد فى أن يجاور فى الثغور ويجاهد فى جيش إسحق بن إبراهيم المصعبى صاحب بغداد وحاكمها ولم يكد يلقاه حتى أنشده شعراً مدحه به ، فأمر له بخمسمائة دينار . وبدا لأحمد أن يعود إلى البصرة ، فتلقاه عبد الصمد بقوله :

يُرِى الغُزَاةَ بـأَن الله هِمَّتُه ... وإنما كان يغزو كِيسَ إسحاق
فباع زهدًا ثواباً لا نفادله ... وابتاع عاجلَ رِفْد القوم بالباق[1]

وكان لا يخفُّ على نفسه أحد أبناء أخيه ، ويقال إنه كان فيه تيه وعجب ، فتولاه كما تولى أباه بأهاج كثيرة من مثل قوله :

يا أبغضَ الناسِ فى عُسْرٍ وميسرةٍ ... وأقذرَ الناسِ فى دُنْيا وفى دين
لو شاء ربى لأَضحى واهباً لأخى ... بمُرِّ ثُكْلك أجرًا غير مَمْنونِ
إن القلوب لتُطْوَى منك يابنأخى ... إذا رأتْك على مثل السَّكاكين

وطبيعى وهذا شأنه فى أهله أن يعظم شره على من حوله من الشعراء ، وأن يقود معهم معارك هجاء كثيرة ، وهى معارك كثرت فيها السهام المسمومة ، على نحو ما نجد فى أهاجى حمدان بن أبان له ، إذ قذف أمه الزرقاء طويلا ، وكان كثيراً ما يأتى هو نفسه الشعراء من هذه الجهة لا يتورَّع ، من مثل قوله فى أبى رِهْم :

لو جاد بالمال أبو رِهْمٍ ... كجوده بالأُخت والأُمِّ
أضحى وما يُعْرَفُ مِثْلٌ له ... وقيل أسْخَى العُرْب والعُجْمِ

واشتبك مع الجمَّاز ابن أخت سلم الخاسر ، وكان لا يقلّ عنه خبثاً فى

(١) الرفد : العطاء .

هجائه ولا شرًّا ، وكان مما صَبَّه الجماز على رأسه قوله :

ابنُ المعذَّل مَنْ هُو ومن أبوه المعذَّلْ
سألتُ وَهْبَانَ عنه فقال : بَيْضٌ محوَّلْ(١)

وكان وهبان رجلا يبيع الحمام ، فجمع طائفة من أصحابه وجيرانه وجعل يَغْشَى المجالس ويحلف أنه ما قال : عبد الصمد بيض محوَّل ويسألهم أن يعتذروا إليه ، فلم يبق خاصٌّ ولا عامٌّ إلا رواهما ، وردَّ عليه عبد الصمد قائلا :

نَسَبُ الجمَّاز مقصو رٌ إليه منتهاهُ
ليس يدرى من أبو الجَمَّـ از إلا مَنْ يـــراهُ

غير أن شعره فيه لم يشع على الألسنة ، لأن فهمه يحتاج إلى شيء من الفطنة . ووقع بينه وبين يزيد بن محمد المهلبي الشاعر تباعد ، فهجاه يزيد ونسبه إلى الشؤم، فكال له الصاع صاعين ، ونراه يتعرض لأبى تمام حين اجتمع به فى مجلس مزريا على تكسبه بشعره ، قائلا له :

أنت بين اثنتين تَبْرُزُ للنا س وكلتاهما بوجهٍ مُذَالِ(٢)
لست تنفكُّ طالباً لوصالٍ من حبيبٍ أو طالباً لنَوَالِ
أىُّ ماءٍ لحُرِّ وجهك يبقى بين ذُلِّ الهوى وذُلِّ السُّؤال

وفكر أبو تمام فى إفحامه ، ثم أنشد :

أَفِىَّ تنظِمُ قولَ الزُّورِ والفَنَدِ وأنت أنْزَرُ من لاشىءٍ فى العَدَدِ(٣)
أشْرَجْتَ قلبك من بُغْضِى على حُرَقٍ كأنها حركاتُ الروح فى الجَسَدِ(٤)

وكان لا يزال يصبُّ سياط هجائه على جيرانه ومَنْ يختلط بهم من القيان اللائى يُعْرِضن عنه وأصحابهم من المقينين، وله مرثية كلها هجو فى أحد الطفيليين وقد صوَّر فيها نهمه وموته من هذا النهم ، استهلها بقوله :

---

(١) محول : حضنه غير أبويه .
(٢) مذال : مهان .
(٣) الفند : الكذب .
(٤) أشرجت هنا : نسجت .

أحزانُ نفسى عليه غير مُنْصَرِمَةْ … وأدمعى من جفونى الدهرَ مُنْسجمه

وله أشعار مختلفة فى الغلمان وقصيدة بديعة يصور فيها عشق جارية مغنية لشاب كان كاتباً عند مولاها ابن الجوهرى وكان شيخاً هِمًّا قبيح الوجه ، وكيف أنها هربت إليه فى جُنْح الليل ، وفيها يقول :

خرجتْ والليلُ معتكرٌ … لم يَهَلْها أيَّةً سلكتْ
وعيونُ الناس قد هجعتْ … ودُجى الظلماء قد حَلَكتْ
لم تَخَفْ وجدًا بعاشقها … حُرْمَةَ الشَّهْرِ الذى انتهكتْ
ورأتْ لما شَفَتْ كمدًا … أنها فى دينها نَسَكتْ

وكان يحسن تصوير ما يصفه ، وهو إحسان جعله يبرع فى تصوير الطبيعة ، ويظهر أنه كان يشغف بمناظرها شغفاً شديداً على نحو ما نرى فى تصويره لبستانه ، وكان بستاناً غاصًّا بالأشجار والرياحين وفيه يقول :

إذا لم يَزُرْنِى نَدْمَانِيَــهْ … خلوتُ فنادمتُ بُسْتانِيَهْ
فنادمتُه خَضِرًا مُونِقــاً … يُهَيِّجُ لى ذكرَ أشجانِيَهْ
يقرِّب لى فَرْحةَ المُسْتَلِذِّ … ويُبْعِد هَمِّى وأحْزانِيَــهْ
أرى فيه مثلَ مدارى الظِّباء … تظلُّ لأطْلائها حانِيــهْ[1]
ونَوْرَ أقاحٍ شتيتِ النباتِ … كما ابتسمتْ عَجَباً غانِيَهْ
ونرجِسُهُ مثلُ عينِ الفتاةِ … إلى وَجْد عاشقها رَانِيَه

وقد مرت بنا فى حديثنا عن ازدهار الشعر قطعة طويلة من قصيدته الرائعة فى تصوير حُمَّى أصابته تصويراً يدل على دقته فى الوصف وإحاطته بتفاصيل ما يصفه . ومما لا شك فيه أنه كان شاعراً بارعاً خصب القريحة ، وأنه كان يحرص على الألفاظ المألوفة ، ولكن مع المتانة والرصانة ، وكانت وفاته سنة ٢٤٠ للهجرة .

---

(١) المدارى : القرون . الأطلاء : جمع طلا وهو ولد الظبية ساعة يولد . والاستعارة واضحة .

الفصل السابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

كثر الغزل فى هذا العصر كثرة مفرطة ، حتى ليمكن أن يقال إن جميع الشعراء عنُوا بالنظم فيه ، وهى عناية أعدَّته لكى يزدهر ازدهاراً واسعاً ، إذ تداوله أفذاذ الشعراء ، وصاغوه بعقلياتهم الخصبة الحديثة وما أوتوه من قدرة على التوليد فى المعانى القديمة واستنباط كثير من الخواطر والأخيلة الجديدة . وقد مضوا يتسعون بكل صوره القديمة حتى النسيب ووصف الأطلال والديار الدارسة ، فقد استبقوا هذا الوصف ، وحاولوا أن يبثوا فيه طوابع فكرهم الدقيق وإحساسهم الحضرى المرهف ، على نحو ما مرَّ بنا فى الفصل الرابع .

وقد مضى الغزل يجرى فى نفس التيارين اللذين اندفع فيهما منذ عصر بنى أمية ، ونقصد تيارى الغزل الصريح والغزل العفيف ، وكان التيار الأول أكثر حدة وعنفاً ، بسبب انتشار دور النخاسة وما كانت تموج به من إماء وقيان روميات وخراسانيات وغير خراسانيات وروميات ، إماء وقيان من كل جنس ، وقد أخذن يتسلطن على الحياة العباسية ويُشِعن فيها كثيراً من صور التحلل الخلقى ، مستبدلات بمكان الحرائر القديم من الشعراء . ونفس الشعراء كانت كثرتهم من الموالى الذين نبذوا التقاليد الخلقية الإسلامية والعربية ، إما بعامل الزندقة والشعوبية ، وإما بعامل الترف وما ينتشر معه من فساد الأخلاق . وشتان بين الغزل الصريح فى هذا العصر عند مطيع ابن إياس وأبى نواس وأضرابهما وبينه فى العصر الأموى عند عمر بن أبى ربيعة والأحوص وأمثالهما ، إذ كانوا يحتفظون بغير قليل من الوقار والحشمة ، أما مطيع وأبو نواس وبشار ونظراؤهم العباسيون فقد خرجوا عن كل حشمة ووقار خروجاً يشبه أن يكون ثورة ، بل هو ثورة حقيقية ، فهم يتحدثون فى غزلهم عن غرائزهم

النوعية فى غير تعفف ولا حياء ولا كرامة ، وقد استحدث كثيرون منهم — باستثناء بشار — ضرباً جديداً من هذا الغزل الصريح ، وهو الغزل بالغلمان ، وهو يصور ما انتهت إليه حياتهم من الفساد ، لكثرة الرقيق ، وقد أطلقوا لأنفسهم فيه العنان لا يرعوون ولا يستحون .

وكان يجرى بجانب هذا التيار تيار الغزل العفيف ، ولكن مجراه أخذ يضيق ضيقاً شديداً بالقياس إلى عصر بنى أمية إذ كان يتسع حتى يشمل بوادى الحجاز وحتى تجرى أسراب منه فى مكة عند أمثال عبد الرحمن الجُشَمىّ الملقب بالقَسّ لنسكه وفى المدينة عند أمثال عروة بن أذينة . ومن أعلامه فى البوادى قيس بن ذَريح وجميل بن معمر العُذْرى ، حيث نجد الحب النقى الطاهر الذى يملك على الشاعر كل عواطفه وأهوائه ، حتى ليصبح ضرباً من الهيام القوى الحادّ الذى يدفع الشاعر إلى التغنى بمحبوبته فى شعر عذب لا يخدش حياء ، شعر يموج بالحرمان وحرارة العشق وشدة الظمأ الذى لا ينتهى . وطبيعى أن يضعف هذا التيار فى العصر العباسى الأول الذى قلما عرف فيه الشعراء العفة والطهر ، ومع ذلك فقد بقيت له بقية عند العباس بن الأحنف وعند بعض الشعراء الذين هاموا ببعض الجوارى ثم بِعْنَ وضُرِب بينهم وبينهن حجاب صفيق ، فعاشوا يتعذبون بالحب ، وعاش الحب فى قلوبهم قوياً حاداً ، ومن خير من يصور ذلك على بن أديم الكوفى الذى أحب جارية تسمى « منهلة » منذ صغرها ، حتى إذا أدركت باعها أهلها لبعض الهاشميين ، فطار لبه ، وبكاها بكاء حاراً بمثل قوله[1] :

صاحوا الرحيلُ وحثَّنى صَحْبى قالوا الرواح فطيِّروا لُبِّى
لا صَبْرَ لى عند الفِراق على فَقْد الحبيب ولوعةِ الحبِّ

ويقول أبو الفرج : « له حديث طويل معها فى كتاب مفرد مشهور صنعه أهل الكوفة لهما ، فيه ذكر قصصهما وقتاً وقتاً وما قال فيها من الأشعار ، وأمرهما متعا لَمٌ عند العامة » وفيها يقول[2] :

يا نُصْبَ عينىَ لا أرى حيث التفتُّ سواكِ شيَّا

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٥/٢٦٧. (٢) أغانى ١٥/٢٦٣ .

إنى لمَيْتٌ إن صَدَدْ تِ وإن وصلتِ رجعتُ حَيّـا

وعلى شاكلته محمد بن أمية ، وكان يهوى جارية تسمى خِدّاع رآها تغنّى ببعض دور النخاسة ، فشُغف بها شغفاً شديداً واتصلت زياراته لها ، وبادلته حباً بحب ، ولقيته ، ولكنها ظلت تدافعه عن نفسها ، وكثيراً ما كانت تعده الزيارة ولا تزوره . وهو يقول لها دائماً إنى أحبك إنى أنتظرك ، من مثل قوله(١) :

رُبَّ وَعْدٍ منكِ لا أنساهُ لى أوجبَ الشكرَ وإن لم تفعلى

أقطعُ الدهرَ بظَنٍّ حَسَنٍ وأُجَلِّى غَمْرَةً ما تَنْجَلِى

كلما أمَّلْتُ يوماً صالحاً عرضَ المكروهُ لى فى أملى

وأرى الأيام لا تُدْنِى الذى أرتجى منكِ وتُدْنى أجلى

وبينما هو يمنّى نفسه باقتطاف ثمرة الحب اشتراها بعض ولد المهدى ، فحُجِبَتْ عنه وانقطع ما بينهما إلا مكاتبة ومراسلةً . واستقر حبها فى قلبه وملك عليه كل شىء من أمره ، فمضى يتغنى بها طويلا ، وكان خُلاّنه يلومونه ويقولون له : إنها تبخل عليك بودّها ، فَدعْها إلى غيرها ، فينشدهم مثل قوله (٢) :

أأنْ حُجِبَتْ عنى أجود لغيرها بودّى وهل يُغْرِى المحبَّ سوى البُخْلِ

أسَرُّ بأن قالوا تَضِنُّ بودّها عليك ومن ذا سُرَّ بالبُخْل من قبلى

وبونٌ بعيد بين حرارة هذا الغزل العفيف والغزل المماثل له فى عصر بنى أمية الذى نقرؤه عند قيس بن ذريح وأضرابه ، فإن غزلهم يصور حباً جامحاً ، وكأن فى صدورهم شواظ نار ، فهم يألمون كما لم يألم أحد ، ألماً تعجز النفوس العادية عن احتماله ، ألماً يعصف بهم كالسيل المندفع الذى لا يترك لهم رويّة ولا أناة ، إنما يترك لهم الحزن الممض والدموع الغزار . ومن أجل ذلك نقول : إن الغزل العذرى فى العصر العباسى الأول قد أخذ يضيق مجراه ، لأنه لا يبلغ من التأثير فى النفس والقلب ما يبلغه الغزل العفيف الأموى ، وكأنما أفسدت الحضارة هذا الفن ، فإذا هو يجرى فيه التكلف ولا يكاد يؤثر فى العاطفة والشعور إلا قليلاً .

على أنه من الخطأ أن نضع حداً فاصلاً فى هذا العصر بين الغزل العفيف والغزل

(١) أغانى ١٢/١٤٤ .

(٢) أغانى ١٢/١٥٣ .

الصريح فإنه تلقانا عند المصرحين الذين لا يحتشمون ولا يتوقّرون ، والذين يعبرون عن الحب الجسدى حب الغرائز الذى لا يخلو من الفسوق والإثم أسراب مختلفة من الحب المبرّح تجعلهم يقتربون أحيانا من أصحاب الحب العفيف ، واقرأ فى بشار مثلا فستجد عنده كثيراً من الغزل الآثم ، وستجد بجانبه غزلا ، فيه لوعة ، وفيه ألم وسهاد ، وفيه صبوة يسودها غير قليل من الاحتشام ، على نحو ما يلقانا فى أشعاره لصاحبته عَبْدة ، ومثله أبو نواس فى أشعاره لجنان جارية الثقفيين ، وقد ظلت تحلق بعيداً عنه وراء السحب ، والحب يضنيه ويبرّح به ، ونضرب مثلا من شعر هؤلاء الخليعين الماجنين يصور كيف كان الحب أحيانًا يستأثر بكل ما فى قلوبهم من هوى وعاطفة ، وكيف كانوا يتعمقون فى دقائقه تعمقًا يفضى إلى كثير من السعة والجمال ، وهو هذه القطعة التى أنشدها صاحب الأغانى لآدم حفيد عمر ابن عبد العزيز ، وكان خليعًا ماجناً فى أول أمره ، وفيها يقول لصاحبة له [1] :

أحبُّكِ حُبَّيْنِ : لى واحدٌ ... وآخَرُ أنَّكِ أهلٌ لذاكِ

فأما الذى هو حبُّ الطِّباعِ ... فشَىْءٌ خُصِصْتِ به عن سواكِ

وأما الذى هو حبُّ الجمالِ ... فلستُ أرى ذاك حتى أراكِ

ولستُ أمنُّ بهذا عليكِ ... لك المَنُّ فى ذا وهذا وذاكِ

وقد أدخلت رابعة العدوية تعديلاً قليلا على هذه القطعة ، فأصبحت أمًّا للشعر الصوفى كله على نحو ما سنرى فى حديثنا عن شعراء الزهد . وفى الأغانى حشد هائل من أشعار عباسية تتخلص من المادة وأدرانها وتصور جحيم الحب ونعيمه ، كانت تجرى على ألسنة المجان وأشباههم .

ومرّ بنا فى الفصل الرابع أن شعراء هذا العصر استخرجوا كثيراً من دفائن المعانى فى غزلهم ، فقد كان عقلهم خصباً يقتدر على تشعيب المعانى وتحليلها واستنباط كثير من دقائقها . وكثير من غزلهم لا يصور ذلك فحسب ، بل يصور أيضًا حسهم المترف الدقيق وشعورهم الرقيق المرهف ، وقد صورنا ذلك من بعض الوجوه فى حديثنا عن أعلامهم فى الفصل الخامس . وظاهرة ثالثة هى كثرة العبارات اللينة

---

(١) أغانى ١٥/٢٨٩ .

فى غزلهم ، وهى شيء طبيعى مردُّه إلى حياتهم المتحضرة وأنهم كانوا يتجهون بأكثر غزلهم إلى الجوارى المغنيات ، ولم يكنَّ متبدِّيات إنما كن متحضِّرات ، فكانوا يختارون لهن اللفظ السهل البسيط الذى يلمس القلوب لمساً بدون أى حجاب . وظاهرة رابعة هى شيوع الأوزان المجزوءة والقصيرة فى هذا الغزل ، وقد أوضحنا فى كتاباتنا عن عصر بنى أمية نشوء هذه الظاهرة فى شعر الغزل الأموى بسبب معانقته لنظرية الغناء التى استحدثها الموالى الأجانب ، وكيف أن هذه النظرية دفعت الشعراء دفعاً إلى الملاءمة الدقيقة بين غزلهم وأصوات الغناء ، ووضعه بحيث يؤدِّى ما يريدونه من مدِّ أصواتهم بالألحان والهمس بها ، وهى غاية أحدثت فى الأوزان القديمة كثيراً من التجزئة وكثيراً من صور الزحافات ، وما زالت هذه الصور تتسع حتى استكشف الوليد بن يزيد وزن المجتث .

وقد بسطنا فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » كيف أن هذه الظاهرة نمت فى غزل العباسيين بنمو الغناء ، وكيف دفعت إلى ظهور أوزان جديدة ، هى أوزان المقتضب والمضارع والمتدارك . وفى الفصل الرابع من هذا الكتاب تصوير موجز لذلك . وينبغى أن ننبِّه هنا إلى أن الغزل هو الذى دفع الشعراء دفعاً إلى التحوير فى الأوزان القديمة تحويراً نفذوا منه إلى كثير من صور التجديد فيها وفى القوافى .

وظاهرة خامسة تقترن بالجوارى اللائى كان ينظم فيهن الشعراء ، وذلك أن كثيراً منهن كن مثقفات يحسنَّ صوغ الشعر ونظمه ، فكان الشعراء يراسلونهن ، وكانوا أحياناً يفضون إليهن ويتطارحون معهن شعر الغزل . ومن أشهرهن فى هذا الباب عَريب جارية المأمون ومتيم جارية على بن هشام ودنانير جارية البرامكة وقد عقد ابن المعتز فى آخر كتابه « طبقات الشعراء » فصولاً لطائفة منهن ، على رأسهن عنان جارية الناطفى ، ويقول ابن الجراح : « كانت تجلس للشعراء ويجتمعون إليها ، فيلقى عليها كل رجل منهم الأبيات الغريبة والمعانى النادرة فتجيبه بديها[1] » ويروى بعض محاوراتها مع أبى نواس ، من ذلك أنه دخل عليها فوجد الناطفى مولاها قد ضربها وهى تبكى فقال :

---

(١) كتاب الورقة لابن الجراح ص ٣٩ .

بكتْ عنانٌ فجرى دَمْعُها ... كالدرِّ قد تُوبع فى خيطهِ

فقالت ، والعبرة فى حلْقها :

فليت من يضربها ظالماً ... تجفُّ يمناه على سَوْطه

ويروى ابن الجراح أن شخصاً وجد بيتاً فى كتاب ، أعجبه ، فطلب من يجيزه وعزَّ عليه الطلب ، فلجأ إليها ، وأنشدها البيت :

وما زال يشكو الحبَّ حتى سمعتُه ... تنفَّس من أحشائه أو تكلَّما

فما لبثت أن قالت :

ويبكى فأبكى رحمةً لبكائهِ ... إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما

وقد أشاع هؤلاء الجوارى الشواعر كثيراً من الظرف والرقة فى الغزل العباسى ، إذ كن يعجبن باللمحة الدالة والخاطرة الدقيقة . وغيرهن من الجوارى كن يشاركنهم فى تذوق الشعر ، وكن يكتبن ما يستحسنّ منه على عصائبهن ومراوحهن كما مرَّ بنا فى الفصل الثانى . وكل ذلك عمل على ازدهار الغزل فى هذا العصر ازدهاراً واسعاً ، ونحن نقف عند شاعرين من شعرائه؛ أحدهما من أصحاب الغزل العفيف ، وثانيهما من أصحاب الغزل الصريح ، ولكن دون نبو على الذوق ودون ما يؤذى النفوس المهذبة ، وهما العباس بن الأحنف وربيعة الرَّقِّى .

العباس بن الأحنف [1]

عربى من بنى حنيفة ، كان آباؤه ينزلون فى خراسان ، واتصلوا بالعباسيين ولمع منهم عمه حاجب إذ انتظم بين رجال الدولة ، ومنشأ العباس ومَرْباه ببغداد ، ويظهر أنه نشأ فى نعمة وثراء ، جعلاه ينصرف عن شعر المديح الذى كان يجذب إليه عامة الشعراء طلباً للنوال والعطاء . وقد أخذ يعيش حياة مترفة ، يختلط فيها بالشعراء من

---

(١) انظر فى العباس وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٥٤ وابن قتيبة ص ٨٠٣ والأغانى (طبعة دار الكتب) ٨/٣٥٢ و ١٦/٣٤٣ — ٣٤٥ و (طبعة الساسى) ١٥/١٢٥ وتاريخ بغداد ١٢/١٢٧ وشذرات الذهب ١/٢٣٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان ومعجم الأدباء ١٢/٤٠ وقد نشرت ديوانه وحققته عاتكة الخزرجى وطبعته بمطبعة دار الكتب المصرية .

أمثال أبى نواس وغير أبى نواس ، ولكن دون أن يتردّى فى خلاعتهم ومجونهم . وقد يحضر مجالس الأنس والشراب ولكن دون تعمق ودون إثم، وفى ذلك يقول ابن المعتز : « كان يتعاطى الفتوة على ستر وعفة وله مع ذلك كرم ومحاسن أخلاق وفضل من نفسه ، وكان جواداً لا يُليق درهما ولا يحبس ما يملك » . وفى أشعاره وصف للكرة والصوبلجان يدل على أنه كان يمارس هذه الرياضة . ويقولون إنه كان فيه ظرف . وكأنه كان مثال العربى البغدادى المهذب فى عصره الذى أخذ بأسباب الترف والنعيم أخذاً كان له أثره فى ذوقه المصفى المهذب وشعوره الرقيق المرهف . وقد مضى ينفق حياته فى التغنى بعواطفه وحبه ، وفى ذلك يقول أبو الفرج : « كان العباس شاعراً غزلا ظريفاً مطبوعاً . . وله مذهب حسن ولديباجة شعره رونق ولمعانيه عذوبة ولطف ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء ولا يتصرف فى شىء من هذه المعانى ، وقدّمه أبو العباس المبرد فى كتاب الروضة على نظرائه وأطنب فى وصفه . وقال : رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه ، وقال : كان العباس من الظرفاء ، ولم يكن من الخُلعاء ، وكان غزلا ولم يكن فاسقاً ، وكان ظاهر النعمة ملوكى المذهب شديد الترف ، وذلك بيّن فى شعره ، وكان قصده الغزل وشغله النسيب ، وكان حلواً مقبولا غَزِلاً غزير الفكر واسع الكلام كثير التصرف فى الغزل وحده ، ولم يكن هجاء ولا مداحاً » . وقد فتح اشتهاره بالغزل باب قصر الرشيد أمامه ، حتى أصبح من ندمائه ، وحتى صحبه فى غزواته بأرمينية وأذربيجان ، ذلك أنه كان إذا غاضب إحدى جواريه أو أدلّت عليه أمره بصُنْع أبيات يغنّى فيها إبراهيم الموصلى ، فتعود صاحبته إليه ، ويتصل بينهما ما انقطع ، من ذلك أنه غاضب ماردة أم المعتصم ، وتوقع أن تبدأه بالترضى ، فلم تفعل حتى أقلقته وأرّقته ، وصار بأمرّ عيش ، وعرف ذلك جعفر البرمكى ، وقيل الفضل بن الربيع ، فأعلم العباس القصة وطلب إليه أن يقول فى ذلك شيئاً ، فلم يلبث أن قال :

العاشقان كلاهما متجنّبُ ... وكلاهما مُتَعَتِّبٌ متغضّبُ

صدّتْ مغاضبةً وصدَّ مغاضباً ... وكلاهما مما يعالجُ مُتْعَبُ

راجعْ أحبَّتك الذين هجرتَهم ... إن المتيَّم قلما يتجنَّبُ
إن التجنُّبَ إن تطاول منكما ... دَبَّ السُّلُوُّله فعَزَّ المَطْلَبُ

وألقاها إلى إبراهيم الموصلى فغنّى بها الرشيد ، فلما سمعها بادر إلى ماردة فترضَّاها . ويقال إنها أمرت للعباس وإبراهيم بعشرين ألف درهم متاصفة وأمر لهما الرشيد بأربعين ألفا .

وانعقدت الصلة بينه وبين محمد بن منصور بن زياد الملقب بفتى العسكر ، وتصادف أن رأى عنده جارية جميلة تسمى فوز ، فوقعت فى قلبه ، وأخذ يكثر من زياراته ، وهو إنما يريدها ، وعرفت حبه ، فكانت تصدّعنه ، وهو يزداد حبًّا وشكوى من أنها لا تقبل عليه ، وأكثر من تصوير إعراضها عنه بمثل قوله :

قالتْ ظلومُ سميَّة الظُّلْم ... مالى رأيتك ناحلَ الجِسْمِ
يا مَنْ رَمَى قلبى فأقْصَده ... أنت العليم بموضع السَّهْمِ [1]

وأخذ يكثر من شكواه وتضرعه مصوراً سهاده وما دلعته من نيران العشق فى قلبه ، وغدا مستهاماً بها يحبها كل الحب ويُفْتَنُ بها كل الفتون ، حتى لكأنها غدت ليلى وغدا المجنون ، فهو دائماً يصف صبابته بها ووجده وجداً لم يجده أحد ، وجداً يتعمقه حتى ليصطلى بناره المحرقة ، وقد مضى يصورذلك لا فى قصيدة أو قصائد معدودة وإنما فى ديوان رائع ، تجد فيه النفوس غذاء روحيًّا ممتعا ، لأنه يرتفع عن الحس والمادة ارتفاع الشعر العذرى الأموى ، بما يصف من حب لا يخمد أواره ، من مثل قوله :

الحبُّ أول ما يكون لجاجة ... تأتى به وتسوقه الأقدارُ
حتى إذا سلك الفتى لُجَجَ الهوى ... جاءتْ أمورٌ لا تُطاق كِبارُ
نَزَف البكاءُ دموعَ عينك فاسْتَعِرْ ... عيناً لغيرك دمعها مدرارُ
من ذا يُعيرك عَيْنه تبكى بها ... أرأيتَ عيناً للبكاء تُعارُ

---

(١) أقصده : أصابه .

وقوله :

أُحَرِّمُ منكم بما أقولُ وقد ... نال به العاشقون مَنْ عشقوا
صرتُ كأنى ذُبالةٌ نُصِبَتْ ... تضيءُ للناس وهْى تحترقُ

وكانت تكثر بينه وبينها المراسلات ، وربما زارته زورة قصيرة ومضت ، مخلِّفة وراءها حسراته وآلامه وعذابه ، وربما اضطرت إلى أن تهجره طويلا أو قصيراً أو أن تزورَّ عنه فى بعض زياراته لها ، فكان يجزع أشد الجزع ويبكى أحر البكاء بمثل قوله :

أبكى الذين أذاقونى مودَّتهم ... حتى إذا أيقظونى للهوى رَقَدُوا
جاروا علىَّ ولم يوفوا بعهدهمُ ... قد كنت أحسبهم يوفون إن عَهِدوا
لأخرجنَّ من الدنيا وحبُّكمُ ... بين الجوانح لم يشعر به أَحَدُ

وقوله :

لما رأيت الليل سَدَّ طريقَهُ ... عنى وعذَّبنى الظلامُ الرَّاكِدُ
والنَّجْمُ فى كبدِ السماء كأنه ... أعمى تحيَّر ماله قائدُ
ناديتُ مَنْ طرد الرقادَ بصَدِّه ... مما أعالج وهْو خِلْوٌ هاجد
ألقيتَ بين جفون عينى حرقةً ... فإلى متى أنا ساهرٌ يا راقد

وفى قصيدة هذه المقطوعة يقول :

والله لو أن القلوبَ كقلبها ... ما رقَّ للولد الصغير الوالِدُ

وخرجتْ من مِلْك محمد بن منصور إلى ملك بعض أمراء البيت العباسى وحجَّ بها ، فمضى يبكيها بدموع غزار مصوراً حبه لها وهيامه فى أشعار كثيرة من مثل قوله من رسالة شعرية أرسل بها إليها :

أزينَ نساء العالمين أجيبى ... دعاءَ مشوقٍ بالعراق غريبِ
كتبتُ كتابى ما أُقيم حروفَه ... لشدة إعوالى وطول نحيبى

أخطُّ وأمحو ما أخطُّ بعبرةٍ تسحُّ على القِرْطاس سَحَّ ذَنوب[1]

أيا فوزُ لو أبصَرْتِني ما عرفتني لطول نحولى بعدكم وشحوبى

وأنتِ من الدنيا نصيبي فإن أمت فليتكِ من حُور الجنان نصيبي

أرى البَيْن يشكوه المحبون كلهم فيارب قرِّبْ دارَ كلِّ حبيب

وعادت ، وعاد له عذابه بها كما لم يتعذب أحد ، وقد ظل يهتف باسمها وحبها حتى وافته منيته سنة مائة واثنتين وتسعين . ويقال إنه خرج مع غلام له إلى بعض الرياض ، وقد اعتراه ضعف شديد ، فاستلقى تحت شجرة ورفع طرفه ، وهو لا يكاد يرفعه ضعفا ، وأنشأ يقول :

ياسقيمَ الجسم من مِحَنِهْ مُفْرَدًا يبكى على شَجَنِهْ

كلما جَدَّ البكاءُ به دَبَّتِ الأسقام فى بدنه

ثم أغمى عليه ، وأقبل طائر فوقع على الشجرة ، وجعل يغرِّد ، فسمع تغريده ، وفتح عينيه ، وقال :

ولقد زاد الفؤادَ شَجًى طائرٌ يبكى على فَنَنِه

شَفَّه ما شفَّنى فبكى كلُّنا يبكى على سَكَنه

ثم تنفس تنفسًا مديداً فاضت فيه نفسه .

وواضح من كل ما قدمنا أن غزل العباس عذرى طاهر نقى وأنه يمتاز بجزالة اللفظ مع عذوبته كما يمتاز بغزارة المعانى والخواطر حتى لكأنما يستمد من معين فى نفسه لا ينضب . وكان يعمد أحيانا إلى شيء من صور البديع ، غير أنها تأتى عفواً ، ولا تؤثر أى تأثير فى قوة العاطفة وانطلاقها كالسيل المندفع .

ربيعة الرَّقِّى[2]

هو ربيعة بن ثابت ، من أهل الرَّقَّة ، بها مولده ومنشؤه ، وكان ضريراً ، وتفتحت شاعريته مبكرة ، فأخذ شعره يشيع ، حتى رقى إلى سمع المهدى ،

---

(١) الذنوب : الدلو المملوءة .

(٢) انظر فى ربيعة وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ١٥٧ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٦/٢٥٤ ومعجم الأدباء ١٠/١٣٤ ونكت الهميان ص ١٥١ .

فأشخصه إليه ، فمدحه بعدة قصائد ، وأثابه عليها عطاء جزيلا . غير أنه حَنّ إلى موطنه ، فعاد إليه ، وكان لا يبرحه إلا قليلا ، مما كان سبباً فى إخمال ذكره ، لبعده عن بلاط الخلفاء ومخالطة الشعراء فى بغداد . ولم تَرْوِ له كتب الأدب شيئاً من مديحه فى المهدى إنما روت له مقطوعة من قصيدة بديعة قالها فى العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس صَفِىّ الرشيد ، وفيها يقول :

لو قِيل للعباس يا بن محمّدٍ　　قل : لا ، وأنت مخلَّدٌ ، ما قالها

ما إنْ أَعُدُّ من المكارم خَصْلةً　　إلا وجدتك عَمَّها أو خالَها

وإذا الملوك تسايروا فى بلدةٍ　　كانوا كواكبها وكنتَ هِلالَها

وجزاه جزاء بخساً إذ بعث إليه بدينارين ، فجُنّ غيظا ، وهجاه هجاء مريرا . وعلم الرشيد القصة فغضب على العباس ، وأمر لربيعة بثلاثين ألف درهم وخلعة . وممن صَلِىَ هجاءه لنقص عطائه معن بن زائدة ، ومنهم يزيد بن أسَيْد السُّلَمى ، وكان قد ردّه ردًّا غير جميل ، بينما أوسع له فى العطاء يزيد بن حاتم المهلبى ، فمضى يقول أبياته السائرة :

لشتّان ما بين اليزيدين فى النَّدَى　　يزيد سُلَيْمٍ والأغرّ ابن حاتمِ

يزيد سُلَيمٍ سالم المال والفتى　　أخو الأزْد للأموال غير مسالمِ

فهَمُّ الفتى الأزدىِّ إتلافُ مالِه　　وهَمُّ الفتى القيسىِّ جَمْعُ الدراهمِ

فلا يحسب التَّمْتامُ أنى هجوتُه　　ولكننى فضّلتُ أهل المكارم

وقد تعلق بغير جارية ، مما جعله ينظم غزلا كثيراً ، ويقول ابن المعتز : أما شعره فى الغزل فإنه أشعر أهل زمانه جميعاً ، وما أجد أطبع ولا أصحّ غزلا منه ، ويقول أيضاً : « كان ربيعة أشعر غزلا من أبى نواس لأن فى غزل أبى نواس بَرْداً كثيرا وغزل هذا سليم سهل عذب » . وغزله يَسْلُك فى الغزل الصريح إذ كان فيه لهو حتى لُقّب بالغاوى ، وممن كان يهواهن جارية يقال لها « عَثْمة » كانت أمةً لرجل من أهل قرقيسياء ، وقعت فى قلبه ، فظل يتغنى بها على شاكلة قوله :

أَعَتْمَةُ أَطْلِقِى العَلَقَ الرَّهينا   بعيشِكِ وارْحَمِى الصَّبَّ الحزينا[1]
تعلَّق زائرًا لكِ فارْحميهِ   فقد أورثتِ زائرَكِ الجُنونا
ولما أن رآك الناسُ قالوا   تعالى اللهُ ربُّ العالمينا
فقد أعطاكِ ربُّك فاشكُريه   جمالاً فوق وَصْفِ الواصفينا
إذا أقبلْتِ رُعْتِ الناسَ حُسْنا   وإن أدبرتِ قَيَّدْتِ العُيونا

وله فيها أشعار كثيرة ، ويظهر أنها أول جارية شُغف بها ، وقد شُغف من بعدها بجارية من جوارى الكَرْخ ببغداد تسمَّى « رُخاص » كما شُغف بأخرى تسمًّى داحا ، وفيها يقول :

صَاحِ إنى غيرُ صَاحى   أبداً من حُبِّ داحِ
أنا واللهِ قتيلٌ   لكِ من غير جِراحِ
لا بسيفٍ قَتَلْتنى   لا ، ولا سُمْرِ الرِّماحِ
أنتِ للناسِ قتولٌ   بالهوى لا بالسِّلاحِ
وبشكلٍ وبدَلٌ   وبحُسْنٍ ومُزَاحِ
وبعينين صَيُودَيْـ   ـنِ وثَغْرٍ كالأقاحِى
ليتنى كنتُ حَماماً   لكِ مقصوصَ الجناحِ

وله فى جارية تسمى « سعاد » أشعار كثيرة أيضًا يصور فيها حبه وهيامه وما كانت تراسله به من رسائل ، وفى إحدى قصائده فيها يقول :

الحبُّ داءٌ عَيَاءٌ لا دواءَ لَهُ   إلا نَسِيمُ حبيبٍ طَيِّبِ النَّسَمِ
أوقبلةٌ من فَمٍ نِيلَتْ مُخالَسَةً   وما حرامٌ فَمٌ ألصقته بفَمِ

ويظهر أن غزله كان يذيع فى عصره وينتشر على كل لسان ، حتى ليقال إن جوارى المهدى هن اللائى دفعنه ليحضره من الرقة حتى يستمعن منه إلى شعره . ويتصل بهذا الانتشار ما يُرْوَى من أن صانعى البُسط كانوا يكتبون أشعاره

---

(١) يريد بالعلق المعلق بالحب .

عليها ، فقد حدث بعض العباسيين أنه رأى فى دَوْرِ بساط قديم من بسط دار الخلافة هذه الأبيات :

وتزعم أنى قد تبدّلتُ خُلَّةً سواها وهذا الباطل المتقوَّلُ

لحا اللهُ من باع الصديقَ بغيرِهِ فقالت نعم حاشاك إن كنت تفعلُ

ستَصْرِمُ إنساناً إذا ما صَرَمْتَنِى يحبك فانظرْ بعده من تبدَّلُ

وشعر ربيعة كله على هذا النحو المصقول ، الذى يروع بسلاسته وجمال ديباجته ونصاعة ألفاظه ، مع الطبع المتدفق والمعانى اللطيفة . ويقال إنه توفى سنة ١٩٨ للهجرة .

٢

شعراء المجون والزندقة

كثر شعراء المجون وما يرتبط به من وصف الخمر فى هذا العصر كثرة مفرطة ، وقد عملت على ذلك أسباب مختلفة ، فإن كثرة الشعراء كانت من الفرس ، وكان كثير منهم يظهر الإسلام ويبطن الزندقة والإلحاد ، وساعد على اضطراب النفوس وتسلط الشك على العقول كثرة المقالات والنحل الدينية وشيوع المذاهب الفلسفية مما جعل كثيرين يستهترون بقيم المجتمع الإسلامية ، بل لقد كان من بينهم من يريد تحطيمها تحطيما . وسبب ثان يرجع إلى كثرة الرقيق ودور النخاسة التى كأنما كانت أسواقا للعبث . وهو عبث صحبه غير قليل من الفجور ، حتى ليمتد إلى الغزل بالغلمان غزلاً يصور — عند أبى نواس وأضرابه — انحطاطاً خلقياً شنيعاً . وسبب ثالث هو كثرة اتخاذهم للجوارى والإماء ، مما أدّى إلى انحلال الروابط الاجتماعية لتسلطهن على الحياة المنزلية ، إذ أخذن مكان المرأة العربية الحرة ، وكن مختلفات الأجناس ، وكثيرات منهن كُنَّ قد نُشِّئْنَ على اللهو والمجون والابتذال والخلاعة تنشئة لم تكن تعرفها المرأة العربية المحصَنة .

وطبيعى لذلك كله أن تنتشر موجة حادة من المجون ، ومن غير شك تعد الدولة

مسئولة منذ المهدى عن انتشار هذه الموجة، ومعروف أنه اتخذ ديوانًا للزنادقة وكان حريًّا به أن يتخذ ديوانًا آخر للمجون، ولكنه لم يصنع . وأخذت الموجة تبلغ حدتها العنيفة منذ عصر الرشيد ولكنه لم يحرك ساكنًا لا هو ولا من تلاه من الخلفاء ، بل لقد أسهم فيها ابنه الأمين إسهامًا واسعًا ، حتى غدا القصر كأنه حانة ، إن صح ما يرويه الرواة . ونفس الفقهاء والمتكلمين مسئولون إلى أبعد حد عن شيوع هذا الفسق والفساد وقد مضوا يُشْغَلون عن المجتمع بمباحثهم الخاصة مهملين ما يدعو إليه الدين من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ومضى الشعراء من حولهم فى الكوفة والبصرة وبغداد يمعنون فى المجون والفجور ، وحقًّا صرخ شيوخ البصرة من أمثال واصل ومالك بن دينار فى وجه بشار وغزله المادى الصريح الذى يفسد به نساء البصرة وشبانها ، وارتفع صياحهم إلى سمع المهدى ، فنهاه عن هذا الغزل ، وانتهى على كره ومضض ، غير أن شيوخ الكوفة وبغداد لم يرتفع لهما صوت . ونفس شيوخ البصرة بعد عصر بشار لزموا الصمت الطويل ، مع اشتداد الفسق والغزل المفحش بالإماء والغلمان ، فقد كان لا يعرف الغزل الأخير ، وكان لا يبلغ من الإفحاش فى غزل الإماء ما بلغه الجيل التالى له .

والذى لا شك فيه أن الكوفة سبقت البصرة وبغداد جميعًا لهذا العصر فى الفسق والمجون ، إذ غرقت فيهما إلى أذنيها ، وكان مما أعدَّ لذلك دار نخاسة كبيرة قامت بها منذ أواخر عصر بنى أمية ، وهى دار ابن رامين ، وكان قد جلب إليها كثيرات من قيان الحجاز وإمائه المغنيات أمثال سَعْدة ورُبَيْحة وسلاّمة الزرقاء ، وتولع بهن كثير من شباب الكوفة وغيرهم أمثال إسماعيل بن عمار ومحمد بن الأشعث وشُراعة بن الزَّنْدَبُوذ ، ونظموا فيهن كثيراً من الأشعار المادية التى لا تخلو أحيانا من الفحش[1] . ولم تلبث أن ظهرت جماعة كبيرة من المجان الخلعاء أمثال والبة ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد .

وكان والبة شيطاناً مَرِيدا ، فهو يسرف فى المجون والخلاعة والغزل الشاذ بالغلمان وكان ينتسب فى قبيلة أسد [2] ، وهى والعرب جميعًا بُرَآءُ منه ومن فحشه

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣٦٤/١١ وما بعدها و١٥٦/٥ وما بعدها .

(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٤٢/١٦ وانظر فى والبة ابن المعتز ص ٨٧ وتاريخ بغداد ٥١٨/١٣ .

وشذوذه ، وقد أعفاهم منه أبو العتاهية ، إذ نسبه فى الروم[1] ، وهو الذى أدَّب أبا نواس وأفسده فيما يقول الرواة ، ويقول أبو الفرج إنه كان خبيث الدين . وقد ذهب شعره إلا أطرافًا رواها أبو الفرج وابن المعتز ، وهى تصور كيف كان يجاهر بالفسق والمعصية . وممن خلفوا أبانًا وجماعته على هذه المجاهرة بكر بن خارجة مولى بنى أسد ، وكان ورَّاقا ضيق العيش مقتصراً على التكسب من الوراقة وصرف أكثر ما يكسبه إلى النبيذ، وكان معاقراً للشراب فى منازل الخمارين وحاناتهم وتعشق غلاما نصرانيًّا يقال له عيسى بن البراء العبادى الصيرفى ، وله فيه قصيدة مزدوجة ذكر فيها النصارى وشرائعهم وأعيادهم وأديرتهم ، وفيه يقول[2] :

زُنَّارُهُ فى خَصْره معقودُ كأنه من كبدى مقدودُ

ولم يلبث كثير من شعراء البصرة أن أمعنوا وراء شعراء الكوفة فى هذا الفساد الخلقى ، يقودهم الخاركِىُّ ، وفيه يقول أبو نواس : « ما مجنتُ ولا خلعت العذار حتى عاشرت الخاركى فجاهر بذلك ولم يحتشم فامتثلنا نحن ما أتى به وسلكنا مسلكه ، ونحن ومن يذهب مذهبنا عيالٌ عليه»[3] . وكان طبيعيًّا أن ينقل شعراء البصرة والكوفة هذا الفساد والتحلل الخلقى إلى بغداد منذ أخذوا يفدون عليها ويقيمون بها فى عهد المهدى ومن تلاه من الخلفاء ، يتقدمهم أبو نواس . ومن مجّانها المشهورين الرَّقاشى ، يقول أبو الفرج : « كان ماجناً متهاوناً بمروءته ودينه ، وقصيدته التى يوصى فيها بالخلاعة والمجون مشهورة سائرة فى الناس ، مبتذلة فى أيدى الخاصة والعامة وهى التى أولها :

أَوصَى الرقاشىُّ إلى إخوانِه وصيَّـــةَ المحمودِ فى نُدْمانِه»[4]

ويقول ابن المعتز إنها كانت فى الغلمان وشرب الخمر والقمار والهراش بين الديكة والكلاب[5] . وقد اتسعوا فى الحديث عن الخمر ورائحتها ونَفْحتها ودنانها وسقاتها وحاناتها وأديرتها ، وتعرضوا طويلا للرهبان والراهبات وزنانيرهم .

ونرى أبا الفرج حينما يتحدث عن كثير من هؤلاء الخلعاء الماجنين ينصُّ على

---

(١) أغانى ١٦/١٤٣ وما بعدها .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ٢٠/٨٧ .
(٣) ابن المعتز ص ٢٠٦ .
(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٦/٢٤٦.
(٥) ابن المعتز ص ٢٢٦ .

خبث دينهم أو على زندقتهم ومروقهم من الإسلام وشريعته الغرّاء على نحو ماترى في حديثه عن حماد الراوية وحماد عجْرد ومطيع بن إياس ، وكأنهم كانوا على مذهب مزدك الذى يدعو إلى اللذات واقتراف الكبائر . وكان من الزنادقة نفر أشربوا حبّ مذهب مانى وما فيه من الزهد والانصراف عن متَع الحياة وخير من يمثلهم صالح بن عبد القدوس الأزدى .

على أنه ينبغى أن نلاحظ أن كثيرين ممن تورطوا حينئذ فى الخمر والمجون لأوائل حياتهم ، عادوا فتابوا إلى ربهم وأنابوا ، ومن خير من يمثل هذا الفريق آدم ابن عبد العزيز حفيد عمر بن عبد العزيز ، يقول أبو الفرج : «كان فى أول أمره خليعاً ماجناً منهمكا فى الشراب ، ثم نَسك بعد ماعُمّر ومات على طريقة محمودة» ويروى أن المهدى شك فى أنه زنديق ، فأمر بضربه ثلاثمائة سوْط على أن يقرّ بالزندقة ، فقال : والله ما أشركت بالله طَرْفة عين ، فقال له المهدى : فأين قولك :

اسْقِنى واسْقِ خليلى فى مَدى الليل الطويلِ
قهوةً فى ظــل كَرْمٍ سُبِيَتْ من نهر بِيل[1]
فى لسان المرء منهـــا مثلُ طعم الزَّنْجَبيل
قُلْ لمن يلحاك فيها من فقيهٍ أو نبيل[2]
أنت دَعْها وارْجُ أُخرى من رحيق السَّلْسبيل[3]
تعطش اليومَ وتُسْقَى فى غدٍ نَعْتَ الطُّلول

فقال للمهدى : كنت فتًى من فتيان قريش ، أشرب النبيذ ، وأقول ما قلتُ على سبيل المجون ، والله ما كفرت بالله قط ، ولا شككت فيه . فخلّى سبيله ورقّ له[4] . وأمثال آدم كانوا كثيرين . ونحن نقف عند ثلاثة من أبرز شعراء الزندقة والمجون وهم حماد عجْرد ومطيع بن إياس وصالح بن عبد القدوس .

---

(١) بيل : من نهيرات سواد العراق. سبى الخمر : حملها من بلد إلى بلد .

(٢) يلحاك : يلومك ويشتمك .

(٣) يشير إلى رحيق الفردوس .

(٤) أغانى ١٥/٢٨٥ وما بعدها .

حماد [1] عجرد

من الموالى، أصله ومنشؤه بالكوفة، كان أبوه نبَّالا يبْرِى النَّبْل ، ويظهر أنه وجهه إلى الدرس والتعلم مبكراً ، ويقال إنه لُقب بعَجْرد لأن أعرابيًّا مرَّ به فى يوم شديد البرد وهو عُرْيان يلعب مع الصبيان ، فقال له : تعجردت يا غلام أى تعرَّيت فسمى عَجْرَدًا . وظل عاكفا على التعلم والتأدب ، حتّى أتقن العربية وانتظم فى سلك المعلمين المؤدبين ، غير أنه مضى يفرغ للهو والمجون مع صاحبيه : حماد الراوية وحماد بن الزبرقان ، يقول ابن المعتز : « كان بالكوفة ثلاثة يقال لهم الحمادون : حماد عجرد وحماد بن الزبرقان وحماد الراوية يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ويتعاشرون أجمل عشرة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، وكانوا جميعاً يُرْمَوْن بالزندقة » . فهو لم يكن ماجنًا فحسب ، بل أشربتْ روحه الزندقة كما أشْرِبت المجون ، وقد مر بنا فى الفصل الرابع ما قاله أبو نواس من أنه كان يظن أن حمادا رُمى بالزندقة لعكوفه على المجون ، حتّى إذا حُبِس فى سجن الزنادقة وجدهم يقرءون فى صلاتهم شعراً مزاوجا له ، فعرف أنه كان إمامًا من أئمتهم . وعلى نحو ما كان يتواصل مع حماد الراوية وحماد بن الزبرقان كان يتواصل مع مجان موطنه المتزندقة من أمثال مطيع بن إياس ويحيي ابن زياد . وهو يُسْلَك فى مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، ويظهر أن مجونه قديم إذ يقال إنه كان من ندماء الوليد بن يزيد وأنه ظل إلى أن قتل سنة ١٢٦ للهجرة فعاد إلى موطنه ، وأخذ يعيش معيشة مجون وفجر وفسق لا يرعوى ولا يزدجر ، بل يصرح بذلك تصريحًا عاريًا مكشوفا، كما يصرح بزندقته مجاهراً ، حتّى ليقول فيه مساور الوراق :

لو أن مانى ودَيْصانا وعُصْبتهم ... جاءوا إليك لما قلناك زنديقُ

---

(١) انظر فى حماد وأخباره وأشعاره الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٤ / ٣٢١ وابن المعتز ص ٦٧ – ٧٢ وابن قتيبة ص ٧٥٤ ومعجم الأدباء ١٠ / ٢٤٩ وابن خلكان وتاريخ بغداد ٨ / ١٤٨ والحيوان للجاحظ ٤ / ٤٤٧ وفى مواضع أخرى (انظر الفهرس) وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١ / ١٢٨ – ١٣٤ . ولسان الميزان ٢ / ٢٤٩

أنت العبادةُ والتوحيدُ مذ خُلقا ... وذا التزندقُ نَيْرنجٌ مخاريقُ

فهويفوق — فى رأيه — مانى وديصان وأضرابهما من رءوس الزنادقة . ويعابثه صديقه حماد بن الزبرقان شاهدا عليه بزندقته ومجونه قائلا :

نِعم الفتى لو كان يعرف قَدْره ... ويقيم وقتَ صلاته حَمَّادُ

هَدَلَتْ مشافرَه الدِّنانُ فأنفُه ... مثل القَدوم يسنُّها الحَدَّادُ

وابيضَّ من شرب المُدامة وجهه ... فبياضُه يوم الحساب سوادُ

وكأنما كان عُرْيه فى صباه ولقبه عجرد الذى لزمه إرهاصًا لما أخذ فيه بعدُ من الإباحة وطلب اللذات . وكان يطلبها فى الحانات وفى الأديرة وفى البساتين ، متغزلا فى الإماء والغلمان غزلا مكشوفًا كان يتبادله مع مطيع بن إياس وغيره ممن كانوا يمعنون معه فى المجون هازئين بالإسلام ودعوته التى تحرم الإباحة واقتراف المنكرات ، حتى لينحازوا إلى الزندقة التى تفتح لهم الأبواب إلى الفسوق والفجر الفاجر .

ويرتفع ما كان فيه من فسق ومجون إلى سمع المنصور ، فيستخدمه أداة للنَّيْل من محمد بن أخيه السفاح ، حتى يسقط فى أعين الرعية ويرتفع عندها ابنه المهدى ، ذلك أنه كان قد اتصل به من قبلُ وأدَّبه ، وترك فيه أثراً سيئًا ، إذ جعله يميل إلى اللهو وشىء من المجون . ورأى المنصور أن يهتك ستر ابن أخيه فولاه البصرة بعد ثورة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وأصحبه حمادْاً ، فأكمل إغواءه له ، وكشف للناس مجونه ، وله فيه مدائح مختلفة من مثل قوله :

أرجوك بعد أبى العباس إذ بانا ... يا أكرمَ الناسِ أعْراقا وأغصانا

لو مَجَّ عودٌ على قومٍ عصارتَه ... لمجَّ عودك فينا المِسْكَ والبَانا

وحدث أنخطب محمد حين ولى البصرة ابنةعم أبيه زينب بنت سليمان العباسى وكان يهواها ، فلم يزوجوها له لنقص كانوا يرونه فى عقله ، ورأى أن يؤذيهم فطلب إلى حماد أن ينظم فيها غزلا على لسانه ، فنظم وأكثر مما أحفظ عليه أخاها محمد ابن سليمان وأهلها ، ولم يلبث محمد أن توفى لأوائل سنة مائة وخمسين للهجرة ،

فبكاه حماد بكاء حارًّا بمثل قوله :

صرتُ للدهر خاشعاً مستكينا بعد ما كنت قد قهرتُ الدهورا

ليتنى متُّ حين موتك ، لا بل ليتنى كنت قبلك المقبورا

ولم يجرّ عليه نزوله البصرة غضب محمد بن سليمان فحسب ، بل لقد جرّ عليه أيضًا معركة هجاء حامية الوطيس نشبت بينه وبين بشار شاعر البصرة ، ذلك أنه أفسد عليه بعض من كانوا يثيبونه ، فهجاه والتحم بينهما الهجاء ، وشُغف بعض معاصريهما بالتحريش بينهما ، فكان ينقل إلى كل منهما ما يقوله فى صاحبه ، فيثور ويحاول أن يقذفه بحجر مُدْم ، وتكاثرت الأحجار . وكان بشار — مع زندقته — يكثر من هجائه بالزندقة ، وردّ عليه بنفس السهام وبسهام أخرى لم تكن أقل إيذاء ، إذ كان يهجوه بعماه وقبح خلقته ودنسه وقذارته مهوّنا منه أشد التهوين ومستخفًّا به أشد الاستخفاف ، وقد أنشدنا فى الفصل الرابع أطرافا من هذا الهجاء المُصْمى ، وأكثرا جميعًا من هجو الأمهات والزوجات . ومن المحقق أن حماداً كان يستعلى عليه فى تلك المعركة ، إذ كان يُشيع فى هجائه له سخرية مرة من مثل قوله :

إن تاه بشارٌ عليكم فقد أمكنتُ بشارا من التيه

وذاك إذ سمَّيتُه باسمهِ ولم يكن حرٌّ يسمِّيه

لم أهجُ بشاراً ولكننى هجوتُ نفسى بهجائيه

ونراه فى بعض عبثه ولهوه مع مطيع بن إياس يلمزه بعض اللمز ، ولكنهما لا يندفعان فى الهجاء ، فقد كانا صديقين متوادّين . واتصلت صداقته مع يحيي ابن زياد ، وكان مثله خليعًا ماجنا متّهما بالزندقة ، ويقال إنه تاب وأناب بأخرة وهجا حماداً وأشباهه وإنه كان إذا ذُكر عنده ثلبه وحكى تهتكه ومجونه ، فكتب إليه حماد من قصيدة :

إن كان نُسْكك لا يتـ ـمُّ بغير شَتْمى وانتقاصى

فعليك فاشتُمْ آمنـاً كلَّ الأمان من القِصاصِ

فلطالما زكّيتني وأنا المقيمُ على المعاصي
أيام أنت إذا ذُكر تُ مناضلٌ عني مُناصي[1]
وأنا وأنت على ارتكا ب الموبقات من الحِراصِ

وله معاتبات بديعة كثيرة لأصدقائه يتحدث فيها عن واجب الصديق للصديق حديثًا كله برٌّ وعطف ، على شاكلة قوله :

لقد حُزْتَ من قلبي مكانا ممنَّعا أرى لك فيه أن أُريق لك الدّما
سأشرب كأسيك اللتين سقيتني وإن كانتا والله صَاباً وعَلْقَما
وأُدْخل كفِّي إثر كفِّكَ في الذي عراك ولو أدخلتَها ثُقْبَ أرقما[2]

وبلغه توعد محمد بن سليمان العباسي بعد وفاة محمد بن السفاح لما كان يردّده من الغزل بلسان ابن عمه في أخته على نحو ما أسلفنا فمدحه أمداحا مختلفة غير أن محمد بن سليمان ظل حنقا عليه وجدّ في طلبه ، فمضى إلى قبر أبيه سليمان بن على فاستجار به ، وبلغ ذلك محمداً فقال : والله لأبُلَّنّ قبر أبي من دمه ، فهرب حماد إلى بغداد فعاذ بجعفر بن المنصور ، فأجاره ، ويقال إنه طلب إليه هجاء محمد بن سليمان وكان والياً على البصرة فلبّاه وهجاه هجاء مقذعا بمثل قوله :

له حَزْمُ بُرْغُوث وعقل مكاتَبٍ وغُلْمَةُ سِنَّوْرٍ بليلٍ تُوَلْوِلُ[3]

وبلغ هجاؤه ابن سليمان فأهدر دمه ، ويقال بل قتله لزندقته ، وقال : والله لا يفلتني أبداً ، وعرف أنه استتر منه بالأهواز ، فأرسل إليه بعض مواليه وأمره أن يفتك به ، فلم يزل يطلبه حتّى وقف عليه فقتله غيلة سنة ١٦١ للهجرة .

مطيع[4] بن إياس

كان أبوه إياس بن مسلم شاعراً ، وكان من أهل فلسطين الذين أمدّ بهم

---

(١) مناصي : مدافع .
(٢) الأرقم : الثعبان .
(٣) تولول : تعول .
(٤) انظر في مطيع وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٩٤ والأغاني (طبعة دار الكتب) ٢٧٤/١٣ وتاريخ بغداد ٢٢٦/١٣ وعيون الاخبار ١٨٢/٢ وأمالي المرتضى (طبعة الحلبي) ١٤٢/١ والديارات للشابشتي ص ١٥٩ وما بعدها ولسان الميزان لابن حجر ٥١/٦ .

عبد الملك بن مروان الحجاجَ بن يوسف فى حروبه ضد الثوار ، وقد أقام بالكوفة وتزوّج بها فوُلد له مطيع ، وبها كان منشؤه ومرباه . وقد نسبه أبو الفرج إلى كنانة ، ثم عاد فتشكك فى هذا النسب مُحساً أنه من صنع الرواة . وكل شىء فيه يؤكد أنه لم يكن عربيًّا إنما كان من الموالى ، فقد كان متحلل الأخلاق مجاهراً بالفسق والعصيان والزندقة والإلحاد ، ومضى فى مطالع شبابه يمدح الغمر بن يزيد بن عبد الملك ويظفر بجوائزه السنية ، ووصله بأخيه الوليد ، فسلكه فى ندمائه .

وعاد مع حماد عجرد بعد وفاة الوليد بن يزيد إلى الكوفة ، وغرقا فى اللهو والمجون والفسق والعصيان مع يحيى بن زياد وغيره من الخلعاء والمجان . واتصل بعبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ونادمه ، ورافقه فى ثورته على الأمويين حتى إذا قُتل عاد إلى الكوفة يحتسى كئوس الخمر حتى الثمالة .

وليست هناك سوءة من سوءات العصر إلا وتُضاف إليه . وكان فيه ظرف ودعابة ، مما جعله محبَّبا إلى رفاقه ، وله معهم نوادر كثيرة ، من ذلك أن صديقه يحيى بن زياد قال له يوما : انطلقْ بنا إلى فلانة المغنية صديقتى فإن بينى وبينها مغاضبة ، لعلك تصلح بيننا فدخلا إليها ، وأقبل يحيى يعاتبها ومطيع ساكت ، حتى إذا أكثر يحيى قال لمطيع : ما يسكتك ؟ فتوجه إليها مطيع قائلا :

أنت معتَلَّةٌ عليه ومـــازا ل مُهينا لنفسه فى رضاكِ

فأعجب يحيى ما سمع ، وهَشَّ له مطيع ، ثم قال :

فدَعيه وواصلى ابنَ إياسٍ جُعِلَتْ نفسىَ الغداةَ فِداكِ

وأغربت الجارية فى الضحك . وفى كتاب الأغانى أشعار له كثيرة كان يدعو بها رفاقه إلى اللهو والقصف فى داره وفى البساتين والأديار . وغزله فى الغلمان قليل ، ولكن لا شك فى أنه من أوائل من أشاعوا هذا الغزل المزرى ، وله غزل كثير فى القيان الكوفيات وخاصة فى جوهر ، وفيها يقول :

أنتِ يا جوهرُ عندى جَوْهره فى قياس الدُّررِ المشتهره
أو كشمس أشرقتْ فى بيتها قَذفتْ فى كل قلبٍ شَرَرَه

وفى أخباره أنه صحب سلم بن قتيبة حين ولى مدينة الرَّىّ للمنصور سنة ١٤٥ وهناك عشق امرأة من بنات الدهاقين كان نازلا بجوار دارها،ولم يلبث المنصور أن استدعى سلما فى نفس السنة ، فاضطُرَّ مطيع إلى الرحيل معه، وألمّ فى طريقه بمدينة حلوان وجلس يستريح بجوار نخلتين وتذكر معشوقته، فخنقته العبرات وقال أبياته المشهورة التى أنشدناها فى الفصل الرابع والتى يخاطب فيها نخلتى حلوان خطابا مؤثراً شاكيًا لهما فراقه الأحباء والخلان .

ومن الأجواد الذين فزع إليهم فى تلك الفترة يستميحهم بمدائحه معن بن زائدة الشيبانى ، ويُرْوى أنه لما أنشده مدحته التى يقول فيها مصوراً كرمه وبأسه وحلمه وحصافته :

فتى نزارٍ وكهلُها وأخو الـ ... جود حوَى غايتيه من كَثَبِ
ترَى له الحلْم والنُّهَى خُلقا ... فى صولةٍ مثل جاحم اللَّهَبِ

قال له معن مداعبا : إن شئت مدحناك كما مدحتنا ، وإن شئت أثبناك ، فاستحيي مطيع من إيثار الثواب على المديح ، وهو محتاج إلى الثواب ، فأنشأ يقول بديهـــة :

ثنـــاءٌ من أميرٍ خَيْرُ كَسْبٍ ... لصاحبِ فاقةٍ وأخى ثراء
ولكنّ الزمان بَرَى عِظامى ... وما مثلُ الدراهم من دواء

فقال معن : لقد لطفت حتّى تخلصت ، وصدقت لعمرى ما مثل الدراهم من دواء ، وأمر له بثلاثين ألف درهم وخلعة سنية.

وجذبته بغداد على نحو ما جذبت غيره من الشعراء ، فولّى وجهه نحوها ، وربما كان من أسباب ذلك خروج رفيقيه حماد عجرد ويحيى بن زياد إلى محمد ابن العباس السفاح بالبصرة . ويظهر أن الدواء الذى وصفه له معن بن زائدة عزّ عليه فى أول مقامه ببغداد ، مما جعله يقول :

زاد هذا الزمانُ عسرًا وشرًّا ... عندنا إذ أحلَّنا بغداذا
بلدةٌ تمطر الترابَ على النا ... س كما تمطر السماءُ الرَّذاذا

ولم يلبث ظرفه أن فتح له أبواب القصر العباسى ، فتحها له جعفر بن المنصور. وكان فيه خبث ، فانتهز فرصة إعلان المنصور بيعته لابنه المهدى بولاية العهد من بعده ، وتقدم عقب فراغ الخطباء والشعراء من إشادتهم بالمهدى ، فروى حديثاً مصنوعاً لتوّه زاعماً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « المهدى منا محمد بن عبد الله وأمه من غيرنا ، يملؤها عدلا كما مُلئت جوراً» . وسُرّ من صنيعه المنصور ، وحفظ ذلك له المهدى . ويقال إنه ارتفع إلى المنصور أنه ماجن زنديق فهمّ بإنزال عقاب صارم به غير أن ابنه المهدى تشفع فيه فعفا عنه، وبذل له المهدى مائتى دينار ، وأوصى به والى البصرة فولاه أعمال الصدقات . وربما كانت هذه الولاية غير صحيحة ، ولكن من المؤكد أن المهدى ظل راضياً عنه ، ولعل هذا الرضا هو الذى جعله يفلت من عقابه حين شدّد فى تعقب الزنادقة سنة ١٦٦ للهجرة وأطاح برءوس كثيرين منهم . ومما يؤكد زندقته ما يقال من أن الرشيد أُتى ببنت له فى الزنادقة ، فأقرت بزندقتها وتوبتها قائلة : هذا دين علّمنيه أبى وتبت منه . فقبل الرشيد توبتها وردّها إلى أهلها .

ومضى مطيع يعيش لعهد المهدى منهمكاً فى المجون والخلاعة والشراب والانطراح فى مواضع اللذات ، ونظم فى تلك الحياة الفاجرة كثيراً من الأشعار يصف فيها الخمر أو يتغزل ببعض القيان . وله بجانب ذلك معاتبات لرفاقه تفيض حنانا وعطفا وبِرًّا ، وخاصة مع صديقه يحيى بن زياد، ويقول ابن المعتز : «كان لا يفارقه ليلا ولا نهاراً ، ويرى كل واحد منهما بصاحبه الدنيا مودة ومحبة » . وحدث أن تهاجرا ولم يُطق مطيع الصبر على هجره فكتب إليه يعاتبه ويستعطفه مصوراً ما كان منعقداً بينهما من ود متصل بمثل قوله :

كنت ويحيى كَيَدَىْ واحدٍ ... نَرْمى جميعاً وتَرَيْنَا معاً
إن عضّنى الدهرُ فقد عضّه ... يوجعنا ما بَعْضَنَا أوجعا
أو نام نامتْ أعينٌ أربعٌ ... منا. وإن أسْهَرْ فلن يَهْجَعا
حتى إذا ما الشيبُ فى مَفْرِقى ... لاح وفى عارضه أسرعا
سَعَى وُشاةٌ فمشوا بيننا ... فكاد حَبْلُ الوُدِّ أن يُقْطَعَا

حتى إذا استمكن من عَثْرَةٍ أَوْقَدَ نيرانَ القِلَى مُسْرِعا

فلم أَلُمْ يحيى على فعلِهِ ولم أقل مَلَّ ولا ضيَّعا

وهو عتاب يدل على حس مرهف دقيق . وسرعان ما عاد بينهما الصفاء ومضيا يعبّان من دنان اللهو والمجون حتى كفَّ يحيى بأخرة فيما يقال . ولم يلبث أن توفى فبكاه مطيع بكاء حاراً ، ومن قوله يرثيه ويتفجع عليه :

يا أهلِيَ ابكُوا لقلبِيَ القَرِحِ وللدُّمــوعِ السواكب السُّفُحِ [(١)]

راحوا بيحيى ولو تطاوعنى الأ أقْدَارُ لم يبتكر ولم يَرُحِ [(٢)]

ياخير مَنْ يحسن البكاء له الـ يوم ومن كان أمسِ للمِدَحِ

قد ظفِرَ الحُزْنُ بالسرور وقد أُديل مكروهنا من الفرح [(٣)]

وواضح أن مطيعاً كان يتقن جميع الفنون الشعرية وأنه يمتاز فى أشعاره بالسلاسة والعذوبة . ولعل ذلك ما جعله يميل فى كثير من نظمه إلى وزن المجتث والأوزان المجزوءة . وكأنما كان يريد أن يوفر لأشعاره كل ما يمكن من خفة ورقة ورشاقة ، حتى تجرى على أفواه الناس ، وحتى تَلَذَّ آذانهم ، ويقول صاحب الأغانى إن حكما الوادى المغنى تغنّى فى قطعة له ، فلم يبق سقَّاء ولا طحّان ولا مكار إلا غنّى فيها . وقد ظل مطيع سادراً فى غيه ومجونه حتى توفى سنة ١٦٩ وقيل بل فى سنة ١٧٠ للهجرة لأول خلافة الرشيد .

صالح [(٤)] بن عبد القدوس

بصرى من موالى الأزد ، وأكبر الظن أنه فارسى الأصل ، وكان فى صدر

---

(١) السواكب السفح : المنهمرة .

(٢) يبتكر : من البكور . ويرح : من الرواح وهو وقت العشى .

(٣) أديل : أصبحت له دولة وصولة .

(٤) انظر فى صالح وأخباره وأشعاره أمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١/١٤٤ وما بعدها وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٩٠ ورسالة الغفران (طبعة أمين هندية) ص ١٤٢ وتاريخ بغداد ٩/٣٠٣ ومعجم الأدباء لياقوت ١٢/٦ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٦/٣٧١ وفوات الوفيات ١/١٩١ ونكت الهميان للصفدى ص ٧١، ١٧١ ولسان الميزان لابن حجر ٣/١٧٢ وفهارس كتابى البيان والتبيين والحيوان للجاحظ ، وسرح العيون لابن نباتة (طبعة دار الفكر العربى) ص ٢٢٧ .

نشأته يختلف إلى حلقات الوعاظ والمتكلمين ولم يلبث عقله أن تشوش بما كان يسمع فى تلك الحلقات من مناقشات أصحاب الملل والنحل، فإذا هو يعتنق الثنوية المانوية مذهب آبائه ونحلتهم ، وما كانت تقول به من أن العالم نشأ عن أصلين هما النور والظلمة ، ولكل منهما إلهه الخاص ، وأن مصدر بلاء العالم امتزاج هذين العنصرين ، ومن أجل ذلك دعت إلى الزهد فى الحياة ونعيمها الزائل . ونراه فى عصر بنى أمية يكثر من الاجتماع بواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، مشاركا فيما كان يدور فى مجلسه من مخاصمات كلاميَّة ودينية[1] ، ونظن ظنًّا أنه لم يظهر حقيقة عقيدته حينئذ ، وإلا لهتف به واصل ، كما هتف ببشار طالبًا من أصحابه قتله[2] ، وفى بعض شعره أنه كان يسرّ نحلته خشية الحبس والعقاب والتنكيل به ، يقول :

رُبَّ سِرٍّ كتمتُه فكأنى   أخْرَسٌ أو ثنى لسانىَ خَبْلُ
ولو أنى أبديت للناس علمى   لم يكن لى فى غير حَبْسِىَ أكْلُ

وتوفِّى واصل سنة ١٣١ للهجرة ، ولم تلبث الثورة العباسية أن اندلعت تسندها حراب الفرس والخراسانيين وسرعان ما انتصرت فأحسَّ صالح كأن الحياة واتته ، وأخذ يعلن عقيدته ويجاهر بها حينًا ، وحينا يسترها حين يخاف بعض الحكام ، حتى ليصلى صلاة المسلمين حين تحين الصلاة ، ويعجب من صلاته بعض من يعرف مذهبه ، ويسأله فى ذلك متعجبًا ، فيقول : « سنة البلد وعادة الجسد وسلامة الأهل والولد » . ونمضى فى العصر العباسى ويكثر الزنادقة والمتزندقون ، على نحو ما صورنا ذلك فى غير هذا الموضع ، ويعلن صالح زندقته ولا يواريها ، أو بعبارة أدق يعلن مانويته وثنويته ، حتى ليؤلف — كما يقول ابن النديم — كتبًا فى نصرة عقيدته[3] . وتبلغ به الجرأة أن يحاضر ويجادل فيها بمسجد البصرة ، ويتعرض له غير متكلم من المعتزلة وغيرهم وخاصة أبا هذيل العلاف ، ويروى أنه ناظره فى الامتزاج الذى يدعيه المانوية بين النور والظلمة فى الجوهر والطبع والفعل والمكان والأبدان والأرواح ، وأنه أفحمه وقطعه ، فقال :

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٤٦/٣ .
(٢) انظر البيان والتبيين ١٦/١ .
(٣) الفهرست ص ٤٧٣ .

أبا الهُذَيْلِ هداك الله يا رجلُ   فأنت حقًّا لعمرى مُعْضِلٌ جَدِلُ

وناظره أبو الهذيل مرة أخرى فى أصل عقيدته وما يؤمن به من إلهى النور والظلمة ، وبدا منه كأنه يهجر ضلاله وغيه ، فسأله أبو الهذيل : على أى شىء تعزم يا صالح ؟ فقال : أستخير الله وأقول بالاثنين . وكأن المسألة تحولت عنده من الأخذ بالمنطق إلى باب الهوى وتقليد الآباء ، ويظهر أن ذلك أفضى عنده إلى شكوك واسعة لا فى الديانات فحسب ، بل فى حقيقة كل شىء ، ولعله اطلع على مباحث السوفسطائيين اليونانيين وما آمنوا به من أن الأشياء لا حقيقة لها فى نفسها ، ويدل على ذلك ما يقال من أنه ألف كتابا سماه كتاب الشكوك ، ويُرْوَى إنه مات له ولد ، فلقيه أبو الهذيل العلاف ومعه النظام ، فوجده جزِعاً على ابنه ، فقال له : لا أعرف لجزعك وجهاً إذا كان الناس عندك كالزرع ! فقال صالح : يا أبا الهذيل إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك ، فقال أبو الهذيل : وما كتاب الشكوك ؟ قال : كتاب وضعته ، منْ قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان ؛ فقال له النظام : فشُكَّ أنت فى موت ابنك واعمل على أنه لم يمت وإن مات ، وشُكَّ أيضاً فى أنه قرأ هذا الكتاب وإن لم يكن قرأه ، فحصِر صالح . وفى أشعاره ما يدل على أنه عَمِىَ فى آخر عمره ، إذ يقول :

عـزاءكِ أيهـا العَيْنُ السَّكوبُ   ودَمْعَكِ إنها نُوَبٌ تنوبُ

على الدُّنيـا السلامُ فما لشيخٍ   ضرير العين فى الدُّنيا نصيبُ

إذا ما مات بَعْضُكَ فابْكِ بَعْضاً   فإن البعض من بعضٍ قريبُ

وتدخل سنة ١٦٦ للهجرة ويشدد المهدى فى تعقب الزنادقة وينصب لهم ديوانا لمحاكمتهم ومن تثبت عليه الزندقة يُصلب لتوه ، حينئذ يفرُّ صالح من البصرة إلى دمشق ويظل مستتراً بها مدة ، ثم يقبض عليه ويلقى به فى غياهب السجون ببغداد انتظاراً لمحاكمته ، ويصور مشاعره وهو فى السجن تصويراً دقيقاً بمثل قوله :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها   فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى

طَوى دوننا الأخبارَ سِجْنٌ ممنَّعٌ   له حارسٌ تَهْدا العيون ولا يَهْدَا

قُبِرْنا ولم نُدْفَنْ فنحن بمعزلٍ ... من الناس لا نُخْشَى فنُغْشَى ولا نَغْشَى

ألا أحدٌ يأوى لأهل مَحِلَّةٍ ... مقيمين فى الدنيا وقد فارقوا الدنيا

كأنهمُ لم يعرفوا غير دارهمْ ... ولم يعرفوا غير التضايق والبَلْوَى

ويختلف الرواة فى زمن هذه المحاكمة والخليفة الذى تولاها ، فمن قائل إنه المهدى ومن قائل إنه هرون الرشيد ، وقد ضعَّف ابن المعتز القول الأول ، وقال الصحيح أن الذى حاكمه وناظره فى زندقته الرشيد، وكان قد أُنْهِيَ إليه أبيات يهجو بها الرسول — كبرت كلمة تخرج من فمه — لزواجه من زينب بنت جحش بعد فراق مولاه زيد لها[1] ، وهى طعن صريح فى الرسول الكريم والذكر الحكيم ، ولا بد أنه أنهى إليه كل شيء عن زندقته وإثنينيته ومانويته ، فأمر بالقبض عليه ، وزُج به فى السجن ، ثم عُقد له يوم لمحاكمته، وتولَّى الرشيد المحاكمة بنفسه ، غير أنه حاول التبرؤ من كل ما نُسب إليه ، ويقال إنه ظل يستعطف الرشيد طويلا حتى رقَّ له ، ولكنه لم يلبث أن استنشده سينيته التى يقول فيها :

لا يبلغ الأعداءُ من جاهلٍ ... ما يبلغ الجاهلُ من نفسهِ

والشيخُ لا يترك أخلاقه ... حتى يُوارَى فى ثرَى رَمْسِهِ[2]

إذا ارعوى عاد إلى جهلهِ ... كذى الضَّنَا عاد إلى نُكْسه[3]

وإن من أدَّبْته فى الصِّبا ... كالعود يُسْقَى الماءَ فى غَرْسِهِ

حتى تراه مورِقاً ناضرا ... من بعد ما أبصرتَ من يُبْسِهِ

فتلا عليه الرشيد البيت الثانى ، وقال له : نحن نتمثل وصيتك وما شهدت به على نفسك من أنك لا تترك الزندقة ولا تحول عنها أبداً ، وأمر فضُربتْ عنقه وصُلب على الجسر ببغداد عقاباً له وتنكيلا .

وكثير من أشعاره يدور على التنفير من الدنيا ومتاعها الزائل وذكر الموت والفناء ، والحث على مكارم الأخلاق وطاعة الله ، ولعله يريد إله النور والخير ، وقد جعل

---

(١) ابن المعتز ص ٩٠ .

(٢) الرمس : القبر .

(٣) الضنا هنا : المرض ، والنكس : الانتكاس أى رجوع الناقه إلى مرضه .

شيوعُ ذلك فى أشعاره ابنَ المعتز يشك فيا نسب إليه من الزندقة مستشهداً بقولـــه :

وليس بعجزِ المرء إخطاؤه الغِنى ولا باحتيالٍ أدركَ المالَ كاسبُهْ
ولكنه قبْضُ الإلٰه وبَسْطه فلا ذا يجاريه ولا ذا يغالبـــه

يقول ابن المعتز : « فيا عجبا كيف يمكن أن يقول زنديق مثل هذا القول ؟ وكيف يكون قائله زنديقـاً ؟ ». وكأنما أحس أنه يصدر فى البيت الثانى عما جاء فى الذكر الحكيم مراراً من أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أى يضيقه ويجعله بقدر قليل . ونراه يتمثل فى شعره أحيانا بعض الأحاديث كقوله :

ولله فى عَرْض السموات جَنَّةٌ ولكنهـــا محفوفةٌ بالمكارهِ

والشطر الأول واضح الصلة بقوله تبارك وتعالى : (جنة عرضها السموات والأرض) أما الشطر الثانى فواضح الصلة بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « حُفَّت الجنة بالمكارة وحُفَّت النار بالشهوات ». واستمداد ابن عبد القدوس أحيانـًا من الحديث النبوى أو من القرآن أو من بعض وعاظ المسلمين مثل الحسن البصرى لا يخرجه من دائرة الزنادقة المانويين ، فقد كان يصنع صنيعه أبو العتاهية كما مر بنا فى ترجمته ، وزندقته عند ابن المعتز لا يشوبها ريب . أما دعوة ابن عبد القدوس إلى الزهد فى الدنيا الفانية فهى دعوة كان يلتقى فيها المانوية بزهد الإسلام على نحو ما صورنا ذلك فى حديثنا عنهم وعن أبى العتاهية فى غير هذا الموضع ، مما جعل بعض القدماء يتشككون فى زندقة أبى العتاهية على نحو ما يتشكك ابن المعتز الآن فى زندقة ابن عبد القدوس . ومما لا شك فيه أنه كان زنديقا مانويـًّا كبيراً ، بل لقد كان رأس المانوية والمجادل عن عقيدتهم فى البصرة حقباً متطاولة .

ويكاد يذهب شعر ابن عبد القدوس كله فى تقرير محاسن الأخلاق والشيم ، ناظراً فيها نظرة تجريدية ، وهى نظرة دفعته إلى تعقب حكمة العرب والعجم ، حتى قالوا إن فى ديوانه ألف مثل للعرب وألف مثل للعجم[١] ، وكأنه رصد نفسه لنظم الشعر فى الفضائل وتجارب الأفراد والأمم ، ومن خير ما يمثل ذلك عنده

(١) التحفة البهية ص ٢١٧ .

قصيدته الزينبية التى تغزل فى مطلعها فيمن تسمى زينب ، ثم استرسل يسوق الحكم من مثل قوله :

احذَرْ مصاحبةَ اللئيم فإنه ... يُعْدِى كما يعدى الصحيحَ الأجربُ

يلقاك يحلف أنه بك واثقٌ ... وإذا تَوارى عنك فهْو العَقْرَبُ

يعطيك من طَرَف اللسان حلاوةً ... ويَروغُ منك كما يروغُ الثَّعْلَبُ

واخْتَرْ قرينك واصطفيه تفاخراً ... إن القَرين إلى المقارن يُنْسَبُ

واحفظْ لسانك واحترسْ من لفظهِ ... فالمرء يسلم باللسان ويَعْطَبُ

تنطقْ بهِ ... إن الزُّجاجة كَسْرُها لا يُشْعَبُ [1]

سيدة الحكمية قصيدة له قافية استوعب فيها كثيراً من

، وفيها يقول :

والزمانُ يفرِّقُ ... ويظل يَرْقَعُ والخطوبُ تمزِّقُ

عاقلا خيرٌ له ... من أن يكون له صديقٌ أحمق

أن تصادق أحمقاً ... إن الصديق على الصديق مصدَّق

وزنِ الكلام إذا نطقتَ فإنما ... يُبْدِى عقولَ ذوى العقول المنطقُ

وعلى هذه الشاكلة تجرى أشعاره فى صورة تقريرية خالية من العاطفة وقلما شُفعت بخيال أو تصوير ، ولعل ذلك ما جعل شعره يسقط من أيدى الأجيال التالية، إلا قليلا ، وتنبَّه لذلك الجاحظ ، فقال لو أن حِكَمه كانت مفرقة فى قصائد مختلفة لسارت فى الآفاق « ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تَسِرْ ولم تجر مجرى النوادر ، ومتى لم يخرج السامع من شىء إلى شىء لم يكن لذلك عنده موقع [2]» . على أن كتب الأدب ظلت تحتفظ ببعض أبياته الحكمية وظلت تدور فيها من مثل قوله فى العزاء :

إن يكن ما به أصِبْتَ جَليلا ... فلفقدُ العزاء فيهِ أجَلُّ

---

(١) يشعب : يصلح .

(٢) البيان والتبيين ١/٢٠٦ .

وقوله :

إذا لم تستطع شيئاً فَدَعْهُ   وجاوِزْهُ إلى ما تستطيعُ

وقوله :

وتروض عِرْسَك بعد ما هَرِمَتْ   ومن العَناء رياضةُ الهَرِمِ[1]

وواضح فيما أنشدناه من أشعاره أنه كان يعنى باللفظ الجزل الرصين والبناء القوى المحكم ، كما كان يعنى بالتدليل والتعليل ودقة القياس .

٣

شعراء الزهد

هذه الصفحة التى صورناها من شعر المجون والزندقة كانت تقابلها صفحة رائعة من شعر الزهد ، فقد كانت المساجد مكتظة بالوعاظ والنساك وأهل الحديث والفقه والورع ، ومن حولهم العامة ، وقد صدقت كثرتهم ربها مخافة وعيده ، مؤمنة بأن القيامة موعدها وموقفها مع ذى الجلال وأن العمر وإن طال قصير وأن الدنيا ينبغى أن تكون دار زادٍ لدار المعاد . وما يَنِى الوعاظ والنساك من المحدثين يزجرونهم عن التعلق بمتاعها الزائل واضعين نصب أعينهم الموت وتبعات الحياة الموبقة وأن العاقل من عرف أن الناس سَفْرٌ وعما قليل راحلون فإما عذاب مستديم وإما نعيم مقيم ، فأسرع يغتنم بقية أجله بخير عمله مقدما كل ما يستطيع من الباقيات الصالحات .

ويبدو أن كثيرين من القصاص والوعاظ كانوا ما يزالون ينشدون فى وعظهم وقصصهم أبياتًا وأشعاراً كثيرة منها ما يروونه عن القدماء ممن سبقوهم ، ومنهـــا ما ينشئونه إنشاء ، فمن ذلك ما يروى عن صالح المرى القاص العابد من أنه كان كثيراً ما ينشد فى قصصه ومواعظه :

---

(١) العرس : الزوجة .

فبات يرَوِّى أصولَ الفَسيلِ فعاش الفسيلُ ومات الرَّجُلْ [١]

وكان مالك بن دينار المحدث الناسك لا يزال يتحدث فى مجالسه عن الموت ، حتى لتكاد تخنقه العبرات ، وله أشعار مختلفة يتحدث فيها عن القبور وأهلها وأنه أجل محدود ونفس معدود ، وعما قليل يصبح الإنسان ترابا فى تراب ، كمن سبقوه ، فأولى له أن يتعظ ويعتبر ، يقول[٢] :

أتيت القبورَ فناديتهن أين المعظَّم والمحتقَرْ
وأين المدِلُّ بسلطانه وأين المزكَّى إذا ما افتخر
تفانوا جميعاً فما مخبرٌ وماتوا جميعاً ومات الخَبَرْ
تروح وتغدو بناتُ الثَّرَى فتمحو محاسنَ تلك الصُّوَرْ
فيا سائلى عن أناسٍ مضوا أمالك فيما ترى مُعْتَبَرْ

وممن كان يكثر من إنشاد الشعر فى مواعظه سفيان بن عُيَيْنة وسفيان الثورى . وكأن الوعاظ بذلك قدموا مادة واسعة لمعاصريهم من الشعراء كى يصوغوا على نمطها مواعظ تذكى الزهد والعمل الصالح فى نفوس الناس ، وقد أقبل كثيرون ينظمون دقائق الزهد ، حتى بين المجان حين كانوا يثوبون إلى أنفسهم على نحو ما مر بنا عند أبى نواس ، وكما يلقانا عند محمد بن يسير ، وكان ماجنًا هجاء خبيثا ، فقد ألم يومًا بمجلس أبى محمد الزاهد صاحب الفُضَيْل بن عياض ، فأنشد[٣] :

وَيْلٌ لمن لمْ يرحم اللهُ ومن تكون النارُ مَثْوَاهُ
واغَفْلَتَا فى كل يومٍ مضى يُذْكرنى الموتَ وأنساه
من طال فى الدنيا به عُمْرُهُ وعاش فالموت قُصاراه
كأنه قد قيل فى مجلس قد كنت آتيهِ وأغشاه
محمدٌ صار إلى ربِّهِ يرحمنا الله وإياه

وكان من الشعراء الخلعاء المجان من يقلع إقلاعا عن غيه ، فيكثر من أشعار

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٩ والفسيل : صغار النخل .
(٢) عيون الأخبار ٢/٣٠٢ .
(٣) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/٣٩.

الزهد مكفراً بها عما قدمت يداه من مجون وخلاعة ، ومن خير من يمثل ذلك محمد ابن حازم ، وكان ينغمس فى اللهو والمجون ، حتى إذا بلغ الخمسين من سنه آلى على نفسه أن لا يشرب كأساً ولا يسير فى طريق غواية ، وأخذ يكثر من شعر الزهد حاضاً على القناعة وقطع الأسباب المتصلة بالقلوب من متاع الدنيا الفانى بمثل قوله[1] :

ومنتظرٍ للموت فى كل ساعةٍ يَشيد ويبنى دائماً ويحصِّنُ
له حين تبلوه حقيقةُ موقنٍ وأفعاله أفعالُ من ليس يوقِن

وقوله الذى مرّ بنا فى الفصل الرابع :

اضرَعْ إلى الله لا تَضْرَع إلى الناسِ واقْنَعْ بيأسٍ فإن العِزَّ فى الياسِ
واسْتَغْنِ عن كل ذى قُرْبى وذى رحمٍ إن الغنىَّ من استغنى عن الناسِ

وكثيرون كانوا يأخذون أنفسهم بحياة زاهدة حقيقية ، فهم لا يقفون على أبواب الخليفة ولا أبواب الوزراء والأمراء والقواد ، بل يكتفون من العيش بالكفاف ، وإن عُرضت عليهم وظيفة أبوها حرصا على دينهم ورفضا لدنياهم ، وممن اشتهروا فى هذا الباب الخليل بن أحمد واضع النحو والعروض ، وله فى الزهد والعظة أبيات كثيرة من مثل قوله[2] :

عِشْ ما بدالك ، قَصْرُك الموتُ لا مهربٌ منهُ ولا فَوْتُ
بَيْنَا غِنَى بيتٍ وبَهْجَتُــه زال الغِنَى وتقوَّض البَيْتُ

واشتهر بأنه كان يأبى أن يصحب الخلفاء والحكام وذوى الجاه لما فى أيديهم من الدنيا ، ويروى أن سليمان بن قبيصة بن يزيد بن المهلب ، وكان والياً على السِّند ، وجَّه إليه يستزيره فكتب إليه[3] :

أَبْلِغْ سليمان أنى عنه فى دعَةٍ وفى غِنًى غير أنى لست ذا مالِ
سَخّى بنفسىَ أنى لا أرى أحداً يموت هَزْلا ولا يبقى على حالِ

(١) انظر فى هذين البيتين وتاليهما العقد الفريد ٣/٢٠٧ .
(٢) البيان والتبيين ٣/١٨٣ .
(٣) إنباه الرواة ١/٣٤٤ .

الرِّزْقُ عن قَدَرٍ ، لا الضعفُ ينقصه ولا يزيدك فيه حَوْلُ محتالِ
والفقرُ فى النفس لا فى المال تعرفه ومثلُ ذاك الغِنَى فى النفس لا المالِ

وفى كل مكان يلقانا كثيرون يفرغون للنسك والتبتل والعبادة ، مما دفع لظهور مقدمات التصوف فى هذا العصر أو بعبارة أخرى إلى ظهور الحب الإلهى الذى يتجرد عن كل مادة وحسٍّ والذى يستغرق فيه المتصوفة مشغوفين بالحقيقة الإلهية ، وما ترسله على الكون من أضواء الحق والخير والجمال المطلق ، ومن أروع ما يصوِّر ذلك أبيات رابعة العدوية المشهورة(١) :

أحبك حُبَّيْن : حُبَّ الهوى وحُبًّا لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذى هو حبُّ الهوى فشُغْلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهلٌ له فكَشْفُكَ لى الحُجْبَ حتى أراكا
فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وهى تميز بين حبين : حب الله شكراً لإنعامه المتواصل على الإنسان فى دنياه ، وحبه لجماله وجلاله القدسى الذى رفعت الحجب والأستار بينها وبينه ، وهو الحب الصوفى المجرد الذى يفنى فيه المتصوفة فناء يحقق لهم السعادة . ومن المحقق أن التصوف لا يزدهر فى هذا العصر ، إنما يزدهر الزهد ، ومن أجل ذلك نقف عند ثلاثة من كبار الزهاد ، لتتضح لنا المعانى التى كانوا يرددونها فى أشعارهم ، وهم عبد الله بن المبارك ومحمد بن كناسة ومحمود الوراق .

عبد الله (٢) بن المبارك

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح التميمى ولاء ، التركى

---

(١) قوت القلوب للمكى ٣/٨٤ وإحياء علوم الدين للغزالى ٤/٢٦٧ .

(٢) انظر فى ترجمة ابن المبارك وأشعاره الأنساب للسمعانى ١٧٩ ا وتاريخ بغداد برقم ٥٣٠٦ وصفة الصفوة ٤/١٠٩ وتذكرة الحفاظ للذهبى (طبع حيدر أباد) ١/٢٥٤ والتهذيب لابن حجر ٥/٣٨٤ والنجوم الزاهرة ٢/١٠٣ وكتاب الورقة لابن الجراح ص ١٤ وحلية الأولياء لأبى نعيم ٨/٢٧٩ ومختصر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (طبعة الموسوعات) ص ٨٥ .

المروزى أباً ، الخوارزمى أماً ، ولد سنة ثمانى عشرة ومائة للهجرة ، ورحل فى طلب الحديث والعلم سنة إحدى وأربعين ومائة ، فلقى المحدثين ، وروى عن جماعة كثيرة وروى عنه خلائق لا تحصى ، وهو يُعَدّ من كبار الحفاظ فى عصره وأحد من كانت تُشَدّ إليه الرحال للنهل من معين علمه وفضله ، وكان يجمع بين حفظ الحديث والفقه على مذهب أبى حنيفة والأدب والنحو واللغة والشعر والفصاحة . واشتهر شهرة ملوية بنسكه وزهده، حتى قال سفيان الثورى : « لو جهدت جهدى أن أكون فى السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك لم أقدر » . وكان يخرج مع الجيوش الغازية للروم يجاهد فى سبيل الله من جهة ، ومن جهة ثانية يعظ الجنود ويحمسهم للقتال ويُلقى على الناس الحديث فى الثغور من مثل طَرَسوس . وهو بذلك يصحح فكرة شاعت عن زهاد المسلمين وعبادهم هى أنهم كانوا سلبيين لا يشاركون فى الواجبات الوطنية، وهى إحدى الأفكار التى أشاعها المستشرقون ظانين أن زهد المسلمين كان يفصلهم عن الحياة على شاكلة زهد الديانة المسيحية وما ارتبط بها من رهبانية ، وهو ظن واهم فإن زهاد المسلمين — وخاصة الأولين — لم ينفصلوا عن الحياة بل كانوا يتصلون بها ، ليكسبوا قوتهم ، ويعيشوا من كسبهم ، لا مما يلقى إليهم من فتات الموائد، ولذلك كنا نجدهم يتجرون ويحترفون حرفا كثيرة على نحو ما سنرى عند محمود الوراق فإنه كان يحترف النخاسة وبيع الجوارى والإماء، وكان عبد الله بن المبارك يتجر ليكسب معاشه . وكانوا يلبون دائماً نداء الوطن ويتقدمون الصفوف المجاهدة طلباً للاستشهاد فى سبيل الله . وكانوا يعدون هذا الجهاد أروع وأعظم عند الله من نسك النساك، ويقدم لنا ابن المبارك نفسه وثيقة طريفة توضح ذلك أتم توضيح، فقد روى الرواة أنه أملى وهو بطرسوس رسالة شعرية توجَّه بها إلى الفضيل ابن عياض الناسك المشهور فى سنة سبع وسبعين ومائة ، وكان مجاورا بمكة :

يا عابدَ الحَرَمَيْنِ لو أبصرتنا ... لعلمتَ أنك فى العبادة تلعبُ

مَنْ كان يَخْضِبُ جِيدَه بدموعِهِ ... فنُحورُنا بدمائنا تتخضَّبُ

أو كان يُتْعِب خَيْلَه فى باطــلٍ ... فخيولُنا يوم الصَّبيحة تَتْعَبُ

رِيحُ العبِيرِ لكم ونحن عَبيرُنا ... وَهَجُ السَّنابكِ والغبارُ الأطيبُ

ولقد أتانا من مقال نبيِّنا قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يُكْذَبُ
لا تستوى أغبارُ خَيْل الله فى أنْفِ امرئٍ ودخان نارٍ تَلْهَبُ(١)
هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميِّتٍ لا يَكْذِبُ

وواضح أن ابن المبارك يرفع الجهاد فوق العبادة درجات، حتى ليدعوها بالقياس إليه ضرباً من اللعب . وهو يصور الهوة التى تفصل بينهما ، فالناسك يقدم لربه دموعه والمجاهد يقدم دماءه ، متخذاً الخيل العاديات لا فى لهو وإنما فى التضحية والاستشهاد طلباً لرضوان الله، متطيبا بطيب أكثر شذى وعطراً من الطيب الحقيقى، طيب غبار الحرب وسنابك الخيل وهى تقدح الأرض قدحاً . ويقول إن الإسلام، أعلى الجهاد على النسك والعبادة مشيراً إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبدا » كما يشير إلى ما جاء فى الذكر الحكيم من أن شهيد الجهاد لا يموت ، بل يظل حيا عند ربه حياة خالدة : (ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرْزَقُون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أنْ لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمةٍ من الله وفَضْلٍ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) وفى موضع آخر من التنزيل : (ولا تقولوا لمن يُقْتَلُ فى سبيل الله أمواتٌ بل أحياء ولكن لا تشعرون) . وهى ميزة خصَّ بها الله سبحانه المستشهدين فى سبيله دون سائر المؤمنين من نساك وغير نساك ، إذ جعلهم يحيون فى قبورهم حياة برزخية خاصة لا يعلم حقيقتها سواه .

ولابن المبارك موقف ثان يصور كيف كان الزهاد من العلماء والمحدثين يتعففون فى مثل هذا العصر عن الوظائف ومناصب الدولة خوفاً على أنفسهم من أن تغرهم الدنيا فينحرفوا عن الجادَّة ، فقد ذكروا أن أحد أصحابه وهو إسماعيل بن عُلَيَّة وَلِىَ الصدقات بالبصرة ، فكتب إليه يذكر ذلك ويقول له : أحب أن تبعث إلىَّ إخواننا من القُرَّاء لنَسْتَعْمِلَهُم ، فأجابه : القُرَّاء ضربان : قوم طلبوا هذا الأمر (أى قراءة القرآن) لله فأولئك لا حاجة لهم فى لقائك ، وقوم طلبوه للدنيا فأولئك أضرُّ على الناس من الشُّرَط ، وألحق بجوابه هذه الأبيات :

---

(١) الأغبار : جمع غبرة ، وهى الغبار .

يا جاعلَ الدينِ له بَازِياً   يصطاد أموال المساكين
احتلتَ للدنيا ولذّاتهـا   بحيلـةٍ تذهبُ بالدين
وصرت مجنوناً بها بعدما   كنت دواءً للمجانين
أين رواياتُك فيما مضى   عن ابن عَوْنٍ وابن سِيرينِ
أين رواياتك فى سَرْدها   فى ترك أبواب السّلاطين
إن قلتَ أُكْرِهتُ فذا باطلٌ   زلَّ حِمَارُ العلم فى الطّين

وكان كثيراً ما يستشهد بقول المسيح عليه السلام : « كما ترك لكم الملوك الحكمة فاتركوا لهم الدنيا » ونظم ذلك شعراً قائلا :

أرى أناساً بأدنى الدينِ قدقنعوا   ولا أراهم رضوا بالعَيْش بالدُّونِ
فاسْتَغْنِ بالدِّين عن دنياالملوك كمااسـ   ـتغنى الملوك بدنياهم عن الدينِ

وهو كثير التنفير من الدنيا ومتاعها الذى يزول وتبقى تبعاته ، بل إنه ليحمل بين طيّاته من السموم ما يجعل العاقل يرى فيه حيّة ليّنا مسّها قاتلا سَمّها :

حلاوةُ دنيــاك مسمومةٌ   فما تأكل الشّهْدَ إلا بِسَمّ

وهى خدّاعة غرور ، لا يكاد يطمئن شخص فيها إلى سرور حتى يهجم عليه حزن مفجع أومصيبة موجعة ، فمن جرّعته يوما حلاوتها جرّعته أياماً مرارتها :

دنيا تداولها العبادُ ذميمةً   شِيبَتْ بأَكْرهَ من نقيع الحَنْظَلِ
وبناتُ دهرٍ لا تزال مُلمّةً   فيها فجائعُ مثل وَقْع الجَنْدلِ

وإنه لواجب على كل إنسان أن يعصى هوى نفسه ، فانها إمارة بالسوء ، وإن هو أطاعها حملته مالا يطيق من الذنوب والآثام ، عاصفة منه بسلطان العقل موردة له موارد الهلاك :

رأيتُ الذنوبَ تميتُ القلوب   ويَخترمُ العقلَ إدمانُها
يبيع الفتى نفسَه فى رَداه   وأسْلَمُ للنفس عصيانُها

وعلى هذا النحو كان ابن المبارك يكثر من النظم فى الدعوة إلى التقوى واجتناب الآثام والشهوات كما كان يكثر من الدعوة إلى الزهد وذم الدنيا فإنها لا تمس أحداً بفرح حتى تملأه بترح ، والحازم من تزود من يومه لغده ومن حياته لآخرته . وقد لبى نداء ربه سنة إحدى وثمانين ومائة للهجرة .

محمد[1] بن كُناسة

كناسة لقب أبيه واسمه عبد الله بن عبد الأعلى من بنى أسد ، وقد ولد ونشأ بالكوفة فى بيت صلاح وتقوى ، إذ كان خاله إبراهيم بن أدهم أحد من تُذكر أسماؤهم فى نشأة التصوف . ونراه يختلف إلى حلقات المحدثين اختلافاً أتاح له أن يُحمَل الحديث عنه ، وأن يُعَدَّ فى رجاله . ويظهر أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، غير أنه كان – كما يقول أبو الفرج – امرءاً صالحاً فلم يتصدَّ لأحد بمدح ولا هجاء ، بل قصر شعره على الزهد وما يتصل به من رياضة النفس على ترك الهوى والاتعاظ بالدنيا وفناء لذاتها وبقاء تبعاتها ، فنعمها دائماً زائلة ونقمها نازلة ، ومهما طال عمر الإنسان فيها فإلى بِلًى وفناء وإلى كوارث وفواجع ، فكلنا يجرى إلى غاية ينتهى عندها أجله ، ومن عجب أن تتعلق قلوبنا بها ، ونحن كل يوم نقطع مسافة إلى تلك الغاية المحتمة ، بل إن منا من يضل طريق الرشاد فيتبع نفسه وهواها ، وكان حريًّا به أن يقهرها ويدفع عن نفسه بادرة سطوتها حتى يصون دينه ، يقول :

ومن عجب الدُّنْيَا تُبَقِّيك للبِلَى ... وأنك فيها للبقاء مريدُ
وأىُّ بنى الأيام إلا وعنده ... من الدهر ذنبٌ طارفٌ وتَليدُ
ومن يأمن الأيامَ أما اتِّساعها ... فَخَطْرٌ وأما فَجْعُها فَعتيد[2]
إذا اعتادت النفسُ الرضاعَ من الهوى ... فإن فِطامَ النفس عنه شديد

(١) انظر فى ابن كناسة وأخباره وأشعاره الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/٣٣٧ ، والفهرست لابن النديم ص ١٠٥ ، والنجوم الزاهرة ٢/١٨٥ .

(٢) اتساعها : نعيمها . خطرها : متقطع. عتيد : مهيء حاضر.

وهو يكرر الحديث عن فطام النفس من الشهوات واللذائذ وأنه ثقيل وأن السعيد من عصى هواه فى طاعة ربه ، فاجتنب المحارم والمآثم ، ويلاحظ أن من الناس من يلوك الأحاديث فى عواقب اتباع الهوى ، وكأنه يقول بفمه ما ليس له ظل فى قلبه ، أو كأنه يَعِظُ ولا يتعظ ، وفى ذلك يقول :

ما مَنْ رَوَى أدباً ولم يعمل بهِ ... ويكفَّ عن زَيْغ الهوى بأديبِ
حتى يكون بما تعلَّم عاملا ... من صالحٍ فيكون غير معيب
ولقلما تُغْنِى إصابةُ قائلٍ ... أفعاله أفعالُ غيرِ مصيب

فالكلمة إن لم تصدر من القلب لم يكن لها تأثير فى القلوب ، وعظة الواعظ إن لم تشفع بعمله كان هو أول من لا ينتفع بها ، وكانت كالسراج يضئ الدار ويحرق نفسه .

وكان أصدقاؤه من طلاب الدنيا لا يزالون يتلومونه على قعوده عن أبواب الحكام والأمراء ، بينما هو يحسن نظم الشعر ، ونظراؤه يكسبون به الألوف المؤلفة ، وهو يعيش فى كفاف وبُلَغ وصُبابة ، فكان يردهم ردًّا منكراً ، إذ أعرض عن الدنيا مصمما ، غير راغب فى متاعها ، فحسبه متاع الآخرة الذى ينتظره والذى يحفظ على نفسه من أجله ماء وجهه ويصون كرامته ، فلا يبتذلها لمخلوق ، فضلا عن أن يمدحه ويداهنه ويطلب منه ما ينبغى أن لا يتجاوز فى طلبه ربه . إنه إن فعل طعن وجهه وحياءه طعنة نجلاء ، بل طعن زهده وتقواه ، إذ يصبح من طلاب الدنيا لا من طلاب الآخرة ومن يؤثرون نعيم العاجلة على نعيم الباقية ، يقول مجيباً بعض لائميه :

تؤنِّبنى ـ أن صُنْتُ عِرْضى ـ عصابةٌ ... لها بين أطنابِ اللئام بَصِيصُ (١)
يقولون لو غمَّضْتَ لازددتَ رفعَةً ... فقلتُ لهم إنى إذنْ لحَرِيصُ (٢)
أتَكْلِمُ وجهى ـ لا أباً لأبيكمُ ـ ... مطامعُ عنها للكرام مَحِيصُ (٣)
معاشى دُوَيْنَ القوت ، والعِرْض وافرٌ ... وبَطْنِى عن جَدْوى اللئام خَمِيصُ (٤)

---

(١) الأطناب : حبال الخيام والاستعارة واضحة . بصيص : بريق .
(٢) غمضت : تساهلت . حريص : جشع
(٣) تكلم : تجرح .
(٤) الجدوى : العطية . خميص : ضامر .

سألقى المنايا لم أخالط دَنيّةً ولم تَسْرِ بى فى المخزيات قَلُوص[1]

وكانت له جارية شاعرة مغنية تسمى دنانير وكان ذوو المروءة من أهل الأدب يقصدونها للمحادثة والمساجلة فى الشعر ، وكان يقدرها لظرفها وسعة ثقافتها وقدرتها على المشاركة فى كل الأحاديث ، واختطفها منه الموت ، فحزن حزنًا عميقًا ، صوّره فى قوله يرثيها ، وقد استسلم لأمر ربه :

الحمدُ لله لا شريكَ له ياليت ما كان منكِ لم يكن
إن يكن القول قَلَّ فيك فما أفْحمَنى غيرُ شدّة الحَزَنِ

وله مرثية طريفة فى خاله إبراهيم بن أدهم ، وهى ترسم صورة العابد الناسك فى العصر العباسى الأول وكيف كان يعيش على الكفاف قانعًا به ، مزدريًا الدنيا ومتاعها ، مقبلا على عبادة ربه ، قامعا لدواعى الهوى فى نفسه ، متحليا بالفضائل الرفيعة ، لا يعرف الغضب ولا الطيش ، إنما يعرف الحلم والمثل الخلقية العليا ، يعيش صامتاً مفكراً فى ملكوت ربه الأعلى ، حتى إذا نطق استولى على القلوب والأفئدة ببيانه الرائع . وهو دائمًا مستكين خاضع لربه متواضع أروع ما يكون التواضع الذى لا يخدش مروءة ولا كرامة ، حتى إذا رعدت الكتيبة بصواعق الموت تقدم الصفوف يناضل مناضلة الليوث الكواسر . وفى ذلك كله يقول مخاطبًا بعض من لا يزالون يستزيدون من الغنى والثراء :

رأيتك ما يكفيك ما دونه الغِنَى وقد كان يكفى دون ذاك ابنَ أدْهما
وكان يرى الدنيا صغيرا عظيمُها وكان لحقِّ الله فيها معظِّما
أمات الهوى حتى تجنَّبه الهَوَى كما اجتنب الجانى الدَّم الطالب الدَّما
وللحلم سلطانٌ على الجهل عنده فما يستطيع الجهل أن يَتَرَمْرَمَا[2]
وأكثر ما تلقاه فى القوم صامتاً وإن قال بَذَّ القائلين وأحكما
يُرَى مستكينا خاضعاً متواضعاً ولَيْثاً إذا لاقى الكتيبةَ ضَيْغَما

(١) القلوص من النوق : الشابة .

(٢) يترمرم : لا يتحرك الكلام .

على الجَدَثِ الغربىِّ من آل وائلٍ سلامٌ وبِرٌّ ، ما أبَرَّ وأكرما[1]

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور كيف كان ابن كناسة يُصَفّى قلبه وعقله للزهد وكيف كان يمزجه بنفسه ، وكيف كان يعيش له وبه مؤمناً بأنه الغاية العليا التى ينبغى أن يطمح إليها الإنسان ويقصر عليها حياته ، حتى يفوز برضوان ربه ، وقد لبى نداءه لسنة سبع ومائتين للهجرة .

محمود[2] الوراق

ليس بين أيدينا أخبار كثيرة توضح حياة محمود ، ويقال إنه كان نخاساً ببغداد يبيع الرقيق ، ويبدو أنه كان فى فاتحة حياته يأخذ بحظ من اللهو ، ثم كفَّ نفسه وردعها ، وأخلص وجهه لربه . وفى أخباره ما يدل على حسن عشرته لجواريه وأنهن كن لا يؤثرن عليه أحدا ، وكانت جاريته سكن من بينهن من أحسن قريناتها وجهاً ، وكانت تتقن الغناء وتنظم الشعر البارع ، فملكت عليه لُبَّه وقلبه ، وحدث أن رقّت حاله واختلت حياته ، فرأى أن يبيعها حتى يوفرَّ لها خفض العيش عند غيره ، وتنافس الناس فى اقتنائها ، وعرض فيها أحد الطاهريين مائة ألف درهم ، فمال محمود إلى بيعها ، ولما عرض عليها ذلك بكت وذرفت الدموع ، وقالت له إنى أختار عيشة الفقر معك ، فرقّ لها وحرَّرها وأصدقها داره ، وكانت كل ما يملك . ومن طريف ما يروى من أخبار جواريه اللائى كن ينعمن بعطفه أن المتوكل عرض له فى إحداهن عشرة آلاف دينار ، فأبى ، فلما توفى اشتراها فى ميراثه بخمسة آلاف دينار . وذكر لها المتوكل ما كان من أمر محمود معه ، فقالت : يا أمير المؤمنين إذا كانت الخلفاء تتربّص بلذاتها المواريث فسنشترى بأرخص مما اشتريت.

ولعل العصر العباسى الأول لم يعرف شاعراً أكثر من الحديث عن الزهد واعظاً مذكراً كما أكثر محمود ، وهو يتخذ لذلك مواقف متعددة ، منها موقف وجوب الطاعة لله ولأوامره ونواهيه ، فالمسلم الصحيح ينبغى أن لا يقترف إثماً ولا يرتكب معصية ، وإلا أوثقته ذنوبه ولم يجد من يخلصه من عذاب الله ووعيده ، وحرى

---

(١) الجدث : القبر .

(٢) انظر فى محمود وأخباره وأشعاره تاريخ بغداد ١٣/٨٧ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص٣٦٧، ٤٢٢ والبيان والتبيين ٣/١٩٧ وما بعدها والعقد الفريد ١/٢٢٨ ، ٢/٢٨٥ ، ٣/١٧٩ ، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٥ وما بعدها ، ٦/٤٠٤ وفوات الوفيات ٢/٢٨٥ وعيون الأخبار ٣/٥٣ .

' يؤمل فى جنة ولا ثواب ، فقد

هذا للأمر غيرَ مشاهدِ

الجنانِ بها وفوزَ العابدِ

منها إلى الدنيا بذنبٍ واحدِ

ـمل الصالح وأن يجافى الذنوب والآثام حتى يكون

مرفة الله وشكر نعمه بدونها ، بل لاتتم محبته

ى التماسها وابتغى إليها كل وسائل العبادة متحامياً

لعصيان ، منقطعاً إلى الله متبتلا له ، يقول :

حُبَّه هذا محالٌ فى القياس بديعُ

ـه إن المحبَّ لمن أحبَّ مُطيع

نعمةٍ منه وأنت لشكرٍ ذاك مُضيع

بقضاء الله ، وهو موقف يملأ نفس الزاهد طمأنينة

يخشى شيئاً ، إذ لا يتمنى غير ما يحدث ، وكل

ـ . . . . ـس رحيب ، يقول :

قَدَرُ الله كائنٌ حين يُقْضَى وُرُودُه

قد مضى فيك عِلْمه وانتهى مـا يريده

وموقف ثالث هو التوكل الحق على الله والثقة به ، والاعتماد عليه دون سواه من الناس ، فهو الكافل والضامن ، وهو الذى يقدِّر ما يصيب الإنسان ، ولن يستطيع الوصول إليه قبل موعده المقدور ولو طلبه بقوة السماء والأرض ، وقد كفل له رزقه وضمن له حياته ، فنعم الضامن الكفيل ، يقول :

أتطلب رزق الله من عند غيرِهِ وتصبحُ من خوف العواقب آمنا

وترضى بعرّافٍ[1] وإن كان مُشْركا ضَمينا ولا ترضى بربِّك ضامنا

(١) العراف : المنجم والناظر فى النَد .

ويقول :

أما عجبٌ أن يكفل الناسُ بعضهم ببعضٍ فيرضى بالكفيل المطالبُ
وقد كفل الله الوفىُّ بعهدهِ فلم يُرْضَ والإنسان فيهِ عجائبُ
عليمٌ بأن الله موفٍ بوعدهِ وفى قلبه شكٌّ على القلب دائبُ

وهذا الموقف أدّاه إلى موقف رابع هو القناعة ، أو بعبارة أخرى أن يقنع الإنسان بما عند الله وما ادّخره له فى يومه وغده ، وأن يُقْلع عن الطمع وإلا أصبح ما يكفيه لا يكفيه وإن أقبلت عليه الدنيا بحذافيرها ، بل إن شدة الطمع تؤدى بصاحبها إلى أن يصبح أشد ضنكا من الفقير المحتاج ، والغنى الحقيقى هو غنىُّ النفس القانع لا غنىّ الثراء الجشع ، وفى ذلك يقول :

من كان ذا مالٍ كثيرٍ ولم يَقْنَع فذاك الموسِرُ المُعْسِرُ
وكلُّ من كان قنوعاً وإنْ كان مُقِلاًّ فهو المُكْثِرُ
الفقرُ فى النفس وفيها الغِنى وفى غنَى النفس الغِنى الأكبر

ويكثر محمود من تقريع غنىّ المال فقير النفس ، مصوراً جشعه فى جمع الدراهم والدنانير وإلحاحه فى طلبها ، واسترقاقها له ، بل عبادته لها وهيامه بها الذى لا يقف عند حد، إذ فتَنَته عن نفسه وعن دينه وعن ربه. وكان يعجب عجباً شديداً كيف يجمع عبدة المال بينه وبين عبادة ربهم وهو قد استأثر بقلوبهم وعواطفهم وأهوائهم وملك عليهم كل شىء من أمرهم ، يقول :

أظهروا للناس ديناً وعلى الدينار داروا
وله صاموا وصَلّوا وله حَجّوا وزاروا
لو بدا فوق الثُّرَيّا ولهم ريشٌ لطاروا

ودائماً يقول ألا تبّاً للغنى الذى يتملك الإنسان ويستعبده ، ومرحى بالفقر وعيشة الكفاف التى يعيشها الزهاد ، غير ملتمسين شيئاً فوق ما يسد رمقهم ويدفع الحاجة عنهم ، ويكفى فقر الزهاد سمواً أنك لا تجد فقيراً يعصى الله ليفتقر ، بينما يفتح الثراء على

أصحابه أبواب الحرص والطمع ، بل إنهم يخوضون إليه أحياناً أبواب المعاصى ومن ورائها أبواب سقر ، وفى ذلك يقول هذه الأبيات التى أنشدناها فى الفصل الرابع :

يا عائبَ الفقر ألا تَزْدَجِرْ عَيْبُ الغِنى أكثر لو تَعْتَبِرْ

من شرف الفقر ومن فضلهِ على الغِنى إن صَحَّ منك النَّظَرْ

أنك تعصى كى تنال الغِنى وليس تَعْصِى الله كى تفتقر

وموقف خامس هو الصبر عند فواجع الزمان فإن من حسنت عقيدته استقبل الكارثة كما يستقبل النعمة ولم تذهب نفسه حسرات إزاء صروف الدهر ، بل تدرَّع بالصبر الجميل درع العباد الناسكين الذين خبروا الحياة وعرفوا أنها هَمٌّ يَتلُو هَمّاً وأن كل شيء فيها إلى فناء ، يقول :

يمثِّل ذو اللُّبِّ فى نفسهِ مصائبَه قبل أن تنزلا

فإن نزلتْ بَغْتَةً لم تَرُعْهُ لما كان فى نفسه مثَّلا

رأى الهمَّ يفضى إلى آخرٍ فصيَّر آخِرَه أولا

وذو الجهل يأمن أيَّامه ويَنْسَى مصارعَ من قد خلا

فإن بَدَهَتْه صروفُ الزمان ببعض مصائبه أعْوَلا

ولو قدَّم الحزمَ فى أمرهِ لعلَّمه الصَّبْرَ عند البَلا [1]

وموقف سادس هو اتخاذه من الشيب نذيراً للموت ، وأنه إذا دبَّ السواد خلال البياض كان حريّاً بالإنسان أن يقلع عن غَيِّه ويتزود لآخرته ، فقد دقت أجراس الموت وملأت الفضاء من حوله ، وجدير به أن يبكى ويتفجع على نفسه ، فالحياة توشك أن تنقضى ويوشك ظِلُّها أن ينحسر عنه إلى غير مآب ، كما انحسر عن الأفراد والأمم ، يقول :

بكيتَ لقُرْب الأَجَلْ وبُعْد فوات الأَمَل

(١) البلا : مقصور البلاء .

ووافدِ شَيْبٍ طَرَا بِعقْبِ شبابٍ رَحَلْ
شبابٌ كأَنْ لم يكن وشيبٌ كأَنْ لم يزَل
طواك بَشِيرُ البقاء وحَـلَّ بشير الأَجَلْ
طوى صاحبٌ صاحباً كذاك اختلافُ الدُّوَلْ

وموقف سابع هو العفو عن الظالم ، فهو لا يلقى الإساءة بالإساءة إذ يجد فى ذلك وقوداً لتهييجها ، وإنما يلقاها بالعفو والرفق والبر والرحمة مطفئاً نار الجهل بالحلم وموجدة الغضب بالصفح . وهى خصلة من خصال الإسلام الرفيعة حث عليها الذكر الحكيم بمثل قوله : (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وقوله : (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) وقوله : (وأن تعفوا أقرب للتقوى) . وإنما أراد الإسلام بذلك أن يزرع البرَّ والمحبة فى قلوب المسلمين بعفو بعضهم عن بعض ، مع وعده لهم على هذا الصنيع بالأجر والمثوبة الحسنة . وعن كل ذلك صدر محمود فى تصوير عفوه عن بعض ظالميه قائلا :

إنى وهبتُ لظالمى ظُلْمى وغفرتُ ذاك له على علْمِ
ورأيتُه أَسْدى إلىَّ يَدًا لما أبان بجهله حِلْمى
رجعتْ إساءتُه عليه وإحْ ساَنى إلىَّ مضاعَف الغُنْمِ
وغدوتُ ذا أَجْرٍ ومحمدةٍ وغدا بكَسْب الظلم والإثْمِ
وكأنما الإحسان كان لَهُ وأنا المسىءُ إليه فى الحكم
ما زال يظلمنى وأرحمه حتى رثيتُ له من الظُّلْمِ

وهذه المواقف الزهدية المختلفة لمحمود توضح غزارة فكره وأنه كان يستمد من معين عقلى وروحى لا ينضب ، فهو تارة يرغب فى محاسن الأخلاق والشيم وتارة يعظ ويذكر ناصباً الموت أمام أعين الناس حاثاً لهم على الإعراض عن الدنيا ومتاعها الفانى والتوكل على الله والرضا بقضائه واتخاذ العدة للقائه ، وقد توفى فى حدود المائتين والثلاثين أو بعدها بقليل .

٤

شعراء الاعتزال

تحدثنا فى الفصل الثالث عن كثرة الفرق الكلامية فى هذا العصر ، وقلنا إن فرقة المعتزلة كانت أهم هذه الفرق ، حتى ليمكن أن نسمى هذا العصر عصر الاعتزال ، وقد ملئوا مساجد البصرة بجدالهم العنيف مع أهل النحل والملل المختلفة ، واستمالوا كثرة الشباب إلى عقيدتهم بما أوتوا من قوة اللسن والفصاحة وما سلحوا به عقولهم من المنطق والفلسفة ، بل لقد استمالوا الخلفاء منذ عصر المأمون ، فإذا هو يعلن رأيهم فى أن القرآن مخلوق عقيدة رسمية للدولة. وكانوا — كما أسلفنا — يعلون النظر العقلى إعلاء كبيراً ، حتى ليحيط بشر بن المعتمر العقل — كما مر بنا فى الفصل الرابع — بهالة قدسية ، وهو إعلاء جعلهم يقولون بأن إرادة الإنسان حرة يفعل ما يشاء بمحض اختياره، حتى يوجبوا عليه التكليف وثمرته من الثواب والعقاب حسب عمله ، وأداهم ذلك إلى البحث فى العلاقة لا بين الله والإنسان فحسب ، بل أيضاً بين الله والطبيعة، ففيها علل ثانوية فعالة تقابل حرية الإرادة عند الإنسان، وإذا كان الله يتصف بالعدل إزاء الإنسان وثوابه وعقابه فإنه يتصف بالحكمة إزاء الطبيعة وكل ما خلقه فيها وبثه حتى من عناصر الشر . وبلغ من تمجيدهم العقل أن قالوا إن الإنسان يستطيع به حتى لو لم تصله الشرائع أن يعرف أن للعالم إلها واحداً خالقا حكيما ، يعرف ذلك عن طريق مصنوعاته ، وأفضى بهم ذلك إلى مباحث واسعة فى الطبيعة . وقد نزهوا الله عن التشبيه والزمان والمكان والحركة ، وقالوا إن صفاته عين ذاته . وأفاضوا فى هذه المباحث وما يماثلها إفاضة بحيث أصبح لكثير منهم مذاهب اعتزالية متميزة على نحو ما صورنا ذلك فى الفصل الثالث من بعض الوجوه

ولا يكاد يلم القارىء بآرائهم ومذاهبهم فى كتاب مثل كتاب الملل والنحل للشهرستانى حتى يهوله ما امتازت به عقولهم من خصب وامتياز ، فقد استطاعوا أن ينفذوا من خلال كل ما قرءوا من ثقافات وفلسفة مترجمة إلى فلسفة إسلامية حقيقية، بحيث لا نغلو إذا قلنا إنهم فلاسفة العرب الأولون ، إذ لم يقفوا بمباحثهم عند العقيدة

الإيمانية ، بل بسطوها حتى وسعت كل ما خاض فيه اليونان وغير اليونان من مسائل الإلهيات والطبيعيات مما يتصل بمبادىء الموجودات والجسمانيات والروحانيات التى وراء الطبيعة والعناصر المكونة للمحسوسات وكل ما تنبعث عنه الحركات فى الكون والنفس الإنسانية . وبذلك تحوّل الاعتزال فى هذا العصر إلى ما يشبه كنزاً فلسفياً سائلا ما يزال يرفد الفكر العربى بدرره وجواهره ، وتحوّل شباب الشعراء وغيرهم يستمدون منه عتاداً لعقولهم ومادة خصبة لخواطرهم ، مما جعل أبا نواس وغيره يلوكون بعض مصطلحاتهم .

وكان من المعتزلة أنفسهم شعراء كثيرون شاركوا فى مجال الشعر ، ومشاركتهم فيه تأخذ وجهتين : وجهة عامة فهم ينظمون فيما ينظم فيه غيرهم من موضوعات الشعر وأغراضه ، ووجهة خاصة فهم ينظمون فى الاحتجاج لآرائهم الكلامية وفيما يتصل بها من بعض المباحث فى الطبيعة ، وكثيراً ما يردّون على خصومهم من أصحاب النحل المختلفة . وأقدم شاعر منهم يلقانا فى فاتحة هذا العصر صفوان الأنصارى تلميذ واصل بن عطاء ونراه يتصدّى لبشار حين عرف فيه أستاذه إلحاده ونادى فى الناس أن يقتلوه ، لقوله بالرجعة ولتفضيله النار على الطين وبالتالى إبليس على آدم معتذراً له عن عصيانه لربه حين طلب إليه السجود له ، فأبى وآب بالكفر والعصيان والخذلان . ولصفوان فى تصديه لبشار موقفان : موقف يمدح فيه واصلا ويتحدث عن أتباعه وذبِّهم عن الدين وحرماته وما أوتوا من الفصاحة واللدد فى الخصومة ، وكيف يضربون فى أقطار الأرض داعين للإسلام ولعقيدتهم ، مستطرداً إلى وصف سيمائهم ونسكهم وتقشفهم ، وفيهم وفى أستاذهم يقول :

تلقَّب بالغَزَّال واحدُ عَصْرِه ... فمَنْ لليتامى والقبيل المكاثرِ [1]

ومنْ لحَرُورِىٍّ وآخرَ رافضٍ ... وآخرَ مُرْجِىٍّ وآخر جائرِ

وأمرٍ بمعروفٍ وإنكار منكَرٍ ... وتحصين دين الله من كلِّ كافر

له خَلْفَ شعْبِ الصِّين فى كل ثُغْرَةٍ ... إلى سُوسِها الأَقْصى وخلفَ البرابر

---

(١) لقب واصل بالغزال لأنه كان يكثر الجلوس فى سوق الغزالين ، وعلل المبرد لذلك بأنه كان يريد الوقوف على المتعففات من النساء ليعرف صدقته إليهن . وانظر فى الأبيات البيان والتبيين ١ / ٢٥ وما بعدها .

رجالٌ دُعاةٌ لا يَفُلُّ عَزِيمَهُمْ تَهكُّمُ جَبَّارٍ ولا كَيْدُ ماكرِ
وأوتادُ أرض الله فى كل بلدةٍ وموضعُ فُتْيَاها وعلمِ التشاجُرِ

وموقف ثان سبق أن عرضنا له فى ترجمتنا لبشار ، ينقض فيه تفضيله النار على الأرض ونفوذه من ذلك إلى تصويب رأى إبليس فى رفضه أمر ربه له بالسجود لآدم ، كما ينقض مزاعمه فى الرجعة والتناسخ وتكفيره لجميع الأمة ، وخير ما يصور ذلك داليته التى أنشدها الجاحظ ، وهو فيها يسهب فى بيان فضائل الأرض ، بادئا بأنها تحمل فيما تحمل النار ، على نحو ما هو معروف فى الحجارة والزند ، ثم يفيض فى بيان طرائفها المبثوثة فى البحار من لآلىء وغير لآلىء ، ومن عنبر وغير عنبر ، مع ما تحمل من السمك السابح ، إلى طرائف لا تكاد تحصى فى الجبال والحرار وظاهر الأرضين من الأحجار الكريمة والذهب والفضة والمعادن النفيسة ، بالإضافة إلى الأماكن المقدسة ، مما يدل دلالة ناصعة على عظمة الخالق ، ومن قوله فى ذلك [1] :

زعمتَ بأن النارَ أكرمُ عُنْصُرًا وفى الأرض تَحْيَا بالحجارة والزَّنْد
وتُخْلَقُ فى أرحامها وأرومها أعاجيبُ لا تُحْصَى بخطٍّ ولا عَقْدِ [2]
وفى القَعْرِ من لُجِّ البحارِ منافعٌ من اللؤلؤ المكنون والعنبر الوَرْد [3]
وفى قُلَلِ الأجْبال خلف مقطَّمٍ زبرجدُ أملاك الورى ساعةَ الحَشْد [4]
وفى الحرَّة الرَّجْلاء تُلْفَى معادنٌ لهنَّ مغاراتٌ تبجَّسُ بالنَّقْد [5]
من الذهبِ الإبريز والفضة التى تروق وتُصْبِى ذا القناعة والزُّهد
وكل فِلِزٍّ من نحاسٍ وآنُكٍ ومن زئبقٍ حَىٍّ ونوشاذُرٍ يُسْدِى [6]
وكلٌّ يواقيتِ الأنام وحلْيها من الأرض والأحجار فاخرةِ المجد

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٢٧ .
(٢) العقد : الحساب ، ويريد العد .
(٣) الورد : الأحمر .
(٤) المقطم : جبل مصر الممتد من القاهرة إلى أسوان على الشاطىء الشرقى للنيل .
(٥) الحرة : أرض بركانية سوداء الحجارة . الرجلاء : الوعرة الخشنة . تبجس : تتفجر .
(٦) آنك : رصاص . النوشاذر بالذال والدال : حجر أبيض صاف كالبلور .

وفيها مقامُ الخِلِّ والرُّكْنُ والصَّفَا ومُسْتَلَمُ الحُجَّاجِ من جَنَّةِ الخُلْدِ

ويأخذ صفوان بعد ذلك فى بيان حقيقة بشار ويظهر أنه كان حينئذ يردِّد آراء فرقة الكاملية إحدى فرق الشيعة الغالية ، وقد أكفر صاحبهم أبو كامل جميع الصحابة لتركهم بيعة على وطعن فى على لقبوله التحكيم ولأنه قعد فى عهد الخلفاء الثلاثة الأول عن المطالبة بحقه ، وكان يرى أن الإمامة نور يتناسخ من شخص إلى شخص . ويظهر أيضًا أنه كان يردد بعض ما قاله ديصان ومانى عن النور والظلمة وأنه كان لا يزال يلوك أسماء غالية الشيعة من مثل ليلى الناعظية وأبى منصور العجلى وابن عمه المغيرة بن سعيد وغيرهم ، ويسجِّل ذلك كله صفوان عليه ، يقول :

أتجعلُ عَمْرًا والنِّطاسِيَّ واصلا كأتباعِ دَيْصانٍ وهُمْ قُمُشُ المدِّ[1]

فيا ابنَ حليفِ الطِّين واللؤم والعمى وأبْعدَ خَلْقِ اللهِ من طُرُقِ الرُّشْدِ[2]

أتهجو أبا بكرٍ وتخلع بعده عليًّا وتَعْزُو كلَّ ذاك إلى بُرْدِ[3]

كأنك غضبانٌ على الدين كلِّه وطالبُ ذَحْلٍ لا يبيت على حقْدِ

أتجعل ليلى الناعظيَّةَ نِحْلَةً وكلَّ عريقٍ فى التناسخ والرَّدِّ

وقد خلص بشار بعد ذلك للمذاهب المجوسية وعبادة إلهى النور والظلمة . ولم يصلنا لصفوان ردود على الملحدة وأصحاب النحل والأهواء المختلفة وراء هذا الرد على بشار ، وأغلب الظن أنه كان يرد عليهم كثيراً وأن القدماء لم يثبتوا ردوده . وسنرى بشر بن المعتمر يسير على هديه فى هذا الاتجاه . ومثله العطوى الذى نلقاه بأخرة من هذا العصر ، وقد أنشد له القالى قصيدة يرد فيها على هشام بن الحكم الرافضى أحد متكلمى الشيعة الغالين وما كان يزعمه من التشبيه على الله وأنه فى صورة إنسان وله نفس الحواس الخمس ، تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيراً ، وله يقول العطوى فى بعض رَدِّه[4] :

جلَّ رَبُّ الأعراض والأجسامِ عن صفات الأعراض والأجسامِ

---

(١) قمش : أراذل .

(٢) يشير إلى حرفة أبيه برد وأنه كان طياناً يضرب اللبن .

(٣) ذحل : ثأر . لايبيت على حقد : يريد أنه يسارع إلى الأخذ بثأره .

(٤) أمالى القالى ٢/٢٣٦ .

جلَّ ربِّى عن كل ما اكتنفتْه لحَظاتُ الأَبصار والأَوهــام
بَرِئَ اللهُ من هشامٍ وممن قال فى الله مثلَ قول هشامِ
قُلْ لمن قال قوله ورآه خيرَ مسترشَدٍ وخير إمامِ
لِمَ أنكرتَ قول من عبد الشَّمْـ ـسَ وصلَّى للأَنْجُم الأَعلامِ
ما الدليلُ المبينُ عن حَدَث العا لم أفْصحْ به لَدَى الأَقوامِ
لا دليلٌ فلا تَرُمْهُ وقد قُلْـ ـتَ كبعض الأَنام ربُّ الأَنامِ
لم تُرِدْ غير قِدْمَةِ الخَلْق فاقْصِدْ قَصْدَهُ دَعْ مناقَضات الكلامِ

وواضح أن العطوى يرى فى التشبيه على الذات الإلهية تعطيلا للألوهية ، فالله بنصِّ القرآن ليس كمثله شىء وهو منزه عن كل تجسيد وتجسيم ، ولو أشبهته المخلوقات لأصبح العالم قديما مثله ، ولكان هناك قديمان : الله والعالم ، ومن أجل ذلك حارب المعتزلة القائلين بهذا القول من فلاسفة اليونان ومن بعض المتكلمين أمثال هشام حربا عنيفة فالله وحده هو القديم ، أما العالم فحادث ، خلقه الله وأحدثه ، والدلالة على حدوثه وخلقه قائمة فى بنيته وتركيبه .

وكان العطوى ينظم فى أغراض الشعر المختلفة صابغاً كثيراً من معانيه بأصباغ المعتزلة ، ونقصد القدرة على توليد الأفكار واستنباط خبيئاتها ، وفى ذلك يقول بعض القدماء « كان له فن من الشعر لم يُسْبَقْ إليه ، ذهب فيه إلى مذهب أصحاب الكلام ففارق جميع نظرائه وخفَّ شعره على كل لسان ورُوِىَ واستعمله الكتاب واحتذوا معانيه وجعلوه إماما » . وقد أنشد له أبو الفرج فى أغانيه طائفة من الأشعار فى أغراض مختلفة ، وهى تصور كيف كان يطلب الإطراف فى المعنى والخيال من مثل قوله يرثى أحمد بن أبى دؤاد شيخ المعتزلة فى عصره ومقدَّمهم عند المعتصم والواثق[١] :

أَحْنَطتهُ يا نَصْرُ بالكافورِ وزفَفْتَهُ للمنزل المهجورِ[٢]

---

(١) الأغانى ٢٠/٥٨ .
(٢) أحنطته : من الحنوط وهو كل طيب يخلط للميت .

هلا ببعض خصاله حَنَّطته ... فيَضُوع أفْقُ منازلٍ وقبور[١]

وقوله فى رثائه أيضاً[٢]:

وليس نسيم المسك ريّا حَنوطِه ... ولكنه ذاك الثناءُ المخلَّفُ[٣]

وكان منهوما بالنبيذ والشراب ، وله فى وصف الصبوح وذكر الندامى والمجالس أشعار كثيرة نقع فيها على المعانى النادرة من مثل قوله: [٤]

فكم قالوا تَمنَّ فقلت كأسٌ ... يطوف بها قضيبٌ من كثيبِ

ونَدْمانٌ تساقطنى حديثاً ... كلحظ الحبِّ أو غَضِّ الرَّقيب

وعلى هذا النحو كان العطوى يتأتى لمعانيه محاولاً أن يصل إلى كثير من دقائق الأخيلة والأفكار حتى يبهر معاصريه . ولعل من الخير أن نعرض بشىء من التفصيل لثلاثة من شعراء المعتزلة دون أسمائهم فى هذا العصر وهم العتابى وبشر بن المعتمر والنظام .

العتّابى[٥]

هو كلثوم بن عمرو بن أيوب التَّغْلِبىّ ، يتصل نسبه بعمرو بن كلثوم أحد أصحاب المعلقات السبع ، وُلد ونشأ فى قِنَّسْرين بالشام، ثم سكن الرَّقَّة بالموصل، وتحول عنها إلى بغداد، واختلف إلى حلقات المتكلمين ، ولم يلبث أن شُغف بالمعتزلة والاعتزال ، كما شُغف بالآداب الفارسية شغفاً أداه إلى تعلم الفهلوية من جهة ، كما أداه إلى الرحلة مراراً إلى خزائن الكتب بمرو وخراسان ، ليتزود منها بكنوز الأدب الفارسى ، ومرّ بنا فى الفصل الرابع إكبابه على هذه الكتب ونسخه

---

(١) يضوع : يفوح .

(٢) أغانى (طبع الساسى) ٥٩/٢٠ .

(٣) ريا : شذى ورائحة .

(٤) أغانى ٥٩/٢٠ .

(٥) انظر فى العتابى وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص٢٦١ والشعر والشعراء ص٨٣٩ والبيان والتبيين ١١/٥، ١٢٠، ٢٢٠، ٥٣/٣، ٥٦/٤ والحيوان ٦٢/٣، ٤٨٣ والأغانى ١٠٩/١٣ والفهرست لابن النديم ص ١٧٥ ومعجم الأدباء ٢٦/١٧ ومروج الذهب للمسعودى ٣٣٧/٣ وما بعدها والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٣٣، ٢٦٢ وتاريخ بغداد لطيفور ص ٨٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٤٨٨/١٢ والفرج بعد الشدة للتنوخى ١١٩/٢ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١٨٦/٢ .

لكثير من صحفها ومعانيها ، مما جعل بعض معاصريه يعجب من كثرة نسخه لها ، وقد ابتدره قائلا : هل المعانى والبلاغة إلا فى كتب العجم ؟ اللغة لنا والمعانى لهم . وكان طبيعياً أن يؤديه اعتزاله إلى قراءة كتب الفلسفة ، بل يظهر أنه تعمق فى قراءتها ، وهو تعمق دفعه إلى أن يؤلف فى علم المنطق كتاباً اشتهر فى عصره ، وله بجانبه مصنفات لغوية وأدبية مختلفة منها كتاب الألفاظ وكتاب فنون الحكم ، وفيه يقول المسعودى : « كان من العلم والقراءة والأدب والمعرفة والترسل وحسن النظم للكلام وكثرة الحفظ وحسن الإشارة وفصاحة اللسان وبراعة البيان والمكاتبة وحلاوة المخاطبة وجودة الحفظ وصحة القريحة على ما لم يكن لكثير من الناس فى عصره مثله » وكان إلى ذلك يتزهد فى متاع الدنيا ويلبس الصوف أسوة بالناسكين . وسمع يحيى ابن خالد البرمكى وزير الرشيد بفضله فوصله به وبمجالسه، وأخذ يضفى عليه هو وابناه الفضل وجعفر من نوالهم ، وهو يضفى عليهم من مدائحه ، ولم يلبثوا أن قدموه إلى الرشيد ، فمدحه ونال جوائزه السنية ، مع انقطاعه لهم . ويروى الرواة أن الرشيد سمع باعتزاله ، ولم يكن يعجب بالاعتزال ولا بالمعتزلة ، فطلبه ، وخشى البرامكة مغبة طلبه ، فستروه عنه مدة ، وقيل إنه هرب إلى اليمن ، وما زال يحيى بن خالد — وقيل ابنه جعفر — يستعطف الرشيد عليه ، حتى استلّ ما فى نفسه وأمّنه . ويُروَى أنه غضب عليه حين ثار الوليد بن طريف الخارجى الشيبانى ، لاشتراك بعض أفراد قبيلته معه، غير أنه مثل بين يديه يتنصّل من الجرم الذى جناه بعض قومه،وكان يزيد بن مزيد الشيبانى قضى على الوليد فلوح بأن يزيد غسل عن ربيعة كلها ذنبها ، فرضى عنه ووصله .

وما زال العتابى منقطعاً إلى البرامكة حتى إذا فتك بهم الرشيد ظل يمدحه واصلا أسبابه بطاهر بن الحسين وابنه عبد الله وعلى بن هشام أحد القواد الأجواد فى العصر . ويظهر أنه كان يكثر من التردد على الرقة ورأس عين فى ديار الجزيرة شمالى العراق . ولما تحول المأمون من مرو إلى بغداد وعقد المجالس لجلّة العلماء يتناظرون ويتحاورون بين يديه أشخص العتابى إليه ، ووالى بره ونواله عليه .

وقد أشاد القدماء بشعر العتابى وبراعته فى الحوار فى كل ما كتب من رسائل ، وفى ذلك يقول ابن المعتز : « كان العتابى مجيداً مقتدراً على الشعر عذب الكلام

وكاتبا جيد الرسائل حاذقا، وقلما يجتمع هذا لأحد ، وما سمعت كلاما قط لأحد من المتكلمين أحسن من كلام العتابى . . فإنه كان فحل الشعر جيد الكلام » ويقول أبو الفرج عنه : « شاعر مترسل بليغ مطبوع متصرف فى فنون الشعر ومقدَّم من شعراء الدولة العباسية » . ويقول الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتَّابى ، وكنيته أبو عمرو ، وعلى ألفاظه وحَذْوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من الشعراء المولَّدين كنحو منصور النمرى ومسلم بن الوليد الأنصارى وأشباههما ، وكان العتابى يحتذى حذو بشار فى البديع » . ويقول فى موضع آخر من بيانه : « العتابى يذهب شعره فى البديع » .

والجاحظ لا يقصد بالبديع المحسنات المعروفة من الجناس والطباق والتصاوير فحسب ، بل يقصد أيضًا المعانى الطريفة النادرة التى أتاحت للعتابى ثقافته الواسعة اجتلابها وعرضها فى معارض تمتع النفس وترضى العقل والقلب. وأول ما نقف عنده مديحه ، وقد طارت له فيه قصيدة فى الرشيد نظمها حين سخط عليه لثورة الوليد بن طريف التى أشرنا إليها فيما أسلفنا ، وهو يستهلها بذكر الأطلال والنسيب على هذه الشاكلة :

ماذا شجاك بِحُوَّارين من طللٍ ... ودِمْنَةٍ كشفتْ عنها الأعاصيرُ[1]

شجاك حتى ضميرُ القلبِ مشتَرَكٌ ... والعينُ إنسانها بالماءِ مغمور[2]

فى ناظرىّ انقباضٌ عن جفونهما ... وفى الجفون عن الآماق تقصير

لبِسْتَ أَرْدِيَةَ النُّوَّار من طللٍ ... وزِلْتَ أخضرَ تعلوك الأَزاهير[3]

وواضح ما فى هذا المطلع من دقة فى التفكير ، فهو يصور شجو نفسه وحزنها حين ألم بالطلل ، ويطيل فى هذا التصوير ، محاولا النفوذ إلى خيال بديع على نحو ما يتضح فى البيت الثالث ، وهو لا يعنى بدقة الفكر والخيال وحدهما بل يعنى أيضًا بدقة الحسِّ على نحو ما نرى فى دعائه الرقيق للطلل بأن يظل مكسوًّا

---

(١) حوارين : من قرى حلب . والدمنة : آثار الديار .

(٢) مشترك : مهموم .

(٣) أردية : ثياب .

بالخضرة والأزهار والرياحين ويتحول إلى المديح بمثل قوله فى الرشيد :

مستنبطٌ عزماتِ القلب من فِكَرٍ ... ما بينهنّ وبين الله معمورُ
فُتّ المدائح إلا أن أنفسنا ... مستنطَقاتٌ بما تحوى الضمائير
ماذا عسى مادحٌ يثنى عليك وقد ... ناداك فى الوَحْى تقديسٌ وتَطْهيرُ

وهو دائمًا فى مديحه له يمزج بين تصوير حزمه وبصره بالرأى الصائب وحنكته وبين حياطته للدين والرعية وأخذها بالعدل والشفقة والرحمة ، على شاكلة قوله :

إمامٌ له كَفٌّ يضُمُّ بَنَانُها ... عَصا الدينِ ممنوعاً من البَرْيِ عودُها
وعَيْنٌ محيطٌ بالبريّةِ طَرْفُها ... سواءٌ عليه قُرْبُها وبَعيدُها
وأَصْمَعُ يقظانٌ يبيت مناجياً ... له فى الحَشَا مستودَعاتٌ يكيدُها
سميعٌ إذا ناداه فى قَعْر كُرْبةٍ ... منادٍ كفتْه دعوةٌ لا يعيدُها

ونحس فى هذه الأبيات مدى ما كان يأخذ نفسه به من الأناة والجهد العنيف فى تصوير معانيه وصياغتها وكان يعرف كيف يعرض المعنى فى معارض مختلفة ، يرفده فى ذلك عقله الاعتزالى الخصب الذى لا يزال يثير فى نفسه الخواطر التى تبهر السامعين من مثل قوله فى الرشيد ، معيدا للمعانى السابقة فى هيآت جديدة :

رَعى أمّةَ الإسلام فهْو إمامها ... وأدّى إليها الحقَّ فهْو أمينُها
ويستنتج العَقْماءَ حتى كأنّما ... تغلغل فى حيث استقرَّ جَنينُها[2]
وما كلُّ موصوفٍ له الحقّ يهتدى ... ولا كلُّ من أمَّ الصُّوَى يستبينها[3]
مقيمٌ بمُسْتَنِّ العُلا حيث تلتقى ... طوارفُ أبكارِ الخطوب وعُونها[4]

وهو يلاحظ ما يقيم عليه الرشيد حكمه من قواعد الدين الحنيف وما سنه فى حكم الرعية من العدالة وطرق الرشاد ويصور فطنته وحنكته فى حلّ المشاكل

---

(١) أصمع : يقظ القلب فطن حاذق . يكيدها : يدبرها .

(٢) العقماء : المشكلة العسرة . يستنتج : يستولد .

(٣) أم : قصد . الصوى : الأعلام .

(٤) المستن : مكان الاستنان وهو سرعة العدو . الطوارف : الحديثات . العون : جمع عوان ضد البكر .

العسرة العقيمة حتى لكأنما يستولدها ما اكتن في أعماقها وأرحامها من حلول خفية، كما يصور حزمه ونفوذه من الخطوب نفوذ السهم الصائب. وواضح ما يُعْنَى به العتابي من دقة في معانيه وطرافة، ويُرْوَى أنه دخل سرًّا مع المتظلمين إلى الرشيد في بعض سخطاته عليه، فأنشده:

أَخِضْنِي المُقَامَ الغَمْرَ إن كان غَرَّنِي سنَا خُلَّبٍ أو زلَّتِ القدمانِ[1]

أَتتركني جَدْبَ المعيشة مُقْتِرًا وكفّاك من ماء النَّدَى تَكِفَانِ[2]

وتجعلني سَهْمَ المطامع بعدما بَلَلْتَ يميني بالنَّدَى ولِسَاني

فأعجب الرشيد قوله، وأجازه جائزة سنية. وكان جعفر البرمكي أو أبوه يحيى شفع له عند الرشيد في موجدة له أخرى عليه، كما أشرنا إلى ذلك آنفا، فقال يمدحه:

ما زلتُ في غَمرات الموت مطَّرَحاً قد ضاق عني فَسِيحُ الأرض من حِيَلي[3]

ولم تزل دائباً تَسْعَى بلطفك لي حتى اختلستَ حياتي من يَدَيْ أَجلي

وهذا البحث عن المعاني النادرة أشاع في شعر العتابي ظاهرة لم تكن مألوفة هي قِصَرُ المدائح وغير المدائح مما يلم به من أغراض الشعر حتى لتصبح بيتين أو ثلاثة في كثير من الأحيان، وكأنما يتشبه في ذلك بالأمثال الفارسية القصيرة التي كان يعكف عليها والتي يمثلها خير تمثيل كتاب الأدب الصغير لابن المقفع، ومما يصوِّر ذلك عنده أجمل تصوير ما يُرْوَى من أنه دخل على عبد الله بن طاهر يوما فأنشده مادحًا:

حُسْنُ ظَنِّي وحُسْنُ ما عوَّد اللّٰـ ـهُ سواي منك الغداةَ أتى بِي

أيُّ شيءٍ يكونُ أحسنَ من حُسْـ ـنِ يقينٍ حَدَا إليك رِكابِي

ثم دخل عليه من الغد، فأنشده البيتين التاليين اللذين أنشدناهما في الفصل السادس:

---

(١) المقام الغمر: المقام الشديد. سنا خلب: ضوء البرق الذي لا يعقبه مطر.

(٢) مقترا: ضيق الرزق. النـدى: الجود. تكفان: تهملان وتسيلان.

(٣) غمرات: شدائد.

ودُّك يكفينيك فى حـاجتى ورؤيتى كافيـةٌ عن سُؤالْ
وكيف أخشى الفقر ما عشتَ لى وإنما كفَّاك لى بيت مالْ

ثم دخل فى اليوم الثالث ، فأنشده :

بَهجاتُ الشبابِ يُخلِقها الدَّهـ ـرُ وثوبُ الثناء غَضٌّ جديدُ
فاكْسُنى ما يَبيدُ أصْلَحَكَ اللـ ـهُ فيكسوك اللهُ ما لا يبيدُ

وواضح أنه حول قصيدة المديح إلى بيتين قصيرين ، يحملان معنى طريفا ، وهو معنى لا يصل إليه إلا بعد التدبر وبعد طول الروية وبعد النظر وطول التفكير ، بل بعد التوقف وطول التنقيب . وعلى نحو ما يلقانا ذلك فى مديحه يلقانا فى عتابه من مثل قوله :

رَحَلَ الرَّجاءُ إليك مُغْتَرِباً حُشِدتْ عليه نوائبُ الدَّهْرِ
ردَّتْ إليك ندامتى أملى وثَنَى إليك عِنانَه شُكْرى
وجعلتُ عَتْبَكَ عَتْبَ موعظةٍ ورجاءَ عفوك مُنْتَهى عُذْرى

وله غزليات تَطْبَع بنفس الطوابع العقلية والخيالية ، فهو ما يزال يحاول فيها استنباط المعانى والصور الدقيقة على شاكلة قوله :

رُسُلُ الضمير إليك تَتْرَى بالشوق ظالعةً وحَسْرَى[1]
ما جفَّ للعينين بَعْـ ـدك يا قريرَ العَيْن مَجْرى
إن الصبابة لم تَدَعْ منى سوى عظمٍ مُبَرَّى[2]
ومدامعٍ عَبْرَى على كَبِدٍ عليك الدَّهْرَ حَرَّى[3]

وأدَّاه طول نظره وفحصه للمعانى إلى أن يجردها ويجسمها أحيانا ، وأحيانا أخرى يتعمق فيها ويتغلغل إلى لبها ، مستخرجاً بعض الصور أو بعض الحكم ، من مثل قوله مجسداً لشكره :

---

(١) ظالعة : من الظلع وهو العرج من كثرة السير . حسرى : متعبة .
(٢) مبرى : مهزول .
(٣) حرى : محترقة .

فلو كان للشكر شَخْصٌ يَبينُ إذا ما تأمَّله الناظرُ
لمثَّلْتُهُ لك حتى تراه لتعلم أنى امروٌ شاكرُ

وقوله فى ملامة الأصدقاء وتلقيها بالقبول الحسن :

لومٌ يُعيذك من سوءٍ تُقارفهُ أبقى لعِرْضك من قولٍ يُداجيكا[1]
وقد رمى بك فى تَيْهاء مهلكةٍ من بات يكتمك العيبَ الذى فيكا[2]

وله أشعار يتناول فيها الأخلاق والطباع ، محللا لها تحليلا بديعًا ، من ذلك تصويره لمن اتبع هداه ، فعدل عن محجَّة الخلق الحميد إلى مسارب الخلق الذميم ، وإنه ليعد ذلك كفراناً لنعمة الله الذى وهب الإنسان من العقل ما يميز به الخبيث من الطيب ، والضار من النافع ، فإذا هو يستجيب لهواه ودواعى نفسه ، ولو أنه فطمها وكبح جماحها لاستتم شكره لأنعم ربه ، ولكن أنَّى له وفطام النفس عسير ، يقول :

وكم نعمةٍ آتاكها الله جزْلَةٍ مبرَّأةٍ من كلِّ خُلْقٍ يَذيمُها[3]
فسَلَّطْتَ أخلاقاً عليها ذميمةً تعاوَرْنها حتى تفرَّى أديمُها[4]
وكنت امرءًا لوشئتَ أن تبلغ المَدَى بلغتَ بأدنى نعمةٍ تستديمها
ولكنْ فِطامُ النفس أعْسَرُ محملا من الصخرة الصَّمَّاء حين ترومها

وعلى هذا النحو كان العتابى لا يزال يلذ عقول سامعيه وقلوبهم بما يورد عليهم من نوادر الأخيلة وطرائف المعانى محتالا لذلك متلطفًا له بكل ما ادخره عقله واقتناه من بيئة المعتزلة وكنوزها الفكرية الغنية ، وقد ظل الناس يفتنون بشعره ، وهو يعرض عليهم مبتكراته فى معانيه حتى انتقل إلى جوار ربه فى سنة ثمان ومائتين .

---

(١) تقارفه : ترتكبه . يداجيك : ينافقك .
(٢) تيهاء : فلاة مضلة .
(٣) يذيمها : يعيبها .
(٤) تفرى : تقطع .

بشر [1] بن المعتمر

شيخ معتزلة بغداد ورئيسهم ، يقال إنه كوفى الأصل ولعله تحوّل منها أولا إلى البصرة موطن المعتزلة ، ثم استوطن بغداد ، وقد اتخذ النخاسة حرفة له ، مثله فى ذلك مثل محمود الوراق ، وكان أيضًا مثله زهداً ونسكاً وعبادة . ولا نعرف بالضبط متى نزل بغداد ، غير أننا نجد اسمه يلمع فيها منذ عصر الرشيد والبرامكة وقد توثقت الصلة بينه وبين الأخيرين وخاصة منهم الفضل بن يحيى البرمكى ، وربما كان السبب الحقيقى فى توثق هذه الصلة ما عرف عن بشر من نزعة شيعية ، وكان البرامكة يتشيعون سرًّا ، ففسحوا له فى مجالسهم ، ونصّ كثيرون على هذه النزعة ، يقول النوبختى إنه كان يوافق الشيعة فى الحكم على علىّ بأنه كان مصيباً فى حربه لطلحة والزبير ومعاوية وأن جميع من قاتله كان على خطأ ، وأيضًا كان مصيبًا فى قبوله التحكيم . ويقول ابن أبى الحديد: « كان بشر بن المعتمر من قدماء شيوخنا رحمه الله تعالى يقول بتفضيل على عليه السلام (أى على أبى بكر وعمر) ويقول كان أشجعهم وأسخاهم ، ومنه سرى القول بالتفضيل إلى أصحابنا (من المعتزلة) البغداديين قاطبة وفى كثير من البصريين » . وقد روى له ابن المرتضى أبياتًا من أرجوزة يقول فى بعض شطورها « نبرأ من عمرو ومن معاوية » خصمى على فى صفّين ، فتشيعه لا مرية فيه ولا شك يعتريه .

وقد عرضنا فى الفصل الرابع للنحلة الاعتزالية التى تكونت حول آرائه ، والتى سميت البشرية نسبة إليه وذكرنا أن من أهم الأصول التى كان يعتنقها نظرية التولد ، وكان يذهب فيها إلى أن كل ما يتولد من أفعالنا فينا أوفى غيرنا فهو فعلنا . وذكرنا أيضًا أنه كان ينكر فكرة وجوب الأصلح على الله ، إذ لا نهاية لطبقات الأصلح عند الذات العلية ، ومن أجل ذلك يكون الذى يجب عليه

---

(١) انظر فى بشر وأخباره وأشعاره الحيوان ٢٣٩/٤ و٦٢/٦ ، ٩٠ ، ٢٨٤ وما بعدها و٤٠٥ ، ٤٥٥ والبيان والتبيين ١٣٥/١ وما بعدها وأمالى المرتضى ١٨٦/١ ولسان الميزان ٣٣/٢ وفهرس الانتصار لابن الخياط المعتزلى والأنساب للسمعانى فى البشرى وفرق الشيعة للنوبختى ص ٣٥ ، ٣٧ وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (طبعة الحلبى) ٣١٦/٣ والملل والنحل للشهرستانى ص٤٤ والمواقف للإيجى (طبع بولاق) ص٦٢٢ والفرق بين الفرق ١٤١ وضحى الإسلام ١٤١/٣ والمنية والأمل لابن المرتضى ص ٣١.

حقًّا هو تمكين العبد بما أودع فيه من القدرة والاستطاعة . وكان ينصر القياس العقلى نصرة شديدة ، كما كان يجل العقل إجلالا بعيداً حتى ليرفعه إلى مرتبة مقدسة ، وقد مرّت بنا فى الفصل الرابع أبياته التى يشيد فيها به إشادة بالغة ، لما أودع الله فيه من المعرفة الفطرية التى تجعل الإنسان يميز الشر من الخير ، ويدرك الحسن فيعتنقه والقبيح فيتجنبه ، ويقول لولاه لذهب الإدراك والتمييز ، بل لفقد الإنسان جوهر إنسانيته . وله مصنفات مختلفة تتصل باعتزاله سجلها ابن النديم فى فهرسته.

وكان حسن الجدال قوى الحجة ، وهو يُعَدّ فى الذروة من فصحاء المتكلمين وبلغائهم ، وقد جعله الجاحظ أكثر المعتزلة رواية للشعر ، وروى عنه فى بيانه صحيفة طويلة فى البلاغة ، تجعله واضع أصولها الأولى فى صورتها الدقيقة ، وقد حللناها فى كتابنا « البلاغة [1] : تطور وتاريخ » . وهى تشهد له ببصره النافذ فى معرفة طبقات الكلام والملاءمة بينها وبين طبقات السامعين .

ولم يكن يروى الشعر فحسب ، بل كان أيضًا بارعاً فى نظمه ، غير أنه لم ينظمه فى الأغراض الغنائية التى تعود الشعراء أن ينظموا فيها ، بل نظمه فى الاتجاه التعليمى الذى كان أبان بن عبد الحميد قد برع فيه ، غير أنه لم يتجه به وجهة من القصص والتاريخ والفقه والمنطق ، وإنما اتجه به إلى الرد على أهل المقالات والنحل من خصوم المعتزلة ، كما اتجه به إلى ذكر عجائب الله فى صنوف خَلْقه ، مما يمكن أن يدخل فى التاريخ الطبيعى ، ويذكر الجاحظ أنه لم ير أحدا أقوى منه على المخمَّس والمزدوج وأنه يفوق أبانا . وليس بين أيدينا شىء من مخمساته ، أما مزدوجاته فيذكر ابن المرتضى أن له مزدوجة ردّ فيها على جميع المخالفين للمعتزلة بلغت أربعين ألف بيت ، وقد اقتبس منها قطعة أعلن فيها براءته من معاوية كما أسلفنا وكذلك ابن العاص . وأكبر الظن أن القطعة التى أنشدها له صاحب الانتصار فى التبرؤ من الجهمية وصاحبهم جَهم مقتبسة هى الأخرى من تلك الأرجوزة وفيها يقول :

ننفيهمُ عنا ولسنا منهمُ ولا همُ منا ولا نرضاهمُ

---

(١) انظر كتاب البلاغة : تطور وتاريخ
(طبع دار المعارف) ص ٤١ وما بعدها .

إمامُهم جَهْمٌ وما لجهْم وصَحْبِ عمرو ذى التقى والعلم

ومعروف أن جهما كان يؤمن بالجبر وينفى استطاعة الإنسان وحرية إرادته مما كان يعتنقه المعتزلة وأساتذتهم أمثال عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ، وروى الجاحظ فى الجزء الرابع من حيوانه مقطوعة من إحدى أراجيزه ، وربما كانت هى الأخرى من الأرجوزة السالفة ، وكذلك ما روى فى الجزء السادس من تفضيله لعلى بن أبى طالب على الخوارج ، إذ يقول :

ما كان فى أسلافهم أبو الحَسنْ ولا ابنُ عبَّاسٍ ولا أهلُ السُّنَنْ

غُرٌّ مصابيحُ الدُّجى مَناجِبُ أولئك الأَعلام لا الأعاربُ

كمثل حُرْقوص ومنْ حرقوصُ فقعةُ قاعٍ حولها قَصِيصُ[1]

ليس من الحَنْظل يُشْتار العَسلْ ولا من البحور يُصْطاد الوَرَل[2]

هيهات ما سافلةٌ كعالِيَهْ ما معدنُ الحكمة أهلُ الباديه

وروى له الجاحظ فى الحيوان قصيدتين طويلتين قدم لهما بقوله : « أول ما نبدأ قبل ذكر الحشرات وأصناف الحيوان والوحش بشعر بشر بن المعتمر فإن له فى هذا الباب قصيدتين قد جمع فيهما كثيراً من هذه الغرائب والفرائد ، ونبَّه بهذا على وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة والموعظة البليغة . . وإذا قسمنا ما عندنا فى هذه الأصناف على بيوت هذين الشعرين وقع ذكرهما مصنَّفا فيصير حينئذ آنق فى الأسماع وأشدّ فى الحفظ » . وبشر يستهل القصيدة الأولى بحديثه عن طباع الإنسان وما ركب فيه من الطمع الذى يدفع الناس إلى أن يتواثبوا بعضهم على بعض تواثب الذئاب ، ويفيض فى وصف الحيوان والحشرات وبعض الطير وبيان طباعها وعجائب خلقها ، حتى إذا بلغ ما أراد من ذلك تحول إلى إباضية الخوارج ورافضة الشيعة ممن يؤمنون بكتاب الجفر ، وهو كتاب يزعمون أنه عند أئمتهم فيه كل أصناف العلم وكل ما يكون إلى يوم القيامة ، وسلك مع الرافضة

---

(١) حرقوص : من زعماء الخوارج لعهد على . القصيص : شجر تنبت فى أصله الكمأة وهى الفقع . والقاع : الأرض المستوية ، ويضرب الفقع مثلا للرجل الذليل لأن الإبل تدوسه بأرجلها.

(٢) يشتار : يستخرج . الورل : دابة صحراوية كالضب .

والإباضية الحشويّة ، وهو اسم كان يطلقه المعتزلة على خصومهم من المجسمة والمشبهة ومن كانوا لا يؤولون آيات التشبيه فى القرآن وإن قالوا إن الله لا يشبه شيئًا من المخلوقات ، وفى ذلك يقول :

لستُ إباضِيًّا غَبِيًّا ولا كرافضيٍّ غَرَّه الجَفْرُ
كما يغرُّ الآلُ فى سَبْسَبٍ سَفْرًا فأَوْدَى عنده السَّفْرُ (١)
لسنا من الحَشْو الجفاة الأولى عابوا الذى عابوا ولم يدروا
لا تَنجع الحكمةُ فيهمْ كما يَنْبُو عن الجَرْوَلة القَطْر (٢)
أُولئك الدَّاءُ العُضَال الذى أعيا لديه الصَّابُ والمَقْرُ (٣)

وفى هجومه على الشيعة القائلين بكتاب الجفر ما يدل دلالة قاطعة على أنه لم يكن يعتنق مذهب الإمامية كما أشرنا إلى ذلك فى الفصل السادس، وقد استظهرنا هناك أنه ربما كان زيدى الهوى . وهو فى القصيدة الثانية يتحدث أيضًا عن غرائب الخلق فى أوابد الوحش والحشرات والطير السابح فى الهواء، مستنبطًا كثيرًا من العظات ، ومنوها بالعقل وساطع نوره الذى نكتشف به مثل هذه العجائب والعبر ونفصل بين الخير والشر والنافع والضار ، ويعرض فى أثناء ذلك لأهل المقالات والنحل من غير المعتزلة ، فيقول :

قد غمَرَ التقليدُ أحْلامهم فناصبوا القيَّاس ذا السَّبْرِ

فهو يأخذ عليهم أنهم يلغون عقولهم وأنهم لا يحكمون المنطق والقياس العقلى السديد الذى به تقاس الأشياء ويُسْبَر ويُعْرَف غورها ومقدار ما فيها من الخطأ والصواب . وعلى هذا النحو ظل بشر مشغولا فى شعره التعليمى بالرد على خصوم المعتزلة وبيان عجائب الخلق الربانى حتى وافاه القدر فى سنة عشر ومائتين .

---

(١) الآل : السراب . السبسب : الفلاة . السفر : جماعة المسافرين .
(٢) الجرولة : الصخرة الملساء . ينبو : يزل ويسقط .
(٣) الصاب والمقر : نباتان شديدا الحرارة

النظام [1]

هو إبراهيم بن سيار بن هانىء ، وُلد ونشأ بالبصرة ، وكان يحترف نظم الخرز فى سوقها لأول حياته فلُقّب بالنظّام ، والمظنون أن ولادته كانت حول سنة ١٦٠ للهجرة فقد رُوى أنه تتلمذ للخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة وربما كانت ولادته تسبق التاريخ الذى ظنناه ، إذ نجده يناظر ويحاور أهل الكلام فى مجالس البرامكة ، ومعروف أنهم نكبوا سنة ١٨٧ فلا بد أن يكون قد نضج ولمع اسمه قبل هذا التاريخ مما يؤكد أن ولادته ربما سبقت سنة ١٦٠ . وهو ابن أخت أبى الهذيل العلاف شيخ المعتزلة بالبصرة ورئيسهم بعد عمرو بن عبيد ، ولعل ذلك ما جعله يشغف بالاعتزال منذ نشأته ويظهر أن خاله عُنى به وبتثقيفه عناية كبيرة ، وهى عناية صادفت فيه عقلا خصبًا وذكاء نادراً . وقد مضى يستوعب كل ما يمكن من كتب الاعتزال والفلسفة والتفسير والحديث والفقه والكيمياء والفلك وعلوم اللغة وكتب الأشعار والأدب وكتب الملل والنحل الإسلامية وكان خاله بارعا فى المناظرة وقطع الخصوم بالحجج الساطعة ، فتلقن ذلك عنه ، بل لعله بذه فيه ، وقد مرّ بنا فى ترجمتنا لصالح بن عبد القدوس كيف تعرّض له وهو حدث ، فإذا هو يلقمه بمحاورته له حجراً ، فلا يستطيع أن ينبس ببنت شفة ، وكان كثيراً ما يظفر بخاله . وقد وقف نفسه على مناظرة الدهريين وأصحاب الملل والنحل المختلفة فى عصره ، وطارت شهرته فى هذا الباب ، لإفحامه دائمًا لهم وعلوه عليهم بالأدلة الناصعة والبراهين القاطعة ، حتى ليقول الجاحظ فى حيوانه : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النِّحل ، فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهيم

---

(١) انظر فى النظام وأخباره وأشعاره فهارس البيان والتبيين والحيوان للجاحظ وأمالى المرتضى ١ /١٨٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٦/ ٩٧ والمنية والأمل لابن المرتضى ص ٢٧ وابن المعتز ص ٢٧١ وفهارس الانتصار لابن الخياط ومقالات الإسلاميين للأشعرى ولسان الميزان ١ /٦٧ وروضات الجنات للخوانسارى ص ٤٢ والنجوم الزاهرة ٢ / ٢٣٤ والملل والنحل للشهرستانى ص ٣٧ والفرق بين الفرق ١١٣ والمواقف ٦٢١ وانظر مروج الذهب للمسعودى ٣/ ٢٨٧ وسرح العيون لابن نباتة (طبعة دار الفكر العربى) ص ٢٢٦ . وضحى الإسلام ٣/ ١٠٦ وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور ص ٥٩ .

وإبراهيم (النظام) لهلكت العوام من المعتزلة فإني أقول إنه قد أنهج لهم سبلا وفتق لهم أمورا واختصر لهم أبوابا ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة[1] » . وقد كان كثير التردد على بغداد منذ عصر الرشيد ، حتى إذا كانت سنة ٢٢٠ اختارها دار مقام له ، وعقد لنفسه بمسجدها الكبير حلقة للمحاضرة قرر فيها مذهبه الاعتزالي الذى نُسب إليه ، فتبعه — كما يقول ابن تغرى بردى — خلق كثير ، مما جعل اسمه يشيع فى العامة ويدور على كل لسان . ومرّت بنا فى الفصل الثالث كلمة موجزة عن نظريته الاعتزالية ، وهى نظرية كانت تقوم على أصول المعتزلة الخمسة التى تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع وقد مزج فى قوة بين كلام الفلسفة وأفكار المعتزلة ومال فى آرائه إلى كلام الطبيعيين من الفلاسفة خاصة وانفرد من نظرائه بكثير من الآراء كقوله بأن الله لا يقدر على فعل الشر وإنه إنما يفعل الأصلح لعباده ، وقوله بنفى الجوهر الفرد أو الجزء الذى لا يتجزّأ ، وقوله إن الله خلق الكائنات دفعة واحدة معادن ونباتًا وحيوانا وإنسانا ، غير أن الله أكمن بعضها فى بعض ، فآدم لا يتقدم خلقه على خلق أولاده ، وهو ما ما يعرف عنده بنظرية الكمون ، ومن ذلك قوله إن الجوهر مؤلف من أعراض اجتمعت . وكان يُعلّى سلطان العقل إعلاء شديداً ، ولعل ذلك هو الذى أدّاه إلى إنكار حجية الإجماع والقياس وكأنه خشى فى الأخير إلى نقص الأصل الذى يقاس عليه ، ونرى تلميذه الجاحظ المفتون به يعيبه هو نفسه بأنه كان قليل التثبت من صحة المقدمات فى أقيسته ، وهو دائم الإشادة بفطنته وغوصه على الدقائق ولطف مداخله إلى أعماق الحقائق .

وله شعر كثير يدور فى كتب التراجم ، وهو مطبوع بطوابع المتكلمين والمعتزلة منهم خاصة ، إذ نراه يمزجه باصطلاحاتهم نافذا إلى أغوار المعانى ، متصرفًا فيها تصرف الحاذق الفطن ، وملائما بينها إلى أبعد حدود الملاءمة يعينه فى ذلك حِسٌّ دقيق مرهف وشعور رقيق حاد من مثل قوله :

وشادنٍ ينطقُ بالظَّرْفِ يَقْصُرُ عنه منتهى الوصفِ

---

(١) الحيوان ٤/٢٠٦ .

رقَّ فلو بُزَّتْ سرابيلُهُ عُلِّقه الجَوُّ من اللُّطْفِ[1]
يجرحه اللَّحْظُ بتكرارِهِ ويشتكى الإيماءَ بالطَّرْفِ

وكلمة اللطف فى الأبيات لا تفهم بدقة إلا إذا عرفنا أن النظام كان يرى أن روح الإنسان جسم لطيف وما الجسد إلا آلتها وما الإنسان إلا الجسم اللطيف الذى يحتويه . وفى البيت الأخير مبالغة واضحة يستتم بها مبالغة البيت الذى يسبقه وقد عاد إلى توضيح هذه المبالغة ودعم صورتها ، فقال :

توهَّمه طَرْفى فآلم خَدَّهُ فكان مكان الوهم من نظرى أَثْرُ
وصافحه قلبى فآلَمَ كفَّه فمن صَفْح قلبى فى أنامله عَقْرُ[2]
ومرَّ بقلبى خاطرًا فَجَرَحْتُهُ ولم أرَ خلْقًا قطُّ يجرحه الفكْرُ
يمرُّ فمن لينٍ وحُسْنٍ تعطُّفٍ يقال به سُكْرٌ وليس به سُكْرُ

وهو وهم بعيد لا يقع فى عقل شخص إلا أن يكون من المعتزلة الذين يبعدون فى تصور الأشياء ، بل إلا أن يكون من عقل النظام الذى كان يؤمن بأن الأعراض كامنة فى الجوهر وأن حركات الإنسان كامنة فى نفسه وأن حركات النفس أجسام مستترة ، وبذلك نفذ إلى هذا التجسيم الغريب فى الأبيات . ويستلهم رأيه فى أن النورسمائى علْوِى، يعلو فوق الأشياء ولا يعلو شىء عليه ، فيقول :

أُفرِغَ من نور سمائىٍّ مصوَّرٌ فى جسم إنْسِىٍّ
وافتقر الحسنُ إلى حُسْنه فجلَّ عن تحديد كيْفِىٍّ
أبدعه الخالقُ واختارَهُ من مازج الأنوار عُلْوِىٍّ
فكلُّ من أغرق فى وصفه أصبح منسوباً إلى العِىِّ

وتختلط فى الأبيات فكرته عن النور بفكرته عن الأجسام وأنها أعراض متجمعة . ويتضح فيها لحن المعتزلة أو لحنه هو إذ يتحدث عن الكيف وتحديده

---

(١) بزت : نضيت وخلعت .

(٢) العقر : الجرح .

أو بعبارة أخرى عن العرض ، وهو عنده جسم . وبذلك كان يعرف كيف يتحول بالغزل إلى ضروب من الوهم المسرف فى الخيال ، وكذلك كان يصنع بكل ما يمسه عقله ووجدانه من أغراض الشعر كقوله يصف احتساءه للخمر من بعض الدِّنان :

ما زلت آخذ روح الزِّقِّ فى لُطُفٍ وأستبيح دَمًا من غير مجروح

حتّى انثنيتُ ولى روحان فى جسدى والزِّقُّ مُطَّرَحٌ جسمٌ بلا روح

وهو هنا أيضًا ينظم بعقله الاعتزالى وما كان يذهب إليه من أن الروح جسم لطيف مشابك للبدن بأجزائه تشابك المائية للورد ، وهى صاحبة القوة والاستطاعة والحياة والمشيئة . وله فى تلميذه الجاحظ عمرو بن بحر الذى كان يبادله إعجابا بإعجاب وودًّا بود :

حبى لعمرو جوهرٌ ثابتٌ وحبُّه لى عَرَضٌ زائلُ

به جهاتى الستُّ مشغولةٌ وهْو إلى غيرى بها مائِلُ

وواضح تشبثه بلغة المتكلمين وآرائهم فى الجوهر والعرض والجهات الست . ولم يكن هناك غرض ينظم فيه إلا ويُدخل فيه لغة الاعتزال وما يدفع إليه من التجريد البعيد الذى يرفع الإنسان من عالم الحس إلى عالم الوهم والخيال كقوله يمدح الأمين :

ألا ياخيرَ مَنْ رأت العيون نظيرُك لا يُحَسُّ ولا يكونُ

وفضلُك لا يُحَدُّ ولا يجارَى ولا تَحْوِى حيازَته الظنونُ

خُلقتَ بلا مشاكلةٍ لشىءٍ فأنت الفَوْقُ والثقلان دون

كأَن الملك لم يك قبلُ شيئاً إلى أن قام بالمُلْك الأَمين

وهى مبالغة مسرفة ، وكأن النظام كان أحد من ثبّتوا مثل هذه المبالغة فى المديح ، وهى مبالغة نفذت إليه من إغراقه فى الوهم واستيحائه لغة المتكلمين . وقد

اختلف القدماء فى السنة التى توفى فيها ، فقيل سنة إحدى وعشرين ومائتين وقيل بل سنة إحدى وثلاثين ، وأكبر الظن أن حياته لم تمتد إلى السنة الأخيرة.

٥

شعراء النزعات الشعبية

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إن الشعر العباسى كان يصدر فى جمهوره عن روح الشعب ؛ فقد كانت كثرة الشعراء من الطبقة العامة ، وكانوا يحملون فى صدورهم أحاسيسها ومشاعرها وإذا كان بدا فى مديحهم للخلفاء والوزراء أنهم ينفصلون عنها فإنه انفصال فى الظاهر ، إذ كانوا ما يزالون يضعون نصب أعينهم مثالية الحاكم التى تتطلبها الأمة والتى رسمها لها الدين الحنيف . وكانوا فى جوانب من هذا المديح ونقصد مديح القواد المظفرين يعبرون عن الحماسة المشتعلة فى صدور الشباب للقضاء على أعدائهم من البيزنطيين وغير البيزنطيين. فحتى المديح لم يبعد عن روح الشعب ، وكان الهجاء يصدر فى وضوح عن هذه الروح ، إذ مثل الشعراء فيه الخصال السيئة التى ينبغى أن يتطهر منها المجتمع ، سواء فى الأفراد العاديين أو فى الحكام ، ولعل ذلك هو الذى كان يشيعه على جميع الألسنة . وخذ الصورتين الأساسيتين للمجتمع صورة الترف وما يطوى فيه من مجون وصورة الشظف وعيشة الكفاف وما يطوى فيهامن زهد فستجدهما مجسمتين أقوى ما يكون من تجسيم ، فحياة الحانات والقيان والأديرة وكل ما فى المجتمع من لهو ومواسم للهو ، ونقصد الأعياد الإسلامية والمسيحية والمجوسية ، كل ذلك مصور فى شعر الشعراء ، وبالمثل حياة الزهد والتقوى والعمل الصالح وكانت أكثر شيوعاً من حياة اللهو والمجون ، مما جعل أشعار الزهد تجرى على كل لسان ، وفى الأغانى خبر يصور ذلك أدق تصوير ، إذ يروى أن الملاحين فى دجلة كانوا يتغنون فى نزهة للرشيد بقطعة زاهدة لأبى العتاهية تمثلنا ببعض أبياتها فى غير هذا الموضع وفيها يقول[1] :

---

(١) أغانى ٤/١٠٣ وما بعدها .

سيصيرُ المرءُ يومًا جَسَدًا ما فيه روحُ
كلنا فى غَفْلَةٍ وال موتُ يغدو ويَروحُ
لتموتنّ وإن عُمِّ رْتَ ما عُمِّر نُوحُ

ومرت بنا فى ترجمة أبى العتاهية قطعة يشكو فيها لبعض الخلفاء من ارتفاع الأسعار ، وهو يعبر فيها عما كانت تعيش فيه طبقات الشعب الدنيا من ضنك وبؤس ، وكانت الأموال حينئذ موزعة توزيعاً غير عادل ، فالخلفاء والوزراء وحواشيهما يعيشون فى الحلية والزينة وكل ما يمكن من أسباب الترف ووسائل النعيم ، ويمدون مَنْ حولهم ومن يحفون بهم من المغنين والشعراء والعلماء والأتباع بكثير من هذه الوسائل والأسباب ، ويُثْرى بعض التجار ثراء فاحشاً . وتجثم فى البؤس والمسغبة كثرة الشعب التى كانت لاتجد يداً تمتد إليها وتخمد نار الفقر والضنك المشتعلة بين طبقاتها ولا من يبرد جوانحها ، ويطعم الجائع فيها ويكسو العارى ويسقى الظمآن . وتلقانا أحاسيس هذه الطبقات التعسة مصورة عند شعراء الكدية الذين كانوا يشبهون طوائف الأدباتية التى كانت تنبثُّ عندنا لأواخر القرن الماضى فى المواسم والموالد والاحتفالات العامة ، ومن خير من يمثلهم أبو فرعون الساسى ، وقد أنشدنا له قطعة يصور فيها بؤسه وبؤس أولاده فى الفصل الرابع وكيف يعيشون عراة جائعين ، ولا من مشفق ولا رحيم ، وله يصور بؤسه وفقره[1] :

ليس إغلاقى لبابى أنَّ لى فيه ما أخشى عليه السَّرَقَا
إنما أُغلقه كى لا يرى سوءَ حالى مَن يجوب الطُّرُقا
منزلٌ أوطنه الفقرُ فلو دخل السارقُ فيه سُرِقا

ومن الشعراء الذين عاشوا فى ضنك وحرمان أبو المخفَّف وكان فى أيام المأمون ، وكان يدور فى بغداد يسأل الناس رغيفاً أو كسرة خبز ، وله أشعار مختلفة فى وصف الرغيف وكيف كان كلَّ همه من الحياة وهم أمثاله من البؤساء الذين يعيشون على الكِسَرِ اليابسة يتبلَّغون بها ، وهو لذلك يجعله موضع شعره من مثل قوله[2] :

---

(١) ابن المعتز ص ٣٧٧ .

(٢) كتاب الورقة لابن الجراح ص ١١٥

دَعْ عنك رَسْمَ الدِّيارِ ودَعْ صِفات القِفارِ
وعَدِّ عن ذكر قومٍ قد أكثروا فى العُقـــار[1]
ودع صفات الزنانيـ ـر فى خصور العذارِى[2]
وصِفْ رغيفاً سَرِيًّا حكتْه شمسُ النهارِ
أو صورةُ البدر لما اسْـ ـتتمَّ فى الاستدارِ
فليس تَحْسن إلا فى وصفه أشعارى
وذاك أنى قديمـاً خلعت فيه عِذارى

فهو إنما يتدلّه فى الرغيف ويمتلىء به قلبه المحروم حبا وصبابة . وكان وراءه كثيرون متعففون لايمدون أيديهم للسؤال، وربما فقدوا حتّى الرغيف ولم يجدوه . ولعل شاعراً لم يصف مشاعر هذه الطبقات البائسة على نحو ما وصفها أبو الشمقمق ولذلك كان ينبغى أن نقف عنده قليلا .

أبو الشمقمق[3]

هو مروان بن محمد بصرى المنشأ والمربى ، خراسانى الأصل ، من موالى الأمويين ، ومعنى الشمقمق الطويل ، ويقال إنه كان قبيح المنظر وأضاف إلى قبح شكله خبث لسانه ، فتحاماه الناس وازوروا عنه ، فلم يفتحوا له أبوابهم إلا قليلا ، وسرعان ما كان الباب الذى يفتح فى وجهه يُغْلَقُ من دونه ، فعاش فقيراً محروما إلا من بعض ما كان يسقط إليه من قائد أو أمير أو من بعض زملائه الشعراء ، فى الحين الطويل بعد الحين . وقدم بغداد فى أيام الرشيد والبرامكة غير أن أبوابهما لم تفتح له ، ولعل ذلك ماجعله يهجو الفضل بن يحيى

---

(١) العقار : الخمر.
(٢) الزنانير : جمع زنار وهو خيط كانت تلفه الجوارى على أوساطهن .
(٣) انظر فى كتاب أبى الشمقمق وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ١٢٦ وتاريخ بغداد ١٣/١٤٦ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٩٦ وابن خلكان فى ترجمة مزيد بن يزيد وكتاب الورقة ص٦٣ والعقد الفريد ٣/٣٥ ، ٦/٢١٥ والحيوان للجاحظ (انظر الفهرست) وكتاب البغال للجاحظ والأغانى فى ترجمة بشار بالجزء الثالث والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٨٩ والكامل للمبرد ص ٤٣١ ، ٤٥٩ .

البرمكى كما هجا منصور بن زياد كاتب الرشيد . وممن فتحوا له أبوابهم حينئذ يزيد بن مزيد الشيبانى قائد الرشيد المشهور ممدوح مسلم بن الوليد ، ومالك بن على الخزاعى أحد رجال الدولة البارزين ومحمد بن منصور بن زياد الملقب بفتى العسكر ، ولعلهم خشوا معرة لسانه . ونراه يولى وجهه نحو بعض بلدان فارس يمدح عمالها ، ويقصد أبا دهمان حين ولاه يحيى بن خالد البرمكى سابور ، فيحسن إليه ويمدحه ببعض شعره ، ويقصد جميل بن محفوظ والى أرّجان ، فيلقاه لقاء سيئًا ، ويتولاه بهجاء مرير ، ويقصد الأهواز حيث كان يتولى عمر ابن مساور الكاتب بعض أعمالها ، ويُعرض عنه ، فيصب عليه شواظا من هجائه ويعود إلى بغداد كسيراً ، فلا يجد من يقبل عليه حتى من الشعراء رفاقه ، ويسلقهم بلسانه ، فيعطونه النزر القليل الذى لا يكاد يسد رمقه . ويحس أنه يعيش مضيعا ، ويزيده ضياعا أنه لم يكن فيه ما يتنافس الناس بسببه فى اصطحابه ومنادمته إذ كانت العيون تقتحمه كما أسلفنا ، وكانت فيه خشونة وجفوة ، مع نزق وطول لسان وتعجل فى اللوم والهجاء ، فساءت حاله واشتد ضيقاً وبرماً بالناس ، وعاش يتجرع الفاقة والبؤس حتى قالوا إنه كان يلزم بيته فى أطمار بالية وثياب خالقة متوارياً عن الناس إلا من أنس إليه .

وأشعاره تسودها روح شعبية قوية حتى فى المديح ، فإننا نجده لا يعنى فيه بالجزالة والرصانة التى كانت تشيع حينئذ فى شعر المديح ، وأيضًا فإنه لا يعنى بمعانيه وأخيلته ، وكأنه ينظمه عفو الخاطر ، غير متأن ولا متكلف . وإذا كان مديحه يسقط عن مديح نظرائه فإن أهاجيه لا تقل عن أهاجيهم إقذاعاً ، بل لعل شاعراً معاصراً لم يبلغ من إقذاعهما بلغه ، إذ ملأ أهاجيه بالفحش والألفاظ البذيئة ، حتى لنرى شاعراً مثل بشار المعروف بخبث لسانه يخشاه خشية شديدة ، حتى ليرتّب له فى كل سنة مائتى درهم رجاء أن يكف عنه لسانه ، وأتاه فى بعض السنين ، فحاول أن يرده ، فما هو إلا أن تمتم بشطور مقذعة حتى فزع بشار ودفع إليه المائتى درهم وقال له : لا يسمعنّ هذا منك الصبيان ، وأتاه مرة أخرى ، فلم يسرع له بالضريبة ، وما إن قال :

سبع جوْزاتٍ وتينـه فتحـوا باب المدينه

إن بشار بن بُرْدٍ تَيْسٌ أعمى فى سفينه

حتى رمى له بشار بالدراهم . وذكر بشار للصبيان يدل على شعبية أبى الشمقمق وأنه كان يشتق شعره من ألفاظ العامة ، ولذلك كان سرعان ما يدور على ألسنة الغلمان . ومن طريف هجائه قوله فى بخيل :

كفّاه قُفْلٌ ضاع مفتاحُهُ قد يئِس الحدّادُ من فَتْحِهِ

وقوله فى بعض الثقلاء :

أسمجُ الناسِ جميعاً كلُّهم كذُبابٍ ساقطٍ فى مَرَقَهْ

ولعل أشعاراً له لم تمس قلوب الشعب كما مستها أشعاره التى صوّر فيها فقره وبؤسه ، ويُرْوَى أن بعض إخوانه دخل عليه يوماً فرأى سوء حاله ، فأراد أن يخفف عنه ما هو فيه ، فقال له أبْشِرْ أبا الشمقمق فإنه رُوِى فى بعض الحديث أن العارين فى الدنيا هم الكاسون يوم القيامة ، فقال ساخراً : إن كان والله ما تقول حقا لأكونن بزّازاً يوم القيامة ، ثم أنشأ يقول :

أنا فى حالٍ تعالى الله ربِّى أىَّ حالِ

ليس لى شىءٌ إذا قيـ ـل لمن ذا ؟ قلت : ذا لى

ولقد أهزِلْتُ حتى مَحت الشمسُ خيالى

ولقد أفلستُ حتى حَلَّ أكلى لعيالى

وله أشعار كثيرة يصور فيها فقره وإقلاله وأنه لا يقتنى حتى ما يكسو به السرير الذى ينام عليه وأنه لا يملك من المتاع شيئا إلا حصيرة وبعض السمار والأطمار الخلقة ، يقول :

لو قد رأيت سريرى كنت ترحمنى الله يعلم مالى فيه تَلْبيسُ (١)

والله يعلم مالى فيه شابكةٌ إلا الحصيرةُ والأطمارُ والدّيس (٢)

---

(١) يريد بالتلبيس مايكسى به السرير من الحشية والملاءة .

(٢) الشابكة : ما يضم بعضه إلى بعض . الديس : هو المعروف فى مصر باسم السمار .

ويقف مراراً ليصور سوء حظه وأنه أينما اتجه لم يكسب شيئا ، بل يقعد به العُدْم الذى تعوّده ويقعد به سوء البخت الذى يلازمه فى حِلّه وترحاله ، حتى ليجفّ البحر الذى يخوضه ، وحتى ليستحيل الدر فى يده حصى وزجاجاً والماء العذب ملحا لا يسوغ شرابه ، وفى ذلك يقول :

لو ركبتُ البحارَ صارتْ فِجاجا   لا نرى فى متونها أمواجا
ولو أنى وضعتُ ياقوتةً حَمْ   راءَ فى راحتى لصارتْ زُجاجا
ولو أنى وردتُ عَذْباً فُرَاتاً   عاد لا شك فيه مِلْحاً أُجاجا

ويصور لنا مسغبة عياله ، وهو فى الواقع إنما يصور مسغبة الطبقة العامة فى بغداد التى كانت تكدح لتملأ الطبقة المترفة بطونها ، بينما تعيش هى فى الضنك والشقاء ، متمنية أن تجد الخبز والإدام ، بل قد تعدم الإدام والخبز جميعاً ، ومن طريف تصويره لذلك قوله :

ما جمع الناسُ لدنياهمُ   أنفعَ فى البيت من الخُبْزِ
والخُبْزُ باللَّحْم إذا نلته   فأنت فى أَمْنٍ من التَّرْزِ[1]
وقد دنا الفِطْر وصبيانُنا   ليسوا بذى تَمْرٍ ولا أَرْزِ
كانت لهم عنزٌ فأُودِى بها   وأجدبوا من لبن العَنْزِ[2]
فلو رأوا خُبْزًا على شاهِق   لأسرعوا للخبز بِالجَمْزِ[3]
ولو أطاقوا القَفْزَ ما فاتهم   وكيف للجائع بالقَفْزِ

ويكثر من حديثه عن البراغيث ولذعها لجسده ، كما يكثر من حديثه عن خلو داره من الطعام ، حتى لتعبث بها الجرذان وابن عرس ، بل إنها لتدرج من حوله وتعبث ببعض جسده ، وتيأس منه ومن طعامه ، فتفر على وجهها تبحث عن غذائها ، ولا يبقى معه فى البيت سوى السنور أو الهرّ ، وإنه ليبكى

---

(١) الترز : الهلاك .
(٢) أودى بها : هلكت .
(٣) الجمز : القفز .

حاله ، إذ لا يجد الفأر الذى تعوّد أن يصيده ، فيفارقه إلى غير مآب ، ومن بعض قوله فى ذلك :

ولقد قلتُ حين أجْحرنى البَرْ ... دُ كما تُجْحِرُ الكلابُ ثُعالَهْ[1]
فى بُيَيْتٍ من النضارة قَفْرٍ ... ليس فيه إلا النَّوَى والنُّخاله[2]
فارقته الجُرْذان من قِلَّة الخَيْ ... ر وطار الذبابُ نحو زُباله[3]
هارباتٍ منه إلى كل خصبٍ ... حين لم يرتجين منه بُلاله[4]
وأقام السِّنَّوْرُ فيه بِشَرٍّ ... يسأل الله ذا العُلا والجَلاله
أن يرى فأرةً فلم ير شيئاً ... ناكساً رأسه لطول الملاله
قلت صَبْرًا يا نازُ رأسَ السَّنا ... نير وعَلَّلْته بحُسن مقالَه[5]
قال : لا صَبْرَ لى وكيف مقامى ... فى قفارٍ كمثل بِيدِ تَبَالَه[6]
ثم ولَّى كأنه شَيْخُ سوءٍ ... أخرجوه من مَحْبِسٍ بكفاله

وعلى هذا النحو كان أبو الشمقمق يخلط تصوير تعاسته وتعاسة أمثاله من أفراد الشعب بالفكاهة ، وكان ما ينى يصور أحاسيس الفقر وضيق ذات اليد ، وكان الناس يقبلون على شعره إقبالا شديدا ، حتى ليروى الجاحظ فى الجزء الأول من حيوانه أن منهم من كان ينفق على كتابته نفقة واسعة ، متخذاً له الجلود الكوفية الثمينة . وفى طبقات الشعراء لابن المعتز أن أبا الشمقمق توفّى فى حدود الثمانين ومائة ، ولعل الخبر الذى ساقه عنه والذى يدل على أنه لحق عصر المأمون منحول عليه .

---

(١) أجحره : أدخله فى الجحر . ثعالة : الثعلب .
(٢) بييت : تصغير بيت . النضارة : النعيم .
(٣) زبالة : موضع فى صحراء الكوفة .
(٤) بلالة العيش : ما يسد الرمق .
(٥) ناز : اسم السنور بالفارسية .
(٦) بيد : جمع بيداء وهى الفلاة . وتبالة : بلدة فى الطريق من الطائف إلى اليمن .

الفصل الثامن

تطور النثر وفنونه

١

تطور النثر

كان العصر العباسى الأول عصراً خطيراً حقاً فى تطور النثر العربى ، إذ تحولت إليه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وكل معارف الشعوب التى أظلتها الدولة العباسية ، بحيث تدخَّل جميع ذلك فى تركيبه وائتلف مع نسيجه ، وتولد منه جديد تلْوَ جديد .

وتم هذا التحول — كما مرَّ بنا فى الفصل الثالث — عن طريقين : طريق النقل والترجمة ، وهو طريق عُنى به الخلفاء العباسيون — ووزراؤهم وخاصة البرامكة — إلى أبعد حد ممكن ، كما عنى به أفراد مختلفون مثل ابن المقفع وآل نوبخت . وطريق ثان لعله كان أوسع مجرى ، هو تعرب شعوب الشرق الأوسط وانتقالهم إلى العربية بكل ما ورثوه وثقفوه من فنون المعرفة . ولم ينتقلوا بمعارفهم فقط ، بل انتقلوا أيضًا بعاداتهم وتقاليدهم وطرائقهم فى المعيشة مما هيأ لتفاعل واسع بين العرب والشعوب المستعربة ، بل مما هيأ لظهور المدنية العربية فى تلك الأقاليم التى دانت بالإسلام ، وهى مدنية قوامها مزيج من التعاليم الإسلامية الروحية والخلقية ومن الأدب العربى بشعره ونثره ومن صور الحياة العقلية والمادية فى المحيط العربى الجديد .

وعلى سَنَن من طبائع الحياة أخذ النثر يتطور تطوراً واسعًا ، إذ حمل خلاصة هذه المدنية ومُلئت أوانيه بشرابها الجديد الذى اختلفت ألوانه باختلاف ينابيعه الكثيرة ، مما عرضنا له فى غير هذا الموضع . وقد أظهر النثر العربى مرونة واسعة إذ استطاع أن يحتوى كل هذه الينابيع وأن يتسع لها صدره ، بل لقد غدا كمجرى نهر كبير ترفده جداول من ثقافات متنوعة تنوعا لايكاد يُحَدُّ أو يحصى ،

وكل جدول يذوب فى النهر بمجرد دخوله فيه ، إذ يتحول عربيًّا ، ويتحول معه كل ما يحمل من سيول المعارف ، حتى الفلسفة والعلوم فإنهما لم يستعصيا على هذا التحول ، إذ سرعان ما صُبَّا فى قوالب عربية ملائمة .

وكان ذلك إيذانًا بتعدد شُعَب النثر العربى وفروعه ، فقد أصبح فيه النثر العلمى والنثر الفلسفى ، وأصبح فيه أيضًا النثر التاريخى ، على شاكلة ما كان عند الأمم القديمة ، وحتى النثر الأدبى الخالص أخذ يتأثر بملكات اللغات الأجنبية وخاصة اللغة الفارسية على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع وترجمته عن هذه اللغة لقصص كليلة ودمنة الهندى الأصل ونقله لكثير من آداب الفرس الاجتماعية والأخلاقية ونُظُمهم فى السياسة والحكم ، مما كان له أعمق الأثر فى الرسائل الديوانية وفى نشوء الرسائل الأدبية التى تُعْنَى بالكتابة فى موضوع محدود ، مما نسميه اليوم باسم المقالات ، إذ يعالج الكاتب موضوعًا فى طائفة من الصحف .

ولم يقف النثر العربى عند حمل المضامين العلمية والفلسفية الجديدة التى جاءته من لدن الأجانب ، فقد انبرت العبقرية العربية فى هذا العصر تضع العلوم اللغوية والشرعية ، وهو وضع كان واسع الأثر فى تمهيد اللغة وتيسيرها وجعلها لغة علمية محددة الألفاظ والاصطلاحات التى ترسم المعانى رسمًا دقيقًا . وقد مضت هذه اللغة تركض ركضًا لا فى مجال العلوم الإسلامية والعربية الخالصة فحسب ، بل أيضًا فى مجال العلوم الطبيعية والكونية ، فإذا لنا علماء كيماويون ورياضيون مختلفون ، لهم مصنفاتهم ومباحثهم المبتكرة .

وعلى نحو ما أثمرت العقلية العربية فى المجال العلمى أثمرت فى المجال الفلسفى وخاصة فى بيئات المتكلمين ، إذ مدّوا مباحثهم فى العقائد الإيمانية إلى كل شعب الفلسفة ، واستطاعوا — وخاصة المعتزلة منهم — بأنظارهم العقلية أن يُدْلوا فى جميع هذه الشعب بآراء جديدة طريفة على نحو ما يفصّل ذلك الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » حين يعرض لمذاهب المعتزلة المختلفة وما يقولونه فى الأجسام والأعراض والجواهر والحركة والسكون والكمون والتولد والطفرة والوجود والعدم والروح والنفس والعقل وإدراك الحواس والكم والكيف والألوان والخير والشر .

وكل ذلك كان له آثار بعيدة فى النثر العربى ، لا من حيث الألفاظ

والمصطلحات الجديدة فحسب ، بل أيضاً من حيث ذخائر الفكر الفلسفى اليونانى والعربى التى التقت فى أوعيته وأوانيه والتى جعلته يعرف صورا من تحليل الأفكار وتركيبها لا عهد له بها ، كما جعلته يعرف القياس المنطقى الصحيح وطرق الاستدلال والتعليل ودقائق المعانى وفرق ما بين السبب والمسبب وما بين الجنس والنوع والفصل والخاصة وما بين الحجة والشبهة والممكن والمحال والمعقول والموهوم والبرهان الجلىّ والبرهان الخفى ، مما جعل الفكر العربى يتحول إلى ما يشبه كنزاً سائلا بما لا يُحْصَى ولا يُسْتَقْصَى من الخواطر والمعانى .

ومن المؤكد أن التعبير عن كثير من هذه المعانى والخواطر لم يكن مألوفاً للعربية ، غير أنه قُيِّض لها من نابهى المتكلمين والكُتَّاب والمترجمين مَنْ مدَّ طاقتها وجعلها تسيغ تلك الخواطر والمعانى دون دخول أى ضَيْم عليها من شأنه أن يمحو طوابعها أو يجور على خصائصها ومقوماتها ، بل لقد أخذت تونق فى أثناء هذا التحول العقلى والحضارى وما صحبه من تراكيب وصيغ مستحدثة لا عهد لها بها سواء فى المجال العلمى والفلسفى أو فى المجال الأدبى الخالص .

ولم تقف المسألة عند احتفاظها بالقوالب العربية وأوضاعها اللغوية وتيسير هذه القوالب والأوضاع وتذليلها للمعانى العلمية والفلسفية العميقة وأدائها بخفيات حدودها ورَسْمها رسما محدداً دقيقاً ، بل امتدت إلى استحداث أسلوب مولد جديد ، أسلوب يحتفظ للغة بكل مقوماتها ، كما يحتفظ بالوضوح والتجافى عن الألفاظ الغامضة والمعانى المبهمة ، بل إنه ليحرص على الأداء البليغ ، بحيث يروق المتكلم والكاتب والمترجم والسامعَ بعذوبة منطقه ، بل بحيث يَلَذّ الآذان حين تستمع إليه كما يلذ العقول والقلوب .

وهو أسلوب قام على هَجْر كثير من الألفاظ البدوية الحوشية الجافية التى تَنْبو على ذوق أهل الحاضرة كما قام على الارتفاع عن الألفاظ العامية المبتذلة ، مع العناية بفصاحة اللفظ وجزالته ورصانته والملاءمة الدقيقة بين الكلمة والكلمة فى الجرس الصوتى . وبذلك لم يقف عند الأداء الفصيح فحسب ، إذ اتخذ لنفسه أصولا بيانية تُشيع فيه الرونق والجمال ، مما جعل جهابذته يتساءلون طويلا عن البلاغة ، وهو سؤال يلقانا فى جميع البيئات وتلقانا معه أجوبة كثيرة .

والطريف أنهم لم يكتفوا فى ذلك بما قد يكشفونه ببصائرهم الحاذقة ، إذ مضوا يطلبون ما عند الأمم الأجنبية من وصايا فى البيان والبلاغة سواء الفرس أو اليونان أو الرومان[١] ، وحتى الهنود ، إذ نجد معمّراً صاحب فرقة المعمرية من المعتزلة يتعرض لبهلة الطبيب الهندى فى عصر البرامكة يسأله عن رأى أمته فى البلاغة ، فيعطيه فى ذلك صحيفة مكتوبة بالسنسكريتية ، ويقول له إننى لا أحسن ترجمتها لك ، لأننى لم أعالج صناعة البلاغة فأثق من نفسى بالقيام بأداء معانيها وخصائصها على الوجه الصحيح ، ويَتَلَقَّى معمر بالصحيفة التراجمة الذين يحسنون النقل من السنسكريتية إلى العربية فينقلونها له ، وقد احتفظ بها الجاحظ فى البيان[٢] والتبيين ، وهى تطلب إلى الخطيب أن يلائم بين كلامه ومستمعيه وأن يحرص على الوضوح ويتجافى عن الألفاظ الوعرة والأخرى الغامضة وأن لا ينقح ألفاظه كل التنقيح إلا لمن حاز قسطا من الحكمة والفلسفة ممن خبروا الكلام والمعانى ، وأن يحرص على استخدام الألفاظ المحددة البينة التى تَفِى بمعانيها وتؤديها أداء سليما دون زيادة أو نقص .

ومن المحقق أن المعتزلة والمتكلمين بعامة عنوا فى هذا العصر عناية واسعة بمعرفة الأصول التى تقوم عليها براعة القول ، إذ كانت صناعتهم تقوم على إحسان فن الكلام ، أو بعبارة أخرى فن المناظرة فى المسائل الدينية والعقيدية وما يتصل بها من بعض المعانى الفلسفية . ونستطيع أن نجد مقدماتهم فى العصر الأموى وفى مساجد البصرة والكوفة حيث كان يجتمع ممثلو الأحزاب السياسية فيتحاورون فى مسائلهم وما يتفرع عنها من المسائل الدينية ويحاول هذا أو ذاك إقناع خصمه أو قهره والغلبة عليه بالحجة القاطعة والبيان الخلاب . وما نصل إلى العصر العباسى ، بل إلى أواخر العصر الأموى ، حتى نجدهم يقيمون المناظرات ، ويجتمع الناس من حولهم ليروا من يظفر بخصمه ويَقْطَعه عن الكلام قَطْعاً .

وطبيعى أن يدفع ذلك المتكلمين ومن حولهم إلى التساؤل عن البراعة فى القول والأسس التى تقوم عليها وأن ينثر المتكلمون الحاذقون فى ذلك بعض ملاحظات عن البيان والبلاغة ، ومن هنا لا نعجب إذا وجدنا سائلا يتعرض لمعتزلى كبير فى

---

(١) البيان والتبيين ١/٨٨ .

(٢) البيان والتبيين ١/٩٢ .

أوائل هذا العصر ، هو عمرو بن عُبَيْد ، فيسأله عن البلاغة وقُطْبها الذى تدور عليه ، ويجيبه بأنها « تخير اللفظ فى حسن الإفهام وتزيين المعانى بالألفاظ المستحسنة فى الآذان المقبولة عند الأذهان[1] » . ويدور السؤال طوال العصر وتتعدد إجابات المعتزلة عليه من مثل قول العَتَّابى لسائل سأله عن البليغ والبلاغة ، فقال له[2] :

« كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبْسة ولا استغاثة فهو بليغ ، فإن أردت اللسان الذى يروق الألسنة ويفوق كل خطيب فإظهارُ ما غمض من الحق وتصوير الباطل فى صورة الحق . فقال له السائل : قد عرفت الإعادة والحبسة ، فما الاستعانة ؟ قال : أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : يا هَنَاه ، ويا هذا ، ويا هيه ، واسمعْ منى ، واستمعْ إلىّ ، وافهمْ عنى ، أو لست تفهم؟ أو لست تعقل ؟ فهذا كله وما أشبهه عِىٌّ وفساد »

وواضح أن العَتَّابى يجعل البلاغة فى التدفق البيانى دون إعادة وتكرار ودون حَصَر وعىّ ، ودون استعانة بحشو يُؤْذى الذوق الحضرىّ المهذب . وتلك هى البلاغة العادية ، أما البلاغة الرفيعة فهى التى ترفع الحجاب عن غوامض المعانى ، وهى التى تبلغ من الحذق ما تعرض به الباطل فى صورة الحق معتمدةً على خلابة اللسان وتزيين المعانى فى القلوب ، والاحتيال على ذلك والتلطف له حتى يُرَى كأنه الحق الذى لا حق وراءه . وهو يستوحى ذلك من قدرة المتكلمين حوله فى مناظرة خصومهم وإفحامهم بالحجج الصحيحة تارة ، وتارة بالحجج غير الصحيحة التى يستطيع البليغ التام الذى يتقن أبنية الأدلة والكلام أن يموهها على السامع حتى يظن أنها صحيحة صحة تامة . ولا نبالغ إذا قلنا إن صحيفة بشر بن المعتمر فى البلاغة التى احتفظ بها الجاحظ فى بيانه[3] هى أروع ما أُثر عن المعتزلة فى هذا العصر بصدد الأصول البلاغية العامة ، وهو يستهلها بأن الأديب سواء كان خطيباً أو كاتباً أو شاعراً ينبغى أن يلاحظ نفسه فلا يقدم على الكلام إلا إذا كان مستعداً متهيئا تمام التهيؤ ، فارغ البال ناشطا له تمام النشاط . وينصحه

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٤ .

(٢) البيان والتبيين ١/١١٣ .

(٣) البيان والتبيين ١/١٣٥ والصناعتين (طبعة الحلبى) ص ١٣٤ .

باختيار ألفاظه وتفصيلها على المعانى بحيث تكون بقدرها لا فاضلة عنها ولا مقصّرة، كما ينصحه بأن تخلو ألفاظه من كل غريب وكل تعقيد ، وأن تؤدى دلالتها أداء واضحا مهما كانت دقيقة عسيرة وأن تتلاءم معها بحيث تؤديها أداء تاما يحيط بدقائقها إن كانت من الدلالات الغامضة، وفى الوقت نفسه تُلْقَى عليها كل ما يمكن من أضواء تكشفها من جميع أطرافها، مع تذليلها وتيسيرها وعرضها فى لغة متوسطة بين لغة العامة المبتذلة ولغة الأعراب الخشنة المملوءة بالغريب . وينصح من لا تواتيهم طباعهم بالرصف الحسن للألفاظ ووضعها فى مواضعها الصحيحة دون نبو أو شذوذ أن يكفّوا أنفسهم عن صناعة البيان والكلام البليغ ، وأولى منهم بهذا الكف والهجران لتلك الصناعة من تقعد بهم طباعهم مهما أجهدوا أنفسهم عن الإتيان بشىء من الكلام له روعة أو ما يشبه الروعة. ولا يكفى للبليغ أن يلائم بين كلامه ومعانيه أو بعبارة أخرى بين كلامه والموضوع الذى يتحدث عنه ، بل لا بد له من ضميمة ثانية هى إحسانه الملاءمة بين كلامه والمستمعين وأحوالهم النفسية والعقلية ، بحيث يجدون فى كلامه اللذة والمتاع ، ومن هنا يطلب إلى المتكلم إذا خاطب أوساط الناس أن لا يرتفع عن مداركهم بما يورد عليهم من اصطلاحات المتكلمين ، حتى لا تنقطع الصلة بينه وبينهم ، أما إذا خاطب المتكلمين فلا بأس من إيراده لهذه المصطلحات التى يفهمونها فهماً حسناً ، والتى قد يجدون فيها شيئًا من المتاع .

وملاحظات كثيرة أخرى كان يلاحظها المتكلمون معتزلة وغير معتزلة فى شئون البيان والبلاغة ، وهى متناثرة فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، ولا بد أن ملاحظات أخرى سقطت منه ولم يسجلها . ولم يكن المتكلمون وحدهم الذين يتعمقون فى معرفة أصول البيان والبلاغة ، فقد كان يَشْركهم فى ذلك كتّاب الدواوين والمترجمون، ومن خير مَنْ يمثلهم فى مطالع العصر ابن المقفع ، ويروى أنه سئل عن البلاغة وتفسيرها ، فقال[1] :

« البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة، فمنها ما يكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون فى الإشارة ، ومنها ما يكون فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون سجعاً

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٥ .

وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل . فعامةُ ما يكون من هذه الأبواب الوَحْيُ فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة . فأما الخطب بين السماطين وفى إصلاح ذات البين فالإكثار فى غير خطل والإطالة فى غير إملال . وليكنْ فى صدر كلامك دليلٌ على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته . فقيل له : فإن ملَّ السامع الإطالة التى ذكرتَ أنها حق ذلك ؟ قال : إذا أعطيتَ كل مقام حقه وقمتَ بالذى يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيتَ مَنْ يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدوِّ فإنه لا يرضيهما شىء ، وأما الجاهل فلستَ منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شىء لا تناله ، وقد كان يقال : رِضا الناس شىء لا ينال » .

وابن المقفع يذكر كل فنون الكلام ويطلب فيها الإيجاز والتركيز الدقيق ، ويلتفت إلى خطب المحافل والصلح ويطلب فيها الإطناب فى غير خطل ولا إملال . ويضع قاعدة مهمة أن يكون فى صدر الكلام ما يدل على غرضه ، وهو ما سماه البلاغيون ، فيما بعدُ ، باسم براعة الاستهلال ، كما يضع للشعر قاعدة ثانية هى أن يتلاءم صدر البيت مع قافيته حتى لكأنه يستدعيها استدعاء وهو ما سماه البلاغيون باسم رَدّ الأعجاز على الصدور . ويلاحظ ملاحظة تامة أن لكل من الإيجاز والإطناب فى الكلام مقامه ، وأنه ينبغى دائما أن يستوفى الكلام حقوقه من النصاعة والبلاغة والبيان .

وقد تحولت الدواوين الكثيرة المعقدة التى عرضنا لها فى الفصل الأول إلى ما يشبه مدارس بيانية كبيرة ، إذ كان لا بد للشبان الذين يعملون فيها من إتقانهم لصياغة الكلام بحيث لا يدخله ضعف ولا ابتذال وبحيث لا يعلو على أفهام العامة الذين كانوا يوجِّهون إليهم منشورات دار الخلافة . وكان هؤلاء الشبان يقيمون أولا بأبواب الدواوين متعرضين لامتحان قاس ، فمن أظهر كفاءته فيما طُلبَ إليه من بعض الرسائل رُفع أمره إلى رؤساء الديوان ، فوظفوه ، وإن لم يُحسن ما طلب إليه رَدّوه . وجعلهم ذلك يتساءلون عن البلاغة ومتى يُصْبح الكلام بليغاً وما العيوب التى تعوق بلاغته ، ودارت هذه الأسئلة بين رؤساء الدواوين وبلغائها ، المفوّهين ، وكانوا يمثلون الذوق الحضارى المترف فى أدق صوره فدقّقوا فى كلامهم

إلى أبعد حد ممكن ، وعبّروا فيه عن دقة مزاج ورهافة حِس بالغة، حتى ليقول الجاحظ : « أما أنا فلم أرَ قَطّ أمثل فى طريقة البلاغة من الكُتّاب ، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعّراً وحشيًّا ولا ساقطا سوقيًّا[1] » .

وكل ذلك معناه أن النثر تهيأت له أسباب كثيرة فى هذا العصر لكى ينمو ويزدهر ، فقد أخذ يمتدُّ ليستوعب العلوم والفلسفة ، كما يستوعب مادة عقلية عميقة حتى فى المجال الأدبى، إذ أخذت تَغْذُوه آداب الفرس السياسية والاجتماعية كما أخذت تغذوه الثقافات الأجنبيةوكل مااتصل بها من الفكر اليونانى ، ومضى يتفاعل مع ذلك كلهمحتفظًا بمقوماته وطوابعه العربيةالأصيلة ، بحيث لم يحدث أىُّ ازدواج فى اللغة يعرّضها للضياع ، بل لقد أينعت الفروع الجديدة فى شجرتها الكبيرة ، وأخذت تتكوّن فيها أزهار ذاكية الشّذَى وثمار حلوة يانعة بفضل كبار الكتاب والمترجمين والمتكلمين الذين احتفظوا لها بأصولها وأوضاعها وأغنوها ونمَّوْها حتى فى مجال الأساليب الخالصة ، إذ عرفوا كيف يستخلصون رحيقها البلاغى الذى يغذّى العقول ويَشْفى القلوب والأفئدة .

٢

الخطب والوعظ والقَصَص

نشطت الخطابة السياسية فى مطالع هذا العصر ، إذ اتخذتها الثورة العباسية أداتها فى بيان حق العباسيين فى الحكم ، وكانوا يحسُّون منذ أول الأمر بأن أبناء عمهم العلويين يضطغنون عليهم استئثارهم بالخلافة من دونهم ، فمضوا يؤكدون فى خطابتهم أنهم أصحاب هذا الحق ، فهم الذين أدالوا للشعب من بنى أمية وهم الذين قوّضوا حكمهم وحطّموه حَطْما، وقدانهالوا عليهم بالتجريح والطعن العنيف ، على نحو ما يتضح فى خطبة[2] أبى العباس السفاح حين بويع بالخلافة فى الكوفة ، وفيها نراه يتحدث عن رَحمِهم وقرابتهم للرسول صلى الله عليه وسلم تاليًا من القرآن الحكيم بعض الآيات الخاصة بأهل بيت النبوة من مثل(إنما يريد

(١) البيان والتبيين ١ /١٣٧ .

(٢) انظر الخطبة فى الطبرى ٦ /٨١ وما بعدها .

الله ُ ليذهب عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيت ويطهركم تطهيراً) وما يلبث أن يعرض للسبئية من الشيعة الغالية قائلا : « وزعمت السبئية الضُلَّال أن غيرنا أحق ُ بالرياسة والخلافة منا ، فشاهت وجوههم ، بِمَ ولِمَ أيها الناس ، وبنا هَدَى الله الناس بعد ضلالتهم وبصَّرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم . وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبِرّ » . ويتحدث عن الأمويين وظلمهم للرعية وكيف تداركها الله بهم وردَّ عليها حقوقها المسلوبة. وخطب عمه داود بن على بنفس اللحن ، ويشيد الجاحظ ببيانه وفصاحته قائلا إنه « كان أنطق الناس وأجودهم ارتجالا واقتضابا للقول . وله كلام كثير معروف محفوظ » . ويروى من ذلك خطبته فى أهل مكة حين وليها لابن أخيه ، وهى تمضى على هذا النمط :

« شكرا شكرا . أما والله ما خرجنا لنَحْتفر فيكم نهراً ولا لنبنى قصراً، أظنَّ عدوُّ الله أن لن نظفر به إذ أرْخِيَ له فى ذِمامه ،حتى عثر فى فَضْل خِطامه . فالآن عاد الأمر فى نِصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ، والآن أخذ القوسَ باريها ، وعادت النَّبْلُ إلى النَّزَعة[٢] ، ورجع الحق إلى مستقره فى أهل بيت نبيكم : أهل بيت الرأفة والرحمة ».

ويموت السفاح سريعاً ، ويخلفه أبو جعفر المنصور ، ولم يكن فى العباسيين أبينُ منه ولا أخطب ، وفى عهده تندلع ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن العلوى الملقب بالنفس الزكية بالمدينة ، لسنة ١٤٥ للهجرة ، ويتكاتبان كما مر بنا فى الفصل الأول ، وكل منهما يؤكد حقه فى الخلافة وإرثها عن الرسول الكريم . ويشهر كل منهما السلاح فى وجه صاحبه ، كما يشهران الخطب ويرسلان سهام القول ، وكان محمد بن عبد الله لا يقل عنه لسناً وفصاحة ، ومن قوله فى بعض خطبه[٣] :

« إن أحق الناس بالقيام فى هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين . اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرَّموا حلالك وعملوا بغير كتابك وغيَّروا عهد نبيك صلى الله عليه وسلم وآمنوا من أخفتَ وأخافوا من آمنت ، فأحْصِهم عدداً ، واقتلهم بَدَداً[٤] ، ولا تُبْقِ على الأرض منهم أحداً » .

ولم يلبث المنصور أن قضى على هذه الثورة قضاء مبرما ، ولم يعد العلويون

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٣١ وما بعدها .

(٢) النزعة : الرماة .

(٣) ذيل الأمالى للقالى ص ١٢١ .

(٤) بدداً : متفرقين .

– كما أسلفنا فى غير هذا الموضع – يحاولون الثورة جهاراً على أبناء عمهم ، بل عمدوا إلى السرية خوفاً من بطشهم وما عوّدوه الناس من إقناعهم بالسيف دون اللسان . وتضاءلت حينئذ – كما قدمنا – حركات الخوارج ، فلم يكن هناك إلا السيف أو الإذعان . وبذلك كُمّمت الأفواه ، وضعفت الخطابة السياسية فى هذا العصر ضعفاً شديداً ، لأنها إنما تزدهر حين تُكْفَل للناس حرياتهم السياسية على نحو ما كان الشأن فى عصر بنى أمية ، أما فى هذا العصر فقد أخذ العباسيون الناس بالشدة فضعفت الأحزاب السياسية وفنيت أو ذابت حريتهم فى سلطانهم الباطش بكل مَنْ حدثته نفسه بخروج عليهم بل بخلاف أو ما يشبه الخلاف ، وحقا عادت الخطابة السياسية إلى الظهور فى فتنة الأمين وحروبه مع أخيه المأمون ، ولكن لم تعد لها قوتها القديمة فى العصر الأموى وما كانت تمتاز به من روعة تجذب الناس إلى الاستماع لكلام الخطيب والفتنة بأساليبه .

وعلى نحو ما ضعفت الخطابة السياسية ضعفت الخطابة الحفلية التى كنا نعهدها فى عصر بنى أمية لسبب طبيعى ، وهو أن وفود العرب لم تعد تَفِدُ على قصور الخلفاء ، وبالتالى لم يعد خطباؤها يفدون عليهم ، فقد أُسْدلت الحجب بين الخليفة والرعية ، ولم يعد يَلْقَى وفودها ولا خطباءها المفوّهين . واقتصرت الخطابة الحفلية حينئذ على بعض مناسبات كأن يموت للخليفة ابن أو بنت فيقف بعض الخطباء لتعزيته ، وكأن يموت خليفة ويتولى خليفة جديد فيجمع بعض الخطباء بين التعزية والتهنئة ، من مثل قول ابن عتبة للمهدى يهنئه بالخلافة ويعزيه فى أبيه المنصور[١] :

« آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك لأمير المؤمنين فيما خلفه له أمير المؤمنين بعده ، فلا مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين ، ولا عقبى أفضل من وراثة مقام أمير المؤمنين ، فاقْبَلْ يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، واحتسبْ عنده أعظم الرزيّة » .

وكان يُعْقَدُ لبيعة الخليفة حفل عام يحضره القواد وكبار رجال الدولة ، وعادة يقف بعض الكتاب النابهين خطيبا بين يدى الخليفة الجديد منوّهاً بجلال الخلافة وإرث الخليفة لها وما له على القواد ورجال الدولة والناس من الطاعة علويين

(١) البيان والتبيين ٢/١٩٢ .

وغير علويين ، على نحو ما يلقانا عند يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب فى خطبته بين يدى الرشيد حين جلس بين القواد والأمراء والوزراء لأخذ البيعة له ، وهو يستهلها على هذا النمط بعد حمد الله والصلاة على رسوله[١] :

« إن الله بمنّه ولطفه منّ عليكم معاشر أهل بيت نبيه ، بيت الخلافة ومعدن الرسالة ، وإياكم أهلَ الطاعة من أنصار الدولة وأعوان الدعوة من نعمه التى لا تحصى بالعدد ، ولا تنقضى مدى الأبد . وأياديه التامة أن جمع ألفتكم وأعلى أمركم ، وشدّ عضدكم وأوهن عدوكم وأظهر كلمة الحق وكنتم أولى بها وأهلها ، فأعزّكم الله وكان الله قويًّا عزيزاً ، فكنتم أنصار دين الله المرتضى والذّابين بسيفه المنتضى عن أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبكم استنقذهم من أيدى الظلمة أئمة الجور والناقضين عهد الله والسافكين الدمَ الحرام والآكلين الفَىْء[٢] والمستأثرين به » .

وعلى هذا النحو أصبحت الخطابة الحفلية شيئًا نادراً يقال فى الحين الطويل بعد الحين ، وبذلك تضاءلت كما تضاءلت الخطابة السياسية ولم يعد لها شأن يذكر .

وقد ظل للخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ازدهارُها فى هذا العصر ، وعلى نحو ما كان الخلفاء والولاة يشاركون فيها لعصر بنى أمية كانوا يشاركون فيها أيضًا لهذا العهد ، إذ نجد للمهدى خطبة بارعة مأثورة[٣] ، كما نجد للرشيد خطبة أخرى رائعة ، وفيها يقول[٤] :

« عبادَ الله إنكم لم تُخْلَقُوا عبثا ولن تُتْركوا سُدًى ، حصّنوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء فى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ولا صلاة لمن لا زكاة له » . إنكم سَفْرٌ[٥] مجتازون وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة وإلى الرحمة بالتقوى وإلى الهدى بالإنابة

(١) تاريخ الطبرى ٦/٤٤٢ .
(٢) الفىء : غنائم الحرب .
(٣) العقد الفريد ٤/١٠١ .
(٤) العقد الفريد ٤/١٠٢ .
(٥) السفر : الجماعة المسافرون .

فإن الله ، تعالى ذكره ، أوجب رحمته للمتقين ومغفرته للتائبين وهداه للمنيبين ».

على أننا نجد الرشيد يسنّ سُنّة كانت سببا فى أن تضعف هذه الخطابة على ألسنة الخلفاء ، إذ طلب إلى الأصمعى أن يعدّ لابنه الأمين خطبة يخطب بها يوم الجمعة[١] ، كما طلب إلى إسماعيل اليزيدى وابن أخيه أحمد أن يُعدّا خطبة مماثلة يخطب بها المأمون[٢] ، وبذلك سنّ للخلفاء أن يخطبوا بكلام غيرهم ، وكان المأمون معروفا بالفصاحة والجهارة وحلاوة اللفظ وجودة اللهجة والطلاوة[٣] ، وقد روى له ابن قتيبة ثلاث خطب[٤] : أولاها فى يوم جمعة وثانيتها فى يوم الأضحى وثالثتها فى عيد الفطر وفيها يقول :

« اتّقوا الله عبادَ الله وبادروا الأمر الذي اعتدل فيه يقينكم ولم يحتضر الشك فيه أحدا منكم ، وهو الموت المكتوب عليكم ، فإنه لا تستقال بعده عَثْرة ولا تُحْظَرُ قبله توبة ، واعلموا أنه لا شيء قبله إلا دونه ، ولا شيء بعده إلا فوقه .. ولا يعين على القبر وظُلْمته وضيقه ووحشته وهول مَطْلَعه ومسألة ملائكته إلا العمل الصالح الذى أمر الله به فمن زلّتْ عند الموت قدمه فقد ظهرت ندامته وفاتته استقالته ودعا من الرَّجْعة إلى ما لا يجاب إليه وبذل من الفِدْية ما لا يُقْبَلُ منه » .

ومعروف أن الولاة كانوا يجمعون بين الولاية والصلاة ، ويظهر أنهم أخذوا مع مر الزمن يخطبون بكلام غيرهم ، وقد يندبون من يقوم مقامهم فى الصلاة والخطابة ، ويذكر الجاحظ عن محمد بن سليمان العباسى والى البصرة والكوفة لعهد المنصور والمهدى أنه كانت له خطبة يوم الجمعة لا يغيّرها ، وهى خطبة قصيرة[٥] .

ولكن إذا كانت الخطابة الدينية أخذت تضعف على لسان الولاة والخلفاء فإنها أينعت فى بيئة الوعاظ والنساك ممن كانت تزخر بهم مساجد بغداد والبصرة والكوفة ، وكانوا أخلاطا من الزهاد والفقهاء والمحدّثين والمتكلمين ، وكان بعضهم يلمّ بمجالس الخلفاء لوعظهم ، وأحيانا كانوا يستقدمونهم ، فيعظونهم حتى يبكوهم ،

---

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخى ٢ / ٢٠ .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٨ / ٨٢ .
(٣) البيان والتبيين ١ / ٩١ ، ١١٥ .
(٤) عيون الأخبار ٢ / ٢٥٣ وما بعدها .
(٥) انظرها فى البيان والتبيين ٢ / ١٢٩ .

بما يوقعون فى نفوسهم من خشية عقاب الله وبما يصورون لهم من زفير جهنم ، وهم فى تضاعيف ذلك يزجرونهم عن ظلم الرعية واقتراف المعاصى والسيئات . ومن كبارهم الذين عُرفوا بمقاماتهم المحمودة بين أيدى الخلفاء ثلاثة هم عمرو بن عبيد المعتزلى الزاهد المشهور واعظ المنصور وصالح بن عبد الجليل واعظ المهدى وابن السماك واعظ الرشيد ، ويُرْوَى عن أولهم أنه دخل على المنصور يوما فقال له : عِظْنى ، فقال[1] :

« إن الله أعطاك الدنيا بأسْرها فاستر نفسك ببعضها ، واذكر ليلة تمخَّض عن يوم لا ليلة بعده . فوجَم أبو جعفر من قوله ، فقال له الربيع[2] : يا عمرو غممت أمير المؤمنين . فقال عمرو : إن هذا صَحِبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يوما واحداً ، وما عمل وراء بابك بشىء من كتاب الله ولا سُنَّة نبيه قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ ! قد قلت لك : خاتمى فى يدك فتعال وأصحابك[3] ، فاكْفِنى . قال عمرو : ادْعُنا بعَدْلك تَسْخُ أنفسنا بعونك . ببابك ألف مظلمة ارْدُدْ منها شيئا نعلم أنك صادق » .

وكان صالح بن عبد الجليل ناسكا مفوَّها ، وكان يلمُّ بمجالس المهدى ويعظه ، ويطيل فى وعظه له حتى يبكيه وحتى يذرف الدمع مدراراً ، ويُرْوَى أنه دخل عليه يوما فسأله أن يأذن له فى الكلام ، فقال له تكلَّمْ ، ومن بعض كلامه حينئذ[4] :

« كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : من حجَب الله عنه العلم عذَّبه على الجهل ، وأشدُّ منه عذابا مَن أقبل إليه العلم وأدبر عنه ، ومَن أهدى الله إليه علما فلم يعمل به ، فقد رغب عن هدية الله وقصَّر بها ، فاقْبَلْ ما أهدى الله إليك من ألسنتنا قبولَ تحقيق وعمل لا قبولَ سُمْعة ورياء فإنه لا يَعْدمك منا إعلامٌ لما تجهل أو مواطأةٌ على ما تعلم أو تذكيرٌ من غفلة ، فقد وطَّن الله عزَّ وجلَّ نبيَّه عليه السلام على نزولها تعزيةً عما فات وتحصيناً من التمادى ودلالة على المَخْرج فقال : (وإما يَنْزَغَنَّك من الشيطان نَزْغٌ

---

(١) عيون الأخبار ٢/٣٣٧ .

(٢) حاجب المنصور .

(٣) يريد أصحابه من المعتزلة الناسكين .

(٤) عيون الأخبار ٢/٣٣٣ .

فاستَعِذْ بالله) فأطْلع الله على قلبك بما يُنَوِّرُه من إيثار الحق ومنابذة الأهواء، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وكان ابن السماك محدثاً وواعظًا مؤثراً ، رَوَى عنه أحمد بن حنبل وغيره، وله كلام ومواقف بين يدى الرشيد تدور فى كتب التاريخ والأدب ، ومما يؤثر عنه أنه دخل عليه يومًا ، فقال له الرشيد : عِظْنى ، فقال[1] :

« يا أمير المؤمنين : اتَّقِ الله وحده لا شريك له ، واعلمْ أنك واقفٌ غدًا بين يدى الله ربك ثم مصروفٌ إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما جنة أو نار . فبكى هرون حتى اخضلَّتْ لحيته[2] » .

وكان هؤلاء الوعاظ يستمدون دائمًا من الذكر الحكيم وأحاديث الرسول الكريم وأقوال أصحابه ومَنْ سبقوهم إلى الوعظ فى العصر الأموى من مثل الحسن البصرى ، ودائمًا تبهرنا مواعظهم لما أشاعوا فيها من إيمانٍ شديد بالدين وثقة وطيدة بأن ما عند الله خير وأبقى مما فى أيدى الناس من متاع الحياة الزائل .

وكثير من الوعَّاظ كانوا يمزجون وعظهم بالقصص الدينى وتفسير بعض آى القرآن؛ وهو مزج قديم منذ الصدر الأول للإسلام . وكثر هؤلاء القصاص الوعاظ فى عصر بنى أمية مما جعل الجاحظ يعقد لهم فصلا[3] طريفا فى كتابه البيان والتبيين ، وفيه يقول عن قُصَّاص العصر العباسى الأول :

« ومن القُصَّاص موسى بن سيار الأُسْوارى وكان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فتقعد العرب عن يمينه والفُرْس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يُدْرَى بأى لسان هو أبين . واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضَّيْم على صاحبتها إلا ما ذكرنا من لسان موسى بن سيار الأُسْوارى . ولم يكن فى هذه الأمة بعد أبى موسى الأشعرى أقرأ فى محراب من موسى بن سَيَّار ثم عثمان بن سعيد بن أسعد ثم يونس النحوى ثم المعلَّى . ثم

(١) تاريخ الطبرى ٦/٥٣٨ .
(٢) اخضلت : بللتها الدموع .
(٣) انظر البيان والتبيين ١/٣٦٧ وما بعدها.

قصَّ فى مسجده أبو على الأسوارىّ وهو عمرو بن فائد ستا وثلاثين سنة ، فابتدأ لهم فى تفسير سورة البقرة ، فما ختم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظاً للسير ولوجوه التأويلات ، فكان ربما فسّر آية واحدة فى عدة أسابيع . . وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق فى ذلك من الأحاديث كثيراً ، وكان يقصُّ فى فنون من القصص ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك . . ثم قصَّ بعده القاسم بن يحيى ، وهو أبو العباس الضرير ، لم يُدْرَك فى القُصَّاص مثله . وكان يقصّ معهما وبعدهما مالك بن عبد الحميد المكفوف . . فأما صالح المُرِّى فكان يُكْنَى أبا بشر ، وكان صحيح الكلام رقيق المجلس . وسمعه سفيان بن حبيب (أحد كبار المحدثين) فقال ليس هذا قاصًّا ، هذا نذير » .

ووقف الجاحظ فى بيانه مراراً عند صالح المُرِّى حاكياً بعض كلامه ، أو بعض ما كان يردّده من شعر فى قصصه ، من ذلك قوله عنه : « كان صالح المرى القاص العابد البليغ كثيراً ما يُنْشِد فى قصصه وفى مواعظه هذا البيت الذى أنشدناه فى غير هذا الموضع :

فبات يُرَوِّى أصولَ الفَسِيلِ فعاش الفَسِيلُ ومات الرَّجُلْ »[1]

ومن ذلك ما يُذْكَرُ من أنه مات ابنٌ لعبيد الله بن الحسن قاضى البصرة . فعزّاه صالح المرى ، فقال : « إن كانت مصيبتك فى ابنك أحدثتْ لك عظة فى نفسك ، فنعم المصيبة مصيبتك ، وإن لم تكن أحدثتْ لك عظة فى نفسك فصيبتك فى نفسك أعظم من مصيبتك فى ابنك[2] » . وعزّى رجلا فى أخيه فقال : « إن تكن مصيبتك فى أخيك أحدثتْ لك خَشْيَةً فنعم المصيبة مصيبتك ، وإن تكن مصيبتك بأخيك أحدثت لك جَزَعًا فبئس المصيبة مصيبتك[3] » . ويذكر الجاحظ أنه كان كثيراً ما يردد فى مجلسه : « أعوذ بك من الخَسْف والمَسْخ والرَّجْفَة والزلزلة والصاعقة والريح المهلكة ، وأعوذ بك من جَهْد البلاء ومن شماتة الأعداء » . وكان يقول : أعوذ بك من التّعب والتعذر والخَيْبة وسوء المنقلب . اللهم من أرادنى بخير فيَسِّرْ لى خيره ، ومَنْ أرادنى بشر فاكْفِنِى شَرَّه . اللهم إنى

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٩ .
(٢) البيان والتبيين ٢/٨٢ .
(٣) البيان والتبيين ٣/١٧١ .

أسألك خِصْب الرَّحْل[١] ، وصلاح الأهل[٢] » . وروى الجاحظ من بعض وعظه فى كتابه الحيوان قوله : « تَغْدُو الطير خِماصًا وتروح شِباعًا ، واثقةً بأن لها فى كل غدوة رزقا لا يفوتها . والذى نفسى بيده أن لو غدوتم على أسواقكم على مثل إخلاصها لرُحتم وبطونكم أبْطَنُ من بطون الحوامل[٣] » .

وواضح مما روينا من كلام صالح المُرِّىّ وغيره من القُصَّاص والوعاظ أنهم ارتقوا بصناعة النثر فى المعانى التى كانوا يرددونها رقيا بعيداً ، إذ شعَّبوا وفرَّعوا فى تلك المعانى طويلا ، واستنبطوا فيها كثيراً من الدقائق التى تمسُّ القلوب والعقول . وأضافوا إلى ذلك عناية واسعة بأساليبهم ، وهى عناية تقوم على الدقة فى اختيار اللفظ والإحساس المرهف بجمال السبك والصياغة . وأدَّاهم ذلك فى بعض الأحيان إلى استخدام السجع ، بل كان منهم من أكثر من استخدامه مثل الفضل ابن عيسى الرقاشى وفيه يقول الجاحظ كان سجَّاعا فى قصصه[٤] ، وكان من أخطب الناس وكان متكلمًا قاصًّا مجيداً[٥] ، ويروى من وعظه : « سَلِ الأرض فقل من شقَّ أنهارك وغرس أشجارك ، فإن لم تُجِبْكَ حواراً ، أجابتك اعتبارا[٦] » ويقول الجاحظ : « كان يتلو الآية التى فيها ذكر الجنة والنار والموت والحشر[٧] » ثم يفيض فى الوعظ . وكان ابنه عبد الصمد قاصًّا مثله ، وكان أغزر منه وأبين وأعجب وأخطب[٨] ، وقيل له : « لِمَ تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافى (أى روىّ الأسجاع) وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامى لو كنت لا آمل فيه إلا سماع المشاهد لقلَّ خلافى عليك ، ولكنى أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلُّت[٩] » .

---

(١) الرحل هنا : المسكن والبيت .
(٢) البيان والتبيين ٣/٢٨٨ .
(٣) الحيوان ٧/٦٢ .
(٤) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .
(٥) البيان والتبيين ١/٣٠٦ .
(٦) البيان والتبيين ١/٣٠٨ .
(٧) البيان والتبيين ١/٢٩١ .
(٨) البيان والتبيين ١/٣٠٨ .
(٩) البيان والتبيين ١/٢٨٧ .

٣

المناظرات

قلما عُنى مؤرخو الأدب العباسى بالحديث عن المناظرات التى احتدمت بين المتكلمين والفقهاء وأصحاب الملل والنحل لهذا العصر مع أنها كانت من أهم الفنون النثرية وكانت تشغل الناس على اختلاف طبقاتهم ، لسبب بسيط وهو أنها كثيراً ما كانت تنعقد فى المساجد ، وقد مرَّ بنا أن مجالس البرامكة والمأمون كانت تكتظ بهذه المناظرات ، وأنه كان وراء مجالسهما مجالس صغرى كثيرة ، يجتمع فيها المتناظرون من الشيعة والزنادقة والمتكلمين ، ويتحاورون فى المسائل العقيدية وغير العقيدية ، وقد يخوضون فى بعض المسائل الفلسفية ، على نحو ما كانت تخوض مجالس البرامكة ، وبالمثل كان يتناظر الفقهاء ، ومناظرة الشافعى ومحمد بن الحسن الشيبانى مشهورة .

والمعتزلةُ أهمُّ طوائف المتناظرين حينئذ ، فقد وقفوا أنفسهم على جدال طوائف المتكلمين من مخالفيهم فى أصولهم الخمسة التى تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع وجدال من كانوا يعتنقون التشيع الغالى مثل شيطان الطاق وهشام بن الحكم وجادلوا جدالا عنيفًا أرباب الملل السماوية والنحل غير السماوية من الدهرية والمانوية ، ومن أشهرهم فى الجدال والمناظرة أبو الهذيل العلاف المتوفى فى حوالى سنة ٢٣٠ للهجرة ، وفيه يقول ابن خلكان : « كان حسن الجدال قوى الحجة كثير الاستعمال للأدلة والإلزامات » . وروى الخطيب[١] البغدادى والمرتضى[٢] فى أماليه وبعض المراجع القديمة طائفة من مناظراته . من ذلك مناظرته فى حداثته ليهودى وَرَد البصرة ، وتعرَّض لمتكلميها يقول لهم ألا تقرُّون بنبوة موسى عليه السلام ؟ حتى إذا اعترفوا بها قال: نحن على ما اتفقنا عليه إلى أن نجتمع على ما تدَّعونه . فتقدم إليه ، وقال له: أسألك أم تسألنى ؟ فقال له اليهودى: بل أسألك فقال: ذاك إليك ، فقال اليهودى: أتعترف بأن موسى نبىٌّ صادق أم تنكر ذلك فتخالف صاحبك ، فقال له أبو الهذيل : إن كان موسى الذى تسألنى عنه هو الذى بشَّر بنبيِّى

---

(١) تاريخ بغداد ٣/٣٦٦ وما بعدها .

(٢) أمالى المرتضى ١/١٧٨ وما بعدها .

عليه السلام وشهد بنبوته وصدّقه فهو نبي صادق ، وإن كان غير من وصفتُ فذلك شيطان لا أعترف بنبوته . فورد على اليهودى ما لم يكن فى حسبانه . ولم يلبث أن سأل أبا الهذيل : أتقول إن التوراة حق ؟ فقال : هذه المسألة تجرى مجرى الأولى ، إن كانت هذه التوراة التى تسألنى عنها هى التى تتضمن البشارة بنبي عليه السلام فتلك حق ، وإن لم تكن كذلك فليست بحق ولا أقرُّ بها . فبهُت اليهودى وأفْحم ولم يدر ما يقول . وناظر يوماً مجوسيًّا فسأله ما تقول فى النار ؟ قال : بنت الله ، قال فالبقر ؟ قال : ملائكة الله قَصّ أجنحتها وحطّها إلى الأرض يُحْرَثُ عليها ، قال : فالماء ؟ قال : نور الله ، قال أبو الهذيل فما الجوع والعطش ؟ قال : فَقْر الشيطان وفاقته ، قال أبو الهذيل : فمن يحمل الأرض ؟ قال : بهمن الملك . حينئذ قال أبو الهذيل : فما فى الدنيا شر من المجوس أخذوا ملائكة الله فذبحوها ، ثم غسلوها بنور الله ثم شَوَوْها ببنت الله ، ثم دفعوها إلى فقر الشيطان وفاقته ، ثم سلخوها على رأس بهمن الملك أعز ملائكة الله . فانقطع المجوسى وخجل مما لزمه . وقال له المعذّل بن غيلان يوماً إن فى نفسى شيئاً من القول بالاستطاعة وأن الإنسان حُرٌّ حرية مطلقة فى أعماله فبيِّن لى ما يُذهب الريب عنى ، فقال له : خبِّرْنى عن قول الله تعالى : (وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) هل يخلو من أن يكون أكذبهم لأنهم مستطيعون الخروج وهم تاركون له ، فلاستطاعة الخروج فيهم وليسوا يخرجون قال (إنهم لكاذبون) أى هم يستطيعون الخروج وهم يكذبون فيقولون : لسنا نستطيع ، ولو استطعنا لخرجنا ، فأكذبهم الله على هذا الوجه . أو يكون على وجه آخر يقول : (إنهم لكاذبون) أى إن أعطيتهم الاستطاعة لم يخرجوا ، فتكون معهم الاستطاعة على الخروج ولا يخرجون . وعلى كل حال قد كانت الاستطاعة على الخروج ثابتة لهم . ولا يعقل للآية معنى ثالث غير الوجهين اللذين وصفنا . وبذلك أقام الحجة القاطعة على الاستطاعة من لفظ القرآن الكريم ، حتى ينقض ما يستشهد به أصحاب الجبر وتعطيل إرادة الإنسان وحريته من بعض آيه التى لا تعطيهم الدلالة البينة الملزمة . وكان يتعمق ببعض مناظراته فى مسائل فلسفية كقوله إن حركات أهل

الجنة والنار لا تبقى بل تنقلب إلى سكون دائم ؛ تجتمع فيه اللذات لأهل الجنة ويجتمع العذاب لأهل النار ، إلى غير ذلك من الآراء المبسوطة فى الملل والنحل للشهرستانى وفى مقالات الإسلاميين للأشعرى.

وكان ابن أخته النظام لا يقل عنه قوة فى الجدل والإقناع وإفحام الخصوم ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع كيف أفحم أبا شَمِر الحَنَفِىّ المرجئ وقطعه بالبراهين الساطعة ، حتى زحف إليه وأمسك بيديه ليسكت . ويقول ابن النديم إنه ما زال يناظر الحسين النجار فى الجبر وحرية الإرادة ، حتى انصرف محموماً مغموماً وكان ذلك سبب علته التى مات فيها[1] . وهو يُعَدُّ أكبر من جادلوا الدهرية والمانوية وغيرهما من أصحاب النحل غير الإسلامية لعصره ، حتى ليقول الجاحظ على نحو ما مر بنا فى ترجمتنا له بين الشعراء: « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوامُّ من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل ، فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهيم (النظام) وإبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة ، فإنى أقول إنه قد أنهج لهم سُبُلاً وفَتَقَ لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة[2] ». وحكى الجاحظ كثيراً من جداله وروده على الدهرية والمنانية والدَّيْصانية ، وفى الجزء الخامس من كتاب الحيوان مادة من ذلك كثيرة ، نراه فيها يرد على من يقولون بأن أصل العالم ضياء وظلام وأن الحرارة والبرودة واللون والطعم والصوت والرائحة إنما هى نتائج على قدر امتزاجها ، ويلاحظ أنهم يقفون عند حاسَّة اللمس فقط دون غيرها من الحواس. ويبحث مباحث واسعة فى النار وأنها حر وضياء وأن الضياء ليس بلون لأنه إذا سقط على الألوان المختلفة كان عمله فيها واحداً . ويفيض فى ردود كثيرة على المجوس ، واحتفظ أبو الحسين الخياط هو الآخر بكثير من هذه الردود ، من ذلك قول المنانية بالنور والظلمة وأن النور هو مصدر كل خير والظلمة مصدر كل شر ، فالصدق خير لأنه من النور والكذب شر لأنه من الظلمة ، مما جعله يقول لهم: « حدثونا عن إنسان قال قولا كذب فيه مَنْ الكاذبُ ؟ قالوا الظلمة ، قال: فإن ندم بعد ذلك على ما فعل من الكذب ، وقال: قد كذبت وقد أسأت ، من القائل : قد كذبتُ؟ فاختلطوا عند ذلك ولم يدروا ما يقولون ، فقال لهم إبراهيم: إن زعمتم أن النور هو

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٥٤ .

(٢) الحيوان ٤/٢٠٦ .

القائل : قد كذبت وأسأت فقد كذب لأنه لم يكن الكذب منه ولا قاله والكذب شر ، فقد كان من النور شر وهو هدم قولكم ، وإن قلتم إن الظلمة قالت : قد كذبت وأسأت فقد صدقت ، والصدق خير ، فقد كان من الظلمة صدق وكذب ، وهما عندكم مختلفان ، فقد كان من الشيء الواحد شيئان مختلفان : خير وشر على حكمكم ، وهذا هدْم قولكم بقدم الاثنين[1]» أى الخير والشر وإلهيهما اللذين يؤمنون بهما . وعلى نحو ما كان يناظر المنانية ويقطعهم كان يناظر الدهرية القائلين بالدهر وخلوده وأن حركات الأفلاك لا تتناهى ، ويفحمهم بمنطقه وقوة نسجه للأدلة ، من ذلك أنه تعرّض لهم يوما يجادلهم فيما يزعمون من عدم التناهى فى حركات الأفلاك ، وكان مما قاله لهم : « ليس تخلو الكواكب من أن تكون متساوية الحركة ، لا فضل لبعضها على بعض فى السير والقطع أو بعضها أسرع قطعاً وسيراً من بعض ، فإن كانت متساوية القطع فقطعُ بعضها أقل من قطع جميعها ، وإذا أضيف قطع بعضها إلى قطع البعض الآخر كان قطع الجميع أكثر من قطع الواحد ، وإن كان بعضها أسرع من بعض قطعا ، فقد دخلته القلة والكثرة وما دخلته القلة والكثرة متناه[2] » وهو تناه يدل على حدوث الحركة . وكان يكثر من مناظرة خاله أبى الهذيل ويعلو عليه بقوة حججه ، مما جعله يراوغه كثيراً ويعتلُّ عليه ، حتى قال له بعض مستمعيهما : « إنك إذا راوغتَ واعتللت وأنت تكلم النظام فأحسن حالاتك أن يشك الناس فيك وفيه ، فقال : خمسون شكًّا خير من يقين واحد[3] » . ومر بنا فى غير هذا الموضع بعض آرائه الفلسفية وفى الحق أنه هو وخاله وغيرهما من المعتزلة غمسوا آراءهم وتفكيرهم فى الفلسفة غمساً . ونراه يحوِّل كل شيء إلى المناظرة ، فهو يناظر فى الآراء العقيدية وفى الآراء الفلسفية مما ذكرناه فى ترجمته السابقة كما يناظر فى المسائل الطبيعية وفى الحيوان . ومناظرته لمعبد فى مساوىء الديك ومحاسنه ومنافع الكلب ومضاره مشهورة وقد شغلت نحو مجلد ونصف من كتاب الحيوان للجاحظ ، إذ استقصيا جميع الجوانب المتصلة بذلك استقصاء يدل على مدى الرقى الفكرى الذى رقيه العقل العربى فى العصر

---

(١) كتاب الانتصار لأبى الحسين الخياط (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٣٠ .

(٢) انظر كتاب الانتصار ص ٣٥ .

(٣) حيوان ٢/ ٦٠ .

العباسى . وهى وما يماثلها لم تكن تُراد لنفسها وإنما كانت تراد للبرهنة على عجائب تدبير الله جل جلاله فى خلقه وما أودعه فيه من ذخائر الحكمة ، كما كانت تُراد للفرق بين مذاهب الدهرية ومذاهب الموحدين لا فى بحث عجائب الكون فى الحيوان فقط بل فى بحث كل صور الوجود أيضا وما يتصل بذلك من الآراء الفلسفية العميقة ، ومن أجل ذلك آثر المعتزلة هذا الجدال العقلى على النسك والعبادة وجعلوه فوق الحج والجهاد[1] .

وفى الحق أنهم بسطوا بهذا الجدال وما اتصل به من مناظرة العقل العربى إلى أبعد غاية ، فقد أمدوه بسيول من دقائق المعانى وخفيات البراهين ، وجعلوه عقلا جدلا ما يزال ينقب عن خبيئات الأفكار ، وما يزال يجلب من أعمق الأعماق دررها الباهرة . وقد تعاوروا على الأشياء المشهورة يصححونها ويسددونها ، وتعاور معهم كثير من معاصريهم الذين مضوا يتقنون على شاكلتهم الحوار فى كل شىء . ومن طريف ما يصور ذلك أن نجد الجاحظ يذكر أن شخصا يسمى جعفر بن سعيد كان يفضل الديك على الطاووس ، كأنه يريد أن يعكس ما شاع عند الناس من جمال الطواويس ، ويسوق الجاحظ ما كان يقوله فى ذلك على هذا النمط[2] :

« كان جعفر بن سعيد يزعم أن الديك أحمد من الطاووس وأنه مع جماله وانتصابه واعتداله وتقلّعه[3] إذا مشى سليم من مقابح الطاووس ومن مُوقه[4] وقبح صورته ! ومن تشاؤم أهل الدار به ومن قبح رجليه ونذالة مَرْآته . وزعم أنه لو ملك طاووسا لألبس رجليه خُفًّا . وكان يقول : وإنما يُفْتخَر له بالتلاوين وبتلك التعاريج والتهاويل التى لألوان ريشه ، وربما رأيت الديك النَّبطى وفيه شبيه بذلك إلا أن الديك أجمل لمكان الاعتدال والانتصاب والإشراف وأسلم من العيوب من الطاووس . وكان يقول : ولو كان الطاووس أحسن من الديك النبطى فى تلاوين ريشه فقط لكان فضل الديك عليه بفضل القَدّ والخَرْط وبفضل حسن الانتصاب وجودة الإشراف أكثر من مقدار فضل حسن ألوانه على ألوان الديك ولكان السليم من العيوب فى العين أجمل لاعتراض تلك الخصال القبيحة على حُسْن الطاووس

---

(١) حيوان ١/٢١٦ .
(٢) حيوان ٢/٢٤٣ .
(٣) التقلع : التحدر فى المشى .
(٤) الموق : الحمق .

فى عين الناظر إليه . وأول منازل الحمد السلامة من الذم . . والعامة لا تبصر الجمال ، ولفرس رائع كريم أحسن من كل طاووس فى الأرض ، وكذلك الرجل والمرأة . وإنما ذهبوا من حسنه إلى حسن ريشه فقط ، ولم يذهبوا إلى حسن تركيبه وتنصُّبه كحسن البازى وانتصابه ، ولم يذهبوا إلى الأعضاء والجوارح وإلى الشيات والهيئة والرأس والوجه الذى فيه . وكان جعفر يقول : لما لم يكن فى الطاووس إلا حسنه فى ألوانه ولم يكن فيه من المحاسن ما يزاحم ذلك ويجاذبه وينازعه ويَشْغَل عنه ذكر وتبين وظهر . وخصال الديك كثيرة وهى متكافئة فى الجمال » .

وواضح أن هذه قدرة بارعة فى الجدل وفى تأليف الحجج والأدلة ، وهى تدل على ما أصاب العقل العربى حينئذ من رقى جعله يستقصى ما يتحدث عنه أحسن استقصاء وأدقه ، استقصاء يحرص فيه المتكلم على التدقيق والتعمق كأشد ما يكون التعمق والتدقيق وكان يصحب ذلك بكثير من الظرف ومن السفسطة التى تدل على ترف العقل وارتفاعه عن الآراء الشائعة ، ويصوِّر ذلك من بعض الوجوه ما حكاه الجاحظ فى فاتحة كتابه البخلاء عن مذهب مَنْ يسمَّى باسم الجَهْجاه « فى تحسين الكذب فى مواضع وفى تقبيح الصدق فى مواضع وفى إلحاق الكذب بمرتبة الصدق وفى حَطِّ الصدق إلى موضع الكذب وأن الناس يظلمون الكذب بتناسى مناقبه وتذكُّر مثالبه ويحابون الصدق بتذكُّر منافعه وبتناسى مضاره وأنهم لو وازنوا بين مرافقهما وعدَّلوا بين خصالهما لما فرَّقوا بينهما هذا التفريق ولما رأوهما بهذه العيون » . ويتلو الجاحظ هذا المذهب بمذهب من يسمَّى باسم صَحْصَح « فى تفضيل النسيان على كثير من الذكر وأن الغباء فى الجملة أنفع من الفطنة فى الجملة وأن عيش البهائم أحسن موقعا فى النفوس من عيش العقلاء وأنك لو أسمنت بهيمة ورجلا ذا مروءة أو امرأة ذات عقل وهمة وأخرى ذات غَباء وغفلة لكان الشحم إلى البهيمة أسرع وعن ذات العقل والهمة أبطأ ، ولأن العقل مقرون بالحذر والاهتمام ولأن الغباء مقرون بفراغ البال والأمن . فلذلك البهيمة تَقْنو شحما فى الأيام اليسيرة ، ولا تجد ذلك لذى الهمة البعيدة ، ومتوقِّع البلاء فى البلاء وإن سلم منه ، والغافل فى الرجاء إلى أن يدركه البلاء » .

وقد يقال إن هذا التقبيح للأشياء المستحسنة والتحسين للأشياء المستقبحة عُرف

فى الأدب الفهلوى القديم ، وأن العباسيين تأثروا فى هذا الاتجاه بما كان منه فى هذا الأدب . ونحن لا ننفى ذلك ، وإنما نلاحظ أنه حتى إن صح فإن العباسيين توسعوا فى هذا الاتجاه بتأثير مناظرات المتكلمين وما داخلها من سفسطة أحيانا ، بحيث أصبح هذا التحسين والتقبيح نمطا من أنماط التفكير العباسى ، وبحيث عمّ فى كل شيء ، مما هيأ فيما بعد هذا العصر لظهور كتب المحاسن والمساوى . ونضيف أن المتكلمين تأثروا أيضًا فى مناظراتهم بما كان فى التراث الفلسفى اليونانى من جدال وحوار ، وبخاصة فى المسائل الفلسفية الخالصة ، ومعروف أن أفلاطون كان يدير كثيراً من رسائله على الحوار والجدل بين نفرٍ من الفلاسفة ، على نحو ما هو معروف فى رسالته أو كتابه الذى سماه المأدبة وفيه جلبَ سقراط وبعض المتفلسفة ليتحاوروا فى عاطفة الحب ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن يحيى البرمكى دعا من كانوا يتناظرون بمجالسه فى المسائل الفلسفية والكلامية إلى الحديث عن العشق ؛ وكان حديثًا طويلا تبادل هؤلاء المتناظرون آراءهم فيه ، وأكبر الظن أنهم سمعوا بمأدبة أفلاطون إن لم يكن بعضهم قد اطلع عليها مترجمةً ، ولم يُنْقَل لنا جميع هذا الحديث الطريف ، إنما نُقِل بعض ما تحدَّث به مَنْ شاركوا فى هذه المحاورة البديعة ، نَقَله المسعودى فى كتابه مروج الذهب على هذه الشاكلة[1] :

« قال على بن ميثم (المتكلم الشيعى) : العشق ثمر المشاكلة وهو دليل على تمازج الروحين ، وهو من بحر اللطافة ورقة الطبيعة وصفاء الجوهر ، والزيادة فيه نقصان من الجسد .

وقال أبو مالك الحضرمى وهو خارجى المذهب : العشق نفث السحر ، وهو أخفى وأحر من الجمر ، ولا يكون إلا بازدواج الطبعين وامتزاج الشكلين ، وله نفوذ فى القلب كنفوذ صَيِّب المزن فى خَلَل الرَّمْل تنقاد له العقول وتستكين له الآراء .

وقال أبو الهذيل العلاف المعتزلى : العشق يختم على النواظر ويطبع على الأفئدة مرتعه فى الأجساد ومسرعة فى الأكباد ، وصاحبه منصرف الظنون متغير الأوهام لا يصفو له موجود ، ولا يسلم له موعود ، تسرع إليه النوائب . وهو جرعة من نقيع الموت ، وبقية من حياض الثكل ، غير أنه من أريحية تكون فى الطبع وطلاوة

---

(١) مروج الذهب ٣/٢٨٦ .

توجد فى الشمائل وصاحبه جواد لا يَصْغو (يميل) إلى داعية المنع ولا يسنح به (يصرفه) نازع العذل.

وقال إبراهيم النظام بن يسار المعتزلى : العشق أرق من الشراب ، وأدبّ من الشباب ، وهو من طينة عطرة عُجنت فى إناء من الحلى ، حلو المجتنى ما اقتصد ، فإذا أفرط عاد صِلاً قاتلا ، وفساداً معضلا ، لا يُطْمَعُ فى إصلاحه . له سحابة غزيرة على القلوب ، فتُعْشب شغفاً وتُثْمر كلفا . وصريعه دائم اللوعة ضيق المتنفّس طويل الفكر إذا جنّه الليل أرق وإذا أوضحه النهار قلق ، صَوْمُهُ البلْوَى ، وإفطارُه الشكوى .

ثم قال الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ومن يليهم ، حتى طال الكلام فى العشق بألفاظ مختلفة ومعان تتقارب وتتناسب ، وفيما مرّ دليل عليه » .

وكنا نتمنى لو أن المسعودى أورد كل ما قاله هؤلاء المتحاورون إذن لورثنا عن العباسيين مأدبة فى العشق تقابل مأدبة أفلاطون . والذى لا شك فيه — كما أسلفنا — أن هذه المأدبة كانت تحت أعين معاصريهم كما كانت تحت بصر من جاءوا بعدهم مثل المسعودى ، وأن الشعراء استمدوا منها كثيراً من معانيهم فى العشق والغزل . ومضى المسعودى يذكر بعض ما أُثر عن الفلاسفة والأطباء فى العشق ، مما يقطع بأن العباسيين إن لم يعرفوا مأدبة أفلاطون فقد سقطت إليهم آراء يونانية مختلفة فى الحب والهوى .

وواضح ما فى هذا الحوار عن العشق من دقة فى المعانى ومن حسن سبك وأداء ، حتى ليُعْنَى بعض المتحاورين بأن يكون كلامه مسجوعا ، مما يدل دلالة بينة على أن المتناظرين كانوا لا يزالون يتعهدون كلامهم ويصوغونه صياغة باهرة ، وبذلك أعدوا لتطور النثر تطوراً واسعا فى مضامينه الجديدة التى لم يكن للعربية بها عهد وفى أساليبه وبما شفعوها به من حسن السبك وجمال الصياغة والأداء .

وليس ذلك فحسب كل ما قدمه فن المناظرة للنثر فى هذا العصر ، فقد جعل المتكلمون والمتناظرون وفى مقدمتهم المعتزلة يبحثون فى بلاغة القول ويكثرون من ملاحظاتهم فى هذا الاتجاه على نحو ما صوّرنا ذلك فى غير هذا الموضع ، مما أعدّ لوضع أصول البلاغة العربية .

٤

الرسائل الديوانية والعهود والوصايا والتوقيعات

تحدثنا فى الفصل الأول عن تعقد الدواوين فى هذا العصر وتنوعها ، فدواوين للخراج ودواوين للنفقات ودواوين للجيش ودواوين للحروب ودواوين للرسائل ودواوين للخاتم ودواوين لشرقىّ الدولة ودواوين لغربيها ، ولكل ولاية ديوان ، وفوق هذه الدواوين ما يسمّى ديوان الزمام الذى ينظر فى ضبط كل ديوان على حدة . وبجانب هذه الدواوين العامة فى بغداددواوينُ فى الولايات للخراج والرسائل ودواوين أخرى لأولياء العهد وللأمراء والوزراء وكبار القواد ، ومَنْ لم يتخذ من هؤلاء ديوانا كبيراً كان له كاتبٌ يكتب عنه وينظر فى تدبير أمواله ونفقاته وضياعه ، وحتى نساء الخلفاء كن يتخذْنَ الكتاب ، وكذلك كان يتخذهم بعض القضاة والعلماء للكتابة عنهم .

وبذلك نشطت الكتابة فى هذا العصر نشاطاً واسعاً ، فقد توفر عليها مئات من أصحاب الأقلام يحدوهم فى ذلك ما كانت تدرُّه عليهم من أرزاق واسعة . وكان مَنْ يُظْهِر منهم مهارة فى دواوين الخلافة سرعانما يرقى إلى رياسة الديوان الذى يعمل فيه . وقد تُقْبِل عليه الدنيا فيصبح رئيساً لمجموعة من الدواوين ، وقد يصبح وزيراً للخليفة يسوس الدولة ويدبر أمورها وشئونها ، فإن لم يصبح وزيراً أصبح والياً لإقليم من الأقاليم مثل الحسن بن البحباح البلخى الذى كتب للمهدى والهادى والبرامكة وقد ولى مصر فى عصر الهادى والأمين ، ومثل الحسن بن رجاء كاتب المأمون الذى ولى فارس ومثل عمر بن مهران كاتب الخيزران أم الرشيد وقد ولاه مصر فى بعض السنين . وكثير من الولاة والقواد كانوا يحسنون الكتابة إلى أبعد غاية مثل جعفر بن محمد بن الأشعث والى خراسان للرشيد ومثل طاهر بن الحسين قائد المأمون وواليه على خراسان وابنه عبدالله بن طاهر والى مصر والشام والجزيرة ثم والى خراسان ومثل أبى دلف العجلى قائد المأمون المشهور .

وعلى هذا النحو كانت الكتابة فى هذا العصر الجسر الذى يصل الشخص إلى أرفع المناصب ، وكان من يتقنها من الوزراء والقواد والولاة يَلْقَى الإكبار

والإعجاب فى كل مكان ، وقد أخذ يسيل لها لعاب كل من أحس فى نفسه قدرة عليها ، حتى يحظى بما يكفل له العيش فضلا عما قد يصيب من رغد ونعيم، ومن أجل ذلك كثر الوافدون على أبواب الدواوين وخاصة من الناشئة ذوى المطامح البعيدة ، وكانوا يعرضون أنفسهم، فيمتحنون امتحانًا عسيراً ، تبحث فيه مهاراتهم الأدبية والعقلية ، ومن جاز الامتحان أمرهم رؤساء الدواوين بملازمتهم، ثم ضموهم إلى دواوينهم وترقوا بهم من حال إلى حال، على قدر مهاراتهم حتى بلغوا بهم المنزلة التى يستحقونها، وربما ألحقوهم ببعض الولاة والقواد أو جعلوا لهم التصرف فى بعض الأعمال أو فى بعض دواوين الخراج .

ولم يكن نجاح الكاتب الناشىء هينا ، فقد كان لا بُدَّ له من إحسان صناعة الكتابة ، وهو إحسان جعله يتوفر على مادتها اللغوية والأسلوبية ، حتى يتقنها الإتقان المنشود من حيث الوضوح والجمال الفنى ، أما الوضوح فلأنه كان يكتب غالبًا إلى الرعية ولا بد للرعية أن تفهم عنه ، وأما من حيث الجمال الفنى فلأنه كان يكتب عن الخلفاء والوزراء والولاة والقواد، ولا بد أن يروعهم ببيانه وبلاغته ، وقد توقف الجاحظ مراراً فى كتاباته يُشيد ببراعتهم فى القول وعذوبة آدائهم وطلاوة صياغاتهم من مثل قوله : «إنهم لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة وعلى المخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ وأشارت إلى حسان المعانى[1] » .

وكان لا بد لهم بجانب هذه القدرة البلاغية من أن يتقنوا طائفة من المعارف وفى مقدمتها علوم اللسان العربى وعلم الفقه ، وكان العلم الأخير ضروريًا لهم، لأنهم كانوا يكتبون فى شئون الخراج وفيما يجب على أهل الذمة أن يؤدوه من أموال، وكذلك كان علم الحساب من الضرورة لهم بمكان . وكانوا يلمون بكل علم مثل الكيمياء والطب والنجوم ، وأكبوا على الفلسفة والمنطق ليدعموا عقولهم . ولم يكن ذلك كل ثقافة الكاتب ،فقد مضى يقرأ كل ما ترجم من الحكمة اليونانية ومأثور

---

(١) البيان والتبيين ٤ / ٢٤ .

ما تبادله الإسكندر المقدونى وأرسطو من رســـائل وما نُقل عن الفلاسفة اليونانيين من أقوال وكذلك ما نقل عن الهنود من حكم وقصص يتصل بتدبير الملك وخاصة كتاب كليلة ودمنة . ومرَّ بنا مدى إعجاب يحيى البرمكى بهذا الكتاب مما جعله يطلب إلى أبان بن عبد الحميد أن ينقله شعراً حتى يسهل حفظه ، وكان قد نقله ابن المقفع قبل ذلك نثرا ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أنه نقل كثيراً من سير ملوك الفرس وأنظمتهم فى الملك وتدبيرهم فى السياسة والحكم وأن مما نقله « خُداى نامه » فى سير ملوكهم و« آيين نامه » فى أنظمتهم و « التاج » فى سيرة كسرى أنوشروان و« الأدب الكبير» و« اليتيمة » و« الصحابة » . وأكبَّ الكاتب العباسى على هذه الكتب وغيرها مما عرضنا له فى الفصل الثالث كأمثال بزرجمهر وكتاب« جاويدان خرد » فى الآداب والأخلاق و « عهد أردشير بن بابك إلى ابنه سابور » .

ولعلنا لا نبالغ إذ قلنا إن المادة الفارسية السياسية والأخلاقية المترجمة كانت من أهم المؤثرات فى رقى الكتابة الديوانية وتطورها ، وحقًّا أن هذا التأثير بدأ منذ عبد الحميد الكاتب ولكنه لم يبلغ أشده إلا فى هذا العصر إذ اتّسع نقل الآداب الفارسية وكل ما أُثر عن ملوك الفرس ووزرائهم من عهود ووصايا ورسائل إلى العمال والولاة ، مما سالت مادته الغزيرة فى كتابات الكاتب العباسى ، ولعل ذلك ما جعل الجهشيارى يقدم لكتابه الوزراء والكتاب بتمهيد واسع عرض فيه لتدوين الفرس للدواوين ونظمها المختلفة ، متحدثًا فى ثنايا ذلك عن كتب الأكاسرة إلى عمالهم ومقتبسًا فصولاً عن سابور إلى ابنه ومن كلام أردشير وكلام أبرويز إلى وزرائه ووصيته لابنه شيرويه ووصية أردشير لوزرائه واستشارة سابور لوزيرين نابهين . وعرض الجهشيارى لبعض رسائل أرسطو للإسكندر ، ولبعض وصايا الهند وحكمهم . وفى ذلك كله الدلالة الواضحة على مدى ما كان يأخذ به الكاتب العباسى نفسه من ثقافة سياسية ، وخاصة ما كتبه الفرس فى وصاياهم وعهودهم . وكان لابد له من إلمام واسع بأخبار العرب وأشعارهم وكل مايتصل بهم وبخلفائهم ، وكان أحياناً يحسن نظم الشعر ورصفه ، ويستشهد به فى رســائله وكلامه ، وكذلك كان يحفظ القرآن الكريم ويقتبس منه أحيانًا ، وأحياناً يحاول مجاراة

أساليبه وما يجرى فيها من حسن التأليف والتئام الكلم وجودة المقاطع وحلاوة البيان وعذوبته . وحتّى الخطّ كان لا بد للكاتب العباسى من إجادته .

ومَنْ ينظر نظرة عامة فى موضوعات الرسائل الديوانية لهذا العصر يلاحظ أنها كانت تتناول تصريف أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة ، وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهود ، ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد والأمان وأخبار الولايات وأحوالها فى المطر والخصب والجدب ، وعهود الخلفاء لأبنائهم ، ووصاياهم ووصايا الوزراء والحكام فى تدبير السياسة والحكم . وأيضًا فإنها أخذت تتناول بعض الأغراض التى كان يتناولها الشعر من تهنئات وتعزيات وشكر مما سنعرض له فى الرسائل الإخوانية التى تصور عواطف الأفراد ، وقد تفننوا حينئذ طويلا فى التحميدات التى تُصَدَّر بها الرسائل ، وتُنْسب إلى الرشيد أنه أول من أمر أن تبتدىء مكاتباته بعد البسملة بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم[1] . وفى رواية ثانية أن يحيى البرمكى وزيره أول من زاد فى الرسائل : « وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله » وأنه أنشأ فى ذلك كتابًا ذكر فيه فضل الأنبياء عليهم السلام[2] .

ونحن نقف عند طائفة من الكتاب النابهين مرتبين لهم على عهود الخلفاء وأول كاتب لمع اسمه فى مطالع العصر عُمارة بن حمزة كاتب السفاح والمنصور وقد ولاه الأخير فى سنة ١٥٦ على كور دجلة والأهواز وفارس ثم ولاه المهدى خراج البصرة ، وعاش حتّى سنة ١٩٩ للهجرة[3] ، وكان المهدى يجلّه ، وكان جوادًا غير أنه كان فيه تيه شديد حتّى ضُرب المثل بتيهه ، فقيل أتْيه من عمارة ، وتُرْوَى له فى التيه والكرم حكايات كثيرة . وهو أحد الكتاب البلغاء وقد اشتهر بتدبيجه لأول رسالة من رسائل الخميس ، وهى رسالة كانت تُكْتَبُ فى عهد كل خليفة عباسى ، وكان موضوعها تأييد الدعوة العباسية وتأييد الخليفة الحاضر وتعداد مناقبه وبيان مآثره وأنه أحق أهل بيته بالخلافة . واشتهر أيضًا برسالة

---

(١) النجوم الزاهرة ٢ / ١٠٣ .
(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٧٧ .
(٣) النجوم الزاهرة ٢ /١٦٤ وانظر فى ترجمته الفهرست لابن النديم ص ١٧١ ومعجم الأدباء ٥ / ٢٤٢ والجهشيارى ص ٩١ ، ١٣٣ وفى مواضع أخرى متفرقة ، راجع الفهرس .

لُقّبت باسم الماهانية وفيها يقول ابن النديم : « الكتب المجمع على جودتها عهد أردشير ، كليلة ودمنة ، رسالة عمارة بن حمزة الماهانية ، اليتيمة لابن المقفع ، رسالة الخميس لأحمد بن يوسف » . ويظهر أنها كُتبت لعامل كي يستشير عيسى بن ماهان فى كل ما يأخذ من الأمر ويدع ، وفيها يقول له على لسان الخليفة[1] :

« أمير المؤمنين لا ينكر قرب الطاعة من المعصية قُرْبَ بعض الأمور من بعض ، لسرعة تقلّب القلوب واختلاف الحالات عند ميْل الهوى ولا يُنْكِرُ جَرْيَ المقادير بغَيْب ذلك عن العباد واستئثار الله بعلم ما لم يأتهم إلا بغتة . بل قد علم أمير المؤمنين أن أقواما فى قلوبهم ضغائن ، دونها الغَدْر ، يُظْهر أسرارهم ويخرج أضغانهم ، ثم يبلغ بغضبه منهم ما لم يكن فى ذلك عنده عزيزاً ، ولم يكن بهم امتناع .. غير أنه قد أنكر أن تعجل إلى ابن ما هان — وإن كان محلا بارزا — بأمرٍ دون مؤامرته (مشاورته) ويكره لك العجلة فإنها موكَّلٌ بها النَّدم وإنه كان يقال : أصاب متأمل أو كاد . وقالت العرب : فإما تَرَيَنَّ أمراً رَشَداً فتبيَّن ثم ارْعَوِ أو أقْدِمْ وأحكِم . ولحقٌّ ما أمر الله عزَّ وجَلَّ به من التَّبَيُّن وما حذَّر أن يصاب قوم بجهالة وما خوَّفَ على ذلك من الندامة ، فليس يبرح المرء بخير ما فرغ لقول الله عز وجَلَّ واتعظ واستيقظ » .

وواضح حرص عمارة على التمثل بكلام العرب واستعارة ألفاظ القرآن ومعانيه ، فقد حلَّ فى آخر كلامه قوله جَلَّ شأنه : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنَبَأٍ فتبيَّنوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) .

ومن كُتَّاب المنصور مَسْعدة بن سعد بن صُول أحد ملوك جرجان فيما يقال ، وكان يكتب أولا لخالد بن برمك وزير المنصور ثم لواليه على فارس . ولما اتخذ المنصور أبا أيوب المورياني وزيراً وقلَّده الدواوين أقام مسعدة على ديوان الرسائل ، ويَرْوِى ياقوت فى ترجمته لابنه عمرو أن المنصور قال يوماً لكتَّابه : اكتبوا لى تعظيم الإسلام ، فبَدر مسعدة فكتب[2] :

---

(١) انظر الرسالة بأكلها فى جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ١٢٧/٣ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ١٢٨/١٦ .

« الحمدَ لله الذى عظّم الإسلام واختاره وأوضحه وأناره وأعزّه وأنافه (أعلاه) وشرّفه ، وأكمله ، وتمّمه ، وفضّله ، وأعزّه ، ورفعه ، وجعله دينه الذى أحبّه واجتباه (اختاره) واستخلصه وارتضاه ، واختاره واصطفاه ، وجعله الدين الذى تعتدُّ به ملائكته وأرسل بالدعاء إليه أنبياءه وهدى له من أراد إكرامه وإسعاده من خلقه فقال جلّ من قائل : (إن الدين عند الله الإسلام) وقال جلّ وعلا : (ومن يَبْتغِ غير الإسلام دينًا فلن يُقْبَلَ منه) وقال : (ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل) . فبهذا الإسلام والدخول فيه والعلم به وأداء شرائعه والقيام بمفروضاته وصلت ملائكته ورسله إلى رضوان الله ورحمته ، وجواره فى جَنّته ، وبه تحرّزوا من غضبه وعقوبته ، وأمنوا نكال عذابه وسطوته » .

فقال المنصور : حَسْبُكَ يا مسعدة ، اجْعَلْ هذا صدرَ الكتاب إلى أهل الجزيرة بالإعذار والإنذار . وفى جوانب من التحميد أسجاع مما يدل على القصد إلى العناية الفنية وأن الكاتب يريد أن يأسر الأسماع بجمال الجرس والأداء.

ومن كُتّاب المنصور أيضا يوسف[1] بن صُبَيْح ، وكان يكتب ، فى ديوان الكوفة لبنى أمية ، ثم كتب لعبد الله بن على عم المنصور فى مطلع الدولة العباسية ، حتى إذا أخفقت ثورته على ابن أخيه واستتر بالبصرة عند إخوته لجأ يوسف إلى أصحابه من الكتاب فى ديوان المنصور ، فألحقوه به . ويظهر أنه ظل يعمل فى ديوان الخلافة ، حتى إذا كان البرامكة قربوه ، فكان يختلف بين دواوينهم ودواوين الرشيد ، ومن مأثور ما يُرْوَى له رسالة قصيرة كتبها عن عبد الله بن على إلى ابن أخيه السفاح يعزيه عن ابن له على هذا النمط[2] :

« أما بعد فإن أحق الناس بالرضا والتسليم لأمر الله جلّ وعزّ مَنْ كان إماما لخلق الله وخليفةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتعزّ أميرَ المؤمنين بفهمك ، وارجعْ فى وَعْدِ الله جَلّ وعز من الصابرين إلى علمك » .

ومن الكتّاب لعصر المنصور جبل بن يزيد كاتب عمارة بن حمزة وفيه يقول صاحب الفهرست : « كان مترجمًا وكان من معدودى البلغاء والبرعاء[3] » وقد

---

(١) انظر فى ترجمته الأوراق للصولى (أخبار الشعراء) ص ١٤٦ والجهشيارى ١٣١ ، ١٧٥

(٢) جمهرة رسائل العرب ٩/٣ .

(٣) الفهرست ص ١٧١ .

احتفظ له ابن طيفور فى كتابه « اختيار المنظوم والمنثور » بطائفة بديعة من رسائله، منها رسالة كتب بها إلى المهدى يعزيه عن أبيه ويهنئه بالخلافة، ويظهر أنه كتبها عن عمارة بن حمزة وفيها يقول[1] :

« أعظِمْ بالمصيبة مصيبةً نزلتْ ، وأعظم بالنعمة نعمةً حدثتْ ، وإن أحق من انتصح لله فى قضائه واعترف بوجود حُسْن بلائه من علم أن الفجائع أمرٌ جرتْ به سُنَن الله بين عباده تذكيراً وتحذيراً . . ولولا ذلك لم يكن لمعزّ أن يروم تعزية أمير المؤمنين . . فعظَّم الله على الحادث النازل أجره ، وأحسن على الخلافة عَوْنه ، ثم لا وكله الله فى شىء من الأمور إلى نفسه ، وألهمه العمل بما يرضيه ويبلغ به تأدية حقه ، فيما استرعاه واستحفظه وجعله أهله وأحقَّ به » .

ومن الكتّاب أيضا لعصر المنصور غَسّان بن عبد الحميد كاتب[2] عمه سليمان بن على واليه على البصرة لسنة ١٣٣ للهجرة ، وفى الفهرست أنه كتب لابنه جعفر بن سليمان على المدينة سنة ١٤٦ للهجرة ويقول : « كان بليغا حلو الكلام لطيف المعانى[3] » واحتفظ له أيضًا ابن طيفور بطائفة جيدة من رسائله ، وأكثرها يدور فى التعزية ، ويظهر أنه كان يتقنها إتقانًا بعيداً على نحو ما نرى فى هذه القطعة من رسالة يعزى بها المهدىّ عن أبيه[4] :

« أما بعد فإن الله تبارك وتعالى جعل المقادير علما ثابتاً عنده وكتابًا سابقا منه ، فجرت عليه ومضت به الأمور فى قدرته، والعباد فى قبضته . وليس عَبْدٌ من عبيده إلا وقد كان عمره فى الدنيا موظوفا قبل خلقه ، وكان ما يصيبه منها مكتوبًا عليه قبل أن ينزل به ، ثم جعل أهل عبادته أهل حظوظ متكاملة فى السعادة وأهل فضائل متظاهرة فى الكرامة ، فاصطفى منهم أنبياءه، وانتجب منهم خلفاءه ، وألزمهم على ذلك الموت الذى لا بد منه وجعله الحياة لهم فيما عنده ، فكانت وفاة من توفّى منهم له سعادةً فيما يصيّرهم إليه وحياةَ مَنْ أحيا منهم له كرامة فيما يصطنعهم له ، فيمضى الأول منهم سعيداً ويبقى الباقى منهم مصطنعا فلا تنقطع الدنيا بماضيهم إلا إلى خير منها ولا يبقى باقيهم إلا ليزداد خيراً فيها .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ١٤٨/٣ .
(٢) الجهشيارى ص ١١٠ .
(٣) الفهرست ص ١٨٣ .
(٤) جمهرة رسائل العرب ١٤٩/٣ .

والماضى مفقود مستخلَف منه ، والباقى محمود مرضىّ به ، وأمر الرعية قائم معدول فيــــه » .

ونتتقل إلى عصر المهدى فنلتقى بأبى عبيد الله معاوية[1] بن عبيد الله بن يسار وكان المنصور ضمّه إليه حين أنفذه إلى الرىّ ليكتب له ويصدر عن رأيه ومشورته ، فلما ولى الخلافة استوزره وفوّض إليه الدواوين ، حتى إذا كانت سـنة ١٦٣ صرفه عن وزارته واقتصر به على ديوان الرسائل وما زال يليه حتى سنة ١٦٧ . ثم صرفه المهدى عنه أيضا ، ولم يلبث أن توفى سنة ١٧٠ للهجرة . وكان غزير العلم جذاب الحديث بارعاً فى القول ، ومن طريف ما رواه له الجاحظ قوله : « التماس السلامة بالسكوت أولى من التماس الحظ بالكلام ، وقمع نخوة الشرف أشد من قمع بَطَر الغنى ، والصبر على حقوق النعمة أصعب من الصبر على ألم الحاجة ، وذل الفقر قاهرٌ لعز الصبر، كما أن عز الغنى مانع من الإنصاف إلا لمن كان فى غريزته فضل كرم وفى أعراقه مناسبة لعلو الهمة[2] » . وكان أهل الخراج يعذّبون بصنوف من العذاب : من السباع والزنانير والسنانير ، فكتب إلى جميع العمال برفع العذاب عنهم . وقد اشتهر ببراعته فى التحميدات التى كانت تصدّر بها الرسائل والكتب من مثل قوله[3] :

« الحمد لله الذى جعل الإسلام رحمة قدّمها لعباده قبل خلقه إياهم واستيجابهم إياها منه ، فاصطفاه لنفسه وشرّعه لهم ديناً يدينون به ، ثم جعل تجديد وحيه ومتابعة رسله رحمة تلافاهم بها بعد تقديمها ومنّة ظاهرها عليهم قبل استيجابهم لها ، تطولا على العباد بالنعماء ، وإعذاراً إليهم بالحجج وتقدمةً بالوعد وإنذارا إليهم عواقب سخطه فى المعاد . والحمد لله الذى ابتعث محمداً صلى الله عليه وسلم بهداه وشرائع حقه على فترة من الرسل وطموسٍ من معالم الحق ودروسٍ من سُبل الهدى ، عند الوقت الذى بلغ فى سابق علمه ومقاديره أن يجتبى فيه لدينه الأصفياء ، ويختار له الأولياء ، الظاهرين بحقه القاهرين لمن ابتغى

---

(١) الجهشيارى ص١٢٦ وفى ثنايا حديثه عن أيام المهدى ووزرائه وكتابه ، وانظر فيه كتب التاريخ مثل الطبرى وابن الأثير والفخرى ص ١٣٤ .

(٢) الجهشيارى ص ١٥٦ .

(٣) جمهرة رسائل العرب ص ١٦٥ .

سبيلا غير سبيله ، فعظّم حُرْمته ووسّع حَوْزته وصدع بأمره وجاهد عن حقه في حَوْمات الضلالة وظلمات الكفر بالحق المبين والسراج المنير ، ثم جعله مصدقا لمن سبقه من الرسل ومجدداً لما بُعثوا له وهدى ورحمة » .

ومن البلغاء المجيدين الذين كتبوا له في دواوينه إسماعيل بن صَبيح ومطرّف[1] ابن أبي مطرف العَبْدى الذى كان يتقلد ديوان الخراج ، ويظهر أن أبا عبيد الله كان يستعين به من حين إلى حين في كتابة بعض الرسائل الديوانية ، فمما أثر له رسالة إلى بعض العمال كلها إعذار وإنذار على هذه الشاكلة[2] :

« أما بعد فإن الله حبّب إلى كل مسلم شُعْبة من دينه ، فمنهم من حبّب إليه الصلاة فهو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ، يَحْذَرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه ، ومنهم من حبّب إليه الزكاة فهو ينفق ماله بالليل والنهار سرًّا وعلانية ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم ، ومنهم من حبّب إليه الجهاد فهو بين المسلمين وبين عدوهم يذبُّ عن حريمهم ويقاتل مِنْ دونهم وفاءً بعهد الله وتسليما لبيعة الله ، فأما الراسخون في العلم ممن قد عرف سيرتك ، وما أبدى لهم الله من سريرتك ... فهم يعرضونك على الله في أدبار السجود وعند إدبار النجوم ويسألونه بآلائه مخلصين وبأسمائه مُلْحفين أن يصيبك بعذاب من عنده أو بأيديهم ، لما استحلّت جنودك من سفك الدماء ، وأباحت رسلك من حُرَم النساء ، ولظلمك اليتامى وافترائك على ذوى القُرْبى وتعريضك إياهم فى فتوحك للعقاب والهلكة والخلاف والمعصية ، فويل لك ولكتّابك مما كتبتْ أيديكم وويل لكم مما تكسبون ، وقد وردتْ كتبك — بحمد الله — من أمير المؤمنين — على حلم لا يوهنه الغضب وعلى عمل لا يغيره الكذب وعلى إيمان لا يستخفّه الذين لا يوقنون » .

وواضح كثرة اقتباساته من ألفاظ الذكر الحكيم ، من مثل قوله تعالى : (أمَّنْ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما) وقوله : (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية) وقوله : (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة

---

(١) انظر فى أخباره ترجمة ابنه عمر بن مطرف فى معجم الأدباء ١٦/٧٢ والجهشيارى ص ١٦٦ .

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣/٢١٣ .

الله وتثبيتاً من أنفسهم . .) وقوله : (ومن الليل فسبحه وأدبار السجود) (ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) وقوله : (ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) وقوله جل ذكره : (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) . وقد توفى مطرّف سنة ١٦٤ للهجرة وكان له ابن كاتب يسمى عمر[١] تقلد ديوان المشرق للمهدى والهادى وقلّده الرشيد ديوان الأزمّة .

ومن الكتاب الذين اشتهروا بالبلاغة فى عصر المهدى ، وربما لحقته هذه الشهرة فى عصر المنصور محمد[٢] بن حجر كاتب ولاة أرمينية والشام ، واتخذه العباس بن محمد أخو المنصور كاتباً له ، ولعله تعرف عليه فى أثناء نهوضه بقيادة الجيوش فى غزو الروم ، وقد كتب عنه رسالة إلى المهدى حين جعل ابنه الرشيد ولى عهده بعد أخيه الهادى سنة ١٦٣ وفيها يوثّق البيعة لولى العهد الجديد على هذا النمط[٣] :

« قد أتتنا بيعة هرون على حين ظمأ إليها وتطلُّع نحوها ، فتبادرتْها أكفُّنا ، وأسرع إليها شاهدنا وغائبنا وبايعنا بيعة رضوان من الله بصحة من نيّاتنا وسلامة من صدورنا ، مستبشرين ببيعتنا راغبين فيما صَفَقت[٤] عليه أيماننا ، عارفين بأنها مُفْتَتَحُ نعمة ومقدمة فضيلة ودرجة فى الخير رفيعة مقدمين للسرور بها نُصْحَ الجُيوب[٥] باذلين للرجاء فيها ثمار القلوب » .

ونمضى إلى عصر الرشيد ، ويلقانا يحيى[٦] البرمكى ، أحد من جمع جمعاً رائعاً بين ثقافة العرب وثقافة الفرس ، وكان قلده المهدى الكتابةَ لابنه ، منذ جعله ولىَّ عهده ، والقيامَ على نفقاته وتدبير أمر الجيوش التى كان يقودها الرشيد ضد الروم . وحَسُنَ أثره عنده إلى أقصى غاية حتى إذا ولى الخلافة قلده أمور الرعية وسلمه خاتم الخلافة يأمر وينهى كما يشاء ويستعمل على الولايات والأعمال

---

(١) انظر ترجمته فى ياقوت ١٦/٧١ والفهرست ص ١٨٤ .
(٢) انظر ترجمته فى الفهرست ص ١٧٢ .
(٣) جمهرة رسائل العرب ٣/١٦٩ .
(٤) صفق يده بالبيعة : ضرب يداً بيد دلالة على التزامها .
(٥) ناصح الجيب : ناصح القلب والصدر .
(٦) انظر فى ترجمة يحيى كتب التاريخ فى خلافة الرشيد من مثل الطبرى وابن الأثير واليعقوبى وراجع الفخرى والجهشيارى ص ١٥٠ ، ١٦٨ وفى أيام الرشيد ، وراجع فى بلاغته وبلاغة أبنائه العقد الفريد ٥/٥٨ .

ويعزل كما يريد ، ولم يلبث الرشيد أن ولى ابنه جعفراً على المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية وولّى ابنه الفضل على المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك ، وسبق أن تحدثنا عن ذلك كله فى الفصل الأول من فصول هذا الجزء، ومضى ما نهض به البرامكة فى الشئون الإدارية والثقافية إلى أن نكبهم الرشيد فى سنة ١٨٧ للهجرة إذ أمر بقتل جعفر وحبس أبيه وأخيه الفضل حتى ماتا فى الحبس .

وكان يحيى سَيوساً حصيفا دقيق الحس مهذب الذوق رقيق الشعور ، وحوّل مجلسه كما أسلفنا إلى ندوة علمية أدبية كبرى يتحاور فيها كبار العلماء من كل صنف ، وكان آية فى البلاغة والإيجاز ، وتوقف الجهشيارى مرارا ليروى بعض المأثور من كلامه من مثل قوله : « البلاغة أنْ تكلم كلَّ قوم بما يفهمون » وقوله لجعفر ابنه : « يا بنى انْتَقِ من كل علم شيئًا فإنه من جهل شيئا عاداه وأنا أكره أن تكون عدوًّا لشيء من الأدب » وقوله : « الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون » وقوله : « العَجَبُ للسلطان كيف يحسن ، ولو أساء كل الإساءة لوجد من يزكّيه ويشهد بأنه محسن » وقوله : « لست ترى أحداً تكبّر فى إمارة إلا وقد دل على أن الذى نال فوق قدره ، ولست ترى أحدا تواضع فى إمارة إلا وهو فى نفسه أكبر مما نال فى سلطانه » . وكتب إلى الرشيد لما نكبه وسجنه رسالة بليغة ، وفيها يقول[1] :

« من شخص أسلمتْه ذنوبه وأوثقتْه عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه ، ومال به الزمان، ونزل به الحدْثان[2] ، فحلّ فى الضيق بعد السعة وعالج البؤس بعد الدّعة ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهاد بعد الهجود[3] ، ساعته شهر ، وليلته دهر ، قد عاين الموت ، وشارف الفَوْت ، جزعا لموجدتك يا أمير المؤمنين وأسفا على ما فات من قربك » .

---

(١) العقد الفريد ٥/٦٨ وغرر الخصائص الواضحة للوطواط (طبعة بولاق سنة ١٢٨٤هـ) ص ٤٠٦ و جمهرة رسائل العرب ٣/٢٢١ .

(٢) الحدثان : نوازل الدهر ونوائبه .

(٣) الهجود : النوم .

وفى هذه العبارات المحبوكة المسجوعة ما يدل على عناية يحيى بتعبيره وحَوْكه الفنى ، ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن البرامكة كانوا من أهم العوامل فى شيوع السجع فى الكتابة الديوانية ، وحقا أنه لا يطرد دائمًا فى كتاباتهم ، ولكن نحسُ ميلهم الواضح له هم وبعض كُتَّابهم ومَنْ كانوا يكتبون إليهم .

وكان جعفر[1] لا يقل عن أبيه بياناً وفصاحة وبلاغة ، إن لم يتقدم فى ذلك خطوات ،وكان مثقفًا بمعارف عصره ثقافة واسعة وضمَّه أبوه إلى أبى يوسف القاضى فعلَّمه وفقَّهه حتى صار نادرة زمنه . وحظى عند الرشيد حظوة كبيرة لم ينلها أحد قبله ، حتى قتله سنة ١٨٧ لما ثبت عنده من إطلاقه يحيى بن عبدالله العلوىّ من سجنه ، على نحو ما مر بنا فى الفصل الأول . وكانت تُضْرَبُ ببلاغته الأمثال ووصفه ثمامة بن أشرس فقال: « قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وإفهاما يغنيه عن الإعادة ، ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة[2] » . ومن رسالة له فى العفو إلى أحد عماله[3] :

« عندنا الاغتفار لما اقترفت ، وتصديقُ كل ما قلت ، واحتججت بذكره ، واعتذرت بوصفه ، والإسقاط لما جحدته ، والإكذاب للجور الذى اقترفته ، والرجوع عما أنكرته ، والزيادة فيما اخترته ، استدعاءً لك وإن انصرفت ، وحياطة لما قدمت وإن ذُممتَ ، وإيثاراً للإغضاء والاحتمال فإنهما أبلغ فى الإصلاح ، وأنجع فى الاستنجاح ، وأسرع فى التعليم ، وأكبر فى التقويم ، إن احتيج إليه فى مثلك ممن تؤمن عليه قريحته ، وترده إلى الاستقامة تجربته »

والرساله مبنية على السجع ، وكان جعفر يؤثره فى كتاباته ، مبالغة منه فى التأنق والتنميق ، وهو تنميق كان يطلبه فى كل ما يتصل به حتى فى ثيابه[4] .

وكثير هم الكتاب البلغاء الذين كتبوا فى دواوين الرشيد والبرامكة وفى مقدمتهم

---

(١) انظر فى جعفر كتب التاريخ فى خلافة الرشيد والجهشيارى (انظر الفهرس) .

والعقد الفريد ٥ / ٥٨ .

(٢) البيان والتبيين ١ /١٠٦ . وانظر وصف سهل بن هارون لبلاغته فى زهر الآداب ٢ / ٦٩

(٣) جمهرة رسائل العرب ص ١٩٠ .

(٤) الجهشيارى ص ٢١٥ .

إسماعيل[1] بن صبيح وكان يكتب فى أول حياته لأبى عبيد الله معاوية بن عبيدالله ابن يسار وزير المهدى ورئيس دواوينه ، ولما ألحق المهدى يحيى البرمكى بابنه الرشيد اتخذه كاتبه ، حتى إذا ولى الهادى توسط له عند وزيره إبراهيم الحرانى فقلده ديوان زمام الشام وما يليها ، ولما صارت الأمور بيد يحيى فى عصر الرشيد قلده ديوان الخراج ، ولم يلبث أن قلده ديوان الرسائل ، وظل على هذا الديوان مدة فى عصر الأمين . ومما يؤثر له رسالة عن الرشيد إلى جميع العمال بما عقد بين ولديه الأمين والمأمون من العهد بعده وتعليق هذا العهد فى بيت الله الحرام ، وفيها يقول[2] :

« قد كان من نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوام المسلمين ما تولى الله من محمد وعبد الله ابنى أمير المؤمنين من تبليغه بهما أحسن ما أملّت الأمة ومدّت إليه أعناقها . وقذف الله لهما فى قلوب العامة من المحبة والمودة والسكون إليهما والثقة بهما لعماد دينهم ، وقوام أمورهم ، وجمع ألفتهم ، وصلاح دهمائهم ، ودفع المحذور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم ، حتى ألقوا إليهما أزمّتهم وأعطوهما بيعتهم وصفقات أيمانهم بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلّظة عليهم . أراد الله فلم يكن له مَرَدّ ، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته ، ولا على صَرْفٍ له عن محبته ومشيئته ، وما سبق فى علمه منه . وأمير المؤمنين يرجو تمام النعمة عليه وعليهما فى ذلك وعلى الأمة كافة ، لا عاقب لأمر الله ولا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه » .

ومن الكُتّاب البلغاء الذين اتصل عملهم فى الدواوين من عهد المنصور حتى هذا العهد يوسف بن صبيح ، وقد عرضنا له آنفا ، وفى الجهشيارى أن يحيى البرمكى أمره بالكتابة إلى الآفاق بتولية الرشيد[3] ، وفى الأوراق للصولى رسالة له عن الفضل بن يحيى فى حاجة لشخص إلى أحد العمال ، وهى تجرى على هذه الشاكلة[4] .

---

(١) انظر فى اسماعيل الجهشيارى ص ١٥٠ ، ١٦٨ ، ٢٥٧ ، ٢٧٧ ، ٣٠١ وفى مواضع متفرقة .

(٢) الطبرى ٦/٤٨١ وما بعدها .

(٣) الجهشيارى ص ١٧٥ .

(٤) الأوراق للصولى (قسم الشعراء) ص ١٥٨ .

« فلان قد استغنى باصطناعك إياه عن تحريكى لك بأمره ، لأن الصنيعة حُرْمة المصطنَع ووسيلة إلى مصطنعه سيَّما عند من يحسن الصنيعة ويستتمها ، مستثبتا للشكر عليها والثناء الجميل بها ، بسط الله بالخير يديك ، ووصل به أسبابك وأعانك عليه وجعلك من أهله » .

ومن الكتاب المفوَّهين حينئذ محمد بن الليث ، وفيه يقول صاحب الفهرست : « كتب ليحيى بن خالد . . ويعرف بالفقيه وكان بليغا مترسلاً كاتبًا فقيها متكلما بارعا[1] » . ومن أروع ما أُثر عنه رسالته[2] التى كتبها للرشيد إلى قسطنطين السادس إمبراطور بيزنطة ، وهى تمتد إلى نحو سبعين صحيفة ، وفيها يدعوه الرشيد إلى الإسلام ، وقد أفاض ابن الليث فى وصف رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وما طُوِى فيها من الهدى للبشر وإنقاذهم من ظلمة الضلال ، كما أفاض فى وحدانية الله ورسالات الأنبياء وهيمنة الإسلام وسلطانه على تلك الرسالات والرسالة أشبه بدفاع قوى عن الإسلام وشريعته ، وكأن ابن الليث استمد فيها كثيراً مما كان يجادل به المتكلمون النصارى وأصحابَ الملل والنحل من حوله . وهو تارة يجادل بالمنطق وتارة يجادل بآيات الرسالة الباهرة ، ناقضًا ما يردده الرهبان من أن عيسى ابن الله وما يكررونه من نظرية الأب والابن والروح القدس ، مناقشا فى ثنايا ذلك آيات من الإنجيل ومن العهد القديم ، وملوِّحا بما سينزله الرشيد فى ديارهم من خراب ودمار ، وأن الروم لو تابعوه لعمَّ مساكينهم وزُرَّاعهم وفقراءهم وضعفاءهم من العدل ما يجعلهم يعيشون فى أمن وسلام ، ولذاقوا لذة الخفض ودعة الحال ورفاهية العيش والرخاء ، ولاستقاموا على الشريعة الصحيحة والتوحيد القويم . ويروى الرواة أن جعفر بن يحيى كتب إلى محمد بن الليث يستوصفه الخطَّ ، فكتب إليه رسالة بديعة فى الخط والقلم على هذا النمط[3] :

« أما بعد فليكن قلمك بحريًّا ، لا متينا ولا رقيقا ما بين الرقة والغلظ ، ضيق الثقْب ، وابْرِه بَرْيًا مستويا كمنقار الحمامة ، واعطِفْ بطنه ورَقِّقْ شفتيه ، وليكن مدادُك فارسيًّا خفيفا إذا وزنته ، وانقعْه ليلة ، ثم صَفِّه فى

(١) الفهرست ص ١٧٥ .

(٢) انظر فى هذه الرسالة جمهرة رسائل العرب ٢٥٢/٣ .

(٣) العقد الفريد ٤/١٩٥ .

الدَّواة ، وليكن قرطاسك رقيقا مستوىَ النَّسْج ، تخرج السَّحاة(١) مستوية من أحد الطرفين إلى آخره ، فليست تستقيم السطور إلا فيما كان كذلك ، وليكن أكثر تمطيطك فى طرف القرطاس الذى فى يسارك ، وأقله فى الوسط ، ولا تَمْطُطّ فى الطرف الآخر ، ولا تمط كلمة ثلاثة أحرف ولا أربعة ، ولا تترك الأخرى بغير مَطّ ، فإنك إذا قرنت القليل كان قبيحًا ، وإذا جمعت الكثير كان سَمِجًا . ثم ابتدىء الألف برأس القلم كله واخْطُطْه بعرضه واختمه بأسفله . واكتب الياء والتاء والسين والشين والمطّة العليا من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين ورأس كل مُرْسَل برأس القلم . واكتب الجيم والحاء والخاء والدال والذال والراء والمطة السفلى من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين بالسن السفلى من القلم . وامْطُطْ بعرض القلم، والمط نصف الخط ، ولا يقوى عليه إلا العاقل ، ولا أحسب العاقل يقوى عليه أيضا إلا بالنظر إلى اليد فى استعمالها الحركة ، والسلام » .

وإنما نقلنا هذه الرسالة بطولها ، لندل على مدى احتفال الكتاب باختيار الأقلام وبجودة الخط ، حتى تجرى الأقلام فى القراطيس جريان الماء ، وحتى يروع الخط برونقه وبهائه ، وحتى الحروف ومطاتها العليا والسفلى ، كل ذلك يُكْتب بقسطاس. ولا بد من أن تكون السطور معتدلة متناسقة، وقطع القراطيس مقطوعة بانتظام ، حسنة النسج والهندام ، ولا بد للكاتب من أن يراعى مواضع سِنّ القلم من كتابة الحروف ،ولا بد من أن يراعى التوازن فى مدات هذه الحروف ومطاتها . وبأيدى محمد بن الليث وغيره من الكتاب فى العصر العباسى تطوّر الخط العربى وارتقت صناعته رقيا بعيداً ، وهو رقى كان يرافق احتفالهم بألفاظهم وأساليبهم ومعانيهم حتى تصبح الكتابة كأنها وَشْىٌ خالص ، وَشْىٌ فى العين ، ووَشْىٌ فى السمع ، ووَشْىٌ فى العقل والذهن .

وكان يكتب لجعفر بن يحى البرمكى أنس بن أبى شيخ ، وقد سلكه ابن النديم فى البلغاء العشرة الأُوَل فى العصر ، وفيه يقول الجاحظ : « كان زكيا فَهِمًا نَقِى الألفاظ جيد المعانى حسن البلاغة(٢) » وعدّه الرشيد شريك جعفر

(١) السحاة : القطعة من القرطاس .
(٢) الجهشيارى ص ٢٣٩ .

فى إثمه ، فلما قتله أذاقه نفس المصير وصلّبه . ويؤثر من تحميداته قوله[1] :

« الحمد لله الذى بالقلوب معرفته ، وبالعقول حجّته ، الذى بعث محمداً صلى الله عليه أميناً فوفّى له ، ومبلّغاً فأدّى عنه ، فحجّ به المنكر ، وتألّف به المدبر ، وثبّت به المستبصر ، إلى أن توفّاه على منهاج طاعته ، وشريعة دينه ثم أورثكم عهده ، وخصّكم بكلمة التقوى ، وجعلكم الأمة الوسطى » .

والسجع واضح فى هذا التحميد ، ولعل فى ذلك ما يؤكد من بعض الوجوه ما قلنا من أن البرامكة أشاعوا فى كتّاب دواوينهم ذوق التسجيع ، وإن لم يطّرد فى جميع رسائلهم وآثارهم ، لكنه على كل حال أخذ يشيع فى كتاباتهم ، وقد عمل فى دواوينهم ودواوين الرشيد كثير من الكتّاب الذين لمعت أسماؤهم فيما بعد مثل الفضل بن سهل وأخيه الحسن ومثل سهل بن هرون وعمرو بن مسعدة .

ومن الكتاب الذين اشتهروا فى عهد الرشيد قمامة بن أبى يزيد ، وكان يكتب أولاً لصالح[2] بن على ، ثم أصبح كاتباً للقاسم[3] بن الرشيد ، ثم اختص بعبد الملك بن صالح والى الرشيد على الجزيرة والشام ومصر . وسعى على عبد الملك إلى الرشيد وثبت كذبه فقتله صبرا سنة ١٧٨ للهجرة . وكان لسناً فصيحا بليغاً ، ومما أثر له قوله من رسالة وجهها — فيما يبدو — عن عبد الملك بن صالح إلى الرشيد[4] :

« كل ما قبلنا وما يتناهى إلينا من ثغور أمير المؤمنين وأطرافه وبلاده أقصاها وأدناها فى صلاح ذلك كله واستقامته وهدوئه على أفضل ما عوّد الله أمير المؤمنين فيه العلوّ والعافية ، وأنا أحتذى فيه من أمير المؤمنين أمرين : إما تقدمة عرّفنى فيها رأيه فأنا ألزمها ولا أعدل عنها ، وإما أثر قد نهجه أمير المؤمنين فأنا أركبه وأتبعه ولا أفارقه . فعلى هذا — بحول الله — قوتى ومعتمدى ، قد كفى الله به فى الهداية ، وأعطى فيه الخير والمنّ والسعادة ، فله الحمد والشكر » .

وممن عُرفوا لعصر الرشيد بالكتابة البليغة جعفر بن محمد بن الأشعث ، وكان

---

(١) جمهرة رسائل العرب ١٩١/٣ .

(٢) الجهشيارى ص ٢٦٢ وانظر الفهرست ص ١٧٣ .

(٣) الجهشيارى ص ٢٦٥ .

(٤) جمهرة رسائل العرب ٢٣٨/٣ .

الرشيد جعل ابنه الأمين فى حجره ثم جعله فى حجر الفضل[1] بن يحيى البرمكى ، وولاه على خراسان ثم صرفه عنها سنة ١٧٣ للهجرة[2] ، ولعله لذلك كله كان يضطغن على يحيى البرمكى ويُرْوَى أن يحيى حاول أن يسند إليه بعض الأعمال فكتب إليه يستعفيه برسالة يقول فيها[3] :

« شكرى لك على ما أسألك الخروج منه شكر من نال الدخول فيه ، فأما عذرى فى تطويل الكتاب إليك فلم يذهب . على أن وجوه الحوائج قد يكثر الكلام فيها وتشتد قراءتها ، وإن من الحق على الراغب الاكتفاء ببعض ما بلغ ، وإن نفسى جاشت بعظيم حاجتها » .

ومن الكتّاب لعصر الرشيد أيضا عمر بن مهران كاتب[4] الخيزران أم الرشيد ، وقد ولاه الرشيد على خراج مصر سنة ١٧٦ للهجرة وكان بعض أهلها قد اعتادوا المَطْل بالخراج وكسره ، فأحضر عمر أشدهم مدافعة وإلطاطا[5] فاستمهله مدة ، فأمهله ، ثم طالبه ثانية ، فأقسم عمر أن لا يؤديه إلا ببغداد . وسرعان ما قدم له الخراج فلم يقبله منه ، وحمله إلى بغداد فأدّى الخراج بها ، وخاف الماطلون ، فأدّوا خراجهم ، وكتب عمر مع الرجل إلى الرشيد[6] :

« إنى دعوت بفلان وطالبته بما عليه من الخراج فلوانى واستنظرنى[7] ، فأنظرته ثم دعوته فدافع ومال إلى الإلطاط ، فآليت أن لا يؤديه إلا فى بيت المال بمدينة السلام ، وجملة ما عليه كذا وكذا ، وقد أنفذته مع فلان ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب إلىّ بوصوله فعل إن شاء الله » .

ونخرج إلى عصر الأمين ، ويتولى وزارته ورياسة دواوينه الفضل بن الربيع ، ويظل إسماعيل بن صبيح على ديوان الرسائل ، ويروى الطبرى أنه لما عزم الأمين على خلع المأمون أشار عليه إسماعيل أن يكتب إليه بحاجته له للاستعانة برأيه ويسأله القدوم عليه ، فقال الفضل للأمين : القولُ ما قال يا أمير المؤمنين ، قال

(١) الجهشيارى ص ١٩٣ .

(٢) النجوم الزاهرة ٢/٧٢ .

(٣) كتاب الصناعتين لأبى هلال (طبعة الحلبى) ص ٣٣٨ وانظر الجهشيارى ص ١٧٩ .

(٤) الجهشيارى ص ٢١٨ وانظر النجوم الزاهرة ٢/٧٨ وما بعدها .

(٥) إلطاطاً : جحوداً ومماطلة .

(٦) طبرى ٦/٤٥٩ .

(٧) لوانى : مطلنى . استنظرنى : استمهلنى وأجلنى .

الأمين فليكتبْ بما رأى ، فكتب إليه الرسالة التالية[١] :

« من عند الأمين محمد أمير المؤمنين إلى عبد الله بن هرون أمير المؤمنين ، أما بعد فإن أمير المؤمنين روّى[٢] فى أمرك والموضع الذى أنت فيه من ثَغْرك وما يؤمل فى قربك من المعاونة والمكانفة[٣] على ما حمّله الله وقلّده من أمور عباده وبلاده ، وفكر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجب لك من الولاية وأمر به من إقرارك على ما تصيّر إليك منها . ورَجَا أمير المؤمنين أن لا يدخل عليه وَكَفٌ[٤] فى دينه ، ولا نكث فى يمينه إذ كان إشخاصه إياك فيما يعود على المسلمين نفعه ، ويصل إلى عامتهم صلاحه وفضله . وعلم أمير المؤمنين أن مكانك بالقرب منه أسدُّ للثغور ، وأصلح للجنود ، وآكد للفَيْء ، وأردُّ على العامة ، من مقامك ببلاد خراسان ، منقطعاً عن أهل بيتك ، متغيباً عن أمير المؤمنين وما يجب الاستمتاع به من رأيك وتدبيرك . . فاقْدم على أمير المؤمنين على بركة الله وعَوْنه ، بأبسط أمل ، وأفسح رجاء ، وأحمد عاقبة ، وأنفذ بصيرة ، فإنك أولى من استعان به أمير المؤمنين على أموره ، واحتمل عنه النَّصَب فيما فيه صلاحُ أهل بيته وذمته ، والسلام .

والرسالة تحمل خصائص إسماعيل وما كان يعنى به فى كتابته من إجادة القول وإتقانه ، وهى إجادة تُرَدُّ إلى دقته فى اختيار الألفاظ والصياغات بحيث تصبح مظهراً للجمال الفنى الأدبى ، وبحيث يجد فيها السامع من لذة الكلام ما يمتعه ويروعه .

ومن الكتّاب البلغاء الذين عملوا فى دواوين الأمين موسى[٥] بن عيسى بن يزدانيروذ ، وقد احتفظ ابن طيفور برسالة له إلى الأمين يتحدث فيها عن موسم الحج وسلامته ودَعته ، وهى تجرى على هذا النمط[٦] .

« أما بعد فإن الله بحمده ومَنّه هو ولىّ أمير المؤمنين وولىّ النعمة عليه فيما حمّله واستحفظه ، وجعله القائم به والمحافظ عليه ، من ولاية دينه ورعاية أهله ،

---

(١) الطبرى ٧/١١ .
(٢) روى : فكر .
(٣) المكانفة : المساعدة .
(٤) وكف : عيب وفساد .
(٥) الجهشيارى ص ٢٨٩ .
(٦) جمهرة رسائل العرب ٣/٣٥٠ .

والمرجوُّ لإتمام ذلك بمنّه ورحمته . وإنى كتبت إلى أمير المؤمنين يوم النَّفْر الأول ، وقد قضى الله مناسكنا ، وتمّم حجّنا ، وأرانا فى مواقفنا وإفاضتنا ومَنْ حضر الحج معنا من رعيّة أمير المؤمنين أفضل ما لم يزل يُبْلى[1] الله أمير المؤمنين ويعوّده ويُبْلى الرعية فى خلافته من السلامة والعافية والتوفيق والكفاية ، والله المحمود. ولم أر موسما كان أعمّ عافية وسلامة ، وأحسن هَدْيًا ودعة ، وأكثر داعيا لأمير المؤمنين وولىّ عهده بطول البقاء من موسم الناس فى عامهم هذا بنعمة الله وفضله . أحببتُ الكتاب إلى أمير المؤمنين لمعرفتى بعنايته وتطلعه إلى عمله ، ليُسَرَّ به ، ويحمدَ الله عليه ويشكره ، فإنه يحب الشاكرين » .

وسرعان ما يخلف المأمون الأمين ، وفى عصره تبلغ الكتابة الديوانية الذروة المنشودة ، فقد تكاثر الكتاب البارعون وتكاثرت آثارهم ، واتضح فيها نزعة قوية إلى العناية بالجمال الفنى والتدقيق فى المعانى أشد التدقيق . وأول من نلقاه من هؤلاء الكتاب البارعين الفضل بن سهل وأخوه الحسن وزيرا المأمون ، وكان سهل مجوسيًّا وأسلم على يد يحيى البرمكى وأصبح من أتباعه ، فأحضر له ابنيه الفضل والحسن ، فأعجب بهما يحيى وطلب إلى الفضل أن ينقل له كتابا من الفارسية إلى العربية فأعجب بنقله وجودة عبارته ووصله بابنه جعفر ووصل الحسن بابنه الفضل[2] ، ولم يلبث جعفر أن ضَمّ الفضل إلى المأمون ، فأسلم على يديه وغلب عليه بحصافة رأيه وسعة عقله وبلاغته ، حتى إذا أنفذه أبوه إلى مرو أصبح أمر المأمون كله بيده . ولما احتدم النزاع بينه وبين الأمين وخلعه من ولاية العهد قام على تدبير أموره خير قيام ، من تنظيم للجيوش بقيادة طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ، ومن حسن سياسة ودقة تصريف لشئون المأمون فى ولايته حتى تم له القضاء على أخيه وصارتْ له الخلافة . وقد عقد له المأمون فى سنة ١٩٦ والنزاع بينه وبين أخيه على أشده على الشرق طولا وعرضًا ولقّبه ذا الرياستين : رياسة السيف ورياسة القلم والتدبير ، ويظهر أنه كانت فيه ميول شيعية فقد

---

(١) يبلى هنا : ينعم ويحسن .

(٢) انظر فى ترجمة الفضل بن سهل كتب التاريخ والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٢٩ وفى مواضع متفرقة والفخرى ص ١٦٥ وزهر الآداب ١٤/٢ .

دفع المأمون فى سنة ٢٠١ إلى البيعة بولاية العهد من بعده لعلوى كان يعظمه المأمون ويبجله ويتخذه رفيقا ، هو على الرضا ، وكتب بذلك إلى الآفاق . فغضب آله العباسيون ببغداد ، وبايعوا إبراهيم بن المهدى بالخلافة ، فعزم المأمون على المبادرة إلى بغداد ، وفى طريقه إليها قُتل الفضل بسَرَخْس ، وفتك المأمون بقتلته ، ولم يلبث على الرضا أن توفّى بطوس ، وعادت ولاية العهد إلى العباسيين . وتُرْوَى للفضل كلمات كثيرة مأثورة ، ومما رُوى له من رسائله الرسالة التالية وقد وجّه بها مع جائزة منحها لبعض خاصّته ، وفيها يقول[1] :

« قد وجهت إليك بجائزة لا أعظمها تكثّراً ، ولا أقلّلها تجبراً ، ولا أقطع لك بعدها رجاء ، ولا أستثيبك عليها ثناء » .

أما الحسن[2] أخوه فقد ولاه المأمون دواوين الخراج فى سنة ١٩٦ للهجرة ، وفى سنة ١٩٩ جعله نائبه فى بغداد ، فقدم إليها وفرق عُمّاله على البلاد ، ولما مات أخوه الفضل اتخذه وزيراً له بعده ، حتى إذا تزوج ابنته بوران سنة ٢٠٧ طلب منه أن يعتزل الوزارة ، فأعفاه . وظل وافر الحُرْمة حتى توفى بسَرَخْس سنة ٢٣٦ للهجرة . وكان لا يقلّ عن أخيه لَسَنًا وبلاغة ، وله رسالة بديعة كتب بها إلى محمد بن سَماعة قاضى بغداد فى اختيار شخص يتولّى بعض أموره وقد وصف له فيها الخصال التى ينبغى أن يشتمل عليها ، وهى تجرى فى هذه الصورة[3] :

« أما بعد فإنى احتجت لبعض أمورى إلى رجل جامع لخصال الخير ذى عفّة ونزاهة طُعْمَة[4] ، قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب ، ليس بظنين فى رأيه ، ولا بمطعون فى حسبه ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قُلّد مهمًّا من الأمور أجزأ[5] فيه ، له سِنٌّ مع أدب ولسان ، تُقْعده الرزانة ، ويسكّنه الحلم ، قد فُرّ[6] عن ذكاء وفطنة ، وعَضّ على قارحة[7] من الكمال ، تكفيه

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢/٣٤٢ .

(٢) انظر فى الحسن كتب التاريخ والفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٦٧ والجهشيارى ص ٢٣٠ وفى مواضع متفرقة وزهر الآداب ٤/٢٥ .

(٣) الأمالى للقالى ١/٢٥٣ .

(٤) طعمة : مكسب .

(٥) أجزأ : أغنى وكفى .

(٦) فر : اختبر وجرب .

(٧) قارحة هنا : تجربة ناضجة .

اللحظة ، وتُرْشده السكتة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها وقام فى أمورهم فحُمِدَ فيها . له أناةُ الوزراء، وصولةالأمراء ، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيبَ يومه بحرمان غده ، يكاد يسترقُ قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه ، دلائل الفضل عليه لائحة ، وأمارات العلم له شاهدة ، مضطلعا[١] بما استنْهِض ، مستقلا[٢] بما حمل . وقد آثرتك بطلبه ، وحبوتك بارتياده ، ثقة بفضل اختيارك ، ومعرفة بحسن تأتّيك » .

وتلك الخصال فى الواقع كانت حينئذ الخصال المنشودة فيمن يتولّون أعمال الدواوين ، وخدمة الوزراء والخلفاء ، وهى ترينا ما كان يُطْلَبُ فى الكاتب من ثقافة واسعة ومن حصافة وتهذيب فى الذوق وحلم وأناة وذكاء وقدرة على تصريف الأمور وإحسان للجواب ولباقة فى الخطاب وبلاغة فى الكلام بحيث يجذب القلوب والأسماع إليه ، بل بحيث يسترق أفئدة الرجال ويستولى على عقولهم استيلاء .

ومن الكتّاب الذين طارت شهرتهم فى دواوين المأمون أحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة ، وسنتحدث عنهما فى الفصل التالى ، وكان وراءهما كثيرون لم يبلغوا مبلغهما فى الشهرة ، منهم محمد بن يَزْداد « وكان بليغا مترسلا شاعراً » وله رسائل مجموعة[٣] ، ومنهم محمد[٤] بن سعيد ، ومنهم على بن عبيدة الريحانى الكاتب وكان أديباً فصيحا بليغا صنّف الكتب فى الحكم والأمثال واختصّ بالمأمون[٥] .

وفى مقدمة القواد والولاة الذين اشتهروا بالكتابة البليغة فى عصر المأمون طاهر[٦] بن الحسين ، وهو الذى قاد جيوش المأمون ضد أخيه الأمين وحاصره ببغداد حتى ظفر به وقتله فى سنة ١٩٨ للهجرة . وولاه المأمون خراسان والمشرق سنة ٢٠٥ ولم يلبث أن توفى سنة ٢٠٧ ، وله وصية طويلة كتب بها إلى ابنه عبد الله حين ولاه المأمون الرّقة سنة ٢٠٦ وهى أشبه بدستور للحكم القويم والحاكم الرشيد ، وقد وزعها بين ما يجب على الحاكم فى دينه وخلقه وما يجب عليه فى

---

(١) مضطلعاً : ناهضاً .
(٢) مستقلا : محتملا فى قوة .
(٣) الفهرست ص ١٧٩ .
(٤) الفهرست ص ١٨٢ .
(٥) النجوم الزاهرة ٢/٢٣١ وانظر الفهرست ص ١٧٣ وزهر الآداب ٢/١٢٢ .
(٦) انظر فى طاهر كتب التاريخ ووفيات الأعيان لابن خلكان ١/٢٩٥ .

سيرته مع حاشيته وخاصته ومع الجند والرعية ، استهلها بحديثه عما ينبغى على ابنه من تقوى الله وطاعته والأخذ بسنة رسوله واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، ثم نصحه بالاقتصاد فى أموره وعدم الريبة فى عماله مع المسألة عن شئونهم ، وأمَرَه بالحياطة للرعية وإقامة حدود الله ، والنظر فى استصلاح العامة وعمارة ديارهم وبلادهم وانتظام معايشهم ، كما أمره بتفقد الجند ورواتبهم والعناية بهم وبالقضاء الذى به يستقيم العدل والأمن ، والعناية بالخراج وعدم الشطط فى تقديره ، والعناية بأمور الفقراء والمساكين بتعاهد ذوى البؤس منهم واتخاذ دور يأوى إليها فقراؤهم وأطباء يعالجون أسقامهم ، مع العمل بشريعة الله ، ومع تصفح الأعمال والعمَّال وما ينبغى أن يكونوا عليه من العون فى سياسة أمير المؤمنين ، ومن قوله فى تضاعيفها[1] :

« اعلمْ أنك جُعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيًا ، وإنما سُمِّى أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيِّمهم تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم وتنفقه فى قِوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أوَدهم ، فاستعملْ عليهم فى كُوَر عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالرياسة والعفاف ووسِّع عليهم فى الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأُسند إليك ، ولا يشغلنَّك عنه شاغل ، ولا يصرفنَّك عنه صارف ، فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيتَ به زيادة النعمة من ربك وحُسْن الأحدوثة فى عملك واحترزتَ النَّصَحة من رعيتك وأعنتَ على الصلاح فدرَّت الخيرات ببلدك ، وفشت العمارة بناحيتك ، وظهر الخصب فى كُوَرك ، فكثر خراجك وتوفرت أموالك وقويتَ بذلك على ارتباط جندك وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم عن نفسك وكنت محمود السياسة مرضىّ العدل . . واستعمل الحزم فى كل ما أردت ، وباشرْ بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استخارة ربك فى جميع أمورك وافرُغْ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك ، وأكثرْ مباشرته بنفسك ، فإن لغد أمورًا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت ، واعلمْ أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمرُ يومين ، فشغَلك ذلك حتى تُعرض عنه ، .

---

(١) تاريخ الطبرى ٧ / ١٦٠ وما بعدها .

فإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت نفسك وبَدنك وأحكمت أمور سلطانك »

وشاعت هذه الوصية فى الناس ، فكتبوها وتدارسوها ، وسمع بها المأمون ، فطلبها ، ولما قرأها قال ما أبقى طاهر شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البَيْضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به . وأمر أن تكتب منها نسخ وترسَل إلى جميع العمال فى نواحى الأعمال .

وكان ابنه عبد الله[1] بارع الآداب حسن الشعر ، وقد عُنى بتأديبه فى صغره ، واختلافه إلى حلقات المحدثين والفقهاء ، وكانت فيه نزعة قوية إلى الفنون ، فلم يكتف بالشعر ، بل حذق بجانبه الموسيقى ، وروى أبو الفرج أصواتا تؤثر له . وقلده المأمون الأعمال الجليلة ، فجلّى فيها ، وكان أول ما قلّده الجزيرة والرقة ، فقمع المفسدين فيهما ، ثم ولاه مصر سنة إحدى عشرة ومائتين فلمّ ما كان بها من شعث ومهّدها ورتب شئونها ، حتى إذا انتظمت أمورها غادرها سنة اثنتى عشرة ومائتين مستخلفا عليها عيسى بن يزيد الجلودى . وتوفى أخوه طلحة والى خراسان فولاه المأمون عليها سنة ٢١٣ وظلت له ولايتها حتى توفى سنة ٢٣٠ . وكان بحرا فياضًا ، كما كان كاتبا بارعا ، وله أمان طريف[2] كتبه فى ولايته على الجزيرة لنصر بن شبث حين ضيّق عليه وعاذ بالأمان وطلبه ، ويقال إنه لم يطلبه إلا بعد أن كتب إليه وقد اعتصم منه بأحد الحصون[3]

« اعتصامك بالقِلال[4] ، قيّد عزمك عن القتال ، والتجاؤك إلى الحصون ، ليس ينجيك من المَنون ، ولستَ بمفلت من أمير المؤمنين فإما فارس مطاعن أو راجل مستأمن » . فلما قرأ هذه الرسالة حَصِره الرعب عن الجواب ، فلم يلبث أن طلب الأمان وخرج من حصنه إلى عبد الله بن طاهر مستأمنا صاغراً ، فوجّهه به إلى بغداد .

ونمضى إلى عصر المعتصم والواثق ، وفيه يتألق فى الكتابة البليغة اسم ابن

---

(١) انظر فى ترجمة عبد الله كتب التاريخ والنجوم الزاهرة ٢/١٩١ وما بعدها ووفيات الأعيان /٣٢٧ .

(٢) تاريخ الطبرى ٧/١٧٣ .

(٣) زهر الآداب ٤/١٢٦ .

(٤) القلال : أعالى الجبل .

الزيات وزيرهما ، وسنخصه بحديث مفصل فى الفصل التالى ، وممن اشتهر ببلاغته حينئذ إبراهيم بن العباس الصولى ، وقد عمل فى دواوين المأمون ووزيره الحسن بن سهل، وتولى الأهواز حينا من الزمن وعزله عنها ابن الزيات ، فوجَّه إليه باستعطافات طريفة ، ونحن نؤخر الحديث عنه إلى العصر العباسى الثانى ، إذ تولى ديوان الرسائل فيه للمتوكل وكتب عنه كثيراً ، مما يجعله أحق بوضعه فيه . وقد تولى ابن الزيات وزارة المعتصم وعلى ديوان الرسائل عبد الله بن الحسن الأصبهانى ويروى صاحب[1] الأغانى أنه كتب عن المعتصم إلى قائده وواليه على أرمينية خالد ابن يزيد بن مزيد :

« إن المعتصم أمير المؤمنين ينفخ منك فى غير فَحْم ، ويخاطب امرءاً غير ذى فهم » .

فقال محمد بن عبد الملك الزيات : هذا كلام ساقط سخيف جعل أمير المؤمنين ينفخ بالزِّق كأنه حدّاد . وأبطل الكتاب . ثم كتب محمد بن عبد الملك إلى عبد الله بن طاهر :

« وأنت تجرى أمرك على الأربح فالأربح ، والأرجح فالأرجح ، لا تسعى بنُقْصان ، ولا تميل برُجْحان » فقال عبد الله الأصبهانى : الحمد لله ! قد أظهر من سخافة اللفظ ما دل على رجوعه إلى صناعته من التجارة[2] ، بذكره ربح السلع ورجحان الميزان ونقصان الكيل والخسران من رأس المال . فضحك المعتصم وقال : ما أسرع ما انتصف الأصبهانى من محمد ، وحقدها عليه ابن الزيات حتى نكبه » .

واستخدم ابن الزيات بعده على ديوان الرسائل الحسن[3] بن وهب ، وهو من بيت قديم فى الكتابة إذ خدم أجداده فى دواوين الأمويين ، جداً بعد جد ، حتى إذا آلت الخلافة إلى العباسيين توالى أجداده يعملون فى دواوينهم . وقد كتب جده سعيد وأبوه وهب للبرامكة ، وعمل وهب فى دواوين الفضل بن سهل

---

(١) انظر الأغانى ٢٠/٤٩ .

(٢) يشير إلى حرفة أبيه إذ كان تاجراً بالكرخ .

(٣) انظر فى أخبار الحسن بن وهب وترجمته الفهرست ص ١٧٧ وترجمة أخيه سليمان فى ابن خلكان والأغانى ٢٠/٦٧ .

وأخيه الحسن وتوفى قبل دخول المأمون بغداد ، وعمل ابنه سليمان فى دواوين المأمون . ولا نشك فى أن الحسن أخاه هو الآخر اشتغل فى تلك الدواوين ، وعرف ابن الزيات حذقه فى الكتابة فأسند إليه ديوان الرسائل ، ونهض به خير نهوض ، ويقول ابن النديم : « كان شاعراً مترسلا فصيحا وأحد ظرفاء الكتاب، وله ديوان كتاب رسائله » . وقد عاش شطراً فى العصر العباسى الثانى ، ولكنه أُبْعِد عن الديوان منذ نكبة ابن الزيات لأول عصر المتوكل، ولذلك لم نؤخره إلى هذا العصر ، فنشاطه الكتابى إنما كان فى وزارة ابن الزيات وعصر المعتصم والواثق . ومع ذلك ليس بين أيدينا رسائل ديوانية له ، سوى ما تبادله مع ابن الزيات فى المودة والتزاور والشكر ، وهما تارة يتكاتبان شعراً وتارة يتكاتبان نثراً ، وله بجانب ذلك بعض رسائل فى التعزية ، ونحن نسوق له رسالة فى الشكر لندل بها على مقدار بلاغته وحسن بيانه ، وهى تجرى على هذا النمط[1]:

« من شكرك على درجة رفعته إليها ، أو ثروة أفدته إياها ، فإن شكرى لك على مهجة أحييتها وحشاشة[2] أبقيتها ، ورمق أمسكت به وقمت بين التلف وبينه ، فلكل نعمة من نعم الدنيا حد يُنْتَهى إليه ، ومَدًى يوقف عنده ، وغاية من الشكر يسمو إليها الطرْف ، خلا هذه النعمة التى قد فاقت الوصف ، وطالت الشكر وتجاوزت كل قَدر ، وأنت من وراء كل غاية . رددتَ عنا كيد العدو ، وأرغمت أنف الحسود ، فنحن نلجأ منك إلى ظل ظليل وكنَف كريم ، فكيف يشكر الشاكر وأنَّى يبلغ جهد المجتهد » .

ولم نتحدث حتى الآن عن التوقيعات ، وهى عبارات موجزة بليغة ، تعودْ ملوك الفرس ووزراؤهم أن يوقِّعوا بها على ما يقدَّم إليهم من تظلمات الأفراد فى الرعية وشكاواهم ، وحاكاهم خلفاء بنى العباس ووزراؤهم فى هذا الصنيع ، وكانت تشيع فى الناس ويكتبها الكتَّاب ويتحفظونها ، وقد سموا الشكاوى والظلامات بالقصص لما تحكى من قصة الشاكى وظلامته، وسموها بالرقاع تشبيها لها برقاع الثياب . ودارت فى الكتب الأدبية توقيعات كثيرة أُثرت لكل خليفة عباسى وكل وزير خطير ، من ذلك توقيع السفاح فى كتاب جماعة من

---

(١) العقد الفريد ٤/٢٣٣ . (٢) الحشاشة : بقية الروح .

بطانته يشكون احتباس أرزاقهم : « من صبر في الشدة شارك في النعمة[١] »، وتوقيع المنصور على شكوى لأهل الكوفة من عاملهم « كما تكونون يؤمَّر عليكم[٢] » وتوقيع المهدى لشاعر : « أسرفت في مديحك فقصَّرنا في حِبائك[٣] » وتوقيع الرشيد على رسالة لوالى خراسان : « داوِ جرحك لا يتسع[٤] » وتوقيع المأمون على قصة متظلم : « ليس بين الحق والباطل قرابة[٥] » .

ولعل وزيراً لم يبرع في التوقيعات براعة جعفر بن يحيى البرمكى « وكان إذا وقَّع نُسِخَتْ توقيعاته وتدورست بلاغاته » وحكى على بن عيسى بن يزدانيروذ أنه جلس للمظالم فوقَّع في ألف قصة ونيف ، ثم أُخرجت فعُرضت على العمال والقضاة والكُتَّاب وكتَّاب الدواوين فما وُجد فيها شيء مكرر ولا شيء يخالف الحق[٦] » وقال ابن خلدون : « كان جعفر بن يحيى يوقِّع في القصص بين يدى الرشيد ويرمى بالقصة إلى صاحبها ، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها ، حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار[٧] » ومما رواه له الجهشيارى من توقيعاته[٨] توقيعه على رقعة لمحبوس متظلم من حبسه : « العدوان أَوْبَقه ، والتوبة تُطْلقه » وتوقيعه على كتاب لعلى بن عيسى ابن ماهان يعتذر فيه عن أشياء بلغته عنه : « حُبِّب إلينا الوفاء الذى أبغضته ، وبُغِّض الغدر الذى أحببته ، فما جزاء الأيام أن تحسن ظنك بها وقد رأيت غَدَراتها ووقعاتها عياناً وإخباراً » . واشتهر الفضل بن سهل ذو الرياستين بتوقيعاته البليغة المحكمة ، فمن ذلك توقيعه على قصة مظلوم « كفى بالله للمظلوم ناصرا[٩] » وتوقيعه على كتاب لتميم بن خزيمة بن خازم : « الأمور بتمامها والأعمال بخواتيمها والصنائع باستدامتها ، وإلى الغاية جَرْىُ الجواد ، فهناك كشفت الخبرة قناعَ الشك فحُمِد السابق وذُمَّ الساقط[١٠] » . وكثيرا ما كانوا يوقعون بآية من الذكر الحكيم أو ببيت من الشعر أو بمثل من الأمثال .

---

(١) العقد الفريد ٤/٢١١ .
(٢) العقد الفريد ٤/٢١٢ .
(٣) العقد الفريد ٤/٢١٣ .
(٤) العقد الفريد ٤/٢١٣ .
(٥) العقد الفريد ٤/٢١٥ .
(٦) الجهشيارى ص ٢٠٤ .
(٧) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٣ .
(٨) الجهشيارى ص ٢٠٥ .
(٩) الجهشيارى ص ٢٠٥ .
(١٠) الجهشيارى ص ٢٠٧ .

٥

الرسائل الإخوانية والأدبية

نمت الرسائل الإخوانية فى هذا العصر نموًّا واسعاً ، ونقصد الرسائل التى تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم ، من رغبة ورهبة ومن مديح وهجاء ومن عتاب واعتذار واستعطاف ، ومن تهنئة واستمناح ورثاء أو تعزية ، وكانت هذه العواطف تؤدَّى فى العصر الأموى بالشعر ، وكان من النادر أن تؤدى بالنثر ، أما فى هذا العصر فقد زاحم فيها النثر الشعر بمنكب ضخم ، وأتاح له ذلك أمران : أولا ظهور طبقة ممتازة من الكتَّاب الذين يجيدون فيه إجادة رائعة ، وخاصة من كان منهم يكتب فى الدواوين ، إذ كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة واسعة وكانوا يُعْنَوْنَ بتحبير كلامهم وتجويده وحَشْد كل ما يمكن فيه من عناية فنية ، على نحو ما مر بنا آنفا . والأمر الثانى مرونة النثر ويُسْر تعابيره وقدرته على تصوير المعانى بجميع تفاريعها قدرة لا تتاح للشعر لارتباطه بقواعد موسيقية معقدة من وزن وقافية . وقد طوَّع هؤلاء الكتاب الديوانيون أو السياسيون أساليبه ومرَّنوها على أن تحمل كثيراً من المعانى الجديدة غير المألوفة .

وبذلك كله ثبت النثر للشعر فى التعبير عن العواطف التى طالما عبَّر عنها ، بل لقد أظهر فى ذلك طواعية لعلها لم تكن تتاح حتى لكبار الشعراء ، ومن أجل ذلك رأينا منهم كثيرين يتخذون النثر أداة للتعبير عن مشاعرهم على نحو ما سنرى عند العتَّابىّ وأبى العتاهية ، وكأنهم وجدوا فيه يسراً فى التعبير وفسحة لعرض بعض المعانى التى يلمُّون بها بجميع دقائقها مما لا يستطيع الشعر أداءه.

وتدور فى كتب الأدب رسائل إخوانية كثيرة مما دبَّجه كتَّاب الدواوين والشعراء وغيرهم من الأدباء ، فقد تعاور عليها كثيرون ، وكل منهم يتأنق فيما يكتب منها ويحاول الإطراف بمعانيه وصياغاته وما يبثُّ فيها من مهارته الفنية . وممن كان يُعْنَى بها عناية واسعة فى أوائل هذا العصر ابن المقفع وسنفرد له بعض الصحف فى الفصل التالى ، ومنهم محمد بن زياد الحارثى ، وهو أخو يحيى بن

زياد الحارثى رفيق مطيع بن إياس وجيلـه ، وفيه يقول ابن النديم « شاعر مترسل بليغ[١] » وله فى الشكر[٢] :

« قد يجب على من يتقلب فى ظل كرامتك ، ويأوى إلى كنف نعمتك ، أن يقول بما هو أولى ويُخْبر عما هو به مرتَـهَنٌ من شكر بلائك[٣] ، وحق نعمتك ، فنحن الذين سبقت نعمتك عليهم ، وعظمت منتك لديهم ، فيما أبليت وأوليت من جميل رأيك ، وحُسْن أثرك ، بعطفك وتحنُّنك ، واستخلاصك إياه مِقةً وأنسا ... فى أيادٍ من أياديك عظمت فلا تُجْحَدُ ، ونعم من نعمك شُهرت فلا تنكر ، ولا يُحْصَى عددها وإن اجتهدنا فى حفظها ، ولا نبلغ فى شكرها ، وإنْ دأبْنَا فى بلوغ تأديته ، فقد اعتقدتها منَّة علينا ، ويداً عندنا ، فنحن لك صنيعة ما بقينا وبقى الخَلَفُ منا » .

وكانت ترجمة ابن المقفع للأدب الكبير وما جاء فى كتاباته من حديث عن الإخاء والمودة مادة غزيرة للكتَّاب كى يستمدوا منها كل ما يريدون من تصوير الأخوة الحقة والصداقة الصادقة ، ويصور ذلك من بعض الوجوه رسالة لجبل بن يزيد إلى بعض إخوانه وهى تجرى على هذا النمط[٤] :

« اعلم أنى إليك مشوق وأن صلة الإخوان كرم ، وخير الصلات ما لم يكن لها وجه إلا الرجاءُ والحفظ وتجديد المودة وتصحيح الإخاء ، فإن الذى يكاتب إخوانه على حال الرغبة . . . إن أحبَّ مال به إلى الصحة ، وإن شاء وضعه للرغبة ، والرغبة أملكهما به . والذى يكاتب إخوانه على حال الضرورة فقد يستقطع الصلة عند الحدث مخافة الملامة من الناس على القطيعة الشَّنْعاء المشهورة لإخوانه ، فإن الذى لا مودة له قد يصل ذلك فى تلك القطيعة بأهل البلاء . والكتاب على مثل حالنا وحالك اليوم شاهد على أن ذلك ليس إلا صحة الإخاء والشوق إلى المحادثة بالكتاب حين لا يلومك اللائمون لمنزلة البلاء تلك اللائمة على التقصير ولا توضَعُ منك الرغبة فى الإطماع . إياك أن تعتلَّ بالأشغال أن كنت فى خاصة نفسك ، فإن أداء الحق وصلة الأخوان أعظم الخاصة بك خاصة ،

---

(١) الفهرست ص ١٧١ .

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣/ ٧٩ .

(٣) البلاء هنا : الإحسان .

(٤) جمهرة رسائل العرب ٣/ ١٣٦ .

وإنما أمرنا فى كل هذا كأمرك فى الذى تستغنى به من خاصتك تلك التى لنا ، فإن لنا مالك ، وهذه التى لنا لك ، أليس ما سرّنا سرّك، والله يوفقنا وإياك » .

وواضح أنه يتسع فى تصوير صحة الإخاء ، وهو يجعل المتودّدين الملحفين فى الأخوة أصنافا ، فمنهم من يطلبها للرغبة ، وإخاؤه لذلك مشوب ، ومنهم من يطلبها للضرورة وإخاؤه بذلك موقوت ، بحيث إذا ألمّ بصاحبه مكروه قطعه القطيعةَ الشنيعة . ويقول إن إخاءه ليس من هذين الضربين الممقوتين، بل هو إخاء سليم صحيح ، ويدعوه أن لا يعتل بشغل عنه بخاصةَ نفسه وانصرافه إلى بعض شئونه فالإخاء الصادق أخصُّ ما ينبغى له أن يشغل صاحبه ويصرفه عن كل شيء سواه .

ومما أكثروا فيه التعازى ، وعادة يتحدثون فيها عن ثواب المنكوب ببعض أهله على حسن صبره وما ينبغى عليه من التسليم لأمر الله والرضا بقضائه ، وقد يعرضون لذم الدنيا وأنها دائمًا تكدر الصفاء وتنغص السرور ، ويُرْوَى أن المهدى جزع جزعا شديدا حين ماتت ابنته البانوقة ، فأكثر الناس من تعازيه ، وكان ممن عزاه إبراهيم بن أبى يحيى الأسلمى بهذه الرسالة الموجزة[1] :

« أما بعد فإن أحقَّ مَنْ عرف حق الله عليه فيما أخذ منه من عظّم حق الله عليه فيما أبقى له . واعلم أن الماضى قَبْلك هو الباقى لك ، وأن الباقى بعدك هو المأجور فيك ، وأن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يُعافَوْن منه » .

وكثيراً ما تعاتبوا عتابا رقيقًا ، وقد يَعْنفون فى عتابهم ،ولكن عنف المتحضر المهذب الذى قد يمسّ ولكنه لا يَخْدش ، ومن رسائلهم الطريفة فى العتاب التى تدل بوضوح على دقة الحس ورهافة الشعور رسالة يوسف بن صبيح إلى محمد بن زياد الحارثى ، وفيها يقول[2] :

« حفظك الله وحاطك ، رأيتك — أكرمك الله — فى خَرْجتك هذه رغبت عن مواصلتنا بكتبك ، وإبلاغنا خبرك ، وقطعتنا قطعَ ذى السَّلْوة أو أخى المَلة[3] ،

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٧٤ .

(٢) الأوراق للصولى و (قسم الشعراء) ص ١٥٢ .

(٣) الملة : الملال .

حتى كأنك كنت إلى مفارقتنا مشتاقا ، وإلى البعد منا تَوّاقا ، فوقع بُعْدك بحيث تحبّ من جهتين : إحداهما حلاوة الولاية ، والأخرى لذة الراحة منا ، فإن يكن ذلك كما رجّيناه قاطعناك مجملين ، أو لبسناك على يقين . . وما أدرى ما أقول فى اختيارك ترك الكتب المحدثة عن العَتْب بالأسرار المفهومة ، حتى كأنها محادثة الحضور ، على تنائى الدور ، والقلوب بها مشاهدة ، وإن كانت الأبدان متباعدة ، ولئن كذب فيك الرجاء ، لقديما عزّ الوفاء ، وقد أصبتك من مرارة العتاب بما لا تقيم بعده على قطيعة ولا جفاء ، ولا تتوهمن أنى أردت ، إعناتك بإعتابى ، ولأن أزْرى عليك بكتابى ، فإن وصلتَ فشكور ، وإن قطعت فعذور ، والسلام »

وتأنقُ يوسف وتنميقه ودقته فى التعبير واضح فى تلك الرسالة ، وقد تفنّن الكتاب طويلا حينئذ فى صور الاعتذار ، ومن رسالة لمحمد بن الليث فى اعتذاره لشخص ظنّ به بعض الظنون الخاطئة دون تبين ولا روية[1] :

« كيف يسعك أن تأخذنى بظن لو كنت فيه على حقيقة علم لما وسعك أخذى ولا عقابى عليه ، ولو كانت العقوبة على الذنب الكامن فى سُوَيْداء القلب واسعة لك فى حكم الربّ لكان فيما حجبت الغيوب عن العمل ما ينتقل فى القلوب التى لا تثبت على حال ، إلا ربّما يتبعها انتقال ما يدعوك إلى أن تمسك عنى ، وتقف ، حتى تعرف أيمضى رأى أم ينصرف » .

وهو يشير إلى معنى نفسى دقيق ، وهو أن الخواطر التى تلم بالإنسان لا تثبت على حال ، ومن أجل ذلك كان الإنسان يتنقل بين لحظات وخواطر متناقضة ، ولا يصح أخذ الإنسان بخاطر إلا إذا ثبت فيه وعاش طويلا ، فقد يمر به خاطر سريع ويمضى دون أوبة ولا رجعة . ولعل رسالة استعطاف لم تشتهر فى هذا العصر كما اشتهرت رسالة إبراهيم[2] بن سَيابة الشاعر التى استعطف بها يحيى بن خالد البرمكى ، وكان قد أنكر منه شيئا ، فكتب إليه يترضاه على هذه الشاكلة[3] .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ١٨٥/٣ .

(٢) انظر ترجمته فى الأغانى (طبع دار الكتب) ٨٨/١٢ وانظر البيان والتبيين ٤٠٥/١ والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٠٣ .

(٣) البيان والتبيين ٢١٥/٣ .

« للأصيد[1] الجواد ، الوارى الزناد[2] ، الماجد الأجداد ، الوزير الفاضل ، الأشم[3] الباذل ، اللُّباب الحُلاحِل[4] ، من المستكين المستجير ، البائس الضرير فإنى أحمد الله ذا العزة القدير ، إليك وإلى الصغير والكبير ، بالرحمة العامة ، والبركة التامة . أما بعد فاغْتَنِمْ واسلم ، واعلمْ إن كنت تعلَمُ ، أنه من يَرْحَم يُرْحم ، ومن يَحْرِم يُحْرَم ، ومن يحسن يغنم ، ومن يصنع المعروف لا يَعْدَم[5] ، وقد سبق إلىّ ، تغضُّبك علىّ ، واطراحك لى ، وغفلتك عنى ، بما لا أقوم له ولا أقعد ، ولا أنتبه ولا أرقد ، فلست بحىّ صحيح ، ولا بميت مستريح ، فَرَرْتُ بعد الله منك إليك ، وتحملت بك عليك ، ولذلك قلت :

أسرعتْ بى حَثًّا إليك خِطائى ... فأناختْ بمُذْنبٍ ذى رجاء[6]

راغبٍ راهبٍ إليك يُرَجِّى ... منك عفواً عنه وفضلَ عطاء

ولعمرى ما مَنْ أصرَّ ومن تا ... بَ مُقِرًّا بذنبه بِسَواء

فإن — رأيت — أراك الله ما تحبّ ، وأبقاك فى خير — أن لا تزهد فيما ترى من تضرُّعى ، وتخشُّعى ، وتذللى ، وتضعضُعى ، فإن ذلك ليس منى بنَحيزة[7] ، ولا طبيعة ، ولا على وجه تصيّد تصنُّع ، وتخدُّعٍ[8] ، ولكنه تذلل ، وتخشع ، وتضرع من غير ضارع[9] ولا مَهين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك إلا لمن التضرع له عِزٌ ورفعةٌ وشرف »

وما إن تلاها يحيى حتى عفا عن جرمه ، ورضى عنه ووصله . ويقول الجاحظ إن عامة أهل بغداد كانوا يحفظون هذه الرسالة ، إعجاباً ببلاغتها ، وهى بلاغة تُرَدُّ إلى ما أجرى فيها ابن سيّابة من هذا السجع الرشيق الذى يدل بوضوح على أن العبارات كانت طيعة على لسانه ، بحيث يتصرف فيها كما يريد دون أن

---

(١) الأصيد : السيد الرافع رأسه أنفة وشمما .
(٢) وارى الزناد : أصله مخرج النار منه ، وهو كناية عن مضاء العزيمة .
(٣) الأشم : المملوء أنفة .
(٤) الحلاحل : السيد الشجاع ذو المروءة .
(٥) لا يعدم : يريد لا يعدم مكافأته .
(٦) حثا : مسرعة . خطائى : جمع خطوة أناخت : بركت وأقامت .
(٧) نحيزة : طبيعة .
(٨) تخدع : خداع .
(٩) ضارع : ذليل .

يستعصى عليه منها شىء ، حتى مع ما اختاره لها من ممرّات السجع ودروبه الضيقة .

ومن الشعراء الذين جمعوا بين براعتهم فى الشعر والكتابة الإخوانية العتّابى ، وقد ترجمنا له بين شعراء العصر النابهين وكانت قدرته فى الكتابة لا تقل عن قدرته فى الشعر ، وكان يعمد فيهما جميعاً إلى الإيجاز وأن يروع السامع بمعانيه كما يروعه بأساليبه ، ومما يصوّر ذلك فى كتابته ما كتب به إلى صديق انتجعه فى أيام شحيحة مجدبة ، على هذه الشاكلة[1] .

« أما بعد أطال الله بقاءك وجعله يمتدُّ بك إلى رضوانه والجنة ، فإنك كنت عندنا روضة من رياض الكرم تبتهج النفوس بها ، وتستريح القلوب إليها ، وكنا نُعفيها من النُّجْعة[2] استتماما لزَهْرتها ، وشفقة على خضرتها ، وادخارا لثمرتها ، حتى أصابتنا سنةٌ كانت عندى قطعة من سِنِى يوسف ، اشتدَّ علينا كَلَبُها[3] ، وغابتْ قِطّتُها[4] ، وكذبتْنا غيومها ، وأخلفتْنا بروقها ، وفقدنا صالح الإخوان فيها ، فانتجعتُك[5] ، وأنا بانتجاعى إياك شديد الشفقة عليك ، مع علمى بأنك موضع الرائد[6] ، وأنك تُغَطِّى عين الحاسد . والله يعلم أنى ما أعدُّك إلا فى حَوْمة[7] الأهل . واعلمْ أن الكريم إذا استحيَى من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير لم يُعْرَف جوده ولم تظهر همته ، وأنا أقول فى ذلك :

إذا تكرَّهتَ من بذل القليل ولم ... تقدرْ على سَعَةٍ لم يظهر الجودُ
بُثَّ النَّوالَ ولا تمنعْك قِلَّتُهُ ... فكلُّ ما سَدَّ فقرًا فهْو محمودُ »

ويقال إنه بلغ من تأثيره فى صديقه حين قرأ هذه الرسالة الرقيقة أن شاطره ماله حتى أعطاه إحدى نعليه ونصف قيمة خاتمه . وعلى نحو ما كان يقصد فى أشعاره إلى المعانى الدقيقة الطريفة يصوغها فى مقطوعات قلما تجاوزت بيتين

---

(١) الأمالى ٢/١٣٧ .
(٢) النجعة : الاستمناح ، وأصلها طلب الكلأ .
(٣) كلبها : سوءها وقحطها .
(٤) كناية عن الجدب ، فالقطة لاتجد ماتأكل.
(٥) انتجعتك : طلبت نائلك ومعروفك .
(٦) الرائد : الذى يتقدم القوم فى طلب العشب .
(٧) حومة : موضع.

كان يصنع برسائله، فهو يصوغها غالبًا فى عبارات قليلة قد لا تتجاوز سطرين أو ثلاثة ، ولكنها مع قلتها تحمل من المعانى والصور النادرة ما يجعلها آية من آيات البلاغة العباسية ، فمن ذلك ما كتب به إلى بعض أصحاب السلطان[1].

« أما بعد فإن سحائب وعدك قد أبرقت ، فليكن وَبْلُها[2] سالما من علل المَطْل ، والسلام » .

وهى صورة طريفة عرف كيف يستتمها وكيف يرسمها فى عبارات موجزة ربما يبهر قارئها ويجعله يكرر النظر فيها . ومن ذلك ما كتب به إلى بعض إخوانه يسأله مواصلة مودته بعد جفوة حادثة[3] :

« لو اعتصم شوقى إليك بمثل سلوّك عنى لم أبذل وجه الرغبة إليك ، ولم أتجشّم مرارة تماديك ، ولكن استخفّتنا صَبابتُنا ، فاحتملنا قسوتك ، لعظيم قدر مودّتك ، وأنت أحق من اقتصّ لصلتنا من جفائه ، ولشوقنا من إبطائه » .

واتسع استخدام الكتّاب للنثر فى كل فنون الشعر ، حتى فن الهجاء ، بل إن بعض الشعراء كانوا يستخدمونه ويؤثرونه أحيانا على الشعر كما رأينا عند العتّابى وابن سيّابة ، وكانوا يسلكون فيما يكتبون أحيانًا بعض أبيات الشعر من نَظْمهم أو نظم سواهم ، وقد ينثرون معناها قبلها ، على نحو ما مرّ بنا آنفًا فى رسالة العتّابى . ومن خير ما يصور ذلك رسالةٌ لأبى العتاهية فى هجاء الفضل بن معن بن زائدة ، وكان قد استرفده وطلب نواله ببعض شعره ، فردّه ردًّا غير جميل ، مما أغضبه وجعله يكتب إليه بهذه الرسالة[4] :

« أما بعد فإنى توسلت إليك فى طلب نائلك[5] بأسباب الأمل وذرائع الحمد فرارًا من الفقر ورجاءً للغنى ، فازددتُ بهما بُعْدًا مما فيه تقربتُ ، وقربًا مما فيه تبعّدتُ . وقد قسمت اللائمة[6] بينى وبينك ، لأنى أخطأت فى سؤالك وأخطأت فى منعى ، أُمِرْتُ باليأس من أهل البخل فسألتهم ، ونُهيتَ عن منْع أهل الرغبة ، فمنعتهم ، وفى ذلك أقول :

---

(١) العقد الفريد ١/٢٥٠ .

(٢) الوبل : المطر الغزير.

(٣) زهر الآداب ٤/١٢٢ .

(٤) العقد الفريد ٤/٢٣٦ .

(٥) النائل : الرفد والعطاء .

(٦) اللائمة : اللوم .

فررتُ من الفقر الذى هو مُدْركى ... إلى بُخْل محظورِ النَّوالِ مَنُوعِ

فأَعقبنى الحِرْمانَ غِبَّ مطامِعى ... كذلك من تلقاه غير قنوعِ

وغيرُ بديعٍ مَنْعُ ذى البخل مالَه ... كما بَذْلُ أهلِ الفضل غيرُ بديعِ

إذا أنت كشَّفْتَ الرجالَ وجدتَهم ... لأَعراضهم من حافظٍ ومذيعِ »

ومن يقرن هذه الأبيات الأربعة إلى ما قبلها من النثر يجده أشد لذعا ، وأكثر مرونة على أداء الهجاء الذى كان يريده أبو العتاهية ، ومرَّ بنا أن الشعر كان يسيل على لسانه سيلانا لم يعرف لشاعر فى عصره وأنه لم يكن يجد فيه مشقة ولا جهدا ، ومع ذلك فهو لا ينهض عنده بالمعانى العاطفية التى يستطيع النثر أداءها فى يسر وسهولة ، مما يدل دلالة واضحة ، على أنه رقى فى هذا العصر رقيا واسعًا ، حتى فى المجال العاطفى الخالص الذى طالما مرنت اللغة على أدائه شعراً ، وهو رقى تتزاوج فيه اللذة العقلية بما استنبط الكتَّاب من دقائق المعانى ، واللذةُ الشعورية بما استنبطوا من دقائق الأحاسيس والصور وما بثوا فى ألفاظهم من حسن الاختيار للصيغ ومن جمال التقابل بين العبارات والجمل ، حتى ليحاول بعض الكتّاب أن يسجع فى كلامه ، حتى يصوغه صياغة موسيقية تامة .

ومما أكثر الكتاب من الكتابة فيه الدعوة إلى الزيارة لقضاء بعض الوقت فى اللهو أو فى الشراب أو فى سماع المغنين والقيان أو فى المسامرة المستحبة ، ومما يصور ذلك من بعض الوجوه دعوة الحسن بن سهل لبعض أصدقائه كى يصطبح[١] معه فى يوم دَجْنٍ غامت فيه السماء ولم تمطر[٢] :

« أما ترى تكافُؤَ الطمع واليأس فى يومنا هذا بقرب المطر و بعده كأنه قولُ كثيِّر :

وإنى وتَهْيامى بعزَّة بعدما ... تخلَّيْتُ مما بيننا وتَخلَّتِ

لكالمُرْتجى ظلَّ الغمامة كلما ... تبوَّأَ منها للمَقِيل اضمحلَّت[٣]

(١) يصطبح : من الصبوح وهو الشرب فى الصباح .

(٢) زهر الآداب ١٤٦/٢ .

(٣) المقيل : النوم وقت القيلولة بعد ارتفاع الضحى .

وما أصبحتْ أمنيّتي إلا فى لقائك ، فليت حجابَ النأى هُتك بينى وبينك ، ورقعتى هذه وقد دارتْ زُجاجات أوقعتْ بعقلى ولم تتحيَّفه ، وبعثتْ نشاط حركتى للكتاب ، فرأيك فى إمطارى سروراً بسارِّ خبرك ، إذ حُرِمت السرور بمطر هذا اليوم موفقًا إن شاء الله » .

وعلى نحو ما أكثروا فى طلب الزيارة من الكتب والرسائل أكثروا منها أيضًا مع الهدايا التى كانوا يرسلون بها إلى أصدقائهم أو إلى بعض الوزراء وأصحاب السلطان ، وكانوا يختارون لها عادة مناسبة مثل عيد من الأعياد أو ختان بعض الأولاد ، من ذلك ما يروى من أن يحيى البرمكى عزم على ختان أحد أولاده ، فأهدى إليه وجوه الدولة كل منهم بحسب حاله وقدرته ، وتظرَّف بعض من كانوا من أسبابه ، للدلالة على قصور همته ، فملأ وعاء من أدَمٍ مِلْحًا مطيبا ووعاء ثانيا سُعْدًا[1] معطَّرا وكتب معهما هذه الرقعة[2] :

« لو تمت الإرادة ، لأسعفت العادة ، ولو ساعدت القدرة ، على بلوغ النعمة ، لتقدمتُ السابقين إلى خدمتك ، وأتعبت المجتهدين فى كرامتك ، لكن قعدت بى القدرة ، عن مساواة أهل النعمة ، وقصَّرت بى الجِدَةُ[3] عن مباهاة أهل المُكْنَة[4] ، وخشيت أن تُطْوَى صحيفة البِرِّ ، وليس لى فيها ذكر ، فأنفذت المُفْتَتَح بيُمْنه وبركته وهو المِلْحُ ، والمُخْتَتَم بطيبه ونظافته وهو السُّعْد ، باسطا يد المعذرة ، صابراً على ألم التقصير ، متجرعا غُصَصَ الاقتصار على اليسير ، والقائمُ بعذرى فى ذلك : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حَرَجٌ) . والمُهْدِى ضارع فى الامتنان عليه بقبول معذرته ، والإحسان إليه بالإعراض عن جراءته » .

وعُرِضت الهدية على يحيى ، فلما قرأ الرقعة أمر أن يُفْرَغ الإناءان ويملأ أحدهما دنانير والآخر دراهم ، إعجابا بتلطف صاحبهما وبلاغته وحسن بيانه . وكانت أكثر هداياهم طيبًا وعطراً وتحفًا ثمينة ، وربما أهدوا السيوف والخيل ، ويروى أن عبد الله بن طاهر أهدى المأمون فرساً وكتب إليه[5] :

---

(١) السعد : نبت طيب الرائحة .
(٢) غرر الخصائص الواضحة للوطواط ص ٤٤٨ .
(٣) الجدة : الغنى .
(٤) المكنة : الاستطاعة والقدرة .
(٥) زهر الآداب ٢/١٧ .

« قد بعثتُ إلى أمير المؤمنين بفرس ، يلحق الأرانب فى الصَّعْداء[١]، ويجاور الظِّباء فى الاستواء ، ويسبق فى الحُدور[٢] جَرْىَ الماء ، فهو كما قال تأبَّط شَرًّا :

ويسبقُ وفْدَ الريحِ من حيث يَنْتحى ... بِمُنْخرقٍ من شَدّهِ المتداركِ[٣] »

وأكثروا من التهانى مع كل مناسبة ، فهم يهنئون الخلفاء حين جلوسهم على أريكة الخلافة ، وهم يهنئون الوزراء حين استيلائهم على مقاليد الحكم ، وهم يهنئون بالزواج وعقد القران ، وهم يهنئون بإنجاب الأولاد ، وهم يهنئون بحكم الولايات ، وهم يهنئون بنعمة الحج وقضاء مناسكه ، وهم يهنئون بالظفر على الأعداء ، ولإبراهيم بن المهدى من رسالة هنأ فيها المعتصم بخروجه عن أرض الروم بعد فتحه لعمورية[٤] :

« الحمد لله الذى تمَّم لأمير المؤمنين غزوته ، فأذلَّ بها رقاب المشركين وشَفَى بها صدور قوم مؤمنين ، ثم سهل الله له الأوْبَةَ سالما غانما . . . ولْيَهْنِئْهُ ما كتب الله له مما أحصاه فلا ينساه ، لَيقفه به موقفا يرضاه ، فإنه عزَّ وجَلَّ يقول : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالهم بأن لهم الجنَّة ، يقاتلون فى سبيل الله فَيَقْتلون ويُقْتلون ، وَعْداً عليه حَقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومَنْ أوْفَى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم) . فطوى الله لأمير المؤمنين نازح البُعْد بَرًّا وبَحْراً ، ووقاه وَصَبَ السفر سهلا ووعراً ، وحاطه بحراسته كالئا ، ودافع عنه بحفظه راعيا ، حتى يؤدِّيه إلى المحل من داره ، والوطن من قراره ، وجزاه عن الإسلام خاصة ورعيته كافة » .

وعلى هذا النحو لم يترك الكتاب فنا من فنون الشعر إلا كتبوا فيه وعبروا عنه بكتاباتهم موجزين تارة ومطنبين تارة أخرى ، محاولين بكل ما استطاعوا أن يُظهروا القارىء على براعتهم وتفننهم فى الأداء ، وقد مضوا مثل الشعراء يعرضون لوصف

---

(١) الصعداء : الصعود الشاق .
(٢) الحدور : الجرى السريع .
(٣) وفد الريح : جماعاته ، ينتحى : يقصد . بمنخرق : بمتسع . شده : عدوه ، المتدارك : المتتابع .
(٤) جمهرة رسائل العرب ٤/ ٨ .

الطبيعة أحيانًا ، ولجبل بن يزيد رسالة جيدة فى وصف الأمطار عقب سنة مجدبة أهلكت الحرث والضرع حتى استيأس الناس ، وهى تمضى على هذه الشاكلة[١] :

« عادتْ لنا من الله عائدةُ رحمةٍ بِوَلِيٍّ[٢] مطرٍ أنزله الله بأحسن ما رأينا من المطر ، وابلا جَوْدًا[٣] ، لا يَفْتُر غزيره ، ولا يَرْعوى جَوْده إلا إلى دِيمة[٤] عن دِيمة ، يتراخى إليها يسيراً ريثما تعود ، فأقامتْ علينا سماؤه مستهلّةً[٥] بذلك إلى غروب الشمس ، ثم انقطع مطرها بسكون من الريح وفتور من القُرّ[٦] وفضلٍ من الله عظيم ينشر به رحمته ، ويبسط به رزقه ، فأسبغ النعمة ، وأوسع البركة ، وأوثق[٧] بحمد الله معارف الخِصْب . والله محمود على آلائه[٨] ، مشكور على بلائه[٩] ، وما أنزل من سُقْياه ورحمته بعد الذى أقبلت به السَّنَةُ البَرِّيَّة[١٠] ، والقحطُ وعدم الإمطار ، وشدةِ ما بلغ الناسُ من القنوط[١١] وسوء الظنون » .

ومرّ بنا فى حديثنا عن الشعر أن الشعراء كانوا أحيانًا يصفون روعة شعرهم وقدرتهم على استنباط الدرر واللآلىء الشعرية ، ومعروف أن من أكثرهم ترديداً لهذا الوصف أبا تمام ، ونرى صديقه الحسن بن وهب يكتب إليه رسالة بديعة يجعل موضوعها وصف شعره الرائع الذى كان يخصُّه أحيانا ببعض منظوماته مشيداً ببلاغته ، على نحو ما أشاد ببلاغة ابن الزيات فى وصفه لقلمه المشهور ، وكأن الحسن بن وهب رأى أن يجاريه فى هذا المضمار نثراً لا شعراً ، فكتب إليه هذه الرسالة[١٢] :

« أنت — حفظك الله — تحتذى من البيان فى النِّظام ، مثل ما يُقْصد بَحْرٌ من الدرر فى الأفهام ، والفضل لك — أعزك الله — إذ كنت تأتى به فى غاية الاقتدار ، على غاية الاقتصار ، فى منظوم الأشعار ، فتَحُلّ متعقَّده ،

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/١٣٧ .
(٢) ولى المطر : الذى يسقط دفعة بعد دفعة .
(٣) الجود : المطر الغزير .
(٤) الديمة : المطر المنهمر بدون برق ولا رعد .
(٥) مستهلة : منصبة .
(٦) القر : البرد .
(٧) أوثق هنا : أنبت وأعشب .
(٨) الآلاء : النعم .
(٩) البلاء هنا : الإحسان .
(١٠) البرية : المجدبة .
(١١) القنوط : اليأس .
(١٢) زهر الآداب ٣/٢٤٨ .

وتربط متشرده ، وتنظم أشطاره ، وتجلو أنواره ، وتفصِّله فى حدوده ، وتخرجه فى قيوده . ثم لا تأتى به مهما اقتبسته مُشْتَركًا فيلْتبس ، ولامتعقِّدا فيطول ، ولا متكلفا فيحول ، فهو كالمعجزة تُضْرَبُ بها الأمثال ، ويُشْرَحُ فيها المقال ، فلا أعدمنا الله هداياك واردة وفرائدك وافدة » .

وهذه الرسائل الإخوانية التى كانوا يصورون بها عواطفهم ومشاعرهم من ثناء أو هجاء أو استمناح أو استعطاف أو عتاب أو عزاء أو تهنئة أو تهاد دفعهم تفننهم فى بعضها إلى أن يتحولوا بها إلى ما يشبه الرسائل الأدبية الخالصة ؛ وهى التى تتناول خصال النفس الإنسانية وتصور أهواءها وأخلاقها وتوضح لها طريقها إلى الخير ، حتى لا تسقط فى مهاوى الشر . ومن خير ما يصور ذلك رسالة يحيى بن زياد التى ردّ بها على رسالة لابن المقفع طلب إليه فيها أن تنعقد بينهما أسباب الأخوة والوداد ، وهو يستهلها على هذه الشاكلة[1] :

« أما بعد فإنا لما رأينا موضع الإخاء ممن يحتمله فى تأنيسه من الوحشة وتقريبه لذى البُعْدة ومشاركته بين ذوى الأرحام فى القُرْبة لم نرض بمعرفة عينه دون معرفة نِسْبته ، فنسبنا الإخاء فوجدناه فى نسبته لا يستحق اسم الإخاء إلا بالوفاء ، فلما انتقلنا عنه إلى الوفاء فنسبناه انتسب لنا إلى البرّ ، فوجدناه محتويا على الكرم والنَّجْدة والصدق والحياء والنَّجابة والزَّكانة[2] وسائر ما لا يأتى عليه العدد من المحامد. ثم انحدرنا فيما أصعدنا فيه من هذا النسب ، فعُدْنا إلى الإخاء ، فوجدناه لا يقوم به إلا مَنْ هذه الخصالُ كلها أخلاقه . ولما استوجب الإخاء مسالك المحمدة كلها رأينا أن نتخير له المواضع فى صواب التروِّى وإحكام التقدير ، وعلمنا أن الاحتباس به أحسنُ من الندم بعد بذله ، واستوجب — إذ كان جماع المحامد — أن نتخيَّر له محامله التى يُحْمَلُ عليها ، وكان الناس فيما احتسبنا به عنهم من الإخاء على صنفين ، فصنفٌ عذرونا بالتحبس للخير إذ كان التخير من شأنهم ، وصنف هم ذوو سرعة إلى الإخاء ، وسرعة فى الانتهاء ، فقدَّموا اللائمة ، واستعجلوا بالمودة ، وتركوا باب التَّرْوِية ، واستَحْلوا عاجل المحبة ،

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٦٧/٣ .

(٢) الزكانة : صدق الحس .

ولهوا عن آجل الثقة ، فكانوا بذلك أهل لائمة ، ولم يجد المُعْذِرون[1] إلا الصبر على تلك والاستعمال للرأى والاستعداد بالعذر عند الحاجة ».

وواضح أن يحيى بن زياد لا يتحدث هنا عن إخائه لابن المقفع ووداده له ، إنما يحدث حديثا عامًّا عن الإخاء ، فهو ينظر فيه نظرة عامة ، أو قل ينظر إليه من حيث هو نظرة كلية يرتفع فيها إلى الحديث عن حقيقته المجرَّدة وما ينبغى أن يتكفَّل له من الوفاء . ويراه يقوم على البر ، ويتغلغل فى بحث جوهره ، فيراه يحتوى مجموعة من الخصال النبيلة لا يتمّ كيانه بدونها وفى مقدمتها الكرم الذى يجعل الأخ يبذل لأخيه ماله ، والنجدة التى تجعل الأخ يبذل لأخيه دمه ، والصدق الذى يدل على صدق القلب وإخلاص السريرة ، والحياء الذى يكفّ صاحبه عن التطاول وسوء الأدب وسَوْرة الغضب ، والنجابة التى تحوط صاحبها بحسن الرأى وتبين حقيقة الأمر ، والزكانة أو صدق الحسّ الذى يتكفَّل لصاحبه صواب القول والرأى . ويقول يحيى بن زياد لما كان يتطلب الإخاء التحلى بجميع الخصال الحميدة كان على كل شخص أن يتأنّى فى اختيار أخيه وأن يتحبّس حتى لا يتورط فى الأخ السوء ، وهو ما يأخذ نفسه به . ومَنْ حوله مِنَ الناس صنفان : صنف يَعْذرونه لأنهم ممن يرون رأيه فى تخير الإخوان ، وصنف لا يعذرونه لأنهم يتسرعون إلى بذل إخائهم إلى من يستحقه ومن لا يستحقه ، ولذلك سرعان ما ينتقض إخاؤهم وتَنْدَوى صداقتهم إذ لا يُصيبون بها مواضعها الصحيحة من الإخوان الجديرين بالأخوة .

ومن الرسائل التى نَحَتْ هذا النحو من التجريد والنظر من أعلى إلى الموضوع الذى تتحدث فيه رسالة غَسَّان بن عبد الحميد فى العتاب ، وهو يفتتحها على هذه الصورة[2] :

« أما بعد فإن الله جعل العباد أطواراً فى أخلاقهم ، كما جعلهم أطوارا فى صُورهم وجعل بينهم أمورًا يتآلفون عليها ويُعْملون أحلامهم فيها : مِنْ حُرَمٍ يتجاملون بها ، وحقوقٍ يتنازعونها ، ومودّة يتعاطونها ، وأخوّة يتداولونها تُرْعَى

---

(١) المعذر : من له عذر.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣/١١٣ .

بوفاء ، وتؤدّى بأمانة ، وتضيّع بتقصير ، وتُنْتَقَصُ بخيانة ، ليس مَنْ أُدِّيَتْ إليه فيما يحفظ منها بأسعد من المؤدّى لها فيما يأخذ به من الفضل لنفسه ، وليس من ضُيِّعَتْ منه بأشقى ممن ضيّعها فيما يُدْخِلُ من التقصير عليه ، فإن من أخطأه الوفاء من أخيه فإنما يدخل عليه تقصير غيره ، ومن ضَيَّع الوفاء لإخوانه فقد أدخل النَّقْصَ فى خاصّة نفسه ، والمرء يجد من أخيه إذا خانه بدلا ، ولا يجد عن نفسه إذا قصَّرتْ به متحوّلا ، وليس نقصٌ يستبدل به كنقص لا يستطيع مُزايلته » .

وغسان يتحدث عما بين الناس من حُرَمٍ وحقوق ومودة وأخوة ، ويرى أنه لا بد للأخوة من الوفاء الذى يحفظ على الإخوان عهودهم ، ولا بد لها من الأمانة التى تمنع الخيانة بين الإخوان وتحول بينهم وبين القطيعة المرذولة ، ولا بد لها من النهوض بجميع متطلباتها من الصيانة والثقة وتوطين النفس على أن لا يقوم هجران بين الأخ وأخيه . ويأخذ غسان فى تصوير معنى دقيق غاية الدقة ، وهو أن مَنْ يؤدى حقوق الأخوة إلى أخيه لعله أكثر منه سعادة بما يؤدى إليه منها ، وكذلك من يضيع حقوقها لعله أشقى من أخيه الذى يغمه تضييع هذه الحقوق ، لأنه إنما يدخله الغم بتقصير غيره ، أما صاحبه المضيِّع لتلك الحقوق فإنه يُدْخل الغم والشقاء والنقص على نفسه بنفسه ، والأول يجد من أخيه إذا خانه عوضاً فى أخ آخر صادق ، أما الثانى فإنه لا يخسر شخصاً ولا أخاً ، إنما يخسر نفسه التى بين جنبيه بما أدخل عليها من كَرْب الخيانة ، وليست خسارة يمكن تلافيها ، فخسارة لا يمكن مزايلتها ، ولا يجد صاحبها عنها حِوَلا ولا منصرفا . ويمضى غسان يفصل القول فى خيانة الأخ لأخيه وتضييعه لنعمة الوفاء التى أنعم الله بها على عباده ، وما يلبث أن يقول :

« ليس من كانت منه فجيعة لأهل الإخاء والحُرْمة الذين ارتادوا ارتيادا واختار واختاروا فوقع رأيه عليهم ، ووقع رأيهم عليه ، وارتضوه لأنفسهم ، وارتضاهم لنفسه ، واقتصروا عليه بمودتهم ، واقتصر عليهم بمودته ، فحمّلوه أخوتهم ، وحملهم أخوته ، واسترعوه الوفاء لهم ، حتى ثبّت الله بينهم وبينه ما كان داعيا لكل رأى جميل ، نافيا لكل صَنيع معيب ، وأمرٍ مريب ، فأىٌّ

نَقْص أكثر وأىّ دناءة أبين من أن يكون امرؤ بمنزلة ثقة قد حُفظت منه حُرْمة، واعتُقدت بها عليه أمانة، فوجبت منه مصافاةٌ، وانتُظرت منه صلةٌ، ثم ينكشف عن خيانة وغدر وقطيعة وفجيعة ؟

وغسان يصور هنا مذمة قطيعة الإخوان ، ويجعلها فجيعة فيمن اؤتمن فخان وعاهد فغدر، وأى غدر؟ إنه غدر بالحرمة التى قامت بينه وبين إخوانه، حرمة الوداد الصادق الذى لم يحدث فجأة ، إنما حدث عن طول اختيار وتفقد وتوقف وتثبت ، فإذا مَن ْوثقتَ فيه وملّكته زمام نفسك قدنكث كل عهوده، بل قد طعن الأخوة المفقودة الطعنة التى ليس منها برء ولا إقالة . وأطال غسان فى تصوير وقيعة واش به لصديقه ومايراه على نفسه وعلى صديقه من حقوق الأخوة وأن لا يأخذ بالظنة وأقوال الوشاة الكاذبين . والرسالة أشبه ببحث واسع فى واجبات الإخوان وحقوقهم .

وعلى هذا النحو أخذ بعض الكتّاب ينمّون الرسائل الإخوانية حتى غَدَت رسائل أدبية بديعة ، وكان ابن المقفع — كما أسلفنا — قد ترجم عن الفارسية كثيراً من الرسائل الأدبية التى تتصل بالأخلاق وسلوك الناس مع أولى الأمر فى الحياة العامة كما تتصل بالسياسة وتدبير الحكم ، وأيضًا فإنه ترجم قصص كليلة ودمنة ، وكل ذلك أخذ بعض الكتّاب يحاكونه ، من ذلك ما يذكره ابن النديم عن العتّابى من أن له رسالة فى فنون الحكم ورسالة أخرى فى الآداب[1] ، ويذكر عن محمد بن الليث الكاتب أنه كتب ليحيى البرمكى كتابا فى الأدب[2] ، وأن لسعيد بن هرون أحد خَزنة دار الحكمة للمأمون رسالة فى الحكمة ومنافعها[3]، وأن للعتبى المتوفى سنة ٢٢٨ للهجرة كتابا فى الأخلاق[4] ، ومر بنا أن على ابن عبيدة الريحانى الكاتب فى دواوين المأمون صنف كتبا مختلفة فى الحكم والأمثال . وكل هذه الرسائل كان يُرَادُ بها أن ترشد الناس فى حياتهم إلى الخير بما تقدّم لهم من الأمثال وتفصّل من الحكم . وأخذ بعض الكتّاب يُعْنَوْنَ بالكتابة فى السياسة ، على هدى ترجمات ابن المقفع فيها ، على نحو ما يذكر ابن النديم عن أبى دلف[5] العجلىْ وسهل[6] بن هرون ، واشتهر سهل بأنه استوحى كليلة

(١) الفهرست ص ١٧٥ .
(٢) الفهرست ص ١٧٥ .
(٣) الفهرست ص ١٧٤ .
(٤) الفهرست ص ١٧٦ .
(٥) الفهرست ص ١٦٩ .
(٦) الفهرست ص ١٧٤ .

ودمنة فى كتابة قصص على شاكلتها ، وسنفرد له حديثاً مستقلا فى الفصل التالى . ويقول ابن النديم عن على بن داود كاتب زبيدة زوج الرشيد إنه « كان أحد البلغاء، وكان يَسْلُك فى تصنيفاته طريقة سهل بن هر ون، وله من الكتب كتاب الجرهمية وكتاب الحرة والأمة وكتاب الظِّراف[1] » . وفى اسم الكتاب الأخير ما يشير إلى أن الكتّاب عرفوا فى هذا العصر الرسائل الأدبية التى يقصد بها إلى التفكهة والترويح عن النفس .

---

(١) الفهرست ص ١٧٤ .

الفصل التاسع

أعلام الكتاب

١

ابن[1] المقفع

فارسى الأصل، اسمه رُوزْبِه بن داذُوِيه، كان أبوه من قرية إيرانية تسمى جور ، نزل البصرة ، وظل على دينه مجوسيا مانويا ، غير أنه استعرب سريعا ، لاختلاطه بمواليه آل الأهتم التميميين ، وهم يشتهرون باللسن والفصاحة والخطابة ، ولم يلبث أن عمل فى دواوين الخراج للحجاج ، وظهرت عليه خيانة فى أموال الدولة ، فضربه الحجاج ضربا مبرِّحا تقفَّعتْ (يبست) منه يده ، فسمِّى من حينئذ المقفَّع ، ولم يُسْلِم ، بل مات على دينه ، وعليه نشأ ابنه ، ويظهر أنه عُنِى عناية شديدة بتأديبه ، حتى أتقن اللغتين الفارسية والعربية ، وقد مضى يتكسَّب بصناعة أبيه ، فاشتغل ، فى دواوين العراق آخر زمن بنى أمية ، إذ كتب لعمر بن هبيرة والى العراق لهشام بن عبد الملك ، وكتب لابنه يزيد فى ولايته العراق لمروان بن محمد ، ولابنه الثانى داود فى ولايته على كِرْمان بإيران وأفاد منهما أموالا كثيرة . ولما قامت الدولة العباسية كتب لسليمان بن على عم المنصور وواليه على البصرة ، ولأخيه عيسى بن على والى الأهواز وعلى يديه أعلن إسلامه وتكنى بأبى محمد، ويقال إنه حين حاول اعتناق الإسلام طلب إليه عيسى أن

---

(١) انظر فى ترجمة ابن المقفع وأخباره الفهرست ص ١٧٢ والجهشيارى ص ١٠٣ ، ١٠٩ وفى مواضع متفرقة وأمالى المرتضى ١ / ١٣٤ وثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فنكل) ص ٤٢ و ٤٧ والبيان والتبيين ١ / ١١٥ وفى مواضع متعددة (انظر الفهرس) والحيوان ١ / ٧٦ ، ٦ / ٣٣٠ ومروج الذهب للمسعودى ٤ / ٢٤٢ واعجاز القرآن للباقلانى ص ١٨ وزهر الآداب ١ / ١٨١ والأغانى (طبعة الساسى) ١٨ / ٢٠٠ وغرر الخصائص الواضحة للوطواط (طبعة بولاق) ص ٤٠٨ وخزانة الأدب للبغدادى ٣ / ٤٩٥ وتحقيق ما للهند من مقولة (طبعة ليبزج) ص ٧٦ ومقدمة كليلة ودمنة لعبد الوهاب عزام (طبع دار المعارف) وضحى الإسلام لأحمد أمين ١ / ١٩٥ ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين (طبع دار المعارف) ص ٤٦ .

يؤجل ذلك إلى الغد حتى يكون إعلان إسلامه فى حفل عظيم ، وحدث أن حضر طعام العشاء ، فلاحظ عيسى أنه يأكل ويزمزم ، أو بعبارة أخرى يدعو بأدعية المجوس ، فسأله عيسى : أتصنع ذلك وأنت على نية الإسلام ، فأجابه : كرهت أن أبيت على غير دين . وظل بعد إعلانه الإسلامَ يعمل فى دواوينه .

واتفق أن خرج عبد الله بن على عم المنصور وواليه على الشام ، إذ أعلن ثورته عليه ، غير أن جيوش المنصور هزمته ، ففرّ إلى أخويه سليمانَ وعيسى ، فطلبه المنصور منهما ، فأبيا أن يسلماه إليه إلا إذا كتب له أماناً ، فقبل ما عرضاه ، وكلفهما كتابته ، فأمرا ابن المقفع أن يكتبه ، فكتبه ، وتشدّد فيه تشدداً أغضب المنصور وأحفظه وملأه موجدة ، إذ طلب إليه أن يكتب فى أسفل الأمان هذا التوقيع[1] :

« وإن أنا نلتُ عبد الله بن على أو أحداً ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلتُ إلى أحدمنهم ضرراً سِرًّا أوعلانية ، على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحاً أو كناية أو بحيلة من الحِيَل ، فأنا نَفِيٌّ من محمد بن على ابن عبد الله ، ومولود لغير رِشْدة ، وقد حَلَّ بجميع أمة محمد خَلْعى وحَرْ والبراءة منى ، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى وإعانة من ناوأنى من جميع الخلق ، ولا موالاة بينى وبين أحد من المسلمين . وهو متبرئ من الحَوْل والقوة ، ومدَّع إن كان ، أنه كافر بجميع الأديان ، ولَقِى ربه على غير دين ولا شريعة ، محرَّم المآكل والمشرب والمناكح والمركب والرِّق والمِلْك والملبس على الوجوه والأسباب كلها . وكتبت بخطِّى ، ولا نية لى سواه ، ولا يقبل الله منى إلا إياه ، والوفاء به » .

واحتدم المنصور غيظاً حين قرأ هذا الأمان وسأل عن كاتبه ، فقيل له ابن المقفع كاتب عيسى بن على عمك ، فقال : أما أحد يكفينيه ؟ وأوعز إلى سفيان بن معاوية المهلبى عامله على البصرة حينئذ أن يقتله ، وتصادف أن كان يضطغن عليه ، فانتهز فرصة قدومه إليه ذات مرة ، وأمر بتَنُّور ، فمُلِىء وقوداً

---

(١) الجهشيارى ص ١٠٤ .

حتى إذا حميتْ ناره أخذ يقطعه جزءاً جزءاً ويرمى بكل جزء فى التنور حتى أتى عليه . ويقال إن المنصور إنما أمر بقتله لما ثبت عنده من زندقته وكيده للإسلام، ويبدو أن التعليل الأول لمقتله هو الصحيح ، لما صعّب فى صيغة الأمان على المنصور تصعيباً امتهن فيه كرامته ووطئها بالأقدام ، إذ طلب إليه أن يكتب بخط يده أنه إن غدر بعمه أو بأحد ممن معه فنساؤه طوالق وعبيده أحرار ودوابّه محرمة عليه والمسلمون فى حل من بيعته بل عليهم أن يحاربوه حتى يعطى عن يد وهو صاغر ، وأيضًا فإنه إن فعل يكون كافراً خارجاً من جميع الأديان . فكان طبيعيًّا أن يثور المنصور لكرامته وأن يوعز إلى سفيان بقتله ، ويقول الجاحظ إن ابن المقفع أغرى عبد الله بن على بالمنصور ، ففُطن له وقُتل ، وأغلب الظن أنه لا يريد بإغرائه لعبد الله بن على سوى صيغة هذا الأمان المشئوم ، واختلف الرواة فى السنة التى قُتل فيها ، فقيل سنة ١٤٢ وقيل سنة ١٤٣ وقيل سنة ١٤٥ للهجرة .

وليس معنى استظهارنا أن يكون الأمان السالف هو السبب الحقيقى فى قتل ابن المقفع أننا ننفى عنه الزندقة ، فقد شهد بها كثيرون من معاصريه ومن جاءوا بعده ، وكان المهدى يقول : « ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع »[١] ويقول المسعودى: « أمعن المهدى فى قتل الملحدين . . لما انتشر من كتب مانى وابن دَيْصان ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وتُرْجم من الفارسية والفهلوية إلى العربية »[٢] ويُقال إنه مرَّ ببيت نار للمجوس بعد إسلامه، فلما رآه أحسّ بحنين شديد إلى دينه المانوى القديم ، وأنشد بيتى الأحوص[٣]:

يا بَيْتَ عاتكةَ الذى أتعزَّلُ حذَرَ العِدا وبكَ الفؤادُ موكَّلُ

إنى لأَمنحك الصدود وإننى قَسماً إليك مع الصدود لأَمْيَلُ

وقد يكون فى ذلك ما يشير إلى أنه ظل على اعتقاده المانوى القديم فهو يظهر الإسلام ويضمر مانويته، وقد مضى ينقل ديانات قومه المجوسية ومذاهب الملحدين

---

(١) أمالى المرتضى ١/١٣٥ .

(٢) مروج الذهب ٤/٢٤٢ .

(٣) أمالى المرتضى ١/١٣٥ .

مثل ابن ديصان ومرقيون ، مما جعل العرب يتنبهون إلى غايته من هذا النَّقْل وما كان يتصل به من ترجمة الحكم الفارسية ، فقالوا إنه إنما كان يريد على الأقل ببعض ترجماته وتصنيفاته معارضة الذكر الحكيم ، وعرض لذلك الباقلانى فقال : « وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن ، وإنما فزعوا إلى الدرة اليتيمة ، وهى كتابان : أحدهما يتضمن حكما منقولة .. والآخر فى شيء من الديانات[1] » وقد ألف القاسم بن إبراهيم بن طباطبا المتوفى سنة ٢٤٦ للهجرة كتاباً فى نقض زندقته سماه « كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع عليه لعنة الله » . وذكر فى أوائله أن ابن المقفع وضع كتاباً عاب فيه المرسلين وافترى الكذب على رب العالمين[2] ، ولذلك تصدى له يهدم مزاعمه هدماً . وشك أحمد أمين فى هذا الكتاب الذى نسبه ابن طباطبا إلى ابن المقفع ، ولا ينفى هذا الشك عنه زندقته فقد شهد بها معاصروه ومن تلاهم ممن قرءوا كتاباته ، وكثير منها سقط من يد الزمن .

وكان — مع زندقته — نبيل الخلق وقورا يترفع عن الدَّنايا ولا يجعل للهوى سلطاناً على عقله ، وكان يأخذ نفسه بكل ما يمكن من خصال المروءة والشعور بالكرامة ، ويقول الجهشيارى إنه « كان سَرِيًّا سَخِيًّا يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج إليه . . وكان يُجْرى على جماعات من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين الخمسمائة إلى الألفين فى كل شهر » . وتُرْوَى عنه حكايات مأثورة تدل على كرمه الفياض ، كما تروى عنه أخبارٌ تدل على دقة حسه ، من ذلك أن عيسى بن على دعاه يوما للغداء فاعتذر بأنه مزكوم ، والزكمة قبيحة الجوار ، مانعة من عشرة الأحرار[3] . وكان يلفت معاصريه بأدبه الجم ، فسأله سائل : من أدَّبك ؟ فقال : نفسى ! إذا رأيت من غيرى حسناً أتيته ، وإن رأيت قبيحاً أبيته » . وكان يقدر الأخوة والصداقة حق قدرها ، وقد بنى عليهما كثيراً من حكمه ونصائحه فى الأدبين : الصغير والكبير . وكان ذكيًّا ذكاء مفرطاً حتى قال ابن سلام : « سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد

---

(١) إعجاز القرآن (طبع مطبعة الإسلام) ص ١٨ .

(٢) كتاب الرد على الزنديق اللعين (نشر جويدى) ص ٨ .

(٣) أمالى المرتضى ١/١٣٦ .

الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ، ولا كان فى العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع»[١] . وكان يرى أن الذكاء لا يعمر القلوب ولا يثمر الثمرة المرجوة بدون العلم ، وإلا كان كالأرض الطيبة الخراب. ولعله لذلك دأب على التثقف بكل ما استطاع من الآداب الفارسية وما تُرْجم إلى لغته من الهندية وكذلك ما ترجم إليها من اليونانية زمن كسرى أنو شروان.

وبذلك كان ابن المقفع يجمع بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية ، وقد نقل إلى العربية عن لغته خير ما عرف من الثقافات الأخيرة؛ وكان للثقافة الفارسية الحظ الأكبر ، فقد نقل عنها كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع كتاباً فى تعاليم مزدك وكتاب «خداى نامه» وهو فى سير الملوك الإيرانيين ، وعليه اعتمد الفردوسى فى نظم «الشاهنامه» وكذلك نقل كتاب التاج فى سيرة أنوشروان . ونقل عنها فى أنظمة الملك وتدبير السياسة والحكم كتاب « آيين نامه » ورسالة « تنسر » وفى عيون الأخبار منهما ومن كتاب التاج نقول مختلفة . وكان فى الفهلوية أدب أخلاقى كثير نما فى بلاط الساسانيين ، وكان يُراد به إلى تثقيف الفرس بما يوضح لهم سبل الحياة العامة عن طريق الأمثال وما تُشْفَعُ به من الحِكم ، ونقل من ذلك ابن المقفع مادة غزيرة فى الأدب الصغير والأدب الكبير واليتيمة ورسالة الصحابة . وعمد إلى خير أثر فى لغته للهنود وهو كتاب كليلة ودمنة فنقله إلى العربية ، كما نقل عن لغته بعض ما تُرْجم إليها عن اليونانية من كتب أرسطو فى المقولات والقياس المنطقى .

وما نقله عن أرسطو من لغته مفقود ، ولم يصلنا ما نقله عن الفهلوية من الكتب الخمسة الأولى إلا ما اقتبسه ابن قتيبة مما يتصل ببعض وصايا الفرس السياسية وأنظمتهم فى الملك والقضاء وفنون الحرب . ونحن نقف قليلا عند الأدبين الصغير والكبير واليتيمة ورسالة الصحابة .

والأدب الصغير رسالة قصيرة[٢] فى نحو ثلاثين صحيفة تتضمن طائفة من

---

(١) مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى (طبعة مكتبة نهضة مصر) ص ٢٨ .

(٢) انظر الأدب الصغير فى رسائل البلغاء لمحمد كرد على (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١ وما بعدها .

الوصايا الخلقية والاجتماعية التى ترشد الناس إلى صلاح معاشهم فى أنفسهم وفى علاقاتهم بعناصر المجتمع من أهل السلطان ومن الأصدقاء ومن غيرهم ، ونراه يقول فى أوائلها : « قد وضعت فى هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً ، فيها عونٌ على عمارة القلوب وصقالها وتجلية أبصارها ، وإحياءٌ للتفكير ، وإقامة للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق » ومن قوله فى تضاعيفها :

« على العاقل أن لا يستصغر شيئاً من الخطأ فى الرأى والزَّلل فى العلم والإغفال فى الأمور. إن من استصغر الصغير أوشك أن يجمع إليه صغيراً وصغيراً، فإذا الصغير كبير ، وإنما هى ثُلَم[١] يثلمها العجز والتضييع ، فإذا لم تُسدّ أوشكت أن تنفجر بما لا يطاق . كلامُ اللبيب وإن كان نَزْرًا أدب عظيم ، ومقارفة[٢] المأثم وإن كان محتقراً مصيبة جليلة . لا يمنعنَّك صِغَر شأن امرئ من اجتباء ما رأيت من رأيه صوابا ، واصطفاءِ ما رأيت من أخلاقه كريما ، فإن اللؤلؤة الفائقة لا تُهان لهوان غائصها الذى استخرجها . أعدلُ السِّير أن تقيس الناس بنفسك ، فلا تأتى إليهم إلا ما ترضى أن يُؤْتَى إليك . حقٌّ على العاقل أن يتخذ مِرآتين فينظر من إحداهما فى مساوئ نفسه فيتصاغر بها ، ويصلح ما استطاع منها ، وينظر من الأخرى فى محاسن الناس فيحكيهم بها ويأخذ ما استطاع منها . عمل الرجل فيما يعلم أنه خطأ هَوًى ، والهوى آفة العفاف . من أشد عيوب الإنسان خفاءُ عيوبه عليه فإنه من خفى عَيْبُه عليه خفيت عليه محاسن غيره ، ومن خفى عليه عيب نفسه ومحاسن غيره فلن يقلع عن عيبه الذى لا يعرف ، ولن ينال محاسن غيره التى لا يبصرها أبداً . لا يتمّ حسن الكلام إلا بحسن العمل كالمريض الذى قد علم دواء نفسه ، فإذا هو لم يتداوَ به لم يُغْنه علمه . والرجل ذو المروءة قد يُكْرَم على غير مال كالأسد الذى يهاب وإن كان عَقِيراً[٣] ، والرجل الذى لا مروءة له يهان وإن كثر ماله كالكَلْب الذى يهون على الناس وإن طُوِّقَ وخُلْخِلَ »[٤] .

وأكثرُ وصايا الأدب الصغير على هذا النحو من القِصَر وقلما يطَّرد فيها

---

(١) ثلم : جمع ثلمة وهى الخلل .
(٢) مقارفة : ارتكاب .
(٣) عقيراً : جريحاً .
(٤) خلخل : وضع فى رجله خلخال .

السياق . أما الأدب[1] الكبير فرسالةٌ أكثر طولا إذ تمتد إلى نحو مائة صحيفة ، موزعة بين موضوعين كبيرين ، هما السلطان وما يتصل به من السياسة والحكم ، والصداقة وما يتصل بها من صفات الصديق الصالح . ونراه يصرح فى تقديمه لهذه الرسالة بما صرَّح به فى أوائل الأدب الصغير من أنه يفيد فى وصاياها من أقوال الأسلاف القدماء ، إذ يقول : « منتهى علم عالمنا فى هذا الزمان أن يأخذ من علمهم وغاية إحسان محسننا أن يقتدى بسيرتهم ، وأحسنُ ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر فى كتبهم ، فيكون كأنه إياهم يحاور ومنهم يستمع ... ولم نجدهم غادروا شيئًا يجد واصف بليغ فى صفة له مقالا لم يسبقوه إليه » . ويشير مع ذلك إلى أنه بقيت فى وجوه الأدب وضروب الأخلاق أشياء من لطائف الأمور تشتقها الفطن السليمة من حكم الأولين وأقوالهم ، وأنه سيضمِّن كتابه أو رسالته منها أطرافا . ومعنى ذلك أن وصايا الرسالة إما نَقْلٌ عن القدماء ممَّا قرأه فى الأدب الساسانى السياسى والأخلاقى ، وإما استنباطات وَصَلَ إليها على هَدْيهم ، وهو يستهلُّ رسالته بالحديث عن أصول الأدب ويريد به التهذيب الخلقى والاجتماعى والسياسى ، ثم يورد بعض الوصايا لمن يتقلد شيئًا من أمور السلطان وينصحه فيما يتولاه أن يُرْضِى ربه ومَنْ فوقه من أصحاب السلطان ومن تحته من صالحى الرعية ، ويقول له : لا تلتمسْ رضا الناس جميعًا ، لأن ذلك شيءٌ لا يُدْرَك ، إذ بينهم مَنْ رِضاه الجَوْرُ ومَنْ رِضاه الضلالة ، فيكفيك رضا الأخيار منهم والعقلاء ، ومن طريف ما يوصيه به قوله :

« لا تتركنَّ مباشرة جسيم أمرك ، فيعودَ شأنك صغيرا ، ولا تلزم نفسك مباشرة الصغير فيصير الكبير ضائعًا ، واعلم أن رأيك لا يتسع لكل شىء ففرِّغه للمهم . . وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإن دأبت فيهما ، وأنه ليس إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه من الدعة فأحسنْ قسمتهما[2] بين دعتك وعملك ، واعلمْ أنك ما شغلت من رأيك فى غير المهم أزرى بالمهم . . وما شغلت من ليلك ونهارك فى غير الحاجة أزرى بك فى الحاجة . واعلم أن من

---

(١) انظره فى رسائل البلغاء ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) قسمتهما : أى قسمة الليل والنهار .

الناس ناساً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب إذا غضب أن يحمله ذلك على الكُلوح[1] والتقطيب فى غير مَنْ أغضبه ، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له ، والعقوبة لمن لم يكن يهمّ بعقوبته ، وشدّة المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك . ثم يبلغ به الرضا إذا رضى أن يتبرّع بالأمر ذى الخطر[2] لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطى من لم يكن يريد إعطاءه ويكرم من لا حق له ولا مودة فاحذرْ هذا الباب الحذر كله » .

ويسترسل ابن المقفع فى مثل هذه الوصايا للوالى ، ويتحدث عن صحبة السلطان وواجباتها وآدابها وكذلك صحبة الولاة والحكّام ، ثم ينتقل إلى الصديق والصداقة ، ويصور الخلال التى ينبغى أن يتصف بها فى رأيه الصديق الحق حتى ليرى من واجب الصديق على الصديق أن يبذل له ماله ودمه وأن يلقاه بالتواضع والحياء وأن يمدّ له يدَ العوْن فى الشدة . ويستطرد إلى الحديث عن جار السوء وعشير السوء وجليس السوء ، كما يستطرد إلى الحديث عن العدو وما ينبغى من استعمال الدهاء معه والعمل على القضاء عليه أو اجتنابه والبعد عنه ، ويُفيض فى الأخلاق الحميدة والأخلاق السيئة التى تنفّر الناس من صاحبها فضلا عن الصديق ، ومما يسوقه فى الطرفين قوله :

« انظُرْ مَنْ صاحبتَ من الناس من ذى فَضْلٍ عليك بسلطان أو منزلة ومَنْ دون ذلك من الخلصاء والأكفاء والإخوان فوَطّنْ نفسك فى صحبته على أن تقبل منه العَفْوَ ، وتسخو نفسك عما اعتاصَ عليك مما قِبَلَه غير معاتب ولا مستبطئ ولا مستزيد ، فإن المعاتبة مقطعة للود ، وإن الاستزادة من الجشع ، وإن الرضا بالعفو والمسامحة فى الخلق مقرب لك كلّ ما تتوق إليه نفسك مع بقاء العرض والمودة والمروءة . . ولا تلتمس غلبة صاحبك والظفر عليه بكل كلمة ورأى ، ولا تجترئنّ على تقريعه وتبكيته بظفرك إذا استبان وحجّتك إذا وضحت. وتعلّمْ حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ، ومن حسن الاستماع إمهالُ المتكلم حتى يقضى حديثه ، وقلة التلفت إلى الجواب ، والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم ، والوعى لما يقول . . واعلم أن المستشار ليس بكفيل وأن الرأى ليس بمضمون ، بل

(١) الكلوح والتقطيب : العبوس . (٢) الخطر : الشرف .

الرأى كله غَرَرٌ[1] ، لأن أمور الدنيا ليس شيء منها بثقة ، ولأنه ليس شيء من أمرها يدركه الحازم إلا وقد يدركه العاجز ، بل ربما أعْيَى الحَزَمة[2] ما أمكن العجزة ، فإذا أشار عليك صاحبك برأى فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل ، فلا تجعلْ ذلك عليه لوما وعَذْلا بأن تقول : أنت فعلت هذا بى ، وأنت أمرتنى ، ولولا أنت لم أفعل ، ولا جرم لا أطيعك فى شيء بعدها ، فإن هذا كله ضجر ولؤم وخفة . وإن كنت أنت المشير ، فعمل برأيك أو تركه فبدا صوابك فلا تَمُنَّنَّ ولا تكثِرنَّ ذكره إن كان فيه نجاح ، ولا تَلُمْه عليه إن كان استبان فى تركه ضرراً بأن تقول : ألم أقل ، ألم أفعل ، فإن هذا مجانب لأدب الحكماء .. واعلم أن من تنكُّب الأمور ما يسمى حَذَراً ، ومنه ما يسمى خَوَراً فإن استطعت أن يكون تجنُّبك من الأمر قبل مواقعتك إياه فافعلْ ، فإن ذلك هو الحذر ، ولا تنغمس فيه ثم تتهيبه ، فإن ذلك هو الخور ، وإن الحكيم لا يخوض نهراً ، حتى يعلم مقدار قَعْره » .

وردَّد محمد كرد على فى نشرته للأدب الكبير بكتابه رسائل البلغاء بين هذا العنوان وعنوان ثان هو الدرة اليتيمة ، وهما كتابان لا كتاب واحد ، كما يشهد بذلك كلام الباقلانى عن اليتيمة الذى سبق أن نقلناه عنه ، وفيه أنها قسمان قسم فى الحكم المنقولة ، وقسم فى شيء من الديانات ، وليس فى الأدب الكبير حديث عن الديانات ، إنما هو حديث كما رأينا عن السلطان والصداقة . ومما يقطع بأن الدرة اليتيمة ليست هى الأدب الكبير أن ابن طيفور احتفظ فى كتابه « اختيار المنظوم والمنثور » بقطعة طويلة من صدرها لا توجد فى الأدب الكبير ، ونرى ابن المقفع يذكر فيها أن الناس قد سألوه أسئلة ، وأنه سيجيبهم عما سألوا ، واحتفظت القطعة بالسؤال الأول ، وهو يدور على الزمان ، وقد أجابهم بأن الزمان الناس ، وهم رجلان ، وال ومولًّى عليه . وقسم الأزمنة على أساس الوالى والرعية أربعة أقسام : قسم هو خير الأزمنة لصلاح الحاكم والمحكومين ، وقسم ثان يليه وفيه يصلح الحاكم ويفسُدُ المحكومون ، وقسم ثالث يصلح فيه المحكومون ويفسد الحاكم ،

---

(1) غرر : خداع .

(2) الحزمة : جمع حازم .

وقسم رابع هو شر الأزمنة لفساد الحاكم والمحكومين جميعا ، وفى الأول يقول[١] :

« خيار الأزمنة ما اجتمع فيه صلاح الراعى والرعية ، فكان الإمام مؤدِّيًا إلى الرعية حقهم : فى الرد عنهم والغيظ على عدوهم ، والجهاد من وراء بَيْضتهم[٢] والاختيار لحكّامهم ، وتولية صلحائهم ، والتوسعة عليهم فى معايشهم ، وإفاضة الأمن فيهم ، والمتابعة فى الحق لهم ، والعدل فى القسمة بينهم ، والتقويم لأوَدهم[٣] والأخذ لهم بحقوق الله عز وجلّ عليهم . وكانت الرعية مؤدية إلى الإمام حقه فى المودة والمناصحة والمخالطة وتَرْك المنازعة فى أمره ، والصبر عند مكروه طاعته ، والمعونة على أنفسهم ، والشدة على من أخلّ بحقه وخالف أمره ، غير مؤثرين فى ذلك آباءهم ولا أبناءهم ، ولا لابسين[٤] عليه أحدا . فإذا اجتمع ذلك فى الإمام والرعية تمّ صلاح الزمان ، وبنعمة الله تتمّ الصالحات » .

ويظهر أن الأسئلة الأولى فى الرسالة كانت تخوض فى السياسة ، وتلتها أسئلة كانت تخوض فى شئون الديانات ، ولعل ذلك هو الذى جعل الدرة اليتيمة تسقط من يد الزمن ، وكأن الناس تحاموا تداولها . أما رسالة الصحابة[٥] فهى فى صحابة السلطان وبطانته ومن يستعين بهم فى حكمه من جنده وما ينبغى له فى سياسته إزاء رعيته ، كتب بها إلى المنصور ، وكأنه يضع له دستوراً للحكم ، وقد استهلّها بمدحه وبيان فضله على خلفاء بنى أمية وما تحلّى به من تشجيع ذوى النصح والرأى على الإدلاء بنصائحهم وآرائهم فيما يعود على الأمة بالنفع والخير . ثم أخذ فى تصوير الدستور الذى يريد من المنصور اتباعه فى حكمه ، واصفًا حسن سياسته ، إذ اقتلع الولاة والأعوان المفسدين ، واجتمعت حوله قاوب الرعية لما اشتمل عليه من حسن العفو واللين . ولم يلبث أن تحدث عن الجند ، ومعروف أن الجند حينئذ كانوا خراسانيين فى جمهورهم ، ومن ثمّ أخذ يشيد بجند خراسان وأنه لم يُدْرَك مثلهم فى الإسلام لما امتازوا به من الطاعة والفضل والعفاف والكف عن الفساد والإعطاء عن يَدٍ للولاة والحكام ، ومن أجل ذلك كانت تجب العناية

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/٤٩ .

(٢) البيضة : حوزة كل شىء وساحة ، القوم والمراد بلدهم .

(٣) الأود : الاعوجاج .

(٤) لابسين هنا : مقدمين ، وأصل لبس القوم التبل بهم زمناً .

(٥) انظر فى هذه الرسالة رسائل البلغاء ص ١١٧ وجمهرة رسائل العرب ٣/٢٥ .

بهم بوضع قانون لهم ، يوضح فى دقة واجباتهم وما ينبغى أن يفعلوه وما ينبغى أن يذروه ويتجنبوه ، وأن مثلهم مثل الخليفة ينبغى أن يطيعوا الدين وأوامره ونواهيه ، كما يطيعون الخليفة فى الأحداث المتجددة من إعلان حرب أو مهادنة أو تنظيم أمور حادثة . ومما يُنْظَرُ فيه لصلاح الجند أن لا يولَّى أحد منهم على شىء من الخراج فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ، إذ يخرجهم عن وظيفتهم الحربية ، ويشغلهم بأمور المال والدراهم والدنانير . ولفت المنصورَ إلى أن من عليهم من هم خير من قادتهم . ولذلك ينبغى أن يعيد النظر فيمن جعلهم منهم قادة ، فيردّ بعضهم عن القيادة ويوليها الكفء المجهول من الجند. وطلب إليه أن يُعنَى بتعليمهم القرآن والتفقه فى السنة وأن يتحلوا بالأخلاق الفاضلة من الآمانة والعفاف والتواضع والبعد عن الهوى وأن يجتنبوا الترف فى المطعم والملبس ، كما طلب إليه تعيين مواقيت محددة لأرزاقهم ورواتبهم وأن يتقصّى أحوالهم بثقات لا يكتمون عنه منها شيئاً . وانتقل ابن المقفع من الجند إلى أهل العراق عامة وأهل البصرة والكوفة خاصة ، لأنهم شيعة العباسيين . وتحدث عن تفوق أهل العراق على غيرهم فى الفقه والعفاف والعقول والفصاحة ، وهم لذلك خير من يستعين بهم المنصور فى دولته ، وكان الأمويون قد حرموهم من تدبير الحكم مع أنهم أهله ومستحقوه . وأوصاه — كما أوصاه فى الجند — أن يتتبع خيارهم من المجاهيل عنده ، فيسند إليهم شئون الدولة ، ويردّ عنها من وقع فيهم الخطأ ومن اختيروا دون تثبت وفحص كاف . وسرعان ما يعرض لفوضى القضاء الناشئة عن كثرة الاختلافات بين الفقهاء ، حتى ليُحْكَمُ فى القضية الواحدة بحكمين مختلفين أو أحكام مختلفة لا فى البلاد المتباعدة بل فى البلد الواحد ، واقترح لدَرْءِ هذه الفوضى أن يضع المنصور قانوناً يلتزمه القضاة على اختلاف منازعهم الفقهية ، سواء أكانوا ممن يقدّمون الرأى ويعتدُّون به أو كانوا ممن يقدمون السنة ويعتدُّون بها ، ويَسْخر من الأخيرين ، إذ تمادوا فى الأخذ عن التابعين وخلفاء بنى أمية مسمّين ذلك سُنَّةً ، مما دفع إلى هذا الاضطراب الواسع فى الأقضية ، يقول :

« ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين (البصرة والكوفة) وغيرهما من الأمصار والنواحى اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التى قد بلغ اختلافها

أمراً عظيماً فى الدماء والفروج والأموال ، فيُستحَل الدم والفرج بالحيرة ، وهما يحرّمان بالكوفة ، ويكون مثل ذلك الاختلاف فى جوف الكوفة ، فيُستحَل فى ناحية منها ما يحرّم فى ناحية أخرى . غير أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين فى دمائهم وحُرَمهم ، يقضى به قضاة جائز أمرهم وحكمهم ، مع أنه ليس ممن ينظر فى ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد لجَّ بهم العجب مما فى أيديهم والاستخفاف بمن سواهم ، فأقحمهم ذلك فى الأمور التى يتبيّغ[1] بها من سمعها من ذوى الألباب . أما من يدّعى لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس له سنّة سنّة ، حتى يبلغ ذلك به إلى أن يسفك الدم بغير بينة ولا حُجّة على الأمر الذى يزعم أنه سنة ، وإذا سُئل عن ذلك لم يستطع أن يقول : هُريق[2] فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أئمة الهدى من بعده ، وإذا قيل له : أىّ دم سُفك على هذه السنة التى تزعمون ؟ قالوا : فعل ذلك عبدالملك ابن مروان أو أمير من بعض أولئك الأمراء . وربما يأخذ بالرأى ، فيبلغ به الاعتزام على رأيه أن يقول فى الأمر الجسيم من أمر المسلمين قولا ، لا يوافقه عليه أحد من المسلمين ، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وإمضائه الحكمَ عليه ، وهو مقرٌّ بأنه رأىٌ منه ، لا يحتجّ بكتاب ولا سُنَّة . فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسنن المختلفة فترْفع إليه فى كتاب ، ويرفع معها ما يحتجُّ به كل قوم من سُنَّة أو قياس ، ثم نظر فى ذلك أمير المؤمنين وأمضى فى كل قضية رأيه الذى يُلهمه الله ، ويعزم عليه عزماً ، وينْهَى عن القضاء بخلافه ، وكتب بذلك كتابا جامعا لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطةَ الصواب بالخطأ حكمًا واحداً صوابا ، ورجونا أن يكون اجتماع السُّنَن قرينةً لاجتماع الأمر برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه ، ثم يكون ذلك من إمام آخر ، آخرَ الدهر ، إن شاء الله » .

ومضى ابن المقفع يذكر أن اختلاف الأحكام إذا كان يرجع إلى سنن مأثورة غير مجمع عليها فينبغى الأخذ بما هو أشبه بالعدل ، وإذا كان يرجع إلى استخدام الرأى والقياس ، فإن القياس قد يخطئ ، وليس المدار على القياس فى حد ذاته ،

(١) يتبيغ : يهيج .　　(٢) هريق : لغة فى أريق .

وإنما المدار على ما يقود إليه فإن قاد إلى حسن أُخِذَ به وإن قاد إلى قبيح تُرِكَ ، إذ المراد ليس عين القياس ، وإنما المراد إحقاق الحق لأهله . ولعل هذه الدعوة إلى إصلاح التشريع وجَمْع السنن والأحكام والأقضية ووَضْع قانون عام للقضاء هى التى دفعت المنصور ليطلب إلى مالك أن يؤلّف فى الفقه كتابه « الموطأ » وقد قال له : إنى أريد أن تُرْسل لى به لأكتب منه نسخاً يرجع إليها الناس فى الأمصار ، غير أن مالكاً لم يرتض الفكرة ، لأن المسلمين فى كل بلد رووا من السنة النبوية ما دانوا به ، غير أنه ألف « الموطأ » وذاعت أحكامه الفقهية فى الحجاز ، وفى كثير من الأمصار وخاصة فى مصر والمغرب والأندلس . ويدعو ابن المقفع بعد ذلك المنصور إلى العطف على أهل الشام مع ما يكنّونه للدولة من عداوة ، لسَلْبها السلطانَ منهم ، وأن يصطنع خيارهم ، فيتبعهم فى محبة الدولة غيرهم ، وتأخذ دائرة هذه المحبة فى الاتساع . ويطلب إليه أن يردّ عليهم فَيْئهم ، حتى يذعنوا للدولة عن رضا ، وحتى تهدأ نفوسهم فلا تكون منهم وثبات ولا ثورات . ويتحول ابن المقفع إلى بطانة الخليفة ورجال دولته ويطلب إليه أن يعيد النظر فيهم ، فإن بينهم كثيرين ليسوا بذوى بلاء ولا فيهم غَناء ، بل بينهم من اشتهروا بالفجور والأعمال القبيحة ، مع أن منهم من يصرّف أمور الدولة ومن يعمل فى دواوينها . وحرى بالخليفة أن يجعل أساس اختياره لحاشيته الأمانة ، والعدالة وجودة الرأى وأن لا يقرِّب منه إلا من صنع مكرمة عظيمة أو أبلى بلاء حسنًا ، أو عُرِف بأصالة رأيه وحصافته أو كان عالمًا ينتفع الناس بعلمه ، وعليه أن يجعل لكل منهم اختصاصاً فى عمله لا يتعداه . ونصحه بأن يستخدم أهل بيته ويُسْنِد إليهم جسام الأمور والأعمال . ثم وقف عند الخراج أو بعبارة أخرى الضرائب المفروضة على الأراضى والضياع فى الدولة ، ولفت المنصور إلى ما فيها من فوضى ، إذ ليست هناك قواعد مقررة ، وكل عامل يفرض الضريبة حسب مشيئته ، ودعاه إلى وضع وظائف ثابتة على كل أرض وكل ضيعة ، وبذلك يقف ظلم العمال ويأمن الزراع على عمارة ضياعهم وأراضيهم ، كما دعاه إلى تخير عُمَّال الخراج وتفقُّدهم واستبدال من تظهر عليه خيانة . وتحدث عن أهل الجزيرة العربية من الحجاز واليمن ومَنْ وراءهم من البدو ، وطلب إلى

المنصور أن تسخو نفسه عن أموالهم من الصدقات وغيرها مما يُجْبَى منهم، وكأنه نظر فى ذلك إلى فقر بلادهم وجَدْبها وأنهم كانوا مادة الإسلام والفتوح . ودَعَاه إلى أن يولى عليهم الخيار من أهل بيته . وطلب إليه أخيراً أن يعين فى الأمصار طائفة من الفقهاء والمحدثين النابهين تكون مهمتهم تأديب العامة وتبصيرها الخطأ ومنعها من البِدَعِ والفتن ، وبذلك رشَّح ابن المقفع لقيام وظيفة المحتسب فى الدولة العباسية ، وكان يُعْهَدُ إليه بمراقبة الأسواق والحكم فيما ينشأ فيها من منازعات وجنايات وما يكون من خطأ فى البيع والشراء أو نقص فى المكاييل والموازين .

وقد يكون ابن المقفع تأثر فى هذه الرسالة ببعض أنظمة الحكم الساسانية وبما سمعه عن قانون جوستنيان الرومانى ولكن من المحقق أنه صَدَرَ فيها عن فطنة وقوة ملاحظة لأحوال الدولة الإسلامية فى عصره وما حذقه من شئون السياسة التى استوحاها مما قرأه عند الأوائل . ودائمًا لا نستطيع أن نُخْليه فى كتاباته من التأثر بالثقافات الأجنبية إذ كان أكبر من اطلعوا عليها فى عصره ، وكان ذهنه من الخصب ، بحيث يستنبط كثيراً من الآراء والأفكار وخاصة ما يتصل بالإصلاح الاجتماعى والسياسى . ولعل هذا الإصلاح الذى كان ينشده للدولة العباسية هو الذى دفعه إلى ترجمة القصص الخيالى الهندى ، أو بعبارة أخرى ترجمة كليلة ودمنة ، ويقال إنها نُقلت فى عهد كسرى أنو شروان من الهندية إلى الفهلوية ، وقد عثر الباحثون على بعض أصولها الهندية ، من مثل « بَنْچ تانترا » ومثل « هتو باذشا » ووجدوا منها بعض أصول فى « المهابهارتا » مما يؤكد أنها هندية الأصول ، بل يثبته إثباتا قاطعًا[1] . ورجَّح كثير من الباحثين أن ابن المقفع زاد فى الكتاب بعض الفصول والقصص ، ولكن ربما زاد ذلك بعض مَنْ جاء بعده ، إذ تُرْجم الكتاب مرارا ، شعراً ونثراً ، وأكبر الظن أن ابن المقفع لم يزد إلا الفصل الذى وضعه بين يدى القصص وسماه « عرض الكتاب » وذكر البيرونى قديمًا أنه زاد أيضا باب برزويه« قاصدا تشكيك ضعفى العقائد فى الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب المنانية ، وإذا كان متهماً فيما زاد لم يخل عن مثله فيما نقل[2]»

---

(١) مقدمة كليلة ودمنة (طبع دار المعارف) ص ٣٥ وما بعدها .

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٨٦ .

غير أن أبحاث المحدثين أثبتت أن هذا الفصل كان موجوداً فى الأصل الفارسى ، مما يجعلنا نظن أن أصحاب الدعوة المانوية من الفرس استغلوا الكتاب قبل نقله إلى العربية فى الدعوة لمذهبهم المانوى .

ومَثَلُ ابن المقفع فى ترجمةهذا الكتاب مَثَلُهُ فى ترجمة الحكم والآداب الفارسية السياسية والاجتماعية والخلقية يصبُّ فى دقة المعنى الذى يترجمه فى القوالب العربية التى تلائمه وتلائم الذوق العربى ، بحيث خُيِّل إلى كثير من القدماء أن كل تلك الترجمات من تأليفه وتصنيفه ، إذ لم يجدوا أى فارق فى الصياغة بين ما يترجمه وينشئه . وحقًّا حمل عليه الجاحظ فى ترجمته لمنطق أرسطو ، إذ لاحظ فى ألفاظه قصوراً أحيانا عن أداء المعانى المنطقية[1] ، وهو قصور منشؤه صعوبة أداء هذه المعانى لأول مرة فى العربية ، ومهما يكن فله فضل الرائد . وهو إن فاته التوفيق فى نقل المنطق الأرسططاليسى فإنه لم يفته فى بقية ترجماته ، وأمامنا كليلة ودمنة التى لا تُعَدُّ آية من آيات بلاغته فحسب، بل تعد آية من آيات البلاغة العباسية على الإطلاق. وفى رأينا أن غَضَّ الجاحظ من ترجمته لمنطق أرسطو هو الذى دفع طه حسين فى كتابه « من حديث الشعر والنثر » إلى التشكك فى مقدرته على أداء المعانى الدقيقة العميقة حتى ليقول عنه : « له عبارات من أجود ما تقرأ فى العربية وبنوع خاص فى الأدب الكبير وفى كليلة ودمنة ، ولكنه عند ما يتناول المعانى الضيقة التى تحتاج إلى الدقة فى التعبير يضعف ، فيكلف نفسه مشقة ويكلف اللغة مشقة »[2] ويبلغ من إزرائه عليه أن يقول إنه « كان مستشرقا كغيره من المستشرقين يحسن اللغة العربية فهما ، وربما أعياه الأداء فيها » ويستشهد لذلك بأمثلة من رسالة الصحابة والأدب الكبير ، كل ما يلاحَظُ عليها اضطرابٌ فى بعض الضمائر ، وكأنه نسى أن الرسالتين تداولتهما أيدى النساخ بعد ابن المقفع وأنه ربما دخلها هذا الارتباك من أيديهم . والحق أنه أسرف فى إزرائه عليه وفى عده مستشرقا كالمستشرقين الغربيين فى عصرنا ، فهؤلاء لا ينشأون فى بيئات عربية كبيئة البصرة التى نشأ فيها ابن المقفع ، وهم لا ينقلون إلى العربية آثار قومهم الأدبية على نحو ما كان ينقل ابن المقفع عن

---

(١) الحيوان ١/٧٦ .

(٢) من حديث الشعر والنثر ص ٤٨ وما بعدها

الفارسية ، ثم هم لم يوظّفوا فى الدواوين العربية ولم يعملوا فيها كتّابا يكتبون الرسائل السياسية الرسمية ، على نحو ما وُظّف ابن المقفع . ولم يكن كاتباً فحسب بل كان أيضاً يحسن صوغ الشعر العربى ، وقد أجمع معاصروه على أنه كان آية فى البلاغة ، وجعلوه على رأس البلغاء العشرة الذين سمّوْهم فى هذا العصر[1] ، وبلغ من إعجابهم به أنهم كانوا يكثرون من أسئلته عن البلاغة ، على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع ، ونفسُ الجاحظ يقول فى بعض رسائله إن الكتاب الناشئين كانوا يتدارسون آثاره ليحذقوا البيان وليلقحوا عقولهم وألسنتهم بخير لقاح[2] .

ولم يكن ابن المقفع بليغا فحسب ، بل كان أكبر بلغاء عصره ، إذ استطاع أن يملأ أوانى العربية بمادة أجنبية غزيرة ، دون أن يُحدث فيها انحرافًا من شأنه أن يجرّ ضرباً من الازدواج اللغوى ، إذ من المعروف أن لكل لغة صياغتها وأنماطها الخاصة فى التعبير ، ولها أيضا صُوَرُها وأخيلتها التى قد تستعصى على الأداء فى لغة أخرى . وشىء من ذلك لا يصادفنا عند ابن المقفع ، فقد استطاع أن يحتفظ للعربية فى ترجماته بمقوماتها الأصيلة ، كما استطاع الملاءمة بين الأخيلة والصور الفارسية وذوق اللغة العربية ، بحيث لا نحسُّ عنده نُبُوًّا ولا انحرافاً ، مما يشهد له بقدرته البيانية وأنه استطاع أن يحوز لنفسه السليقة العربية التامة بكل شاراتها وسماتها اللغوية .

والحق أنه كان آية فى البلاغة وجزالة القول ورصانته مع سهولته ، وقد نصح مرة لبعض الأدباء ، فقال له : « إياك والتتبع لوحشىّ الكلام طمعًا فى نَيْل البلاغة فإن ذلك هو العِىُّ الأكبر » . ولعل خير ما يصف بلاغته إجابته لسائل سأله عن البلاغة فقال : « هى التى إذا سمعها الجاهل ظنّ أنه يحسن مثلها » .

والمسألة لا تقف عند وصفه بالبلاغة ، فهى أوسع من ذلك وأبعد مدى ، إذ كان من أوائل من ثبّتوا الأسلوب الكتابىّ العباسىّ المولّد . وهو أسلوب يقوم على الوضوح وأن تشفّ الألفاظ عن معانيها وأن تخلو من كل غريب وحشىٍّ ومبتذل

---

(١) الفهرست ص ١٨٢ .

(٢) ثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فنكل) ص ٤٢ .

عامى . ولم يَقْصر ابن المقفع هذا الأسلوب على ما ينشئه من رسائل ديوانية أو إخوانية ، بل عممه فى ترجماته ، وبذلك وطّده أقوى توطيد ومكّن له أوسع تمكين ، إذ جعله أسلوب النثر العام فى العصر مهما اختلفت فنونه . وكانت غزارة معانيه سبباً فى أن يتميز هذا الأسلوب عنده بالإيجاز والاقتصاد الشديد ، فالألفاظ بقدر المعانى لا تنقص ولا تزيد ، والمعانى تؤدَّى أداء فصيحاً رصيناً ، دون قصد إلى الجمال التعبيرى من سجع أو ترادف صوتى . ويظهر أنه على الرغم من زندقته كان يبهره جمال القرآن وصياغاته فاستعار من ألفاظه وأساليبه كثيراً فى جوانب كتاباته حتى فى القصص الحيوانى قصص كليلة ودمنة ، وطبيعى أن تبلغ هذه الاستعارة عنده الغايةَ فى تحميداته التى كان يفتتح بها الرسائل السياسية الرسمية والتى كان يعظّم فيها الدين الحنيف على نحو ما نرى فى هذا التحميد[1] :

« الحمد لله ذى العظمة القاهرة ، والآلاء الظاهرة ، الذى لا يُعْجزه شىْءٌ ولا يمتنع منه ، ولا يُدْفَعُ قضاؤه ولا أمره : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كُنْ فيكون) . والحمد لله الذى خلق الخلق بعلمه ، ودبّر الأمور بحكمه ، وأنفذ فيما اختار واصطفى منها عزمه بقدرة منه عليها ومَلَكَة[2] منه لها (لا معقب لحكمه) ولا شريك له فى شىء من الأمور (يخلق ما يشاء ويختار) وما كان للناس الخِيرَة فى شىء من أمورهم (سبحان الله وتعالى عما يشركون) . والحمد لله الذى جعل صفوة ما اختار من الأمور دينه الذى ارتضى لنفسه ولمن أراد كرامته من عباده ، فقام به ملائكته المقرّبون ، يعظّمون جلاله ويقدسون أسماءه ويذكرون آلاءه لا يَسْتحسرون[3] عن عبادته ولا يستكبرون (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وقام به من اختار من أنبيائه وخلفائه وأوليائه فى أرضه يطيعون أمره ويذبّون عن محارمه ، ويصدّقون بوعده ، ويوفون بعهده ويأخذون بحقه ويجاهدون عدوّه . وكان لهم عند ما وعدهم من تصديقه قولهم وإفلاجه[4] حُجّتهم وإعزازه دينهم وإظهاره حقهم وتمكينه لهم ، وكان لعدوه وعدوهم عند ما أوعدهم من خزيه وإحلاله بأسه ، وانتقامه منهم وغضبه عليهم . مضى على ذلك أمره ونفذ فيه قضاؤه

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/٥٣ .

(٢) ملكة : ملك .

(٣) يستحسر بالشىء : يعيا به .

(٤) إفلاجه : نصره .

فيما مضى ، وهو ممضيه ومنفذه على ذلك فيما بقى (ليُتِمَّ نوره ولو كره الكافرون) و(ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) . والحمد لله الذى لايقضى فى الأمور ولا يدبِّرها غيره ، ابتدأها بعلمه وأمضاها بقدرته ، وهو وليُّها ومنتهاها ، وولىُّ الخيرَة فيها والإمضاء لما أحبَّ أن يمضى منها (يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخِيرَة سبحان الله وتعالى عما يشركون) . والحمد لله الفتاح العليم العزيز الحكيم ، ذى المَنّ والطَّوْل [١] والقدرة والحَوْل [٢] ، الذى لا ممسك لما فتح لأوليائه من رحمته ، ولا دافع لما أنزل بأعدائه من نقمته ، ولا رادَّ لأمره فى ذلك وقضائه ، يفعل ما يشاء ، ويُحْكِم ما يريد . والحمد لله المثيب بحمده ومِنْه ابتداؤه ، والمنعم بشكره وعليه جزاؤه ، والمثنى بالإيمان وهو عطاؤه » .

والآيات المقتبسة من الذكر الحكيم كثيرة فى هذا التحميد ، وقد وضعناها بين أقواس لتتضح مواضعها ، ووراءها ألفاظ كثيرة مستمدة من القرآن الكريم . وبَدَا عنده هنا شىءٌ من السجع الذى يأتى عفواً سمحاً ، وكأنما ابتغى هنا التنميق بأكثر مما كان يبتغيه فى ترجماته . ونحن نسوق طائفة من رسائله الإخوانية ليتضح لنا ما كان يبذل فيها من جهد فنى ، وأول ما نذكر منها تهنئة بمولودة لأحد أصدقائه على هذا النمط [٣] :

« بارك الله لكم فى الابنة المستفادة ، وجعلها زَيْنًا ، وأجرى لكم بها خيراً ، فلا تكرهْها ، فإنهن الأمهات والأخوات والعمَّات والخالات ، ومنهن (الباقيات الصالحات) ورب غلامٍ ساء أهله بعد مسرَّتهم ، وربَّ جارية فرَّحتْ أهلها بعد مساءتهم »

واقتبس هنا من القرآن كلمة (الباقيات الصالحات) وعُنِى بالإيجاز والاقتصاد الشديد ، ومما كَتَب به فى التعزية عن ولد [٤] :

« إنما يستوجب على الله وعده مَن صبر لله بحقِّه ، فلا تجمعنَّ إلى ما فُجِعت به من ولدك الفجيعةَ بالأجر عليه والعوض منه ، فإنها أعظم المصيبتين عليك ، وأنكى المَرْزِئَتَيْنِ [٥] لك ، أخلف الله عليك بخير ، وذخر لك جزيل الثواب » .

---

(١) الطول : الإنعام .
(٢) الحول : القوة .
(٣) جمهرة رسائل العرب ٥٧/٣ .
(٤) جمهرة رسائل العرب ٥٨/٣ .
(٥) المرزءتين : المصيبتين .

والدقة المنطقية واضحة فى هذه الرسالة مع ما يجرى فيها من طرافة التفكير ، فقد جعل الجزع على الولد فجيعة لا تقل عن فجيعة فقده ، بل جعلها أعظم وأنكى ، إذ تحرم صاحبها الثواب . وتلطّفَ فدعا لصاحبه أن يعوضه الله من ولده ويخلف عليه بخير منه ؛ ومن رسائله الإخوانية البديعة ماكتب به إلى بعض إخوانه يستقضيه حاجة[1] :

« أما بعد فإن من قضى الحوائج لإخوانه واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عملَ لا لهم . والمعروف إذا وُضع عند من لا يشكره فهو زرعٌ لا بد لزارعه من حصاده أو لعَقِبِه من بعده . وكتبت إليك ، ولحالنا التى نحن بها فيما نذكر لك حاجة ، أولُ ما فيها معروف ،تستوجب به الشكر علينا، وتدّخِرُ به الأيادى قبلنا » .

ودقةُ التفكير واضحة فى الرسالة ، فقد جعل قضاء أخ لأخيه حاجة ليس مما يؤديه إليه ،وإنما يؤديه إلى نفسه، لقيامه بحقوق أخيه ونهوضه بواجبه نحوه . ويتحدّث عن بذل المعروف ، ويتبادر إليه جحود بعض الناس، فيقول إن المعروف غَرْسٌ لا بد من حصاده حتى عند من يجحدون ولا يشكرون . ومرت بنا فى الفصل السالف رسائل إخوانية تحوّل بها بعض الكتّاب إلى ما يشبه رسائل أدبية تصف الأخوة والصداقة من حيث هما مفصّلةً صفاتهما وشرائطهما ، ولابن المقفع قطعة أدبية بديعة فى وصف أحد إخوانه ، وفى رأينا أنه لم يصف فيها أخاً بعينه ، إنما وصف المثل الأعلى للأخ الكامل ، أو بعبارة أدق للرجل الفاضل ، وهى تمضى على هذه الشاكلة[2] :

« إنى مخبرك عن صاحب لى كان أعظمَ الناس فى عينى ، وكان رأس ما عظّمه عندى صِغَرُ الدنيا فى عينه . كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهى ما لا يجد ، ولا يَكْثِر إذا وجد . وكان خارجاً من سلطان فَرْجه ، فلا يدعو إليه ريبةٌ ، ولا يستخفّ له رأياً ولا بدنا ، وكان لا يَأْشَرُ[3] عند نعمة ، ولا يستكين عند

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/ ٦٠ .

(٢) انظر هذا الوصف فى آخر الأدب الكبير ، وفى زهر الآداب ١/ ١٧٩ وفى جمهرة رسائل العرب ٣/ ٥٦ .

(٣) يأشر : يبطر.

مصيبة . وكان خارجاً من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يمارى[1] فيما علم . وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يقدم إلا على ثقة بمنفعة . وكان أكثر دهره صامتاً ، فإذا نطق بَذَّ القائلين . وكان يُرَى ضعيفاً مُستَضْعفاً ، فإذا جَدَّ الجِدُّ فهو اللَّيْثُ عادياً . وكان لا يدخل فى دعوى ، ولا يشارك فى مِراء ، ولا يُدْلى بحجة ، حتى يَرَى قاضياً فَهِماً وشهوداً عدولا . وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العُذْر فى مثله ، حتى يعلم ما اعتذاره . وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البُرْء ، ولا يستشير صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة . وكان لا يتبرَّم ، ولا يتسخَّط ، ولا يتشكَّى ، ولا يتشهَّى . وكان لا ينقم على الولىّ ولا يغفل عن العدو ، ولا يخصّ نفسه دون إخوانه بشىء من اهتمامه وحيلته وقوته . فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها ، ولن تُطيق ، ولكنّ أخْذَ القليل خَيْرٌ من تَرْك الجميع ».

وواضح أن هذا الوصف للرجل الكامل وخصاله يُعَدّ درة ثمينة من درر البلاغة العباسية ، ومن الخطأ البين أن يقال عن صاحبه وصاحب النصوص التى أسلفناها إنه كان كأحد المستشرقين يتعثر فى أساليبه وتضطرب لغته ، ويجنبه أحياناً الأداء السليم ويستعصى عليه استعصاء ، فقد كانت اللغة العربية تستقيم له ، وكان أعجوبة زمانه فى البيان والبلاغة مع الجزالة والنصاعة حيناً ، وحيناً آخر مع العذوبة والرشاقة .

٢

سهل بن[2] هرون

هو سهل بن هرون بن راهبونى كما جاء فى البيان والتبيين ، وفى كتاب البخلاء

(١) يمارى : يجادل .

(٢) انظر فى ترجمة سهل وأخباره البيان والتبيين ١/٥٢ ، ٨٩ ، ١٩٦ ، ٢٣٨ ، ٣٤٦ ، ٣/٢٩ والحيوان ٢/٣٧٤ ، ٣/٦٦ ، ٤٦٦ ، ٥/٦٠٣ ، ٧/٢٠٢ والفهرست ص ١٧٤ وزهر الآداب ٢/٢٥٧ - ٢٥٩ والتنبيه والإشراف للمسعودى (طبع ليدن) ص ٧٦ وعيون الأخبار ٢/٢٥ ، ١٣٨ ، ٤/١١٢ وشرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون (طبعة دوزى) ص ٢٤٣ والعقد الفريد ٥/٥٨ وفى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وفوات الوفيات ١/١٨١ وسرح العيون فى شرح رسالة =

« راهبون » وفى الفهرست « رامنوى » وفى حياة الحيوان للدميرى « راهويه » . وهو فارسى الأصل، وعلى نحو ما اختلف الرواة فى اسم جده اختلفوا فى مسقط رأسه ، فقيل إنه من أهل دَسْتميسان ، وهى كورة بين البصرة وواسط والأهواز ، وقيل إنه من أهل ميْسان قرية بتلك الكورة، وقيل إنه من أهل نيسابور . ولا يُعْرَفُ تاريخ مولده ، وأغلب الظن أنه وُلد حوالى منتصف القرن الثانى الهجرى ، وقد ترك مسقط رأسه مبكراً إلى البصرة ، وأقبل على التزود من ينابيع الثقافة التى كانت منبثّة بها ، وخاصة علم الكلام وما نُقل عن الأجانب من مختلف الترجمات فارسية ويونانية وهندية ، وأخذ هو نفسه يشارك فى ترجمة بعض الرسائل عن لغته الأصلية . وتجذبه بغداد إليها آملا أن ينال بها شيئاً من المجد والشهرة ، وسرعان ما يقرّبه يحيى البرمكى وزير الرشيد منه ، فيُلْحقه بالدواوين ، حتى إذا أسس الرشيد دار الحكمة عُين بها للإشراف على بعض الكتب وبعض ما كان يُتَرْجَمُ فيها من الآداب الأجنبية ، إذ كان أحد النقلة النابهين من لسانه الفارسى إلى العربية .

وفى أثناء صلته بالبرامكة وبعد نكبتهم سنة ١٨٧ للهجرة انعقدت صداقة وثيقة بينه وبين الفضل بن سهل مدبر شئون المأمون ومستشاره وكاتبه ، فقدّمه إلى المأمون، فأُعْجب ببلاغته وصحة منطقه وذكائه ، حتى إذا تحوّلت الخلافة إليه وأخذ يعنى بشئون دار الحكمة عنايته الواسعة المعروفة ، إذ حولها إلى ما يشبه أكاديمية ضخمة ، جعله قيّماً على خزائن كتب الفلسفة التى جُلبت من قبرص ، ليشرف على نقلها إلى العربية . وكان يلزم المأمون فى مجالسه وندواته التى كان يعقدها لكبار العلماء والمتكلمين ، وما زال خازناً بدار الحكمة حتى توفى سنة ٢١٥ للهجرة .

واشتهر سهل فى زمانه بالحكمة والبلاغة حتى سماه معاصروه بزُرُجمهر الإسلام ، إشارة إلى أنه يحل فى العربية محل بزرجمهر فى الفارسية وما أثر عنه من حكم وأمثال كثيرة ، ووصفه الجاحظ فقال : «كان سهل سهلاً فى نفسه عتيقَ الوجه[1] ، حسن الشارة ، بعيداً من الفَدامة[2] ، تقضى له بالحكمة قبل الخبرة

ابن زيدون لابن نباتة (نشر دار الفكر العربى) ص ٢٤٢ وحياة الحيوان للدميرى ١/٥١٣ وحولية الجامعة التونسية العدد الأول سنة ١٩٦٤ .

(١) عتيق الوجه : جميل .
(٢) الفدامة : العى .

وبرقة الذهن قبـل المخاطبة وبدقة المذهب قبل الامتحان ، وبالنبل قبل التكشف [1] » ووصفه الحسن بن سهل وزير المـأمون فقال : « وازن العلم ، واسع الحلم ، إن حودث لم يكذب ، وإن موزح لم يغضب ، كالغيث أين وقع ، وكالشمس حيث أولت ، أحيت ، وكالأرض ما حملتها حملت ، وكالماء طَهور للتمسه وناقع لغُلّة مَن حَرّ [2] إليه ، وكالهواء الذى تُقْتطَفُ منه الحياة بالتنسم ، وكالنار التى يعيش بها المقرور ، وكالسماء التى قد حسنت بأصناف النور » . ويقول ابن النديم إنه كان « شعوبى المذهب ، شديد العصبية على العرب ، وله فى ذلك كتب كثيرة ورسائل فى البخل » وكأنه أراد بتلك الرسائل أن ينقض فضيلة الكرم العربية . وكان البخل سجية وطبعاً ركّب فيه ، ورُويت عنه فى ذلك نوادر كثيرة ، منها أن شخصاً لقيه ، فقال له : هَبْ لى ما لا ضرر به عليك ، فقال : وما هو يا أخى ، قال : درهم ، فقال سهل : لقد هوّنت الدرهم ، وهو طائع الله فى أرضه لا يَعْصى ، وهو عشر العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف دية المسلم ، ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذى هوّنته ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم . فانصرف الرجل ، ولولا انصرافه لم يسكت سهل . ومن حكاياته العجيبة فى البخل ما حكاه دعبل ، قال : « كنا عنده يوماً ، فأطلنا القعود ولم نَبْرح ، حتى كاد يموت جوعاً ، فلما اضطررناه قال : يا غلام ويلك غدّنا ، فأتاه بصَحْفة فيها مَرَق ، تحته ديك هرم لا تحزُّ فيه السكين ولا تؤثر فيه الأضراس ، فاطّلع فى الصحفة وقلّب بصره فيها ، ثم أخذ قطعةَ خبز يابس ، فقلّب جميع ما فى القصعة ، حتى فقد الرأس من الديك . فبقى مطرقاً ساعة ، ثم رفع رأسه إلى الغلام ، فقال : أين الرأس ؟ فقال : رميتُ به ، قال سهل : ولم رَميتَ به ؟ قال : لم أظنك تأكله ، قال : ولأى شىء ظننت أنى لا آكله ؟ فوالله إنى لأمقت من يرمى برجليه ، فكيف من يرمى برأسه ، ثم قال له : لولم أكره ما صنعته إلا للطّيَرة (التشاؤم) والفأل لكرهته ، الرأس رئيس وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أُريد ، وفيه فَرْقه الذى يتبرّك به ، وعينه التى يُضْرَب بها المثل ، يقال شراب

---

(١) البيان والتبيين ١/٨٩ .

(٢) حر : عطش ، والصفة حران .

كعين الديك فى الصفاء ، ودماغه عجيب لوجع الكُلْيَة ، ولم أر عظماً قط أهش تحت الأسنان من عظم رأسه ، فهلا إذ ظننت أنى لا آكله ظننت أن العيال يأكلونه ؟ وإن كان بلغ من نُبْلك أنك لا تأكله فإن عندنا من يأكله ، أما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن الساق والعنق ؟ انظر أين هو ؟ قال : والله ما أدرى أين رميتُ به ، قال سهل : لكنى أدرى أنك رميتَ به فى بطنك ، واللهُ حسيبك » .

ولعل فى هذه النادرة وسابقتها ما يدل على ظرفه ، وهو ظرف كان يشوبه بالفكاهة الحلوة أحياناً ، وأحياناً بالسخرية المرة ، من ذلك أنهم قَصُّوا عنه أنه حدَّث بعض الأمراء ، فقال له كذبت ، فأجابه على البديهة : إن وجه الكذاب لا يقابلك ، يعنى أن الأمير هو الكذاب ، لأن وجه الإنسان لا يقابله .وطلب إليه أبو الهذيل العلَّاف المتكلم المشهور أن يكتب له رسالة إلى الحسن بن سهل يوصيه فيها به ، فلبَّى طلبه ، ولما تقدم بها إلى الحسن وفضَّها وقرأ ما فيها أغرب فى الضحك ، إذ وجد سهلا ينهاه عن أن يمدَّ لأبى الهذيل العَوْنَ بأبيات تتحيَّفه وتقبض يد قارئها عن مساعدته ، استهلَّها بقوله :

إن الضميرَ – إذا سألتُك حاجةً لأبى الهُذَيْل – خِلافُ ما أُبْدى
فامنَحْه روحَ اليأس ثم امْدُدْ له حَبْلَ الرَّجاء بِمُخْلِفِ الوَعْدِ
حتى إذا طالتْ شقاوةُ جدِّهِ وعَنــائه فاجْبَهْــهُ بـالرَّدِّ

وقال الحسن : هذه صفته لا صفتنا ، وأمر لأبى الهذيل بمال ، فعاد إليه ، وعاتبه ، فقال سهل : تُرَى أين عَزَب عنك الفهم ، أما سمعتَ قولى : « إن الضمير خلاف ما أبدى ، فلو لم يكن ضميرى الخير ما قلت هذا . وهى مغالطة واضحة ، غير أنها تدل على قدرته العقلية فى الإتيان بالحجة الصحيحة تارة ، والحجة المدخولة تارة ثانية .

وكان سهل يحسن القول نثراً وشعراً ، وفيه يقول الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة والسِّيَر الحسان المدَّونة والأخبار المولَّدة سهل بن هرون بن راهبونى الكاتب صاحب كتاب ثعلة وعفراء فى معارضة كتاب كليلة ودمنة ، وكتاب الإخوان وكتاب المسائل

وكتاب المخزومى والهذلية وغير ذلك من الكتب» . وذكر ابن النديم من كتبه أيضًا « كتاب النمر والثعلب ، وكتاب الوامق والعذراء ، وكتاب ندود وودود ولدود وكتاب الضربين وكتاب الغزالين وكتاب أدب أسل بن أسل وكتاب إلى عيسى ابن أبان فى القضاء وكتاب تدبير الملك والسياسة » . وذكر ابن نباتة كتاباً له فى سيرة المأمون .

ويظهر أنه عُنى فى كثير من كتبه بالقصص على ألسنة الحيوان ، مشاكلة لكتاب كليلة ودمنة ، وكان من أهم ما وضعه فى ذلك كتاباه : « ثعلة وعفراء » و « النمر والثعلب » وقد أشاد المسعودى بأولهما وقال إنه يزيد على كليلة ودمنة بحسن نظمه . وقد اتخذ من الحيوان وسيلة للعظة والتربية الاجتماعية والسياسية بما يفصّل من الكلام وضرب الحكم والأمثال بالضبط كما صنع واضع كليلة ودمنة، ولم يبق لنا من كتاب ثعلة وعفراء سوى هذه النصيحة :

« اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدّماً قبل الذى تجودون به من تفضلكم ، فإن تقديم النافلة مع الإبطاء عن الفريضة مُظاهِرٌ على وهَن العقيدة وتقصير الرويّة ، ومضر بالتدبير ومخِلٌّ بالاختيار ، وليس فى نفع تُحْمَدُ به عوضٌ من فساد المروءة ولزوم النقيصة » .

ويقول الحُصْرى بعد ذكره لهذه النصيحة : إن هذا الكتاب مملوء حكماً وعلماً . وعثر السيد عبد القادر المهيرى حديثًا على كتاب النمر والثعلب ، ونشر مقتطفات منه مع مقدمة فى العـــدد الأول من حولية الجامعة التونسية ، والكتاب ، أو بعبارة أدق القصه تدور على ثلاث شخصيات هى الثعلب الحكيم والذئب الجحود والنمر الطاغى ، وتتسلسل القصة تسلسلاً دقيقًا ، فالثعلب كان يعيش مع زوجه فى واد غبر عليه زمان فيه وهو حسن الحال رخىّ البال ، ومرّ به ثعلب آخر ، فأنكر موضع جحره من الوادى ونصحه أن يتحول عنه ، مخافة أن يهجم عليه السيل ، واستشار زوجه ، فأبت عليه التحول ، ولم يلبث أن جاء طوفان من السَّيْل حمله وحده إلى جزيرة لم يسمع بها حَسيساً ، ولم ير أنيساً ، فبات ليلته طاوياً حتى أصبح ، وبينما يتلفت من حوله إذا ذئبٌ يمرُّ به ، فتعارفا ، وسرعان ما عرف منه أن الجزيرة تمتلئ بالظباء وبقر الوحش غير أنه لا يستطيع أن يصيدها ولا أن

يقربها ولا أن يتجاوز موضعه ، لخضوع الجزيرة وكل ما بها من وحش لملك طاغ باغ هو النمر الذى تجبَّر وتكبر . وقال له : إننى لا أكلمك الآن إلا فزعاً مرتعباً خشية أن يرانا ، فلننصرف ، ولنلتق غـداً فى مكان خفىّ ، فالتقيا ، وأشار عليه الثعلب أن يقدم على النمر فيتلطف له ويطلب منه ولاية فى الجزيرة يقوم على حكمها ويشاطره خيراتها ، ويتخذ منه وزيراً يعينه على إدارتها . ويبدى الذئب خوفه من لقاء الملك الباطش ، وما يزال يشجّعه حتى يلقاه . ويُعجبه حديثه وما عرض عليه ، فيعيِّنه والياً على مناهل الظباء . ونحن نسوق هذه القطعة من القصة لندل على أسلوب سهل وطريقته فى هذا القصص الحيوانى الخيالى ، وهى تحكى ما حدث بعد لقاء الثعلب للذئب فجأة واتفاقهما على اللقاء ، وما كان بينهما من حوار فى هذا اللقاء ، وما أثمر الحوار للذئب من الولاية وللثعلب من الوزارة :

« انصرف الثعلب حزينا مغتمًّا لما حَزَره من عداوة النمور وعدم القوت ، ثم فكر فقال : إنما يُعْرَفُ فضل عقل المرء فى شدائد الأمور ونوازل الخطوب ، فأما عند الرخاء فما أقرب الجاهل من العالم والأحمق من العاقل ، وذلك أن مساعدة الدنيا للجاهل ساترة لنقصه عن زيادة العاقل وحاجبة عن التمييز بينه وبين اللبيب وليس لمثلى قوة على صيد الظباء وبقر الوحش ، وإنما يصيد كل امرئ [على] قدره ، وليس ههنا إلا طلب الحيلة . فلما أصبح الصبح قصد المكان الذى وعد الذئبَ فيه والتقيا هنالك عن رِقْبة (تحفظ) من النمر ، فقال له الثعلب يا أبا الفَرّاء كنت مهموماً بنفسى ، فزادنى اهتماماً ما أبثثتنى من حديثك وألقيتَ إلىّ من سوء حالك ، وههنا تدبيرٌ إن أعنتنى عليه بهمة صادقة ، فلعله أن يعود إلى صلاح ، فقال الذئب : وما هو ؟ قال الثعلب : ائتِ النمرَ ، فسَلْهُ أن يوليك ولاية تردُّ عليك نفعاً وتردّ لك ذكراً وتكسبك حمداً ، قال الذئب : فأين ما أخبرتك عن بخله وشراسة خلقه ، وإنه لكما قال القائل : سواء هو والعدم ، قال الثعلب : فأعلمْه أنك لا تفيد شيئاً إلا بعثت إليه بشطره فإن لك فيما يبقى منتفعاً وصلاحاً ، فإن أجابك فلن تعدم منى معونة حسنة وقياماً بالذى يجب ، وكن كما قال الشاعر :

وليس الرزقُ عن طلبٍ حَثيثٍ ولكن أَلْقِ دلْوك فى الدِّلاء

تجئك عملثها طورًا وطورًا تجيءُ بِحمْأةٍ وقليل ماءِ[١]

قال الذئب : يا أبا الصّباح إنه كان يقال : اتقوا مقارفة[٢] الحريص الغادر ، فإنه إن رآك فى القوة رأى منك أخبث حالاتك . وإن رآك فى الفضول[٣] لم يدعك وفضولك ، قال الثعلب : يا أبا الفراء : إنه ليس الرأى . . من عاش غير خامل الذكر والمنزلة إذا أفضل على نفسه وأصحابه فهو وإن قلّ عمره طويل العمر ، ومن كان عيشه فى ضيق وقلّ خيره على نفسه وعلى الناس فهو وإن طال عمره قصير العمر . قال الذئب : إنه كان يقال : أمور ثلاثة لا يجترئ عليها إلا أهوج ولا يسلم منها إلا قليل : صحبة السلطان وائتمان النساء على الأسرار وشرب السمّ على التجربة . قال الثعلب : قد يُبْلَغُ الخَضْمُ بالقَضْمِ [٤] ، ويركب الصعْبَ من لا ذَلول له . وليس يواظب على باب السلطان أحد ، فيُلْقى عن نفسه الأنفة ويتحمل الأذى ويكظم الغيظ ويرفق بالناس إلا خلص إلى حاجته من السلطان . قال الذئب : إنه كان يقال : لا تغتبط بسلطان من غير عدل ، ولا بغنى من غير فضل ، ولا ببلاغة من غير صدق ، ولا بجود من غير إصابة ، ولا بحسن عمل من غير خشية . قال الثعلب : إنه ينبغى للعاقل أن يدارى الزمان مداراة الرجل السابح فى الماء الجارى ، وقال المتمثل : أرْضَى من المركب بالتعلق . قال الذئب : السبب الذى يدرك به العاجز حاجته هو السبب الذى يحول بين الحازم وطلبته . قال الثعلب : المال زيادة فى القوت والرأى ، وليس الإخوان والأهل والأعوان إلا مع المال ، ولا يُظْهر المروءة إلا المال ، لأن من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمراً قعد به العُدْم فقصّر عنه . قال الذئب : إنّ للسلطان سكرات ، فنها الرضا عن بعض من يستوجب السخط ، والسخط عمن يستوجب الرضا ، ولذلك قيل : قد خاطر من لَجّجَ فى البحر ، وأشدُّ منه مخاطرة مَنْ صاحب السلطان . قال الثعلب : من لم يركب الأهوال على صعوبتها لم ينل الرغائب ، ومن ترك الأمر الذى لعله أن يبلغ فيه حاجته مخافة ما لعله يُوَقّاه فليس ينال

---

(١) الحمأة : الطين الأسود .
(٢) مقارفة : مخالطة .
(٣) الفضول : جمع فضل وهو النعمة .
(٤) مثل معناه أن الغاية البعيدة قد تدرك بالرفق . وأصل الخضم الأكل بجميع الفم ، والقضم : الأكل بأطراف الأسنان .

جسيماً ، وقد كان يقال : أعمال ثلاثة لا أحد يستطيعها إلا بمعونة ارتفاع همة وعظم خطر : صحبة الملوك وتجارة البحر ومناجزة العدو . فأعجب الذئبَ كلامُه ، فأتى النمر ، فشكر له ، وأقام بين يديه ، وكان لا يعرفه بمثل هذه الذلة . فافتتح الكلام ، فقال : أيها الملك إنى لما أنا عليه من المناصحة والموالاة تأملت باب الملك فوجدته خالياً من صالحى الأعوان وثقات الخدم ، ولما رأيت الملك كثير الكُلف عظيم المؤن رحب الفناء جزل العطاء ، وليس له من عبيده من يعينه على مئونته ويكفيه المهم من عمله ندبتُ نفسى للذى رأيتنى أقوى عليه من حسن السياسة وضبط الناحية التى أتولاها وردّ المنفعة على الملك منها . فأعجب النمر كلامه وطمع فيما وعده ، فقال له : صدقت وبرَرْتَ ، وأنا مستكفيك ومقلّدك ، فأنظرُ كيف يكون ضبطك وكفايتك وغناؤك ووفاؤك بما شرطتَ على نفسك . اكتبْ له يا غلام عهدَه على مناهل الظباء ، واجمعْ له أعمال ما هنالك، فخرج الذئب إلى عمله ، واستخلف الثعلب وأحلّه محل الوزير الكاتب » .

ومضى الذئب إلى ولايته مستصحباً وزيره، حتى إذا دانت له رعيته واستتبّ أمره وتمكن سلطانه أمسك بما كان يرسله للنمر من الخيرات والطيبات ، وراسله النمر وذكّره بعهوده ووعوده ، ولكنه ظل سادراً فى غيّه ، فكتب إليه يحذره وينذره بالعقاب والنكال، وكان الذئب قد صمم على التمرد ونقض الطاعة ، فردّ على النمر بهذه الرسالة العنيفة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الكريم ، أما بعد فإن كتاب الملك — أمتع الله به — وصل إلىّ بما حذّر فيه وأنذر ، وقدّم وأخّر ، وفهمته ، وقد كان الملك — حفظه الله — أسند إلىّ أمر هذا الثغر المخوف على حين انتشار من العدوّ به ، وانقطاع من سُبُله ، واختلاف من الكلمة بين أهله وتفرق من الأهواء فيه ، فرَأبتُ[1] صدْع الآفة ، وجمعت شمل الطاعة ، وكشفت دُجيّة[2] الفتنة وأسغت الريق بعد الشّجا[3] ، وقمعت أولى العداوة والبغضاء ، وأقمت حقّاً كان معلمه[4] متروكاً ، ودمغت ضلالة كان طريقها

(١) رأبت : أصلحت.
(٢) الدجية : الظلمة .
(٣) الشجا : الغصة وما يعترض فى الحلق .
(٤) معلمه : مفرد معالمه .

مسلوكاً ، ألتمس بذلك جزيل الثواب وكريم المآب ورضا الملك والزلفة عنده ، فعاد ما عملته هباء، ولم أجد منه شيئاً مشكوراً ، وما يُقَعْقَعُ لمثلى بالشنان[1] وإنى لألْوَى بعيد المُسْتَمَرّ[2] فإن يستتم الملك صنيعته ويَرُبّ[3] نعمته فأنا بين العصا ولحائها[4] ، وإلا فسيجدنى جِذْلَ حِكاك[5] إذا نكأت[6] قُرْحَةً أدميتها ، أحمر[7] ، ضراباً بالسيف ، والسلام » .

فلما قرأ النمر الرسالة عرف أنه عزم على الانتقاض عليه فجمع وزراءه ، وكانوا ثلاثة، فاستشارهم فى أمره ، فأشار الأول بالكتابة إليه فى إيجاز لتَبَيُّن دخيلة أمره وحقيقة موقفه إنْ سِلْمًا فسِلْمٌ وإن حَرْباً فحرب ، وأشار الثانى بالصفح عن زلَّته ، فإن الحرب سجال ، وهى حتى على الظافر خسارة فى الأموال والرجال ، وأشار الثالث بمحاربته قبل استفحال أمره وحتى لا يظن غيره من الولاة أن بالنمر ضعفاً ، فيحاكوه ويسقطوا عن ظهورهم فرائض السلطان وخراجه ، وأخذ النمر بقول الوزير الأول ، فكتب إلى الذئب رسالة ، نُسْختها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد النبى الكريم ، أما بعد فإنى رأيتك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فإذا نظرت فى كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت فإن كنت سِلْمًا فأقْبِلْ وإلا فأْذَنْ بحربٍ ، والسلام » .

ولجَّ الذئب فى عصيانه ، ونشبت بينه وبين النمر معارك حامية الوطيس ، انتهت بمقتله والقبض على الثعلب وزيره ومدبر أموره ، وكاد أن يُقْتَل لولا ما لاحظ النمر من ذكائه ودقة تفكيره ، مما جعله يَعِدُه أن يُبْقِى على حياته إن هو أحسن الإجابة على ما يُلْقَى عليه من أسئلة . وتتوالى الأسئلة فى الإنسان والعقل وحظ العقلاء منه وتفاضلهم فيه وفى مكانة العقل من العلم وأثره فى سلوك الإنسان وشيمه الخلقية وما يصيبه من خير أو شر . وتلقانا فى هذه الإجابات طرافة تفكير سَهْل

---

(١) الشنان : جمع شن وهو الجلد اليابس . وقعقع : ضرب . وكانوا إذا ضربوا عليه نفرت الإبل ، ويضرب ذلك مثلا لمن لا يرهبه وعيد ولا إنذار ولا تخويف .

(٢) ألوى : عسر، يلتوى على خصمه . بعيد المستمر : قوى فى الخصومة .

(٣) يرب : ينمى ويزيد .

(٤) لحاء العصا : قشرها . والكناية واضحة .

(٥) الجذل : أصل الشجرة . حكاك من الحك وهو الدلك . وجذل حكاك : مثل يضرب لمن يستشفى برأيه .

(٦) نكأ القرحة : قشرها قبل أن تبرأ .

(٧) كنى بالحمرة عن البأس الشديد .

ودقته وتعمقه ، ومن خير ما يصور ذلك حديثه عن تفاضل العقول والعقلاء ونزولهم في درجات متفاوتة تفاوتاً بعيداً ، ومع ذلك يطلق عليهم جميعاً اسم واحد، يقول مورداً السؤال والإجابة ، ومنتهياً إلى أن العقل الكامل من صفات الله وحده .

«أخبرني عن العقل أهو شيء إذا نال الإنسان أدناه فقد بلغ أقصاه أم الناس في نَيْله مستوون أم متفاضلون ؟ قال : بل متفاضلون . قال : فكيف دُعي ذو الحظ اليسير منه باسم ذي الحظ الكبير ، فقيل لهما عاقلان وهما في العقل متباينان ؟ فهل يقع اللقب الواحد على ذوي الدرجات الشتى ؟ قال : نعم ، وليس ذلك بخطأ من القائل ، لأن هذه الدرجات الشتى من جنس واحد ، واللغة تضيق عن هذا وما أشبهه أن يُدْعَى كل ذي درجة من درجات الجنس الواحد بلقب غير لقب الآخر ، ولو كُلِّفت اللغة ذلك لطال الكلام . . . لتوزع المعنى المستوجب للاسم ولكنها شملتها كلها باللقب الواحد ودعت المختلفين فيه باسم واحد . قال : فكيف يعرف الناقص من الزائد وقد جمعهما اسم واحد؟ . قال : بالتمييز وكشف المعرفة ، ومثل ذلك في اللغة ما يُدْعَى به أهل صناعة من الاسم الواحد وهم في تلك الصناعة متباينون في التفاوت ، إذ يقال : بُناة ونجّارون وتجار وخياطون ، ولكل منهم على صاحبه فضل أو عليه له فضل . فالناس كلهم مستوون فيما يلحقهم من النقص في العقل ، وهم فيما أتوا منه متفاضلون ، أحدهم فيه أكثر حظّاً منه . قال : كيف مُدَّت هذه الغاية ومُنع ذوو العقل بلوغها ؟ قال : لأن الغاية كمال ، والكمال صفة لا تصح إلا للخالق ، ولا يستوي الخالق والمخلوق في صفته ، تعالى الله عن ذلك » .

وواضح ما أودعه سهل هذه القصة الحيوانية من تصوير لحكم الملوك المتجبرين والولاة المتمردين وحيل الوزراء الدهاة ، مستخلصاً في ثنايا ذلك كثيراً من العظات وناثراً كثيراً من الحكم والأمثال . وهو يبتغي بذلك نفس الغاية التي ابتغاها واضع كليلة ودمنة من نصح الملوك والحكام عن طريق ما يجري على ألسنة الحيوان من مقت الظلم والبغي وسوء السيرة ومحبة العدل والإنصاف . وهو يتعمق أكثر مما تعمق صانع كليلة ودمنة ، إذ يعرض للعلم والجهل والعقل وإرشاده الإنسان إلى الخير وصرفه عن طريق الشر . والقصة مشوقة لا بما فيها من حوار فحسب ، بل بطرافة الحوار

وما يجرى فيه من حيل وأفكار دقيقة نادرة . وفى أسماء كتب سهل التى ذكرناها آنفاً ما يدل على أنه أجرى بعض قصصه على ألسنة الإنسان مباشرة على نحو ما يدل على ذلك اسم كتابه « المخزومى والهذلية » واسم كتابه الثانى : « الوامق والعذراء » .

واحتفظ الجاحظ فى أول كتابه البخلاء برسالة طويلة له يحتج فيها للبخل وينصره على الكرم، ومرَّ بنا ما يقال من أنه كتبها شعوبيةً على العرب ، إذ حاول فيها أن يهدم فضيلة الكرم العربية هدماً . ويذكر الرواة أنه قدمها إلى الحسن ابن سهل يرجو مكافأته عليها ، فكتب له على ظهرها : « وصلت رسالتك ووقفنا على نصيحتك وقد جعلنا المكافأة عنها القبول منك والتصديق لك» . ونراه فى فاتحتها يتوجَّه بالحديث فيها إلى بنى عمه ، وظن القدماء أنه يريد بنى عمه الحقيقيين من آل راهبون،وأغلب الظن أنه يقصد العرب . وقد مضى يذكر أنه إنما يقصد هدايتهم وأنه إن أخطأه سبيل إرشادهم فلن يخطئه سبيل حسن النية ، ثم أخذ يورد دفاعه عن البخل ومحاسنه ، مستعيناً بقدرته على الجدل وصنع الحجج المنطقية و بما حفظ من بعض أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، وهم إنما كانوا يريدون الاقتصاد وعدم الشطط فى الإسراف ، أما البخل فلا يرضاه التابعون ولا الصحابة فضلا عن الرسول الكريم الذى حَضَّ على البذل والإيثار والسخاء بكل ما فى اليد، كما حَضَّ القرآن الكريم لا على الصدقات فحسب ، بل على الاتساع بالإطعام وتقديم الماعون ، وصوَّر المثل الأعلى فى ذلك فقال جَلَّ شأنه : (ويُؤْثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصاصة ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون) . وكل ذلك كان يعرفه سهل معرفة دقيقة ، غير أنه كان يريد الدفاع عن البخل ، فاختار من أقوال الرسول صلى الله عليه والصحابة والتابعين ما قد يشهد له ، وهو إنما يشهد على زهادتهم فى الدنيا وصغر متاعها فى أعينهم حتى بَعُدَ إقبالها عليهم ، وفَرْقٌ بين الزهد والبخل والحرص والشح ، ونحن نسوق قطعة من هذه الرسالة ، لنطلع من جهة على قدرته فى الجدل والحجاج ، ومن جهة ثانية على قدرته البيانية ، يقول :

« وعبتمونى حين ختمت على سَدٍّ[1] عظيم وفيه شىء ثمين من فاكهة نفيسة

(١) السد : السلة .

ومن رُطَبَة[١] غريبة على عبد نَهِم[٢] وصبي جَشِع وأمَة لَكْعاء[٣] وزوجة خَرْقاء[٤] . وليس من أصل الأدب ولا فى ترتيب الحِكَم ولا فى عادات القادة ولا فى تدبير السَّادة أن يستوى فى نفيس المأكول وغريب المشروب وثمين الملبوس وخطير المركوب والناعم من كل فن واللباب من كل شكل التابعُ والمتبوع والسيد والمسود كما لاتستوى مواضعهم فى المجالس ومواقع أسمائهم فى العنوانات وما يُسْتَقْبَلون به من التحيات . . وعبتمونى بِخَصْف[٥] النعال وبتَصْدير[٦] القميص ، وحين زعمت أن المخصوفة من النعل أبقى وأوطأ[٧] وأقوى وأنفَى للكِبْر وأشبه بالنُّسُك ، وأن الترقيع من الحزم ، وأن الاجتماع مع الحفظ ، وأن التفرق مع التضييع . وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يَخْصِف نعله ، ويَرْقَعُ ثوبه ، ويقول : « لو أتيت بذِراع لأكلت، ولو دُعيت إلى كُراع[٨] لأجبت» ولقد لَفَقَت[٩] سُعْدَى بنت عوف إزارَ طلحة[١٠] وهو جواد قريش، وهو طلحة الفياض ، وكان فى ثوب عمر رِقاع أدَم وقال : من لم يَسْتَحْيِ من الحلال خَفَّتْ مؤونته وقلَّ كِبْره ، وقالت الحكماء: لا جديد لمن لم يلبس الخَلَق[١١] .. فترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع ، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر ، وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكَسْبين ، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين . . وعبتمونى حين قلت : لا يغترَّنَّ أحدكم بطول عمره وتقوس ظهره ورقة عَظْمه ووهن قوته وأن يرى أُكْرومته[١٢] فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يديه وتحويله إلى ملك غيره وإلى تحكيم السَّرَف فيه وتسليط الشهوات عليه فلعله أن يكون معمَّراً وهو لا يدرى ، وممدوداً له فى السنّ وهو لا يشعر ، ولعله أن يُرْزَق الولد على اليأس أو يحدث عليه بعض مخبّآت الدهور ، مما لا يَخْطُر على البال ولا تدركه العقول فيسترده ممن لا يرده ، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه أضعفَ ما كان عن

(١) الرطبة : التمر المرطب .
(٢) نهم : شره .
(٣) لكعاء : لئيمة .
(٤) خرقاء : حمقاء .
(٥) خصف النعال : ترقيعها وإصلاحها .
(٦) تصدير القميص : ترقيع صدره .
(٧) أوطأ : ألين .
(٨) الكراع : مستدق الساق .
(٩) لفقت : ضمت جانباً منه إلى آخر وخاطتهما .
(١٠) هوطلحة بن عبيد الله كان غيثا مدراراً فى الكرم فلقب بالفياض .
(١١) الخلق : البالى .
(١٢) الأكرومة : فعل الكرم .

الطلب ، وأقبحَ ما يكون به الكسب ، فعبتمونى بذلك وقد قال عمرو بن العاص . اعْمَل لدنياك عمل من يعيش أبدا ، واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً .. وعبتمونى حين زعمت أنى أقدّم المال على العلم ، لأن المال به يُقاد العلم ، وبه تقوم النفوس قبل أن تعرف فضل العلم ، فهو أصل والأصل أحق بالتفضيل من الفرع ، وأنى قلت : إن كنا نستبين الأمور بالنفوس فإنا بالكفاية نستبين وبالخَلّة[1] نَعْمَى[2] . وقلتم : كيف تقول هذا وقد قيل لرئيس الحكماء ومقدّم الأدباء : العلماء أفضل أم الأغنياء ؟ قال : بل العلماء ، قيل : فما بال العلماء يأتون باب الأغنياء أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : لمعرفة العلماء بفضل الغنى ولجهل الأغنياء بفضل العلم . فقلت : حالهما هى الفاصلة بينهما ، وكيف يستوى شىء تُرَى حاجة الجميع إليه وشىء يَغْنَى بعضهم فيه عن بعض .. وعبتمونى حين قلت إن فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون فى الدار ، إن احتيج إليها استُعملت ، وإن استُغْنِى عنها كانت عُدّة .. وقال بعض الحكماء : عليك بطلب الغنى فلو لم يكن لك فيه إلا أنه عزٌّ فى قلبك وذلٌّ فى قلب عدوك لكان الحظ فيه جسيماً والنفع فيه عظيماً . ولسنا نَدَع سيرة الأنبياء وتعليم الخلفاء وتأديب الحكماء لأصحاب الأهواء » .

وبمثل هذه الحجج دافع سهل عن البخل ، وهى حجج يستمد فيها من المأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وعن حكماء الأمم القديمة وخاصة حكماء أمته الفارسية ، مما يدل على اتساع ثقافته . وليس هذا ما يلفتنا وحده فى تلك الحجج فإنه يلفتنا فيها أيضًا قدرته المنطقية التى تتضح فى إيراد الأقسام المتقابلة إيراداً مستقصياً ، كما تتضح فى استخدام الأقيسة وتصحيح الأدلة استخداماً دقيقًا ، وفى تضاعيف ذلك تتضح غزارة فكره وكأنه يستمد من معين لا ينضب ، كما يتضح إلحاحه على المعانى حتى لكأنه يريد أن يحصرها ويحيط بكل دقائقها ، وتأملْ فى رده على من يَسْتَحِثُّ الحَرِمَ على إنفاق ماله على الناس وفى الملذات ، وفى الوجوه التى وضعها تحت عينه مخوِّفاً له ومحذراً من تضييع ماله ، فستراه يجمع هذه الوجوه فى استقصاء وتفصيل دقيق ، فهو قد يعمَّر ، وقد يرزق الولد ، وقد

(١) الخلة . الحاجة والفقر .

(٢) نعمى : نضل .

تنزل به بعض الكوارث ، وحينئذ إما أن يحاول استرداد ماله من بعض من أعطاه لهم . ويُرَدّ خائباً محسوراً . وإما أن يشكو إلى بعض الناس قلته ولكن لن يرحموه، وفى الحالين يكون قد ضعف عن الكسب وطلب الرزق وبذلك ضيّق سهلٌ الأبوابَ على من يتسع فى العطاء والإنفاق حين تتقدم به السن ، بل لقد أغلقها إغلاقاً إلا باباً واحداً فتحه على مصاريعه هو باب الشح . وتؤديه غزارة معانيه وأفكاره وحججه وأدلته إلى أن يثير موضوعاً طريفاً ، هو الموازنة بين العلم والمال وأيهما أفضل من صاحبه ، ويورد من الأدلة ما يجعل المال يَفْضُلُ العلم، ويقتبس من الفقهاء حديثهم عن الأصول والفروع ، فيجعل المال الأصل والعلم والفرع ، ولا يستوى فرع وأصل. وسهلٌ فى ذلك كله يرينا تطور العقل فى العصر العباسى ومدى ما أصابه من رقى ومن نمو ومن ثراء ومن قدرة على الحجاج وبسط الأدلة، حتى ليتحول الكاتب بإزاء بعض الموضوعات إلى ما يشبه مناظراً جدلا ، لا يزال يورد من الحجج والأدلة المنطقية ما يحاول به أن يفحم خصمه ويقهره . ويظهر أن هذه الطريقة استقرّت فى نفس سهل بتأثير المتناظرين من المتكلمين فى عصره وكثرة مناظراتهم فى كل شىء ؛ فى العقيدة وغير العقيدة ، وكان يرى الناس من حوله يُعْجَبون بالظافر المنتصر على خصمه، وخاصة حين يدافع عن رأى ضعيف، فينصره نصراً مؤزراً ، على نحو ما نصر البخل على الكرم، ومن أجل ذلك نفتح الباب للظن بأنه رُبّما لم ينصره شعوبية على العرب ، وإنما نصره إظهاراً لقوة جدله ومقدرته فى صوغ الأدلة وتأليف الحجج والبراهين، أو على الأقل كان بيان قدرته على الدفاع عن البخل الأثيم أقوى فى نفسه من الطعن على فضيلة الكرم العربية . ومما يوضح هذا الجانب عنده أن نراه يفضل الزجاج على الذهب فى رسالة طويلة وكان سبب كتابته لها أن رأى النظّام يذم الزجاج ، كما رأى شداداً الحارثى يطنب فى وصف الذهب ، فكتب هذه الرسالة معارضة لهما ونصرة للزجاج الضعيف، وقد سقطت من يد الزمن إلا قطعة منها رواها صاحب سَرْح العيون، وهى تمضى على هذا النمط :

« الزجاج مجلوٌّ نورى ، والذهب متاع سائر ، والشراب فى الزجاج أحسن منه فى كل معدن ، ولا يُفْقَدُ معه وجه النديم ، ولا يُثْقِل اليد ، ولا يرتفع فى

السَّوْم[١] واسم الذهب يُتَطَيَّر منه، ومن لؤمه سرعته إلى اللئام، وهو فاتن فائك[٢] لمن صانه، وهو أيضًا من مصايد إبليس، ولذلك قالوا : أهلك الرجال الأحمران[٣]. والزجاج لا يحمل الوَضَر[٤]، ولا يداخله الغَمَر[٥] ومتى غُسل بالماء وحده عاد جديداً، وهو أشبه شيء بالماء، وصفته عجيبة، وصناعته أعجب »

ولسهل بجانب رسائله الأدبية الطويلة رسائل إخوانية يتضح فيها جمال التعبير ودقة التفكير على نحو ما نرى فى الرسالة التالية[٦]، وقد كتب بها إلى صديق تماثل للشفاء من مرض :

« بلغنى خبرُ الفَتْرة[٧] فى إلمامها وانحسارها، والشَّكاة فى حلولها وارتحالها، فكاد يَشْغل القلقُ بأوله، عن السكون لآخره، وتُذْهل الحيرةُ فى ابتدائه، عن المسرة فى انتهائه. وكان تعبرى فى الحالين بقدرهما ارتياعًا للأولى وارتياحاً للأخرى » .

وواضح ما فى هذه الرسالة الموجزة من الغوص على المعانى، فهو يقابل بين خبر المرض وخبر الشفاء، وكيف شغلته حركة القلق مع الخبر الأول عن السكون وراحته مع الخبر الثانى، وكيف أذهلته الحيرة وكَرْبها أولا عن المسرة ومتعتها ثانياً. ويقول إن ما دخله من تغير فى الحالين يقاس بارتياعه مع بدء العلة وارتياحه مع انحسارها. وهو فى جميع جوانب كتاباته شديد الغوص والتدقيق فى معانيه، وجاء السجع على لسانه فى أكثر هذه الرسالة، وهو إنما يجىء عنده أحيانًا عفواً. وليس معنى ذلك أنه لم يكن يُعْنَى بتوفير الجمال لأساليبه فهو من هذه الناحية يتقدم ابن المقفع خطوات، إذ يعنى ببسط عباراته، حتى يجْرى فيها ضروباً من التقطيعات والتوقيعات الصوتية ومن أجل ذلك يكثر عنده الترادف، حتى يصل إلى ما يريد من ازدواج وإيقاعات متقابلة، ودائماً حين نقرؤه يلذ عقولنا بغزارة معانيه ودقتها كما يلذ أسماعنا بجرس كلامه وحسن أدائه وما يكفل له من تلوينات صوتية بديعة .

---

(١) السوم : المساومة فى البيع .

(٢) فائك : غالب .

(٣) الأحمران : الذهب وطيب الزعفران .

(٤) الوضر : الوسخ .

(٥) الغمر : الدسم .

(٦) انظرها فى سرح العيون ص ٢٤٥ .

(٧) الفترة : الوعكة والضعف .

٣

أحمد[١] بن يوسف

هو أحمد بن يوسف بن صبيح الكاتب الكوفى مولى بنى عجل ، وقد ألممنا بأبيه فى الفصل الماضى وقلنا إنه كان يكتب فى دواوين الكوفة لولاة بنى أمية ، ثم لما تحولت مقاليد الخلافة إلى العباسيين كتب لعبد الله بن على ثم التحق بدواوين المنصور ، وظل يكتب فى دواوين المهدى والهادى ، ولمع نجمه فى عصر الرشيد والبرامكة ، فكان يخلف يحيى البرمكى على الدواوين فى قصره وقصر الرشيد .

ولا نعرف بالضبط متى ولد له ابنه أحمد ، ويغلب أن يكون ميلاده حول منتصف القرن الثانى للهجرة ، ويظهر أنه عُنى بتأديبه عناية واسعة ، كى يَصْلح للعمل فى الدواوين على شاكلته ، فأخذه بثقافة عربية دقيقة حتى غدا شاعراً يحسن نظم الشعر وصَوْغه ، كما أخذه بثقافة إسلامية واسعة ، حتى يعرف الحدود وأحكام أهل الذمة وأصول الدين وفروعه ، وأخذه أيضًا بثقافة رياضية واسعة تعينه فى الخراج وشئونه . ولا بد أن يكون قد أخذه بثقافات العجم مما يتصل بآداب السياسة وبكتب الفلسفة والحكمة ، ولا بد أن يكون أيضًا قد أخذه بآداب اللياقة حتى يُحْسن مخاطبة الخلفاء والوزراء ، وحتى الخطّ نراه يوجهه إلى إتقانه مما جعله يشتهر مع فصاحته وبلاغته بحسن خطه ، ويُرْوَى أن قائلا قال له يوماً : ما أدرى ممّ أعجب ، مما وليه الله من حسن خَلْقك أو مما وليته من تحسين أخلاقك .

وعلى هذا النحو أُعِدّ أحمد بن يوسف ليكون مثالا للكاتب الحاذق النابه ، وأغلب الظن أن أباه ألحقه بالدواوين معه ، وأنه كتب بين يديه فى دواوين الرشيد ، وأعجبت الفضلَ بن سهل مدبر شئون المأمون نجابتُه ، فالتقطه وحثّه على التحول معه ومع المأمون إلى مرو حين اتخذها قاعدة لولايته على شرقى الدولة كى يكتب فى

---

(١) انظر فى ترجمة أحمد بن يوسف وأخباره كتاب الأوراق للصولى (قسم الشعراء) ص ١٤٣ ، ٢٠٦ وكتاب بغداد لطيفور فى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢١٦/٥ والأغانى (طبعة الساسى) ٥٦/٢٠ وزهر الآداب ١٣٠/٢ والفخرى ص ١٦٩ ومعجم الأدباء لياقوت ١٦١/٥ وغرر الخصائص الواضحة للوطواط ص ١٠٩ وانظر الجهشيارى ص ٣٠٤ والعقد الفريد ١٤٥/٢ .

دواوينه ، وأذعن لرغبته ، وظل يعمل فى الدواوين هناك ، حتى بعث طاهر بن الحسين فى سنة ١٩٨ إلى المأمون برأس أخيه الأمين ، فلما رآها تأثر ، وقال للفضل ابن سهل : ينبغى أن تأمر الكتّاب بكتابة رسالة عن طاهر يخبرنى فيها بهذا الخبر ، مع الاحتيال للاعتذار منه ، لتُقرَأ على الناس ، فكتب الكتّاب عدة كتب لم يرضها الفضل واستطالها . ولم يلبث أحمد بن يوسف أن كتب رسالة محكمة موجزة فى شبر من قرطاس كما يقول بعض الرواة ، فلما عرضها على الفضل رجّع نظره فيها مستحسناً متعجباً من بلاغته ودقة بيانه ، ثم قال له : ما أنصفناك وأمر بصلات وفُرُش وكُسًى وآلات . وقال له : إذا كان الغَدُ فاقعُدْ فى الديوان وليقعد جميع الكتاب بين يديك ، واكتبْ بذلك إلى الآفاق .

ويدور العام ، فيجعل المأمون الحسن بن سهل نائبه على بغداد ، فيصطحبه معه ، وكأنّ أخاه الفضل آثره به ، ليُعينه فى عمله ، ويكتب له فى دواوينه . ويَتَقدم المأمون إلى بغداد بعد خمس سنوات ، فيصبح كاتبه على ديوان الرسائل كما يصبح أثيراً عنده قريباً من نفسه ، لظرفه ورقته . وكان فيه ميل شديد إلى الترف فعاش عيشة يحفها النعيم فى الفُرُش وأوانى الطعام وألوانه . وشارك فى متاع عصره من الشراب والسماع للقيان ، ولكن دون إغراق ومع الاحتفاظ بمروءته وكرامته . ولما توفى أحمد بن أبى خالد وزير المأمون سنة ٢١١ شاور الحسن بن سهل فيمن يخلفه على الوزارة فأشار عليه بابن يوسف ، فاستوزره ورفع منزلته ، فكان يعرض القصص أو رقاع الشكوى عليه ، ويوقع عليها بما يلائمها من العبارات ، غير أنه لم يلبث أن وافاه القدر سنة ٢١٣ للهجرة ، ويقال إنه أشرف ، وهو على وشك الاحتضار على بستان داره وكانت مطلة على دجلة ، فظل يتأمله ويتأمل دجلة ، ثم تنفس ، وقال :

ما أطيبَ العيشَ لولا موتُ صاحبِهِ   ففيه ما شئتَ من عيبٍ لعائبهِ

وسرعان ما التهمه الموت . ولأخيه القاسم الشاعر رثاء له يتفجع فيه تفجعاً ، وكانت له جارية يقال لها نسيم كانت تحظى بحبه ويشغف بها شغفاً شديداً ، فقالت ترثيه :

ولو أن مَيْتًا هابه الموتُ قبله   لما جاءه المِقْدارُ وهو هيوبُ
ولو أن حَيًّا قبله جازه الرَّدَى   إذنْ لم يكن للأرض فيه نَصيب

وهو يُعَدُّ في الذروة من كُتَّاب الدواوين في العصر العباسي الأول، لبلاغته ودقة تفكيره وحسن تأتيه في الرسائل الديوانية السياسية والرسائل الإخوانية الشخصية ، وأولُ ما نقف عنده رسالته التي أشرنا إليها آنفًا ، والتي كتبها للناس على لسان طاهر بن الحسين ، وهي تجرى على هذه الصورة[1] :

« أما بعد،فإن المخلوع وإن كان قَسيمَ أمير المؤمنين في النَّسب واللُّحْمَة (القرابة) فقد فرَّق حكم الكتاب والسُّنَّة بينه وبينه في الولاية والحُرْمة ، لمفارقته عصمة الدين ، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين ، يقول الله عزَّ وجلَّ فيما اقتصَّ علينا من نَبأ نوح وابنه : (يا نوحُ إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح) ولا صلة لأحد في معصية الله ، ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله . وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وقد قتل الله المخلوعَ وردَّاه[2] رداء نَكْثه ،وأحْصَدَ[3] لأمير المؤمنين أمره ، وأنجز له ما كان ينتظر من وعده ، فالأرض بأكنافها[4] أوطأ مهاد لطاعته ، وأتبعُ شيء لمشيئته . . . والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين بحقه ، والكائد له من خان عهدَه ونكث عقده ، حتى ردَّ به الألفة بعد فرقتها ، وجمع به الأمةَ بعد شتاتها ، وأحْيَا به أعلامَ الدين بعد دروسها[5] ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

ودقة التعبير واضحة في الرسالة ، وكذلك المهارة في تصوير عصيان الأمين والربط بينه وبين عصيان ابن نوح وما وصفه به القرآن من دفعه عن بنوَّة أبيه وقرابته. وبذلك لم تعد للأمين ولاية ولا حرمة ، فقد خرج من أهله ، وهو إنما تولى الخلافة ميراثاً منهم، وقد نكث عهده في الوفاء لأخيه بولاية العهد من بعده، هذا العهد الذى كتبه بيده وعلَّقه أبوه هرون على الكعبة ، حتى لا يستطيع الخروج منه ، وقد نال جزاء خيانته ، وعادت الأمور إلى نصابها ، فاجتمعت كلمة الأمة

---

(١) زهرالآداب ٢/١٣٠ ومعجم الأدباء ١٦٧/٥ والجهشيارى ص ٣٠٤ .
(٢) وَردَّاه : ألبسه .
(٣) أحصد : نوى وأحكم .
(٤) أكنافها : نواحيها .
(٥) دروسها : امحائها .

بعد فرقتها ورُدّ صولجان الحكم إلى صاحبه تحوطه عناية الله ورعايته . وكان توفيق أحمد بن يوسف فى هذه الرسالة دافعاً لأن يطلب منه المأمون والفضل بن سهل أن يكتب رسالة الخميس ، وهى الرسالة التى كان يوجهها خلفاء العصر العباسى الأول بمجرد توليهم الخلافة إلى أهل خراسان مادّة جيوشهم وغيرهم يبسطون فيها حقّهم فى الخلافة واستحقاق الخليفة القائم لها لما امتاز به من مناقب حميدة وما ينبغى على أهل خراسان من الولاء له . وأحكَم ابن يوسف الرسالة إحكاماً دقيقاً ، وطال فيها نفسه حتى بلغت نحو خمس عشرة صحيفة ، وأُعجب بها معاصروه إعجاباً شديداً مما جعل ابن النديم يقول : « الكتب المجمع على جودتها : عهد أردشير ، كليلة ودمنة ، رسالة عمارة بن حمزة الماهانية ، اليتيمة لابن المقفع ، رسالة الخميس لأحمد بن يوسف » وقد استهلّها بتحميد طويل طريف على هذا النمط [١] :

« من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين إلى المبايعين على الحق والناصرين للدين ، من أهل خراسان وغيرهم من أهل الإسلام : سلام عليكم فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله ، أما بعد فالحمد لله القادر ، القاهر ، الباعث ، الوارث ، ذى العزّ والسلطان ، والنور والبرهان ، فاطر [٢] السموات والأرض وما بينهما ، والمتقدم بالمنّ والطَّوْل [٣] على أهلهما ، قبل استحقاقهم لمثوبته ، بالمحافظة على شرائع طاعته . الذى جعل ما أودع عباده من نعمته ، دليلا هادياً لهم إلى معرفته ، بما أفادهم من الألباب [٤] ، التى يفهمون بها فصل الخطاب ، حتى أُقيموا على موارد الاختبار ، وتعقّبوا مصادر الاعتبار ، وحكموا على ما بطن بما ظهر ، وعلى ما غاب بما حضر ، واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته ، ومتقَن صنعته ، وحاجة مُتَزايِل [٥] خَلْقه ومتواصله إلى القوم [٦] بما يَلُمُّه ويُصْلحه ، على أن له بارئاً [٧] هو أنشأه ، وابتدأه ، ويسّر بعضه لبعض ، فكان أقرب وجودهم ما يباشرون من أنفسهم فى تصرُّف أحوالهم ، وفنون انتقالهم ، وما يَظْهرون [٨] عليه من العجز عن التأتّى [٩] لما تكاملت

(١) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٣٧٧ .
(٢) فاطر : خالق .
(٣) الطول : الإنعام .
(٤) الألباب : العقول .
(٥) متزايل : متفرق .
(٦) القوم : القيام .
(٧) بارئاً : خالقاً .
(٨) يظهرون : يطلعون .
(٩) التأتى : الترفق .

به قواهم، وتمت به أدواتهم ، مع أثر تدبير الله عزّ وجلّ وتقديره فيهم ، حتى صاروا إلى الخِلْقة المحكمة ، والصورة المعجبة ، ليس لهم فى شىء منها تلطُّفٌ يتَيمَّمُونه ، ولا مقصد يعتمدونه من أنفسهم ، فإنه قال تعالى ذكره : (يا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم الذى خلقك فسوَّاك فعدَلك فى أى صورة ما شاء ركّبك) . ثم ما يتفكّرون فيه من خلق السموات ، وما يجرى فيها من الشمس والقمر والنجوم مسخرات ، على مسير من تصاريف الأزمنة التى بها صلاحُ الحَرْث والنَّسْل وإحياء الأرض ولِقاحُ النبات والأشجار ، وتعاور[1] الليل والنهار ، ومرُّ الأيام والشهور والسنين التى تُحْصَى بها الأوقات . ثم ما يوجد من دلائل التركيب فى طبقات السقْف[2] المرفوع ، والمهاد[3] الموضوع ، باتساق أجزائه والتئامها ، وخَرْق الأنهار وإرساء الجبال . ومن البيان الشاهد على ما أخبر الله عزّ وجلّ به من إنشائه الخلق حدوثُه بعد أن لم يكن، مترقياً فى النماء ، وثباته إلى أجله فى البقاء، ثم مَحاره[4] منقضياً إلى غاية الفناء . ولو لم يكن له مُفْتَتَح عدد، ولا منقطع أمَد ، ما ازداد بنشوء ولا تحيَّفه نقصان ، ولا تفاوت على الأزمان . ثم ما يوجد عليه منفعته من ثبات بعضه لبعض وقِوام كل شىء منه بما يُسِّر له فى بدء استمداده ، إلى منتهى نفاده ، كما احتج الله عزّ وجلّ على خلقه، فقال : (أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) وقال عزّ وجلّ : (كلُّ مَنْ عليها فانٍ ويبقى وَجْهُ ربك ذو الجلال والإكرام) . وكل ما تقدَّم من الإخبار عن آيات الله عزّ وجلّ ودلالاته فى سمواته التى بنى ، وأطباق الأرض التى دحا[5] ، وآثار صُنْعه فيما برأ ، وذَرَأ[6] ، ثابتٌ فى فِطَر العقول حتى يَسْتجرَّ أولى الزَّيْغ ما يدخلون على أنفسهم من الشُّبْهة فيما يجعلون له من الأضداد ، والأنداد ، جلّ عما يشركون . ولولا توحُّده بالتدبير ، عن كل مُعين وظهير ، لكان الشركاء جُدَرَاء أن تختلف بهم إراداتهم فى الخلق، ولأمكن التخلف فيه من إثبات وإزالة فيخلو من أحد وجهيه ، وأيهما كان فيه فالعجز والنقص فيما ذرأه وبرَأه، جلّ البديع خالق الخلق ومالك الأمر عن ذلك ، وتعالى

---

(١) تعاور : تداول .
(٢) السقف المرفوع : السماء .
(٣) المهاد الموضوع : الأرض .
(٤) محاره : رجوعه .
(٥) دحا : بسط .
(٦) برأ وذرأ : خلق .

علوًّا كبيراً ، كما قال سبحانه : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهَب كلُّ إلهٍ بما خلق ولعَلا بعضهم على بعض سبحانَ الله عما يصفون) » .

وواضح أن أحمد بن يوسف تحوَّل بهذا التحميد إلى ما يشبه مقالة من مقالات المتكلمين ، فهو يورد فيه الحجج على وجود الله الذى أنشأ العالم وخلق الإنسان فى صورة مقدورة محكمة ، وقد أعطاه من العقل ما يجعله إذا فكر فى خلق السموات والأرض يؤمن بأن للعالم إلهاً ، لما يجرى فى أفلاكه من نظام دقيق لا بد له من منظم ، أحكم تَصاريفَ الأوقات التى يتم بها صلاح كل حى فى الأرض من إنسان وحيوان ونبات كما أحكم صَنْعة الكون فى عالم السماء وعالم الأرض بما مهد فيه من سهول وخطَّ من أنهار وأرسى من جبال . ويتعمق فى الدلالة على وجود الخالق البارئ وإنشائه للخلق أنهم يحدثون بعد أن كانوا معدومين وأنهم لا يزالون يترقَّوْن فى النمو حتى تمتد لهم يد الفناء، فلا بد من محدث لهم ، وفرقٌ واضحٌ بينه وبين الحادث، فالحادث له أول وله آخر ،أو كما يقول : « مفتتح عدد ، ومنقطع أمد » أما المحدِث فلا أول له فى الزمن ولا آخر . وهو مصدر الوجود وقوامه ، وهو مدبِّره ومصرِّفه . ويقول إن كل ما ذكره من دلالات على وجود الله ثابت فى فِطَر العقول السليمة ، وثابت معه أنه واحد أحد لا شريك له ، إلا عند من زاغت عقولهم ممن يجعلون له الأضداد والأنداد كمجوس الفرس الذين آمنوا بأن للعالم إلهين : إلهاً للخير وإلهاً للشر ، وكغيرهم ممن جعلوا له نـدَّيْن أو أكثر ، ولو صح ذلك لتفاوتت إرادة الآلهة فى الخلق واختلفوا فيه بين الإثبات والإزالة ، وبذلك يخلو الخلق من أحد وجهيه ، ويتم العجز والنقص على الله فيا برأه عليه من الحدوث ثم العدم أو من الإثبات ثم الإزالة . وعلى هذا النحو يتطور التحميد عند أحمد بن يوسف فى رسالة الخميس إلى ما يشبه مبحثاً كلامياًّ فى الدلالة على وجود الله ووحدانيته وحدوث الخلق وفناء العالم . ونلاحظ أيضاً فى هذا التحميد أن أحمد بن يوسف يحاول أن ينمق فيه ما وسعه التنميق وجرَّه ذلك إلى الاتساع باستخدام السجع فيه ، وهو لا يطَّرد فى كل صياغات التحميد ولا فى بقية الرسالة ، ولكنه يكثر ، ونحسُّ كأن ابن يوسف يقصد إليه قصداً ، وخاصة حين نراه يسجع بين كلمة وكلمة . ويمضى فيتحدث عن نعمة الله على خلقه

بإرسال أنبيائه وتعاقبهم بالنور الساطع والبرهان القاطع مبشرين ومنذرين حتى ختمهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ويصور جهاده فى سبيل دعوته ورسالته حتى أعزّ الله كلمته واستقام دينه ودخل الناس فيه أفواجاً . ويتحدث عن حق العباسيين فى الخلافة ، إذ ورثوها بحكم قرابتهم للرسول صلوات الله عليه ، وكانوا أحق بميراثها من جميع آله ، وبذلك يخوض فى تأييد الدعوة العباسية . وينتقل من ذلك إلى تأييد الدعوة للمأمون بادئاً بتقرير موقفه من الأمين ومسترسلا فيما ينبغى على شيعته الخراسانيين من مواصلتهم نصرته . ويفيض فى وعظهم وما ينبغى عليهم من مجاهدة أعدائهم وأهوائهم ومن الشكر للمأمون الذى يحوطهم برعايته لما فيه خيرهم ورشدهم والذى ينتوى جزاءهم بالحسنى وحَمْلهم على الطريقة المثلى .

وطلب إليه الحسن بن سهل حين ولاه المأمون وزارته بعد قتل أخيه الفضل سنة ٢٠٢ للهجرة أن يكتب رسالة يشكر المأمون فيها على صُنْعه جَبْراً لمصابه ، فكتب رسالة ضافية[1] ، استهلها بتحميد الله وذكر آلائه واصطفائه محمداً لرسالته بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وتقفيته على آثار الأئمة الراشدين بالمأمون أمير المؤمنين . وأخذ يطنب فى الثناء على عدله وما منح الرعية من عطفه ، وأشاد باختياره علياً الرضا لولاية عهده ومؤازرة الفضل بن سهل له فى رعاية رعيته والقيام بدعوته وقمع أعدائه ، حتى حُمَّ أجله شهيداً فقيداً من إمامه ومن الخاصة والعامة . ويتجه إلى شيعته وشيعة الحسن بن سهل بتصوير حرمة الفضل عند المأمون بعد موته وإكثاره من الترحم عليه . ويشكره بلسان الحسن بن سهل على ما منحه من الوزارة وسنيّ الرتبة . ويعود إلى بيان ما خصّ به الفضل فى حياته من المنزلة الرفيعة ومن رياسة الحرب ورياسة التدبير وتقليده سيفه وخاتمه وما خصّه فى وفاته من إكرام ومن حزن ممض وعبرات سائلة ومن حفظ لأصحابه وإقرار خاصّته وقُوّاده وعمّاله وكتّابه على مراتبهم وما أولى الحسن أخاه من وزارته وعطفه . ويفيض فى التنويه بالمأمون وقضائه على خصومه شرقاً وغرباً ورحمته بفقراء المسلمين وضعفائهم وما اقترن له من الملك والدين والقدرة والعفو ، ويشكره عن الإسلام ونصرته له وعن المساجد وتأسيسها على التقوى وتلاوة القرآن وعن الرسول صلى الله

(١) انظرها فى جمهرة رسائل العرب ٣/٤١١ .

عليه وسلم وحفظه لعِتْرته وآله وعن القواد والأجناد وما رفع من منازلهم ووفَّر من رواتبهم ، وعن الأخلاق وما وطد من شيمها الرفيعة وعن المسلمين وما رعى من شئونهم وهزم من أعدائهم ، ويختم الرسالة بالدعاء له دعاء كثيراً : أن يَرْأَبَ الصدع وترتق الفتوق به وينكِّل فى أعدائه .

ولأحمد بن يوسف رسالة فى تهنئة عبد الله بن طاهر بقضائه على ثورة عبيدالله ابن السَّرِىّ بمصر وأخرى فى تعنيت بعض العمال على ظلم أنزله ببعض الناس ، ولكنهما لا تبلغان من التنميق ما بلغته الرسائل السابقة . ومن طريف رسائله الديوانية ما كتب به عن المأمون إلى عمال النواحى فى الاستكثار من القناديل بالمساجد فى شهر رمضان ، وقد جاء فيها[1] :

« فإن فى ذلك عمارة للمساجد، وإضاءة للمتهجدين[2] ، وأنساً للسَّابلة[3] ، ونفياً لمكامن الرِّيب ، وتنزيهاً لبيوت الله عزَّ وجلَّ عن وحشة الظُّلَم » .

وكان يكتب أحياناً إلى المأمون فى بعض الشئون ، فيتلطف غاية التلطف ، ومما يُرْوَى له من ذلك أن طُلاَّب الصِّلات كثروا بباب المأمون ، وتأخرت صلاتهم ، فلما طال ذلك عليهم كتب إليه[4] :

« إن داعى نَداك ، ومنادى جَدْواك[5] ، جمعا ببابك الوفود ، يرجون نائلك[6] المعهود ، فنهم من يَمُتُّ بِحُرْمة ، ومنهم من يُدْلى بسالف خدمة ، وقد أجحف بهم المُقام ، وطالت عليهم الأيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعشهم بِسَيْبه[7] ، ويحقق حسن ظنهم بِطَوْله[8] ، فعل إن شاء الله »

فوقع المأمون فى كتابه : الخير متبع ، وأبواب الملوك مغانٍ[9] لطالبى الحاجات ومواطن لهم . وأمره أن يكتب أسماء مَنْ بالباب ومراتبهم ليصير لكل شخص منهم قدر استحقاقه .

---

(١) الصناعتين للعسكرى ص ٢٣ وزهر الآداب ٢/١٣٢ .
(٢) المتهجدين : من التهجد وهو الصلاة فى جوف الليل .
(٣) السابلة : السائرون فى السبل ولا مأوى لهم .
(٤) زهر الآداب ٣/١٣١ ومعجم الأدباء ٥/١٦٩ .
(٥) الجدوى : العطية والنوال .
(٦) النائل : النوال والعطاء .
(٧) السيب : العطاء .
(٨) الطول : الإنعام .
(٩) مغان : منازل ومواطن .

وكان كثيراً ما يُهْدى إلى المأمون هدايا فى أيام النيروز[١] ، ويُرْفقها برسالة رقيقة ، تحمل سطراً أو سطرين من النثر وبعض أبيات من الشعر ، فمن ذلك أنْ أهداه مرة — فيما يقول الرواة — سَفَطَ ذهب فيه قطعة عود هندىّ فى طوله وعرضه ، وكتبَ معه[٢] :

« هذا يوم جرت فيه العادة ، بإتحاف الناسِ السادةَ ، وقد قلت :

على المرءِ حقٌّ وهْو لاشك فاعلُهْ وإن عَظُم المولى وجلَّتْ فَواضِلُهْ[٣]

ألم ترنا نُهدى إلى الله مالَهُ وإن كان عنه ذاغِنًى فهْو قابله

ولو كان يُهدَى للجليل بقدرِهِ لقصَّر عنه البَحْرُ يومًا وساحله

ولكننا نُهْدِى إلى من نُجِلُّهُ وإن لم يكن فى وُسْعنا ما يشاكلُهْ »

وروتْ كتبُ الأدب كثيراً من الرسائل الإخوانية لأحمد بن يوسف ، وهو فيها يتروَّى ويتأنق فى اختيار لفظه ، مع حسن البيان ورصانة القول ، من ذلك ما كتب به إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود له[٤] :

« بارك الله فى مولودك الذى أتاك وهنَّأك نعمته بعطيته ، وملاَّك[٥] كرامته بفائدته ، وأدام سرورك بزيادته ، وجعله بارًّا تقيًّا ، ميمونًا مباركاً زكيًّا ، ممدودًا له فى البقاء مبلغًا غاية الأمل مشدوداً به عَضُدك ، مكثَّرًا به ولدك ، مُداماً به سرورك، مدفوعًا به الآفاتعنك، مشفوعًا بأكثر العدد، من طيِّب الولد».

وهو دائمًا فى التهنئة بالمواليد يتحدث عن أنها نعمة من الله وهبة ، ويدعو للأب أن تقر عينه بابنه،وأن يبارك الله له فيه ، ويجعله بارًّا بأبويه ، تقيًّا زكيًّا ميموناً سعيداً،وأن يشدَّ به أزْرالوالد ويكثر من أحفاده: أولاد هذا الولد الصالح.

وله من تهنئة لأحد إخوانه بإبلاله من مرضه[٦] :

« قد أذهب الله وَصَبَ العلة ونَصَبها[٧] ، ووفَّر أجرها وثوابها ،

---

(١) النيروز : من أعياد الفرس وهو أول يوم عندهم فى السنة .

(٢) صبح الأعشى ٤٢٠/٢ .

(٣) الفواضل : النعم .

(٤) جمهرة رسائل العرب ٤٣٨/٣ .

(٥) ملاك : متعك .

(٦) العقد الفريد ٢٣٩/٤ .

(٧) النصب : التعب الشديد ، والوصب : الوجع .

وجعل فيها إرغام العدو بعُقباها[1] ، أضعاف ما كان عنده من السرور بِقُبْح أولاها » .

وتأنقه فى العبارة واضح لا بما يُجْرى فيها من سجع فحسب ، بل بما يوفر أيضًا فى أوائلها من ترادف النصَب مع الوَصَب والثواب مع الأجر ، ليستمّ الجمال الصوتى . ومن رسائله فى الشكر[2] :

« من اتسع فى الأفضال[3] ، اتسعت به الأقوال من شاكر مُثْنٍ ، ومادحٍ مُطْرٍ ، ولسنا نصفك بما يَعِنُّ لنا ، ويَذِلُّ على ألْسُننا ، مما يتقرَّب به ذو الرغبة ، ويَضْرع به ذو الرَّهْبة ، لاستنزال مرغوب ، أو استنجاز مطلوب ، ولكننا ننطق عن سيرتك بإفصاح ، ونُبين عنها بإيضاح ، فَنَكُفُّ شَغَبَ الكائد ، ونُطيل نفس الحاسد » .

وسجعه المطرد فى هذه الرسالة ليس معناه أنه كان يسجع دائماً ، فهو يسجع حيناً ، وحيناً لا يسجع ، ولكنه يُعْنَى كما قلنا بالترادف بين الألفاظ والعبارات ، على نحو ما نرى فى هذه الرسالة إذ تلا كلمة « شاكر مثْن » بكلمة « مادح مطر » وهى بنفس معناها ، ليحكم لتعبيره التلاؤم الصوتى والتعادل الموسيقى ، وهو ما كان يسميه القدماء بالازدواج ، ودائماً تتردد أساليبه بينه وبين السجع على شاكلة قوله فى المديح[4] :

« لقد أحلك الله من الشرف أعلى ذِرْوته ، وبلّغك من الفضل أبعد غايته ، فالآمال إليك مصروفة ، والأعناق إليك معطوفة . عندك تنتهى الهمم السامية ، وعليك تقف الظنون الحسنة ، وبك تُثْنَى[5] الخناصر ، وتستَفْتح أغلاق المطالب ، ولا يستريث[6] النُّجْحَ مَنْ رجاك ، ولا تعروه النوائبُ فى ذَرَاك[7] » .

وعلى نحو ما كان يتفنن فى المدح والثناء كان يتفنن فى الذم والهجاء ، وكان أحياناً يَخِزُ فيه وخز الإبر وأحياناً يطعن طعنات مدمية ، ومن ذلك ما كتب به إلى آل سعيد بن سلم[8] :

---

(١) عقباها : عاقبتها .

(٢) الأوراق للصولى (قسم الشعراء) ص ٢٣٣ .

(٣) الأفضال : النعم والأيادى .

(٤) الصولى ص ٢٣٢ .

(٥) تثنى الخناصر : كناية عن أن الآمال تعقد به

(٦) يستريث : يستبطىء .

(٧) الذرا : الكنف والظل .

(٨) زهر الآداب ٢ / ١٣٢ .

« لولا أن الله عزَّ وجلَّ ختم نبوته بمحمد صلى الله عليه وسلم وكُتُبَهُ بالقرآن لبعث لكم نبيًّ نِقْمة ، وأنزل فيكم قرآن غَدْر ، وما عَسَيْتُ أن أقول في قوم : محاسنهم مساوى السُّفلة ، ومساويهم فضائح الأمم ، وألسنتهم معقولة بالعِيّ ، وأيديهم معقودة بالبخل ، وأعراضهم أغراض للذم ، وهم كما قال الشاعر :

لا يكثرون وإن طالتْ حَياتُهُمُ ولا تَبيد مخازيهم وإن بادوا »

وله معاتبات واعتذارات كثيرة ، وكان يعرف في الأولى كيف يتحدث عن رعاية حق الصديق ، كما كان يعرف في الثانية كيف يتسع بالحجة والفكرة اللبِقة ، حتى يستلَّ من صاحبه عفوه ورضاه ، من ذلك ما كتب به إلى أحد أصدقائه[1] :

« أتيتك وافداً بذنوبي على عَفْوك ، واثقاً لعقوقي ببِرّك ، لا مستظهراً عليك بشفيع قدَّمتُه ، خلا تطوُّلك[2] بالعَفْو عن الإخوان ، وتفضلك عليهم بالإحسان ، فإن تُعاقب فقد حكمت بالمعدلة[3] بعقوبتك على نفسي ، وإن تجافَ عن ذلك فإن الله يعلم أن قلبي لم يُصِرّ لك على قطيعة ، وكلُّ ذنب كان أصله الاستبطاء لدالّة الحرمة ، والاستعطاف بماتّة[4] الخدمة ، فهو مما يُعَدُّ في الحسنات ، لا السيئات » .

وتدور في كتب الأدب له توقيعات طريفة كان يوقّع بها على رقاع الشكوى . وكتبِ بعض العمال ورسائل الاستماحة وبَذْل المعروف ، فمن ذلك ما حكى الرواة من أن رجلا غصب آخرَ ضيعةً في أثناء غيابه واستغلَّها سنوات معدودة ، فلما قدم طالبه بضيعته ، فاشتكاه قائلاً : الضيعةُ لي وفي يدي ، واطّلع ابن يوسف على الشكوى ، فوقّع عليها بقوله[5] :

« الحق لا تَخْلُقُ جِدَّته ، وإن تطاولتْ بالباطل مُدَّته ، فإن أنطقتَ حُجَّتك بإفصاح ، وأزلتَ مشكلها بإيضاح — غير . «لي وفي يدي» فكثيراً ما أراها ذريعةَ الغاصِب ، وحجّةَ المغالب — وفُرّ حقك عليك ، وسيقَ بلا كَدٍّ إليك ، وإن ركنتَ من البيان إليها ، ووقفت عن الاحتجاج عليها كانت حجته بالبيّنة

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/٤٥٢ .
(٢) تطولك : تفضلك .
(٣) بالمعدلة : بالعدل .
(٤) ماتة : صلة .
(٥) جمهرة رسائل العرب ٤/٤٥٨ .

أعلى ، وكان بما يدّعيه أولى ، إن شاء الله » .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور بلاغة أحمد بن يوسف وكيف أنها كانت تعتمد على غزارة فى الفكر وبراعة فى الأداء وهى براعة يتقدم بها مَنْ سبقوه من كتّاب الدواوين فى القرن الثانى الهجرى تقدماً واسعاً وخاصة فى الرسائل السياسية ، إذ تأنق فى ألفاظها وعباراتها تأنقًا جعله يتخللها بالسجع ، فإن لم يواته تخلّلها بالازدواج والترادف الصوتى ، وبذلك أسبغ عليها ضروباً من الجمال الموسيقى لم تكن مألوفة قبله إلا فى بعض الرسائل الإخوانية وبعض التوقيعات ، على نحو ما مرّ بنا فى الفصل السابق عند ابن سَيابة وجعفر بن يحيى البرمكى . ولا ننسى سهل بن هرون ، فقد كان يُعْنَى مثله بالازدواج والترادف والموسيقى غير أن ابن يوسف هو الذى أعدّ هذا الأسلوب وما طُوى فيه من سجع ليشيع فى الكتابات الديوانية.

٤

عمرو [1] بن مسعدة

كان جده الأعلى صول أحد ملوك جرجان ، وكان من الترك الذين اعتنقوا المجوسية وتشبهوا بالفرس ، وقد اعتنق الإسلام فى زمن بنى أمية ، ودخل ابنه سعيد فى الدعوة العباسية ، فلما نجحت صارت له منزلة فى الدولة إذ كان من دُعاتها النابهين ، ولم يلبث خالد البرمكى أن استخلص ابنه مسعدة للكتابة بين يديه فى وزارته للسفاح والمنصور ، وظل يعمل فى دواوين الأخير حتى قلده وزيره أبو أيوب المورياني رياسة ديوان الرسائل ، ويولَدُ له ابنه عمرو ، فيُعْنَى بتأديبه حتى يَصْلح للكتابة فى دواوين الدولة . ويظهر أنه مضى يتثقف ثقافة عربية وإسلامية واسعة ، حتى غدا لَسِنًا فصيحاً ، بل لقد غدا شاعراً ينظم الشعر ، كما غدا يحسن شئون الفقه مما يتصل بالخراج ، ووقف على العلوم الرياضية ، وما يتصل بها من الحساب مما كان يتثقفه الكتاب ، كما وقف على آداب الفرس وكتاباتهم فى السياسة والأخلاق وتدبير الحكم ، وربما وقف أيضًا علىَ شىء من

---

(١) انظر فى ترجمة عمرو بن مسعدة معجم الأدباء ١٢٧/١٦ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٤٩٢/١ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٠٣/١٢ وزهر الآداب ٢٤٩/٣ .

الفلسفة اليونانية والحكمة الهندية . وكل تلك كانت أدوات ترشح الشخص لكى يعمل فى الدواوين لعصره ، ويتقن العمل فيها ، ويظفر بما يريد من الإعجاب والترقى فى المراتب السنية .

وما نصل إلى زمن الرشيد والبرامكة حتى نجد جعفر بن يحيى البرمكى يستخلص عمرًا لنفسه ، ويتخذه كاتباً للتوقيع بين يديه ، إذ حدّث عن نفسه قائلا : « كنت أوقّع بين يدى جعفر بن يحيى فرفع إليه غلمانه ورقة يستزيدونه فى رواتبهم ، فرمى بها إلىّ ، وقال : أجِبْ عنها ، فكتبت : قليل دائم خير من كثير منقطع . فضرب بيده على ظهرى وقال : أىُّ وزير فى جِلْدك ! » . وأفاده عمله مع جعفر فى التوقيعات إفادة واسعة ، إذ كان جعفر يُعْنَى — كما قدمنا — بتنميق عباراته والاقتصاد فيها أشد ما يكون الاقتصاد ، فطُبع بطوابعه البلاغية على نحو ما سنرى عما قليل .

ونراه بعد ذلك متصلا بالفضل بن سهل القائم على تدبير شئون المأمون حين كان يحكم من مرو الولايات الشرقية ، وقد اتخذه كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع وزيراً له وأسلم إليه مقاليد الحكم ، فما زال بالأمين حتى قضى عليه كما قدمنا ، وبايع الناس المأمون بالخلافة ، وظلاّ جميعاً بمرو حتى سنة ٢٠٢ للهجرة ، فبارحاها قاصدين إلى بغداد ، وقُتل الفضل فى الطريق ، كما أسلفنا . وإنما ذكرنا ذلك لما نظنه من أن عمرو بن مسعدة إذا كان عمل فى دواوين الفضل فلا بد أن يكون عمل بها فى مرو ، مثله مثل أحمد بن يوسف ، وكأن الفضل أعجب به ، فأدناه منه واصطحبه معه هناك . وعاد إلى بغداد ، فعمل فى دواوين أخيه الحسن وزير المأمون أو بعبارة أدق عمل فى دواوين الخلافة ، ووقع من نفس المأمون موقعًا حسَنًا فعهِدَ إليه أحيانًا تفتيش الولايات ، وما زال يعجب به وببلاغته ، حتى إذا رَفَع أحمد بن يوسف إلى مرتبة الوزارة أقامه على ديوان الرسائل ، وكان يأنس له ويستطيب حديثه ، فلما أخذ فى غزو الروم كان يستصحبه فى غزواته . ولعظم منزلته عنده ظن بعض الشعراء أنه استوزره ، وذكر ذلك فى بعض مديحه له ، إذ يقول :

لقد أسعدَ اللهُ الوزيرَ ابن مَسْعَدَهْ   وبَثَّ له فى الناس شُكْرًا ومحْمده

وكان جواداً ممدَّحاً ، كما كان فاضلا نبيلا حميد العشرة محبباً إلى معاصريه ، وما تُوفى سنة ٢١٧ للهجرة حتى يُلَبّى نداء ربه بأذَنَة فى غزوة مع المأمون . ويُرْوى أنه لما مات رُفعت إلى المأمون رقعة فيها أنه خلَّف ثمانين ألف ألف درهم ، فوقَّع فى ظهرها :

« هذا قليل لمن اتصل بنا ، وطالتْ خدمته لنا ، فبارك الله لولده فيما خلَّف وأحسن لهم النظر فيما ترك » .

وكان عمرو بن مسعدة يروع معاصريه ببلاغته ، وهى تُعَدُّ امتداداً لبلاغة جعفر بن يحيى البرمكى ، تتصف بصفتين أساسيتين بارزتين هما الإيجاز الدقيق والوضوح البالغ ، وهما نفس الصفتين اللتين امتازت بهما بلاغة ابن مسعدة ، أما الإيجاز فقد بلغ منه أنه كان يُضْرَبُ به المثل فيه ، كما كان يُضْرَبُ بجعفر بن يحيى من قبله ، وكان يقول للكتَّاب : إذا استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا . وكأنما استقر ذلك فى نفس عمرو فإذا هو يُحيل كتبه فى مختلف الأغراض إلى ما يشبه التوقيعات اختصاراً واقتصاداً فى القول . وأما الوضوح فقد كان جعفر شديد الكلف به ، وكثيراً ما كان يوصى به الكُتَّاب من حوله ، ومرَّ بنا فى الفصل الماضى وَصْفُ ثُمامة بن أشرس المعتزلى لبلاغته ومدى ما كان يَجْرى فيها من بيان ووضوح وإيجاز شديد ، ويُرْوَى أن الفضل ابن سهل وصف بلاغة ابن مسعدة فقال : « هو أبلغ الناس ، ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثل كتبه فإذا رامها تعذرت عليه[1] » . وهذا كما قيل لجعفر بن يحيى : ما حَدُّ البلاغة ؟ فقال : التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها ، فإذا رامها استصعبت عليه .

وليس هذا كل ما أخذه عمرو عن جعفر ، فقد كان جعفر يتأنق فى اختيار لفظه ، حتى لينمقه أحياناً بالسجع الرشيق ، فحاكاه عمرو فى تنميقه وتأنقه وإشاعة السجع أحياناً فى كلامه ، وخاصة إذا كان موجزاً وطال نظره فيه ، إذ كان لا يزال يبحث عن اللفظة الملائمة التى تروق فى السمع ، كما يبحث عن المعنى الدقيق ، فالكتابة عنده وخاصة إذا اتجه بها إلى الحسن بن سهل أو إلى المأمون أو كلَّفاه بالكتابة عنهما لم تعد شيئاً يجرى عفو الخاطر ، بل أصبحت بحثاً بأدق

---

(١) الصناعتين ص ٦١ .

ما تدل عليه كلمة بحث ، بحثاً فى استقطار المعانى ، بحيث لا يفوت المعنى على إيجازه الدلالةُ الواضحة البينة عن طائفة واسعة من الأفكار ، وبحيث لا يفوت الألفاظ حمل المعنى وأداءه أداء يخلب الألباب . ولعل من الخير أن نسوق طائفة من رسائله نستشفُّ منها خصائصه البلاغية ، فمن ذلك ما كتب به إلى الحسن ابن سهل يستتم صنائعه عنده[1] :

« أما بعد فإنك ممن إذا غَرسَ سَقَى ، وإذا أسَّس بَنَى ، ليستتم تشييد أسُسه ، ويجتنى ثمار غَرْسه ، وبناؤك عندى قد شارف الدُّروس[2] ، وغَرْسُك مُشْفٍ[3] على اليبوس ، فتدارَكْ بناءَ ما أسست ، وسَقْىَ ما غَرَسْتَ ، إن شاء الله » .

وواضح تأنقه فى الكتاب وتنميقه ، حتى ليبنيه على السجع ، وواضح أيضاً تدقيقه فى اختيار الألفاظ ، وأنه لا يعمد إلى الإطناب ، إنما يعمد إلى الاقتصاد ، مؤدياً بصورتين كل ما فى نفسه ، فصنائع الحسن عنده تشبه بناء ، وضع أساسه ، ولا بد من متابعة الإنفاق عليه حتى يرتفع فى الجو وتقوم أركانه ، أو هى تشبه غرساً ، لا بد له من تعهد بالماء والتربية حتى يشتد ويؤتى ثماره . ويقول إن الأساس قد أشرف على الامحاء والغرس قد أشرف على الذبول فلا تضن بالنفقة والتعهد عليهما حتى لا يضيع ما أنفقت وتعهدت أولا . أرأيت كيف أننا حين نعمد إلى فهم كلام ابن مسعدة نُضْطَرُّ إلى شىء من البَسْط والإطناب ، وكأننا بإزاء صياغة تشبه صياغة الشعر الغنائى المركزة التى يُثْقِلها ما تحمل من معانٍ كثيرة فى عبارات مسرفة فى الإيجاز . ومع ذلك فالألفاظ واضحة غاية الوضوح ، ولكنها مع وضوحها تحمل معانى غزيرة ، مع قلة عدد الحروف والكلمات ومع سهولة الألفاظ وخفتها فى النطق .

وقال أحمد[4] بن يوسف : « دخلت على المأمون وفى يده كتاب ، وهو يعاود قراءته مرة بعد مرة ، ويصعِّد فيه بصره ويصوِّبه ، فالتفت إلىَّ وقد لحظنى فى أثناء قراءته للكتاب ، وقال : يا أحمد أراك متفكراً فيما تراه منى ! قلت : نعم ، وَقَى الله أمير المؤمنين من المكاره وأعاذه من المخاوف ، قال : لا مكروه إن شاء الله ، ولكنى أقرأ كتاباً وجدته نظير ما سمعت الرشيد يقوله فى البلاغة ،

---

(١) معجم الأدباء ١٦/١٣٠ .

(٢) الدروس : الإمحاء .

(٣) مشف : مشرف .

(٤) انظر وفيات الأعيان ١/٩٤ وقارن بزهر الآداب ٣/٢٤٩ والعقد الفريد ٢/٢٧٢ .

فإني سمعته يقول : البلاغة التباعد من الإطالة والتقرب من البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى . وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على هذه البلاغة حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو بن مسعدة إلينا ، ورمى به إليّ وقرأته ، فإذا فيه :

« كتابي إلى أمير المؤمنين ، ومَنْ قِبَلِي من قُوَّاده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جُنْد تأخَّرتْ أرزاقهم ، وانقياد كُفاة تراختْ أعطياتهم ، واختلَّتْ لذلك أحوالهم ، والتاثتْ [1] معه أمورهم » .

فلما قرأته قال : إن استحساني إياه بعثني أن أمرت للجند قِبَلَه بعطائهم لسبعة أشهر ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه مَنْ حَلَّ محله في صناعته . وفي رواية أخرى أنه قال لابن يوسف : لله دَرُّ عمرو ما أبلغه ! ألا ترى إلى إدماجه المسألة في الإخبار ، وإعفائه سلطانه من الإكثار » .

ولا ريب في أن عَمْرًا تعب طويلا في كتابة هذا الكتاب الموجز ، حتى يقع على العبارات القليلة التي تؤدي إلى المأمون امتعاض القواد والجند من تأخُّر رواتبهم ، وقد أخذ يحتال لإنبائه بهذا الخبر بحيث لا يضيق بهم وبحيث لا يظن أنهم عمدوا إلى شغب أو ما يشبه الشغب ، فذكر أولا أنهم مذلَّلون له منقادون ، وأنهم مستمسكون بعُرَى طاعته استمساكاً يستغرق قلوبهم كأحسن ما يكون استمساك جيش بطاعة خليفته ، ثم أتبع ذلك بتأخر أرزاقهم ورواتبهم حتى أجهدهم ما تحملوه من هذا التأخر وحتى اضطربت أمورهم ، ومثلهم — مع طاعتهم وانقيادهم — حرى أن يُسَدَّ اختلالهم وأن يُرْعَى لهم وفاؤهم ، فتُعَجَّل رواتبهم وأرزاقهم . وكان للكتاب أثر بالغ في نفس المأمون إذ أمر أن تُصْرَفَ للجند والقادة في الحال أعطياتهم ، لا لشهر ولا لشهرين بل لسبعة أشهر متتابعة . ويقال إنه أمر بأن يعطى لعمرو أيضاً راتبه لثمانية أشهر جزاء وفاقاً لحسن عرضه للمسألة ودقة تلطفه في إيرادها وتصويرها .

ويَرْوِي صاحب [2] زهر الآداب أنه قدم على المأمون رجل من أهل الشام على عِدَة سلفت له منه بتوليته بلده ، فطال على الرجل انتظار خروج أمر المأمون بما وعده به ، فقصد عمرو بن مسعدة ، وعرض عليه المسألة ، وسأله

---

(١) التاثت : اضطربت .

(٢) زهر الآداب ١٥٨/٤ .

إيصال رقعة إلى المأمون بها ، فقال له : اكتبْ بما شئت ، فإنى موصله . فتوسل إليه أن يتولى هو كتابة الرقعة عنه ، حتى يكون له فَضْلان ، فكتب عمرو :

« إن رأى أمير المؤمنين أن يَفُكَّ أَسْرَ عبده من رِبْقة[1] المَطْل بقضاء حاجة عبده ، والإذن له بالانصراف إلى بلده ، فعل موفَّقاً » .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمراً ، فأطلعه عليها وجعل يعجب من حسن لفظها وإيجاز المراد فيها ، فقال له عمرو : فما نتيجتها يا أمير المؤمنين ؟ قال : الكتابة له فى هذا الوقت بما سأل ، لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه ، وبجائزة تنى دناءة المَطْل » .

وأكبر الظن أن المأمون لم يستحسن كلام الرقعة لدقة إيجازها وتعبيرها السريع عن مقصودها فحسب ، بل استحسنها أيضاً للصورة المبثوثة فيها ، وكان ابن مسعدة كثيراً ما يُعْنَى بالتصوير فى كتابته على نحو ما مرَّ بنا فى رسالته للحسن ابن سهل . وبذلك تحوَّل فن الرسائل عنده إلى عبارة موجزة كعبارات التوقيعات وإلى صور نادرة تستهوى القلوب بطرافتها ودقتها فى التعبير عن المعنى الذى يريد تجسيمه . وكان يضيف إلى ذلك رقة فى الشعور ، هى رقة الكاتب المتحضر الذى أرهف ذوقه ، والذى عوَّدته آداب اللياقة الاحتياط فيما يورده على سمع الخليفة والوزير ، بحيث ينال إعجابه واستحسانه . ويَرْوى صاحب المثل السائر[2] أن رجلا من بنى ضَبَّة ضَرَعَ إليه أن يشفع له عند المأمون فى الزيادة لمنزلته ورانبه المقدَّر له ، فكتب إلى المأمون مستشفعاً له :

« أما بعد فقد استشفع بى فلان يا أمير المؤمنين — لتطوُّلك[3] علىَّ — فى إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين ، وفى ابتدائه بذلك تعدَّى طاعته ، والسلام » .

وأُعجب المأمون بدقة عرضه لشفاعته وإخراجه لها فى معرض التعريض ، تلطفاً ، وإشارةً من طرف خفى إلى حرمته منه ، وما يختصه بالعطف والحظوة عنده . وبذلك كانت أوكد وسيلة وأوثق ذريعة لإجابة طلبه وشفاعته ، مما جعل

(١) ربقة : عروة .
(٢) المثل السائر ص ٣٩١ .
(٣) تطولك : تفضلك .

المأمون يوقّع على الكتاب بقوله : « قد عرفنا توطئتك له، وتعريضك لنفسك ، وأجبناك إليهما ، ووافقناك عليهما » .

وكان إيجازه المفرط مع دقته فى أداء المعانى يروع المأمون روعة شديدة ، ويُرْوَى أنه أحبَّ يوماً أن يرى مدى مقدرته فى هذا الإيجاز ، فأمره أن يكتب إلى بعض العمال فى العناية بشخص والاهتمام بأمره ، وأن يوجز كتابه ما أمكنه ، بحيث لا يتجاوز ما يكتبه سطراً واحداً ، فكتب[1] :

« كتابى إليك كتاب واثق بمن كُتب إليه، مَعْنِىٌّ بمن كُتب له، ولن يضيع بين الثقاية والعناية حامله ؛ والسلام » .

ولا ريب فى أن هذا الكتاب القصير — بل المفرط فى القصر — يصور مدى ما كان يبذل ابن مسعدة من جهد عنيف فى جمع المعانى الكثيرة وتركيزها فى معنى يؤديها أجمل ما يكون الأداء ، سواء بما يختار من لفظ أنيق أو صورة بديعة ؛ وكأنه لا يصوغ كلاماً ، وإنما يقطّر من الكلام شَذَى فائحاً شديد التأثير فى قارئه وسامعه .

وعلى هذا النحو تحوَّلت الكتب عند ابن مسعدة إلى كلمات قصار ، ككلمات التوقيعات ، بل لعلها أشد قصراً ، وأقوى منها حدة . وما نشك فى أنه تأثر فى هذا الاتجاه بالحكم الكثيرة التى تُرْجمت فى عصره ، على نحو ما نرى فى الأدب الصغير والكبير لابن المقفع ، وكأنه أراد أن يجعل كتبه أو على الأقل طائفة منها حكماً وأمثالاً تدور على ألسنة الكتَّاب والأدباء . وروَى له ابن خلكان رسالة طويلة مسجوعة كتب بها إلى بعض الرؤساء ، وقد أهمَّه وأحزنه زواج أمه ، لينفّس عنه ؛ وما إن قرأها حتى سحره بيانه واعتذاره عن أمه وذهب عنه الهم والحزن . وشكَّ ابن خلكان فى الرسالة وقال إنها تنسب إلى ابن العميد ، وهو محق فى شكه ، لسبب بسيط ، هو طولها الذى لا نألفه عند ابن مسعدة ، فقد كان يقبض يده عنه ولا يبسطها إلا على حروف معدودة محكمة .

---

(١) وفيات الأعيان ١/٤٩٣ .

٥

ابن[1] الزيات

هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة ، اشتهر بابن الزيات ، لأن جده أباناً كان يجلب الزيت من مواطنه إلى بغداد متجراً فيه ، وأصله من مقاطعة جيل جنوبى بغداد ومن قرية تسمى الدسكرة . وقد دفع ابنه عبد الملك إلى احتراف التجارة ، وجدّ فيها حتى صار من تجار الكَرْخ[2] المياسير ، وولد له محمد سنة ١٧٣ ونشأ يحب الأدب ، فأقبل ينهل منه ، كما ينهل من علوم اللغة ومن ينابيع الآداب الأجنبية الشائعة فى عصره ، حتى شدا الشعر ونبغ فيه كما نبغ فى النثر . وحاول أبوه أن يصرفه عن هذا الاتجاه إلى التجارة المربحة فكان يصدُّه ، ويلزم الأدب وطلبه ، ويلازم الدواوين محاولاً أن يلفت من فيها إلى مهارته الأدبية ، وقال له أبوه يوماً : « والله ما أرى ما أنت ملازمة ينفعك وليضرّنك ، لأنك تدع عاجل المنفعة وما أنت فيه مكفىٌّ ، ولك ولأبيك فيه مالٌ وجاه ، وتطلب الآجل الذى لا تدرى كيف تكون فيه ، فقال : والله لتعلمنّ أينا ينتفع بما هو فيه : أنا أم أنت ، ثم شخص إلى الحسن بن سهل ، فامتدحه بقصيدة ، فأعطاه عشرة آلاف درهم ، فعاد بها إلى أبيه فقال له أبوه : لا ألومك بعدها على ما أنت فيه» .
ويقال إنه لما مدح ابن سهل ووصله بالدراهم المذكورة مثَل بين يديه ، وأنشده :

لم أمتدحك رجاءَ المال أَطْلُبُهُ — لكن لتُلْبِسنى التَّحْجيلَ والغُرَرا[3]
وليس ذلك إلا أننى رجـلٌ — لا أَطلبُ الوِرْدَ حتى أعرفَ الصَّدَرا[4]

يشير بذلك إلى مأربه من مديحه ، وأنه لم يمدحه طلباً للمال ، وإنما مدحه طلباً لتعيينه كاتباً بالدواوين ، وعيّنه الحسن بن سهل ، فحقّق له أملاً طالما كان يراوده .

---

(١) انظر فى ترجمة ابن الزيات الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠ / ٤٦ والفهرست ص١٧٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢ / ٣٤٢ والفخرى ص ١٧٥ والمسعودى ٤ / ٣٩ والطبرى ٧ / ٣٤٣ وغرر الخصائص الواضحة للوطواط ص ١٤٢ ، ٤١٠ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢ / ٧٠ .

(٢) الكرخ : محلة الأسواق والتجار ببغداد.

(٣) التحجيل : بياض فى قوائم الفرس . الغرر : جمع غرة ، بياض فى وجهه . والاستعارة واضحة .

(٤) الورد : ورود الماء . الصدر : الصدور والرجوع عنه .

ومضى ابن الزيات يختلف إلى الدواوين وهو يتابع مدارسته لعلوم اللغة والنحو ، ويظهر أنه تزوّد منها زاداً وافراً ، فقد ذكر الرواة أن أبا عثمان المازنى حين قدم بغداد كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه فى مسائل علم النحو ، فإذا اختلفوا فى مسألة يقع فيها الشك قال لهم : ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب — يعنى ابن الزيات — واسألوه واعرفوا جوابه ، وكانوا يفعلون ، ويعرضون ما يجيب به على المازنى ، فيرى أنه الصواب الذى يرتضيه ، ويشرحه لهم ويقفهم عليه .

وعلى نحو ما كان عالماً باللغة والنحو كان شاعراً بارعاً ، ومرّت بنا فى حديثنا عن الشعر مرثية لزوجه ، وهى من روائع المراثى ، وله وراءها مراث أخرى فيها وأشعار كثيرة ، كوّنت له ديواناً نُشر فى القاهرة ، ومن يرجع إليه يجد شاعريته فياضة ، كما يجد الشعر مذللا له فى المواقف المختلفة التى قد يصعب فيها على غيره ولا يسلس قياده . ويقال إنه لما وثب إبراهيم بن المهدى على الخلافة حين عقد المأمون لعلى الرضا البيعةَ بولاية العهد ، وتطورت الظروف على نحو ما قدمنا ولم يتم أمره استتر خوفاً من المأمون وانتقامه ، وظل مستخفياً سنوات لا يُعْرَفُ موضعه ، حتى إذا ظهر وعفا عنه المأمون طالبه التجار بأموالهم التى كان قد اقترضها منهم فكان يقول : إنما أخذتها للمسلمين وأردت قضاءها من فَيْئهم والأمر الآن إلى غيرى ، وكان قد اقترض من عبد الملك بن أبان عشرة آلاف درهم ، وكان إذا طالبه بماله لقيه بنفس الجواب ، فنظم ابنه محمد قصيدة يصور فيها ثورته على المأمون مقارناً بينها وبين ثورة الأمين وما ناله من القتل جزاء غدره ونكثه ، حتى يوغر صدر المأمون عليه ، ويطير به طيرة بطيئاً سقوطها . ومضى بالقصيدة إلى ابن المهدى ، فأنشدها له ، وقال : والله لئن لم تعطنى المال الذى اقترضته من أبى لأوصلنّ هذه القصيدة إلى المأمون ، ففزع إبراهيم وجزع ، وقال له متوسلا : خذ منى الآن بعضَ المال ، واجعل الباقى أقساطاً ، ولا تظهر القصيدة ، ووَفّى كل منهما لصاحبه .

وما زال ابن الزيات يعمل فى الدواوين حتى وَلِىَ مقاليدَ الخلافة المعتصمُ ، فقرّبه منه ولم يلبث أن استوزره ، ويقال إنه طلب حينئذ أن لا يلبس القَبَاء[1] على

---

(١) القباء : ثوب فارسى قصير .

عادة الوزراء وأن يلبس الدُّرَّاعة[1] ويتقلَّد عليها سيفاً بحمائل ، فأجيب إلى طلبه ، ويحسُّ بإقبال الدنيا عليه ، فيفتح أبوابه للشعراء ، ويُجْزِل لهم فى العطاء ، ومن أهم مُدَّاحه كما مرَّ بنا أبو تمام، وأنشدنا فى غير هذا الموضع بعض أبيات من قصيدته التى وصف فيها قلمه وبلاغته . وكانت قد انعقدت أيام عمله فى الدواوين صلة وثيقة بينه وبين الحسن بن وهب ، فلما ولى الوزارة قلَّده ديوان الرسائل ، وربما كان الجاحظ أهم أديب توثقت به صلته فى وزارته .

وتوفِّى المعتصم ووَلِىَ ابنه الواثق ، فظل وزيراً له ، ولعل من الغريب أن نجده فى وزارته لهما جميعاً يعادى أحمد بن أبى دؤاد المعتزلى المشهور ، وكان المعتصم جعله قاضى القضاة واتخذه كما اتخذه ابنه الواثق ناصحاً ومشيراً ، ودبَّ التنافس بينه وبين ابن الزيات ، حتى انقلب إلى عداوة وتهاجٍ بالشعر ، وكان ابن أبى دؤاد يحرِّض الشعراء على هجائه ويصلهم، ويقال إنَّ بعض الشعراء هجاه بقصيدة عدة أبياتها سبعون بيتاً ، فبلغ خبرها ابن أبى دؤاد ، فقال :

أَحسنُ من سبعين بيتاً سُدًى ... جمعك إياهن فى بَيْتِ

ما أحوج الناسَ إلى مَطْرةٍ ... تُذْهِبُ عنهم وَضَرَ الزيتِ

وكان ابن الزيات لبراعته فى الشعر يكيل له الصاع صاعين ، فاضطرمت العداوة بينهما اضطراماً . وكانت فى ابن الزيات قسوة شديدة قلما تُؤْلَفُ فى أمثاله من الأدباء الذين رُزقوا دقة فى الحس ، ورهافة فى الشعور ، ويُؤْثَرُ عنه أنه كان يقول : « الرحمة خَوَر فى الطبيعة وضعف فى المُنَّة[2] ، ما رحمت شيئاً قط » . وبلغ من قسوته أن اتخذ تَنُّوراً من حديد ، وجعل فيه مسامير ، ليعذِّب به المطالَبين بالأموال من أرباب الدواوين . وكان فى وزارته للواثق ، يتجهم للمتوكل ، وحاول أن يصرف الخلافة عنه إلى ابن الواثق ، وطمح إلى إنفاذ ذلك بعد وفاته ، بينما تحمس ابن أبى دؤاد للمتوكل ، فلما ولى الخلافة استوزر ابن الزيات أربعين يوماً ليطمئن، وظل ابن أبى دؤاد يغريه به لينكبه، حتى أصاخ له وقبض عليه وطالبه بالأموال ، ولم يلبث أن أدخله التَّنُّور الذى صنعه ، وقيَّده فيه بخمسة عشر رطلا من حديد ، وظل به أربعين يوماً يعذَّب عذاباً شديداً ،

---

(١) الدراعة : جبة فارسية . (٢) المنة : القوة .

حتى مات ، وكان موته فى آخر ربيع لسنة ٢٣٣ للهجرة .

ولم تَدُرْ لابن الزيات رسائل كثيرة فى كتب الأدب ، مع كثرة ما يدور فيها من رسائل موجهة إليه ، ويظهر أنه وَكَلَ فى وزارته للحسن بن وهب كتابة الرسائل الديوانية والرد عليها ، ومن القليل الذى احتفظت به تلك الكتب العهدُ للواثق على مكة ، وقد كتبه بحضرة المعتصم على هذه الصورة[١] :

« أما بعد، فإن أمير المؤمنين قد قلَّدك مكة وزمزم، تُراث أبيك[٢] الأقدم، وجَدّك[٣] الأكرم ، وركضةَ جبريل ، وسُقيا إسماعيل وحَفْر عبد المطلب ، وسِقاية العباس ، فعليك بتقوى الله تعالى والتوسعة على أهل بيته » .

وابن الزيات يشير فى هذا العهد المقتضب إلى قصة هاجر زوج إبراهيم عليه السلام حين ولدت ابنها إسماعيل منه ، وغارت زوجه الثانية سارة ، واضطرته أن يُنْزلهما منزلا بعيداً عنها، فأنزلهما بوادى مكة الجدب ، وذكر ذلك القرآن الكريم فى قوله جَلَّ شأنه على لسان إبراهيم : (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بِوادٍ غير ذى زَرْع عند بيتك المحرَّم) . وأعياهما أن يجدا ماء يستقيان منه ، وبينما هاجر قد أخذها اليأس من وجوده إذا جبريل يهبط راكضاً على موضع ، لا تلبث بئر أن تتفجَّر منه ، هى بئر زمزم، فتستقى منه هاجر وإسماعيل . وتمر الأيام فتطمر البئر وتمحى معالمها وتظل مطمورة ، حتى يُلْقَى فى رَوْع عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحفرها ، وما إن ضرب بمعوله فيها حتى فاض الماء ، واتخذها لسِقاية الحجيج ، وورث ابنه أبو طالب شرف هذه السقاية بعده وورثها عنه العباس أخوه جد العباسيين . وإلى كل هذه القصة يشير ابن الزيات فى عهد الواثق، وكأننا نلتقى عنده بأسلوب ابن مسعدة المبنى على الإيجاز والاقتصاد فى القول من جهة ، وعلى التأنق فى التعبير من جهة ثانية، تأنقًا يجره إلى السجع

ويظهر أن ابن الزيات لم يكن يعمد إلى السجع دائما ، وكأنما كان يرى فيه مبالغة فى التكلف ، فقد احتفظ له ابن عبد ربه برسالة إلى أحد العمال تخلو من السجع ، وهى تجرى على هذا النمط[٤] :

---

(١) زهر الآداب ٤/١٦٠ .
(٢) يريد بأبيه الأقدم: إسماعيل عليه السلام .
(٣) يريد بجده الأكرم : إبراهيم الخليل .
(٤) العقد الفريد ٤/٢٤١ .

« أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين (كذا) فأنكره ، ولا تخلو من إحدى منزلتين ، ليس فى واحدة منهما عذر يوجب حجة ولا يزيل لائمة[١] : إما تقصير فى عملك دعاك للإخلال بالحزم والتفريط فى الواجب ، وإما مظاهرة [٢] لأهل الفساد ومداهنة لأهل الرِّيَب ، وأيَّة هاتين كانت منك مُحلَّةٌ النُّكْرَ بك وموجبة العقوبة عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنَّظِرة[٣] والأخذ بالحجة والتقدم فى الإعذار والإنذار ، وعلى حسب ما أُقلتَ[٤] من عظيم العَثْرة يجب اجتهادك فى تلافى التقصير والإضاعة ، والسلام » .

والقصد إلى الإيجاز واضح فى الرسالة ولكنه إيجاز من درجة ثانية غير درجة الإيجاز عند ابن مسعدة ، فإيجاز ابن الزيات لا يتحول إلى ما يشبه التوقيعات والحكم والأمثال ، إنما هو ضرب من الاقتصاد فى التعبير ، مع الاتساع فى المعنى وبسط أطرافه قليلا ، ليحيط بكل ما يدور فى نفس الكاتب ، ومع الوفاء برصانة اللفظ وجزالته ومتانته ، ومع الدقة فى انتخابه واختياره ، دون تكلف لجمال صوتى يجرُّ إلى السجع أو إلى الازدواج الذى كان يستخدمه أحمد بن يوسف وسهل بن هرون وأضرابهما من الكتَّاب ، ومما يصور ذلك عنده ما احتفظ به ابن عبد ربه من بعض فصوله مثل قوله[٥] :

« إن الله أوجب لخلفائه على عباده حق الطاعة والنصيحة ، ولعبيده على خلفائه بَسْط العدل والرأفة وإحياء السنن الصالحة . فإذا أدَّى كلٌّ إلى كلٍّ حقه كان ذلك سبباً لتمام المعونة واتصال الزيادة واتساق الكلمة ودوام الألفة » .

فالفكرة تؤدَّى فى عبارة موجزة تُلِمُّ بأطراف المعنى ولكن دون إسهاب أو إطناب ، ودون محاولة لتحقيق اللذة الفنية عن طريق السجع والازدواج وما ينحو نحوهما ، على شاكلة قوله فى فصل آخر[٦] :

« إن أعظم الحق حقُّ الدين ، وأوجبَ الحُرْمة حرمةُ المسلمين ، فحقيق لمن راعى ذلك الحق وحفظ تلك الحرمة أن يُرَاعى له حسب ما رعاه الله به ، ويُحْفَظ له حسب ما حفظ الله على يديه » .

---

(١) اللائمة : اللوم .
(٢) مظاهرة : مساعدة .
(٣) النظرة : التأجيل .
(٤) أقلت : نهضت
(٥) العقد الفريد ٤/٢٤٠ .
(٦) العقد الفريد ٤/٢٤٠ .

والرغبة فى الإيجاز والاقتصاد فى القول واضحة فى هذا الفصل وخاصة فى كلماته الأخيرة . ولم تُؤْثَرْ لابن الزيات رسائل شخصية نثرية ، وكأنه كان يقدم الشعر على النثر فى هذه الرسائل ، لمطاوعته له وسهولته عليه، إذ تَرْوِى له كتب الأدب بعض رسائل إخوانية شعرية كان يتبادلها مع بعض أصدقائه وخاصة الحسن بن وهب ، وقلما تجاوزت أبياته فيها عدد أصابع اليدين . ويُرْوَى أن ابن وهب مرض أياماً ولم يأته رسوله ولا تعرَّف خبره ، فكتب إليه رسالة شعرية يعاتبه فيها ، وردَّ عليه ابن الزيات برسالة شعرية أيضاً ، يعتذر إليه متنصلا من علمه بمرضه ، وطالباً إليه التفضل بصفحه والتطوُّل بعفوه، على هذه الشاكلة[1]:

دَفعَ اللهُ عنك نائبةَ الدَّهْـ ـرِ ، وحاشاك أن تكون عليلا
أُشْهِدُ اللهَ ما علمتُ وماذا لك من العُذْر جائزًا مقبولا
ولعمرى أن لو علمت فلا زِمْـ ـتُك حَوْلاً لكان عندى قليلا
فاجعلنْ لى إلى التعلق بالعُذْ رِ سبيلا إن لم أجد لى سبيلا
فقديماً ما جاد بالصفح والعَفْـ ـو وما سامح الخليلُ الخليلا

ويقول صاحب الأغانى إنه كان بليغًا حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب ، ويسوق شاهداً على ذلك أنه « جلس يوماً للمظالم ، فلما انقضى المجلس رأى رجلا جالساً ، فقال له : ألك حاجة ؟ قال الرجل : نعم تُدْنيِنى إليك ، فإنى مظلوم، فأدناه ، فقال : أنا مظلوم ، وقد أعوزنى الإنصاف ، قال : ومن ظلمك ؟ . قال : أنت ، ولست أصل إليك فأذكر حاجتى ، قال : ومن يحجبك عنى وقد ترى مجلسى مبذولاً ؟ قال الرجل : يحجبنى عنك هيبتى لك وطول لسانك وفصاحتك واطراد حجتك ، قال : ففيم ظلمتك ؟ قال الرجل : ضَيْعَتى الفلانية أخذها وكيلك غَصْبًا بغير ثمن ، فإذا وجب عليها خراج أدَّيته باسمى لئلا يثبت لك اسم فى ملكها ، فيبطل ملكى ، فوكيلك يأخذ غلّتَها وأنا أؤدى خراجها » . وتمضى القصة فتذكر أن ابن الزيات ردَّ على الرجل ضيعته ووهبه بعض المال ليستعين على عمارتها . وأبو الفرج إنما ساق القصة ليدل على ما شاع عند معاصرى ابن الزيات من فصاحته وبلاغته ولسنه وقوة حجته .

---

(١) أغانى (ساسى) ٢٠/٥٥ .

خاتمة

تحدثتُ فى هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الأول عن الحياة السياسية وما اتصل بها من قيام الدولة العباسية وبناء بغداد وسامرّاء واتخاذهما حاضرتين متعاقبتين ، كما تحدثت عن غلبة الطوابع الإيرانية على نظم الحكم وما ارتبط بها من دواوين ووزراء وتقاليد مختلفة . وقد مضى العلويون يقاومون أبناء عمهم العباسيين سرًّا وجهراً ، بينما ضعف شأن الخوارج ضعفاً شديداً . ويُعَدّ أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقى لدولة بنى العباس ، ويخلفه المهدى فيقضى على ثورات الخرمية وترتعد فرائص البيزنطيين أمام جيوشه فى غير موقعة . ويعقبه ابنه الهادى لمدة قصيرة . ويتولى مقاليد الخلافة بعده أخوه هرون الرشيد ، وعصره يعد أزهى عصور الخلافة العباسية ، بما شاع فيه من رخاء ، وقد محقت جيوشه الخوارج محقاً وسحقت البيزنطيين سحقاً . ويخلفه ابنه الأمين لسنوات قصيرة ، ويتولى بعده المأمون ، ويقود حركة عقلية واسعة ينتصر فيها للمعتزلة وقولهم بأن القرآن مخلوق ، بينما يقضى قواده على كثير من الثورات ، ويقلم أظافر البيزنطيين مراراً ، ويخلفه أخوه المعتصم فيقضى على ثورة بابك الخرمى ، ويدق أعناق البيزنطيين دقًّا فى عمورية وغير عمورية ، ويعقبه ابنه الواثق ، وبه يُخْتَمُ العصر العباسى الأول .

وكانت بغداد وسامرّاء تحفل بالقصور الباذخة وتكتظ بالثراء ، وصبّت سيول منه فى حجور المغنين والشعراء والعلماء ، مما أعدّ لنهضة واسعة فى الفنون والآداب والعلوم ، وشاع الترف فى الملابس والمطاعم والمشارب كما شاعت أدوات مختلفة للترويح عن النفوس ، وكثر الرقيق والجوارى وشُغِفَ الناس بالغناء وبضروب مختلفة من الظَّرْف وتورط كثيرون فى الخمر والمجون . وكان انتصار العنصر الفارسى على العنصر العربى فى الثورة العباسية سبباً فى أن تبرز موجة حادة من الشعوبية ، ورافقتها موجة حادة من الزندقة ، جعلت المهدى ينصب ديواناً لتعقب الزنادقة ومحاكمتهم ، ويبعث العلماء للرد على بُهْتانهم . وتغنّى كثيرون بالزهد ورفض

الدنيا ومتاعها الزائل ، وتعالت أصوات الوعّاظ والقُصّاص وأخذت تظهر مقدمات التصوف .

وقد حدث امتزاج جنسى ولغوى وثقافى واسع بين الشعب العربى والشعوب المستعربة . إذ امتزجت به فى السكنى والتزاوج وفى الأخلاق والعادات ، واتخذت لغته لساناً لها تُتَرْجِمُ به عن ضميرها ومشاعرها وذات نفسها ، وسرعان ما استوعبت تلك اللغة الثقافات التى كانت مبثوثة فى هذا المحيط الجديد سواء أكانت هندية أم فارسية أم يونانية أم دينية خالصة . ونشطت الحركة العلمية نشاطاً واسعاً ، فشاع التعليم فى الكتاتيب والمساجد وكثُر العلماء فى كل فن ، وانتشر اقتناء الكتب والمكتبات الخاصة ، وتُرْجِمت علوم الأوائل إلى العربية من هندية وفارسية ويونانية ، وأنشأ الرشيد للترجمة داراً كبيرة هى دار الحكمة وألحق بها المأمون مرصداً فلكيًّا ضخماً . وأخذت تُوضَعُ منذ أوائل العصر العلومُ اللغوية : علوم النحو والتصريف والعروض ووُضِعَ أول معجم للعربية ، وهو معجم العين المشهور . ونمت المصنفات التاريخية . وصُنِّفت فى الحديث النبوى كتبٌ جامعة . وكثُرت المصنفات فى تفسير القرآن الكريم . ووُضعت مذاهب الفقه الأساسية : مذهب أبى حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعى ومذهب ابن حنبل . وأحكم المتكلمون أصولهم العقيدية وخاصة المعتزلة الذين تعمقوا فى المباحث الفلسفية .

وازدهر الشعر ، وحذق الشعراء الموالى لغته ، واستوعبوا مقوِّماتها وخصائصها نافذين إلى أسلوب مولَّد جديد ، اعتمدوا فيه على الألفاظ الواسطة بين لغة العامة المبتذلة ولغة البدو الجافية ، أسلوب يموج بالجزالة والرصانة حيناً ، وحيناً بالعذوبة والنعومة . واصطبغ شعرهم ومعانيه بحكم رقيهم الفكرى بطوابع عقلية دقيقة ، وقد مكن لها المعتزلة بمباحثهم العميقة وطرقهم فى الاستدلال وتوليدات المعانى وتفريعاتها المتشعبة . وظل الشعراء ينظمون فى موضوعات الشعر العربى القديمة متطورين بها قليلاً أو كثيراً ، وبذلك حافظوا على شخصيته الموروثة ، مع الوصل بينه وبين حياتهم الاجتماعية والعقلية والحضارية . وقد اضطرم المديح اضطراماً بما صوروا فيه من المثالية الخلقية والبطولات العربية والأحداث الكبيرة ، وبما أضافوا إلى عناصره البدوية القديمة من عناصر حياتهم الحضارية وملكاتهم العقلية . وتطور

الهجاء بما أشاعوا فيه من روح الاستخفاف والسخرية المريرة والفكاهة السامَّة . وتحولوا بالفخر القبلي إلى فخر شعوبي محتدم . واتسعوا بالرثاء . فرثوا المدن المنكوبة والحيوان والطير . وتفننوا في الغزل بنوعيه الإباحي والعفيف . وتبذلوا في شعر المجون والخمر . ونظموا كثيراً في الزهد . ونفذوا إلى موضوعات جديدة ، إذ أفردوا قصائد لتصوير بعض المثل الخلقية أو تصوير الرياض ومظاهر الحضارة العباسية أو بكاء البصر والتفجع على فقده أو وصف بعض الغرائز كغريزة الغَيْرة أو وصف حياة الشظف والبؤس والمسغبة أو نظم بعض الفكاهات والنوادر . واستحدثوا فن الشعر التعليمي ونظموا فيه كثيراً من التاريخ والقصص والمعارف والنحل المختلفة . وأكثروا من النظم على الأوزان القصيرة والمجزوءة ونفذوا إلى اكتشاف أوزان المضارع والمقتضب والمتدارك أو الخبب ، وإلى أوزان أخرى لم يستخدمها العرب قبلهم ، غير أنه لم يكتب لها الشيوع لنقص أنغامها بالقياس إلى الأوزان الموروثة . وعرفوا وزناً شعبياً هو وزن المواليا . وجددوا تجديداً واسعاً في القوافي ونمط القصيدة ، فاستحدثوا المزدوجات والرباعيات والمسمطات . ونظموا صورة تُعَدّ أمًّا للموشحات مما يدل على أنها ترجع إلى أصول عباسية .

وأعلامُ الشعراء في العصر بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام ، فأما بشار فكان فارسي الأب رومي الأم ، وكان أكمه ، ووُلد على الرِّقّ ، ونشأ في البصرة نشأة عربية خالصة ، فحذق اللغة وبرع في الشعر ، وكان يجالس المتكلمين وأصحاب المقالات الدينية ، فاضطرب بين هذه المقالات وصار إلى الشك ثم إلى الزندقة ، واستظهر شعوبية آثمة . وهو يُعَدُّ زعيم الشعراء المحدثين بما رسم لهم من التمسك بأصول الشعر التقليدية والملاءمة بينها وبين العصر ومجتمعه وحضارته وثقافته . وقد أكثر من الفخر الشعوبي الذميم، وأثَّر فَقْده لبصره واضحٌ في غزله فهو في أكثره غزل حسي يصدر فيه عن الغريزة النوعية صدوراً يُزْرِي بمروءة الرجل الحر الكريم مما جعل الوعاظ يذمونه ذمًّا شديداً . وأكثر أيضاً من وصف مجالس الخمر والغناء دون رادع من خلق أو دين إذ كان زنديقاً وقُتل على الزندقة . وكان أبو نواس فارسي الأب والأم ، ونشأ مثل بشار في البصرة ، وتحول عنها إلى الكوفة مع شيطان كبير نفث فيه من غيِّه ومجونه

وإثمه هو والبة ، ورحل إلى البادية يتزود من ينابيع اللغة الأصيلة وعاد إلى البصرة ولزم مجالس اللغويين والمتكلمين والقصّاص والمحدّثين وعبّ من الثقافات الأجنبية عبًّا . ونزل بغداد وامتدح الرشيد والبرامكة ، ورحل إلى مصر وعاد إلى بغداد فاتصل بالأمين . وشعره يجرى فى اتجاهين : اتجاه تقليدى فى المديح والرثاء واتجاه تجديدى فى الهجاء والغزل والمجون والطَّرْديات ، وهو أكثر شعراء عصره مجوناً وإفحاشاً فيه . ومع إكثاره من الجهر بالفسق والمعصية يردد اعتماده على عفو الله ومغفرته ، وهو — غير منازَع — شاعر الخمرية على توالى العصور العربية بما ابتكر فى صورها ومعانيها وما أشاع فيها من حيوية دافقة . أما أبو العتاهية فكان نبطيًّا ونشأ بالكوفة لأب يشتغل بالحجامة ، وكان سيئ السيرة فى صباه إذ انتظم فى سلك المخنّثين ، وعمل مع أخ له فى بيع الجرار وصنعها ، واختلف إلى بيئات الرواة واللغويين والعلماء والمتكلمين ، ولم يلبث أن أتقن العربية وبرع فى الشعر فرحل إلى بغداد ومدح المهدى وتعلق بجارية من جوارى قصره تسمى عُتْبة ونظم فيها غزلا كثيراً ، ومدح ابنيه الهادى والرشيد ، ويقبل على الخمر والمجون مفرطاً فيهما . ويحدث انقلاب فى حياته ، فيتزهد ويلبس الصوف ، ويظل متصلا بالخلفاء والحسن بن سهل وزير المأمون حتى يبرح دنياه . وأشعاره تمثل حياته وما حدث بها من انقلاب فهو فى جانب منها يمدح ويتغزل ويصف الخمر ، وفى جانب يتزهد وينثر الحكم مع التفنن فى المراثى ، وتشيع فى أساليبه سهولة وليونة مفرطة . وكان يعاصره مسلم بن الوليد ، وهو أيضًا ينتظم فى عداد الموالى ، وقد نشأ بالكوفة ثم انتقل إلى البصرة ، وأكبّ على الشعر القديم وشعر بشار خاصة ، حتى إذا لمع اسمه بين الشعراء المجيدين رحل إلى بغداد فمدح الرشيد وقواد الدولة ووزراءها وعمّالها وولاّه بأخرة الفضل بن سهل وزير المأمون بريدَ جرجان فظلّ بها حتى وفاته. واشتهر بتجويده لشعره والتدقيق فى معانيه والعناية برصانة اللفظ وجزالته ونصاعته والإكثار من ألوان البديع . وأبو تمام الطائى خاتمة هؤلاء الأعلام ، وقد ولد بجاسم ، وهى قرية من قرى دمشق ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فرحل إلى حمص ، ثم إلى الفسطاط ، وعاد إلى الشام وتردّد بينها وبين الرّقة والموصل ، ثم هبط بغداد ، ورحل عنها إلى خراسان ، ثم عاد إليها ، وتحوّل عنها مع المعتصم إلى « سُرَّ من رأى » ولزم بابه وأبواب وزرائه وكبار رجال الدولة ، وظل وثيق الصلة بابنه

الواثق ووزيره ابن الزيات وكاتبه الحسن بن وهب ، وولاّه الأخير بريد الموصل وسرعان ما وافته منيته . وشعره يفيض بثقافات عصره العربية والأجنبية وخاصة الثقافة الفلسفية والكلامية ، واشتهر بأنه صاحب مذهب جديد ، يقوم على التدقيق فى المعانى والأخيلة والتعمق فيها تعمقاً قد يفضى إلى الغموض ، كما يقوم على استخدام ألوان البديع ، حتى لا يكاد يخلو منها بيت من أبياته ، بل حتى لتتوهج فيها توهجاً .

وكثر حينئذ شعراء السياسة والمديح والهجاء ، فكان هناك شعراء الدعوة العباسية الذين ينافحون عن العباسيين زاعمين أنهم أصحاب الخلافة الشرعيون ، ومن أشهرهم أبو دلامة نديم السفاح وغيره من الخلفاء ، ومروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر اللذان وجها شعرهما نحو الدفاع عن حق العباسيين فى الخلافة وإنكار حق العلويين فيها والرد عليهم ردًّا عنيفاً . وكان شعراء الشيعة يدافعون بدورهم عن حق العلويين فى الخلافة ، يجهرون بذلك كلما سنحت لهم الفرصة ويُخفونه كلما أشفقوا على أنفسهم من العباسيين ، ومن أشهرهم السيد الحميرى وكان كيسانى العقيدة لا يرى بأساً فى مديح الخلفاء العباسيين ، كما كان لا يخفى حبه للعلويين ،وأكثرَ من تغنيه بمناقب على بن أبى طالب وذَمِّ قاتلى الحسين وثَلْبهم. ومِثْلُه منصور النمرى الشيعى الإمامى ، وكان يمدح العباسيين ويأخذ جوائزهم ويتفجع على قتلى آل البيت وحقوقهم المهدرة فى الخلافة . ومثلهما دعبل ، وكان يعلن تشيعه إعلاناً صريحاً ، وتشكك أبو العلاء المعرى فى صدقه وقال إنه كان يريد التكسب بإعلان تشيعه . وكان ديك الجن مخلصاً فى تشيعه ، غير أن ما أثر من شعره الشيعى قليل . وكان البرامكة بحوراً فياضة ، فنظم الشعراء فيهم كثيراً من المدائح ، وفى مقدمتهم أبان بن عبد الحميد اللاحقى مترجم كليلة ودمنة شعراً ، وأشجع بن عمرو السُّلَمى ، وله قصائد طنانة فيهم وفى انتصارات الرشيد على نقفور إمبراطور بيزنطة . وكان كثير من الوزراء والقواد والولاة يجزلون العطاء للشعراء ، فدبَّجوا مدائح كثيرة فيهم ، على نحو ما يلقانا عند أبى الشيص شاعر عقبة بن جعفر الخزاعى والى الرَّقَّة بالموصل ، وعبد الله بن أيوب التَّيْمى شاعر يزيد بن مزيد قائد الرشيد ، وعلى بن جبلة شاعر أبى دلف العجْلى قائد

المأمون ، والخريمى شاعر عثمان بن خُرَيْم المُرِّىّ والى أرمينية . وبرع فى الهجاء شعراء كثيرون من أمثال أبى عيينة المهلبى وكان يُكثر فى هجائه من الإقذاع الشديد ، وعلى شاكلته عبد الصمد بن المعذَّل وكان هجّاءً شكساً حديد اللسان .

وتكاثر شعراء الغزل بنوعيه النقى العفيف والمادى الصريح ، وكان النوع الثانى أكثر شيوعاً لكثرة الجوارى والإماء ، وخير مَنْ يصور النوعَ الأول العباس بن الأحنف الذى عاش يتغنى بالغزل العذرى الطاهر . أما النوع الثانى فخير من يصوره ربيعة الرَّقى وغزله يسيل عذوبة . وكان شعراء المجون والزندقة كثيرين كثرة مفرطة لما شاع من فساد الأخلاق وكثرة النحل والمقالات والمذاهب الدينية والفلسفية ومن أشهرهم حماد عجرد ، وكان يخالط مجونه بزندقة أُشْربتها روحه . ومنهم مطيع ابن إياس وهو من أكثر الشعراء مجاهرة بالفسق والعصيان . ومنهم صالح بن عبد القدوس ولم يكن ماجناً ، ولكنه كان زنديقاً كبيراً ، إذ كان يعتنق عقيدة الثنوية المانوية مجاهراً بها ، ومجادلا مناظراً إلى أن أمر الرشيد بضرب عنقه ، وجمهور شعره أمثال وحكم . وكان غير شاعر يأخذ نفسه بحياة زاهدة ناسكة على نحو ما نجد عند عبد الله بن المبارك ودعوته إلى الجهاد فى سبيل الله وإلى التقوى واجتناب الآثام ، وعند محمد بن كناسة الكوفى وتغنيه طويلا برفض الدنيا ومتاعها الزائل ، وعند محمود الوراق ودعوته إلى طاعة الله والرضا بقضائه والتوكل عليه والقناعة بكفاف العيش مع التفكير الدائم فى الموت والفناء . وشارك المعتزلة فى الشعر وفنونه ، وكان منهم من ينظم فى نفس الأغراض التى ينظم فيها الشعراء من حوله مثل العتَّابى الذى يروع قارئه بمعانيه الطريفة ، ومثل النظَّام الذى يصبغ أشعاره فى الغزل وغير الغزل بصبغة كلامية واضحة . ومنهم من كان ينظم فى حوار أهل الملل والنحل مثل بشر بن المعتمر وكان يكثر من الحديث عن عجائب الله فى خلقه . وصوَّر نفر من الشعراء فى أشعارهم النزعات الشعبية صادرين عن روح العامة وأحاسيسها ، وخير من يمثلهم أبو الشمقمق وكان يستخدم فى شعره أحياناً ألفاظ العامة ، مجسماً فقره وبؤسه ومسغبته وأسماله البالية ، وكثيراً ما يعرض ذلك فى صورة فكهة .

وتطور النثر فى هذا العصر وتنوَّع وكثرت فنونه بما ملأ أوانيه اللفظية من

الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وما استوعبه من صنوف العلوم وذخائر الفلسفة ، وقد انبرى المتكلمون معتزلة وغير معتزلة يبحثون فى الأسس التى تقوم عليها براعة القول وبلاغته : واقتبسوا كثيراً مما سجلته الأمم القديمة من أصول البيان . وعُنى كتّاب الدواوين هم الآخرون بفصاحة الكلام وبلاغة القول ، مما جعلهم يتحولون بدواوينهم إلى ما يشبه مدارس بيانية كبيرة . وحقًّا ضعف شأن الخطابة السياسية والحفلية ، غير أن الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ووعّاظ وقَصص وقُصّاص ازدهرت ازدهاراً عظيماً ، كما ازدهرت المناظرات وخاصة فى بيئة المعتزلة إذ كانوا يكثرون من حوار زعماء الفرق والنّحَل فى المساجد ومجالس البرامكة ومجالس المأمون ، مثيرين ما لا يُحْصَى من دقائق المعانى وخفيات الأدلة ، وبلغ من إتقانهم للجدل وقدرتهم على الإقناع وإفحام الخصوم أن نفذوا كثيراً — بقصد إظهار المهارة الجدلية — إلى تقبيح الأشياء المستحسنة وتحسين الأشياء المستقبحة ، مما هيأ لظهور كتب المحاسن والمساوى . واتسع نقل الآداب الفارسية وكل ما اتصل بها من عهود ملوك الفرس ووزرائهم ورسائلهم إلى العمال ووصاياهم وتوقيعاتهم ، وكان لذلك أثر بعيد فيما كان يصدر عن الخلفاء والوزراء ويدبّجه الكتاب من رسائل وعهود ووصايا وتوقيعات . وكان الكتّاب يحرصون فى هذا النثر الديوانى الرسمى على بلاغة القول والتفنن فى الأفكار والمعانى ، ويلقانا فى عصر كل خليفة كُتّاب ذاع صيتهم وطارت شهرتهم كل مطار . وازدهرت حينئذ الرسائل الإخوانية ، إذ تناول كثير من الكتاب الأغراض التى كان ينظم فيها الشعراء من ثناء وشكر وهجاء وذم وعتاب واعتذار واستعطاف وتهنئة وتعزية ، وأخذوا يحبّرون فيها رسائل شخصية مفتنّين فى أساليبها البيانية وما يصوّرون بها من عواطفهم وأهوائهم . ونفذ نفر منهم إلى كتابة رسائل أدبية طريفة تتناول النفس الإنسانية وعواطفها وسلوكها وحياتها العاملة وما يهديها سبيل الرشاد . وأخذ بعض الكتّاب البارعين يحاكون ما نقله ابن المقفع وغيره إلى العربية من القصص الحيوانى والرسائل السياسية الفارسية .

وأعلام الكتاب فى العصر ابن المقفع وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وابن الزيات . أما ابن المقفع فكان فارسى الأصل ونشأ بالبصرة

فى ولاء آل الأهتم ، وهم بيت فصاحة وخطابة ، فحذق العربية ، وعمل فى دواوين العراق آخر زمن بنى أمية ، ثم فى دواوين سليمان بن على وعيسى بن على عمى المنصور ، وكان لا يزال مجوسياً فأسلم على يد الأخير . وأغرى به المنصور سفيان بن معاوية والى البصرة ، فقتله . وقد اشتهر بترجمته عن لغته بعض كتب الأدب الفارسى وكتاب كليلة ودمنة الهندى الأصل وبعض منطق أرسططاليس . وكان آية فى البلاغة وحسن الأداء وفصاحته . على نحو ما يتضح فى الأدب الصغير والأدب الكبير وكتاب اليتيمة ورسالة الصحابة ؛ وهى جميعاً تفيض بالوصايا السياسية والاجتماعية والخلقية . وتُعَدُّ ترجمته لكليلة ودمنة من روائعه الفذة . وله رسائل إخوانية وأدبية بديعة . وكان سهل بن هرون مثله فارسى الأصل ، وعكف على الآداب الأجنبية ، وشارك فى الترجمة عن لغته الأصلية ، ويقال إنه كانت فيه نزعة شعوبية ، وكان فيه ميل إلى التندر ، ووظفه الرشيد بخزانة الحكمة التى أنشأها ، وقربه المأمون وجعله خازناً لبعض أقسامها . وكان من أفراد عصره فى البلاغة والبيان وصحة المنطق ، وعُنى بتأليف قصص حيوانى على شاكلة كليلة ودمنة ، وهو يملؤه بالتربية السياسية والاجتماعية والحكم والأمثال على شاكلة كتابه « النمر والثعلب » . ومن رسائله الأدبية الطريفة رسالته فى الاحتجاج للبخل . ورسالته الأخرى فى نصرة الزجاج على الذهب . وله رسائل شخصية بديعة . ومن أهم ما يميزه عنايته بدقة معانيه وتوفير الازدواج والجمال الصوتى لألفاظه وأساليبه . أما أحمد بن يوسف فكان من بيت كتابة ، إذ كان أبوه يوسف بن صبيح ممن ذاع صيتهم فى دواوين القرن الثانى ، وقد عُنى بتأديب ابنه وإعداده للعمل فى الدواوين . وسرعان ما استخلصه الفضل بن سهل للمأمون ، فجعله على ديوان الرسائل ، ثم اختاره وزيراً له ، وظل على وزارته حتى توفى . وكان واحد زمانه فى الكتابة الديوانية ، ومن أروع رسائله السياسية رسالة الخميس التى كتبها فى تأييد الدعوة العباسية ، وثقافته الكلامية واضحة فى تحميدها إذ تحول به إلى ما يشبه مبحثاً كلامياً فى الدلالة على وجود الله ووحدانيته وحدوث الخلق وفناء العالم . وله رسائل شخصية يتضح فيها ما يتضح فى رسائله الديوانية من تأنق التعبير . حتى ليمكن أن يقال إنه هو الذى أعد فى قوة لأن يشيع فى النثر الديوانى الرسمى أسلوبُ الازدواج والترادف الصوتى وما يجرى فيه أحياناً من السجع . وكان عمرو بن مسعدة مثله من بيت كتابة ،

إذ كان أبوه مسعدة يلي ديوان الرسائل للمنصور ، وقد أحكم تأديبه وتثقيفه ، وتلقفه جعفر بن يحيى البرمكي ، فاتخذه كاتباً للتوقيع بين يديه ، وغرس فيه شغَفَه بالإيجاز والتأنق في التعبير، حتى أصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من جوهر نفسه . والتحق بدواوين المأمون ، حتى إذا رفع أحمد بن يوسف إلى الوزارة أقامه مقامه على ديوان الرسائل وظل يليه إلى وفاته . وتتميز كتابته الديوانية بالاقتصاد المسرف حتى كان يُضْرَبُ به المثل في الإيجاز ، وهو يضيف إليه ميلا شديداً إلى التأنق والتنميق . وكان ابن الزيات من بيت تجارة ، غير أنه نشأ محبًّا للأدب ، فأقبل على التزود بعلوم اللغة وكنوز الآداب الأجنبية والعربية ، حتى برع في الشعر والكتابة جميعاً ، وسرعان ما التحق بدواوين المأمون ، وما زال نجمه في صعود ، حتى استوزره المعتصم ، وظل وزيراً في عهد ابنيه الواثق والمتوكل إلى أن نكبه الأخير نكبته المشهورة . وكان لسناً بليغاً ولم يكن يصدر في بلاغته ولسنه عن تكلف ، وإنما كان يصدر عن طبع مهذب دون قصد إلى التأنق المسرف أو التنميق المفرط ، وكان يحرص دائماً على فصاحة اللفظ وحسن الأداء مع الجزالة والنَّصَاعة .

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

فى الدراسات القرآنية

● سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة
الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات

فى تاريخ الأدب العربى

● العصر الجاهلى
الطبعه الثانية عسرة ٤٣٦ صفحة

● العصر الإسلامى
الطبعة الحادية عسرة ٤٦١ صفحة

● العصر العباسى الأول
الطبعة العاشرة ٥٧٦ صفحة

● العصر العباسى الثانى
الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحه

● عصر الدول والإمارات
الجزيره العربية–العراق–إيران
الطبعة الثالة ٦٨٨ صفحة

● عصر الدول والإمارات
الشام
الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة

● عصر الدول والإمارات
مصر
الطبعة الثانية ٥٠٠ صفحة

● عصر الدول والإمارات
الأندلس
الطبعه الأولى ٥٥٢ صفحة

فى مكتبة الدراسات الأدبية

● الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
الطبعة الحاديه عسرة ٥٢٤ صفحة

● الفن ومذاهبه فى النثر العربى
الطبعة الحادية عشرة ٤٠٠ صفحة

● التطور والتجديد فى الشعر الأموى
الطبعة الثامنة ٣٤٠ صفحة

● دراسات فى الشعر العربى المعاصر
الطبعة الثامنة ٢٩٢ صفحة

● شوقى شاعر العصر الحديث
الطبعة الثانية عشرة ٢٨٦ صفحة

● الأدب العربى المعاصر فى مصر
الطبعة التاسعة ٣٠٨ صفحات

● البارودى رائد الشعر الحديث
الطبعة الخامسة ٢٣٢ صفحة

● الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية
الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة

● البحث الأدبى:
طبيعته– مناهجه–أصوله–مصادره
الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة

● الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

● فى التراث والشعر واللغة
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة

فى الدراسات النقدية

● فى النقد الأدبى
الطبعة السابعة ٢٥٠ صفحة

● فصول فى الشعر ونقده
الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

● البلاغة: تطور وتاريخ
الطبعة الثامنة ٣٨٠ صفحه

● المدارس النحوية
الطبعة السادسة ٣٧٦ صفحة

● تجديد النحو

الطبعة الثالثة ٢٨٢ صفحة

● تيسير النحو التعليمى قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده

الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحات

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

● ابن زيدون

الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربى

● الرثاء

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

● المقامة

الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحات

● النقد

الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة

● الترجمة الشخصية

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

● الرحلات

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

فى التراث المحقق

● المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد

الجزء الأول – الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثانى – الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة

● كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة

● كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة

● الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر

الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة

فى سلسلة «اقرأ»

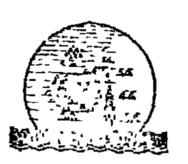
● العقاد — الطبعة الخامسة

● البطولة فى الشعر العربى — الطبعة الثانية

● معى (١) — الطبعة الثانية

● معى (٢) — الطبعة الأولى

● الفكاهة فى مصر — الطبعة الثانية



الهيئة العامة لقصور الثقافة

رقم الإيداع	١٩٩٠/٤١٥٥
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-2959-8

١/٩٠/٧٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)





هـذا الكتاب

يحيط هذا الكتاب بالحياة العباسية التى فرضت نفسها على الأدباء العباسيين فرضًا . سواء الحياة السياسية وما كان يجرى فيها من نظم وأحداث مختلفة ، أو الحياة الاجتماعية ، وما كان يشيع فيها من تحضر وترف وشغف بالغناء وإغراق فى المجون والزهد ، أو الحياة العقلية ، وما التحم بها من ترجمة الثقافات الأجنبية ونشاط الحركة العلمية ونقل علوم الشعوب المستعربة ، ووضع العلوم اللغوية والتاريخ والعلوم الكلامية والدينية .

وقد بسط المؤلف القول فى ازدهار الشعر العربى فى ذلك العصر ، ودرس دراسةً تاريخية نقدية لأعلام الشعر ودور كل منهم فى تطور هذا الفن ، ثم درس النثر وما حدث فيه من تطور ، كما عنى برسم شخصيات أعلام الكتاب وآثارهم الأدبية . . فجاء هذا الكتاب متممًا لما سبقه من دراسات فى هذا المجال محيطًا بكل أساليب الحياة والتعبير فى العصر العباسى الأول . .